

معاني الحروف الثنائية والثلاثية
بين
القرآن الكريم ودواوين شعراء المعلقات السبع

أُطروحة تقدم بها

رزاق عبد الأمير مهدي الطيَّار

إلى مجلس كلية التربية الأولى (ابن رشد) في جامعة بغداد

وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة في اللغة العربيَّة وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور

نعمة رحيم العزاوي

صَفَرْ
١٤٢٦هـ

آذار
٢٠٠٥م

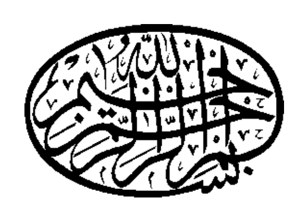


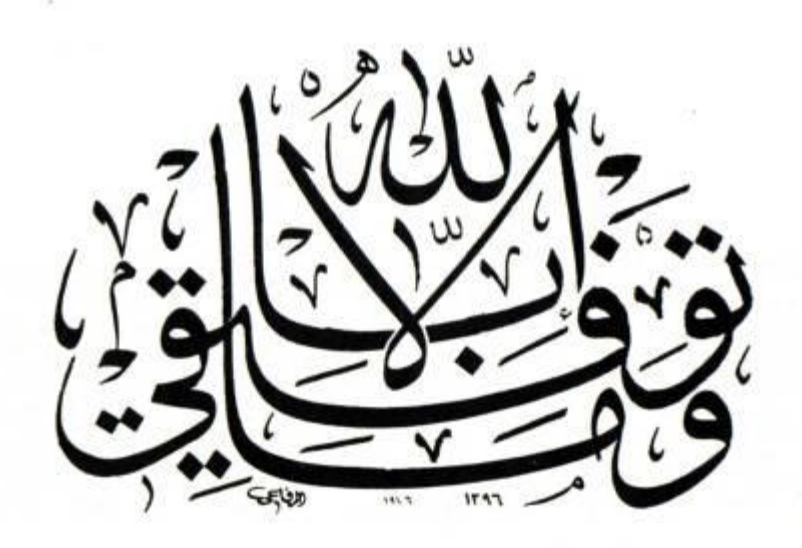
الإهداء

إلى أبوي هذه الأمَّة:

محمد بن عبد الله 9...وعلي بن أبي طالبX

أرجو أن أكون من السائرين في دربكم طلبا للحقيقة . وأن يكون جهدي هذا الذي أضعه بتواضع بين أيديكما مقبولا عندكما...وإن كان يسيرا .





صدق الله العظيم

(هود من الآية :٨٨)

المحتويات

Q

المقدمة :

O ، و الصلاة والسلام على نبيه المبعوث رحمة للعالمين ،Y الأمين ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الميامين المنتجبين . وبعدُ . .

فمازال الدرس القرآني بأبعاده المتعددة نبعا صافيا للدراسات اللغوية العربية عموما والنحوية خصوصا . ولم تبتعد الدراسات الأدبيَّة والبلاغيَّة العربيَّة والإسلاميَّة عن ساحة الدرس القرآني كثيرا ؛ إذ هي في الأعمِّ الأغلب تسير في مضماره ، ولا تنفك تمتُّ إليه .

وكانت لغة القرآن الكريم الرافد الرئيس لعلماء النحو حينما تتبعوا معاني (حروف المعاني) فاستخلصوا من القرآن لكلِّ حرفٍ معانيه ، وسجَّلوها لنا في كتبهم النحويَّة العامة أو فيما صنَّفوه مخصصا لتلك الحروف فحفظت . وكان جلُّ اعتمادهم في شواهدهم لتلك المعاني على القرآن الكريم ، حتَّى ظنَّ بعض الباحثين أن لولا القرآن ودراساته لم يكن ذكرٌ لتلك المعاني في كتب النحو واللغة[١]، ولم تتفتق تلك الطاقات الإبداعيَّة في لغة العرب .

هذه هي نقطة البداية لهذه الدراسة ، فقد تنبهنا ، ونحن ندرس ضمن الفصول التحضيريَّة لدرجة الدكتوراه (أثر القرآن الكريم في الدراسات النحوية واللغوية) إلى أنَّ هنالك مقدارا من التغيُّر أحدثه القرآن في اللغة العربية عموما ، وفي استعمال (حروف المعاني) على نحو الخصوص ، فكانت الأسئلة المطروح : ما حجم هذا التغيُّر؟ وما مقداره؟ وأين موارده ؟ وهل هو تطوُّر في اللغة ؟ وكيف؟ بقيت هذه الأسئلة تشكل هاجسا ملحا يطلب الإجابة ، ويستحق البحث والعناء ، وناقشت الأمر ملياً مع أستاذي المشرف ، فأرشدني وحثني على متابعة الموضوع ، والقراءة فيه ، وبعد مدَّة قررنا العمل ، وارتأينا أنَّنا إذا أردنا تَعرُّف على حجم التغيير والتطوير القرآني لاستعمال (معاني الحروف) لابدَّ لنا من أنْ نقيس الاستعمال القرآني لحروف المعاني بما كان مستعملا منها في لغة العرب قُبَيْلَ نزوله . ولمَّا كان القرآن الكريم نصَّا فصيحا بليغا ، بل هو قمَّة الفصاحة العربية وبلاغتها ، كان لزاما علينا أن نوازنه بنصٍّ بليغ فصيح .

١ - ظ : أثر القرآن والقراءات في النحو العربي : ٢٠٦ .

لم يصل إلينا عن العرب من الخطابة البليغة أيام نزول القرآن مقدارٌ يسمح لنا بعقد مثل هذه الموازنة ، فالنصوص النثريَّة البليغة قليلة ، فلم يكن أمامنا إلاَّ الشعر، وهو نصٌّ بليغٌ ، وكان يومها يمثِّلُ قيمة عليا في لغة العرب وممارساتهم الثقافيَّة . وبغية الوصول إلى نتائج دقيقة ومنضبطة اخترت بمشورة أستاذي المشرف شعرا فصيحا عالي الجودة ، وأعني به شعر المعلقات التي كانت تلقى في المواسم ، فيفهمها العرب على اختلاف قبائلهم المتعددة ، فهو يمثل الصفوة من أشعارهم وكلامهم ، مبتعدين فيه عن اللهجات المحليَّة والخصائص القبليَّة . لكنَّ المعلقات وحدها كانت قليلة ، فقررنا أن نعقد الموازنة بين لغة القرآن الكريم ، ولغة دواوين أصحاب المعلقات ، ليكون حجم الدواوين مقاربا لحجم النص القرآني الكريم ، ولمَّا كان عدد المعلقات مختلفا فيه اخترت دواوين أصحاب المعلقات السبع برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ(ت٣٢٨هـ) ورواية الزوزنيّ(ت٤٨٦هـ) وهم:(امرؤ القيس وطرفة بن العبد والحارث وعمرو بن كلثوم وعنترة وزهير ولبيد). بهذا اكتملت بين أيدينا مادَّة الدراسة ، فأصبحت (القرآن الكريم) من جهة و (دواوين أصحاب المعلقات السبع) من جهة أخرى .

أمَّا موضوع التقصي والبحث فقد اخترت بعد مشورة أستاذي أن تكون الحروف الثنائيَّة والثلاثيَّة ، وأبعدت الأحاديَّة والرباعيَّة وغيرها ؛ وذلك لأنَّ دراسة الحروف كلها لا يسعه وقت الدراسة ولا ظروفها ، أمَّا اختياري الثنائيَّة والثلاثيَّة دون غيرها ؛ فلأنها أكثر الحروف استعمالا ، وفيها مادَّةٌ خصبةٌ للبحث والدراسة ، وتناسب أعدادها .

وبهذا حدِّدَ عنوان الأطروحة ليكون : { معاني الحروف الثنائية والثلاثية بين القرآن الكريم ودواوين شعراء المعلقات السبع } . ومشكلة البحث الأولى التي يسعى لاستكشافها وتحليلها هي تحديد مقدار التغيير والتطوير القرآني في استعمال حروف المعاني ، وبعدها فقد جَدَّت مشكلةٌ حريَّة بالنظر والاهتمام ، تلك هي: كيف ننظر إلى معنى الحرف؟ وكيف نعالج تعدد المعنى للحرف الواحد؟ وكان لابدَّ لي من تحديد الأسس التي أسير عليها في النظر إلى معاني الحرف حتى أتمكن من بحث مسألة التغيُّر والتطوُّر.

وتبعا لهذا بنيت الرسالة على ثلاثة فصول ، كان الفصل الأول منها تنظيريا بعنوان (الحرف ماهيته ومكانته في اللغة والاستعمال) . عرضت فيه مسائل شكلت أسسا للفصول التالية وكان ذلك في أربعة مباحث ، عنوان الأول منها:(معنى الحرف وموقعه.) والثاني بعنوان: (أثر المستويات الكلاميَّة في استعمال المفردات) تناول اختلاف المستويات الكلامية ، وكيفية تأثيرها في معنى المفردة ونظرة علماء النحو القدماء للمعنى في ضوء اختلاف المستويات ، وعرضت في الثالث منها لنظريتا (التناوب) و(التضمين)، وآراء النحاة في تعدد معاني الحروف بناءا على هاتين النظريتين ، ومن خلال البحث والتتبع تبيَّن لي أنَّ هنالك نظريَّة جديدة يمكن تطبيقها ، والنظر إلى المعاني المتعددة للحرف الواحد في ضوئها ، وكان هذا ما تناوله الفصل الثاني مفصَّلا وكان عنوانه : (الدلالة المركزية للحرف والدلالات الهامشية) فقدمت فيه فرضية الفصل وتمت مناقشتها وتطبيقها على اثني عشر حرفا ثنائيا في المبحث الأول ، وخمسة أحرف ثلاثيَّة في المبحث الثاني لأتمكن في نهاية الفصل وبعد طول النقاش والعرض من تثبيتها نظرية قابلة للتطبيق على معاني الحروف ، مبينا إمكانية توظيف هذه النظرية في خدمة النص الأدبي ، وصلاحيتها لمعالجة النصوص البلاغيَّة بصورة أمثل لتحفظ لنا قيمة النص البلاغيَّة والفنيَّة ، وتكون بديلا طبيعيا للنظريتين السابقتين .

في الفصل الثالث وعنوانه (أثرُ السِّياق القُرآني في معاني الحروف) تتبعت استعمال معاني الحروف المركزية والهامشية وسعة كلِّ استعمال في القران الكريم ودواوين أصحاب المعلقات ، لأتمكن بعدها من التحديد الدقيق لمكامن التغيير والتطوير في استعمال تلك الحروف مسجلا ذلك بالأرقام والإحصاءات الدقيقة ، وكان ذلك في مبحثين عني الأول منهما بدراسة (ما طوره القران من معاني الحروف) ودرست فيه المعاني المركزية والهامشية المستعملة في الدواوين وفي القران وحددت فيه كيف تغير الاستعمال في القران وكيف طوره ، معللا ذلك بما ينسجم وروح اللغة العربية ، ورصدت هنا أيضاً استعمال كل من الشعراء لهذه الحروف ، ومَنْ المتميزُ مِن أقرانه في استعمالها معللا ذلك تعليلا لغويا نفسيا يتفق مع طبيعة اللغة وما عرف من حياة الشاعر وسيرته ، وموازنا ذلك كله بالاستعمال القرآني للحرف . أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد تخصص بتتبع (ما تفرَّدَ به القرانُ الكريمُ من معاني الحروف) ورصدت فيه عددا من المعاني المركزية وآخر من المعاني الهامشية تفرَّد بها القران الكريم .

ختمت فصول الدراسة بملحق بيانيٍّ يوضِّحُ بعضَ الأمور الإحصائية التي تعدُّ من مكملات البحث وثماره التي فرزها ، وهي تتعلق بمعاني الحروف وسعتها وأيّ النوعين الثنائية أو الثلاثية أكثر استعمالا في اللغة عموما ، وأيّ الحروف أكثر استعمالا في النصين ، وأيّ الشعراء أكثر استعمالا لكل حرف ، وما إلى ذلك من بيانات ، وآثرت أن أجعله ملحقا بعد الفصول لئلا تطول به الفصول ، وخشية عدم انضمامه تحت عنوان كل من الفصلين وعدم انطباقهما عليه ، فيبدو نافرا أو ناشزا . وبعد هذا سجلت في خاتمة الدراسة أهم النتائج التي حققتها وأبرزها .

خلت الدراسة من تمهيد ، وهذا مقصودٌ ، فقد تتبعت ما يمكن أن يكون مدخلا لحروف المعاني فوجدت من سبقني قد كفاني المؤونة ، وتناول عدد من الباحثين تاريخ الدراسات المعنيَّة بهذه الحروف ، وأشبعوها درسا وتصنيفا من جهات عديدة[١]، ولم أجد بالبحث حاجة لتكرار ما قيل وإعادة ما قرر .

تشرفت الدراسة وصاحبها بأنْ كانَ مصدرَها الأول كتابُ الله المقدَّس (القرآن الكريم) ، ومن بعده قائمة واسعة من كتب التفسير حوت أمات التفاسير وأصوله المعتمد عليها ، ولم تستغن الدراسة عن متابعة التفاسير المحدثة والمعاصرة ، محاولة الإفادة من كل ما يقع في إطارها عسى أن تجد فيه ما يدعمها ويحقق فرضياتها ، وبعدها كان لكتب النحو واللغة ابتداءً بكتاب سيبويه ومعجم العين وانتهاء بالكتب المعاصرة لأساتذة النحو واللغة في الجامعات العربيَّة و العالميَّة عربا وأجانب ، أثرها الكبير في تقرير مسائل البحث ، وشكلت دواوين الشعراء وشروح الدواوين الجزء الثاني من الأطروحة ، فكانت تسعى وراء شروح الأشعار في كتب الأدب وأصولها الرصينة ، ولم تستثن كتابا يمكن الوصول إليه إلاَّ ونهلت منه . بنيت الدراسة على قاعدة عريضة جدا من المصادر القديمة والمراجع الحديثة مما سمح لها بالوصول إلى نتائج طيِّبة ، وأرجو أن تكون مرضيَّة .

وأفادت الدراسة من الوسائل العلمية والتكنولوجيَّة المتاحة أمامها بشكل واسع وكبير فقد اعتمدت على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنيت) في متابعة آخر البحوث

---

١ - لعلَّ أهم هذه الدراسات: (كتب حروف المعاني حتى القرن الثامن الهجري ، دراسة منهجيَّة)رسالة ماجستير: ٥-١٥٠، نشأة دراسة حروف المعاني: ٥- ٨٩ ، تناوب حروف الجر في لغة القرآن: ٥-٨٠ ، (ما) في العربية :١-١٥ ، حروف المعاني في معجم لسان العرب :٧-٣٦ ، التضمين بين حروف الجر:١-٢٦ .

والدراسات والكتب المنشورة على صفحات الشبكة ومواقعها المختلفة فاستثمرتها ما أمكنها ذلك ، محاولة أن تلحق بركب العلم المعاصر ، وأفادت الدراسة أيضاً من عدد غير قليل من المكتبات الإلكترونيَّة والبرمجيات الحديثة في المتابعة والبحث والإحصاء للبيانات التي اعتمدت عليها ، وكان مجموع الكتب التي حوتها هذا المكتبات الإلكترونيَّة أكثر من أربعة آلاف كتاب من أهم الكتب والمصادر الرصينة في التراث العربي .

ولا يخفى على أحد ما مرَّ بنا من ظروف قاهرة ، كان أحلاها مرّاً ، وليست بنا حاجة لذكر تفاصيلها ، وأقلُّ نتائجها فقدان الكتب وغلق المكتبات ، وتعذر التواصل بين الطالب والمشرف ، وتأخر العمل عن أن ينجز في وقته الأصلي .

في خضمِّ تلك الصعاب كان هناك من يسندني ويحثني على إنجاز العمل ، فما فتئ أستاذي المشرف (الأستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاويّ) يتابعني ويعينني على تجاوز المحن ، وكان مستوعبا لما أحاط بنا من ظروف ، ومتفهما لحجم الصعاب التي ألمت بالباحثين في هذه السنين ، وإني في مقام الشكر والوفاء اليوم أعجز عن إيفاء حقه ، ولا تسعفني كلمات الثناء ، ولا عبارات المدح لتمام شكره ، فاسأل الله له المثوبة ، وأن ينفع به طلاب العلم .

وحقٌّ عليَّ أن أشكر للفيف من الأهل والأخوة والأصدقاء فضلهم على البحث والباحث في إنجاز هذه الدراسة ، فأشكرهم شكر معترفٍ بفضلهم مقرٍّ بمعروفهم وعلى رأس هؤلاء والدي المكرَّم الذي رعاني صغيرا ولطف بي كبيرا ، وما زالت أياديه الكريمة متواصلة في كل وقت ، وكذا أشكر زملائي في جامعة الكوفة الغراء على ما قدموه لي من مصادر ومراجع ، فضلا عن النصح والمشاورة ، وتبادل الرأي ، وأعتذر لهم من تعداد أسمائهم خشية أن أنسى بعضهم ، فيقع في نفسه ما لا أرضى . وأشكر لقسم اللغة العربية في كلية التربية جامعة بغداد ولجنته العلميَّة الموقرة إقرار الموضوع وتسجيله ، وأشكر للخبراء العلميين قراءة الأطروحة وتقويمها ، وكذا أخص بالشكر أساتيذ لجنة المناقشة التي ستتولى تقويم العمل وتسديده ، جزى الله الجميع خيرا .

وإذا كان للإنسان حقٌّ أن يفخر بشيء ، فإني أفخر وأعتزُّ بأن مَنَّ اللهُ عليَّ ومكنني من إظهار بعض ما تميز به القرآن الكريم في لغته المعجزة ، وحددت جانبا من مكامن الإعجاز اللغوي في الكتاب العزيز .

ختاما أقول : حاولت في هذه الدراسة أن أرصد الحقائق وأقررها بحسب ما توافر أمامي من معطيات علميَّة ، ودليلي في ذلك طلب الحقيقة ، فإن وفقت وأصبت منها شيئا – وأحسب ذلك – فبفضل الله وتوفيقه ، وإن كانت هناك أخطاء وهنات فمرجع ذلك عجزي ، وقلَّة حيلتي ، و أسأل الله في كل وقت أن يهديني سواء السبيل ويرشدني للحقيقة ، ويجعلها نصب عينيَّ ، ويبعدني عن العجب والرياء ، إنَّه نعم المولى ونعم النصير ، و O .

رزاق عبد الأمير مهدي

النجف الأشرف

٢٠\ صفر \١٤٢٦ هـ
٣١\ آذار \٢٠٠٥ م

الفصل الأول :

الحرف ماهيته ومكانته في اللغة والاستعمال .

- المبحث الأول : معنى الحرف وموقعه ، ويتضمن أمرين :
  ١. معنى الحرف .
  ٢. أقسام الكلام العربي عند علماء اللغة القدماء والمحدثين .

- المبحث الثاني : أثر المستويات الكلامية في استعمال المفردات ، وفيه أمور :
  ١. اللهجات العربية واللغة المشتركة .
  ٢. غاية النحو العربي ومناهج التعليم .
  ٣. أقسام الشاهد النحوي .
  ٤. أخذ اللغة من طريق السماع وموقف العلماء منه .

- المبحث الثالث : نظريتا التناوب والتضمين وموقف العلماء منهما .
- المبحث الرابع : معنى المفردة في ضوء النظرية السياقية.

• المبحث الأول: معنى الحرف وموقعه

أوَّلا : معنى الحرف :

ذكر المعجميون ما يربو على عشرة معان لغوية لـ(الحرف) ، وإذا ما حاولنا ترتيبها بحسب تطورها من حسي إلى معنوي ، أمكن أن نسطرها على ما يأتي :

قال الجوهري (ت٣٩٣هـ) : ((حرف كلِّ شيءٍ طرفه وشفيره وحده .)) [١] ونقله عنه أصحاب المعجمات ، ومن هنا أطلق على أعلى الجبل المحدد حرفٌ ، ويطلق أيضا على ما نتأ في جنبه ، وقيل حرفا الجبلِ والسفينة جانباهما ، وحرفُ النهرِ جانبه ، وحرفُ السيفِ حدُّه[٢]، والحرفُ أيضا مسيلُ الماء[٣].

ويطلقُ الحرفُ على الناقة الصُّلبة النجيبة الماضية ، تشبيها لها بحرف الجبل في الصَّلابة والشِّدة ، وبحد السيف في المضاء ، وقيل إنهم كانوا يريدون به الناقة المهزولة التي أنضتها الأسفار، وشبهت في هزالها بالحرف من حروف المعجم وهو الألف لدقتها ، ونقل الجوهري أن الأصمعي كان يرى هذا [٤]، وبهذا تكون من الأضداد كما عدَّها ابن الأنباريّ(ت٣٢٨هـ)، إذ يقول : ((حرفٌ من الأضداد ، يقال للرجل القصير حرفٌ ، ويقال للناقة العظيمة حرفٌ وقال بعض البصريين: يقال للناقة الصغيرة حرفٌ وللعظيمة حرفٌ .))[٥].

لكن الخليل (ت١٧٠هـ) وابن منظور(ت ٧١١هـ) وغيرهما ، لم يرتضوا إطلاق وصف الحرف على الناقة المهزولة ، واحتجوا بقول ذي الرُّمَّة(ت١١٧هـ)[٦] :

(الطويل)

جُمالِيَــةٌ حَــرفٌ سِــنادٌ يَشُــلُّها وَظيــفٌ أَزَجُّ الخَطــوِ رَيّــانُ سَــهوَقُ

فـ((هذا نقض على من قال : ناقة حرفٌ أي مهزولة كحرف كتابة لدقتها ، ولو كان معنى الحرف مهزولا لم يصفها بأنها جمالية سناد ، ولا وظيفها ريان .)) [٧] . وقد تتبعتُ أشعارَ الجاهليين ، فوجدتهم يصفون الناقة بأنها (حرف) وقد تكرر ذلك في أشعارهم ثلاث عشرة مرَّة ، وكذلك وصف المخضرمون نياقهم بهذا الوصف بالمقدار نفسه ، وكان الأعم الأغلب منهم يريدون بهذا الوصف الناقة النجيبة المكرَّمة المكتنزة اللحم الشديدة البأس ، وكانوا يردفون هذا الوصف بأوصاف تؤيد هذا المعنى مثل : (عزيزةٌ ، أهانوا لها الأموال ، مذكرةٌ ، بازلٌ ، بين يديها التبن منثور .) [٨] .

---

١ - تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (حرف):١٣٤٢\٤ .
٢ - لمزيد من التفصيل ينظر مادة (حرف) في:العين:٢١٠\٣- ٢١١، تاج اللغة وصحاح العربية:١٣٤٢\٤ لسان العرب:٤١\٩-٤٢، القاموس المحيط :١٢٦\٣ ، مجمع البحرين :٤٩٠\١ ، تاج العروس : ٦٧\٦ – ٦٨ .
٣ - ظ : القاموس المحيط : ١٢٦\٣.
٤ - ظ : تاج اللغة وصحاح العربية : ١٣٤٢\٤ ، لسان العرب : ٤١\٩.
٥ - الأضداد : ٢٠١ .
٦ - ديوان ذي الرُّمَّة:٤٧١\١، وينظر معه مادة (حرف) في:العين: ٢١٠\٣، لسان العرب:٤١\٩ ، كتب حروف المعاني حتى القرن الثامن الهجري : ٥ .
٧ - العين ٢١١\٣ ، وينظر معه : لسان العرب : ٤١\٩ .
٨ - اعتمدت في متابعة أشعار جميع الشعراء وإحصائها على الإصدار الثالث من برنامج الموسوعة الشعرية ، وهي موسوعة إلكترونية صادرة عن دولة الإمارات العربية المتحدة (المجمع الثقافي- أبو ظبي) سنة (٢٠٠٣م) ، وتحتوي على أشعار (٢٣٠٠)

ما سبق من المعاني للفظة (حرف) هي معان حسيَّة أوَّلية ، أما المستوى الثاني من المعاني فهو ما نقل من إن حرف الشيء ناحيته ووجهته ، وفلان على حرفٍ من أمره أي ناحية منه كأنه ينتظر ويتوقع ، فإن رأى من ناحيته ما يجب ، وإلاَّ مال إلى غيرها ، ... وفي التنزيل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾(الحج: من الآية١١)، أي إذا لم ير ما يجب انقلب على وجهه ، قيل هو أن يعبده على السرَّاء دون الضرَّاء [١] ، وقال الزجاج : ((على حرفٍ أي على شكٍ .))[٢]، ولم ترد لفظة (حرف) في القرآن الكريم في غير هذا الموضع ، ونلاحظ هنا انتقالة من المعاني الحسيَّة إلى معنىً معنوي ، وهو الحال الواحد ، أو الشك ، الذي قد يكون مأخوذا من الجهة والناحية .

ومن هنا قيل لكل كلمة تقرأ على أكثر من وجه في القرآن حرفٌ ، فيقال : يقرأ هذا الحرف في حرف ابن مسعود أي في قراءته[٣]، وعلى هذا المعنى ما يروى عن النبي 9 في شأن نزول القرآن على سبعةِ أحرفٍ[٤]، وقد يكون هذا المعنى مستفاداً من المعنى السابق وهو الجهة والوجه والناحية .

وبعد فإن الحرف هو ((واحدٌ من حروف التهجي الثمانية والعشرين ، سمي بالحرف الذي هو الأصل الطرفُ والجانبُ .)) [٥] ، وأضاف الشيخ الطريحي(ت ١٠٨٥هـ) :((وربما جاء (أي الحرف) للكلام التام ومنه ، الحديث : ((الأذان والإقامة خمسة وثلاثون حرفاً .))[٦] يعني فصلاً .))[٧] .

لعل هذه أهم المعاني اللغوية لكلمة (حرف) ، وقد تكون هنالك معان أخرى نجدها منثورة في كتب اللغة ومصادرها نعرض عنها للاختصار . أما المعاني الاصطلاحية لكلمة (حرف) فسنبينها في المبحث الآتي ، ومما سبق تبيَّنَ أن المعنى الحسي الأوَّلي كان طرف الأشياء ونهاياتها ، وأوَّل ما لوحظ ذلك كان طرف الجبل وأجزاؤه الناتئة ، ثم أطلق على الناقة القوية تشبيها لها بحرف الجبل ، ثم استعملت في حرف السيف وحرف النهر وحرف السفينة ، بعد ذلك استعملت معنويا للدلالة على الجهة والوجه والناحية والجانب والشك ، وبعدها دلَّ على القراءة المعينة للقرَّاء ، ودلَّ كذلك على حروف التهجي ، وهي حروف المعجم .

شاعرا من عصر ما قبل الإسلام إلى سنة(١٩٥٣م)، وتمتاز هذه الموسوعة بالدقة والشمول والرصانة في العمل ، وأشرف عليها جمع من أساتيذ العربية في الوطن العربي،ويمكن مراجعة موقعهم على الشبكة العالمية للمعلومات: www.cultural.org.ar
وقد استعمل هذا الوصف ثلاثة عشر شاعرا جاهليا من أصل (٣١٢)شاعرا، منهم : الأفوه الأودي ، والحارث بن حلزة ، النابغة الذبياني ، وامرؤ القيس السكوني ، بشر بن أبي خازم ، وزهير ، وطرفة ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وغيرهم .

١ - ظ: لسان العرب : ٤٢\٩.

٢ - نفسه .

٣ - ظ : العين ٢١١\٣ ، وينظر معه : لسان العرب : ٤١\٩ .

٤ - ظ : مسند أحمد :٣٤،٤٣\١، صحيح مسلم بشرح النووي:٩٩\٦، فتح الباري شرح صحيح البخاري:١٩\٩-٢٠.

٥ - تاج العروس : ٦٧\٦ .

٦ - هذا الحديث يروى عن أبي جعفر الباقرX ، وهو مروي بطرق صحيحة معتبرة ، ينظر بشأنه : الكافي : ٣٠٢\٣ ، الاستبصار :٣٠٥\١ ، تهذيب الأحكام :٥٩\٢ ، بحار الأنوار :١١٠\٨١ .

٧ - مجمع البحرين : ٤٩٠\١ .

ثانياً : أقسام الكلام العربي عند علماء اللغة القدماء والمحدثين .

١- أقسام الكلم عند القدماء .

يكاد يطبق علماء العربية القدماء على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم على أن الكلام العربي ينقسم على ثلاثة أقسام هي (الاسم والفعل والحرف) ، مستلهمين ذلك مما تناقلته الروايات بأن مبدع هذا التقسيم الإمام علي بن أبي طالب X (ت٤٠هـ). ونورد أمثلة من أقوالهم على حصر القسمة بهذه الأنواع الثلاثة وتعليلهم ذلك ، بل نقل بعضهم إجماع علماء النحو على ذلك :

- قال سيبويه (ت١٨٠هـ) في (باب علم ما الكلم من العربية) : ((فالكلم : اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاءَ لمعنىً ليس باسم ولا فعل ...))[١] .
- بل صرح المبرد (ت٢٨٦هـ) أن الكلام سواء أكان عربيا أم أعجميا لا يخلوا من أن يكون ثلاثة أقسام :اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعنى[٢] ، وفي كلام المبرد هذا تعميمُ الحكم على الكلام الإنساني عموما ، فكانت نظرته لغوية عامة ، وليست مقتصرة على لغة العرب خاصَّة ، وفيه إشارة لطيفة إلى عالمية التفكير عند علماء العرب الأوائل .
- ونقل أبو القاسم الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) إجماع النحاة على ذلك في (باب أقسام الكلم) قائلا : ((فأوَّل ما نذكر من ذلك إجماع النحويين على أن الكلام اسم وفعل وحرف ، وحقق القول بذلك وسطره في كتابه سيبويه ، والناس بعده غير منكرين عليه ذلك .))[٣] فالزجاج يعتمد في قوله بالإجماع على تسالم الناس من العلماء من بعد سيبويه إلى عصره على هذه القسمة وعدم إنكارهم إياها ، فهم مقرُّون لها ، والإقرارُ وعدمُ الإنكارِ حُجَّةٌ ، ثم إنه يعللُ سببَ انحصار هذه القسمة بتلك الأقسام قائلاً :((فنحن نعلم أن الله ﷻ إنما جعل الكلام ليعبر به العباد عمَّا هجس في نفوسهم وخاطب به بعضهم بعضاً بما في ضمائرهم بما لا يوقف عليه بإشارة ولا رمز ... فيبين أن المخاطَب والمخاطِب ، والمخبَر عنه والمخبر به أجسامٌ وأعراضٌ تنوب في العبارة عنها أسماؤها ، أو ما يعتوره معنى يدخله تحت هذا القسم من أمر أو نهي أو نداءٍ أو نعتٍ أو ما أشبه ذلك مما تختص به الأسماء ، لأن الأمر والنهي إنما يقعان على الاسم النائب عن المسمى ، فالخبر إذن هو غير المخبِر والمخبَر عنه ، وهما داخلان تحت قسم الاسم ، والخبر هو الفعل ، وما اشتق منه ، أو تضمن معناه - وهو الحديث الذي ذكرناه – ولابدَّ من رباط بينهما وهو الحرف ، ولن يوجد إلى معنى رابع سبيل ، فيكون للكلام قسمٌ رابعٌ ، وهذا معنى قول سيبويه : الكلم اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ ...))[٤]، ...))[٤]، ثم إنه يورد حجَّةً أخرى : وهي أنه يرى إن المدعي أن للكلام قسما رابعا أو أكثر أكثر إنما هو مُخمِّنٌ أو شاكٌّ وليس متيقناً وإلاَّ لجاء بالقسم الرابع من خلال استقراء كلام العرب أجمع ، وأما الأقسام الثلاثة فنحن متيقنون منها ، ولسنا بتاركي اليقين إلى الشك[٥] .

---

١ - الكتاب : ١٢\١ .
٢ - ظ : المقتضب : ٣\١ .
٣ - الإيضاح في علل النحو : ٤١ .
٤ - نفسه :٤٢.
٥ - ظ : نفسه ٤٣ .

يلاحظ في تعليل الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) سعة الأفق ودقة الملاحظة ، إذ نظر أوَّلا إلى وظيفة اللغة ودورها في نقل الأفكار وإيصالها إلى الآخرين ، وأن تلك الأفكار لا تنقل بطرق التواصل الأخرى ، التي تعتمد الرمز أو الإيماء ، وبهذا يكون ستيفن أولمان مخالفا للزجاجي ، إذ يرى أن الكلمات تؤدي وظائفها بالطريقة نفسها التي تتبعها الرموز والعلامات الأخرى غير أن خاصتها المميزة لها استخدامها أصواتاً واضحة المعالم [١]، فالزجَّاجي يرى أنَّ الكلمات لها قابلية تفوق الأنظمة الرمزية و الإشارية أخرى ، وتمتلك قدرة أوسع على نقل ما يهجس في النفوس والضمائر من مواقف وحالات . وقد حلل الزجّاجي عملية التخاطب اللغوي ، فوجد أنها تحتوي على (جواهر) و(أعراض) متمثلة بالأجسام والحالات ، وأنَّ الكلمات تنوب عن تلك الجواهر و الأعراض ، ثم إنَّـه لابدَّ من رابط يربط أطراف القضية . وبعد ذلك نراه يعتمد الحس الاستقرائي ، فيطالب من يدعي وجود قسم رابع أنْ يظهره من كلام العرب بعد أنْ يستوعبه بحثاً واستقراءً ، وفي الوقت نفسه فهو يؤيد المبرد حينما يعتقد أنَّ الكلام غير العربي ينقسم على هذه الأقسام أيضا ، لأنَّ الغرض منه مشابه لمكونات كلامهم ودوافعه [٢].

- ذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ) إجماع أهل العلم على أنَّ أقسام الكلام ثلاثة : اسم وفعل وحرف[٣] .
- وعلل أبو البركات العلوي (ت٥٣٩هـ) سبب انحصار هذه القسمة بثلاثة أقسام لا غير وذلك من خلال شرحه لكلام ابن جني (ت٣٩٢هـ) في اللمع قائلاً : ((إنَّ الكلام لما كان موضوعا على الفائدة كما ذكرنا ، وكان الاسم مع الاسم يأتلف فيكون منهما كلامٌ مفيدٌ نحو قولنا(زيدٌ كريمٌ ، وعمرو منطلقٌ)، والفعل يأتلف مع الاسم فيكون منهما كلام مفيد نحو قولنا(خرج بكرٌ ، وضرب عبد الله) ، وكان في الجمل ما لا يصح اتصال بعضه ببعض جاؤوا بالحروف لتربط بين الجملتين ، وذلك نحو قولنا (مررت بزيدٍ) ، فالباء وصلت المرور بزيد ، ولولاها لما صحَّ الكلام فكملت الفائدة بالاسم والفعل والحرف ، فلم يحتاجوا إلى رابع ، ولم يقتصروا على اثنين .)) [٤] .

وإذا وازنَّا تعليل العلوي (ت٥٣٩هـ) بتعليل الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) وجدنا تعليل العلوي أقلُّ عمقا فلسفيا ، إذ هو تعليل يسير يلحظ فيه أثر الحرف في ربط بعض أجزاء الكلام ببعض ، فهو رابط من الروابط التي بها تُنشأ الجمل .

- أما أبو البركات عبد الرحمن الأنباري (ت٥٧٧هـ) فيقول في تعليل انحصار الكلم بثلاثة أنواع :((إنَّا وجدنا هذه الأقسام الثلاثة يعبر بها عن جميع ما يخطر بالبال ويتوهم في الخيال ، ولو كان ههنا قسمٌ رابعٌ لبقي في النفس شيء لا يمكن التعبير عنه ، ألا ترى أنه لو سقط آخر هذه الأقسام الثلاثة لبقي في النفس شيءٌ لا يمكن التعبير عنه بإزاء ما سقط ، فلما عُبِّرَ بهذه الأقسام عن جميع الأشياء دلَّ على أنه ليس إلاَّ هذه الأقسام الثلاثة ...))[٥] ، ولعل ولعل هذا التعليل أيسر رتبة وأقلُّ درجة من تعليل العلوي ، ويمكن أن نصفه بأنه تعليل وجداني يستشعر ما في النفس ، ولا يعتمد – مثل الزجَّاجي – على النظر إلى وظيفة اللغة ومكوناتها وطرق ارتباط بعضها ببعض .
- والعكبريُّ أبو البقاء (ت٦١٦هـ) يبتدئ كلامه قائلاً :((إنما علم كون الكلم ثلاثاً فقط من وجهين أحدهما : أنَّ الكلم وضع للتعبير عن المعاني ، والمعاني ثلاثة : معنى يخبر به ،

---

١ - ظ : دور الكلمة في اللغة : ٣١ .
٢ - ظ : الإيضاح في علل النحو : ٤٤ - ٤٥ .
٣ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة : ٨٢ .
٤ - البيان في شرح (اللمع لابن جني) : ٤ .
٥ - أسرار العربية : ٢٨ .

ومعنى يخبر عنه ، ومعنى يربط أحدهما بالآخر، فكانت العبارات عنها كذلك . الثاني : أنهم وجدوا هذه الأقسام تعبر عن كل معنى يخطر في النفس ، ولو كان هناك قسم آخر لم يوقف عليه لكان له معنى لا يمكن التعبير عنه .)) [١] ، وقد جمع العكبريُّ في تعليله هذا الدليلين الوظيفي والاستقرائي الوجداني .

- ويقول البطليوسيّ (ت٥٢١هـ) في شرحه كلام الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) : ((أما تقسيمه الكلم ثلاثة أقسام فصحيح لا اعتراض فيه لمعترض ...)) [٢] .
- ويرى ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) أنها منحصرة بهذه الأقسام :((لأنها إما أنْ تدل على معنى في نفسها أو لا ،الثاني الحرف ، والأوَّل إما أنْ يقترن بأحد الأزمنة الثلاثة أو لا، الثاني الاسم ، والأوَّل الفعل .))، وقال الرضي(ت٦٨٨هـ) في شرحه مؤيداً :((فهذه قسمة دائرة بين النفي والإثبات ، فتكون حاصرةً ، أي لا يمكن الزيادة فيها ولا النقصان ، فتبين بدليل الحصر حدُّ كل واحد من الأقسام ، لأنه ذكر فيه جنس كلٍّ واحدٍ وفصله والمركب من الجنس والفصل هو الحدُّ .)) [٣] ، والبعد الفلسفي في كلام ابن الحاجب والرضي بادٍ ، فقد حوت عباراتهما التقسيم والتعريف في عبارة مضغوطة تستوجب الشرح والتفسير .
- وأما ابن مالك (ت٦٧٢هـ) فقد قال[٤] :

(الرجز)

كلامُنَا لَفظٌ مُفِيدٌ كاستَقِم ... واسمٌ وفِعلٌ ثمَّ حَرفٌ الكَلِم

وقال في موضع آخر بعد أن عرَّف الكلمة :((وهي : اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ.)) [٥].

- وقال ابنه (ت٦٨٦هـ) في شرحه :((الكلم اسم جنس واحده كلمة ...وهي على ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف ؛ لأن الكلمة إما أنْ يصح أنْ تكون ركنا للإسناد أو لا ، الثاني الحرف ، والأوَّل إما أنْ يصح أنْ يسند إليه أو لا ، الثاني الفعل والأوَّل الاسم ، وقد ظهر من هذا انحصار الكلمة في ثلاثة أقسام .)) [٦] وواضح أنه يعتمد طريقة ابن الحاجب نفسها القائمة على النفي والإثبات لحصر الأقسام وتحديدها . وكذلك اعتمد الطريقة نفسها ابن عقيل (ت٧٦٩هـ) حينما علل انحصار الأقسام [٧] .
- ويصرح ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) بالإجماع قائلا : إنَّ ((الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة [أي الاسم والفعل والحرف] لا غير أجمع على ذلك من يعتد بقوله .))[٨]، ويقول :((والدليل على انحصار أنواعها في هذه الثلاثة الاستقراءُ ، فإن علماء هذا الفن تتبعوا كلام العرب فلم يجدوا إلاَّ ثلاثة أنواعٍ ، ولو كان ثَمَّ نوعٌ رابعٌ لعثروا على شيءٍ منه.)) [٩] .

ومع هذا الإطباق من علماء العربية القدماء كلَّه إننا لا نعدم من يقول بوجود قسم رابع أطلق عليه (الخالفة)[١٠] ، وهو أسماء الأفعال . لكن قولاً مثل هذا لا يضر بالإجماع كما صرَّح بذلك ابن هشام ((فإنها لا تعدم أن تكون رأياً كالآراء النحوية المفردة العاربة ، والمتناثرة في كتب النحو .)) [١١].

---

١ - اللباب في علل البناء والإعراب: ١\ ٤٣ .
٢ - الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل :٥٩ .
٣ - شرح الرضي على الكافية : ١\ ٣٠ .
٤ - شرح ألفية ابن مالك : ٣ ، وينظر معه : شرح ابن عقيل : ١\ ١٣ ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ١ \ ١٢.
٥ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ٣.
٦ - شرح ألفية ابن مالك : ٣ ، وينظر معه : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ١ \ ١٢.
٧ - ظ : شرح ابن عقيل : ١\ ١٣ – ١٤ .
٨ - شرح شذور الذهب : ١٧ ، وينظر معه : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك :١\ ١٢ .
٩ - شرح قطر الندى وبل الصدى :١٢ .
١٠ - ذهب إلى هذا القول أحمد بن صابر النحوي (مجهول الوفاة) ، ينظر: همع الهوامع :١\ ٤، ٢\ ١٠٥، بغية الوعاة :١\ ٣١١، الأشباه والنظائر:٣\ ٧١ ، حاشية الصبان :٣\ ١٩٦ .
١١ - حروف المعاني في معجم لسان العرب : ١١ .

اعتمد النحاة في استدلالهم على انحصار الأقسام على دليلين رئيسين ، ينظر الأوَّل منهما إلى وظيفة اللغة ومهمتها ، وطبيعة مكوناتها ، وكيفية تركيب بعض الكلم مع بعض ، وهذا تفسير لغوي فيه عمقٌ ووجاهةٌ وبُعدُ نظرٍ، والآخر هو الذي سميناه الدليل الوجداني ، الذي قال به بعضهم من أن لو كان هنالك قسم رابعٍ لعُلِمَ من خلال الاستقراء أو وقائع الأحوال ، ولأوجد عدم ذكره مع بقية الأقسام خللاً في التعبير عن المعاني .

وبعبارة أُخرى : إن النحاة قد اختلفوا ((في مجال تقسيم الكلم فمنهم من راعى الأسس الشكلية في التقسيم ، ومنهم من راعى الأسس الوظيفية ، أو ما يعبر عنه النحاة المحدثون بالمعاني الوظيفية ، ومنهم من جمع بين هذه وتلك.))[1] . أقول : إن تصافقهم على انحصار القسمة بتلك الأقسام الثلاثة كان له سند متين ، صرح به بعضهم ، وأغفله آخرون ، وهو إن أوَّل من تنقل عنه هذه القسمة الجامعة هو أمير المؤمنين علي X (ت٤٠هـ)[2] ، وذلك في الرواية التي تشير إلى أثره الرئيس في تخطيط أسس علم النحو ، حينما دار الكلام بينه وبين أبي الأسود الدؤلي Σ (ت٦٩هـ) وقد صرَّح الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) بهذا الدليل قائلاً : ((وقد روي لنا أن أوَّل من قال ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، أعني قوله:(الكلامُ : اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ) .))[3]، وصرح بهذا أيضاً السيوطي (ت٩١١هـ)[4]، لقد كانت هذه الرواية حاجزاً عالياً دون اعتراض الأوائل على هذه القسمة والخروج عليها ، وإلاَّ فالنحاة لم يتسالموا على شيءٍ مثل تسالمهم على التقسيم الثلاثي للكلم .

٢- تعريف الحرف عند القدماء :

إذا كان الحرف عند علماء العربية القدماء ثالث ثلاثة ، فما حدُّه وتعريفه ؟ أقول سأعرض هنا عن ذكر حدود الأنواع الثلاثة ، إذ كفانا مؤونة الحديث والاستقصاء والمناقشة فاضل الساقي في كتابه القيِّم[5]، ولعل ما يناسب المقام أن أقول : إنَّ((غالبية أقوال النحاة تدور في فلك واحد تقريباً هو أن الحرف كلمةٌ تدلُّ على معنى في غيرها ، وإنَّ دورها الوظيفي لا يتعدى ذلك .))[6] ، وسنذكر نماذج من أقوالهم استشهادا لا استيعاباً :

- قال سيبويه (ت١٨٠هـ):((فالكلم : اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاءَ لمعنىً ليسَ باسمٍ ولا فعلٍ ، فالاسمُ : رجلٌ وفرسٌ وحائطٌ ، وأما الفعلُ فأمثلةٌ أُخذت من لفظ أحداثِ الأسماءِ ، وبنيتْ لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائنٌ لم ينقطعْ ،...، وأما ما جاءَ لمعنىً وليسَ باسمٍ ولا فعلٍ فنحوُ: ثمَّ ، وسوفَ ، و واو القسم ، ولام الإضافة ، ونحوها .))[7] .

- ونقل البطليوسي (ت٥٢١هـ) قولَ الأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ) في تحديد الحرف قائلاً : ((والحرف ما لا يحسن له الفعل ولا الصفة ولا التثنية ولا الجمع ولم يجز أن

---

١ - أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٣٥ .
٢ - للإطلاع على هذه الرواية ينظر : وفيات الأعيان : (ترجمة ظالم بن عمرو): ٥٣٥\٢ ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : (ترجمة علي بن أبي طالبX):٢٧٦\٥ ، سبب وضع علم العربية : ٣٤ ، الاقتراح : ٢٠٣ .
٣ - الإيضاح في علل النحو : ٤٢ - ٤٣ ، وينظر معه : الاقتراح : ٢٠٣ .
٤ - ظ : سبب وضع علم العربية : ٣٣ – ٣٤ ، ٤٣.
٥ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ١١- ٩١ .
٦ - نفسه : ٧٦.
٧ - الكتاب ١\ ١٢.

ينصرف))[1]، واعترض عليه بأنه خطأٌ ((لأن الفعل يدخل تحت هذا التحديد ، ومن الأفعال أيضاً مالا ينصرف.)) [2] .

- ونُقِلَ عن المبرد (ت٢٨٦هـ) قوله :((والحرف ما كان وصلاً لفعلٍ إلى اسمٍ أو عطفاً أو تابعاً لمتحدث به أو كان عاملاً .))[3]، واعترض البطليوسيُّ عليه بأن من الحروف ما يأتي لمعنى الاستفهام ، أو الاستثناء ، أو لمعنى النفي أو القسم أو التمني أو النهي ، فهذه لا يكون الحرف فيها وصلة لفعلٍ .)) [4] .

- وحدَّ ابن السرَّاج (ت٣١٦هـ) الحروف بأنها :((مالا يجوز أن يخبر عنها ولا يجوز أن تكون خبراً .)) [5] ولم يبيِّن ابن السرَّاج ماهية الحرف ووظيفته ، واكتفى بالإشارة إلى علاماته التي بها يعرف .

- ولم يبتعد الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) عن حد سيبويه (ت١٨٠هـ) حينما قال :((الحرف ما دلَّ على معنى في غيره ، نحو: مِنْ و إلى وثمَّ وما أشبه ذلك .))[6] .

- وقد ردَّد جمع من النحاة تعريف سيبويه بصورة أو أخرى ، فالنحَّاس (ت٣٣٨هـ) يقول : ((الحرف ما دلَّ على معنى في غيره ، وخلا من دليل الاسم والفعل .))[7].

- وأبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) يقول :((ما جاء لمعنى ليس باسمٍ ولا فعلٍ ...))[8] .

- وقال الرمَّاني (ت٣٨٨هـ) :((الحرف كلمة لا تدلُّ على معنى إلاَّ مع غيرها مما معناها في غيرها .))[9].

- ويقول ابن جني (ت٣٩٢هـ)عن الحرف :((ما لم تحسن فيه علامة من علامات الأسماء ولا علامات الأفعال ، وإنما جاء لمعنى في غيره ...)) [10] ، وعلَّق شارحا هذا الكلام أبو البركات العلوي (ت٥٣٩هـ) فقال :((إعلم إنه لما بيَّن علامة الاسم وعلامة الفعل ، لم يبق غير الحرف فقال : مالا يحسن فيه علامات الأسماء ولا علامات الأفعال فهو حرفٌ ، فهذا ليس بحدٍّ ، وإنما هو على سبيل التعليم ، ثمَّ قال : والحرف ما جاء لمعنى في غيره ، فهذا حدٌّ لأن الحروف معانيها في غيرها ...)) [11].

- وكذلك ارتضى ابن فارس (ت٣٩٥هـ) حدَّ سيبويه للحرف حينما قال عن الحرف إنه : ((الذي يفيد معنى ليس في اسمٍ ولا فعلٍ .)) [12].

- وعرَّفه الزمخشريُّ (ت٥٣٨هـ) بأنه ((ما دلَّ على معنى في غيره ، ومن ثمَّ لم ينفك من اسمٍ أو فعلٍ يصحبه.))[13]، وأيـَّد ابن يعيش (ت٦٤٣هـ) هذا التعريف من خلال شرحه

---

١ - الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل : ٧٥ .
٢ - نفسه : ٧٦.
٣ - الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل: ٧٦ .
٤ - المصدر نفسه .
٥ - الأصول في النحو : ٣٩، ٤٣.
٦ - الجمل : ١٧ ، الإيضاح في علل النحو : ٥٤ .
٧ - التفاحة في النحو : ١٤ .
٨ - الإيضاح العضدي : ٨|١ .
٩ - رسالتان في اللغة : ٦٧ .
١٠ - اللمع في العربية :٧ .
١١ - البيان في شرح (اللمع لابن جني) : ٥ .
١٢ - الصاحبي في فقه اللغة :٨٦ .
١٣ - المفصَّل في صنعة الإعراب :٣٧٩ .

المطوَّل له[1]. ويبدو أن الزيادة التي زادها الزمخشريُّ على التعريف (ومن ثمَّ لم ينفك من اسمٍ أو فعلٍ يصحبه) ، كانت إدراكا منه لعملية الربط التي يقوم بها الحرف بين ركني الجملة وهو ما يسميه المحدثون (التعليق) [2].

- وفضلاً عن إيراد التعريف نفسه يشير الأنباري (ت٥٧٧هـ) إلى سبب تسمية الحرف فيقول : ((لأن الحرف في اللغة هو الطرف ، ومنه يقال حرف الجبل أي طرفه فسمي حرفاً لأنه يأتي في طرف الكلام ، فإن قيل فما حدُّه ؟ قيل ما جاء لمعنى في غيره .)) [3] .

- ويفرِّق العكبريُّ أبو البقاء(ت٦١٦هـ) بين قولنا (ما دلَّ على معنى في غيره) و (ما جاء لمعنى في غيره) ، ويَعدُّ الأوَّل أصحَّ ((لأن الحدود الحقيقية دالَّةٌ على ذات المحدود بها ، فقولنا ما جاء لمعنى بيان العلَّة التي لأجلها جاء ، وعلَّة الشيء غيره .)) [4]، ولكنه أضاف كلمة (فقط) إلى آخر التعريف لتكون قيداً يمنع ما يدل على معنى في نفسه ويدل على معنى في غيره مثل (أين وكيف) وذلك أن دلالتها على معنى في غيرهما من جهة تضمنها معنى الحرف وذلك عارض فيهما [5] .

- ويعترض البطليوسي على تعريف الزجَّاجي للحرف بأنه (ما دلَّ على معنى في غيره) قائلاً :((هذا الحد غير صحيح عند متأمله حتى يضاف فيه ولم يكن أحد جزئي الجملة المفيدة .)) [6] ، وبهذه الإضافة يكون التعريف مساويا لما جاء في عبارة سيبويه الذي يصفه البطليوسي بأنه ((لا مطعن فيه لأحدٍ .)) [7] ، فإضافة القيد الذي وضعه البطليوسي يمكِّنه من إخراج أدوات الاستفهام والشرط والموصولات من قسم الحروف ، وإبقائها تحت قسم الأسماء [8] .

- وذكر ابن عصفور(ت٦٦٩هـ) التعريف نفسه إذ يقول: ((الحرف لفظة يدل على معنى في غيره لا في نفسه .)) [9] .

- ولم يعرِّف ابن مالك الحرف واكتفى بالقول :((سواهما الحرف كهل وفي ولم ...)) ، فلم يعرِّف الحرف وإنما قال هو ما سوى الاسم والفعل ، وذلك لانحصار الكلمة في هذه الأنواع الثلاثة . فلما كان قد بيَّن الاسم والفعل ، فغيرهما الحرف [10].

- ولعل الرضي الأستراباذي (ت٦٨٨هـ) كان أكثر من غيره فهماً لمعنى الحرف وأكثر تشخيصاً للفروق بين الاسم والفعل والحرف[11]، الذي يقول عنه بأنه : ((كلمة دلت على معنى ثابت في لفظ غيرها ...فالحرف مُوجدٌ لمعناه في لفظ غيره ...)) [12] .

- أما ابن هشام (ت٧٦١هـ) فيحدد الحرف بأنه ((لا يقبل شيئا من علامات الاسم والفعل.))[13]، فلما انتفى قبول الكلمة لعلامات الاسم والفعل ، تعيّن القسم الثالث ،لانحصار

---

١ - ظ : شرح المفصَّل : ٢\٨ .
٢ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة: ٨٨ .
٣ - أسرار العربية :٣٥ – ٣٦ .
٤ - اللباب في علل البناء والإعراب :٥٠\١ - ٥١ .
٥ - ظ : نفسه .
٦ - الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل:٧٤ .
٧ - نفسه .
٨ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة :٨٥.
٩ - المقرب :٤٦\١ ، ينظر معه: شرح جمل الزجاجي : ١٠٠\١.
١٠ - ظ : شرح ألفية ابن مالك : ٦ ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٢٥\١.
١١ - ظ : البحث النحوي عند الأصوليين : ٢٠٦- ٢٠٧ ، المعنى الحرفي في اللغة (بحث) :٢٨٣ - ٢٨٤ .
١٢ - شرح الرضي على الكافية : ٣٦\١ ، وما بعدها .
١٣ - شرح قطر الندى وبل الصدى :٣٦، شرح شذور الذهب :٣١

الأقسام . ويبدو أنه كان يعلم إن كلامه هذا لا يمثل حدّاً للحرف ، لذا نراه يقول في كتاب آخر: ((والحرف في الاصطلاح ما دلَّ على معنى في غيره .))[1] .

- وكذلك ميَّز ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ) الحرف من قسيميِّه بخلِّوه من علامات الأسماء وعلامات الأفعال [2] .

- ولقد خرج صلاح الدين الدمشقي (ت٧٦١هـ) عن هذا التقليد حينما عرَّف الحرف قائلاً : ((الحروف أدلَّة على معان في نفس المتكلم .)) [3] ، وبذلك اتجه إلى دلالة الحرف وقيمته من حيث أنه أمارة على المعنى المقصود في نفس المتكلم في إبراز معنى ما [4]، فالحرف ركن من أركان الدلالة في الجملة.

- ذكر السيوطي (ت ٩١١هـ) إن الحرف ليست له علامة وجودية ، بل علامته أن لا يقبل شيئا من خواص الاسم ولا من خواص الفعل[5]، وهو بهذا يلتقي طائفة من العلماء الذين يميزون الحرف (بالعلامة العدمية) ، إذ إن الظواهر الشكلية التي تستعمل للتميز بين أقسام الكلم تارة تكون بثبوت هذه الظواهر ، وأخرى تكون بعدمها – الوجود السلبي لها – فلعدم العلامة دلالة عكسية للوجود[6] .

ونقل السيوطي قول ابن هشام (ت٧٦١هـ):((اشتهر بين النحويين أن الحرف يدلّ على معنى في غيره ، ونازعهم الشيخ بهاء الدين بن النحَّاس [ت٦٩٨هـ] في ذلك في (التعليقة) ، وزعم أنَّه دالٌّ على معنى في نفسه.)) ثمَّ أشار إلى إن أبا حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ) تابعه على ذلك في (شرح التسهيل)[7]، ولعلَّ الذي دفع ابن النحَّاس إلى هذا القول نظره إلى المعنى المفهوم المفهوم من الحرف حال التركيب هو عموم معنى الربط والتعليق [8].

إن جلَّ العلماء كانوا يرتضون تعريف الحرف بأنه ((ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.)) أو ((ما دلَّ على معنى في غيره .)) أو ((ما جاء لمعنى في غيره .)) ، ومقصدهم واحدٌ وإن اختلفت العبارة ،إلاَّ أننا لا نعدم مثل العكبري الذي فرَّق بين معنى العبارتين ورجَّح ((ما دلَّ على معنى في غيره .)) ، ثم أضاف لها قيداً آخر (فقط) ليخرج به بعض الكلمات التي قد يشتبه أنها تدخل في حدِّ الحرف ، وكذلك أضاف الزمخشريُّ قيداً آخر ((ومن ثم لم ينفك من اسم أو فعل يصحبه.)) ، وأضاف البطليوسيُّ قيداً ثالثاً ((ولم يكن أحد جزئي الجملة .)) . هذه القيود التي أضافها بعض العلماء تسعى لضبط التعريف وجعله جامعا مانعا ، في حين عدَّ آخرون خلُوَ الحرف من علامات القسمين الآخرين تعيينا للنوع الثالث (وهو الحرف) ، وبتعبير أدق إن جلَّ العلماء كان ينظر في التعريف إلى الجهة الوظيفية للحرف[9]، وما يؤديه في تركيب الكلم من أثر، وبعضهم كان ينظر إلى الجهة الشكلية في الحرف فيحاول أن يحدده بناءً على الشكل والعلامة ، ولا نعدم من جمع بين هذا المنحى وذاك أمثال (ابن جني ، وابن هشام) فقد ذكرا الحدَّ والعلامات معاً .

---

١ - شرح شذور الذهب : ١٨ .
٢ - ظ : شرح ابن عقيل : ١\٢٤.
٣ - الفصول المفيدة في الواو المزيدة : ١٤٧ .
٤ - ظ : طبيعة الحرف والمعنى الحرفي عند الأصوليين(بحث) :٨ .
٥ - ظ : همع الهوامع : ١\٩ .
٦ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٩١.
٧ - الأشباه والنظائر :٣\ ٧١- ٧٣.
٨ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٩١، البحث النحوي عند الأصوليين :٢٠٣ .
٩ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة :٣٥ .

٣- الحروف عند المحدثين :

وإذا كانت هذه حال القدماء فإن علماء اللغة المحدثين لم يجدوا حرجاً في الخروج على التقسيم الثلاثي للكلم العربي بعد أن وجَّهوا له سهام نقدهم ، وأوَّلُ أولئك العلماء إبراهيم أنيس فقد عاب على اللغويين القدماء قناعتهم بذلك التقسيم، واتهمهم بأنهم تبعوا في ذلك ما جرى عليه فلاسفة اليونان وأهل المنطق ، فهو يعتقد إن علماء اللغة القدماء أخذوا هذا التقسيم من اليونان[١]، وهذا ما لا يوافقه الباحث عليه ، وذلك لأن التفكير الأوَّلي السليم يقود إلى هذه الأقسام ببساطة.

ويشير إلى أن العلماء العرب عَسرَ عليهم تحديد المقصود من هذه الأجزاء وشقَّ عليهم ذلك ، فأخذوا يحرفون في الحدود ويضعون لكل قسم علامات يميزونه بها ، وهو يعجب من معالجة أولئك اللغويين للحروف ، وذلك لأنهم – كما يقول – يكادون يجردونها من المعاني وينسبون معانيها لغيرها من الأسماء والأفعال ، لذا يعتقد أن فكرة الحرفيَّة كانت غامضة في أذهان النحاة [٢] .

ويقترح إبراهيم أنيس أسسا جديدة لتقسيم الكلم فيذكر إن المعنى ، والصيغة، ووظيفة اللفظ في الكلام هي الأسس الثلاثة التي يجب ألاَّ تغيب عن الأذهان حين التفريق بين أقسام الكلم . وعندها يقترح تقسيمه المشتمل على : (١- الاسم ٢- الضمير ٣- الفعل٤- الأداة.)[٣] ، والذي يعنينا هنا هو القسم الرابع (الأداة) ، ففي الوقت الذي انتقد فيه تصرف النحاة القدماء ، جعل هذا القسم مشتملا على كل ما بقي من ألفاظ اللغة التي لا تضمها حدود الأقسام الثلاثة الأوَّلى ، فهو يتضمن حروف المعاني ، وكذلك الظروف الزمانية والمكانية وغير ذلك . وهكذا يكون مفهوم الأداة عنده أيضا غير واضح المعالم ؛ إذ صار عنواناً عاماً يحتوي على أصناف مختلفة ، وفي هذا الصنيع إطلاقٌ وحكمٌ بالعموم قد ((لا يخدم البحث العلمي في مسألة من أهم مسائله ، وهي تقسيم الكلم فإني أرى أن درج الظروف بمجموعها ، وإن شابهت الأدوات في التعليق، وعدم الدخول في جدول تصريفي ، وليس لها صيغ معينة ، إلاَّ أنَّ الأداة متأصلة في الرتبة وهي أشدُّ تأصلاً من الظروف والضمائر ... فانفراد الأداة بالصدارة يعتبر[٤] من أهم المميزات الشكلية التي تميز الأداة عن[٥] الظروف ...)) [٦]. وبذلك يكون إبراهيم أنيس قد عاب عاب على القدماء ما وقع فيه عند محاولته تحديد الأنواع وضبط تعريف جامع مانع لكل منها ، ولاسيما الأدوات .

والعالم الثاني من علماء اللغة المحدثين الذين تناولوا قضية تقسيم الكلم بالبحث والنقد ومحاولة التجديد ، هو مهدي المخزومي ، فقد بيَّن أن الكوفيين كانوا يريدون بمصطلح (الأداة) ما كان يريده سيبويه(ت١٨٠هـ) بـ(الحروف)؛ لذا عدل المخزومي عن الحروف إلى الأدوات ، وعرَّف (الأداة) بأنها ما لا يدلّ على معنى إلاَّ في أثناء الجملة ، وذكر أن الأدوات كلمات إذ أخذت مفردة غير مؤلفة فليس لها دلالة على معنى ، ولا تدل على معانيها إلاَّ من خلال الجملة على العكس من الأسماء والأفعال ، فدلالتها على معانيها بادية حتى وإن لم تدخل في تركيب[٧]. تركيب[٧]. فهو بهذا الرأي يشابه رأي الرضي (ت٦٨٨هـ) المتقدِّم ، وأشار أيضاً إلى أن ما تؤديه الأدوات هو التعبير عن المعاني العامة التي تطرأ على الجمل مما يقتضيه حال الخطاب

---

١ - ظ : من أسرار اللغة :١٩٣ .

٢ - ظ: نفسه :١٩٣- ١٩٥.

٣ - ظ : من أسرار اللغة : ١٩٤- ١٩٥ ، وينظر معه : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ١٠٧ - ١٠٨ .

٤ - هكذا ورد والصحيح : يُعَدُّ . لأن المعتبر المستدل بالشيء على الشيء وهو المتعظ ، ظ : لسان العرب:مادة(عبر) :٥٣٠\١٤ .

٥ - هكذا ورد والصحيح : تميز الأداة من الظروف . يقال (إنماز بعضه من بعض) ، ظ : العين مادة (ميز) : ٣٩٤\٧ .

٦ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ١٢٤ - ١٢٥ .

٧ - ظ : في النحو العربي قواعد وتطبيق : ٣٧- ٤٥ .

ومناسبات القول ، ومن هذه المعاني الاستفهام وله أدواته ، والنفي وله أدواته ، وكذلك الشرط والتوكيد والاستثناء والوصل ، ولكلٍّ أدواته [١] .

والذي يهمنا في رأيه أنه عدَّ الأدوات قسماً قائماً برأسه ، وإن كان قد توسع فيها بعض الشيء ، وغيَّرَ اسمها مثل حال الكوفيين من الحروف إلى الأدوات .

ولعلَّ أهم من تناول موضوع تقسيم الكلم من العلماء المحدثين تمَّام حسَّان الذي انتقد تقسيم النحاة القدماء للكلمات بأن أسسهم لم تكن واضحة ، وغير مذكورة لنا ، وإذا نظرنا إلى تقسيمهم من خلال الدراسات اللغوية الحديثة أمكننا أن نصل إلى شيئين :

١- إن الكلمات العربية يمكن أن ينتقد تقسيمها القديم .

٢- إن هذا التقسيم ينبني على أسس يمكن استعمالها في تقسيم جديد [٢] .

وحدَّد تمَّام حسَّان الأسس التي رآها صالحة لبناء تقسيم جديد للكلم العربي وهي:(الشكل الإملائي، والتوزيع الصرفي، والأسس السياقية، ومعنى الوظيفة والوظيفة الاجتماعية.) [٣].

وبناءً على هذه الأسس قسَّم تمَّام حسَّان الكلام العربي على سبعة أقسام هي (الاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة .) [٤] ، وينحصر كلامنا في القسم السابع فيقول عن الأداة : إنها ((مبنى تقسيمي يؤدي معنى التعليق ، والعلاقة التي تعبر عنها الأداة إنما تكون بالضرورة بين الأجزاء المختلفة في الجملة .)) ، وهي تنقسم عنده على نوعين :

١. الأداة الأصلية وهي (حروف المعاني) .

٢. الأداة المحوَّلة : التي قد تكون (ظرفية ، أو اسمية ، أو فعلية ، أو ضميرية)[٥].

يقول تمَّام حسَّان :((إن التعليق بالأداة أشهر أنواع التعليق في اللغة العربية الفصحى ، فإذا استثنينا الإثبات والأمر بالصيغة (قام زيدٌ، وزيد قائم ، وقم) ، وكذلك بعض جمل الإفصاح ، فإننا سنجد كل جملة في اللغة العربية الفصحى على الإطلاق تتكل على الأداة.))[٦]. وقال أيضاً : ((فالأدوات تلخص معاني النفي والتأكيد والاستفهام والأمر والعرض والعرض والتحضيض و التمني والترجي والنداء والشرط الإمتناعي والشرط الإمكاني والقسم والندبة والاستغاثة والتعجب ، بالإضافة إلى ما[٧] للأداة من وظيفة الربط بين الأبواب المفردة داخل الجملة كالذي نجده في حروف الجر والعطف والاستثناء والمعية و واو الحال أو ما للأداة من وظيفة في أداء معنى صرفي عام كالذي نراه في أداة التعريف .)) [٨].

تلخيص المعاني الذي أشار إليه الأستاذ تمَّام حسَّان هو نفسه الذي عبَّر عنه مهدي المخزومي بالتعبير عن المعاني العامة التي تطرأ على الجمل . ويتفق الأستاذان أيضاً حينما رأى المخزومي أن الحروفَ مفردةً لا تدلُّ على معنى ، ومعانيها لا تتضح إلاَّ ضمن التركيب ، ورأى الأستاذ تمَّام حسَّان في هذا الشأن إن الأدوات جميعا لا تدل على معان معجمية ، لكنها

١ - ظ : في النحو العربي قواعد وتطبيق : ٣٧- ٤٥ .
٢ - ظ : مناهج البحث في اللغة : ١٩٦.
٣ - ظ : مناهج البحث في اللغة : ١٩٦.
٤ - ظ : اللغة العربية معناها ومبناها : ١٢٢ - ١٢٤ .
٥ - ظ : نفسه : ١٠٣.
٦ - نفسه .
٧ - هكذا ورد والأصوب : زيادة على ما .
٨ - ظ : اللغة العربية معناها ومبناها :١٢٥، وينظر معه أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة :١٥٧ - ١٦١ .

تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق . ثم تختص كل طائفة من الأدوات بوظيفة خاصة كالنفي والتأكيد وغيرهما ، إذ تكون الأداة العنصر الرابط بين أجزاء الجمل كلها ، حتى تتمكن الأداة وحدها – عند حذف الجمل أن تؤدي المعنى كاملا كالذي نراه في عبارات مثل : (لِمَ؟ وعمَّ ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وربما ! وإنَّ ولعلَّ ، وليت ...) ، فيكون المعنى الذي تدل عليه هذه الأدوات هو معنى الجمل كاملا ، وتحدده القرينة بالطبع [١] ، وقد فصَّل الأستاذ تمام السمات التي تنفرد بها الأدوات عن بقية أقسام الكلام من حيث الرتبة والتضامّ والرسم الإملائي والتعليق والمعنى الجملي [٢].

إن توسع أدوات البحث العلمي مكَّنت العلماء المحدثين من رصد سمات الحروف الرئيسة وتتبع طبيعتها وتحديد وظيفتها في بناء الكلام العربي ، فلها المكانة المتينة في ربط أجزاء الكلام ، وتعليق بعضه بأطراف بعض ، وصياغة معنى الجملة إنما يتوقف على المعنى أو المعاني التي تؤديها الحروف داخل هذه الجمل .

والباحث الرابع الذي نذكره ههنا هو فاضل الساقي الذي أيَّد في كتابه (أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة) الأقسام التي انتهى إليها أستاذه تمَّام حسَّان ، إذ يقول : ((وعلى ذلك فستكون أقسام الكلام عندنا سبعة هي (١- الاسم ٢- الفعل ٣- الصفة ٤- الخالفة ٥- الضمير ٦- الظرف ٧- الأداة) ...))[٣] ، وذكر الساقي أن الأدوات جميعا هي أحد مباني التقسيم لا تدخل في علاقات اشتقاقية ، فليس لها صيغ معينة ، ووظيفتها الأساسية هي التعليق ، بمعنى أن الأداة تحمل وظيفة الأسلوب أو الجملة وهذا هو معناها الوظيفي ، وتشترك الأدوات جميعا في دلالتها على معان وظيفية خاصة بجانب المعنى الوظيفي العام (التعليق) :((ذلك أن الأداة وما بني من الشبه المعنوي بها لا يؤديان معاني معجمية ، وإنما يؤديان معاني وظيفية في السياق .)) [٤] .

ولم يخالف الساقي آراء أستاذه تمَّام حسَّان إلاَّ في مسألة تقسيم الأدوات ، فهو لا يرى ضرورة في تقسيم الأداة على أصلية ومحوَّلة ؛ لأسباب بينها في محلها ببحثه [٥]، وعلى هذا فالأدوات عنده تتضمن :

١. ما يسمى عند النحاة بـ(بحروف المعاني) .
٢. بقية أدوات الاستفهام التي كانت تعدُّ عند النحاة من الأسماء.
٣. كان وأخواتها ، وكاد وأخواتها.
٤. أداة التعجب (ما) و(كم) الخبرية التي تفيد التكثير . [٦]

وفي نهاية بحثه يضع لنا الساقي مميزات الأدوات ، وهي :

- لا توصف ولا يوصف بها فلا تكون مسنداً ولا مسنداً إليها ولا يخبر بها ولا يخبر عنها.
- تؤدي وظيفة التعليق ووظيفة الربط بين أجزاء من الكلام وتعبر عن العلاقات السياقية .

---

١ – ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ١٥٧- ١٦١.
٢ – ظ: نفسه .
٣ – أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٩٣ .
٤ – ظ: نفسه : ٢٠٦.
٥ – ظ: نفسه : ٢٦٦.
٦ – ظ: نفسه : ٢٦٥.

- لا تدخل في جدول تصريفي أو إسنادي وليس لها صيغة معينة .
- رتبة أدوات الجمل الصدارة دائما ، ورتبة حروف المعاني التقدم على مدخولاتها .
- لا يأتلف من الحرف والفعل كلام ، ولا يأتلف من الحرف والاسم كلام ، ولا يأتلف من الحرف والحرف كلام .
- لا تثنى ولا تجمع ، ولا تنون، ولا تضاف ، ولا تقبل أداة التعريف (الـ) .
- تتسم بالبناء ما عدا (أي) .
- لها نظام إملائي خاص .
- تفتقر بشكل متأصل إلى الضمائم .
- يدلُّ بعضها على الزمن دلالة معجمية .
- لا تقبل علامات الأسماء أو الصفات أو الأفعال على أيَّة حال .[١]

لم يبتعد مفهوم المحدثين للأداة كثيراً عن المفهوم الذي حدده النحاة القدماء للحرف فهي ((ليست أكثر من وسائل وظيفتها التعبير عن العلاقات الداخلية بين أجزاء الجملة ...))[٢] ، وهذا ما قصده هنري سويت حينما تبنى مصطلح (كلمات كاملة Full words) و مصطلح (أدوات Form-words) للتعبير عن نوعين من الكلمات في اللغات ، فالطائفة الأولى تمثل كلمات لها مضمون أغنى وأكثر تحديدا من الطائفة الثانية (الأدوات) التي هي ليست إلاَّ حالات وسطى بين (الكلمات الكاملة) و(العناصر النحوية) ، ويقول ستيفن أولمان:((ليست هنالك حدود دقيقة بين النوعين .))[٣]، فعلماء الغرب المحدثون يجدون قدراً من الصعوبة في تحديد أقسام الكلم بمقدار ما كان اللغويون العرب يجدونه عند تحديد تلك الأقسام وتسويرها بأسوارٍ لا يمكن تجاوزها ، يقول فندريس :((تبلغ الصعوبة في تصنيف أجزاء الكلم حدَّاً يعوقنا حتىً الآن عن الوصول إلى تصنيف مرضٍ .))[٤]، لكن اختلاف النظرة الشخصية، واختلاف الطاقات التعبيرية، واختلاف مناهج الدرس النحوي بين التعليمية والوصفية ، كل ذلك جعل قسما من العلماء ينظر في أسوار تلك الأقسام وحدودها ، وآخر ينظر إلى وظيفتها ودورها .

٤- الحروف والأدوات :

لم يستعمل النحاة القدماء لفظة الأداة إلاَّ للدلالة على معناها اللغوي ، وهو الآلة التي تقيم حرفة صاحب الحرفة ، وأداة الحرب سلاحها [٥]، ولعلَّ أهم ما نستطيع رصده من استعمالات القدماء لهذه اللفظة ، قول الخليل (ت١٨٠هـ):((وكلُّ حرفٍ أداةٌ إذا جعلت فيه ألفاً ولاماً صار اسماً قوي وثقل .)) [٦]، يعني أن كل حرف هو أداة وآلة للربط ، ويقول عن كل من : (إلى) و(في):((حرف من حروف الصفات .)) [٧]، فهو يستعمل حرف لتدلَّ على المعنى الاصطلاحي

---

١ - ظ : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٢٦٧- ٢٦٨ .
٢ - دور الكلمة في اللغة :٥٨ .
٣ - نفسه :٥٦ ، وينظر معه : اللغة :١٥٥ ، اللغة والمعنى والسياق: ٦٠ ــ ٦٥.
٤ - اللغة :١٥٥ .
٥ - ظ : العين: مادة (أدو): ٨ \٩٨ ، لسان العرب :مادة (أدا) : ١٤\٢٥ .
٦ - العين : مادة (هل) ٣\٣٥٢ .
٧ - العين :مادة (إلى) و(في) : ٨ \ ٢٥٦ ، ٤٠٩ .

الاصطلاحي للقسم الثالث من أقسام الكلم ، أما لفظة (الأداة) فكان يستعملها لتدل على معناها اللغوي العام . فهي بعدُ لم تتجذر مصطلحاً نحوياً ، وإذا أردنا أن نتوسع أمكن القول : إن الخليل ((يستعمل الحرف في حديثه عن حروف المعاني والأسماء ، ويستعمل الأداة بمعنى الآلة أو الرابطة.))[١]، وهذا يعني أن بينهما عموما وخصوصا من وجه .

أما سيبويه فلم نره قط يستعمل لفظة الأداة ، وإنما كان يستعمل لفظة الحرف للدلالة على القسم الثالث من أقسام الكلام العربي . ووردت لفظة الأداة عند المبرد لكنها كانت تعني الآلة التي لها قوة العمل في غيرها من المفردات سواء أكانت حروفا أم أفعالا ، فهي العوامل . يقول المبرد(ت٢٨٦هـ) :((إعلم أن الأفعال أدوات للأسماء تعمل فيها كما تعمل الحروف الناصبة والجارَّة ، وإن كانت الأفعال أقوى في ذلك .))[٢]، ويقول في موضع آخر عن (إن) :((أصل أدوات الشرط ، والهمزة أصل الاستفهام ، وإلاَّ أحق بالاستثناء والواو أحق بالعطف.))[٣]، فمثلما أطلق على الأفعال (أدوات) وقاس عملها على عمل الحروف العاملة في الأفعال أو الأسماء ، يقول عن الحروف (أدوات الشرط) ، ويقصد بها أن لها قوة العمل في غيرها ، فالأدوات هي العوامل .

فالنحاة الأوائل كانوا يضعون مصطلح (الحروف) قسيماً للأسماء والأفعال ، ولم يستعمل أحد منهم مصطلح (الأداة) بدلا منه ، وإنما كان استعمال هذه المفردة مسانداً لمفردة الحرف أو مخصصاً لها و((الذي يدفعنا إلى القول :[إن البصريين استعملوا الأداة بمعنى الآلة وليس بمعناه الاصطلاحي] هو أننا لم نجد نصَّاً صريحا تلقب فيه حروف المعاني بالأدوات ، كأن يقال (نعم) أداة ، أو (أن) أداة ،... والدليل الآخر استعمال المبرد لمصطلح (الآلة) صراحةً للدلالة على بعض المفردات.)) [٤].

ومال الكوفيون شيئاً فشيئاً إلى إبدال لفظة الأداة للدلالة على القسم الثالث من أقسام الكلام ، وأصبحوا يتبنون هذا المصطلح [٥] . فالفراء(ت٢٠٧هـ) يستعمل مصطلح الأداة ليدل على حروف المعاني صراحة وذلك في معرض كلامه عن تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾(الكهف:٦) ، قائلاً : (((أنْ) في موضع نصب لأنها كانت أداةً بمنزلة (إذ) فهي في موضع نصب .)) [٦]، ولكنا لا نعدم استعمال الفراء لمصطلح الحروف أيضاً[٧].

وعلى هذا يكون الفراء أوَّل من استعمل الأداة بمعناها الاصطلاحي ، إذ جعله الفراء في مقابل ما يسميه البصريون (حروف المعاني) [٨] . ولما كان المصطلح في مرحلة المخاض ولم يستقر بَعْدُ ، فليس غريباً أن نرى ثعلباً(ت٢٩١هـ) يستعمل مصطلح (الأداة) بمعنى (الإضافة)[٩].

وبعد مدَّة من الزمن تسنى لأبي بكر بن الأنباري(ت٣٢٨هـ) أن يستبدل بمصطلح (الحرف) مصطلح (الأداة) ، وذلك عندما قسَّم الكلم على((اسم وفعل وأداة))[١٠]، ويبدو أنه قدم

١ - حروف المعاني في معجم لسان العرب : ٢٥ .
٢ - المقتضب : ٨٠\٤ .
٣ - نفسه :١٦\٤.
٤ - حروف المعاني في معجم لسان العرب :٢٧ .
٥ - ظ : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو :٢٤٢ ، المصطلح النحوي :نشأته وتطوره:١٧٤.
٦ - معاني القرآن :٥٨\١ ، ولمزيد من الأمثلة ينظر : ٥٢\١، ٤٦٧ ، ٢\١٣، ٢٣٦ ، ٨٤\٣ .
٧ - ظ : معاني القرآن :٢٦٨\١.
٨ - ظ : المصطلح النحوي نشأته وتطوره : ١٧٤.
٩ - ظ : مجالس ثعلب :١\ ١٥٨ ، ٥٩٠\٢ ، حروف المعاني في معجم لسان العرب :٢٨ .
١٠ - ظ : المذكر والمؤنث :١٦٦-١٦٧، ٤٤٩ .

على هذه الخطوة على استحياءٍ ، إذ لم يترك مصطلح الحرف البتَّة ، بل كان يورده على قلَّة[1]. وبذا يكون أوَّل كوفيٍّ يضع مصطلح الأداة بصورته النهائية بدلاً من الحرف في تقسيم الكلم ، إن لم يكن أوَّل النحويين عامةً .

وبعد هذا أصبحنا نجد من يعرِّف الأداة بتعريف الحرف الشهير ، يقول أبو عبد الله الطوال (ت٢٤٣هـ) :((الأداة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.)) [2] ، ويقول أبو نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ) :((الأداة لفظٌ يدلّ على معنى مفرد لا يمكن أن يفهم بنفسه وحده دون أنْ يقرن باسم أو كلمة.)) [3] .

إن عدم استقرار مصطلح (الأداة) واستقلاله عن مصطلح (الحرف) جعل ثلَّة من العلماء يستعملون المصطلحين في كتاباتهم ومؤلفاتهم ، فابن يعيش(ت٦٤٣هـ) ، وابن مالك(ت٦٧٢هـ)، وابن الناظم(ت٦٨٦هـ) ، وابن عصفور(ت٦٦٩هـ) ، وغيرهم يستعملون مصطلح الأدوات في دلالته العامة [4]، إذ يطلق في أبواب مثل الاستثناء ، والنفي ، والاستفهام ، وهذه الأبواب تتضمن ألفاظاً لم تثبت اسميتها عند النحاة جميعا ، وفيها أيضاً أسماءٌ أو أفعالٌ ، أما مصطلح الحروف فكان يطلق في الأبواب التي تشتمل على حروفٍ فقط ، ولا يشوبها شيءٌ ، مثل أبواب (حروف الجر) و(حروف العطف) و(الحروف الناصبة للفعل) ، فمصطلح الأداة أخذ يطلق في الأبواب التي تحوي ألفاظاً عاملة ليست خالصة الحرفية بل تختلط بها مع الحروف أدوات أخر ، فهو مصطلحٌ عامٌ ، والحروف مصطلحٌ أخصُّ منه .

بقي مصطلح الأداة يتأصل شيئاً فشيئاً بين البصريين والكوفيين ، ثم على يد النحاة الآخرين ، وتتضح معالم المصطلح جليَّةً في تعريفي ابن القيم(ت٧٥١هـ) ، والسيوطي(ت٩١١هـ) ، فالأوَّل يقول : ((الروابط بين جملتين هي الأداة التي تجعل بينهما تلازما لم يفهم قبل دخولها .))[5] ، والسيوطي يقول : ((وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف .)) [6].

تجسد الاضطراب وعدم الاستقرار في مصطلح (الأداة) جلياً في الكتب التي عنيت بحروف المعاني ، وعلى أن مصطلح الحروف كان الأكثر انتشاراً وشيوعا في هذه الكتب ، إننا نجد مصطلح الأداة مستعملاً بوضوح ، إذ أطلقت لفظة الأداة في كتابي (حروف المعاني) للزجاجي(ت٣٣٧هـ) ، و(الأزهية) للهروي(ت٤٥١هـ) على الحروف وغيرها[7]، وعلى أن الزجاجي سمَّى كتابه (حروف المعاني) إلاّ إنه أدخل فيه أصنافا من الأدوات لا تدخل تحت قائمة الحروف ، فقد أدخل أسماءً ، وأفعالاً ، وظروفاً ، بل عدَّ (التحيَّات لله) و(لبيك وسعديك) و(غفرانك لا كفرانك) من الحروف[8]، أما المؤلفون في القرن الثامن فالظاهر أن رؤيتهم للمصطلح كانت أوضح ، فالمالقي(ت٧٠٢هـ)، والمرادي(ت٧٤٩هـ)، وابن هشام (ت٧٦١هـ) يستعملون الأداة جنساً يضم تحته أنواعاً من الحروف والأسماء والأفعال وربما الظروف [9]. ثم ثم إن ابن هشام استعمل لفظاً آخر ليجعله دالاً على ما يدلّ عليه كلٌّ من (الحرف والأداة)

---

١ - ظ : المذكر والمؤنث :٤٤٩، ٦٧٤ .
٢ - الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل :٧٦ .
٣ - نفسه .
٤ - ظ : شرح المفصل:٨\ ٢-٣ ،٤٢–٤٣، شرح ألفية ابن مالك:١٢٨ ،٢٧٣ ،٢٨٤ ،٢٨٦،المقرب:١\١٧٥، ١٩٣ ،٢٢٩ ،٢٧٤، ٢٩٢ ،٢٩٤، ٢٩٧.
٥ - بدائع الفوائد :١\ ٤٣ .
٦ - الإتقان في علوم القرآن :١\١٤٥ .
٧ - ظ : حروف المعاني : ١ ،٧١ ، الأزهية :١١، ٩٨ ، ١٣٢، ٢٦٨ .
٨ - ظ : حروف المعاني : ٢٢ ، وينظر معها الصفحات : ٧، ٩ ، ١٢، ١٦،١٤، ١٧، ٢٦، ٢٧، ٧٣ .
٩ - ظ : رصف المباني :١٨٥،١٠٠،٩٨،١٦، الجنى الداني:٤٣٣،٤١٤،٣٧٠،٢٧٦،١١٧،٩٧، مغني اللبيب:١٠٢،٥٨،٥٥،١٧.

بصورتهما العامة فأطلق لفظة (المفردات)، ويعني بها ((الحروف وما تضمن معناها من الأسماء والظروف .)) [1].

وجد المحدثون الباب أمامهم مفتوحا ، قد سبقهم القدماء في توطئة مصطلح الأداة لإدخال أصنافٍ أخرى من الكلم يعتقدون أنَّ من حقها أنْ تجمع مع الحروف ، وهذا ما فعله إبراهيم أنيس ، ومهدي المخزومي ، و تمَّام حسَّان ، وتلميذه فاضل الساقي . فقد ضمَّ كلٌّ واحدٍ منهم مفرداتٍ يرى أنَّ لها صفاتٍ مشتركةٍ تسمح له بضمها إلى (حروف المعاني) وتشكل معها قسيماً واحداً لأصناف الكلم في العربية بجامع واحد ، وكان هذا الجامع هو (إفادتها التعليق) ، على أن لكل مجموعة منها معنىً خاصاً بها .

وخلاصة القول : أن مصطلح الحرف كان سابقاً في الظهور لمصطلح الأداة بوقت ليس بالقليل ، وقد مرَّ مصطلح الأداة بتحولات ومراحل حتى استقرَّ على يد المتأخرين من النحاة ، فأضحى الحرف يطلق على ألفاظ الأبواب التي تتضمن الحروف فقط ، مثل أبواب (حروف الجر) و(حروف العطف) و(الحروف المشبَّهة بالفعل) و(الحروف الناصبة للفعل المضارع) ، أما الأداة فهي أعمُّ وأشمل ، إذ تطلق في الأبواب التي تشتمل مع الحروف على الأسماء أو الأفعال أو الظروف . وقد ترسخ هذا الفهم عند المحدثين لذا نراهم حينما يريدون تعريفها صاروا يشيرون إلى الناحية الوظيفية التي تجمع هذه المفردات ، فالأداة ((كلمة تؤدي وظيفة نحوية عامة، وهذه الوظيفة تتضح بالتعبير عن المعنى النحوي العام للجمل والأساليب.))[2]، وهي ((روابط تربط أجزاء الجملة بعضها ببعض وتدل على مختلف العلاقات الداخلية بينها.))[3].

إن لهذه الروابط الأثر الأكبر في توجيه المعنى في الجمل ، وهي تمثل مرحلة الارتقاء اللغوي ، والى هذا يعزوا العلماء عدم ظهور الروابط في لغة الأطفال في المراحل الأولى من تعلمهم اللغة ، فتبدو لغتهم عارية من الحروف والروابط ولا تظهر إلاَّ في مرحلة متأخرة جداً[4]، فـ((أوَّل ما نلحظه عند الطفل ظهور أسماء الذوات بادئ ذي بدء ، ثم الأفعال والصفات ، ثم الضمائر ، وأخيرا الحروف ، وما يشبهها من ظروف وأسماء شرط ...)) [5].

إن اللغات التي تحوي ثروة أو وفرة في الحروف والأدوات لغات راقية ، قد مرَّت بمراحل تطور كبيرة ، حتى وصلت إلى تنوع أساليب ربط الكلام وتعليقه ((وقد أحرزت العربية بفضل أعمال شعرائها تطوراً عظيماً في هذه النقطة يتجلى في ذلك العدد المهم الذي بلغته روابط التعليق .))[6].

وعلى الرغم من اختلاف المصطلح بين البصريين والكوفيين ، واستعمال بعضهم (الحروف) والآخرين (الأدوات) ، وما صار إليه المحدثون من فهم لمصطلح (الأدوات) ، إن حروف المعاني بقيت عند الجميع قسماً قائماً برأسه أو أساساً مهماً لصنفٍ قائم برأسه – كما هي عند المحدثين – لها مميزاتها الخاصة ووظائفها المعتمدة . ورغبةً في تركيزِ العمل وترصينه لضبط نتائجه سيقتصر البحث على (حروف المعاني) دون بقية الأدوات ، وتحديدا الثنائية والثلاثية منها .

---

١ - مغني اللبيب : ١٧ .
٢ - أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٢٦٢ .
٣ - دراسات في الأدوات النحوية :٢٤ ، وينظر معه : إسناد الفعل :١٣٩.
٤ - ظ: علم اللغة : ١٠٤- ١٠٥
٥ - في فلسفة اللغة :٢١٧ .
٦ - العربية الفصحى : ١٨١ .

المبحث الثاني : أثر المستويات الكلامية في استعمال المفردات.

الأمر الأوَّل : اللهجات العربية واللغة المشتركة .

اللغة مجموعة تقاليد صوتية تنتجها الجماعة اللغوية ، وتورثها أبناءها ، فيلتزمونها على وفق الأعراف التي حددتها لها آباؤهم ، فهي أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز إلى عناصر معيشته ، وطرق سلوكه ، لذا يرعى المجتمع النظام اللغوي الذي ينتجه ، ويأخذ الناس بالمحافظة عليه ، وليس لمن يخرج عن أعرافه ومواضعاته عذرٌ ، فالفرد الذي يتكلم بلغة مجتمعه ((يستعمل أصواتها وصيغها ومفرداتها وتراكيبها ، بحسب أصول استعمالية معينة بعد أن يحذقها ويمرن عليها بالدربة والمشاركة المستمرة في التخاطب ، فتصبح سلوكا اعتياديا يصدر عنه دون عنت أو مشقة .))[١] ، ولو حاول الفرد أن يَتمرَّدَ على أعراف لغته فيخرج عن أنظمتها لنكره أفراد مجتمعه ، ولم يتواصلوا معه في الخطاب ، لان أداة التواصل بينهم تتعكر، وقد ينقطع سبيل الإفهام والتفهيم .

ثم إن اللغة كائنٌ حيٌّ ، تولد وتنشأ وتنمو وتتطور ، وقد تمرض ، وتهرم وتموت [٢] . تخضع في ذلك لنواميس طبيعية تتعلق بحياة متكلِّميها ، وطبيعة مجتمعهم ، وحال نموه وتقدمه ، أو تأخره وتراجعه .

ولدت اللغة العربية في عمق الصحراء ، وعلى رمالها وبين قبائلها ترعرعت ، وامتدت جذورها بعيداً في أعماق الزمن ، ولكن جزيرة العرب اتسمت بسعتها ، وتباعد أطرافها ، وتعدد قبائلها ، ولم تكن أسباب التواصل بين هذه القبائل يسيرةً إلى حدٍّ ما ، فكانت أكثر القبائل منعزلة بعضها عن بعض في بطون الصحراء ، ولا تكاد تغادر مواطنها إلا في ظروفٍ خاصَّةٍ ، فكانت لكل قبيلة سمات لغوية محلية ، يمكن تسميتها لهجة تلك القبيلة ، قد تشارك بها قبيلة أُخرى ، وقد تتفرد بها ، ولم يكن أبناء القبائل العوام يدركون هذه السمات ، وإنما هم ينطقون بها على وفق السليقة التي فطروا عليها . إن لهجة كل قبيلة كيان لغوي ، لكن يصعب بل قد يتعذَّر تحديد حدوده وفصله من بين لهجات القبائل الأخرى [٣].

وفي مناطق أخرى من الجزيرة مثل(مكة) كان الحال مختلفاً تماماً ، فقد امتلكت أُم القرى مقوماتٍ دينية ، واقتصادية ، وسياسية ما جعلتها محطَّاً لقوافل القبائل العربية جميعاً ، تجتمع فيها وتتفاخر وتنشد و تمتار وتمارس نشاطاتٍ متعددة في أوقات مختلفة من السنة[٤].

هذا التفاعل والتقارب بين القبائل في بقعة معينة ولَّد نواةً للغة مشتركة تتميز بخصائص معينةٍ مكَّنت الجميع من تقبلها واستعمالها لغةً معبرةً عن المشاعر والأفكار دقيقةً أمينةً في ذلك ، وحالها في هذا حال اللغات الأخرى ففي ((كلِّ بلاد العالم لابدَّ للغة المشتركة من مكان متميز تنشأ فيه ، وأسباب وظروف معينةٍ تساعد على تكوينها وازدهارها.))[٥] ، وهذا ما نفهمه نفهمه من إشارة ابن فارس إلى أن قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، كانت تقود حملة التوحيد بين لغات القبائل العربية[٦] ، لإنتاج اللغة العربية الفصحى أو المشتركة ، فاللغات المشتركة تقوم دائماً((على أساس لغة موجودة ، حيث تتخذ هذه اللغة الموجودة لغة

---

١ - ظ : النقد اللغوي عند العرب : ١١- ١٢ ، وينظر معه : اللغة والمجتمع : ٤- ٥ ، اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٨ .
٢ - ظ : اللغة والمجتمع : ١٠٩ ،١٩٥- ١٩٨ ، النقد اللغوي عند العرب : ٣٥٠.
٣ - ظ : اللغة : ٣٢٦- ٣٢٧ .
٤ - ظ : مستقبل اللغة العربية:٧ ، لغة الشعر في هاشميات الكميت : ٢.
٥ - فصول في فقه العربية:٧٨.
٦ - ظ:الصاحبي في فقه اللغة: ٥٢ ــ ٥٣ ، مجالس ثعلب :١/٨٠- ٨١ ، الاقتراح :٥٦-٥٧ ، ١٩٨، المزهر:١/٢٠٩- ٢١٠.

مشتركة من جانب أفرادٍ مختلفي التكلم .))[١] ، ولا يعني ما سبق أن تلك الحملة كانت منظمة وعلى وعيٍ وشعور ، بل هي عمليةٌ لا شعوريةٌ، و إحساسٌ لا واعٍ ، تنتجه طبيعة الاختلاط ، يقود المتكلِّمين إلى اختيار مقومات هذه اللغة الفصحى ، ويفرض عليهم حسَّها وروحها التي ينبغي أن تكون عليها لتصبح أداة فاعلة توصل إلى أهدافها المتوخاة . ولما كان هذا الاختلاط حاصلاً بين طبقةٍ خاصَّة من أبناء القوم - الشعراء والخطباء والحكماء والتجار- فمن البديهي أن تكون لغتهم خاصَّة أيضا ، تسمو في تعبيرها إلى مستوىً أرفع من مستوى التخاطب اليومي والعامي.

وخلاصة القول أن الفصحى كانت اللغة الأدبية المشتركة وهي حصيلةُ انتقاء جمعي لا واع من اللغات (اللهجات) المحلية للقبائل المختلفة ، وكانت لغة دائرة على ألسنة الخاصَّة من القوم ؛ وعند هذا بقيت لغات القبائل المحليَّة حبيسةً في أماكنها- حتى حين- وكان ممثلو القبائل حينما يفدون على مواطن اجتماع العرب يتجاهلون الخصائص المحلية للغات قبائلهم ، ويعمدون إلى اللغة المشتركة – وهذه سنة متبعة إلى اليوم وفي المجتمعات أجمع- ولهذا السبب كان الشعر الذي ((ازدهر في القرن السادس الميلادي في كلِّ وسط الجزيرة العربية وشماليّها ، حتى أسفل الفرات ، وما وراء ذلك ، هذا الشعر يستخدم لغة موحَّدة .)) [٢]، و((لا نكاد نرى في شعر شعراء القبائل المختلفة من السمات اللهجية البيئيَّة شيئا .)) [٣]، وهذا السبب نفسه جعل قسماً من الباحثين والمستشرقين ينكر وجود تلك الحدود الفاصلة بين اللهجات والفصحى لاختفائها في أشعار القبائل العربية[٤]، على حين((إنَّ خاصيَّة اللغة المشتركة الأساسية أنها لغة لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً .))[٥] .

ولا يعني ما سبق أن اللغة العربية الفصحى قضت على تلك السمات اللهجية للقبائل ، إذ كانت لغة الصفوة من المتكلمين ، ولم يتكلمها عامَّة الناس وسوادهم في شبه الجزيرة العربية ، بل إن في لغة القرشيين أنفسهم خصائص كانوا يتخلون عنها عندما يتكلمون الفصحى[٦] ، وهكذا يتبين أن ((اللغة العربية المشتركة تتصف بأنها لغة فوق مستوى العامَّة من العرب ، وأنها لغة الآثار الأدبية ، وأنها لغة منسجمةٌ موحَّدةٌ خالية من الخواصِّ المحليَّة ، ولذلك لا يصحُّ أن نقول عنها إنها لغة سليقة لكل العرب .)) [٧] ولعلَّ أدلَّ شيءٍ على هذا ((إنَّ صاحب اللغة الذي يتكلمها بالسليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة ، دون أن يدرك أنه أخطأ ، فالإنجليزي لا يخطئ في كلامه إلا إذا قسنا كلامه بمستوى لغوي آخر فوق كلام الناس ، ونحن في كلامنا بالعاميَّة لا نخطئ ،...، ولا يُتصور وقوع اللحن من صاحب السليقة اللغوية في أيَّة ظاهرة من ظواهر لغته في تركيب أصواتها ، أو في ترتيب الكلمات بجملها أو في صيغها ، أو في طريقة النفي والإثبات ،...، ونحو ذلك .)) [٨] ، وهذا الكلام وإن كنت أرى فيه شيئا من المغالاة ؛ إذ قد يخطئ ابن البيئة اللغوية وإن كان يتكلمها سليقة ، إن فيه دليلا واضحا على أن لغة العرب الفصحى لم تكن لغة سليقة للقبائل العربية كلها .

نعم لم تكن اللغة العربية الفصحى لهجة قريش أو لغة قريش ، وإن كان لها النصيب الأكبر في تكوينها ، فهي الأساس الأوَّل والركن المتين الذي قامت عليه هذه اللغة . لكنها في الوقت نفسه اعتمدت في اكتمالها على اختيار بعض الصفات الطيبة من اللهجات العربية المختلفة ، فهي مزيج منسجم من خصائص اللهجات كلها ، فلا تستطيع قبيلة أن تدعيها

---

١ - اللغة:٣٢٨.
٢ - اللغات الساميَّة:٧٤.
٣ - مستقبل اللغة العربية :١٢، في اللهجات العربية :٣٦-٤٧.
٤ - ظ : فصول في فقه العربية :٧١، وما بعدها ، الأصول : ١٠٦-١٠٧.
٥ - اللغة :٣٤١.
٦ - ظ : فصول في فقه العربية :٨٣ ، الأصول: ٧٤-٧٥.
٧ - فصول في فقه العربية : ٩٠-٩١.
٨ - من أسرار اللغة : ١٨٩.

لنفسها[١]، وما تسميتها بلغة قريش إلاَّ من باب التغليب ، أو من بـاب تسمية الشـيء باسم محلـَّه ومكانه .

وبعد استقرار هذه اللغة واستوائها وامتلاكها قدرة عالية على التعبير ، نـزل القرآن بها ليزيدهم بها استمساكاً ، وحولها التفافاً ، وأخذت تتسم بالقدسية ، ومثـَّل القرآن الكريم النموذج الأدبي الأرقى في دنيا اللغة العربية ، فتوارت بعده اللهجات المتطرفة والمذمومة كلُّها من الاستعمال العامِّ[٢] ، وكان تحديه لخاصة العرب وبلغائهم أن يأتوا بمثله ، أو بآية من مثله أدعى أدعى إلى تثبيت تلك الوحدة اللغوية [٣] ، ومع كلِّ هذا يمكن أن نجزم مطمئنين أن ((عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة ، وإنما كانوا يعبرون بلهجاتهم الخاصَّة وتظهر على تعابيرهم صفات لهجاتهم،وخصائص ألحانهم .)) [٤].
هكذا وصل إلينا الأدب العربي – إلى حدٍّ كبير – خلواً من خصائص اللهجات المحلية ليدل على شيوع اللغة المشتركة ، وابتعاد الرواة والشعراء عن كثير من العادات الكلامية التي عرَّضتهم للنقد في أسواق قريش ومواسمهم الأخرى في جزيرة العرب .

الأمر الثاني : غاية النحو العربي ومناهج البحث اللغوي الحديثة .

إن الغيرة على القرآن ومحاولة صونه من التحريف على ألسنة الناطقين به – بعد حين من نزوله – كانت السبب الرئيس الذي دفع المسلمين لإنشاء النحو العربي يقول ابن خلدون : ((وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك المَلَكَةُ رأساً ، ويطول العهد ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه .))[٥] .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن ينضمَّ إلى هذا السبب عوامل أخرى تعمل على إنشاء علم النحو العربي وتطويره ، فانضمَّ لما سبق عاملٌ قوميٌّ وآخر سياسيٌّ [٦] ، لكنَّ وضعاً كهذا تختلف فيه الغايات التي من أجلها يقام الدرس النحوي ، يقود إلى اختلاف طرائق البحث ، فطرق الوصف في استنباط القواعد تختلف عن طرق الدراسة التعليميَّة لصيانة الألسنة من الخطأ في النطق ، ومع ذلك يبقى القرآن محور الدراسات اللغويَّة . ثم إن قواعد اللغات – عموماً – تستلُّ مما أَلِفَ أبناءُ البيئةِ اللغويةِ استعماله – أي من كلامهم – بعد جمعه وموازنته وتمحيصه ثمَّ استخراج القواعد ، واستنباط القوانين التي تحكمه ، وليست العربية بدعاً من غيرها من اللغات ، فقد استلت قواعدها من مجموع كلام أفرادها . لكنَّ الواقع اللغوي الذي سعى اللغويون والنحاة الأوائل إلى حصره واستيعابه قد لا يوافق ما يشترطه علم اللغة الحديث من ضوابط في الشواهد اللغوية . وقد انتهت مناهج البحث اللغوي الحديثة إلى جملة من الشروط والضوابط ينبغي توافرها في الكلام الذي يأخذ نموذجاً للدرس والتحليل .

فمنهج البحث اللغوي الوصفي يشترط – لضبط نتائجه واطرادها – شروطاً يجب توافرها في المادة اللغويَّة المدروسة هي: تحديد الزمان والمكان والمستوى الأدائي [٧] ، فعلى مستوى الزمان ((هناك نمطان للدراسة اللغوية الدراسة الأولى هي الدراسة التعاصريَّة وتدعى

١ - ظ : مستقبل اللغة العربية المشتركة :٩ ، النقد اللغوي عند العرب :٢٦.
٢ - ظ : في اللهجات العربية :٣٤.
٣ - ظ : دراسات في فقه اللغة :٥٩ .
٤ - نفسه :٦٠ ، وينظر معه: الخصائص : ١\٧٥ ، توطئة لدراسة علم اللغة : ٣١- ٣٤ .
٥ - تاريخ ابن خلدون :١\٥٤٥.
٦ - ظ : الأصول : ٢١-٢٧.
٧ - ظ : اللغة العربية ، معناها ومبناها :١٣-١٤، الأصول:٩٤-١٠٩، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة:١٥- وما بعدها .

أيضا بالدراسة الوصفية ويرمز إليها بالخط أو المحور الأفقي .)) [1] ، فالدراسة الوصفية دراسة لظاهرة من الظواهر إلى جانب الظواهر اللغوية الأخرى المرتبطة بها ، ولكن في عصرٍ واحدٍ ويشترط في تحديد هذا العصر أن تكون اللغة ثابتةً فيه . فالغاية التي يسعى لتحقيقها هذا الشرط هي الفصلُ بين أي طورين مختلفين من أطوار نمو اللغة .

فالعربية مثلا لغة قديمة ، بل هي أقدم لغةٍ حيَّةٍ اليومَ ، قد مرَّت خلال حياتها الطويلة بمراحل تطور مختلفة ومتعددة ، لعلَّها ابتدأت بعملية النقد اللغوي الذي مارسه الشعراء ، وما فرزه من إنماء للغة وتطوير ، وما أن وصلت مرحلةً عاليةً من النضج والرقي حتى نزل القرآن بها ، مُثوِّرا فيها طاقات إبداعية جديدة لم تكن معهودةً من قبل ، وتستمر مراحل التطور في هذه اللغة من خلال انتشارها في البلاد الإسلامية ، واحتكاكها بلغاتٍ عالميةٍ متعددةٍ ، ومع كلِّ مرحلةٍ تخطوها تولدُ ألفاظٌ وأساليبٌ ، وتموتُ ألفاظٌ وأساليبٌ ، تُزوى ألفاظ وتنشط ألفاظ ، وهكذا تكون جدلية الموت والحياة في اللغات . وكلٌّ مرحلة من المراحل تستحق العناية والدرس منفصلة لاستكشاف خصائصها ومميزاتها .

وعلى مستوى المكان فإن اللغة كما تختلف من زمان لآخر ، إنها تختلف أيضا من مكان لآخر ((واللغوي الذي يتبع المنهج الوصفي في دراسته لغةً معينة لابد أن يعمد إلى صورتها الموحدة ، ويستبعد من مجال دراسته صور لغات البيئات الأخرى .))[2]، فالغاية التي يسعى نحوها هذا الشرط : أن لا يخلط الباحث على مستوى التحليل بين لهجة وأخرى ، إذ كل لهجة منها تمثل كيانا مستقلا ، ونظاما متكاملا من أنظمة الرمز العرفي ، وكل علامة فيه ترمز إلى معنى خاص قد يختلف عمَّا في اللهجات الأخرى ، لأن العرف الذي وضع العُلقة بين هذا الرمز ومفهومه يختلف شيئا ما من مجتمع لآخر ، ((ولا شك أن الخلط بين نظامين عرفيين من أي نوع سيؤدي في النهاية إلى عدم تمييز أيٍّ من النظامين ، وهل يمكن لامرئ[3] أن يفهم تقاليد مجتمع وقد خلط بينها وبين تقاليد مجتمع آخر.))[4].

أما مستوى الأداء ، فإن اللغة تتباين خصائصها تبعاً لتنوع طرائق التعبير ، فـ((للشعر لغة خاصَّة به أوضح ما يميزها هو الترخص في القرائن حين يكون المعنى هو الذي يقتضي القرينة وليست القرينة هي التي تقتضي المعنى .)) [5]، إن اللغة في الشعر تستخدم استخداماً مزدوجاً بوصفها وسيلةً وغايةً في وقتٍ واحدٍ ، وهي تؤدي أهمَّ وظائفها حينما تتمكن من إثارة الأحاسيس ونقلها للغير ، وليست الوظيفة الرمزية إلا وظيفة ثانوية في الأدب بوصفها أداةً تخدم الوظيفة الانفعالية ، وفي الوقت الذي لا يجوز فيه للمتكلم باللغة القياسية أن يحيد عن طرق القوم في ما ألفوه من استعمال اللغة ، فلغة الشعر((موقف فسحة وعذر)) [6]، ويجوز فيها فيها ما لا يجوز في غيرها ، و((الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنَّى شاءوا .)) [7]، نعم إن الشاعر له ذلك بحدودٍ . فالعنصر الجوهري الذي يميز لغة الشعر من اللغة القياسية هو تحطيم لغة الشعر لمعيار اللغة القياسية ، وإنَّ هذا التحطيم أو الانحراف الذي تقوم به اللغة الشعرية ليس إلا انحرافاً جمالياً متعمداً ، ذلك إن اللغة الشعرية لا تهدف إلى التوصيل الذي هو مهمة اللغة القياسية ، بل إنها تدفع بهذا التوصيل إلى الوراء ، إذ يصبح هذا التعبير أو القول مقصوداً لذاته.

---

١ - الألسنية ، مبادئها وأعلامها :٤٥-٤٦ ، وينظر معه : توطئة لدراسة علم اللغة :٨٩ – ٩٥ .
٢ - مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة :١٠٠.
٣ - هكذا ورد والأصحُّ : امرءاً .
٤ - اللغة العربية معناها ومبناها : ١٤، وينظر معه : اللغة : ٣٢٦-٣٢٧ ، النقد اللغوي عند العرب : ٣٥- وما بعدها .
٥ - الأصول :٨١ .
٦ - الخصائص : ٣٢٨\١ .
٧ - زهر الآداب :٦٣٣\٢.

إنَّ مهمة التوصيل في الشعر أكثر تعقيداً منها في الخطابة – التي هي فنُّ قوليٌّ أيضا – فبناءُ المعاني فيه قد يفتقر إلى ذلك النظام المنطقي ، أو الارتباط الحقيقي بين أجزائه ولكنه مع ذاك قادرٌ على إيصال المعنى إلى القلب بشكله هذا بسرعة فائقة[1] . وقد أحرزت العربية بفضل أعمال شعرائها تطورا عظيما ، وأصبحت لغة الشعر بما توافر لها من ثروة في صيغها النحوية ورقة في تعبيرها عن العلاقات التركيبية تعدُّ أعلى قمة بلغها نمو اللغات السامية [2] .

إن لكل مستوى نطقي دوافعه ، ومن ثمَّ تصبح له نظم خاصَّة وسمات معينة قد تختلف قليلاً أو كثيراً عن سمات المستويات الأخرى . وقد اصطلح العلماء على أن تكون ((طرائق التعبير في العربية أو مستويات الأداء فيها ثلاثة : الأوَّل المستوى المفهم ، وهو المستوى العام الذي يلجأ إليه أفراد البيئة اللغوية في مخاطباتهم العامة ، وفي تصريف شؤون حياتهم اليومية ، ولا يشترط في هذا المستوى الصحة والسلامة ، أو الخضوع لقوانين اللغة وأنظمتها ويوصف هذا المستوى بـ(العاميَّة) . والثاني :المستوى المفهم الصحيح الذي يعمد إليه أبناء البيئة اللغوية في التعبير عن شؤونهم الفكرية والثقافية ، وهو المستوى الذي تؤلف به الكتب ، وتلقى به المحاضرات والأحاديث ، وتحرر به الوثائق والمدونات الرسميَّة ، وغير الرسميَّة . وأمَّا الثالث: فهو المستوى المفهم الصحيح البليغ ، وهو الذي يعمد إليه الشعراء والكتاب وهو مستوى لا يشترط فيه الصحَّة وحدها كالمستوى الثاني ، بل يطلب فيه التأثير أيضا.))[3].

إن المستوى الثاني من المستويات السابقة هو الأكثر ملاءمة للدراسة والوصف على وفق المنهج الوصفي الحديث ، وذلك لأنه يمثل اللغة مجرَّدة من كلِّ قيدٍ ومطلقة من كلِّ ما ينحرف بها لأسبابٍ فنيَّةٍ عن سمتها المعهود ونظامها الثابت[4]. ولكن قلتُ قبل قليل : إن النحو العربي إنما أُنشِئَ لخدمة القرآن ، والقرآن هو النص الأدبي الأوَّل في لغة العرب ، وقد أُنزل بلغةٍ أدبية خاصَّة كانت معجزةً لكل العرب ، ولم يقدروا على مجاراته ، وعلى هذا ((كان على من يودُّ المحافظة على القرآن أن يدرس اللغة التي أنزل بها ، ولو أن النحاة استخرجوا النحو من لغة التخاطب لما وصلوا إلى ما يريدون ، ولكان ذلك منهم خيانةً للغاية التي سعوا إليها ، وإجهاضاً للغرض النبيل الذي عملوا من أجله.))[5].

ولكن الواقع الذي وصل إلينا عن طبيعة عمل النحاة الأوائل يشير بوضوح إلى إن عملهم لم يكن موفقاً إلى حدٍّ ما – تبعا لقواعد علم اللغة الحديث – في اختيار النماذج التي ينبغي أن تدرس لتقنين قواعد الفصحى ، أو بتعبير أدق لوضع قوانين مستوى نطقي معين كانوا يحاولون الحفاظ عليه وصيانته من الخطأ ، نعم قاد حبُّ اللغويين الأوائل للغة القرآن لتسخيرهم جهوداً كبيرةً جداً في محاولة الحفاظ على لغة الذكر والذود عنها ، ففي الوقت الذي دأب فيه اللغويون والنحويون - مشكورين - في حصر اللغة من جميع اتجاهاتها الزمانيَّة والمكانيَّة والنطقيَّة ، قاد عملهم هذا إلى مساوئ وعيوب في المرحلة اللاحقة - مرحلة التقعيد - تمثلت في أبرز جوانبها بعدم اطراد القواعد ، وكثرة الخروج على القاعدة حتى وصل الأمر في أحيانٍ ما إلى حدِّ النقض ، ثمَّ قادهم هذا إلى التأويل والتقدير، ومن ذلك التعليل لتخريج الكلام في وجهةٍ تتسق مع القاعدة الأصليَّة ، لكنَّ ذلك التقدير كان على حساب المعنى في مواضع ليست بالقليلة ، وقد تهدر بسببه نواحٍ جماليَّة وفنيَّة في الكلام .

وفي سبيل استخراج القواعد قاموا أوَّلاً بحملةٍ واسعةٍ لجمع اللغة العربية بجزئياتها كلها ونماذجها المختلفة ، فرحلوا إلى بطون البادية ، وغاصوا في أعماق الصحراء يسمعون

---

١ - ظ : لغة الشعر في هاشميات الكميت : ٢٢-٢٩ ، وينظر معه : اللغة : ١٨٢-٢٠٢ ، دور الكلمة في اللغة : ١٠٣ ، النقد اللغوي عند العرب:١٣-١٤ ،٢٣، ١٠٥ ، ٣٧١ - ٣٧٢.
٢ - ظ : العربية الفصحى : ١٨٠-١٨١ ، وينظر مقدمة الكتاب أيضا .
٣ - مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٠٠-١٠١ .
٤ - ظ : مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٠١ .
٥ - الأصول :١٠٤.

ويدونون ما ينطقه أهل القبائل المختلفة ، في الوقت نفسه ، كان نفرٌ منهم يدونون كل ما يتناهى إليهم من الأشعار عن طريق الرواة والوافدين على الحواضر من الأعراب ، بل لم يفتهم أن يدونوا كلام الصبية في الطرقات ، وأخذوا اللغة من المجانين وأهازيج النساء[١] .

ونتيجة لهذا الجهد الكبير والعمل الطيب تجمع بين أيديهم كمٌّ هائلٌ من نصوص اللغة القابلة للدرس والتصنيف ، ومع أنهم استشعروا وجود مستويات مختلفة في اللغة - إذ تحدثوا عن الفصيح والأقل فصاحة والرديء والمذموم والشاذ والخطأ[٢]- إنهم لم يعمدوا إلى تصنيف هذه المستويات الكلامية ، ولم يراعوا فرزها وتنسيقها على مجاميع مختلفة وطرق أدائية مختلفة ، فجمعوا المستوى البلاغي العالي الفصاحة إلى جنب اللهجات المحليَّة للقبائل ، وقرنوا الشعر مع الكلام اليومي ، وساووا في الاحتجاج بين لغاتٍ قديمةٍ تناهت إليهم من مرويَّاتٍ شعريةٍ قد تكون منقرضة من الاستعمال الحي والكلام الذي تنطق به الألسن كلَّ يوم .

وحاول النحاة أن يضعوا قواعد اللغة مستمدَّةً من هذا الكم الكبير والمنوع من النصوص ، فقادهم هذا إلى خلط القواعد ، وعدم اتساقها واطرادها ، حتى وصلت القواعد في أحيانٍ حد التناقض فيما بينها ، مثالها قول ابن عقيل :((وقد يرفع المفعول ، وينصب الفاعل عند أمن اَللبس))[٣].

الأمر الثالث : أقسامُ الشاهد النحوي .

تبعاً لطريقة جمع اللغة أصبح الشاهد اللغوي منوعاً فقد مثلت الشواهد المستويات النطقية التي تكلم بها أبناء اللغة العربية جميعها ، ويمكن تقسيم الشواهد اللغوية من حيثيات كثيرة ، فمن جهةٍ تنقسم تبعاً للأفراد الناطقين بها على :

أ: شاهدٌ يمثل: لغة مشتركة.

ب: شاهدٌ يمثل: لغات قبائل محليَّة (لهجات) .

وينقسم من حيث المستويات النطقية على :

المرتبة الأولى : القرآن الكريم .　　المرتبة الثانية : الشعر.

المرتبة الثالثة : الأمثال .　　المرتبة الرابعة : نثرٌ فصيحٌ .

أما القرآن فإنه أبلغ في إثبات القاعدة من الأصناف الأخرى يقول الفراء:((والكتاب أعرب ، وأقوى في الحجة من الشعر.)) [٤] ، وذهب أكثر النحويين إلى الاحتجاج بالقراءات وعدِّها فصيحةً، حتى وإن كانت شاذَّةً ، إلا أنها لا يقاس عليها[٥] .

وأما الشعر فمع أنه يأتي في المرتبة الثانية لكنه كان أوسع انتشاراً في كتب النحاة واللغويين ، وقد قسَّموا الشعراء أصنافاً فهم : جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون ، فالجاهليون والمخضرمون يستشهد بأشعارهم ، وإن كانت شاذة أو خارجة عن سنن كلام العرب

---

١ - ظ : المزهر :١\١٣٩ - ١٤١ ، فصول في فقه العربية :٢٣٠ .
٢ - ظ : فصول في فقه العربية : ٩٦ ، توطئة لدراسة علم اللغة : ٣٦ ، ٥٤ – ٥٦ .
٣ - شرح ابن عقيل : ١\٥٣٥ ، همع الهوامع : ١\١٨٦ .
٤ - معاني القرآن :١\١٤ .
٥ - ظ المحتسب : ١\٣٢ ، الاقتراح :٤٨ .

العام ، وأما الإسلاميون فمنهم من احتج بكلامهم ومنهم من توقف ، وأما المولدون فلم يحتجوا بأشعارهم [١] .

أما الحديث الشريف فقد تعرض لضوابط مختلفة ومعايير متعددة حتى بقي متأرجحاً بين الأخذ به وإدراجه مع القرآن وفي مرتبته ، ومنع الاحتجاج به[٢].

ويمكن أن تنقسم الشواهد اللغوية من حيث وثاقتها ويقينيَّةِ صدورها على :

القسم الأوَّل : الشواهد الموثوق بها :

- القرآن الكريم - وهو أوثقها -
- الشعر الجاهلي - ليس كلَّه -

القسم الثاني : الشواهد غير الموثوق بها :

- الأشعار غير المنسوبة لقائل .
- الأمثلة المصنوعة .
- أشعار المولدين .

وبقي الحديث النبوي يتأرجح بين القسمين تبعا لمعايير النحويِّ واللغويِّ الذي يريد الاستشهاد به أو لا يريد .

الأمر الرابع : أخذ اللغة من طريق السماع وموقف العلماء منه .

ضيَّع الخلط الكبير - الزماني والمكاني و الأدائي – على اللغويين الأوائل فرصة ضبط القواعد الدقيقة للغة العربية الفصحى ، ففي الوقت الذي كان عليهم فيه أن يعتمدوا المستوى الأدائي النثري غير الفني لوضع قوانين اللغة ، لخلوه من الضرورات التي تؤدي إلى خرق نواميس اللغة العامة ، وعندها كانت ستتبين لهم مميزات المستويات البلاغية من غيرها وعوامل ارتقائها عن المستوى العام ، نراهم اعتمدوا الشعر ، بما فيه من ضرورات أساسا أوَّل من حيث السعة والكثرة لتقنين اللغة ، وضمّوا إليه لغات القبائل ولهجاتهم المحليَّة ، بل ما انقرض من كلام الأقوام البدويَّة ، وما تشعب من خطب بلاغية وفنون قوليَّة ، وحاولوا جمع هذا كله في قواعدهم ، ولكن أنَّى لهم هذا !

ولعل نحاة البصرة قد استشعروا ضرورة وضع معيار معين لانتقاء اللغة ، فألزموا أنفسهم ألاَّ يأخذوا ((عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ، ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم .)) [٣]، وكان صنيع البصريين بانتقاء اللغات من قبائل معينة – وهم : قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين[٤] – أقلَّ ضرراً وأكثر انسجاماً في وضع القواعد من عمل الكوفيين الذين كانوا أكثر خلطاً ، إذ فتحوا الباب على مصراعيه أمام المسموع كلِّه ، ولو كان شاذاً أو نادراً ، حتى شاع عنهم أنَّهم ((لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا وبوبوا عليه .)) [٥] ، يقول أبو زيد

---

١ - ظ : فصول في فقه العربية :١٠١-١٠٢.
٢ - ظ : الاقتراح : ٥٢- ٥٥ ، فصول في فقه العربية : ٩٧ – وما بعدها .
٣ - الاقتراح : ٥٦ .
٤ - ظ : المزهر ١\٢١١- ٢١٢ ، الاقتراح : ٥٦ .
٥ - الاقتراح : ٢٠٢ ، وينظر معه : فصول في فقه العربية : ١٠٧.

الأنصاري (ت٢١٥هـ) عن الكسائيّ : ((قدم علينا الكسائيُّ البصرة ، فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم ، ثم صار إلى بغداد ، فلقي أعراب الحطمة ، فأخذ منهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله.))[١]، وقال عنه ابن درستويه(ت٣٤٧هـ) أيضا: ((كان الكسائيّ يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة ، فيجعله أصلا ، فيقيس عليه ، واختلط بإعراب (الأُبلَّةِ) ، فأفسد بذلك النحو .))[٢] ، ووافق ابن جني البصري مذهب الكوفيين هذا في سعة القياس على كلام العرب ، فذهب إلى أن ((ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم .))[٣]، وذهب إلى إن اللغات كلها حجة ، يقول في ذلك :((إعلم إن سعة القياس تبيح لهم ذلك ... وليس لك أن تردَّ إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنَّها ليست أحقَّ بذلك من رسيلتها ، ولكن غاية ما لك في ذلك أن تتخير أحداهما فتقويها على أُختها ... فأمَّا ردُّ أحدهما بالأخرى فلا.))[٤].

والمعيار الثاني الذي ألزم النحاة أنفسهم إياه تحديدهم عصور الفصاحة بمدَّة ثلاثة قرون ، وأجمعوا على أن ابن هرمة (ت١٥٠هـ) آخر من يحتج بشعره ، ويوثق بفصاحته[٥] . لكن هذه المدَّة على سعتها لا تصلح للدرس ؛ إذ أنها شهدت تغيراً كبيراً في اللغة ، تمثل بنزول القرآن الكريم ، وتطور أساليب القول تبعا لذلك ، فضلا عن طولها . فكأنَّ النحاة استشعروا ضرورة تحديد عصر معينٍ للدرس ، لكنهم لم يكونوا موفقين تماما حينما جعلوه ثلاثة قرون نصفها قبل الإسلام ونصفها بعده .

والواقع أن كلا الفريقين- البصري والكوفي- ابتعد عن غايته في نظرتهم هذه ، إذا كانت الغاية هي وضع قواعد للغة الفصحى أو العربية المشتركة . ويبدو أن الذي دفعهم إلى هذا الخلط الكبير أمران :

- أوَّلهما عدم وضوح العلاقات والفوارق بين اللهجات والمستويات النطقية واللغة العربية الموحدة (الفصحى) ؛ ولذلك ((سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة ، وهدفهم هو الوصول إلى تقعيد اللغة الأدبية المشتركة ، غير إنهم لم يفرقوا فيما أخذوا عن هذه القبائل بين تلك اللغة المشتركة ولهجات الخطاب . ومن هنا جاء الخلط والاضطراب ورأيناهم يؤولون كلَّ مثال شذّ عن قواعدهم . ولم يكن الكوفيون أقلَّ منهم حظاً في الاضطراب والخلط لأنهم أخذوا اللغة عن كلِّ العرب ، ولم يفرقوا كذلك بين اللغة المشتركة وأصحاب الخطاب.))[٦] .
- والآخر: تعدد الدوافع والغايات التي يقام من أجلها الدرس النحوي واللغوي ، فهو تارةً وصفيٌ ، وأخرى تعليميٌ ، وثالثة فلسفيٌ جدليٌ ، وقد لا نعدم جانبا من البحث المقام من أجل التسلية العقلية أو لإظهار المقدرة ولنيل الحظوة .

هذان الأمران دفعا إلى ذلك الخلط بنسب غير متساوية من عالم إلى آخر . ومما سبق يتضح : أني أتحرج من قبول رأي تمَّام حسَّان عندما يرى أنَّ ((اللغة التي درسها النحاة كانت إلى حدٍّ كبير لغةً واحدةً لا تفسدها الفروق اللهجيَّة إلا إلى حدٍّ محدودٍ ، يشهد لذلك أن النحو كما تلقيناه عن الأقدمين لا يبدو فيه التلفيق إلا إلى حدٍّ محدودٍ أيضا . أما الشذوذ فأمرٌ شائع في اللغات جميعا.))[٧] ، والحق أن النحو الذي ورثناه في كتب الأقدمين يمثل مجموعات نحوية لمستويات نطقية متعددة ، أرغمت بعنف على أن تصاغ بقالب واحد ، حتى وإن أدَّى ذلك إلى كسر بعض تلك القواعد ، أو التضحية بالمستوى الدلالي للكلام أو البلاغي فيه . والغريب أن

---

١ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب :١٨٢\١٣ ؛ إنباه الرواة : ٢٧٤\٢ .
٢ - بغية الوعاة : ١٦٤\٢ .
٣ - الخصائص : ١٠\٢ ، الاقتراح : ٨١ ، ١٠٨.
٤ - نفسه .
٥ - ظ : العمدة :١٣١\١ ، الاقتراح : ٧٠ ، النقد اللغوي عند العرب : ٨٧ .
٦ - فصول في فقه العربية : ١٠٧.
٧ - الأصول :١٠٨.

تمَّام حسَّان يقول في الصفحة السابقة :((ولو سألنا أصحاب المناهج الحديثة : ماذا كان على النحاة أن يفعلوا في وضع لغوي كهذا الذي صادفوه في أيامهم؟ لكان ردهم هو الإحالة إلى ما يجري في الوقت الحاضر في أقسام الدراسات اللغوية الحديثة بالجامعات ...[وهو] التزام لهجة واحدة بعينها ، لا يخلط غيرها بها – لأن لكل لهجة نظاماً وبنيةً جامعةً مانعةً متميزةً عن بنية كل لهجة أخرى ... ، فلو أن طالبا تصدى للبحث في لهجتين أو أكثر في وقتٍ واحدٍ ... لأوقعه ذلك في متاهات ومتاعب.))[1]، أقول : وهذا ما لم ينج منه بعض النحو العربي .

وإني أتحفظ أيضا في قبول مقولة صبحي الصالح حينما يقول :((ومنهج الأقدمين في جمع اللغة علميٌ دقيقٌ يعول على الملاحظة والاستقراء ، والإفراط في الحيطة أحيانا حتى لنستطيع أن نكون مطمئنين إلى أكثر ما استنتجوه من خصائص لغتنا التي تجنبوا أخذها عمَّن تشوب عربيَّتهم أيَّة شائبة.)) [2] ، ففي الوقت الذي أوافق فيه صبحي الصالح على أن علماء اللغة الأوائل قد استوعبوا نماذج اللغة أجمع أو قاربوا ذلك ، إني لا أستطيع القول : إن ما استنتجوه من قواعد – قد وصلت أحياناً إلى حد التناقض فيما بينها - هو من خصائص العربية الفصحى ، وقد قال صبحي قبل ذلك :((فوقعوا [أي النحاة القدماء] في كثيرٍ من التناقض حين استنبطوا قواعدهم النحوية والصرفية من كلِّ ما روي عن القبائل ، وأقحموا على الفصحى اللهجات المتباينة المتعددة ، ولم يصدروا - كما قال الأستاذ سعيد الأفغاني - في تنسيق شواهدهم عن خطة محكمة شاملة ... ، ومنشأ هذا كله خلطهم بين اللغة الأدائية المثالية ولهجات التخاطب العامة لدى القبائل الكثيرة المشهورة ، في حين إن شرط اللغة الاطراد والتوحيد.))[3] ، فإذا كان كان عملهم قد أوقعهم في كثير من التناقض - على حد قول صبحي الصالح نفسه - فقد لا يكون من المنهج العلمي أن نصف ذلك العمل بأنه (منهج علمي دقيق) .

أدى هذا التمحُّل في ضبط المستويات المختلفة على وفق قواعد واحدة مطردة إلى مجموعة كبيرة من التأويلات زادت من الخلط ، وغموض كلام النحاة ، وتضييع الطريق على المتعلم [4]، فضلاً عن واصف اللغة .

وخلاصة ما تقدم أنَّه كان على النحويين أنْ يعمدوا إلى نوع واحد من مستويات الكلام ليدرسوه ، ضمن حقبة زمنية محددة ، وفي بقعة واحدة . وإذا كان الغرض الذي أنشئ النحو من أجله هو الحفاظ على القرآن الكريم كان عليهم أنْ يعتمدوا المنهج الفصيح فقط ، فيضمَّ للمألوف من الكلام ما تآزر معه من الشعر أو القرآن ، أما ما يخرج عن المألوف فذلك لـه قواعده وقوانينه التاريخية أو البلاغية أو الجغرافية فيدرس(نحو اللهجات) و(النحو التاريخي) و(النحو القرآني) و(لغة الشعر) كلٌّ على انفراد لتتضح سمات كل واحد منها ومميزاته ، وتطرد القواعد، ونتخلص من خرق القاعدة ، ونتخلص من كثير من التأويل والتقدير، الذي ضيع علينا نضارة الدرس اللغوي .

ومن هذا المنطلق أقول : يمثل الشعر الجاهلي الذي تناهى إلينا في عصر نزول القرآن القدوة المثلى والدرجة العليا ؛ إذ نضج واكتمل على مرِّ عصور سابقة عُرِّض فيها لعمليات نقد وتمحيص توخت تهذيبه وتقويم أساليبه وأوزانه وصوره ، أي الارتقاء بلغته ومعناه ، ثم إن هذا الشعر كانت تنتظمه لغة أدبية موحدة ، لا نرى فيها ما يذكر من خصائص لهجية للقبائل العربية على الرغم من تعدد قبائل قائليه . إنَّ توحد لغته الشعرية يرجع بلا ريب إلى عملية النقد

---

١ - الأصول :١٠٦- ١٠٧ .
٢ - دراسات في فقه اللغة : ١١٠ .
٣ - دراسات في فقه اللغة : ٦٤ .
٤ - تاريخ ابن خلدون :٥٣١\١.

والتمحيص التي رافقت مسيرته ، ثم استمرت حتى صار هذا الشعر يمثل جزءاً رئيسا من اللغة العربيـة الفصـحى المشـتركة ، التـي تسـعى القبائـل كلهـا إلـى التفـاهم بهـا فـي محافلهـا العامـة ومواسمها[١] ، فلغة الشعر الجاهلي تتضمن سمتين رئيستين :

- إنَ لغته تمثل نموذجا للغة الفصحى (المشتركة) .
- إنَّ لغته تمثل لغة ذات مستوى بلاغي عالي الجودة ؛ إذ هي لغة فنية لنص أدبي ، فهي ليست لغة نثرية من المستوى الثاني ، بل هي المستوى الثالث المفهم الصحيح البليغ .

قلت إن القرآن نزل بلغة العرب الفصحى بعد وصولها إلى قمة نضجها متمثلة في نمـاذج الشعر الجاهلي الفصيح . ومن هنا أيضا كان من بعض سمات لغة القرآن الكريم هاتان السمتان:

١. إن لغة القرآن تمثل النموذج الأرقى للغة الفصحى (المشتركة) .
٢. إن لغة القرآن نموذج للغة البليغة ، بل هي أبلغ نص عربي تشرفت بتمثيله اللغة العربية .

لقد وعى علماء العربية والمفسرون الأوائل أن القرآن والشعر الجاهلي يشتركان في سمة معينة هي اللغة الفنية العالية الجودة ، وأنهما من الفصيح المشترك ، وتمثل هذا الوعي في دعوة ابن عباس N (ت٦٨هـ) لتفسير القرآن الكريم بالشعر ، فقد أُثر عنه قولـه : ((إذا تعـاجم شـيءٌ مـن القرآن فـانظروا فـي الشعر، فـإن الشـعر عربـيٌ .)) [٢] وقولـه : ((إذا سـألتموني عـن غريـب القرآن فالتمسوه فـي الشعر، فـإن الشعر ديوان العرب .)) [٣] ولقد أثـارت دعوة ابـن عباس هذه حركةً نشيطةً بين العلماء بهدف جمع ما يعينهم على فهم القرآن وتفسيره من الشعر ، وما فعلُ أبي عبيدة (ت٢٠٩هـ) فـي كتابـه (مجـاز القرآن) إلاَّ صدى هذه الدعوة ، ليثبت أن القرآن جار على أساليب العرب في كلامهم ، وإنه من سنخ ما يعرفون[٤].

وهذا السبب نفسه كان وراء اختياري لموضوع الرسالة التي تسعى إلى استكشاف التطور الذي أحدثه القرآن في اللغة العربية الفصحى وفي جزئية من جزئياتها ، ولقد حاولت أن أوازن بين لغة القرآن الكريم ، ولغـة الشـعر الجـاهلي الفصـيح ، المتمثـل فـي دواويـن شـعراء أصـحاب المعلقات السبع ، فكلا النصين لغة فصيحة ، وكلاهمـا لغـة أدبـية بليغـة ، وقـد جمعهمـا عصـر واحد .

---

١ ـ ظ : مستقبل اللغة العربية المشتركة :٩ ، النقد اللغوي عند العرب :٢٥، ٩١ .
٢ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن :٢٠٦\١٧.
٣ ـ الإتقان في علوم القرآن :١١٩\١.
٤ ـ ينظر في شأن سبب تأليف الكتاب رواية : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب :١٥٨\١٩-١٥٩.

المبحث الثالث : نظريتا التناوب و التضمين و موقف العلماء منها

يقال نَابَ عني فلانٌ يَنُوبُ نَوْباً ومَناباً أَي قام مقامي ، يقال جاءت نَوبَتك و نِيَابَتك، وهم يَتَنَاوَبُونَ النَّوبَةَ فيما بينهم في الماء وغيره ، وكذلك يقال للقوم في السَّفَر: يَتَناوبونَ ، ويَتَنازَلُونَ، ويَتَطاعَمُون ، أَي يأْكلون عند هذا نُزْلةً ، وعند هذا نُزْلةً ، والنُّزْلةُ: الطعامُ يَصْنَعه لهم حتى يشبعوا. وكذلك النَّوْبة ، والتَّناوُبُ على كل واحدٍ منهم نَوْبةٌ يَنُوبُها أَي طعامُ يوم ، وجمعُ النَّوْبةِ نُوَبٌ[1]. فالنيابة هي القيام في أداء الفعل مقام الأخر، فالحرف يَنُوبُ عن الحرف إذا قام مقامه في تأدية معناه ، ولما كان التناوب يدلّ على التشارك في إيقاع الفعل ، فسيكون لهذا أحد معنيين:

الأوَّل : أن كل حرف يقوم في تأدية معنى الحرف الأخر بنوبة ، فقد تأتي (اللام) مكان(على) ، وقد تأتي (على) مكان (اللام) ، فيؤدي (اللام) معنى (على) كاملاً ، و(على) تؤدي معنى(اللام) كاملاً غير منقوص .

الآخر : أن يقوم كل حرف في تأدية جزء من الفعل ، والحرف الآخر يقوم بتأدية جزء من الفعل ، وهكذا تكون الحروف التي تحتمل وقوع التناوب فيها مشتركة كلها في إيقاع الفعل ، فعلى هذا يكون (على) يؤدي جزءا من معنى (اللام) ، و(اللام) يؤدي جزءا من معنى (إلى) ، وسنستبين من خلال البحث أي المعنيين أحق بأن يؤخذ به .

وبعد هذا لنا أن نسأل : هل للحرف معنى واحد أو أكثر؟ وهل معانيه – فيما لو كانت له عدة معانٍ – حقيقية أو مجازية ؟

للإجابة عن هذهِ الأسئلة يمكن القول :

١-

إن من العلماء من يرى أن لكل حرف معنىً واحداً لا يغيب عنه ، وقد تكون له معان أخر، قال المراديُّ(ت٧٤١هـ) : ((التحقيق إن معنى (اللام) في الأصل هو الاختصاص ، وهو معنى لا يفارقها ، وقد يصحبه معان أخر ، وإذا توصلت سائر المعاني المذكورة وجدت راجعة إلى الاختصاص لأنك إذا قلت : جئتك للإكرام ، دلت اللام على إن مجيئك مختص بالإكرام إذا كان الإكرام سببه دون غيره ، فتأمل ذلك .)) [2]، وقال في مكان آخر بشأن (الباء) : ((رد كثير من المحققين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق ، كما ذكر سيبويه ، وجعلوه معنى لا يفارقها ، وقد تنجر معه معانٍ أخر.)) [3]، وقال المالقيُّ(ت٧٠٢هـ) مثل هذا القول [4]، ونقل في معاني (من) : ((قد ذهبَ المبرد ابن السرَّاج والاخفش الأصغر ، وطائفة من الحذاق إلى إنها لا تكون إلا لابتداء الغاية ، وان سائر المعاني التي ذكروها راجعة إلى هذا المعنى ، ألا ترى إن التبعيض وهو أشهر معانيها ، وهو راجع إلى ابتداء الغاية ، فأنك إذا قلت : أكلت من الرغيف ، إنما أوقعت الأكل على أوَّل أجرائه فأنفصل ، فمآل معنى الكلام إلى ابتداء الغاية .))[5].

---

١ - ظ : العين مادة(ناب): ٢٦\٨، تاج اللغة وصحاح العربية :(نوب):٢٢٨\١، لسان العرب:(نوب):٧٧٤\١-٧٧٥، تاج العروس: ٤٩٦\١ .

٢ - الجنى الداني : ١٠٩.

٣ - نفسه :٣٦،٤٦.

٤ - ظ: رصف المباني : ١٤٣-١٤٤ .

٥ - الجنى الداني : ٣١٥-٣١٦.

ويبدو أن غالبية علماء النحو واللغة كانوا يستشعرون أن أحد المعاني في كل حرف غالبٌ عليه ، ويكون معنى رئيساً في دلالته ، حتى أنَّا نجد أنَّ النحاة حينما يذكرون كل حرف يقدمون هذا المعنى الأكثر شيوعاً واستعمالا ، وهو الذي قد ترجع إليه بعض المعاني الأخرى عندهم ، فيقولون مثلاً : إن الباء تفيد الإلصاق ، وعلى تفيد الاستعلاء ومن تفيد الابتداء وعن تفيد المزايلة أو المجاوزة[١]، ومن ثم يضيفون إلى كل واحد من هذه المعاني عدة معان أخر قد تؤول إلى هذا المعنى ، وبذلك يكون المعنى المذكور أوَّلا كالأصل الذي ترجع إليه المعاني الأخر.

٢-

ويرى قوم آخرون أن الحرف الواحد قد تكون له معان متنوعة ومتعددة ، وعدَّ المراديُّ(ت٧٤٩هـ) والمالقيُّ(ت٧٠٢هـ) هذا الرأي هو الصحيح[٢]. إنَّ القول بتعدد المعاني هو الذي يحمل على القول بالتناوب ، فتارةً يؤدي الحرف معناه الذي وضع له أصلاً – مع المعاني التي تؤول إليه- وتارة أخرى يؤدي المعنى الذي يَنُوبُ في الدلالة عليه مَنَابَ حرف آخر أو حروف .

وقد ذهب الكوفيون ومن تبعهم إلى القول بجواز نيابة الحروف بعضها مكان بعض ، وصحَّ تنوع معاني الحرف الواحد ، وأن كل معنى من هذه المعاني قسم برأسه ، وليس أحدها أصلا وغيره راجع إليه ، قال المراديُّ :((وما تقدم من نيابة الباء عن غيرها من حروف الجر هو جار على مذهب الكوفيين ومن وافقهم ، في أن حروف الجر قد يَنُوبُ بعضها عن بعض.))[٣]، وقال أيضاً :((وأكثر هذه المعاني إنما قال به الكوفيون ومن وافقهم كالقتبي...))[٤].

وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضاً أبو عبيدة (ت٢٠٩هـ)[٥] ، وقد أكَّد تعاقب هذه الحروف بقوله :((ومن مجاز الأدوات اللواتي لهن معان في مواضع شتى فتجيء الأداة منهن في بعض تلك المواضع لبعض تلك .)) [٦]. وقد يكون لبعض إشارات يونس وسيبويه فضلاً عمَّا صرح به به أبو عبيدة مادةً أعانت الأخفش على تبني هذا الرأي في كتابه (معاني القرآن) ، الذي ذكر فيه تعاقب معاني الأدوات ، ((وربما أخذ ذلك الفراء من الأخفش ، فضمَّن كتابه (معاني القرآن) كثيراً من تعاقب حروف الجر بعضها مكان بعض.)) [٧].

ولعل في تخصيص ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) الباب الذي أسماه (باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها) [٨]، فاتحة الباب للعلماء أن يتناولوا هذه الحروف التي قالوا : إنها تتناوب المعاني فيما بينها . وقد خصص من بعده ابن جني (ت٣٩٢هـ) بابا لذلك أسماه ((باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض)) [٩] ، وذُكِرَ أن مكي ابن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) قد كتب في (دخول حروف الجر مكان بعض) [١٠] ، وقد خصص ابن حزم فصلاً في الحروف وأصنافها[١١] ، وفعل مثلهم الثعالبي في كتابه(فقه اللغة وسر العربية)[١٢]، وعقد الزركشيُّ بابا كبيراً في الكلام

---

١ - للإطلاع على مزيد من الأمثلة ، ينظر : رصف المباني : ١٠٠، الجنى الداني : ٤٧٦ ،٤٨٠ ، مغني اللبيب :١٣٧.
٢ - ظ: الجنى الداني : ٣٦، ٤٦، رصف المباني: ١٤٣- ١٤٤ .
٣ - الجنى الداني : ٤٦.
٤ - نفسه: ٤٨٠.
٥ - ظ: مجاز القرآن : ١\١٤١، ٩٤، ٢٣٥ ، ٢٦٨ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤، ٢\ ٢٣ – ٢٤ .
٦ - نفسه: ١\١٤١.
٧ - نظرية الحروف العاملة :١٥٩.
٨ - تأويل مشكل القرآن : ٤٢٦ ،٤٣٢.
٩ - الخصائص: ٢\٣٠٦.
١٠ - إنباه الرواة : ٣\٣١٥٣١٦ ، وفيات الأعيان :٥\٣٧٦.
١١ - ظ: الأحكام في أصول الأحكام :١\٥١-٥٢،٨٥-١٠٠ .
١٢ - ظ : فقه اللغة وسر العربية : ٣٦٢- ٣٦٥ .

عن المفردات من الأدوات والبحث عن معانيها مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها[١]، وكذلك فعل السيوطي في (الإتقان) و(معترك الأقران)[٢].

وقد أفاد المفسرون مما تناقلته كتب معاني القرآن ، ومجازه من تناوب الحروف بعضها مكان بعض ، وقد نقل الطبريُّ (ت٣١٠هـ) والطوسيُّ (ت٤٦٠هـ) والزمخشريُّ (ت٥٣٨هـ) والطبرسيُّ (ت٥٤٨هـ) وأبي حيان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ) والآلوسيُّ (ت١٣٤٢هـ) في تفاسيرهم ما يدلّ على تبنيهم هذا الرأي [٣].

ولا يعني كثرة ما تناقله العلماء عن تناوب حروف الجر أن الأمر مسلمٌ به ، أو أن أغلب علماء العربية يقولون بذلك ، فالبصريون كانوا يصرون على أن ليس للحرف إلاَّ معنى واحد . وقد تَرِدُ من المعاني له ما يمكن تأويلها وإرجاعها إلى هذا المعنى الواحد ، فهذا المعنى أصلٌ ، وقد تكون هناك فروع عليه ، فـ((مذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أن (في) لا تكون إلاَّ للظرفية حقيقة أو مجازا ، وما أوهم خلاف ذلك ردَّ بالتأويل إليه .)) [٤].

وردَّ ابن عصفور كون (إلى) أو (على) بمعنى (في) بأنها لو كانت بمعنى (في) لساغ أن يقال (زيد إلى الكوفة) أو (زيد على الكوفة) أي (في الكوفة) فلما لم تقل العرب ذلك وجب أن يتأول ما أوهم ذلك ، ويبدو أنه أخذ ذلك من كلام ابن جني في الخصائص [٥].

قال ابن هشام :((مذهب البصريين أن أحرف الجر لا يَنُوب بعضها عن بعض بقياس ، كما أن أحرف الجزم ، وأحرف النصب كذلك ، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ كما قيل في ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾(طـه: من الآية٧١) . إن (في) ليست بمعنى على ، ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء ، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ...)) [٦].

وحاول ابن هشام أن يضيف قيدا ليحدد به إطلاق التناوب الذي يقول به الكوفيون ، قائلا : ((قولهم :(يَنُوبُ بعضُ حروف الجر عن بعضٍ) وهذا أيضاً ما يتداولونه ، ويستدلون به . وتصحيحه بإدخال (قد) على قولهم (يَنُوبُ) ، وحينئذٍ فيَتعذرُ استدلالهم به ، إذ كل موضع ادعوا فيه ذلك يقال لهم فيه : لا نسلم إن هذا مما وقعت فيه النيابة ، ولو صح قولهم لجاز أن يقال: مررت في زيد ، ودخلت من عمرو ، وكتبت إلى القلم ...)) [٧].

فخلاصة القول أن الكوفيين يقولون بتناوب الحروف في تأدية معانيها ، والبصريون لا يرون هذا المذهب صحيحاً ، ويجزمون أن للحرف معنى واحد يبقى يدور في أشكال مختلفة ضمن استعمالات الحرف الواحد[٨] .

إن مناقشة الأمثلة التي استدل بها الكوفيون على وقوع التناوب سيمر بنا تفصيلا في مواضعه من البحث ، وقد ناقشها وأفاض فيها باحثان : محمد حسين عوَّاد في كتابه (تناوب حروف الجر في لغة القرآن- ١٩٨٢م) ، وقد انتهى فيه إلى رفض القول بالتناوب ، ومنعه في اللغة ، وبيَّن مساوئ الأخذ بهذا القول ، وهادي عطية مطر الهلالي في كتابه(نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً- ١٩٨٦م) ، لكن الأخير لم تكن له جرأة سابقه

---

١ - البرهان في علوم القرآن : ٤\ ١٧٥ - ٤٤٦ .
٢ - ظ: الإتقان :١\١٤٥- ١٧٩.
٣ - ظ : نظرية الحروف العاملة : ١٦٠ .
٤ - الجنى الداني :٢٥٢، وينظر معها الصفحات :٤٦، ٤٨٠ .
٥ - ظ: شرح جمل الزجاجي : ١\٥١١- ٥١٢ ، المقرَّب :١\٢١٨، ٢٦٠، الخصائص : ٢\٣٠٩ ، بدائع الفوائد: ٢\٢١.
٦ - مغني اللبيب : ١٥١ .
٧ - نفسه: ٨٦١.
٨ - للإطلاع على المزيد من أراء العلماء وأقوالهم ينظر : دراسات لأسلوب القران الكريم:٣\٤٤٦-٤٥٩، إسناد الفعل:١٤٧-١٤٩.

واستيعابه ، بل عرض الآراء وأشار إلى أثر البلاغيين والمفسرين فضلا عن النحاة في نشر قضية التناوب بنقلها في كتبهم ومؤلفاتهم وتخصيص بعضهم فصولا في مؤلفاتهم لعرضها .

أما محمد حسين عوَّاد ، فقد أجاد في بحث الموضوع واستيعاب أبعاده ، ورصد جوانبه ، وقد كان دقيق الملاحظة في مناقشة كثيرٍ من أمثلة الكوفيين التي استدلوا بها على وقوع التناوب مثل مجيء (متى) بمعنى (من) أو (في) ، ومجيء (الكاف) بمعنى (على) أو (الباء) ، ومجيء (عن) بمعنى (الباء) وغيرها[1] ، ولو أردت أن أنقل نماذج من استشهاده لطال المقام بما لا يحتمله . وانتهى إلى القول بطلان ((نيابة بعض حروف الجر عن بعضها بعضاً ، وإن الشواهد التي سيقت للدلالة على التعاور راجعة إلى التركيب لا إلى الحرف ، ورأينا أن كل حرف يؤدي معنى خاص به لا يؤديه غيره ، وقد ينجر مع الحرف معانٍ أخرى تؤول إلى المعنى الكلي الذي يختص به الحرف دون غيره)) [2] . وهو بهذا يوافق البصريين ويأخذ بما قالوا ، فإن وجد وجد شاهدا من شواهد العربية يشير ظاهره إلى أن حرف الجر وقع موقع غيره أمعن النظر في التركيب ليجد في النهاية أن الحرف باقٍ على بابه وهو المعنى الذي وضع له ابتداءً .

إن الأخذ بمسألة تناوب الحروف يفضي إلى مشكلات لغوية واضطراب في البيان قد يأباه الاستعمال الفصيح ، وقد نبه ابن جني (ت٣٩٢هـ) على خطورة الأخذ بهذا القول على سعته وإطلاقه قائلا:((هذا باب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة ، وما أبعد الصواب عنه ، وأوقفه دونه ، وذلك إنهم يقولون إن(إلى) تكون بمعنى (مع) ، ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾(آل عمران: من الآية٥٢) ، أي مع الله ، ويقولون ... ، ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا ، ولكنا نقول : إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له ، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا . ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلاً هكذا لا مقيدا لزمك عليه أن تقول : سرت إلى زيد وأنت تريد معه ، وأن تقول زيد في الفرس ، وأنت تريد عليه ...ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش.)) [3].

إن الشواهد التي سيقت للدلالة على هذا القول ممكن تأويلها تأويلا سائغا مقبولاً بلا إرهاقٍ أو عنتٍ ، وإن طائفة من الشواهد كانت غربية قليلة[4]، وهنا تتضح فائدة الحفاظ عل المستويات المستويات اللغوية المحددة عند الدراسة ، واستنباط قواعد اللغة ، فالاقتصار على الشواهد الفصحى وترك اللغات القليلة والمحلية أو القديمة وغير المستعملة في هذا المستوى من الكلام كان سيقلل لنا من عدد هذه الشواهد التي استدلوا بها لإثبات هذه المسألة ، مثل تلك الشواهد المتعلقة بـ(متى ولعل وكي) حينما تكون حروف جرٍّ ، فالمسألة تحتاج إلى نظرة جديدة يعاد فيها فرز الشواهد وانتقاؤها ، لتتبين الحقائق .

ثم إن طائفة من المفسرين والبلاغيين كانوا يرون بوضوح أسراراً في بقاء الحرف على معناه ، وإنْ استعمل في سياق قد يوهم غير المتأمل أنه ناب عن حرف آخر في تأدية معناه ، لكن هذا غير دقيق ، فالنكات البلاغية التي تنبه لها هؤلاء توجب القول ببقاء الحروف على معانيها الأصلية المتعارفة ، بذلك يتبين جمال اللغة وإعجاز قرآنها وتفوق لغته ، وهذا ما تتبناه

١ - للإطلاع على الأمثلة مفصلة ينظر:تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٢٣ - ٤٦ .
٢ - نفسه :٨٢ .
٣ - الخصائص : ٢\ ٣٠٦ .
٤ - ظ تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٤٤ - ٤٥ .

هذه الدراسة ، وقد ذكر لنا هادي عطية أمثلة من التفاتات هؤلاء المفسرين والبلاغيين تبين النكات البلاغية في العدول عن استعمال حرف إلى آخر[1]. إن هذا العدول كان مقصودا ، فهو انزياح في دلالة الحرف رُوعيت فيه مقاصدَ خاصَّة . وقد يعدُّ من الحيف والظلم للغة القرآن الكريم التزامُ القولِ بتناوب الحروف في تأدية المعاني .

إن لرجال البلاغة من النحويين والمفسرين فضلا في تأكيد المخالفة بين معاني الحروف المختلفة ، وبيان أسرارها البلاغية والكشف عنها ، وكان الدافع وراء تقصيهم لمعاني هذه الحروف بيان أسرار الإعجاز القرآني ، واستكشاف النواحي الجمالية في لغته ((فهم وحدهم انفردوا في الإشارة[2] إلى لطائف الحروف ، وسر استخدامها وبيان فائدتها ، ولا يدرك هذا إلاّ من أتقن علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما .)) [3] .

إن التزام البصريين نفي القول بالتناوب بين الحروف دفعهم إلى القول بالتضمين ، قال ابن هشام :((قد يشربون لفظا معنى لفظٍ ، فيعطونه حكمه ، ويسمى ذلك تضمينا ، وفائدته : أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين .)) [4] ، وقال عنه الصبان(ت١٢٠٦هـ):((إن التضمين النحوي إشراب كلمة معنى أخرى بحيث تؤدي المعنيين ، والتضمين البياني تقدير حال تناسب الحرف.))[5]، أي يراد به التوسع ((في استعمال لفظ توسعا بجعله مؤديا معنى لفظ آخر مناسب له ، فيعطى الأوَّل حكم الثاني في التعدي واللزوم .)) [6]، وللتضمين أنواع مختلفة ، فمنه أن يتعدى فعل بحرف يتعدى به فعل آخر ؛ لأنه تضمن معنى ذلك الفعل ، ومنه إجراء اللازم مجرى المتعدي ، ومنه إجراء المتعدي مجرى اللازم[7]. لكن القول بالتضمين كالقول بالتناوب، من حيث أن كلا منهما يخفي خلفه شيئا من عجز المفسِّر أو النحوي عن الوقوع على المعنى الفني المراد بالحرف ، أو إدراك أسرار الجمال الفني في النص ، فيهرب إلى القول بالتضمين أو التناوب ، وسنرى في الفصول القادمة أنَّ القول بأحدهما يفقد النص الأدبي جزءا من معناه .

ومثل ما ناقش محمد حسين عوَّاد مسألة التناوب وانتهى بها إلى رأي سديد ، فإنه ناقش مسألة التضمين التي قال بها البصريون ، وانتهى بها إلى هذا الرأي الذي أؤيده فيه : ((ويبدو لي أن مسألة التضمين لا أساس لها ، لأنه لا دليل عليها ، ولا حجة لأصحابها ، وأحسب أن ما اندرج تحتها من الشواهد يؤول إلى جهة من جهتين: إما أن تكون هذه الشواهد مقحمة في باب التضمين إقحاماً ، وإما أن تندرج تحت مبحث دلالات الألفاظ .)) [8].

ومقتضى ما ساقه من أدلة ومناقشات نفي مسألة التضمين بطلانها ، وإن الذي حمل القدماء على هذه المسألة اعتقادهم بالأصالة والفرعية في الألفاظ ، والقول بالأصالة والفرعية بالألفاظ يقتضي وقوفهم على تاريخ هذه الألفاظ ، والبحث التاريخي في تاريخ الألفاظ العربية لا يسعفنا بشيء يُطمَأن له ، ولا ننتهي به إلى حقائق يقينية غالباً ((وما دام الأمر كذلك تحقق أن الافتراض الذي بنى عليه القدماء القول في التضمين[9] افتراض غير صحيح ، وترتب على عدم صحته نقل شواهد التضمين من مجالها التضميني الخاص إلى مجال دلالات الألفاظ العام...))[10].

---

١ - ظ: نظرية الحروف العاملة :١٦٤- ١٧٢ .
٢ - هكذا وردت العبارة والأصوب أن يقال : انفردوا بالإشارة . ينظر : العين مادة(فرد) : ٨\١٤، ٢٤.
٣ - نظرية الحروف العاملة : ١٦٠ ، وينظر معه :معترك الأقران :١\٤١ .
٤ - مغني اللبيب : ٨٩٧ .
٥ - حاشية الصبان على الأشموني :٣\١٣٣.
٦ - إسناد الفعل :١٤٧.
٧ - للإطلاع على أمثلة التضمين ينظر: تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٥٤ وما بعدها ، نظرية الحروف العاملة :١٧٣-١٨٠ .
٨ - تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٥٨ .
٩ - هكذا وردت العبارة ، والأصح أن يقال :القول بالتضمين . ينظر : لسان العرب : مادة(قول) : ١١\٥٧٢ .
١٠ - تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٨٢ .

إنَّ جزم بعض العلماء أنَّ الفعل الثلاثي يتعدى بحرف واحد أو حرفين أو أنه لازم في جميع أحواله ، أو متعدٍ في جميع أحواله ، يستوجب دراسة كاملة لكل فعل في جميع النصوص اللغوية التي ورد فيها ، لنستطيع بعد ذلك أنْ نرصد استعمالاته وتاريخ تطوره ، ومن ثم نشخص الحالة التي استقر عليها في اللغة العربية الفصحى (المشتركة) ، وهذا العمل يستوجب جهودا بحثيةً طويلةً مضنيةً للوصول إلى حقائق معينة ويقينية بشأن تعدي الأفعال ولزومها ، وعلاقة الحروف ومعانيها بهذه الأفعال . وما دام الأمر لم يدرس على هذا النحو من الشمول والسعة ، فإني أوافق محمد حسين عوَّاد على أن مسألة التضمين لا أساس لها ؛ لأنها مبنية على أساس غير متين ، وهو القول : إن بعض الألفاظ أصول في معانيها وبعضها فروع ، أو أنَّ فعلا ما متعدٍ في كل أحواله ، أو لازم في كلها ، أو متعد بحرف معين فقط ، وهذا أمرٌ لا يمكن تحققه ، إلاَّ إذ ثبت ذلك بالدليل القاطع من خلال الإحصاء العلمي الشامل .

خلاصة القول : أن لكل حرف معنى عاما يدور معه ، وقد تنجر معه معان أخر تؤول إلى ذلك المعنى بتأويل لطيف سائغ يتماشى مع طبيعة اللغة وروحها ، أما القول بنيابة الحروف بعضها عن بعض في أداء معانيها فهذا ما لا اعتقده ، ولكني أذهب إلى مدى أبعد من البصريين فلا أمنع البتة أن يكون للحرف الواحد أكثر من معنى أصيل ، فقد يكون الحرف قد وضع من باب المشترك اللفظي لأكثر من معنى ، مثل لفظة (عين) التي وضعت للحاسة الباصرة وللذهب ولمنبع الماء . وسنتبيَّن في فصول الدراسة حال كل حرف . أما القول بالتضمين فلا أرى دقة الأخذ به ، بل لا استبعد بطلانه ، والتزام الباحثين المحافظة على استعمال الحرف بمعناه المتعارف الواسع الانتشار يجعلهم يسعون وراء الأسرار والدوافع التي دعت المنشئ يَحِيدُ عن استعمال الحرف بالمعنى المتعارف والعدول عنه إلى معنى آخر ، وبهذا ثراء للغة واستكشاف لطاقاتها الجمالية والإبداعية . وهذا ما سنحاول رصده في تتبع إشارات العلماء والبلاغيين واللغويين في مباحث هذه الدراسة .

المبحث الرابع : معنى (الكلمة) في ضوء النظرية السياقية .

أولاً : علم الدلالة من فروع علم اللغة العام .

علم الدلالة أو(semantics) ويطلق عليه أيضاً بعض الباحثين علم المعنى ، له أكثر من تعريف ، وقد تتفق تعريفات علم الدلالة على أنه علم لغوي حديث ، يبحث في الدلالة اللغوية ، ويلتزم فيها حدود النظام اللغوي والعلامات اللغوية ، دون سواها ، وأنَّ مجاله دراسة المعنى اللغوي على صعيد المفردات والتراكيب[1]، ويقال فيه أيضاً أنَّه: العِلْمُ الذي يَدرسُ المعنى ، أو فَرعٌ مِن عِلم اللغةِ يَتناولُ نظريةَ المعنى ، أو ذلكَ الفرعُ الذي يدرسُ الشروطَ الواجبِ توافرها في الرَّمز حتى يكونَ قادرا على حمل المعنى[2] ، ويُلمِحُ التعريفُ الأوَّلُ إلى أنَّ أنَّ هذا العلمَ يدرسُ المعنى بصورةٍ عامةٍ من دون أن يتبنى نظريةً له ، في حين التعريفُ الثاني يشيرُ إلى وجودِ نظريةٍ للمعنى ، وهذا العلم يتناول هذه النظرية بأبعادها المختلفة ، أما التعريف الثالث فيفترق عن الاثنين بأنه ينظر إلى الوحدة الدلالية بوصفها رمزا مشيرا ، ويبحث في كيفية حمل هذا الرمز لمعناه ، وفي التعريف الأخير سعةٌ قد لا نجدها في التعريفين الآخرين ؛ إذ

١ - ظ : التفكير الدلالي عند العرب ، دراسة تأصيلية :عبد القادر سلامي (بحث إنترنيت) .
٢ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ١١ ، علم الدلالة : بالمر: ٨- ١١، النحو والدلالة : ٣٢ .

الرمز هذا الذي يحملُ المعنى أوسعُ من المفردات اللغوية ، فهو يشمل أيضا العلامات المختلفةِ من خطوطٍ وإشاراتٍ باليد أو إيماءاتٍ وغيرها ، فكل هذه رموزٌ تحملُ معنىً ، وقد أشار قدما ابنُ جني إلى هذا قائلا:((ربَّ إشارة أبلغ من عبارة .)) [١]، وعلى الرغم من اهتمام علم الدلالة بدراسة الرموز المختلفة وأنظمتها المعقدة ، إنه يركز على اللغة من بين كل تلك الأنظمة ؛ لأنها أكثر الأنشطة الاجتماعية أثرا في حياة الفرد ، وعُدَّ علم الدلالة ((غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية ، إنه قمَّة هذه الدراسات .)) [٢] ، وهذه الأهمية المعطاة له لأن موضوعه الأساسيّ المعنى ، وبدون المعنى لا يمكن أن تكن هنالك لغة .

لقد تخطى علم الدلالة منذ وقت ليس بالقصير حاجز إثبات الوجود ، ولا أريد هنا أن أعرض لتأريخ علم الدلالة الحديث وسرد الحقائق التاريخية لهذا العلم[٣] ، إنه اليوم يحظى بالاهتمام والدراسة في المعاهد العلمية المختلفة في شرقيّ الأرض وغربيّها ، ويتعاقب على البحث فيه ودراسته علماء اللغة والفلسفة والاجتماع وعلماء النفس وغيرهم ، كلٌّ منهم يبحثه من زاويته ، وأضحى واضحا اليوم أنَّ الطبيعة الحقيقية للغة البشرية لا يمكن فهمها إلاَّ من خلال تَفَهُّم (المعنى) .

لم يكن الدرس الدلالي الحديث بالنسبة للعرب مبتكرا جديدا ، فلقد حفل تراثنا العربي بأسس النظريات الدلالية الحديثة ، وشارك علماء اللغة العرب والمسلمون في وضع ركائزه الضخمة ، بما يعدُّ سبقا علميا وابتكارا فنيا أصيلا [٤] ، ومع هذا فلا يمكننا نكران فضل التنظير المنهجي المعاصر لنظريات الدرس الدلالي الأوربي ، فصياغة الأفكار في أطر نظريةٍ مقننةٍ بقواعدَ علميةٍ يرجعُ فضله إلى التطور الذي نالَ مناهجَ دراسة علم اللغة العامِّ ومنه الدرس الدلالي ، ولا أريد هنا أن أتتبع مواطن التقاء الفكر الأوربي المعاصر بما أبدعه التراث العربي والإسلامي في هذا الدرس ، فقد كـُتِبَ في ذلك مؤلفاتٌ عديدةٌ أنارت هذه النقطة من تأريخ المعرفة البشرية[٥]، وعلى العموم فإنَّ للغويين العرب القدماء جهوداً صبّت في مسارين كبيرين : (المعجم العربي) ، بقسميه اللفظي والمعنوي ، و المخصص لابن سيده واحد من هذه المعاجم اللغوية التي عنيت بتصنيف الألفاظ حسب معانيها . والأمر الآخر (علم المعاني) [٦] ، وسأشير ضمنا إلى بعض ما يتعلق بنظرية السياق وأثرها في توجيه معاني المفردات وإشارات بعض العلماء العرب والمسلمين إلى ما يتعلق بهذا الشأن .

يتميز الكلام البشري بعلاقات متشابكة تربط مكوناته الأساسية ولا يمكن فصل تلك المكونات أو حلَّ عرى العلاقات الرابطة بينها ، وإذا ما أردنا فهم طبيعة هذا النسيج (الكلام البشري) فلا يمكننا فصل (علم الدلالة) عن بقيَّة فروع علم اللغة[٧]؛ إذ لتحديد معنى (حدث كلامي) معيَّن يجب على الباحث إجراء ملاحظات متعددة تحيط : بالمستويات المختلفة من

---

١ - الخصائص : ١\٨٠ ، وينظر معه الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٤ .

٢ - علم اللغة: محمود السعران : ٢٨٥.

٣ - للإطلاع على لمحة تاريخية عن علم الدلالة واشتقاق اسمه ، ينظر : علم الدلالة :أحمد مختار : ١٧- ٢٩ ، علم الدلالة: بالمر: ٣-٥ ، ١٢-١٦، تطور البحث الدلالي : ١٧- ٢٩ ، التفكير الدلالي عند العرب دراسة تأصيلية (بحث إنترنيت) .

٤ - ظ : تطور البحث الدلالي : ٣٣ .

٥ - كتب الدكتور محمد حسن الصغير (تطور البحث الدلالي ، دراسة في النقد البلاغي والدلالي) وأصَّل فيه للبحث الدلالي عند العرب منذ زمن الخليل إلى السيوطي ، مشيرا إلى أهم نقاط الالتقاء بالنظريات الدلالية المعاصرة ، وكتب الدكتور أحمد سليمان ياقوت (الدرس الدلالي في خصائص ابن جني) وتتبع فيه إشارات ابن جني الدلالية في كتابة الخصائص مبينا تطابقا مع ما توصل إليه الدرس الدلالي الحديث ، أما (نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني) فقد نالت رعاية كبرى ، وكتب فيها عدد من أساتذة اللغة والأدب العرب ، منهم الدكتور حاتم الضامن ، وهي تتطابق مع النظرية السياقية الحديثة ، وهنالك عشرات البحوث تتعلق بهذا الشأن يمكن الرجوع إليها، منها بحث للدكتور صاحب أبو جنا بعنوان :السياق في التفكير اللغوي عند العرب (مجلة الأقلام عدد٣-١٩٩٢\٤م)، وقسم غير قليل منها منشورٌ اليوم على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنيت) منها بحث للدكتور عبد القادر سلامي بعنوان التفكير الدلالي عند العرب، دراسة تأصيلية .

٦ - ظ : التفكير الدلالي عند العرب ، دراسة تأصيلية (بحث إنترنيت) .

٧ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار : ١٣ – ١٤ .

صوتية وصرفية وتركيبيَّة ومعجمية ، تلاحم شبكة العلاقات بين هذه المستويات المتعددة هي التي تكفل حلَّ رموز الرسالة الموجهة من المنشئ إلى المتلقي . ومن العقبات التي تقف أمام علم الدلالة أيضاً ((أن المعاني لا تبدو مستقرة ، بل إنها تعتمد على المتكلمين والسامعين والسياق .))[١]، اعتماد المعاني على هذه العناصر الثلاثة يوجب على الباحثين مراعاتها وملاحظتها باستمرار عندما يحاولون تبيِّن معنى كلمة ما أو جملة ما ، ولهذا السبب أيضاً أُفترض عموما أن بالإمكان تمييز النظام اللغوي ، واستعمال المتكلمين والسامعين هذا النظام[٢].

لم يتفق علماء اللغة – تبعا لاختلاف مشاربهم الفكرية – على تعريف الوحدة الدلالية (semantic unit) فبين قائل : إنها (الوحدة الصغرى للمعنى) [٣] ، وقال : إنها (النص) ، ومنهم من قال : (تجمُّعٌ من الملامح الدلالية) أو قال : إنها (أيُّ امتدادٍ من الكلام يعكسُ تباينا دلاليا) [٤] ، وعلى الرغم من وجود فوارق بين هذه التعريفات تعكس مفهوم أصحابها عن (الوحدة الدلالية) ، إنَّ الجميع يتفق على أهميَّة (الكلمة المفردة) ووصفها بأنها مستوى أساسي للوحدات الدلالية ، فهنالك ما هو أكبر منها ، وهو التركيب المكوَّن من الكلمات ، وهنالك ما هو أصغر منها ، وهو المورفيم المتصل ، وتشكل الكلمة الحلقة الرئيسة التي تربط بين الاثنين الأصغر والأكبر[٥]، ولقد فطن علماء اللغة المسلمون إلى أهميَّة الكلمة المفردة وكونها حلقة وصل بين ما هو أقل منها وله معنى (مثل ضمير الشأن) وما هو أكبر منها وله معنى (الجملة)[٦] ، وهو مطابق لما توصل إليه علماء الغرب من تقسيم للوحدة الدلالية وقيمة الكلمة المفردة في هذا التقسيم ، إذن كانت الجهود المكثفة التي تدور حول دراسة المعنى تنطلق من (الكلمة) أول الأمر ، ثم صارت تهتم بما عرف بالوحدة الدلالية ، وبعدها ظهر الاهتمام بالجملة التي أصبحت تُعدُّ أهم وحدات المعنى ، بل قد تكون أهم من الكلمة المفردة التي قد يسلبها بعضهم المعنى خارج الجملة[٧].

ثانياً: أنواع المعاني في المفردة .

إذا ما أردنا أن نعرف معنى أيِّ كلمة من كلمات لغة ما قد لا يكفي الرجوع إلى المعجم والإطلاع على ما دُوِّنَ فيه من معانيها ، نعم قد يكفي هذا لتعرُّفِ معاني بعض الكلمات لكنه قطعا لا يكفي في الكلمات جميعها ، معنى هذا أن الكلمة لها أنواعٌ من المعنى لم يتفق العلماء على حصرها لكنهم قد حددوا أهم تلك الأنواع على النحو الآتي[٨]:

- المعنى المركزيّ أو الأساسيّ أو الأوَّليّ ، ويمكن تعريفه بأنه : المعنى المتصل بالوحدة المعجمية حينما ترد في أقلِّ سياقٍ ، أي حينما ترد منفردةً ، ويشكل هذا المعنى العامل الرئيس للاتصال اللغوي ، وعن طريقه تتمكن اللغة من تحقيق وظيفتها الأساسية في التفاهم ونقل الأفكار ، ويمكننا عادة تشخيص معنى واحد للكلمة ، ونعدُّه أكثر مركزيَّة من المعاني الأخرى للكلمة نفسها ، وهذا المعنى يمثل أقل ما يمكن من القدر المشترك في

١ - ظ : علم الدلالة : بالمر: ١٠ .
٢ - ظ : علم الدلالة : بالمر: ١٠ .
٣ - ظ : دور الكلمة في اللغة :٤٩ .
٤ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار :٣١ .
٥ - ظ : علم الدلالة:أحمد مختار : ٢٣-٣٣ ، اللغة والمعنى والسياق : ٢٤- ٣١.
٦ - ظ : الخصائص : ٣٠/١- ٣٢ ، الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٣٠- ٣١ .
٧ - ظ : النحو والدلالة :٣٥- ٣٦ .
٨ - التقسيم مأخوذ من : علم الدلالة :أحمد مختار: ٣٦- ٤١.

أذهان مستعملي اللغة ، ويتسم هذا المعنى بالثبات والشمول ، وهو ما يسعى المعجمي إلى تسجيله في معجمه ، محددا وشارحا له[١].

- المعنى الإضافي أو العرضي أو الثانوي أو التضمني أو الهامشي ، فقد تشير الكلمة إلى معنى ما زائداً على المعنى الأساسي ، ومصاحبا له دائما ، ليس لهذا المعنى صفة الشمول أو الثبوت ، وهو قابلٌ للتغيير تبعا للثقافة والزمن والخبرة ، إذ تعمل هذه العناصر الثلاثة على تقويته وإدامته ، من هنـا لم يكن هذا المعنى شاملا للأفراد الذين يستعملون اللغة كلَّهم ، فقد يتخلـَّف عدد منهم عن إدراك هذه المعاني ، وهو قدر من المعنى يشكل ظلالا للمعنى المركزي يختلف مقدار فهمه وامتلاكه باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم ومأثورهم اللغوي[٢] .

- المعنى الأُسلوبي ، تكشف الكلمات أحيانا من خلال دلالاتها عن الطبقة الاجتماعية لمستعمل الكلمة ، أو تكشف عن منطقته الجغرافية ، أو تخصصه ، أو علاقة المتكلم بالمستمع ، إذ هنالك علاقة وثيقة ومتبادلة بين هذه العناصر ودلالة الكلمات التي يستعملها أفراد هذه الطبقة أو تلك ، فالخطاب الرسمي تختلف كلماته عن الخطاب العامي وينحدر أكثر الخطاب العامي المبتذل ، فكل مستوى من هذه له مفرداته الدالـَّة عليه ، كما أن لنوع الخطاب أثرا في استعمال كلمات خاصة فلغة الشعر تختلف عن لغة النثر، وهذه وتلك تختلف عن لغة العلم ، وكما يختلفان عن لغة القانون ، ولغتا العلم والقانون وإن كانا يمتازان بدقة الدلالة ووضوح المعنى ومباشرته ، إنهما يبتعدان عن لغة الخطاب اليومي في الشارع ، أو لغة الإعلانات ، وهذه أيضاً لها مستويات وهكذا تتنوع مستويات الخطاب ولكل مستوى سماته ، ولكل نوع مفرداته [٣].

- المعنى النفسي ، قد تتكون لدى مستعمل ما للغة عوامل نفسية تلقي بظلالها على مفردات معينة ، فتصبح المفردة تشير إلى بعض تلك الإسقاطات النفسية لهذا المتكلّم أو ذاك ، هذه الدلالات فرديَّةٌ ذاتيَّةٌ مقيَّدةٌ ، ولا تتميز بالعموم والانتشار ، وقد تطفو هذه الدلالات النفسية في لغة بعض الأدباء أو الشعراء أو المتكلمين العاديين بشكل بارز وواضح .

- المعنى الإيحائي ، تمتلك بعض المفردات مقدرة خاصَّة على الإيحاء لما تتسم به من شفافية ، ويبدو أن الإيحاء يصاحب عموم الألفاظ فـ((دلالة أي لفظ من الألفاظ على معناه المحدد له ترتبط فيما يوحيه هذا اللفظ في الأذهان من انصراف وتبادر إلى مشخصاته الخارجية إن كان عينا أو ما يرمز إليه في التصور الذهني إن كان معنى ، بحيث يكسبه هذا وذالك دلالته عند التطبيق الخارجي الذي لا يلتبس بمفهوم آخر في الإدراك حتى يعود رمزا له .))[٤] ، ويمكن أن يتأتى الإيحاء نتيجة تأثير أحد أشياء ثلاثة [٥]:

١. التأثير الصوتي ، إذا ما كانت الكلمة تدل على بعض الأصوات أو الضجيج الذي يحاكيه التركيب الصوتي للاسم . مثل(صليل السيوف) أو (مواء القطط) وما ماثلها .

٢. التأثير الصرفي ، ويتعلق ببعض الكلمات المركبة أو المنحوتة ، مثل(صهصلق) للفرس من صهل وصلق ، و(بحتر) للقصير من بتر وحتر .

---

١ - ظ : اللغة والمعنى والسياق: ٨٧،٢٤ ، دلالة الألفاظ : ١٠٦- ١٠٧، النحو والدلالة : ٥٢- ٥٣.
٢ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار:٣٦-٤١، دلالة الألفاظ : ١٠٦- ١٠٧ ، الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ١٩- ٢٠.
٣ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٣٦- ٤١ ، دلالة الألفاظ : ١٠٦- ١٠٧.
٤ - تطور البحث الدلالي : ١٩.
٥ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٤٠-٤١ .

٣. التأثير الدلالي ، ويرتبط هذا بالاستعمال المجازي للكلمات دائما ، أو الاستعمال المؤسس على المجاز ، ويدخل فيه ما يعرف بالمعنى المنعكس (reflected meaning) وتجلىَّ في أبرز صوره عند استعمال الكلمات ذات المعاني المكروهة أو المحظورة (taboo) مثل الكلمات المرتبطة بالجنس ، أو موضوع قضاء الحاجة أو الموت وغيرها ، ففي مثل هذه المواضع يلجأ المتكلم إلى استعمال تعبير ألطف دلالة وهو ما يسمى (التلطّف في التعبير) وهو في حقيقته تجنب لإيحاءات مكروهة وغير مستساغة في الموقف الكلامي لبعض الكلمات ، فتجعل المكروه وغير المقبول أكثر قبولا .

يتعذر علينا الفصل الدقيق بين حدود هذه الأنواع المختلفة والدلالات المتنوعة من المعاني عند استعمال الألفاظ ، وإن استطعنا تمييزها عند التنظير فقد يصعب ذلك الفصل الدقيق عند التطبيق فهذه الأنواع متعاضدة فيما بينها لتعطي أكمل معنى يمكن أن يفهم من اللفظ في المواقف الكلامية المختلفة .

لم تخف أنواع المعاني التي تتضمنها الكلمات على العلماء العرب ((فإذا انتقلنا إلى ابن جني وجدناه يتناول معظم هذه المعاني دون تبويب لها أو ذكر لتلك المصطلحات)) [١]، ولا يعيب عدم ذكر المصطلحات إثبات الحقائق العلمية والتنبه لها ؛ لأن المصطلحات لا تستقر إلاَّ بعد حين ، ويسرد لنا ياقوت بعض إشارات ابن جني إلى هذه الأنواع من المعاني بعبارات صريحة تدلُّ على وعي علمي بهذه الأنواع [٢].

ثالثاً : نظريات دراسة المعنى ومناهجه .

لعلَّ أيسر تعريف يمكن أن يوضع للمعنى أنه : علاقة متبادلة بين اللفظ (وهو الصيغة الخارجية للكلمة) والمدلول (الفكرة التي يستدعيها اللفظ) ، علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر[٣] ، ليس هذا التعريف متفقا عليه ، فقد دُرسَ المعنى في ضوءِ مناهجَ متعددةٍ ، ومدارسَ مختلفةٍ حالُه حال كثير من الحقائق العلمية ، ونتجَ عن اختلاف تلك المناهج والنظريات فرق في النتائج التي وصل إليها الدارسون ، واختلافٍ في وجهة النظر إلى (المعنى) بصورةٍ عامةٍ ، وتبع هذا اختلافات كبيرة في تعريف (المعنى) حتى تجاوزت تعريفاته عشرين تعريفا[٤]، لتعكس بذالك اتجاهات متعددة في النظر إليه : لغويةٍ وفلسفيةٍ وأخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وجماليةٍ ، ويأتي هذا التنوع تلبية لحاجات الدارسين ، ومحاولة للإجابة عن أسئلتهم النابعة من حقول العلم المتنوعة ، وسأشير إلى أهم النظريات والمناهج التي دُرسَ المعنى في ضوئها وأفصِّل القول في واحدة منها تبعا لحاجة الدراسة :

١- النظرية الإشارية(Referential theory)[٥]: أوَّل من تبنى هذه النظرية من الأوربيين الأوربيين وطورها الأستاذان (أوجدن وريتشارد) في كتابهما (the Meaning of Meaning) وخير ما يوضح نظريتهما المثلث المشهور الذي وضعاه لتوضيح العلاقة بين (الرمز والفكرة والشيء الخارجي) وبيَّنا أنه لا توجد علاقة مباشرة بين الرمز(الكلمة) والشيء الخارجي الذي يعبِّر عنه ، وتبنيا إشارات دي سوسير للطبيعة

---

١ - الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٢٣ .
٢ - ظ : المصدر نفسه : ٢٢- ٢٥ .
٣ - ظ : دور الكلمة في اللغة :٧٢- ٧٣ ، تطور البحث الدلالي : ٢٠.
٤ - ظ : دور الكلمة في اللغة : ٦٩- ٧٥ ، علم الدلالة : أحمد مختار : ٢٣- ٢٤ ، النحو والدلالة: ٣٥ .
٥ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٥٤-٥٧ ، دور الكلمة في اللغة : ٧٠-٧٢ ، اللغة والمعنى والسياق: ٣٢.

المزدوجة للكلمة وتمثيله لها بوجهي الورقة ، وأصبحت الكلمة عندهما تحوي جزأين : صيغة مرتبطة بوظيفتها الرمزية ، ومحتوى مرتبط بالفكرة أو المرجع . لقد أشار ابن جني بوضوح إلى أسس هذه النظرية ، فليس هنالك علاقة طبيعيَّة أو صلة محتَّمة بين اللفظ ومدلوله ، وذهب إلى فساد رأي من يرى أن الاسم هو المسمى [١].

٢- النظرية التصوريَّة (Ideational theory)[٢]: وتبناها الفيلسوف الإنجليزي John Locke الذي يرى : إن استعمال الكلمات يجب أن يُكوِّن الإشارة الحساسة إلى الأفكار ، والأفكار التي تمثلها تعدُّ مغزاها المباشر الخاص . واللغة على وفق هذه النظرية وسيلة أو أداة لتوصيل الأفكار ، وتمثيلٌ خارجيٌّ ومعنويٌّ لحالة داخلية فالأفكار لها وجود مستقل ووظيفة اللغة مستقلة عن الأفكار ومعبِّرة عنها .

٣- النظرية السلوكية (Behavioral theory) [٣] : ظهرت عند السلوكيين الأمريكيين أمثال : Bloomfield، و Watson ، و Weiss ، وغيرهم ، وتعتمد على التركيز على الأحداث الممكن ملاحظتها وتسجيلها ، وعلاقتها بالموقف الكلامي المباشر الذي يتم إنتاجها فيه ، وتؤكد أثر التعلم في اكتساب النماذج السلوكية ، ومنها اللغة ، واللغة مثل بقيَّة أنواع النماذج السلوكية استجابة لمثيرات تقدمها البيئة أو المحيط .

٤- نظرية الحقول الدلالية[٤] : الحقل الدلالي(Semantic Field) أو الحقل المعجمي (Lexical Field) يضمُّ مجموعة من الكلمات ذات دلالات يمكن أن توضع تحت لفظ عام يجمعها ، نحو(أحمر، أزرق ، أخضر، اصفر، أبيض ،...) توضع تحت لفظ (لون) ، وعرَّفه أولمان Uilmann بأنه(قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبر) ، وترى هذه النظرية أننا نحتاج إلى تفهُّم مجموعة الكلمات المتصلة بالحقل الدلالي التي تنتمي إليه أيَّة كلمة نريد فَهمَ معناها ، ويجب دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي ومعنى الكلمة هو (محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في داخل الحقل المعجمي) . وتتجسد أهمية هذه النظرية في الكشف عن العلاقات بين الكلمات التي تنضوي تحت حقل دلالي واحد وبيان أوجه الشبه والخلاف بين هذه الكلمات وفرقها عن المصطلح العام الذي يجمعها .

٥- النظرية التحليلية[٥]: تسعى هذه النظرية إلى دراسة المعنى وتحليله في مستويات مختلفة:

أ- تحليل كلمات كل حقل دلالي ، وبيان معانيها .

ب- تحليل كلمات المشترك اللفظي إلى مكوناتها أو معانيها المتعددة .

ت- تحليل المعنى الواحد إلى عناصره التكوينية المميزة .

٦- النظرية السياقية أو لمنهج السياقي (Contextual Approach) [٦]: تميزت مدرسة لندن بهذا المنهج وتزعمه Firth ، وطوَّرَ Lyons هذا المنهج إلى النظرية السياقية للمعنى في (Theory of Meaning) . يتوقف معنى الكلمة في هذه النظرية على (استعمالها في اللغة) أو (الطريقة التي تستعمل بها) ، وهم يصرحون بأن ((المعنى لا ينكشف إلاَّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية.)) [٧] أي وضعها في سياقات مختلفة متعددة .

.

---

١ - لمتابعة الموضوع ينظر: الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٥- ٨ ، وينظر مصادره .
٢ - ظ : اللغة والمعنى والسياق: ٣٢، علم الدلالة :أحمد مختار:٥٧- ٥٨.
٣ - ظ : اللغة والمعنى والسياق: ٣٢، علم الدلالة :أحمد مختار:٥٨-٦٧.
٤ - ظ : علم الدلالة : بالمر:٧٨ – ٨٦ ، علم الدلالة : أحمد مختار:٧٩- ١١٣ .
٥ - ط : علم الدلالة :أحمد مختار: ١١٤.
٦ - ظ : المصدر نفسه : ٦٨- ٧٨.
٧ - المصدر نفسه: ٦٨.

إن تجاور الوحدات الدلالية وارتباطها فيما بينها يجعل معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفه أو تحديده إلاَّ بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها ، وقد أشار إلى هذا المعنى بوضوح عبد القاهر الجرجاني عندما رجع سبب حسن المعنى إلى ائتلاف الكلمات فيما بينها في التأليف والترتيب[١] ، إذ إن معظم الوحدات الكلامية اللغوية تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستعمل فيه ، وإن أغلبها له مدى أوسع من مدى المعنى الذي يخطر ببال المتلقي أول وهلة[٢] ، من هنا أصبحت دراسة معاني الكلمات تستدعي تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها تلك الكلمات ، ويمكن أن يتعدَّل معنى الكلمة تبعا للسياقات التي ترد فيها .

ويمكن أن تقسم هذه السياقات من حيث طبيعتها على أربعة أنواع [٣]:

١- السياق اللغوي (Linguistic context) يمكن التمثيل له بكلمة (حسن) التي قد تقع وصفا لأشخاص:(رجل ، امرأة ، ولد ، طبيب ، زوجة ..) فتعني مع كل واحدة منها ناحية من المعنى هي المقصودة ، فرجل حسن تعني الإشادة بأخلاقه وإذا قلنا : طبيب حسن ، أردنا الإجادة في علمه وعمله ، وحين نقول : زوجة حسنة ، نريد حُسنَ التبَعُّل ، وكل زاوية من زوايا المعنى قد تغفل في سياق وتضاء في آخر . وقد تقع الكلمة نفسها وصفا لأجناس مثل(ملح ، دقيق ، ماء ، هواء ،..) وعندها ستعني الصفاء والنقاوة وما إلى ذالك ، وقد تقع وصفا لأوقات معينة مثل(يوم ، ساعة ، سنة،...) ولاشك أن معناها سيتغير تبعا لتغير ارتباطها بالكلمات المقترنة بها في الجملة فيوم حسن قد نعني به لطيف الجو معتدل الحرارة ، وسنة حسنة قد نعني بها كثيرة الأرباح ، وهكذا يتغير المعنى تبعا لسياقات اللغة ، وغير هذا لدينا القرائن اللفظية أو المقاليَّة التي تعين على تحديد دلالة الجملة ، مثل النبر والتنغيم ، وكل هذه القرائن هي من قبيل السياق اللغوي [٤] .

٢- السياق العاطفي(Emotional context) تحدد في ضوئه درجة القوَّة والضعف في الانفعال ، بما يقتضي من تأكيد أو مبالغة أو اعتدال ، فكلمة يكره لا تدل على ما تعنيه كلمة يبغض مع أنهما يدلان على أصل واحد من المعنى ، لقد جعل أولمان المعنى العاطفي قسيما للمعنى الموضوعي ، وليس أمامنا غير السياق ليحدد لنا هل كانت الكلمة المستعملة يراد بها إثارة العاطفة أو معناها القياسي الدقيق[٥]. إن تأدية اللغة وظيفة عاطفية فضلا عن وظيفتها الأصلية (نقل الأفكار والتعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعية) ، لا يمكن أن يتأتى إلاَّ من خلال استثمار طاقات السياق ، فالكلمات هي نفسها تستعمل في تأدية الوظيفتين ولكن السياق المختلف هو الذي يجعل المعنى هنا عاطفيا وهناك قياسيا ، وقد علَّق ابن جني على بعض الكلمات بأن أهل النسيب والرقَّة وذوي الأهواء يفيدون من هذه الألفاظ ما يفيده منها غيرهم ، وبيَّن كيف تكون الكلمة في موضع ما عاطفية وفي غيره ليست كذالك[٦] .

٣- سياق المواقف(Situational context) أو سياق الحال ، يشار به إلى الموقف الذي ينتج فيه أو له الموقف الكلامي المحدد ، فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى ، بل قد تكون جزءا من معنى الكلام ، وذلك مثل شخصية المتكلم والمخاطب ، والعلاقات التي تربطهما ، وما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات [٧]، إن من ينظر في

---

١ - ظ : دلائل الإعجاز :٤١٥ ، وينظر معه : من أسرار اللغة : ٣- ٤ ، تطور البحث الدلالي : ٤٤-٤٦ .
٢ - ظ : اللغة والمعنى والسياق :١٤ .
٣ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٦٩- ٧١ .
٤ - ظ : النحو والدلالة : ١١٧ ١٢٥ - ١٣٠.
٥ - ظ : دور الكلمة في اللغة :٦٣ .
٦ - ظ : الخصائص :١\٢١٨ ، ٢٢٠ ، وينظر معه : الدرس الدلالي في خصائص ابن جني :٢١.
٧ - ظ : علم اللغة : محمود السعران :٢٩٠- ٢٩٦ .

اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة إلى الأخذ بالمتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها ، وذلك لأن المعنى القاموسي أو المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام .

لقد اهتدى علماء اللغة العرب والمسلمون في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحف بالكلام من ملابسات غير كلامية ، كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط ، وتحدث العلماء عن أسباب النزول وأفردوه بالتأليف ، وتحدث علماء الحديث عن أسباب الورود وتحدث الأدباء والنقاد عن أسباب الإنشاد وظروفه .

وفطن المفسرون إلى الفرق بين ظاهر القرآن وباطنه فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى المقالي والمعنى المقامي . كما راعى النحاة المقام الذي تتشكل فيه المواقف الكلامية ، مشيرين بذلك إلى تأثير دلالة السياق اللغوي وسياق الموقف الملابس له في العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك ، مما درس في ما عرف عندهم بـ(علم المعاني)[١]، ومن هذا الاهتمام بالسياق ما نراه عند ابن جني ، فهو يراه عاملا أصيلا في فهم الدلالة ، بل يتوقف فهمها على الملاحظة الدقيقة لسياق الحال ، فيقول : ((وبعد فالحمالون والحماميون والساسة والوقادون ومن يليهم ويعتد منهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال مالا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذ أخبر به عنه ولم يحضره ينشده .)) [٢]، فهم هذه الطبقة التي ذكرها لشعر الفرزدق تأتى من إحساسهم بمعاني الألفاظ التي يستعملها هذا الشاعر نتيجة وعيهم ومعاناتهم لواقع الحياة اليومية التي قد لا يعيها مثلهم أبو عمرو .

تحدَّث الجاحظ أيضاً عن وجوب مراعاة مقتضيات المقام قائلا :((ينبغي للمتكلّم أن يعرفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعينَ وبين أقدار الحالات ، فيجعلَ لكلِّ طبقَةٍ من ذلك كلاماً ، ولكلّ حالةٍ من ذلك مَقاماً ، حتَّى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات ، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات.))[٣] ، مراعاة حال المستمعين ومطابقة الخطاب تبعا لواقع حالهم ما هو إلاَّ مراعاة لسياق المواقف التي تنتج الحدث الكلامي .

وقد ركَّز عبد القاهر الجرجاني على سياق المواقف عند حديثه عن العناصر التي توجب مزيَّة الكلام بعد صحة النظم فعدَّ أولها الأغراض التي يوضع لها الكلام[٤]. لم يغفل علماء اللغة العربية وآدابها في نظرهم الدلالي مراعاة سياق المواقف ، وخير ما عبَّروا به عن وعيهم هذا قول البلاغيين الشهير ((لكل مقامٍ مقالٌ .)) و((لكل كلمة مع صاحبتها مقامٌ .))[٥] ومعنى هذا أنَّهم نطقوا ((بعبارتين من جوامعً الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط ، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء ، ولم يكن "مالينوفسكي" وهو يصوغ مصطلحه الشهير : context situation يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها .)) [٦] ، وسيبقى الأدب معتمدا على سياق المواقف أو سياق الحال ويعوِّل عليه في النصوص الأدبية فهو أداتها الفاعلة في إيصال المعنى الأدبي للمتلقي ، إن القيمة الفنية قيمةٌ سياقية تبرز من تلاقح عناصر النص وتماسكها ونظمها .

---

١ - ظ : أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى (بحث إنترنيت) وقد تتبع فيه كاتبه الكثير من النصوص العربية والإسلامية التي تعنى بالمقام وسياق المواقف ، وينظر معه: الإبداع اللفظي في القرآن الكريم ، دراسة نقدية: (بحث إنترنيت).

٢ - الخصائص : ١\٢٤٦ ، ولمزيد من النصوص ينظر : الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٣٩- ٤٢ .

٣ - البيان و التبيين: ١\١٣٨- ١٣٩ ، وينظر معه تطور البحث الدلالي : ٣٥.

٤ - ظ : دلائل الإعجاز : ٦٨-٦٩ ، وينظر معه : النحو والدلالة : ٩٨.

٥ - مفتاح العلوم : ١٦٨ - ١٦٩ ، وينظر معه : مختصر المعاني : ٢١.

٦ - أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى (بحث إنترنيت).

٤- السياق الثقافي (Cultural context) يختلف استعمال الكلمات من طبقة لأخرى ، وفي الثقافات المتعددة يختلف أيضاً استعمال الكلمات كلٌّ تبعا لمجتمعه وطبقته ، فمثلا كلمة (عقيلته) تستعمل اليوم في بعض المجتمعات الراقية بدلا من كلمة (زوجته) في طبقات أقل رقيا من تلك . وكذا تختلف دلالة الكلمة عند كلِّ صنف من العلماء فكلمة (جذر) تختلف دلالتها عند علماء الرياضيات عمَّا هي عليه عند علماء الزراعة والنبات .

تعاونت فروع العلم المختلفة على دعم المنهج السياقي ، فعلماء اللغة السياقيون تأثروا خطى بعض علماء الأنثروبولوجيا وطريقتهم في التعامل مع اللغة على أنها صيغة من صيغ الحركة وليس أداة للانعكاس ، ودعم بعض الفلاسفة المنهج السياقي عندما أيد أنَّ معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة ، ويرى برتراند رسل أنَّ ((الكلمة تحمل معنى غامضا لدرجة ما ، ولكن المعنى يُكتشف فقط عن طريق ملاحظة استعماله ، فالاستعمال يأتي أولا ، وحينئذ يتقطر المعنى منه .)) [١]، وكذا أيد كثير من علماء النفس هذه النظرية ، وعدَّ كثير من اللغويين النظرية السياقية خطوة تمهيدية في طريق المنهج التحليلي ، فقد أكَّدَ أولمان أنَّ المعجمي يجب أولا أن يلحظ كل كلمة في سياقها ، ويدرسها في واقعها العملي ، ويستخلص من مجموع استعمالاتها العامل المشترك العام ، فيسجله على أنَّه معنى الكلمة ، (وهذا المعنى هو المعنى المركزي للكلمة) ، فاستخلاص هذا المعنى لا يتم إلاَّ بعد جمع عدد من السياقات الكافية للمفردة ، وحينما لا تزيد السياقات البقيَّة أي إضافة للمعنى أو تغير كبير له عندها نستطيع رسم حدود معنى الكلمة .

من المفاهيم الرئيسة في النظرية السياقيَّة مفهوم (النص) **فما النص؟** قد يكون القول (النص: هو مجموعة جمل متتابعة) من الأجوبة الشائعة ، لكن هذا القول قد يواجه بعض الاعتراضات ، إذ إن أغلبية النصوص المستعملة في اللغة الدارجة اليومية تتكون من خليط من الجمل ، وأجزاء الجمل ، وتعابير كلامية جاهزة ، وربما كان هناك أوجه للاعتراض على التعريف أكثر أهمية من هذا ، ذلك أنه قد يخفق ((في توضيح أنَّ الوحدات التي يتكون منها النص جملا كانت أو غير جمل ليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها البعض[٢] في سلسلة ، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق وعلى النص في مجمله أن يتسم بسمات التماسك والترابط .))[٣] ، إن الربط المشار إليه في هذا الكلام قسم منه يتعلق بالمفردات وآخر يتعلق بالمحتوى نفسه الذي يعالجه النص .

والمفهوم الآخر الذي تقوم عليه هذه النظرية هو (السياق) **فما السياق؟** أجاب جون لاينز عن هذا السؤال بأنه لا يمكن إعطاء جواب بسيط عن هذا السؤال ، لكنه أكَّد ضرورة اعتماد اللغويين في تفسيرهم للوحدات الكلامية على نظريات العلوم الاجتماعية ونتاجاتها بصورة عامة إذا ما أرادوا تكوين نظرية سياقية مقنعة [٤]. لكن أولمان كان له رأي واضح فيها، إذ يرى أنه على الرغم من استعمال هذه الكلمة في عدد من المعاني المختلفة إن لها معنى يبدو تقليديا هو الذي يعنينا هنا وهو ((النظم اللفظي للكلمة ، وموقعها من ذلك النظم)) [٥] ، إن السياق في ضوء ضوء هذا التفسير يشمل الكلمات عموما والجمل السابقة واللاحقة ، بل القطعة كلها والكتاب كله ، وينبغي أن يشمل أيضاً كل ما يتصل بالكلمة من ملابسات وظروف ، ولا تخرج منه العناصر غير اللغوية ، أو ما يعرف بالقوَّة اللاكلامية للمفردات ، فلها أهمية كبيرة في توجيه المعنى ،

---

١ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار : ٧٢.
٢ - هكذا وردت العبارة والأصح أن يقال : وحدات متصلة بعضها ببعض .
٣ - اللغة والمعنى والسياق : ٢١٨ – ٢١٩.
٤ - ظ : اللغة والمعنى والسياق : ٢٤٢.
٥ - دور الكلمة في اللغة : ٦١ -٦٢ .

ويؤكد أولمان قائلا :((أما أن هذه العوامل جميعها لها تأثيرها المباشر على[١] المعنى الدقيق للكلمات فهذا أمر لم يعارض فيه أحد معارضة جدِّيَّة .)) [٢].

إن السياق يكون في المواقف الفعلية للكلام أي إن الكلمات حينما تكون مخزونة في أذهان المتكلمين لا يكون لها أن تحظى بالقدر الكافي من الدقَّة والتحديد ، وحينما تخرج الكلمات من القوَّة إلى الفعل عند ممارسة عملية الكلام الفعلي فتوضع المفردات في (سياقات) يتحدد معناها الدقيق ، ولا يعني هذا أبدا إن الكلمات المفردة خارج السياق لا معنى لها أصلا كما يغالي بعض السياقيين ، ((إننا لا ننكر أن كثيرا من الكلمات يعتريها الغموض الشديد ، وأن ألوانها المعنوية غالبا ما تكون مائعة وغير محددة تحديدا دقيقا ، ولكن هذه الكلمات مع ذالك لابدَّ أن يكون لها معنى أو عدَّة معانٍ مركزية ثابتة .)) [٣]، وعلى أساس هذا المعنى أو المعاني المركزية تؤلَّف المعاجم اللغوية ، يبدو أن امتلاك الكلمة نصيبيا وقدرا من المعنى مسألة مسلم بها إلاَّ أن عدم التمييز بين اللغة والكلام أغمض الصورة أمام بعض السياقيين الذين تطرفوا فنفوا أي معنى للكلمة خارج السياق ، أن التمييز بين اللغة والكلام يجعل إدراكنا للفارق الكبير بين المعنى المركزي للكلمات ومعانيها داخل السياق أكثر وضوحا وجلاءً .

ربما يقف بعض الناس على الطرف الآخر فينظرون إلى الكلمات في الجمل وكأن لكل كلمة كيانا مستقلا منفصلا ، ولكن الحقيقة في ضوء النظرية السياقية تقول: ليس هذا صحيحا ، إذ لا يمكن فهم أيَّة كلمة على نحو تامٍّ بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها التي تشارك في تحديد معناها . إن للكلمات فيما بينها – وإن كان لكل منها بنية معجمية مستقلَّة – شبكة من علاقات المعنى كثيفة ومتينة ، وإنها لا تعيش منعزلة في نظام اللغة ، حتى أن جون لاينز مثَّلها بـ((نسيج العنكبوت الواسعة المتعددة الأبعاد ، يمثل كل خيط فيها ، إحدى هذه العلاقات ، وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة.)) [٤] ، عن معنى أي تعبير تشارك في تكوينه بشكل مباشر مجموعة علاقات المعنى القائمة بين مفرداته ، وهذه العلاقات جزء من عدَّة عوامل تكون المعنى الكلي للتعبير .

فرضية النظرية السياقية الرئيسة تقول : إن معنى الوحدة الكلامية يعتمد بشكل جوهري على السياق ، والحقيقة أن النص والسياق كل منهما متمم للآخر ويقتضي كل منهما الآخر ، فالنصوص مكونات للسياقات المختلفة التي تظهر فيها ، والسياقات المختلفة يتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بوساطة النصوص التي يستعملها أبناء البيئة اللغوية في المواقف المتعددة [٥].

إن معنى الوحدة الكلامية يتجاوز ما يقال فعلا ، فهو يتضمن أيضاً ما هو مقصود ضمنا (أو ما يفترض سلفا) وللسياق صلة وثيقة بهذا الجزء من معنى الوحدات الكلامية ، إذ عادة ما يعتمد المتكلم والمتلقي على معلومات سياقية قد تكون فوق مستوى اليقظة في إنشاء الوحدات الكلامية وتفسيرها ، من هنا فإن كثيرا من حالات الغموض نحوية كانت أو صرفية أو معجمية تمرُّ من غير أن نعيها ، على أننا قد نعي بين الحين والآخر بعض تلك الحالات من الغموض ، والسبب الأكيد والمعتبر لتفسير هذه الظاهرة هو أن معلوماتنا السياقيَّة ليست متساوية مع ما يمتلكه منشئ النص ، أو الشخص الذي يشاركنا في الحديث ، وهذا ما يعرف بـ(النسبية اللغوية)[٦] . إذ تقود هذه الفكرة إلى اختلاف فهم الحقائق وفهم النصوص تبعا لاختلاف الثقافة

---

١ - هكذا وردت العبارة والأصح أن يقال لها تأثيرها المباشر في ... إذ أثَّر يتعدى بـ(في) . ظ : العين : مادة (أثر) : ٢٣٧\٨ .
٢ - دور الكلمة في اللغة :٦٢ .
٣ - المصدر نفسه .
٤ - اللغة والمعنى والسياق : ٨٣ ، وينظر معه : دور الكلمة في اللغة : ٧٨.
٥ - ظ : اللغة والمعنى والسياق : ٢١٥.
٦ - ظ : المصدر نفسه :٢٢٢ - ٢٢٤.

اللغوية والمكوِّن الفكري واللغوي عند كلٍّ من منشئ النص ومتلقيه ، وإني لا أنكر أنَّ ((السلوك اللغوي إنما هو فعالية معتمدة على الثقافة.)) [١] لكن حالة تطابق الخلفية اللغوية تبدو حالة مثالية يندر تحققها ، أما تقارب الخلفية اللغوية فهو المتحقق فعلا بين أفراد البيئة اللغوية الواحدة ، لكن معنى التقارب يشير إلى وجود فوارق فردية ، ولا أحد بوسعه نكران تلك الفوارق ، هذه الفوارق هي السبب في كثير من الخلاف في فهم النصوص وتفسيرها .

إن السياق هو السبيل الأمثل الذي يمكننا من توجيه المعنى الوجهة التي نضيء بها مكانا ما في منطقة المعنى للكلمة المستعملة ، فهو يوضح لنا هل كانت الكلمة ينبغي أن تحمل على أنها تعبيرٌ موضوعيٌ صرفٌ فتُحمَلَ عندها على معناها المركزي الدقيق أو قـُصِدَ بها التعبيرُ عن عواطف أو أريد بها إثارة تلك العواطف والانفعالات؟ فكلمات مثل : (حرية ، عدل ، ظلم) نستعملها في اللغة العلمية أو اللغة الفصيحة لتدلَّ على معنى معين لكن قد يستعملها الأديب فيحملها قدرا من إمكانية إثارة المشاعر عند المتلقي وينـاغم بها عواطفه ، والسياق هو الكفيل بالكشف عن هذا المعنى العاطفي ، وقد يكون للكلمة سعة واسعة فيحدد السياق من سعة الكلمة بالمقدار المطلوب ، ويعيِّن حدودها الواجب حملها عليها ، فكلمة (رجل) حينما تقابل بكلمة (حيوان) تشمل النوع الإنساني كلَّه في حين إذا ما قوبلت بكلمة (امرأة) فعندها ستعني نصف النوع الإنساني . فالسياق هو الكفيل بتحديد حدود الكلمات ، وكذا يعمل السياق على إزالة بعض الغموض الذي يحيط ببعض الكلمات التي يكون لها أكثر من معنى مركزي فأي هذه المعاني مراد في الكلام ، ويزداد الأمر خطورة إذا كان واحد منها أكثر استعمالا من المعاني الأخر والمتكلم يريد المعنى المنزوي فليس غير السياق يكشف لنا عن مقصد المتكلم ، وهو صمام الأمان الذي يمنع من احتمال الخلط بين المعاني المتعددة للكلمة الواحدة [٢] .

إن حالات الغموض أو حالات الوضوح المحددة بالسياق والمعتمدة عليه يجري استغلالها بصورة مثمرة في الأدب لأغراض أكثر أهمية ، إذ توظف هذه الحالات لتحمل المتلقي على تفسير الوحدات الكلامية أو النص عموما تفسيرا معينا أو قد تجعله يحمل النص على تفسيرين أو أكثر في وقت واحد ، وهو إما يتردد بين هذه التفسيرات أو يجمع بينها بطريقة معينة ليكوِّنَ تفسيرا مركبا غنيا وقد أشار علماؤنا القدماء إلى أن بعض النصوص قد تحوي معنيين واحدٌ ظاهرٌ وآخر خفيٌّ ، وعقدوا أبوابا لبيان كيفية تفسير النص على الوجهين أو المعنيين[٣] ، وقد تعمد اللغة الأدبية إلى استثمار حالات الوضوح والبساطة الموجودة في الألفاظ فتكون سياقا غامضا يحتاج إلى التفسير والتأويل والى هذا أشار ابن الأثير فقال :((فإن قيل إنك قلت : إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، أي المفهوم ، ونرى من آيات القرآن الكريم ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى إلا باستنباط وتفسير، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته. قلتُ : لأن الآيات التي تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شيء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ، وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب ، لا من جهة ألفاظه المفردة ، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ، ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ لأنها إذا اعتبرت لفظةً لفظةً وجدت كلها فصيحة : أي ظاهرة واضحة. وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها ، وإذا نظر إلها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير، وهذا لا يختص به القرآن وحده ، بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك .))[٤]. وما التركيب الذي أشار إليه إلاَّ عنصر مهم وكبير من عناصر السياق ، إذن السياق يُغيّرُ من خواص المفردات عند التركيب ، ولا يتقيد كثيرا بوضوحها أو غموضها قبل التركيب ، وما هذا إلاَّ من فعل السياق .

---

١ - اللغة والمعنى والسياق : ٢٤٠ .
٢ - ظ : دور الكلمة في اللغة : ٦٣- ٦٦ ، ١٤١.
٣ - ظ : الخصائص : ٢٠٠\١- ٢٠٤، ٢١٢- ٢١٣ ، الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : ٢٥ - ٢٨ .
٤ - المثل السائر :١١٦\١ ، وينظر معه : تطور البحث الدلالي : ٤٦ - ٥٢ .

ولعلَّ أهم ما يميز المنهج السياقي أنه يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ، ويعالج الكلمات على أنها أحداث وأفعال موضوعية تقبل الملاحظة والتحليل . وأن تحليله لهذه الأحداث تحليلٌ لغويٌّ ، لا يخرج عن إطار اللغة ، وبهذا قد تجاوز نقدا مهما كان يوجه إلى المناهج الأخرى (الإشاري والتصوري والسلوكي) التي كانت تحاول شرح المعنى في ضوء متطلبات أخرى ، في حين أن المطلوب من اللغويين أن يدرسوا الظواهر اللغوية والعلاقات بينها داخل إطار علم اللغة [١].

ليس المنهج السياقي منهجا كاملا ومتكاملا ، فقد وُجِّهَ له بعض النقد ، بأنه لم يقدِّم نظرية شاملة للتركيب اللغوي ، واكتفى بتقديم نظرية للمعنى ، والمعنى يجب أن يفسر بوصفه مركبا من العلاقات السياقية ومن الأصوات والنحو والمعجم . لذا يحلو للبعض أن يسميه منهجا لا نظرية ، ومن النقد الموجه له أن مصطلح السياق context عند فيرث لم يكن محددا وكذالك حديثه عن الموقف situation غير واضح ، وقد يكون بالغ في إسناد ثقل للسياق . وقد يفشل هذا المنهج في تفسير بعض الكلمات من خلال استعمالها في السياقات المختلفة ، فلا يفيد شخصا تصادفه كلمة لا يعرف معناها أن نقول له إنها ترد في السياقات الآتية ونسرد له عددا منها . فهو يفيد الباحث الذي يريد تتبع استعمالات الكلمات ودلالاتها في السياقات المختلفة ، لكنه قد لا يفيد المستعمل العادي للغة[٢] .

وتمتاز النظرية السياقية بأمور منها : اهتمامها بالسياق اللغوي أو السياق اللفظي أي ببيان مجموعة الكلمات التي تنتظم معها الكلمة المراد معرفة معناها ، واهتمامها أيضاً ببيان الخصائص النحوية والصرفية واستخدامهما في تحديد السياقات التي تقع فيها الكلمة ، ومن مميزاتها أيضاً أنها لا تعدُّ الجملة كاملة المعنى إلاَّ إذا طابقت قواعد النحو وروعي فيها التوافق في رصف المفردات المكونة للجملة ، وأن يتقبلها أبناء اللغة في تفسير ملائم وهذا ما عرف بالتقبُّلِيَّة acceptability [٣].

يرى أولمان أنَّ نظرية السياق إذا ما طبقت بحكمة فإنها : ((تمثل حجر الأساس في علم المعنى ، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن ، إنها مثلا أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي ، ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتا ، كما أنها قدمت لنا وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات .))[٤]، أشار أولمان إلى ثلاث من ثمار النظرية السياقية لكنه اشترط تطبيقها بحكمة لتعطي هذه الثمار ، منبها بذالك على نبذ التطرف والجور على اللفظ عند بعض الباحثين الذين قد ينفون استقلال الكلمة بمعنى مركزي خارج السياق . والحق أنَّ نفي هذا المعنى عن الكلمة خارج كل سياق لها يجعلها شيئا يخالف الوجدان والحقائق العلمية الملموسة .

---

١ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٧٣.
٢ - ظ : المصدر نفسه .
٣ - ظ : علم الدلالة :أحمد مختار: ٧٧.
٤ - ظ : دور الكلمة في اللغة :٦٦ - ٦٧.

الفصل الثاني

الدلالة المركزية للحرف والدلالات الهامشية

فَرَضيَّةُ الفَصل :

المبحث الأول : الحروف الثنائية ، ويتضمن اثنا عشر حرفا .

المبحث الثاني الحروف الثلاثية ، ويتضمن خمسة أحرف .

فَرَضيَّةُ الفَصل :

تُقَدِّمُ الأطروحة في هذا الفصل فرضيَّة رئيسة ، وتسعى لحشد الأدلة المُثبِتَةِ لها ، لتتمكن من تقديمها بعد ذلك بوصفها نظريَّة مطردة في اللغة العربية الفصحى : تلك هي فرضية **(الدلالة المركزية للحرف والدلالات الهامشية)** ، إذ تفترض الدراسة أن لكل حرف معنى عاماً مركزيا ، لكن هذا المعنى متحركٌ وليس بثابتٍ ، وهنالك عدد من المعاني يمكن أن نسميها المعاني الهامشية أو المعاني السياقية أو المعاني المتحركة أو ظلال المعنى العام ، قد ترافق هذا المعنى أو تحلُّ مكانه ، والسياق هو القوة المحركة للمعنى الحرفي .

لقد كانت تراودني فكرة هذه الفرضية قبل الشروع بالبحث ، إذ أنِّي أعتقد أنَّ لبعض الحروف معنىً مركزيا عاما ، هذا المعنى يسمح لها بأن تستعمل في سياقات متعددة ومتنوعة في الكلام ، ومن خلال اختلاف السياقات التي يرد فيها الحرف تتلون معاني الحرف الخاصَّة ، فيتحدد للحرف معنىً خاص داخل كل سياق ، ولا يعني هذا أن كل حرف سيكون له عدد غيرَ منتهٍ من المعاني ، تبعا لإمكانية تنوع السياقات غير المنتهية للغة ، لا بل يكون له مدى معين لا يخرج عنه ؛ إذ يمنعه معناه العام من هذا التوسع المفتوح ، فهو تلوُّنُ محددٌ داخل السياقات المختلفة ، والسياق هو الأساس في عملية تحريك المعنى وتلوينه بظلال خاصة من المعاني ، فهو القوَّة الفاعلة في حركية المعنى الحرفي . ولقد كانت قناعتي بهذه الفكرة تقوى تارة ، وتضعف أخرى حتى تلمَّستُ بعض النقاط التي زادت من قناعتي بهذه الفرضية ودعتني أقدم على تسجيلها موضوعا لأطروحة الدكتوراه بعد أن شدَّ الأستاذ المشرف على يديَّ وقوىَّ عزيمتي في طرحها على ساحة البحث العلمي . وسأذكر بعض الأمور التي ساعدتني ابتداء على تبنِّي هذه الفكرة ، والبدء في البحث عن الأدلة التفصيلية لإثباتها :

- أولا : من خلال تتبعي للمعاني التي ذكرها العلماء لبعض الحروف وجدتهم مختلفين في تقرير عدد المعاني التي يؤديها هذا الحرف أو ذاك ، فمنهم من ذكر للحرف الواحد معنى واحدا فقط ، ومنهم من يذكر له عشرة معانٍ ، ومنهم من يذكر لحرف آخر أربعة معان ، ومنهم من يوصلها إلى اثني عشر معنًى(١) . هذا الاختلاف في العدد لابد أن يخفي وراءه سببا مباشرا ومسوغا لما وقع فيه هؤلاء العلماء .
- ثانيا : لم يكن الاختلاف مقتصرا على عدد المعاني فقط ، بل وصل إلى تحديد أسماء تلك المعاني ، فقد نجد لبعض الحروف نوعا من المعنى الذي يؤديه لم يُتَّفق على تسميته (٢)، وعدم استقرار العلماء على مصطلح معين لمثل ذلك المعنى يدلّ على اختلاف واضح في فهم السياق الذي ورد فيه الحرف ، وعندها سماه كل منهم بما فَهِمَهُ من سياق النص الذي استدل به ، ولما كان الفهم مختلفا من عالم إلى آخر باختلاف قراءاتهم للنصوص اختلفت التسمية تبعا لذلك ، فهؤلاء العلماء كان يدور في خَلَدِهِم قَدَرٌ مشتركُ من المعنى يجمع بين تلك التسميات التي أطلقت عليه ، ولم ير العلماء من حرج في تعدد الأسماء ، مادامت تعبر عن ذلك القدر المشترك .

---

١ - ذكر البصريون لـ(عن) معنى واحد هو المجاوزة ولم يثبتوا لها غيره في حين ذكر الكوفيون لها عشرة معاني ، وفي (أو) ذكر بعضهم لها أربعة معاني وأوصلها آخرون إلى اثني عشر معنى ، ينظر المبحث الخاص بكل حرف من هذا الفصل .
٢ - من أمثله (التقسيم ، والتفريق ، والتفصيل) كلها تدلّ على نوع خاص من المعنى يؤديه الحرف الثنائي (أو) .

- ثالثا : اختلف علماء اللغة والتفسير أيضاً في تسمية المعنى الذي أداه بعض الحروف في بعض الآيات التي وردَ فيها ، أي اختلفوا في تسمية المعنى في النص الواحد ، فقد يذكرون أن الحرف يجوز أن يكون المعنى فيه كذا أو كذا أو كذا فيذكر ثلاثة أوجه أو أربعة أو أكثر للحرف الواحد في الآية الواحدة ولا يجزم بواحد منها ، ولما تكررت هذه الحالة كثيرا ، وعند كثير من المفسرين ، تَيَقَنْتُ من أن المعنى العام هو الحاضر في أذهانهم ، وهو القَدَرُ المشتركُ من المعنى الموضوع له الحرف أصلا ، وخلافهم ذلك راجع إلى تعدد في فهمهم لسياق النص القرآني ، وما يحتويه من قرائن داخلية وخارجية تُؤَثِّر في توجيه المعنى إلى حدٍّ بعيد .

- رابعا : تصريح بعض العلماء بأن بعض الحروف موضوعٌ لقدر مشترك من المعنى الجامع بين تلك المعاني المتعددة التي ذكرت لها ، ولا أقصد هنا الأسماء المختلفة للمعنى الواحد ، وإنما العناوين الرئيسة للمعاني التي ذكرت ، وهذا التصريح جاء بعد ذكرهم لتلك المعاني والخلاف فيها ، فما كان منهم إلاَّ أن رَجَعُوها إلى أن الغرض الرئيس لهذا الحرف هو المعنى المشترك بينها ، وهو أصل المعنى الذي وضع له هذا الحرف ، وربما أشار بعضهم أيضاً إلى أن للسياق أثرا في زيادة المعاني الثانوية على الحرف . ووجدت في إشارات هؤلاء العلماء دليلا كبيرا وصريحا يمكنني من طرح هذه الفرضية والسعي في البحث عن الأدلة التفصيلية المثبتة لها.

إن طرح هذه الفرضية قد يكون فيه بديلٌ مقنعٌ لما يظهر لنا من اختلاف العلماء وتباينهم في تعداد معاني كل حرف أو اقتصارهم على معنى واحد ، وفيها بديلٌ مُرضٍ أيضاً لنظريتين سبق أن قال بهما علماء العربية ، وهما نظرية تناوب حروف الجر فيما بينها ، ونظرية التضمين تضمين الأفعال معاني أفعال أخرى تتعدى بحرف معين ، وأعتقد أنَّ فرضية المعنى الحرفي المتحرك ، القابل للتلون تبعا لضرورات السياق أكثر ملاءمة للنص القرآني من نظرية التضمين أو نظرية التناوب اللتان تقودان إلى تجميد النص ، في حين تضمن لنا نظرية المعنى العام - التي أعتقد بها - حركية دائمة ومستمرة للنص ، فكل مفسر تتوافر أمامه قرائن معينة يستطيع أن يُحَمِّلَ الحرف معاني هامشية يتمكن من تأديتها داخل السياق .

وإني في مجال التطبيق سوف أعمل على اختبار هذه الفرضية لأرى مدى ثبوتها أمام البحث العلمي ، وسيكون ذلك من خلال البحث عمَّا يدعمها من خلال تتبع معاني الحروف والتقاط الشذرات من أقوال العلماء ، التي تُعينُ على تثبيتها في نهاية البحث بوصفها نظرية مطردة في اللغة العربية الفصحى ، وستبتعد الدراسة في هذا الفصل عن تتبع نقاط الاشتراك والمتفق عليه من الاستعمالات ، وستستبعد أيضاً بعض الحروف التي لها معنى واحد فقط مثل(لم) و(لن) و(أنَّ) و(إنَّ) وغيرها ، فليس هدفها استقصاء الحروف كلها ، بل تتبع أغلب ما يخدم تثبيت فرضية الفصل الرئيسة .

المبحث الأول : الحروف الثنائية

أولا : (أم)

تذكر المصادر أن (أم) تكون متصلة ومنقطعة [1] ، و(أم) المتصلة عاطفة على رأي الجمهور[2]، وتكون منحصرة في نوعين :

أ- نوع تتقدم عليها فيه همزة التسوية ، نحو قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(البقرة:٦) .

ب- والآخر تتقدم عليها فيه همزة يطلب بها وبـ(أم) التعيين ، نحو : (أزيد عندك أم عمرو؟) .

وسميت (متصلة) لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ، وسميت (معادلة) لمعادلتها للهمزة في إفادة التسوية في الأول ، والاستفهام في الثاني .

أما (أم) المنقطعة : وسميت منفصلة أيضا ، فتكون على ثلاثة أقسام من حيث ما يسبقها[3]:

أ- أن تكون مسبوقة بالخبر المحض ، نحو :﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(السجدة:٢-٣) .

ب- أن تكون مسبوقة بهمزة لغير الاستفهام ، نحو :﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴾(الأعراف:١٩٥) ، فالهمزة هنا للإنكار ، وهي بمنزلة النفي .

ت- أن تكون مسبوقة بغير الهمزة ، نحو :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾(الرعد: من الآية:١٦) .

والسؤال الذي يُطرَحُ الآن : هل (أم) المتصلة نوعٌ مخالف لـ(أم) المنفصلة ، أو هما نوع واحد ومعناهما فيه قدر مشترك ؟ يبدو من إشارات بعض العلماء أن (أم) نوع واحد ، موضوعة لمعنى واحد ، لكن السياق هو الذي فرض عليها أن تؤدي مع ذلك المعنى معنى مضافا ، قال سيبويه : ((أما (أم) فلا يكون الكلام بها إلاَّ استفهاما . ويقع الكلام بها في الاستفهام على وجهين : على معنى (أيُّهما، وأيُّهم) ، وعلى أن يكون الاستفهامُ الآخِرُ منقطعا من الأول .))[4] وهذه التي يكون الاستفهام بها على معنى (أيُّهم) هي المتصلة المعادلة لهمزة التعيين ، والثانية التي يكون الاستفهام بها منقطعا عن الأول هي المنقطعة . والانقطاع عن الكلام الأول أو الاتصال معه إنما يحدده السياق التي ترد فيه (أم) ، وأما المعادلة لهمزة التسوية فمعلوم أن

---

١ - ظ : حروف المعاني:٤٨، معاني الحروف:٧٠، رصف المباني:٩٣، الجنى الداني:٢٢٥، مغني اللبيب:٦١–٦٢، جواهر الأدب: ١٠٣–١٠٤، التفاحة في النحو:٢٢-٢٣، اللمع في العربية:١٧٧، الإيضاح العضدي:٢٩٠، المخصص:٥٤\١٤، أسرار العربية:٢٧٠\١، البيان في شرح اللمع:١٨٦- ١٨٧، شرح ألفية ابن مالك:٢٠٦-٢٠٧، شرح جمل الزجاجي:٢٣٦\١ ، شرح الرضي على الكافية:٤٠٤\٤ ، شرح المفصل:٨\ ٩٧ - ٩٨، شرح ابن عقيل:٢٢٥\٢ ،٢٣٠، اللباب في علل البناء والإعراب :٤٢٩\١ ، ٢\ ١٢٩، تاج اللغة وصحاح العربية : مادة(أمم):٥\ ١٨٦٦ -١٨٦٧، لسان العرب :مادة(أمم) ١٢\٣٥- ٣٦ .

٢ - ظ المقرب :٢٣١\١، رصف المباني : ٩٣ ، الجنى الداني : ٢٢٥ ، مغني اللبيب : ٦١ -٦٢ ، جواهر الأدب : ١٠٣ -١٠٤.

٣ - ظ : مغني اللبيب : ٦٥ – ٦٦ ، معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٣٧٢\٢ .

٤ - الكتاب : ١٦٩\٣ .

التسوية ليست معنى في الهمزة ، وإنما جاءت إلى الهمزة من كلمة موجودة في السياق قال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾(إبراهيم: من الآية٢١) ، فكلمة (سواء) هي التي أفادت همزة الاستفهام هذه الزيادة في المعنى ، و(أم) معادلة للهمزة ، فصارت في مثل هذا السياق معادلة لهمزة التسوية ، والفارق بين(أم) وهمزة الاستفهام أن الهمزة تأتي في بدء الكلام ، أما (أم) فتأتي عاطفة لكلامٍ على كلامٍ سابقٍ ، فهي تؤدي معنى الاستفهام المعطوف على كلام سابق له .

ويُفهَمُ من كلام النحاة أنَّ (أم) تشارك الهمزة في كونها حرفا أصيلا في الدلالة على الاستفهام ؛ لذا امتنع دخول (أم) على الهمزة ولم يمتنع دخولها على غيرها ، قال سيبويه في [باب تبيان (أم) لِمَ دخلت على حروف الاستفهام ولم تدخل على (الألف) ؟] : ((تقول:(أمْ مَنْ تَقُول؟) (أم هل تقول؟) ، ولا تقول : (أم أتقول؟) ، وذلك لأنَّ (أم) بمنزلة (الألف) ، وليست (أي، ومن ، وما ، ومتى) بمنزلة (الألف) ، وإنما هي أسماء بمنزلة (هذا وذاك) ، إلاَّ أنهم تركوا ألف الاستفهام ههنا ، إذ كان هذا النحو من الكلام لا يقع إلاَّ في المسألة ، فلما علموا أنه لا يكون إلاَّ كذلك استغنوا عن (الألف).)) [١]، فالاستفهام الذي تؤديه (أي ، ومن ، وما ، ومتى) لم يتأت من هذه الكلمات ، بل جاء من همزة الاستفهام الملاصقة لها ، لكنه لما لم تستعمل هذه الكلمات إلاَّ في الطلب والمسألة أمكن الاستغناء عن همزة الاستفهام لرسوخ العلاقة بينهما في ذهن المتكلم وقوَّتها ، حتى حُذِفَ حرف الاستفهام الرئيس وبقيت هذه الكلمات تدلّ عليه من باب الملازمة .

إذن (أم) حرف يستفهم به عندما يكون الاستفهام معطوفا على كلام متقدم قبله ، سواء أكان الكلام المتقدم يشتمل على استفهام أم لا ، ويفهم هذا المعنى من كلام الفراء أيضاً ، إذ يقول :(((أم) في المعنى تكون ردا على الاستفهام على جهتين ، أحدهما : أن تُفَرِّقَ معنى (أيٍّ)، والأخرى أن يستفهم بها ، فتكون على جهة النسق ، والذي ينوى بها الابتداء إلاَّ أنه ابتداء متصل بكلام ، فلو ابتدأت كلاما ليس قبله كلامٌ ، ثم استفهمت لم يكن إلاَّ بـ(الألف) أو بـ(هل) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾(السجدة:١-٣) ، فجاءت (أم) وليس قبلها استفهام ، فهذا دليل على أنها استفهام مبتدأ على كلام قد سبقه ،...، وربما جعلت العربُ (أم) إذا سبقها استفهام لا تصلح (أيُّ) فيه على جهة (بل) ، فيقولون :(هل لك قبلنا حق أم أنت رجل معروف بالظلم) ، يريدون: بل أنت رجل معروف بالظلم .))[٢]، فـ(أم) التي تُفرِّق معنى (أيُّ) هي التي يراد بها التعيين ، وأما التي تأتي بعد كلام متقدم فهي حرف استفهام في سياق العطف وقال الجوهري :((إن أصل ما وضع للاستفهام حرفان أحدهما (الألف) ولا تقع إلا في أول الكلام ، والآخر (أم) ولا تقع إلا في وسط الكلام .)) [٣] ، فالحرفان وضعا للاستفهام ، لكن الأول وضع للاستفهام الابتدائي ، والحرف الآخر وضع للاستفهام المعطوف على كلام سابق .

فمعنى (أم) الرئيس مكوَّن من شقين : الاستفهام والعطف ، لكن في حالات معينة قد لا يسمح سياق الكلام بحمل المعنى على هذين الشقين معا (الاستفهام والعطف) بها على ما قبله ، فعندها يُحَمِلهَا السياقُ معنى مضافا إلى الاستفهام هو الإضراب ، وقد يجبرها السياق على ترك معنى الاستفهام كليا والعدول عنه إلى معنى العطف أو الإضرَاب المحض . ومنه مثلا قول علقمة الفحل(ت٢٠ق.هـ) [٤]:

---

١ - الكتاب : ١٨٩\٣ ، وينظر معه : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ٣٢١.
٢ - معاني القرآن : ٧١- ٧٢ . وينظر معه : لسان العرب : مادة (أمم) : ٣٥\١٢ .
٣ - تاج اللغة وصحاح العربية : ١٨٦٧\٥.
٤ - ديوان علقمة الفحل : ٥٨.

(البسيط)

أَم هَـل كَـبيرٌ بَكـى لَـم يَقـضِ عَبرَتَـهُ إِثـرَ الأَحِبَّـةِ يَـومَ الـبَينِ مَشـكومُ

فقد جزم ابن يعيش بأن الشاعر : ((اعتقد خلع الاستفهام من (هل) ، ولولا ذلك لم يجمع بين استفهامين وهي (أم وهل) ، وإنما حكمنا على خلع دليل الاستفهام من (هل) دون (أم) ؛ لأن (هل) قد استعمل غير استفهام .)) [١] ، فدلالة (أم) على الاستفهام تأتي في المرتبة الثانية بعد همزة الاستفهام ، ودلالتها عليه أقوى من دلالة (هل) عليه ، حتى أنهم خلعوا دلالة الاستفهام من (هل) هنا ولم يخلعوها من (أم) ، ومع قوَّة دلالتها على الاستفهام قد تتخلى عنه ، ففي قول أُفنون التغلبي (ت٥٧ ق.هـ) [٢]:

(البسيط)

أَم كَيـفَ يَنفَـعُ مـا تُعطـي العَلـوقَ بِـهِ رِئمـانَ أَنـفٍ إِذا مـا ضُـنَّ بِـاللَبَنِ

اجتمعت هنا (أمْ) و(كَيفَ) ويرى ابن يعيش أن هذا السياق يوجب :((أن يُعتَقد نزع دليل الاستفهام من (أم) وقصرها على العطف لا غير ، ألا ترى أنا لو نزعنا الاستفهام من (كيف) للزم إعرابها .))[٣] ، وهذا ما لا يجوز عنده ، المهم عندي هنا أن الحرف (أم) له معنى رئيس هو (الاستفهام المعطوف) ، وقد يجبره السياق على التخلي عن جزء من معناه أو تحويل الدلالة إلى زاوية معينة من الكلام ، وهذا هو عين الفرضية التي طرحتها ، وإذا كان ابن يعيش قد حَكَّمَ القواعد النحوية في إبطال جزء من معنى (أم) في بيت أُفنون ، وأبقى المعنى على حاله في بيت علقمة ، فإني أرى وجوب تحكيم المعنى المراد من البيت الشعري ، فالمعنى المطلوب هو صاحب الحق في تحويل دلالة الحرف أو إجباره على ترك جزء من معناه ، وإلاَّ فإنه يمكن أن يدعى أن الحرفين باقيان على دلالتهما على الاستفهام ، وإنما كرر الشاعر حرف الاستفهام بغية التوكيد [٤]. وقد جاء مثل هذا الاستعمال في قول عنترة [٥]:

(الكامل)

هَـل غـادَرَ الشُـعَراءُ مِـن مُتَـرَدَّمِ أَم هَـل عَرَفـتَ الـدارَ بَعـدَ تَـوَهُّمِ

فالشاعر هنا احتاج إلى جزء من دلالة (أم) وهو العطف فخلع منها دلالة الاستفهام وأبقى الجزء الآخر ، وحملها على العطف مشابه جدا لحملها على معنى الإضراب ، لكن في الإضراب فضل زيادة في الدلالة ففيه ترك لمعنى العبارة المتقدمة وعدول عنها إلى معنى العبارة الجديدة وإن كانت معطوفة عليها ، أما في العطف المجرد فليس فيه عدول عن معنى العبارة المتقدمة . وهذا العدول أو عدمه إنما يحدده سياق النص العام وقرائنه المساعدة .

وليس شرطا أن يجتمع حرفان ليُحمَلَ معنى (أم) على جزء من معناه العام ففي قول امرئ القيس[٦]:

(المتقارب)

تَـروحُ مِـنَ الحَـيِّ أَم تَبتَكِـر وَمـاذا عَلَيـكَ بِـأَن تَنتَظِـرْ

أَمَـرخٌ خِيـامُهُمُ أَم عُشَـر أَمِ القَلـبُ فِي إِثـرِهِم مُنحَـدِرْ

---

١ - شرح المفصل : ٨\١٤ .
٢ - ظ : مغني اللبيب : ٦٧ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ١١\ ١٣٩ .
٣ - شرح المفصل : ٨\١٤ – ١٩ ، وينظر معه : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ٣٢٢ .
٤ - ظ : مغني اللبيب : ٦٦ .
٥ - ديوان عنترة (مولوي): ١٨٦، وقد تكرر هذا الاستعمال عند زهير مرتين أيضاً : ينظر : شرح ديوان زهير :٢٧٩ .
٦ - ديوان امرئ القيس :١٥٤، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٤٨ .

قال البطليوسيُّ في شرح البيت الأول :((قوله تروح ، أراد أتروح فأسقط الألف لدلالة (أم)، وهمزة أم المعادلة يعبر عنها بـ(أيُّ) ، أيْ : أيَّتهما تفعل : الرواح أم البكور، ...، وقال أبو الحسن بن كيسان: أم ها هنا منقطعة ، بمنزلة قوله: إنها لإبل أم شاء، والوجهان جائزان .))[1] ، ويرى الباحث أن تفسيرها بالمنقطعة في البيت الأوَّل أوْلَى ؛ ذلك أنه كان يسأله عن وقت ذهابه أهو بالرواح – الذي هو من لدن زوال الشمس إلى الليل[2] – فسؤاله كان تقريرا ، وقد حذف ألف الاستفهام كما قال البطليوسي ، لكنه انتبه إلى انه لا يريد السفر في وقت الرواح ، فتدارك بعدها مستغربا من بكوره في السفر قائلا : بل أتبتكر، وفي البيت الثاني يستمر في استفهام إنكاري معللا سبب استغرابه من سفرة مبكرا ، فقال : أفي مرخ ديارهم أم في عُشَر؟ ، وهما كناية عن نجد والغور، والهمزة هنا للتعيين ، طالبا بذلك سببا للتبكير في السفر لكنه سرعان ما يضرب عن هذا كله ، راجعا السفر والبكور فيه إلى تعلق القلب بهم وعدم مقدرته على منعه منهم قائلا : بل القلب في إثرهم منحدر . فالمعنى الذي يفهم من السياق هو القائد والمتصرف في تحميل الحرف دلالات يجب عليه إيصالها إلى المتلقي .

تعامل النحاة العرب مع (أم) تعاملا متسقا مع فرضية المعنى الحرفي العام المتحرك ، وإن لم يصرحوا بها لكن إشاراتهم تدلّ على ذلك . فللحرف معنى عاما ، وهنالك معنى هامشي يَتحرَّك في ظل المعنى العام ، ونتيجة لاختلاف فهمهم للسياقات التي وردت بها (أم) اختلف تفسيرهم لمعنى هذا الحرف واختلفت تقديراتهم لمعناه ، فقد اختلف النحاة في مسألة تقدير (أم) المنقطعة : فالبصريون قدَّروها بـ(بل والهمزة) مطلقا ، وقال آخرون : إنها تقدر بـ(بل) مطلقا ، وكان هنالك (وسطيون) يقدرونها بـ(بل والهمزة) في أكثر أحوالها ، وفي بعض الأحوال لابدَّ من تقديرها بـ(بل) وحدها [3]، فمعنى الإضراب لا يفارق (أم) المنقطعة أبدا ، لكن قد ينظم إلى هذا المعنى في بعض الأحيان معنى الاستفهام الإنكاري أو الطلبي ، ومثال الإضراب والاستفهام الإنكاري ، قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾(الطور:٣٩) ، وتقديره : (بل أله البنات ولكم البنون؟) ولو قدرت للإضراب المحض لزم المحال ، ومثال الإضراب و الاستفهام الطلبي قولهم : (إنها لإبل أم شاء؟) وتقديره بل أهي شاء . ويمكن أن يقع الجواب بعد هذه المنفصلة بـ(نعم) و(لا) ، إذا تقدمها الاستفهام الطلبي ؛ لأن الكلام جملتان منفصلتان فيصح الجواب عن كل واحدة منهما بأحد الجوابين [4].

وهل (أم) المنقطعة عاطفة أو لا ؟ نقل المراديُّ عن المغاربة أنهم يقولون :((إنها ليست عاطفة لا في مفرد ولا في جملة ، وذكر ابن مالك أنها قد تعطف المفرد ، كقول العرب :(إنها لإبل أم شاء) قال : فـ(أم) هنا لمجرد الإضراب ، عاطفة ما بعدها على ما قبلها ، كما يكون بعد بل فإنها بمعناها ، ومذهب الفارسي وابن جني أنها بمنزلة (بل) والهمزة ، وأن التقدير : بل أهي شاء ، وبه جزم ابن مالك في بعض كتبه.))[5] ، وعدَّ ابن هشام قول ابن مالك بعطفها المفرد خرقا لإجماع النحاة بأن (أم) المنقطعة لا تدخل على المفرد ؛ ولهذا قدَّروا المبتدأ في جملة (إنها لإبل أم شاء) بـ(بل هي شاء)أو (بل أهي شاء)[6] ، أقو ل : إن اختلاف التقدير يتبعه اختلافٌ في الفهم لوجهتي الكلام ، فنحن حينما نقدر(أم) بـ(بل) وحدها يكون معنى الكلام أن القائل رأى شبحا من بعيد فظن أنه إبلٌ فقال :(إنها لإبل) ، فإذا به يجزم بأنها شاء ، فعَدَلَ عن اعتقاده الأول قائلا : (أم شاء) ، أي : بل هي شاء ، وفي هذا يكون الإضراب المحض ، وأما عندما نقدرها بـ(بل والهمزة) ، فيكون معنى الكلام : أن الرائي لم يجزم بالشيء الذي رآه ولكن تولد له شك

---

١ - شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٤٨ .
٢ - ظ : مادة (روح) في : العين : ٣\٢٩١ ، تاج اللغة وصحاح العربية : ١\٣٦٨ ، لسان العرب : ١٢\ ٤٦٤ .
٣ - ظ : الجنى الداني : ٢٢٥ ، مغني اللبيب : ٦٦.
٤ - ظ : رصف المباني : ٩٥، جواهر الأدب : ١٠٥.
٥ - الجنى الداني : ٢٢٦ .
٦ - ظ : مغني اللبيب : ٦٨.

جديد في أنها قد لا تكون إبلا ، وقد تكون شاءً ولكنه غير جازم فيحاول أن يتثبت ممن يكلمه لعله يهديه إلى ضالته ، فالجواب يكون هنا مطلوبا ولا غنى عنه . ويمكن أن نجيب هنا بـ(نعم) أو (لا) . فالتقدير لا ريب يتبع قصد المتكلم من إنشائه القول ، وبعيدا عن هذا القصد لا نستطيع أن نجزم نحن بتقدير أوجهٍ لكلامه . وهذا الخلاف الذي طرحه النحاة من كون (أم) المنقطعة عاطفة أم لا ، قد يكون خلافا شكليا لا ثمرة منه .

المعنى العام لـ(أم) الذي هو الاستفهام المعطوف على كلام متقدم لم يمنع بعض النحاة من أن يفهم من سياق جملة ما وردت فيها (أم) معنى خاصا قد يكون مترشحا عن هذا المعنى العام أو قد يكون جزءا منه ، فقد تتوافر لهذا العالم من القرائن ما لم تتوافر لغيره فيقوده علمه إلى هذا المعنى ، وهذا ما حصل للزجاجي حينما ذكر : إن من معاني (أم) أنها تأتي بمعنى ألف الاستفهام أو تأتي بمعنى (أو) أو تأتي بمعنى (الواو)[1] ، هذه المعاني الثلاثة لم يذكرها غير الزجاجي من أصحاب كتب معاني الحروف ، فقد تفرد بها . إن الأمثلة القليلة التي ذكرها الزجاجي لهذه المعاني ترجع في حقيقة الكلام إلى المعنى الرئيس لـ(أم) ، أما المعنى الأول وهو كونها تأتي بمعنى ألف الاستفهام ، فهو راجع إلى المعنى العام والاكتفاء بجزء من المعنى دون الكل ، وقد استدل عليه بقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾(النساء: من الآية٥٤) ، وفي هذه الآية نرى إطباق المفسرين على القطع بأن (أم) فيها منقطعة للإضراب[2] . وتقدير (أم) في هذه الآية (بل والهمزة) ، والمعنى الذي ذكره الزجاجيُّ داخل ضمن هذا التقدير، وليس معنىً مستقلا . ومثله قول السلمي الذي استشهد به[3]:

(الطويل)

أَبا مَالِكٍ هَلْ أَنْتَ مُنْذُ حَضَضْتَنِي عَلَى القَتْلِ أَمْ هَلْ لامَنِي لَكَ لائِمُ

فـ(أم) هنا المنقطعة وتقدر بـ(بل) فيكون المعنى متسقا ، ولو قدره بألف الاستفهام فقط لكان قد أدخل ألف الاستفهام على (هل) ، وهذا ما نقله ابن منظور عندما ذكر هذا البيت[4] .

وأما المعنى الآخر الذي ذكره وهو مجيء (أم) بمعنى (أو) واستشهد عليه بالآية الكريمة: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾(الإسراء:٦٨-٦٩) ، ومعناها عنده (أو أمنتم) . لكن المفسرين لم يذهبوا هذا المذهب ، ولم يشيروا إليه[5] ، والمعنى المفهوم من الآية الكريم والمتسق معها أن تكون (أم) هنا منقطعة تقدر بـ(بل والهمزة). وليست بنا حاجة إلى تقدير معنى آخر ، ثم إن معنى (أو) قريب من معنى (أم) - كما سيأتي- وهذا ما جعل الزجاجي يذهب هذا المذهب .

والمعنى الثالث الذي قال به الزجاجي مجيئها بمعنى (الواو) ، واحتج له بقول الشاعر[6]:

(الكامل)

مَا أَكْرَمَ الأَخْلاقَ أَنْ صَاهَرْتَهُمْ أَمْ مَا أَحَقَّ القَوْمَ بالخُلُقِ السَّرِي

وهذا البيت مجهول القائل لم يعثر عليه محقق كتاب الزجاجي ، ولم أعثر عليه أنا في الموسوعة الشعرية ولا في المكتبات الإلكترونية التي تحوى أكثر من أربعة آلاف كتاب من المصادر و المراجع الموثوق بها . التي أطلت البحث فيها من أجله . ومع جهل قائله إن البيت

١ - ظ : حروف المعاني : ٤٨ – ٤٩.
٢ - ظ : الكشاف :٥٣٤\١ ، مفاتيح الغيب : ١٠٤\١٠ ، البحر المحيط : ٣\ ٦٧٠ .
٣ - حروف المعاني : ٤٩، وينظر تعليق المحقق على البيت في الهامش .
٤ - ظ : لسان العرب : مادة (أمم) : ٣٧\١٢.
٥ - التبيان :٦\ ٥٠٢ ، مجمع البيان :٦\ ٢٧٢، الكشاف :٤٥٧\٢، الجامع لأحكام القرآن :١٩٢\١٠، تفسير أبي السعود :١٧٩\٥ .
٦ - حروف المعاني : ٤٨ – ٤٩، والبيت مجهول القائل .

يليق به أن نفسر (أم) فيه بأنها المنقطعة ، وتقدر (أم) هنا بـ(بل) ويكون المعنى مستقيما ، ولا نحتاج إلى تقدير معنى آخر للحرف . إن هذه المعاني التي ذكرها الزجاجي ومن حكاها معه ليست معاني رئيسة تقوم إزاء المعنى الأصلي العام لهذا الحرف ، بل هي معان مترشحة عنه وراجعة إليه .

ذكرت بعض المصادر أن (أم) تأتي زائدة ، ونقل هذا الرأي عن أبي زيد[١] ، وممن ذكر قوله هذا : ابن فارس ، والمرادي ، وابن هشام[٢]، وأهمل نقل هذا الرأي الآخرون ، ومما استشهد به لهذا القول قوله تعالى : ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾(الزخرف: من الآية٥١ - ٥٢) ، ورأى أن تقدير الكلام (أفلا تبصرون أنا خير)، أقول : لقد تتبعت هذه الآية الكريمة في عدد غير قليل من التفاسير التي يُعتدُّ بها ؛ لأستبين رأيهم فيها ، وهل هناك من مناصر للقول بزيادة (أم) فيها ؟ فلم أجد ذلك ، وكان كثير من المفسرين يرون أنها هنا منقطعة بمعني (بل) كما هو رأي أهل البصرة ، وبعضهم يرى أنها متصلة ، نعم نقل أفراد من المفسرين قول أبي زيد أنها هنا زائدة لكنهم لم يناصروه [٣].

والشاهد الثاني الذي ذكره ابن هشام لإثبات هذا المعنى لـ(أم) هو قول ساعدة الهذلي[٤]:

(الكامل)

يا لَيتَ شِعري وَلا مَنجى مِنَ الهَرَمِ   أَم هَل عَلى العَيش بَعدَ الشَيبِ مِن نَدَمِ

إن رواية هذا البيت في ديوان الهذليين وخزانة الأدب ، بلفظ (ألا منجى ...) ، وعندها لا شاهد في البيت على ما ذكر ؛ لأنها ستكون بمعنى (بل) ، هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى قال البغدادي :((وخصَّ ابنُ عصفور زيادتها بالشعر.))[٥] ، وقال أيضاً :((حَمَلَ أبو زيد {على الزيادة} قوله تعالى: {أفلا تبصرون أم أنا خيرٌ} ووافقه على جواز ذلك أبو بكر بن طاهر من المتأخرين. والصحيح أنها غير زائدة ، لأن زيادتها قليلة ، فلا ينبغي أن تحمل الآية عليها، إذ قد يمكن حملها على ما هو أحسن من ذلك . ألا ترى أنه يمكن أن تكون منقطعة على ما ذهب إليه سيبويه ، ومتصلة على ما ذهب إليه الأخفش . وقد بين النحويون الوجهين .)) [٦] . إن آراء العلماء في إثبات هذا النوع ونفيه تميلُ إلى جانب النفي ، وفي أحسن الأحوال فإنهم يقولون : إنّه خاصٌّ بالشعر، وإنَّه قليلٌ ، والباحث يرى أن القول بزيادة الحرف لا يعني القول بمعنى جديد يؤديه الحرف قبالة معناه العام الموضوع له أصلا ، فالزيادة إما أن تكون زيادة في القالب التقليدي الذي ينبغي أن تصاغ عليه جملة ما في اللغة ، أو أن تكون زيادة لفظ من باب التوكيد ، وفي النوع الأول يؤدي الحرف معناه الموضوع له ولا علاقة لمصطلح الزيادة في البناء التركيبي على المعنى ، وفي النوع الثاني يكون معنى التوكيد لتكرار اللفظ لا للحرف المكرر نفسه .

---

١ - هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري النحوي ،من أهل البصرة ، ومن ثقات اللغويين ، ويقال إن سيبويه كان يعنيه إذا قال (سمعت الثقة أو قال الثقة) ، ينظر في ترجمته : تقريب التهذيب : ٣٤٨\١ ، الأعلام : ٩٢\٣ .

٢ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة :١٢٦، الجنى الداني : ٢٢٦ ، مغني اللبيب : ٧٠ .

٣ - ظ : معاني القرآن (الفراء) :٣٥\٣، جامع البيان :١٠٤\٢٥،٤٩، معاني القرآن وإعرابه(الزجاج):٤١٥\٤، معاني القرآن (النحاس) :٣٦٩\٦، إعراب القرآن(النحاس):٩٤\٣، التبيان :٢٠٧\٩، مجمع البيان :٨٦\٩، الكشاف :٤٩٢\٣ ، مفاتيح الغيب :٦٣٥\٢٧، البحر المحيط :٣٦٢\٩، التبيان في إعراب القرآن :٢٢٨\٢، الجامع لأحكام القرآن :٩٩\١٦، معجم الجملة القرآنية ، الحروف الزائدة: ١٦٢.

٤ - ديوان الهذليين : ١\ ١٩١ ، شرح أشعار الهذليين : ١١٢٢\٣، مغني اللبيب : ٧٠ .

٥ - خُزَانَةُ الأَدَبِ:٦٤\١١ - ٦٥ ، وينظر معه: ديوان الهذليين : ١٩١\١ .

٦ - خُزَانَةُ الأَدَبِ:٦٤\١١- ٦٦ .

ومن الغريب ما نراه من نقل بعض العلماء إن من معاني (أم) أنها تأتي حرفَ تعريف ، مثل (ألـ) أو بدلا منها ، ونُقل ذلك عن طيىء ، أو حمير أو هذيل[1] ، وأنشدوا منه لبجير بن غنمة الطائي[2] :

(البسيط)

ذَاكَ خَلِيْلـــــي وَذُوْ يُوَاصِـــــلني يَرمِــي وَرَائــي بِأَمْسَـــهم وامْسَـــلِمة

يريد بالسهم والسلمة ، واستشهدوا لــها أيضا بما يروى عن النبي9 من قوله: **((ليسَ مِنْ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَرِ))** [3] . ووجه الغرابة في نقلهم هذا أن الحرف الذي يتحدثون عنه ليس (أم) وإنما هو(ألـ) التي للتعريف قلبت اللام فيها ميما في لهجة بعض القبائل ، ((وقيل إن هذه لغة مختصة بالأسماء التي لا تدغم لام التعريف في أولها نحو غلام وكتاب ، بخلاف رجل وناس ولباس))[4]، فالأمر لا يتعلق بـ(أم) ، بل هو من شؤون (ألـ) ، وينبغي أن لا يذكر هذا الكلام عند الحديث عن (أم) .

مما تقدم يتضح : إن (أم) لها معنى عام واحد هو (الاستفهام المعطوف) وقد يتغير هذا المعنى بحسب مقتضيات السياق الذي ترد فيه ، فيُمَالُ إلى ترك الكلام المتقدم ، واستئناف كلام جديد وهو الإضراب ، وقد يكون هذا الإضراب فيه معنى الاستفهام ، أو قد يكون إضرابا محضا .

ثانيا : (إنْ)

لم يقتصر وجود ظاهرة المشترك اللفظي على الأسماء والأفعال ، بل وصلت إلى الحروف أيضاً ، فهنالك من الحروف ما له أكثر من معنى ، لا على نحو ما ردده بعض العلماء من تعدد المعنى للحرف الواحد ، بل كان ذلك من قبيل الوضع المشترك ، فلدينا صورة واحدة مشتركة لأكثر من حرف ، أي الصورة واحدة والمعاني متعددة وهذا ما عبر عنه أولمان بـ((كلمات عدَّة متحدة الصيغة homonymy))[5]، وقد أشار إلى هذا بوضوح في تراثنا العربي ابنُ جنيٍّ إذ يقول : ((فإن قلت قد يكون من الحروف ما يصلح من المعاني لأكثر من الواحد نحو (مِنْ) فإنها تكون : تبعيضا وابتداءً ، ولا تكون : نفيا ونهيا وتوكيدا و(إن) فإنها تكون : شرطا ونفيا وتوكيدا قيل : هذا إلزام يُسقطه تَأمُله ، وذلك أن (من) و(لا) و(إن) ونحو ذلك لم يقتصر بها على معنى واحد ؛ لأنها <u>حروف وقعت مشتركة</u> ، كما وقعت الأسماء مشتركة نحو الصدى،...، ونحوه مما اتفق لفظه واختلف معناه ، وكما وقعت الأفعال مشتركة ، نحو وجدت في الحزن ووجدت في الغضب ووجدت في الغنى ووجدت في الضالة ووجدت بمعنى علمت ونحو ذلك ، فكذلك جاء نحو هذا في الحروف .))[6] ، وهكذا فإن ظاهرة المشترك اللفظي تتجسد تتجسد في عدد من الحروف منها(إنْ) مكسورة الهمزة الخفيفة ، فيضم هذا الشكل تحته أكثر من نوع من الحروف ، فعندنا :

---

١ - ظ : معاني الحروف:٧١، الجنى الداني:١٧٢،٢٢٧، رصف المباني:٩٦، مغني اللبيب :٧٠–٧١، جواهر الأدب :١٠٣.
٢ - ظ: المفصل في صنعة الإعراب: ٤٥٠، شرح المفصل : ١٧\٩، الجنى الداني:١٧٢، مغني اللبيب: ٧٠ .
٣ - مسند أحمد : ٥\ ٤٣٤ ، المسند (الحميدي) ٢\ ٣١٨ - ٣١٩ ، معاني الحروف : ٧١ ، مغني اللبيب : ٧٠ .
٤ - مغني اللبيب : ٧١ .
٥ - ظ: دور الكلمة في اللغة : ١٢٩، ١٣٩- ١٤٦.
٦ - الخصائص : ٣\١١٠- ١١١.

١. حرف ثنائي الوضع هو(إنْ) الشرطية الجازمة ، تأتي (إنْ) حرف شرط ، وربما سميت جزاءً أيضاً ، إذ هو شرط وجزاء فتسمى بأحدهما[1]، وهي أُم الباب في أدوات الشرط ؛ لوجهين : ((أحدهما : أنها حرف وغيرها من أدواته اسم ، والأصل في إفادة المعاني الحروف ، والثاني[2] : أنها تستعمل في جميع صور الشرط ، وغيرها يخص بعض المواضع فـ(من) لمن يعقل و(ما) لما لا يعقل وكذلك باقيها كل منها ينفرد بمعنى و(إنْ) مفردة تصلح للجميع .)) [3]، نحو قوله تعالى :﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾(الأنفال: من الآية٣٨) ، وقوله ﷻ :﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١٩) .

و(إنْ) الشرطية عاملة لاختصاصها بالدخول على الفعل ، وهي تقتضي تعليق جملة على أخرى ((تسمى الأولى شرطا ، والثانية جزاءً ، ومن حقهما أن يكونا فعليتين ، ويجب ذلك في الشرط ، فإن كانا مضارعين جزمتهما ؛ لأنها اقتضتهما فعملت فيهما))[4]، وإن كانا ماضيين حكم على موضعهما بالجزم ؛ لبنائهما ، وقد تدخل على ماضٍ ومضارع فيبقى الماضي مبنيا ، وعندها لا تؤثر في المضارع أيضاً ، فيبقى مرفوعاً ؛ لأن أكثر النحاة يرون أنها إذا لم تؤثر في الذي يليها فلا تؤثر في الفعل الثاني ، واستشهدوا له بقول زهير[5]:

(البسيط)

وَإِن أَتــــاهُ خَليــــلٌ يَـــومَ مَســـأَلَةٍ ... يَقـــولُ لا غائِـــبٌ مـــالي وَلا حَـــرِمُ

ورفعه عند سيبويه على تقدير تقديمه (ويقول إن أتاه) ، وقال بعضهم إنها لمَّا لم تؤثر في الأول ضعفت عن التأثير في الثاني ، والكوفيون يرون أنه على حذف الفاء من الجواب ضرورة[6]، وفي حالة أخرى ((قد يكون الشرط مستقبلاً ، والجزاء ماضيا ، وهو أقلُّ الوجوه، وذلك نحو قولك : إنْ تَقمْ قُمتُ مَعَكَ .))[7] ، حتى قيل: ((لم يكد يوجد إلاَّ في الشعر .)) [8].

٢. ولدينا (إنْ) المخففة من (إنَّ) الثقيلة التي هي حرف ثلاثي الوضع أصلا ، ومعناها التوكيد أو التحقيق ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، فيلزم خبرها (اللام) ، للفرق بينها وبين النافية[9]، فمن دخولها على الاسمية قوله تعالى:﴿ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(الزخرف:٣٥) ، وأكثر ما تدخل في الجمل الفعلية على الأفعال

---

١ - ظ : الكتاب:١٥٢\٣، حروف المعاني:٥٧، الجمل:٣٣٢، معاني الحروف:٧٤ ،المخصص:٥٥\١٤، رصف المباني:١٠٤،الجنى الداني:٢٢٨، جواهر الأدب:١١٣، اللمع في العربية:٢٢٦-٢٢٧، التفاحة في النحو:٢٠،الحلل في إصلاح الخلل:٣٣٦، شرح المفصل:١٥٥\٨-١٥٨،اللباب في علل البناء والإعراب: ٥٠\٢، شرح ألفية ابن مالك:٢٧٢،التراكيب اللغوية في العربية:٢٢٣.

٢ - ورد هكذا والأصح : والآخر .

٣ - اللباب في علل البناء والإعراب :٥٠\٢ ، وينظر معه : الكتاب : ١٥٢\٣ وما بعدها ، البيان في شرح اللمع : ٢٧٠ ، الأشباه والنظائر: ١٣٧\٢.

٤ - شرح ألفية ابن مالك : ٢٧١ ، وينظر معه : معاني الحروف : ٧٤ ، رصف المباني : ١٠٤.

٥ - شرح ديوان زهير : ١٥٣، وينظر معه : المقتضب :٧٠\٢، الكامل في اللغة والأدب : ٢١٦\١، الأمالي (للقالي) :١٩٣\١ ، المفصل في صنعة الإعراب: ٤٤٨، شرح المفصل : ١٥٧\٨ ، رصف المباني : ١٠٤ .

٦ - ظ : شرح الأشموني على الألفية :٥٨٥\٣ ، رصف المباني : ١٠٤ .

٧ - معاني الحروف : ٧٤ ، ينظر معه : رصف المباني : ١٠٥ .

٨ - جواهر الأدب : ١١٦.

٩ - ظ:حروف المعاني:٥٧، معاني الحروف:٧٥، البغداديات:١٧٦، ارتشاف الضرب:١٤٩\٢، الإنصاف في مسائل الخلاف:٦٤٠\٢، شرح المفصل:٨\ ١١٣، رصف المباني:١٠٨، مغني اللبيب:٣٦، الجنى الداني:٢٢٨، لسان العرب:مادة (أنن): ٣٠\١٣.

الناسخة الماضية ، نحو قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾(البقرة: من الآية١٤٣)، وأقل منه دخولها على الأفعال الناسخة المضارعة ، نحو الآية الكريمة: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾(القلم:٥١) ، وعند دخولها على الجملة الفعلية فإنها تهمل وجوبا ، كما يقتضيه شرط الاختصاص ، وأما عند دخولها على الجملة الاسمية فقال بعض البصريين بجواز إعمالها في قلَّة من القول ، مستدلين ببعض القراءات ، لكنهم يقررون أن الأكثر إهمالها[١] . وحيث وُجِدَتْ (إنْ) وبعدها اللام المفتوحة فيُحْكَم عليها بأن أصلها التشديد[٢] .

فـ(إنْ) الأولى الشرطية غير الثانية المخففة من الثقيلة ، ومعنى تلك غير معنى هذه ، ولا يعني هذا تعدد المعنى لحرف واحد ، بل لدينا صورة واحدة لحرفين مختلفين ، إن الالتفات إلى هذا الفارق يوضح لنا بجلاء سبب اختلاف المعنى في هذه الصور ، فهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف الكلمات واختلاف المعنى الموضوعة له أصلا كل واحدة من تلك الكلمات ، ونتيجة لتغيير معين أصبحت صورة هذه الكلمة تشبه صورة كلمة أخرى لها معنى آخر.

٣. ولدينا صورة ثالثة من (إنْ) وهي : إن النافية حرفٌ ثنائي الوضع ، إذ تكون (إنْ) حرفا للنفي مثل (ما ولا و ليس) ، يدخل على الجملة الاسمية والفعلية ، وهي غير عاملة هنا ؛ لأنها ليست مختصة[٣]، فمن دخولها على الاسمية قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾(المجادلة: من الآية٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾(النساء: من الآية١٥٩)، وهذا على حذف المبتدأ وإبقاء صفته ، وتقديره : وما أحدٌ من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمنن به ، ومن دخولها على الجملة الفعلية ، قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً ﴾(النساء:١١٧) ، وكذلك : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾(الكهف: من الآية ٥) . وكل (إنْ) بعدها (إلاَّ) فهي نافية ، وليس شرطا أن تأتي (إلاَّ) بعد كل (إنْ) نافية ؛ إذ قد تأتي (إنْ) النافية وليس بعدها (إلاَّ) [٤]، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾(يونس: من الآية٦٨) ، وكذلك قوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾(الأنبياء:١١١) . إن استعمال (إنْ) النافية جاء في مرحلة لاحقة من استعمالها شرطية ، وسيتبين ذلك في الفصل الثالث مفصلا . و(إنْ) النافية ثنائية ، لكنها غير (إنْ) الشرطية الثنائية أيضاً ، وغير (إنْ) المخففة من الثقيلة ، وخصائص كل واحد تختلف عن الأخرى .

ذكرت المصادر أن من معاني (إنْ) أنها تأتي زائدة ، وهي ضربان :

---

١ - ظ : تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (أنن) : ٢٠٧٣\٥ ، رصف المباني : ١٠٨،الجنى الداني : ٢٢٨، مغني اللبيب : ٣٦ .
٢ - ظ : البغداديات : ١٧٦ ، ١٨٠، مغني اللبيب : ٣٧ .
٣ - ظ : حروف المعاني : ٥٧ ، معاني الحروف : ٧٥ ، تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (أنن) : ٥\ ٢٠٧٤ ، شرح المفصل : ٨\ ١١٢-١١٣ ، رصف المباني : ١٠٧ ، الجنى الداني : ٢٢٩ ، لسان العرب : مادة (أنن) : ٣٥\١٣.
٤ - ظ : معاني الحروف : ٧٥ ، مغني اللبيب : ٣٤ ، جواهر الأدب : ١١٧.

- كافَّة تأتي بعد (ما) الحجازية[1] كقول النابغة الذبياني (ت١٨ق.هـ) [2]:

(البسيط)

مـا إنْ أَتَيـتُ بشـيءٍ أَنـتَ تَكْرَهُـهُ إذَنْ فَـلا رَفَعَـتْ سَـوْطي إلَيَّ يَـدِي

فـ(إنْ) هنا زائدة ، و(ما) هنا داخلة على الجملة الفعلية ، وقد تكون (ما) داخلة على الجملة الاسمية كقول الشاعر[3]:

(الوافر)

وَمَـا إنْ طِبُّنا جُـبْنٌ ولكـن منايانـا ودولـة آخرينـا

- وغير الكافَّة : تأتي في مواضع :[4]

أ- بعد (ما) الموصولة الاسمية ، كقول الشاعر[5] :

(الوافر)

يُرجِّـى المـرءُ مَـا إنْ لا يَـرَاهُ وَتَعـرِضُ دُونَ أدنَـاهُ الخُطُـوبُ

ب- بعد (ما) المصدرية ، مثل قول الشاعر[6] :

(الطويل)

وَرَجِّ الفَتَـى للخَـيرِ مَـا إنْ رَأَيتَـه عَلَـى السِّـنِّ خَـيراً لا يَـزَالُ يَزِيـدُ

ت- بعد (ألا) الاستفتاحية : نحو قول الشاعر[7] :

(الطويل)

ألا إنْ سَـرَى لَيْلَـي فَبِـتُّ كَئِيبـاً أُحَـاذِرُ أنْ تَنـأى النَّـوَى بغَضُـوبا

ولقد أشرت في المبحث المتقدم إلى أن الزيادة ليست معنى يؤديه الحرف إزاء تأديته لمعناه الأصلي الموضوع له ، فهي إما أن تكون تكرار لكلمة معنى أو لفظا ، فيكون معنى التوكيد حينئذ مستفادا من أسلوب التكرار ، وإما أن تكون الزيادة يراد بها زيادة في القالب التقليدي لبناء الجملة العربية ، وحينئذ يكون مصطلحا يهتم بالعامل والحركة الإعرابية ، أكثر من اهتمامه بناحية الدلالة والمعنى . و(إنْ) التي وردت زائدة هي (إنْ) الشرطية وليست المخففة ولا النافية.

ولا نعدم أن نجد من يفهم من سياق خاص ترد فيه (إنْ) معنى معينا فقد حُكِيَ عن قطرب والكسائيّ أن (إنْ) قد تكون بمعنى (قد)[8]، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾(الأعلى:٩) ، وقوله : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(الشعراء:٩٧) . ونقل عن الكوفيين أن (إنْ)

---

١ - ظ : شرح المفصل : ١٢٩\٨، الجنى الداني : ٢٣١ .

٢ - في الديوان بلفظ (ما قُلتُ مِن سَيِّئٍ مِمّا أَتَيتَ بِهِ ...) ، وبهذه الرواية فلا شاهد فيه، وفي غيره من المصادر بروايات مختلفة، ينظر: ديوان النابغة الذبياني : ٢٨، خُزَانَةُ الأَدَبِ:٤٤٩\٨ ، مغني اللبيب: ٣٨، التراكيب اللغوية في العربية:١٤٥.

٣ - البيت مختلف في نسبته ، ينظر : الكامل في اللغة والأدب:٥٥٧\١ ، الصاحبي في فقه اللغة:١٣١، شرح المفصل:١٢٩\٨، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ١١٢\٤، ١٤١\١١ ، مغني اللبيب : ٣٨ .

٤ - ظ : شرح المفصل :١٣٠\٨ ، الجنى الداني : ٢٣١ ، مغني اللبيب : ٣٨ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ :٤٤٠\٨-٤٤٢ .

٥ - البيت مختلف في نسبته ، ينظر : مغني اللبيب : ٣٨، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٨\ ٤٤٢ .

٦ - ظ : الكتاب : ٢٢٢\٤ ، مغني اللبيب : ٣٨، وينظر تعليق المحقق في الهامش ، خُزَانَةُ الأَدَبِ :٤٤٢\٨ .

٧ - البيت مجهول القائل ، ينظر في شأنه : مغني اللبيب : ٣٨، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤٤٢\٨ .

٨ - ظ : رصف المباني : ١١٠ ، الجنى الداني : ٢٣٤ ، مغني اللبيب : ٣٩ .

قد تكون بمعنى (إذ)[1]، وذلك في نحو الآية الكريمة : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(المائدة: من الآية٥٧). وزعم بعضهم أن (إنْ) قد تكون بمعنى (لو)[2] ، في مثل قوله تعالى :﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(الأنبياء:١٧) ، في حين نقل المفسرون أن (إنْ) في الآية الأولى شرطية ، وفي الآية الثانية مخففة من الثقيلة ، ونقل القرطبيُّ أقوال بعض أهل العربية أنها قد تكون بمعنى (قد) أو (إذ)[3]، ولكن هذه الآراء تمثل فهم عالم خاص به ، له احترامه ورأيه الخاص ، لكنها ليست معاني مطردة متفقاً عليها عند الجميع يؤديها الحرف من خلال السياق مع المعنى الرئيس ، وهي تنتج عن فهم معين للنص التي وردت فيه ؛ لذا نرى العلماء الآخرين قد أجابوا عن هذه الأقوال ورجعوها إلى معنى (إنْ) الرئيس أو بعض أشهر معانيها الهامشية ، بل صرح بعضهم بأن هذه الآراء ليست بصحيحة ، وأنها لم تثبت في اللغة [4] ، وأنا إذ أنقلها هنا لا لأثبت صحتها أو أدحضها بقدر ما أريد القول : إن السياق التي وردت فيه (إنْ) في هذه النصوص كان له تأثيره في توجيه المعنى في ذهن بعض المتلقين وجهة خاصة ، وقد يساعد على ذلك بعض القرائن المصاحبة للنص ، وتبقى (إنْ) تدور بين ثلاثة أنواع : الشرطية والمخففة والنافية .

إن لبعض الكلمات المستعملة في اللغة البشرية عموما قدرة للتعبير عن مدلولات متعددة وإن مقدرة الكلمات على أداء وظيفتها لا تتأثر بحال من الأحوال بعدد المعاني المختلفة التي قُدِّر لها أن تحملها ، إذ إن بعض الكلمات تستطيع أن تقوم بعشرات الوظائف بسهولة ويسر، ولا تتمكن هذه الكلمات من فعل ذلك إلاَّ إذا كانت داخل سياق النص الذي يحدد مسارات المعاني الخاصة لهذه الكلمات بما يدفع عنها الغموض ويجعلها قادرة على إيصال الأفكار البشرية من خلال عملية التخاطب اللغوي [5]، وفي هذا الحال فإننا لا نتمكن خارج السياق من تحديد (إن) أهي شرطية أم نافية أم مخففة من الثقيلة ؟ ففضلا عن أهمية السياق في تحديد المعاني الهامشية التي قد يحملها الحرف والكلمة عموما ، فللسياق الفضل الأكبر في تحديد كون الكلمة من المشترك اللفظي أو لا ، وتشخيص دلالتها الدقيقة .

ثالثا : (أنْ)

وهذا الحرف من المشترك اللفظي أيضاً ، فـ(أنْ) المفتوحة الهمزة الخفيفة ، شكل يضم تحته أكثر من نوع من الحروف ، فعندنا:

١. **(أنْ) المصدرية** ، إذ تكون (أنْ) موصولاً حرفياً ، تؤول هي والفعل الذي تدخل عليه بمصدر، ومعناها بصلتها ، والفعل بعدها صلة لها ، وهي ثنائية في أصل الوضع[6]. وتدخل على الفعل المتصرف ، فإن كان الفعل مضارعا كانت ناصبة له بشروط وضوابط

---

١ - ظ : رصف المباني : ١١٠ ، الجنى الداني : ٢٣٢ ، مغني اللبيب : ٣٩ .
٢ - ظ : معاني الحروف : ٧٧ .
٣ - ظ : الكشاف : ٢٤٣\٤ ، مفاتيح الغيب : ١٣٢\٣١ ، الجامع لأحكام القرآن : ١١٥\١٣ ، ٢٠\٢٠ .
٤ - ظ : اللباب في علل البناء والإعراب : ٥٢\٢ ، رصف المباني : ١١٠ ، الجنى الداني :٢٣٣- ٢٣٤ ، مغني اللبيب : ٣٩ .
٥ - ظ : دور الكلمة في اللغة : ١٣١.
٦ - ظ : حروف المعاني:٥٨، معاني الحروف:٧١، التفاحة في النحو:١٩،المخصص:٥٥\١٤، الحلل في إصلاح الخلل:٣٧٢، البيان في شرح اللمع:٣٧١،المقرب:٢٦٠\١، شرح ألفية ابن مالك:٢٦٢، رصف المباني:١١٢، الجنى الداني:٢٣٥، جواهر الأدب:١٠٦.

يجب أن تتحقق [١] ، وتخلصه للاستقبال كـ(السين وسوف) ، وقد تقع معه في أحد موضعين[٢]:

أحدهما : في الابتداء ، فتكون هي والفعل في موضع رفع ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾(البقرة: من الآية١٨٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾(البقرة: من الآية٢٣٧)، ومنها أيضا قوله ﷻ : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾(النور: من الآية٦٠) .

والآخر : بعد لفظ دالٍّ على معنى غير اليقين ، وعندها تكون إما في موضع رفع أو نصب أو خفض، وذلك بحسب العامل المؤثر فيها ، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾(الحديد: من الآية١٦)، وقوله عزَّ من قائل: ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾(المائدة: من الآية٥٢) ، وقوله ﷻ : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾(المنافقون: من الآية١٠) .

وتوصل بالماضي ، نحو قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾(القصص: من الآية٨٢)، وكذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾(الإسراء:٧٤) . وقد توصل بالأمر ، كما حكي عن سيبويه قوله (كتبت إليه أنْ قمْ)[٣] .

وهي أُم باب الأدوات الناصبة للأفعال ؛ ((لكونها تقدر مع بعض ما يظهر أنَّه ناصب بنفسه ، كحتى ولام كي ولام الجحود))[٤] ، والفرق بينها وبين (ما) المصدرية أن:(((ما) تدخل على الفعل و الفاعل والمبتدأ والخبر ، و(أنْ) مختصة بالفعل ؛ ولذلك كانت عاملة فيه ، ولعدم اختصاص (ما) لم تعمل شيئاً .))[٥]. وربما ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن (ما) و(أنْ)و (أنَّ) حروف لها وظيفة واحدة هي أنها ((وسائط لوضع الجمل في مواضع المفردات ،...، فليس الغرض من (ما) في قولنا :(أعجبني ما صنعت) مثلا أن تؤدي ما أراده النحاة أن تؤديه من تأويل ما بعدها بالمصدر ،...، إننا لم نرد بهذا المثل إلى أن نقول :إنَّ صنعك مما أعجبني ، مثلا ، لكننا أردنا إلى القول : إنَّ ما أعجبنا هو أنك أديت الفعل بعد أن لم تكن فعلت ، وبين القصدين بونٌ بعيدٌ.))[٦]، وإني أميل إلى هذا الفهم وسيتبيَّن هذا مفصلا في الفصل الثالث. الثالث.

٢. وهناك **(أنْ) المخففة من الثقيلة** ، وهذا النوع ثلاثي في أصل وضعه ، فأصله (أنَّ) ، ولما خفف صار من حرفين ، و(أنْ) هذه ((لا تقع إلا بعد فعل التحقيق ، كالعلم وما يؤدي معناه ، كالتبيِّن ، والتَّيقن والانكشاف ، والظهور ، والنظر الفكري ، والإيحاء ، والنداء ، ونحو ذلك ، أو بعد فعل الظن ، بتأويل أن يكون ظنا غالبا متأخيا للعلم))[٧] ، وتنصب

---

١ - ظ : شرح المفصل :٨\ ١٤٣، ارتشاف الضرب :٣٨٧\٢، شرح الرضي على الكافية :٤٥٠\٤،٤٤١، رصف المباني :١١٢، جواهر الأدب :١٠٧،١٠٩.
٢ - ظ : رسالتان في اللغة : ٤٦، شرح المفصل :٨\ ١٤٣، شرح الرضي على الكافية :٣٠\٤، ٤٤١، مغني اللبيب :٤١-٤٢ ، رصف المباني : ١١٢ ، البرهان ٢٢٣\٤.
٣ - ظ : المصادر نفسها في الهامشين المتقدمين .
٤ - رصف المباني : ١١٢ ، وينظر معه : الجنى الداني :٢٣٦ .
٥ - شرح المفصل : ٨\ ١٤٣.
٦ - في النحو العربي نقد وتوجيه : ٣١٥.
٧ - شرح الرضي على الكافية : ٢٣\٤ ، وينظر معه : معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٢٩٩\٢ ، البرهان : ٢٢٥\٤.

الاسم وترفع الخبر كأصلها ، وزعم بعضهم أنها لا تعمل شيئاً [١]، وشرط اسمها أن يكون ضمير شأن محذوفا ، وقد يبرز عند الضرورة ، كقول الشاعر[٢] :

(الطويل)

فَلَــوْ أَنَّــكِ فِي يَــومِ الرَّخَــاءِ سَــأَلْتِنِي طَلاقَــكِ لَــمْ أَبْخَــل وأنــتِ صَــدِيقُ

وشرط خبرها أن يكون جملة ، فإمَّا أن تكون اسمية ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(يونس: من الآية١٠) ، وأمَّا أن تكون فعلية ، وعندها فلابدَّ من فاصل بين (أنْ) والفعل ، وفي الإيجاب يكون الفاصل (السين) ، نحو قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ ﴾(المزمل: من الآية٢٠)، أو (قد) نحو قوله ﷻ : ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾(الأعراف: من الآية٤٤) ، أو (لو) نحو : ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾(الأعراف: من الآية١٠٠) ، وفي النفي يكون الفاصل (لا) نحو : ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾(الأعراف: من الآية١٠٥) أو (لن) مثل قوله ﷻ : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾(الجن:٥) ، هذا إذا كان الفعل متصرفا ، فإن كان الفعل غير متصرف أو دعاء فلا يحتاج إلى الفاصل ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾(النجم:٣٩) ، وقوله في الدعاء : ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(النور:٩) [٣]، ((ويسمي النحاة الحروف التي بعد (أن) المخففة : حروف التعويض ؛ لأنها كالعوض من إحدى نوني (أنَّ) .))[٤] ، ولا يجوز إفراد خبرها ، إلاَّ إذا ذكر الاسم ، فيجوز الوجهان ، كما جاء في قول الشاعر[٥] :

(المتقارب)

بِأَنْــكَ رَبِيــعٌ وَغيــثٌ مَرِيــعٌ وَأَنْــكَ هُنَــاكَ تَكُــون الثِّمَــالا

و(أن) المخففة تختلف عن (أنْ) في النوع الأول ، فهذه ثلاثية وتلك ثنائية مصدرية .

٣. وهناك أيضاً **(أنْ) المفسرة** ، فقد تكون (أنْ) بمعنى (أي) التفسيرية [٦] ، و((لا تأتي إلاَّ إلاَّ بعد فعل بمعنى القول ، كقولك ناديته أنْ قُمْ ، وأمرته أن اقعد ، وكتبت إليه أن ارجع.))[٧]، نحو قوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(الصافات:١٠٤) ، وقوله ﷻ : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾(المؤمنون: من الآية٢٧) ، وهذا النوع مُختلَفٌ في أصل وجوده وعدمه ، فالكوفيون ينكرون (أنْ) التفسيرية البتَّة ، ويرى ابن هشام أن إنكارها

---

١ - ظ : شرح المفصل: ٧٥\٨ ، شرح الرضي على الكافية : ٢٣\٤، الجنى الداني : ٢٣٦، مغني اللبيب: ٤٧ .
٢ - البيت مجهول القائل ، ينظر : معاني القرآن :٩٠\٢ ، الإنصاف : ٢٠٥\١ ، ارتشاف الضرب :١٥١\٢، شرح المفصل: ٧٥\٨ ، الجنى الداني : ٢٣٦، مغني اللبيب: ٤٧ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤٢٦\٥ .
٣ - ينظر المصادر المذكورة في الهامشين السابقين .
٤ - شرح الرضي على الكافية : ٢٣\٤ ، وينظر معه : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٢٠٥\١.
٥ - البيت مختلف في نسبته ، ينظر: معاني القرآن:٩٠\٢ ، شرح المفصل:٧٥\٨، الجنى الداني:٢٣٦، مغني اللبيب:٤٧، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤٢٧\٥ .
٦ - ظ : حروف المعاني : ٥٨ ، معاني الحروف : ٧٣ ، المخصص:٥٥\١٤ ، رصف المباني : ١١٦ .
٧ - شرح المفصل : ١٤١\٨ .

مُتَّجِهٌ [1]؛ لأن من يثبتها يشترط أن تكون بين جملتين والجملة الثانية - وهي المُفسِّرة - يجب أن تكون عين الأولى ، وإذا قلنا :(كتبت إليه أن قُمْ) لم تكن (قم) نفس (كتبت) ، كما هو الحال في قولنا (هذا عسجدٌ أي ذهبٌ) ، فالأول عين الثاني ، ومن هنا لو افترضنا أنا نضع (أيْ) بدل (أنْ) في الجملة الأولى لم يستقم الكلام [2] . ولها عند القائلين بها شروط[3]:

- أن تسبق بجملة تامة ، ولهذا غُلِّط من عدَّ (أنْ) تفسيرية في قوله تعالى :﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(يونس: من الآية١٠) ، إذ (أنْ) هنا مخففة من الثقيلة .
- أن تتأخر عنها جملة ، فلا يصح أن نقول :(ذكرت عسجدا أن ذهبا) ، ولا فرق في أن تكون الجملة اسمية أو فعلية كقولنا :(كتبت إليه أن ما أنت وهذا) .
- أن يكون في الجملة المتقدمة على (أنْ) معنى القول ، ومنه الآية الكريمة:﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾(ص:٦) ، إذ المراد بالانطلاق انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام ، والمراد بالمشي الاستمرار عليه .
- أن لا يكون في الجملة المتقدمة على (أنْ) أحرف (القول) ، ولكن بعضهم ذكر أنَّ (أنْ) في قوله تعالى :﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾(المائدة: من الآية١١٧) تكون تفسيرية للقول ، وذلك على تأويله بمعنى الأمر ، بمعنى آخر أن لا يكون في الجملة التي تسبق (أنْ) حروف القول إلاَّ وهو مؤوَّل بغيره .
- أن لا يدخل على (أنْ) جارٌ ، فلو قال قائل:(كتبت إليه بأن اضرب) كانت مصدرية .

ولقد ذكر الأربليُّ أمرا قد يحلُّ ما أشكل به ابن هشام على هذا النوع ، وهو أن المتأمل لأمثلة هذا النوع يجد أنَّ المُفسَّر ليس الجملة المتقدمة على (أنْ) ، وإنما هو مفعول محذوف ، يقدَّر بحسب الكلام ، وما اشتراط تَقدُّم الجملة التامة إلاَّ ليتسنى تقدير المفعول المُفسَّر بـ(أنْ) ، لا أنَّ المُفسَّر هو الجملة [4]، ففي قوله تعالى:﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾(المؤمنون: من الآية٢٧)، المُفسَّر هنا ليس جملة (أوحينا) ،لا بل هو مفعولٌ مقدرٌ تقديره (أمرا) ، وتفسره (أنْ) اصنع الفلك ، ودعم رأيه هذا بما ذكره الرضي من إن الفرق بين حرفي التفسير (أي وأن) هو((إن (أي) يُفسَّرُ بها كلَّ مبهم ، من المفرد ، نحو (جاءني زيد أي أبو عبد الله) ، والجملة نحو : (هريق دمه أي مات) ، ...، و(أنْ) لا تُفسِّر إلاَّ مفعولا مقدرا للفظٍ دالٍّ على معنى القول ، مؤدٍ معناه ، كقوله تعالى:﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(الصافات:١٠٤) ، فقوله:{يا إبراهيم} تفسير لمفعول نادينا المقدر، أي : ناديناه بشيء ، وبلفظ هو قولنا يا إبراهيم ، وكذلك قولك (كتبت إليه أن قم) أي : كتبت إليه شيئا هو : قُمْ ، فـ(أنْ) حرفٌ دالٌّ على أنَّ (قمْ) تفسيرٌ للمفعول به المقدَّر لكتبت ، وقد يُفَسِّر المفعول به الظاهر، كقوله تعالى:﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى* أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾(طه:٣٨-٣٩).))[5]، هذا الكلام يدفع الإشكال الذي أورده ابن هشام من إن الجملة المتقدمة على (أنْ) ليست هي عين

---

١ - ظ : مغني اللبيب : ٤٧ ، جواهر الأدب : ١٠٩

٢ - ظ : مغني اللبيب: ٤٧-٤٨.

٣ - ظ : شرح المفصل : ١٤٢\٨ ، شرح الرضي على الكافية : ٤٣٧\٤، شرح ألفية ابن مالك :٢٦٢، البرهان : ٢٢٥\٤، مغني اللبيب : ٤٨، جواهر الأدب : ١١٠.

٤ - ظ : جواهر الأدب : ١١٠ .

٥ - شرح الرضي على الكافيَّة : ٤٣٨\٤

المُفسَّر بها، ومما سبق فـ(أي) تفسر المفرد بالمفرد والجملة و(أنْ) تفسر المفرد الظاهر أو المقدَّر بالجملة لا بالمفرد .

إن القول بفرضية المعنى الحرفي المركزي والمعاني الهامشية يساعد على الجمع بين أقول العلماء في شأن (أنْ) التفسيرية ، فالكوفيون وغيرهم ممن ينكرون هذا النوع يرجعون (أنْ) فيه إلى المصدرية الناصبة ، وإن التأمل في الشروط التي وضعها القائلون بهذا النوع يقودنا للقول : إنَّ (أنْ) المفسرة هي (أنْ) المصدرية نفسها لكنها لم تدخل على الفعل مباشرة وإنما دخلت على جملة ، وأثَّر السياق في توجيه معناها عندئذ نحو التفسير .

معنى قول العلماء : (أنْ مصدرية) لا يمثل تمام الوصف الدقيق لمعنى (أنْ) ، بل يوضح أن هذا الحرف والفعل المباشر له ينسبك في مصدر، والمصدر هو الذي يكون له معنى خاص ، بدليل أن له موقعا إعرابيا مختلفا بحسب العوامل المؤثرة فيه ، ومعنى هذا المصدر سيكون مركبا من عوامل مختلفة : الحرف ، ومادة الفعل الداخل عليه الحرف ، والسياق العام للفعل . فـ(أنْ) وحدها لا يتبلور منها معنى واضح ، وغاية ما فيه أنه يوصلنا إلى سبك مصدر متكون منه والفعل الداخل عليه ، أما المعنى الخاص فسيكون لذلك المصدر . فمعنى (أنْ) العام هو المصدرية ، ولكن لكل مصدر من المصادر التي يُكَوِّنها هذا الحرف مع الأفعال المختلفة التي يدخل عليها معنى خاص به .

أما في (أنْ) المفسرة فقد دخلت (أنْ) على الجملة وتجاوزت المباشرة للفعل ، فحملها السياق على بيان معنى الجملة فسماها بعضهم تفسيرية ، والباحث يرى أنها ليست نوعا آخر قائما قبالة المصدرية . بل هذا المعنى راجع إليها ، ولا أعتقد أنَّ في هذا الفهم قسرا لمعناها ليطرد مع الفرضية العامة التي طرحتها ، بل معنى (أنْ) المصدرية يساعد عليه ، ورَفضُ العلماءِ للتفسيرية يقودُ إليه ، وللجمع بين أقوال المثبتين لها والرافضين يمكن القول : إن من قال أنها تفسيرية نظر إلى المعنى الخاص ، أو المعنى الهامشي ، ومن قال إنها مصدرية وقدَّر لها فعلا فقد نظر إلى المعنى العام لهذا الحرف .

وربما فهم بعض العلماء من (أنْ) المصدرية بعض المعاني الخاصة نتيجة لمجيئها في سياق ما من ذلك قول بعضهم أنها تأتي زائدة في مواضع :

١- بعد (لمَّا) التوقيتية، وهذا أكثر الوجوه في استعمالها زائدة[١]، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾(العنكبوت: من الآية٣٣) .

٢- أن تقع بين (لو) وفعل القسم ، كقول المسيب بن عَلس(ت٤٨ق.هـ)[٢]: (الطويل)

فَأُقْسِمُ أَن لَو اِلتَقَينا وَأَنتُمُ لَكانَ لَكُم يَومٌ مِنَ الشَرِّ مُظلِمُ

ولا تعمل (أنْ) الزائدة شيئا وفائدة زيادتها التوكيد[٣] ، ولقد بينت آنفا معنى الزيادة ، وأنها من ثمار السياق العام للنص ، والحرف خارج هذا النص لا يعطي معنى التوكيد ، فهذا المعنى تابع للنص لا للحرف .

قد لا تكون بعض المعاني الهامشية التي تفهم من الحرف بَيِّنَةً عند العلماء كلهم ، فقد يَتفرَّد عالم بفهم معنى هامشي لحرف ما ضمن سياق ما ، وهذا ما حصل فعلا في كثير من

---

١ - ظ : حروف المعاني : ٥٩ ، معاني الحروف :٧٣، شرح المفصل :٨\١٣٠-١٣١، رصف المباني :١١٦، مغني اللبيب:٥٠ .
٢ - ظ : الكتاب:٣\١٠٦، مغني اللبيب:٥٠، جواهر الأدب:١١١، خُزَانَةُ الأَدَبِ:١٠\٨٠ .
٣ - ظ : الجنى الداني : ٢٤١ .

الحروف ، وقد أشرت إلى بعضه في الحروف المتقدمة ، وهنا أيضاً فُهِمَ من (أنْ) معنى الشرطية والمجازاة ، وذهب إليه الكوفيون في نحو قولهم :(أمّا أنت منطلقا انطلقتُ) وجعلوا منه الآية الكريمة: ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾(البقرة: من الآية٢٨٢) ، على بعض القراءات فيها[١] ، والأكثر ثباتا هي القراءة العامة ، وفيها تكون (أنْ) مصدرية ناصبة ، والمصدر المؤول مفعول لأجله[٢] ، ولقد منع البصريون القول بهذا النوع من (أنْ) ، وتأولوا بعض التي أوردها الكوفيون على أنها مصدرية[٣] ، ويرى الباحث أن بعض الكوفيين قد يكون توافرت له بعض القرائن لتفسير هذه الآية وتخريج بعض القراءات الواردة فيها على معنى هامشي يفيد الشرطية، ولكن هذا المعنى ليس مطردا ولا يفهم من كثير من النصوص التي ترد فيها (أنْ) ، وعليه ينبغي أن لا يحشر مع المعاني الكثيرة الاستعمال ، ويبقى في باب الآراء المفردة لبعض العلماء .

وكذلك فهم بعض النحاة من (أنْ) معنى (لا) النافية[٤] ، ومثلوا له بقوله تعالى :﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾(آل عمران: من الآية٧٣). أي لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، قال المراديُّ : ((والصحيح أنها لا تفيد النفي ، و(أنْ) في الآية مصدرية .)) [٥] ، وهذا الفهم كسابقه فهم خاص لمعنى هامشي لعالم أو لبعض العلماء ، يفترض أن لا يذكر مع المعاني الهامشية المطردة مثل التفسيرية .

وقد يفهم بعض الكوفيين من (أنْ) معنى (إذ) [٦] مع الماضي ، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾(ق: من الآية٢) ، وقيل مع المضارع أيضاً كقوله تعالى :﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾(الممتحنة: من الآية١). ولم يعترف العلماء بهذا القول ، وقالوا عنه : ليس هذا القول بشيء ، والصواب أنَّ (أنْ) في الآيتين مصدرية[٧]. أقول إن هذا الفهم لم يأت من فراغ ، بل ساعد عليه السياق العام للآية فهو يوحي بالظرفية التي تفيدها (إذ) .

إن لـ(أنْ) الثنائية الوضع معنى عاما هو المصدرية ، ولهذا المصدر المتكون منها ومن الفعل الداخلة عليه معان خاصة كثيرة يحددها الفعل وسياق النص ، وقد يكون لها معنى هامشي متعارف الاستعمال عند دخولها على بعض الجمل فتصير أقرب إلى تفسير معنى الجملة أو تفسير معنى أمرٍ مقدَّرٍ يُفْهَمُ من الجملة الداخلة عليها . وبهذا يكون هذا الحرف متسقا مع فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية .

---

١ - ظ : الحجة في القراءات السبع : ١٠٤ .
٢ - ظ : معاني القرآن (الفراء): ١\١٨٤ ، إعراب القرآن (النحاس): ١\ ٢٩٨ – ٢٩٩ .
٣ - ظ : الجنى الداني : ٢٤١ ، مغني اللبيب : ٥٣ .
٤ - ظ : معاني القرآن (الفراء):١\ ٢٢٢-٢٢٣، مشكل إعراب القرآن:١\ ١٤٤-١٤٥، الجنى الداني:٢٤-٢٤٢، مغني اللبيب:٥٤.
٥ - الجنى الداني : ٢٤٢، وينظر معه: مغني اللبيب : ٥٤ .
٦ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٢، مغني اللبيب : ٥٤ .
٧ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٢، جواهر الأدب : ١١٢.

رابعاً : (أو)

(أو) حرف من حروف العطف ، تعطف مفردا على مفرد ، وجملة على جملة ، مذهب جمهور النحاة أنَّه يُشرِكُ في الإعراب لا في المعنى ؛ إذ في قولنا :(قامَ زيد أو عمرو) ، يكون الفعل واقعا من أحدهما ، قال آخرون : بإشراكها في الإعراب والمعني ؛ إذ إن ما بعدها مشارك لما قبلها في المعنى الذي جيء بها لأجله ، ففي قولنا :(قام زيد أو عمرو) ، يكون كل من الشخصين مشكوكاً في قيامه[1]. وجليٌّ للعيان أن كلاً من القولين صحيح لاختلاف الجهة التي قيل كل منهما فيها ، فمذهب الجمهور منظور فيه القائم بالعمل وهو شخص واحد لا غير ، وأصحاب القول الآخر نظروا إلى تشخيص القائم بالعمل ، فكان الشك مشتركا بين زيد وعمرو.

كثرت المعاني التي نسبت إلى (أو) ، حتى أوصلها بعضهم إلى اثني عشر معنىً ، من أهمها : التخيير[2] ويجب أن تقع بعد الطلب ، وقبل ما يمتنع فيه الجمع ، نحو قولهم :(كُلْ سمكاً أو اشربْ لبناً) ، و(تزوج هندا أو أختها) أي افعل أحدهما . ومثله الإباحة[3] ، ويجب أن تقع بعد الطلب أيضاً ، وقبل ما يجوز فيه الجمع ، نحو قولهم : (ادرس النحو أو العروض) ، وهنا له أن يجمع بينهما فيدرس العِلمَين النحو والعروض ، في حين لا يحق له الجمع بين الشيئين في التخييرية ، بل عليه فيها أن يفعل أحدهما ويترك الآخر، فإن تركهما معا أو فعلهما معا كان مخالفا للطلب ، أما في الإباحة فله أن يفعل أحدهما ، وأن يجمع بينهما ، والتفريق بينهما على هذا النحو فيه ثمراتٌ في مجال استنباط الأحكام الشرعية من مظانِّها . وإذا دخلت في الطلب (لا) الناهية امتنع فعل الجميع ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾(الإنسان: من الآية٢٤) ، فالمعنى لا تطع أحدهما ، فأيهما فعل فقد أثم ، وبمعنىً آخر أنها تدخل للنهي عمَّا كان مباحا .

ومن هذه المعاني أيضاً ، الشك[4] ، ويجب فيه أن تقع بعد الخبر لا غير، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾(الكهف: من الآية١٩) ، وقولهم :(ما أدري أزيد قام أو عمرو؟) ، ويقابل هذا المعنى الإبهام[5] ، وهذا في الخبر أيضاً ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾(سبأ: من الآية٢٤) ، والإبهام يكون في حق السامع دون المخبر ، وهذا هو الفرق بينها وسابقتها ، فالشك لا يعلمه المخبر ، أمَّا في الإبهام فيعلمه ، ويُبهم على السامع لمعنى ما .

ومن المعاني التي نسبت إليها أيضاً الجمع المطلق وهو معنى (الواو) قال به الكوفيون والأخفش والجرميُّ(ت٢٢٥هـ)[6]، وخرجوا بعض الآيات على هذا المعنى ، منها قوله تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾(طه:٤٤) ، ونسب إليها (معنى بل) [7] ، ومعنى التقسيم أو

---

١ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٥ .

٢ - ظ : الكتاب:١٨٤\٣، اللمع في العربية:١٧٥، حروف المعاني:٥١، معاني الحروف:٧٧، تاج اللغة وصحاح العربية : مادة(أوا):١٢٧\٦، المخصص:٥٤\١٤، الإيضاح العضدي :٢٨٧، البيان في شرح اللمع :١٨٢-١٨٤، المقرب:٢٣٠\١، شرح جمل الزجاجي: ٢٣٣\١ ، شرح الرضي على الكافية :٣٩٥\٤-٤٠١، شرح ألفية ابن مالك :٢٠٨، شرح ابن عقيل :٢٣١\٢-٢٣٣، رصف المباني:١٣١، لسان العرب: مادة(أوا):٥٤\١٤، الجنى الداني:٢٤٥، مغني اللبيب :٨٧ ، البرهان :٢٠٩\٤-٢١٣.

٣ - ظ : المصادر السابقة نفسها .

٤ - ظ : المصادر السابقة نفسها .

٥ - ظ : المصادر السابقة نفسها .

٦ - ظ : الأمالي الشجريَّة :٢١٧\٢، اللباب في علل البناء والإعراب :٤٢٤- ٤٢٥، شرح ألفية ابن مالك :٢٠٨، شرح ابن عقيل :١٢\٢٣٣، رصف المباني:١٣٢-١٣٣، الجنى الداني :٢٤٥، مغني اللبيب :٨٨-٩٠، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٦٨\١١، ٧٢.

٧ - ظ : رصف المباني: ١٣٢، الجنى الداني : ٢٤٦ ، مغني اللبيب :٩١ .

التفريق أو التفصيل [1] ، وربما نُسِبَ إليها معنى (إلاَّ) في الاستثناء [2] ، أو معنى (إلى) أو غيرها من المعاني [3] .

إن تعدد المعاني التي نسبت إلى (أو) وكثرتها لا يخرجها عن معناها الأصلي التي وضعت له ، وهو معناها المركزي ، ولقد كان هذا الحرف من الحروف التي شاركت ابتداءً في التفكير بفرضية المعنى الحرفي المركزي والمعاني الهامشية ، وذلك من خلال النقاط الآتية :

- أولا : من خلال تتبعي للمعاني التي ذكرها العلماء لـ(أو) وجدتهم مختلفين في تقرير عدد المعاني التي يؤديها هذا الحرف ، فمنهم من ذكر لها أربعة معان ومنهم من أوصلها إلى اثني عشر معنى [4].
- ثانيا : لم يكن الاختلاف مقتصرا على عدد المعاني فقط ، بل وصل إلى تحديد أسماء تلك المعاني فـ(التقسيم ، والتفريق ، والتفصيل) كلها تدلّ على معنى معين يؤديه هذا الحرف ، لكن العلماء لم يستقروا على مصطلح معين منها بل ، سماه كل منهم بما فَـهِمَهُ من سياق الآية التي استدل بها ، ولما كان الفهم مختلفا من عالم إلى آخر باختلاف قراءاتهم اختلفت التسمية تبعا لذلك ، فهؤلاء العلماء كان يدور في خَلَدِهِم قَدَرٌ مشتركُ من المعنى يجمع بين تلك التسميات التي أطلقت عليه ، ولم يرَ العلماء من حرج في تعدد الأسماء ؛ مادامت تعبر عن ذلك القدر المشترك .
- ثالثا : اختلف علماء اللغة والتفسير أيضاً في تسمية المعنى الذي أدته (أو) في كثير من الآيات التي وردت فيها ، فمن جهة وجدت من خلال تتبعي الدقيق لتفسير الآيات المتضمنة (أو) أن كثير من المفسرين لا يذكرون المعنى الذي أدَّته في كل آية ، فغالبا ما يذكرون أن الكلمة معطوفة على ما قبلها ويكتفون بهذا ، وقليلا جدا ما يذكرون أن (أو) أفادت المعنى الفلاني في هذه الآية أو تلك ، ومن جهة ثانية إنهم حينما يذكرون المعنى الذي أدته وجدتهم مختلفين في أغلب الآيات في تسمية ذلك المعنى في الآية الواحدة ، ومنهم من يذكر أنه يجوز أن يكون المعنى كذا أو كذا أو كذا فيذكر ثلاثة أوجه أو أربعة أو أكثر في الآية الواحدة ولا يجزم بواحد منها ، ولما تكررت هذه الحالة كثيرا ، وعند كثير من المفسرين ، تَيَقَنْتُ من أن القدر المشترك من المعنى (المعنى المركزي) هو الحاضر في أذهانهم ، وهو الموضوع له الحرف أصلا ، وخلافهم ذلك راجع إلى تعدد في فهمهم لسياق النص القرآني ، وما يحتويه من قرائن داخلية وخارجية تؤثر في توجيه المعنى إلى حدٍّ بعيد.
- رابعا : تصريح بعض العلماء بأن (أو) موضوعة لقدر مشترك من المعنى الجامع بين تلك المعاني المتعددة التي ذكرت ، ولا أقصد هنا الأسماء المختلفة للمعنى الواحد ، وإنما العناوين الرئيسة للمعاني التي ذكرت ، وهذا التصريح جاء بعد ذكرهم لتلك المعاني والخلاف فيها ، فما كان منهم إلاَّ أن رجعوها إلى أن الغرض الرئيس لهذا الحرف هو المعنى المشترك بينها ، وهو أصل المعنى الذي وضع له هذا الحرف ، وصرحوا أيضاً بأن السياق هو الذي يضفي على الحرف المعاني الثانوية الأخرى التي ذكرت كأنها معان رئيسة وُضِعَ لها الحرفُ ، ووجدت في تصريحهم دليلا كبيرا وصريحا للفرضية التي أطرحها وأتبناها .

---

١ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٥ ، مغني اللبيب :٩٢ -٩٣.
٢ - ظ : المقرب : ٢٦٣\١ ، رصف المباني : ١٣٣ ، مغني اللبيب : ٩٣.
٣ - ظ : اللباب في علل البناء والإعراب : ٤٢٤ ، مغني اللبيب : ٩٤.
٤ - ظ : المصادر المذكورة في الهامش ٢، من الصفحة المتقدمة .

وسأذكر الآن نماذج من تصريحات العلماء بشأن الوضع الأصلي لـ(أو) ، وأذكر بعدها نماذج من النصوص الواردة فيها .

قال ابن يعيش في شرحه لكلام الزمخشريّ :((إن هذه الحروف الثلاثة [يقصد أو وإما وأم] تجتمع في أن الحكم المذكور المسند بها إلى أحد الاسمين المذكورين لا بعينه ، و (أو) و(إما) تقعان في الخبر والأمر والاستفهام ؛ ولذلك يكون الجواب عن هذا الاستفهام (نعم) إن كان عنده واحد منهما ، أو(لا) إن لم يكن ؛ إذ المعنى (ألقيت أحدهما؟) ، والذي يدلّ أن أصلهما أحد الشيئين أنَّه إذا لم يكن معك في الكلام دليلٌ يوجبُ زيادةَ معنى على هذا المعنى لم يحمل في التأويل إلاَّ عليه .)) [1] ، إذن المعنى الذي تفيده (أو) على حد قول ابن يعيش هو إسناد الحكم المذكور في الجملة التي ترد فيها (أو) إلى أحد الشيئين أو الأشياء ، هذا هو المعنى العام لها وهو معنى يسير قابل للتلون بإضافات ثانوية بحسب السياق الذي ترد فيه .

ويفهم هذا الشيء بصورة أوضح من عبارة الرضي الأسترآباديّ إذ يقول :((إن لـ(أو) إذا كان في الخبر ثلاثة معان : الشك ، والإبهام ، والتفصيل ، وإذا كان في الأمر ، فله معنيان : التخيير والإباحة ، فالشك : إذا أخبرت عن أحد الشيئين ولا تعرفه بعينه ، والإبهام إذا عرفته وتقصد أن تبهم الأمر على المخاطب ،...، والتفصيل : إذا لم تشك ، ولم تقصد الإبهام على السامع ، كقولك : هذا إما أن يكون جوهرا أو عرضا ، ...، وأما في الأمر ، فإن حصل للمأمور بالجمع بين الأمرين فضيلةٌ وشرفٌ ، في الغالب ، فهي للإباحة ، نحو : تعلم الفقه أو النحو، وجالس الحسن أو ابن سيرين ، و إلاَّ فهي للتخيير، نحو : اضرب زيدا أو عمرا ، ...، وينبغي أن تعرف أنَّ جواز الجمع بين الأمرين في نحو : تعلم الفقه أو النحو ، لم يفهم من (إما) و(أو) ، بل ليستا إلا لأحد الشيئين في كل موضع ، وإنما أستفيدت الإباحة مما قبل العاطفة ، وما بعدها معا ، لأنَّ تعلم العلم خير ، وزيادة الخير خير ، فدلالة (أو) و (إما) في الإباحة والتخيير ، والشك والإبهام والتفصيل على معنى أحد الشيئين أو الأشياء على السواء ، وهذه المعاني تعرض في الكلام ، لا من قبل (أو) ، و(إما) بل من قبل أشياء أخر ، فالشك من قبل جهل المتكلم وعدم قصده إلى التفصيل أو الإبهام ، والتفصيل من حيث قصده إلى ذلك ، والإباحة ، من حيث كون الجمع يحصل به فضيلة ، والتخيير من حيث لا يحصل به ذلك .)) [2]، وقد فصَّل هذا النص القرائن التي تُلَوِّنُ المعنى العام لـ(أو) بمعانيه الخاصة ، ولولا هذه القرائن لم يُسْتَفَدْ من (أو) غير معناها العام الذي هو إسناد الحكم في الجملة إلى أحد الشيئين . وكلام الرضي هذا هو عين القول بالمعنى المركزي والمعاني الهامشية التي تستفاد من السياق ، وهذا ما أدعو إلى القول به .

قال المراديُّ :((إن (أو) موضوعة لقدر مشترك بين المعاني الخمسة المتقدمة ، وهو أنَّها موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء ، وإنما فهمت هذه المعاني من القرائن .)) [3] ، والمعاني الخمسة التي يشير إليها هي (الشك والإبهام ، والتخيير والإباحة ، والتفصيل) والقدر المشترك من المعنى الذي يجمع هذه المعاني هو نفسه الذي أشار إليه ابن يعيش من إن الحكم المذكور في الجملة المسند بها هو لأحد الاسميين المذكورين لا لواحد بعينه ، والقرائن التي يقصدها هي التي أشار إلى بعضها الرضي في نصه المتقدم .

وقال ابن هشام بعد أن جمع المعاني المنسوبة لـ(أو) فكانت اثني عشر معنى :((التحقيق أن (أو) موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء ، وهو الذي يقوله المتقدمون ، وقد تخرج إلى معنى (بل) ، والى معنى (الواو) ، وأما بقيَّة المعاني فمستفادة من غيرها .)) [4] ، فتحقيق القول عند

---

١ - شرح المفصل : ٩٧\٨ .
٢ - شرح الرضي على الكافية : ٣٩٧\٤-٣٩٨ .
٣ - الجنى الداني : ٢٤٨ .
٤ - مغني اللبيب : ٩٥ .

ابن هشام في المعاني التي ذكرت لهذا الحرف أن المتقدمين من النحاة واللغويين يقولون إن (أو) لها معنى أصيل هو الذي أشار إليه ، وهي عنده قد تخرج إلى معنيين آخرين هما الإضراب ومعنى الواو، والذي يفيد خروجها إلى هذين المعنيين هو السياق أيضاً .

ونستشف هذا المعنى أيضاً من كلام الجوهري في الصحاح إذ يقول :(([أو] أو: حرف إذا دخل الخبر دل على الشك والإبهام ، وإذا دخل الأمر والنهي دل على التخيير أو الإباحة . فأما الشك فكقولك : رأيت زيدا أو عمرا . والإبهام كقوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) . والتخيير كقولك : كل السمك أو اشرب اللبن ، أي لا تجمع بينهما . والإباحة كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين . وقد يكون بمعنى إلى أن ، تقول : لأضربنَّه أو يتوب . وقد يكون بمعنى بل في توسع الكلام .)) [1] ، فدخولها على الخبر ودخولها على الأمر والنهي هو الذي أضفى عليها معنىً خاصا زيادةً على معناها العام الذي وضعت له أصلا وهو إسناد الخبر إلى أحد الشيئين وجعلها تفيد فضلا عن ذلك التخيير والإباحة أو الشك والإبهام أو التفصيل .

ولعل من الطريف في هذه المسألة ، أن كثيرا من علماء اللغة وعلماء الأصول يذكرون من معاني (أو) التخيير والإباحة ويستشهدون لها ببعض الأمثلة كما نرى في قول سيبويه : ((تقول جالِسْ عمرا أو خالدا أو بشرا ، كأنك قلت جالس أحدَ هؤلاء ، ولم ترد إنساناً بعينه ، ففي هذا دليلٌ أنَّ كلَّهم أهلٌ أن يُجالس ، كأنك قلت : جالس هذا الضربَ من الناس .))[2] ، وهنا يتحدث سيبويه عن الإباحة ، ويقول أيضا في النوع الثاني (التخيير):((وتقول : (كُلْ خبزا أو تمرا) أي لا تجمعهما ، ومثل ذلك أن تقول :(أدخل على زيد أو عمرو أو خالد) أي لا تدخل على أكثر من واحد من هؤلاء .)) [3] ، ويقول المبرد في هذا النوع :((فقولك :(إيتِ زيدا أو عمرا) أي قد جعلتك في ذلك مُخيَرا .)) [4] ، وفي الوقت نفسه يذكر اللغويون والبلاغيون والأصوليون إن من معاني صيغة (إفعل) التخيير والإباحة ، ويستشهدون لذلك بالأمثلة التي ذكرت نفسها[5]. وهذا يؤكد أن التخيير والإباحة لم تتأت من (أو) ولا من صيغة أفعل[6] ، بل هي متأتية من السياق وما فيه من القرائن .

وهذه بعض الأمثلة من استعمالات (أو) وسأتتبع أقوال العلماء فيها ، لنرى كيف أدَّت (أو) معانيها في السياق الخاص للنص .

- قال تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (البقرة:١٧-١٩)، ذكرت لنا هذه الآيات الكريمات مثلين للكافرين ، وقال الطبري فيهما:((فإن قال لنا قائل: أخبرنا عن هذين المثلين ، أهما مثلان للمنافقين أو أحدهما؟ فإن يكونا مَثَلين للمنافقين فكيف قيل : أوْ كَصَيِّبٍ ، و(أو) تأتي بمعنى الشك في الكلام ، ولم يقل : وكصيب ، بالواو التي تلحق المثل الثاني بالمثل الأول؟ أو يكون مَثَلُ القوم أحدهما، فما وجه ذكر الآخر بـ(أو) ، وقد علمت أن (أو) إذا كانت في الكلام فإنما تدخل فيه على وجه الشك

١ - تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (أوا) : ٦\٢٢٧٤ - ٢٢٧٥ ، وينظر معه لسان العرب :مادة (أوا) ١٤\٥٤ .
٢ - الكتاب : ٣\١٨٤ .
٣ - المصدر نفسه .
٤ - المقتضب : ٣\٣٠١ ، وينظر معه : الفصول في الأصول : ١\٨٩ .
٥ - ظ : المقتصد في شرح الإيضاح ٢\٩٤٠–٩٤٢، مغني اللبيب :٩٥، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين :٢٠٦-٢٠٧، التراكيب اللغوية في العربية :١١- ٢٨، التذكرة بأصول الفقه :٣٠–٣١، فرائد الأصول :١\٥٣٨، أصول الفقه (المظفر) :١\٦٥،٨٥، الفصول في الأصول:١\٢،٤٦\١ ٧٩ ، ١٤٧، أصول السرخسي :١\١٤، الإحكام في أصول الأحكام :٢\١٧٨.
٦ - ظ: تهذيب الأصول : ١\٥٥ .

من المخبر فيما أخبر عنه ، كقول القائل : لقيني أخوك أو أبوك ، وإنما لقيه أحدهما، ولكنه جهل عين الذي لقيه منهما ، مع علمه أن أحدهما قد لقيه وغير جائز في الله جل ثناؤه أن يضاف إليه الشك في شيء أو عزوب علم شيء عنه فيما أخبر أو ترك الخبر عنه . قيل له : إن الأمر في ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه ، و«أو» وإن كانت في بعض الكلام تأتي بمعنى الشك ، فإنها قد تأتي دالة على مثل ما تدلّ عليه الواو إما بسابق من الكلام قبلها، وإما بما يأتي بعدها كقول توبة بن الحُمَيِّر[(ت٨٥هـ)[1]]:

(الطويل)

وقد زعمت ليلى بأنيَ فاجرٌ   لنفسي تُقاها أو عليها فجورُها

ومعلوم أن ذلك من توبة على غير وجه الشك فيما قال . ولكن لما كانت «أو» في هذا الموضع دالة على مثل الذي كانت تدل عليه الواو لو كانت مكانها ، وَضَعَها موضعها،...، فكذلك في قول الله جل ثناؤه ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لما كان معلوما أن «أو» دالة في ذلك على مثل الذي كانت تدل عليه الواو، ولو كانت مكانها كان سواء نطق فيه بـ«أو» أو بالواو.)) [2] ، وواضح من كلام الطبري أنّه استفاد معنى الواو في (أو) من خلال السياق العام للآية ، وما يسبق الحرف أو ما يأتي بعده كما ذكر في تعليقه على البيت الشعري ، ومن ثم يطرح فكرة المساواة بين (أو) و (الواو) . لو استبدلنا الأولى بالثانية في الآية الكريمة أو البيت الشعري فإنها تؤدي المعنى نفسه ، وعملية المقايسة والحكم عليها بالمساواة لاشك أنها قرائن خارجية تفيد في تحديد دلالة الحرف داخل السياق العام للنص الوارد فيه .

وليس عسيرا أن نجد من يذهب إلى غير هذا المعنى في فهم الآية الكريمة معتمدا في ذلك وسائله الخاصة في تحليله للنص القرآني ، فالزجاج يرى أن معنى (أو) في الآية الإباحة إذ يقول :((وهذه يسميها الحذاق باللغة (أو الإباحة) ،...، فالمعنى : أن التمثيل مباح لكم في المنافقين إن مثلتموهم بالذي استوقد نارا فذاك مثلهم ، وإن مثلتموهم بأصحاب الصيب فهذا مثلهم ، أو مثلتموهم بهما جميعا فهما مثلاهم)) [3] ، لكن الشيخ الطوسي بعد أن ذكر أنها قد تكون بمعنى الواو مثل ما تقدم عن الطبري ، ينقل لنا أيضاً رأي الزجاج على النحو الآتي : ((قال الزجاج : معنى (أو) في الآية التخيير كأنه قال : إنكم مخيرون بأن تمثلوا المنافقين تارة بمُوقِدِ النار وتارة بمن حصل في المطر، يُقال : جالس الحسن أو ابن سيرين أي : أنت مخير في مجالسة من شئت منهما .)) [4] . لقد تصرَّف الطوسي بعبارة الزجاج وغيَّر تسميته لـ(أو) في الآية من الإباحة إلى التخيير، ويبدو أنه لم يكن يفرق بين التخيير والإباحة وإلاَّ لم يعمد إلى التغيير، وكأنه يشعرنا أن لا فرق عنده بين النوعين ، في حين قرر العلماء كما ذكرت آنفا أن ثمَّة فرق دقيق بينهما .

وقد وافق الطبرسيُّ الزجاج في فهمه لمعنى (أو) هنا بأنها للإباحة [5] ، واتفق معهما الزمخشريُّ في ذلك قائلا :((فإن قلت : لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلت: (أو) في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً في الشك ، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك.)) [6] ، وإذا تذكرنا أن الفرق بين التخيير والإباحة أننا في الأولى لا يحق لنا الجمع بين الشيئين وإنما علينا اختيار واحد منهما ، وفي الإباحة نتمكن من الجمع بينهما ، فعلى هذا الفارق

---

١ - ديوان توبة بن الحُميَّر الخفاجي:٣٧. وينظر معه : الأمالي (للقالي):٨٨\١، الأمالي الشجريَّة: ٢١٧\٢، خُزَانَةُ الأَدَبِ: ٦٨\١١.
٢ - جامع البيان : ١١٤\١ .
٣ - معاني القرآن وإعرابه : ٩٦\١ -٩٧ .
٤ - التبيان : ٩٢\١ .
٥ - ظ : مجمع البيان ١١٦\١-١١٧ ، وينظر معه : جوامع الجامع : ٧٩\١ .
٦ - الكشاف : ٢١٣\١ .

يكون رأي الزجاج والطبرسيّ والزمخشريّ أولى بالقبول من رأي الطوسيّ ؛ إذ الحال يسمح أن نُمَثِلَ الكافرين بأحد المثلين أو بكليهما معا .

زاد العكبريُّ على الأوجه الثلاثة المتقدمة وجها رابعا ؛ إذ يقول :((قوله تعالى {أو كصيب} في (أو) أربعة أوجه : أحدها أنها للشك ، وهو راجع إلى الناظر في حال المنافقين ، فلا يدرى أيشبههم بالمستوقد أو بأصحاب الصيب ، كقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾(الصافات:١٤٧) : أي يشك الرائي لهم في مقدار عددهم ، والثاني أنها للتخيير : أي شَبِّهُوهمْ بأي القبيلتين شِئتُم ، والثالث أنها للإباحة ، والرابع أنها للإبهام ، أي بعض الناس يشبههم بالمستوقد ، وبعضهم بأصحاب الصيب ، ومثله قوله تعالى: ﴿ كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾(البقرة: من الآية١٣٥) أي قالت اليهود كونوا هودا ، وقالت النصارى كونوا نصارى ، ولا يجوز عند أكثر البصريين أن تحمل (أو) على (الواو) ، ولا على(بل) ما وجد دون ذلك مندوحة .)) [1] لقد ذكر العكبريُّ أربعة أوجه لمعنى (أو) ولمَّحَ إلى وجهين آخرين يمكن حملها في الآية عليهما هما الإضراب ومعنى الواو ، الذي قال به الطبري وغيره ، لكن العكبريَّ لا يرى صحة حمل (أو) في الآية على أحد هذين الوجهين ، وكأنه يرى أنه حمل على معنى بعيد ، وعنده أنَّ الأولى حمل المعنى على أحد الأوجه التي ذكرها فهي أقرب للمعنى .

وأعتقد أنَّ السياق يحتمل الحمل على أيٍّ من الأوجه الأربعة التي أشار إليها العكبريُّ ، وذلك كلما اختلفت زاوية نظر المفسر إلى النص ، ويحتمل كذلك حملها على معنى الواو – كما قال به الطبري وآخرون – ولا يبعد أنه يحتمل أيضاً أن يحمل على معنى الإضراب أي بمعنى (بل)[2] ؛ إذ المَثَلُ الأول الذي ذكرته الآية الكريمة كان أقل في شدَّة تمثيله لحال الكفار من الثاني ، فهو يصفهم كمن أستوقد نارا ، وما أن فَرِحَ بضوئها واطمأن بدفئها ، وانتشر الضياء في أرجاء مكانه ، حتى ذهب الله بنوره ، فبقيَ في ظلمات لا يبصر ، وقد أدهشته الظلمة والخوف منها والرعب من الوحشة فأخذت عليه حواسه ، فإذا به أصم أبكم أعمى . أما في المثل الثاني فالحال مختلف تماما ، والمشهد الذي يصوره القرآن في تصاعد متمشيا مع أحاسيس المتلقي ، فإذا به يصف لنا شخصا يعاني الأهوال المتعددة المتنوعة في آن واحد ، فبين مطر مظلم يتساقط من السماء ، ورعد يصك عليه سمعه ويدخل الرعب في قلبه ، وبرق تخطف قوَّة نوره من نفسه السكينة والاستقرار ، وصواعق لا يقدر على مشاهدتها ولا سماع أصواتها ، فما يملك إلاَّ أن يضع أصابعه لا أنامله ويدعسها بقوة في آذانه عسى أن تخفف من الهول الذي يسمعه ويراه ، وهو في هذا الحال متخبط بين المشي في لحظات أضاءت البرق ، وتعثره وانكبابه على وجه في ظلمات المطر .

إنَّ المشهدَ هنا متحركٌ ، يصف حالَ شخص أو أشخاص يقومون ويقعون ، وهم يذوقون المَرَارَ مما هم فيه من ألوان العذاب ، ويصارعون هذا الموقف العظيم ، في حين كانت الصورة في المثل الأول أقل حركة من هذا المشهد وقد تكون ساكنة ، وهذا الانتقال من مشهد قرآني إلى آخر أكثر حركيَّة منه ، يحتمل أن نحمل (أو) في الآية على أنها بمعنى (بل) ، وإن المتلقي بينا يتصور حالهم على المثل الأول ، وإذا به يضرب عن هذا الحال إلى تمثيلهم بمشهد آخر أصعب وأشد ليكون أكثر انطباقا على حال الكفار من المشهد الأول . ولقد وجدت الفخر الرازي يجيز حمل (أو) في الآية على هذا المعنى من غير أن يفصل القول في كيفية ذلك فيقول متسائلا :((لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ الجواب من وجوه أحدها : لأن «أو» في أصلها

---

١ - التبيان في إعراب القرآن : ١\ ٢١-٢٢ .
٢ - ظ : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٤٧٨\٢ .

تساوي شيئين فصاعداً في الشك ، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك ،[ونقل كلام الزمخشريّ المتقدم كاملا ، إلى أن قال] ، وثانيها : إنما ذكر تعالى ذلك لأن المنافقين قسمان بعضهم يشبهون أصحاب النار، وبعضهم يشبهون أصحاب المطر، ونظيره قوله تعالى: ﴿ كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾(البقرة: من الآية١٣٥) ، وقوله: ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾(الأعراف:٤) ، وثالثها:(أو) بمعنى بل قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾(الصافات:١٤٧) ، ورابعها: (أو) بمعنى الواو كأنه قال وكصيب من السماء نظيره قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾(النور: من الآية٦١) .)) [1] ، والمعنى الثالث الذي أشار إليه هو ما بينته آنفا .

إن من أوجه إعجاز القرآن أن الرائي له كلما اختلفت زاوية الرؤية عنده للآية اختلف المعنى بما يلائم ذلك الفهم ، فهذه المعاني الستة التي ذكرت قد يصح كل واحد منها في حال فرد خاص فإذا أراد شخص تشبيه الكافرين بأحد هذين المثلين أو بهما معا تنوعت الرؤى بحسب تفسير السياق، وتبعا لهذا التنوع يفسر معنى (أو) الخاص ، ولا يمنع هذا من أن تكون الأوجه الأربعة التي ذكرها العكبريّ هي المعاني الأربعة الرئيسة التي يزيدها السياق دائما على (أو) ، وقد تُحمَلُ على المعنيين الآخرين في حال توسع الكلام ، وخلاصة الكلام إن (أو) في الآية قد حملت على ستة معان مختلفة ، وما هذا إلاّ لاختلاف تأويل السياق العام للنص الواردة فيه ، وقابلية المعنى العام للحرف للتلون بمعان خاصة تبعا للسياقات المختلفة للكلام .

- قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾(الإنسان:٢٤) ، المعنى الهامشي لـ(أو) هنا الإباحة إذ هي داخلة على طلب ، ولكن لما دخلت (لا) الناهية على الطلب امتنع فعل الجميع ، هذا ما صرح به سيبويه وأيده علماء اللغة ، قال سيبويه :((تقول : كُلْ لحما أو خبزا أو تمرا ، كأنك قلت كُلْ أحدَ هذه الأشياء ،...، وإن نفيت هذا قلت لا تأكل خبزا أو لحما أو تمرا . كأنك قلت لا تأكل شيئا من هذه الأشياء . ونظير ذلك قوله ﷻ :﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أي لا تطع أحدا من هؤلاء .)) [2] ، وقد وافقه كثير من العلماء واصفين إياه نهيٌ عما كان مباحا ، فهو يشملُ النهيَ الداخل على المباح والنهيَ الداخل على التخيير؛ إذ المعنى لا تطع أحدهما وأيهما فعل فهو أحدهما ويكون داخلا في المحذور، وهو مخالفة النهي[3] .

وليس غريبا أن نجد من يحاول تكثير الأقسام وتفريع الفروع ، فيعدُّ من معاني (أو) أنها تأتي بمعنى (ولا) ، قال الفراء :(({أو} ها هنا بمنزلة (لا) ، و(أو) في الجحد والاستفهام والجزاء تكون في معنى (لا) ، فهذا من ذاك ،...، وقد يكون في العربية : لا تطيعن منهم من أثم أو كفر ، فيكون المعنى في (أو) قريبا من معنى (الواو) .)) [4] ولو حاولنا أن نضع (لا) مجردة مكان (أو) في الآية يكون التقدير في غير القرآن على هذا النحو (ولا تطع منهم آثما لا كفورا) ، وهكذا لا يستقيم المعنى قطعا ، فلابدَّ من تقدير (الواو) مع (لا) ، وهذا ما أشار إليه في عجز

---

١ - مفاتيح الغيب : ٣\٣١٥ .
٢ - الكتاب : ٣\ ١٨٤ .
٣ - ظ : اللباب في علل البناء والإعراب : ٤٢٣ ، مغني اللبيب : ٨٨ .
٤ - معاني القرآن : ٣\٢١٩- ٢٢٠ ، وينظر معه : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٢\٤٧٩ ، ٤٨٣.

كلامه فقرَّب (أو) من معنى الواو في بعض الكلام ولكن تقدير (أو) في الآية بمعنى الواو لا يستقيم أيضاً - كما سيتبين بعد قليل - وقد حكى كلام الفراء هذا بعض العلماء ، منهم الطبري والزجاج والنحاس[١]، وقد نقل أبو حيان الأندلسيّ عن أبي عبيدة قوله بأن (أو) هنا بمعنى الواو[٢]، لكن الزجاج رفض أن تكون (أو) هنا بمعنى الواو ، وأيده أكثر المحققين في هذا الرأي ؛ لأنه لو قيل : ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما ، لأن النهي عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضي النهي عن طاعة كل واحد منهما وحده ، أما النهي عن طاعة أحدهما فيكون نهياً عن طاعة مجموعهما ؛ لأن الواحد داخل في المجموع [٣].

قال مكي بن أبي طالب(ت٤٣٧هـ) :(({أو} للإباحة ، أي لا تطع هذا الضرب ، وقال الفراء {أو} في هذا بمنزلة (لا) ، أي لا تطع من أثم ولا من كفر ، وهو بمعنى الإباحة التي ذكرنا ، وقيل {أو} بمعنى الواو ، وفيه بُعدٌ .)) [٤] ، وهذا الكلام هو نفسه الذي قلته قبل قليل ، ولم يذهب الزمخشري بعيدا عنه في تأويل هذه الآية الكريمة ، إذ يقول:((فإن قلت معنى (أو): ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو ليكون نهياً عن طاعتهما جميعاً ؟ قلت: لو قيل: ولا تطعهما، جاز أن يطيع أحدهما؛ وإذا قيل : لا تطع أحدهما ، علم أنَّ الناهي عن طاعة أحدهما :عن طاعتهما جميعاً أنهى . كما إذا نهى أن يقولا لأبويه : أفٍّ ، علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى .)) [٥] ، وكذلك صرَّح أبو البركات الأنباريّ (ت٥٧٧هـ) بأن (أو) في هذه الآية : ((للإباحة ، أي لا تطع هذا الضرب ، كقولك في الأمر : جالس الحسن وابن سيرين ، أي أبحت مجالسة هذا الضرب من الناس ، والنهي في هذا كالأمر، ولو قال : لا تطع آثما لا تطع كفورا ، لأنقلب المعنى لأنه حينئذ لا تحرم طاعتهما كليهما .)) [٦] .

ونقل المراديُّ عن ابن مالك قوله :((إنَّ (أو) توافق (ولا) بعد النهي كقوله تعالى :{ولا تطع منهم آثما ولا كفورا} ، وبعد النفي كقوله تعالى:﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾(النور: من الآية٦١) .)) [٧] ، ولكن المالقيَّ ردَّ هذا القول ورجع (أو) في الآية لمعنى الإباحة ، ونقل اتفاق القوم على أن النهي إذا دخل على الإباحة فإنه يشمل ما كان مباحا ويستوعبه ، وإذا دخل على التخيير نقل مخالفة ابن كيسان لبقية العلماء في استيعابه للجميع كالأول [٨]. وأقول إن تقدير الفراء لـ(أو) في هذه الآية بـ(ولا) هو نفسه القول بأنها للإباحة ، وقد دخل النهي على المباح فأستغرق أفراده ، أما (لا) هذه زائدة قد جاءت مؤكدة لـ(لا) الأولى ومانعة من توهم تعليق النفي بالمجموع ، لا بِكُلِّ واحد من الأفراد[٩] ، أما رأي بعض العلماء المخالف لما عليه الأكثرية فله احترامه ، لكنه لا ينقض الفهم الذي عليها الأكثرية منهم .

إن تخريج الزمخشريّ والأنباريّ للمعنى من هذا الباب يؤكد فرضية الدلالة المركزية للحرف الذي تشترك فيه المعاني الخاصة المتكونة بتأثير السياق الخاص لكل نص ، والمعنى العام لـ(أو) كما ذكرت من قبل هو إسناد الحكم الموجود في الجملة إلى أحد الشيئين أو الأشياء ، وهنا الحكم هو النهي عن طاعة شخص وقد أشركت (أو) في هذا النهي كل فرد من الأفراد المذكورين في الآية الكريمة ، وإذا كان النهي عن كل واحد منهما حاصل ، فالنهي عنهما كليهما محقق من باب الأولى ، كما أشار الزمخشريّ ، وهذه الزيادات في المعنى الخاص للحرف هي

---

١ - ظ : جامع البيان : ٢١٣\٢٩ ، معاني القرآن وإعرابه (الزجاج) :٢٦٣\٥ ، إعراب القرآن (النحاس): ٥٨٤\٣ .
٢ - ظ : البحر المحيط : ١٠ \ ٣٧٠ .
٣ - ظ : معاني القرآن وإعرابه (الزجاج) :٢٦٣\٥ ، مفاتيح الغيب : ٣٠\ ٧٥٨ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٧\٢.
٤ - مشكل إعراب القرآن : ٢\ ٧٨٨ .
٥ - الكشاف : ٢٠٠\٤ ، وينظر معها : ٢٠٩\١ ، إذ صرّح هنا أنها للإباحة .
٦ - البيان في إعراب غريب القرآن : ٢\ ٤٨٤ - ٤٨٥ .
٧ - الجنى الداني : ٢٤٧ .
٨ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٧- ٢٤٨ .
٩ - ظ : مغني اللبيب : ٩٠ .

ما أضفاه السياق على معنى الحرف العام ، ولم يسمح السياق هنا بأكثر من حمل المعنى على النهي عن الإباحة ، والحمل على معنى الواو ، وقد عارض بعضهم الحمل على معنى الواو لما فيه من محذور ، فيبقى لنا المعنى الأول الذي أشار إليه سيبويه ابتداءً .

- قال تعالى :﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(آل عمران:٧٣) ، أوَّل الفراء (أو) في هذه الآية بأنها بمعنى (حتى) أو (إلاَّ) فقد قال:((قوله {أو يحاجوكم عند ربكم} في معنى حتَّى وفي معنى إلاَّ ؛ كما تقول في الكلام : تعلَّق به أبدا أو يُعْطِيَكَ حَقَّكَ ، فتصلح حتَّى و إلاَّ في موضع أو .))[١] ، ويبدو أن الطبري يوافقه في هذا فيقول:((ومعنى «أو» إلاَّ: أي إلاَّ أن يحاجوكم، يعني إلاَّ أن يجادلوكم عند ربكم عند ما فعل بهم ربكم.))[٢] ، وحكى النحاس كلام الفراء في معنى (أو) ولم يعلق عليه ، ما يعني تَبَنِّيه لهذا القول[٣] ، وكذلك حكاه الطوسي[٤]، ونقل الطبرسيُّ أيضا أنها بمعنى حتى[٥].

قال الزمخشريُّ :(({أو يحاجوكم عند ربكم} عطف على أن يؤتى والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع ، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، أنّ المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة .))[٦] ، ومثله قال الطبرسيُّ[٧] ، وكذلك قال الفخر الرازي[٨] والعكبريُّ[٩] ، وقد صرَّح أبو حيان الأندلسيّ بأن أو هذه تفيد التنويع إذ يقول:((أو يحاجوكم ، معطوف على (يؤتى) ، و(أو): للتنويع .))[١٠].

قَوْلُ الزمخشريِّ إنه عطف على (أن يؤتى) متفق مع المعنى العام للحرف ، فهو عطف اسم على اسم ، وقد انتقد المالقيُّ من قال : إن (أو) في مثل هذه المواضع بمعنى (إلاَّ) ورجعها إلى المعنى العام أو الدلالة المركزية للحرف كما فعل الزمخشريُّ ، فنراه يقول :((واعلم أن (أو) هذه إذا حقق معناها رجعت إلى العاطفة اسما على اسم ،...، فكأنك عطفت مصدرا على مصدر ، وبذلك صحَّ عندنا إضمار (أن) بعدها ليصير ما بعدها مصدرا معطوفا في المعنى على مصدر آخر من معنى الكلام ، خلافا للكوفيين فإنهم ينصبون بها نفسها ، ولو كانت ناصبة بنفسها لكانت ناصبة في كل موضع ، فعدم اطراد ذلك يدلّ على فساد مذهبهم ، فقف عليه.))[١١].

تَفْسِيْرُ ما تَقَدَّمَ كما اعتقده أن الفراء ومن معه يَنظرون إلى المعنى الخاص المنسجم مع السياق الوارد فيه الحرف ، وما يصبغه به من معنى معيَّن ، والزمخشريُّ ومن معه يُرجعون المعنى إلى المعنى العام البسيط وهو العطف وإسناد نسبة الفعل الموجود في الجملة إلى أحد الشيئين لا واحد بعينه .

---

١ - معاني القرآن : ١\ ٢٢٣ .
٢ - جامع البيان : ٣\ ٢٢٣ .
٣ - ظ : إعراب القرآن : ١\ ٣٤٣ ، معاني القرآن(النحاس) : ١\ ٤٢٣.
٤ - ظ : التبيان : ٢\٥٠١ .
٥ - ظ : جوامع الجامع : ١\ ٣٠٠ .
٦ - الكشاف : ١\٤٣٦ .
٧ - ظ : جوامع الجامع : ١\٢٩٨ .
٨ - ظ : مفاتيح الغيب : ٨\٢٥٥ - ٢٩٠ .
٩ - ظ : التبيان في إعراب القرآن : ١\١٣٩ .
١٠ - البحر المحيط : ٣\٢١٠ .
١١ - رصف المباني : ١٣٤ .

- قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة:١١١) ، ومثلها أيضا قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(البقرة:١٣٥) ، قيل إن (أو) في الآية تفيد التقسيم [١]، ونُقِلَ أن ابن مالك عَدَلَ عن هذه التسمية إلى التفريق المجرد[٢] ، وهو عنده أولى من التعبير بالتقسيم ، ومثل هذه الآية قوله ﷻ : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾(النساء: من الآية١٣٥) ، وربما سماه آخرون بالتفصيل[٣]، وهذا ما عليه أكثر المفسرين ، قال العكبريُّ: (({أو} هنا لتفصيل ما أجمل ، وذلك أن اليهود قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، ولم يقل كل فريق منهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، فلما لم يفصل في قوله {وقالوا} جاء بـ(أو) للتفصيل ، إذ كانت موضوعة لأحد الشيئين .)) [٤]، وعدَّ منه أيضاً قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾(الذاريات:٥٢) ، والمعنى في الآية الأولى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى ، وفي الآية الأخيرة قال بعضهم ساحر وقال بعضهم مجنون ، فـ(أو) لتفصيل الإجمال الدالة عليه كلمة {قالوا} في الآيتين ، فهذا المعنى أطلقت عليه ثلاث تسميات من قبل القدماء : التقسيم والتفريق المجرد والتفصيل ، واختلاف هذه التسميات في حقيقتها اختلاف في المصطلح ، واختلاف في جهة التسمية ، فمن نظر إلى الإجمال الموجود في كلمة {قالوا} والإجمال قد يكون له تفصيل فعندها سماه تفصيل ، ومن نظر إلى السياق وما فيه من معنى تقسيم الشيء على أقسام سماه تقسيم ، والثالث سماه تفريق مجرد ؛ لأن في التقسيم لحظ للأقسام الباقية ولا يستقل بالحكم واحد منها فعدل عنه إلى التفريق وقيده بالمجرد ، لأن التقسيم هو أيضاً تفريق لكنه ليس مجردا بل يلحظ فيه الأقسام الأخرى . وهذا الخلاف في التسمية كان للسياق أثره الكبير في تحديده. وربما سمَّى بعضُ المفسرين المعاصرين هذا المعنى باسم رابع هو التنويع[٥] ، وهذا ما لم يصرح به أحد من القدماء ، فالتسمية ما تزال فيها مجال للزيادة إذا فهم من الآية معنى جديد تفرزه قرائن الأحوال . هذا القدر من الاختلاف في المصطلح يرجع أيضاً إلى ما يفهم من السياق العام للنص ، واختلاف جهات النظر إليه .

- قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾(الصافات:١٤٧) ، السياق العام لهذه الآية الكريمة سمح للمفسرين وعلماء اللغة بتأويل معنى (أو) على أوجهٍ متعددةٍ ، فالفراء : يعتقد أنها بمعنى (بل)[٦]، وذكر الطبري أن ابن عباس كان يقول :((معنى قوله (أوْ) : بل يزيدون.))[٧] . وهذا ما نقله الزجاج عنهم ، ثم قال :((وقال غيرهما [يعني الفراء وأبا عبيدة] معناه : أو يزيدون في تقديركم أنتم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مئة ألف أو يزيدون

---

١ - ظ : مغني اللبيب : ٩٢-٩٣ .
٢ - ظ : الجنى الداني : ٢٤٥ ، مغني اللبيب : ٩٢-٩٣ .
٣ - ظ : رصف المباني : ١٣٢ ، مغني اللبيب :٩٢ -٩٣.
٤ - التبيان في إعراب القرآن : ٥٨\١ ، وينظر معه أيضاً الصفحات :٢١\١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، جامع البيان :٦٨٨\١ ، ٧٨٤ ، التبيان : ٤٠٩\١ ، ٤١٠، مجمع البيان : ٣٤٩\١ ، زاد المسير : ٢٧٠\٢ ، الجامع لأحكام القرآن : ٧٤\٢ ، رصف المباني : ١٣٢، البرهان في علوم القرآن : ٢١٠\٤ ، الميزان في تفسير القرآن : ٣١٠\١ .
٥ - مواهب الرحمن في تفسير القرآن :٢\ ٦٦ .
٦ - ظ : معاني القرآن : ٢\ ٣٩٣ .
٧ - جامع البيان : ٦٦\٢٣ ، وينظر معه : البيان في شرح اللمع : ١٨٢ .

على المئة ، وهذا على أصل (أو) . وقال قوم معناها معنى الواو ، و(أو) لا تكون بمعنى الواو لأن الواو معناها الاجتماع ، وليس فيها دليل على أن أحد الشيئين قبل الآخر ، و(أو) معناها إفراد أحد الشيئين أو الأشياء .)) [١] ، فالزجاج يذكر لنا أن أصل المعنى في (أو) أنها للشك بين اثنين أو أكثر وهذا المعنى الذي يميل إليه ، كما أفهم من كلامه ، أما مجيء (أو) بمعنى الواو فيبدو أن الزجاج لا يرتضي القول به .

وذكر النحاس أيضا قول أبي عبيدة والفراء أنها بمعنى (بل) ووصفه بأنه خطأ عند أكثر النحويين الحذاق ، وقول القتبي أنها بمعنى (الواو) ، وهذا أيضاً خطأ عنده ؛ لأن فيه بطلان المعاني في هذه الآية ، ثم قال :((وفي الآية قولان سوى هذين : أحدهما أم المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مئة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما تعرفون ، والقول الآخر: أنه كما تقول : جاءني زيد أو عمرو ، وأنت تعرف من جاءك منهما ، إلاَّ أنك أبهمت على المخاطب .)) [٢] وذكر في مكان آخر أنها للإباحة [٣]، هذه خمسة أقوال ذكرها لنا النحاس في تأويل معنى (أو) في هذه الآية هي الإضراب ومعنى الواو - وهذان القولان لا يرتضيهما - والإباحة ، وشك السامع نفسه (التخيير)، والإبهام . وكذلك فعل الطبرسيُّ مثل النحاس في عدم قبوله قول الفراء والقتبيّ ، وذكر الأقوال الأخرى ، وعدَّ أجود الأقوال حملها على التخيير ونسبه إلى سيبويه [٤] . وفعل مثلهما أبو البركات الأنباريّ ، فقد ذكر أن في تأويلها أربعة أقوال أقوال قولان للبصريين ، وهما أن تكون للتخيير، أي إذا رآهم الرائي تخير في أن يعدهم مئة ألف أو يزيدون ، أو للشك ، أي إذا رآهم الرائي شكَّ في عدتهم لكثرتهم، فالشك يرجع إلى الرائي لا إلى الله تعالى ، وقولان للكوفيين ، أن تكون بمعنى بل ، أو بمعنى الواو ، ولم يرجح قولا منها [٥].

وقد ذكر لها مكي بن أبي طالب ثلاثة أقوال : قول البصريين بأنها للتخيير ، والمعنى عندها أنه إذا رآهم الرائي منكم قال : هم مئة ألف أو يزيدون ، وقول بعض الكوفيين بأنها بمعنى (بل) ، وقول بعض آخر أنها بمعنى الواو . ويفهم من كلامه أنه يميل إلى القول الأول .[٦] ، وكذلك ذكر لها الطوسي ثلاثة أقوال : معنى الواو ومعنى بل والإبهام[٧]، والغريب والغريب أنه ذكر الإبهام وترك نقل القول بأنها للتخيير.

وقال الزمخشريُّ :(({أو يزيدون} في مرأى الناظر؛ أي: إذا رآها الرائي قال: هي مئة ألف أو أكثر؛ والغرض: الوصف بالكثرة .)) [٨]، فهو يحملها على أصل المعنى ، وهو الشك من من قبل الناظر ، والغرض من هذا الأسلوب كما صرّح وصفهم بالكثرة ، لا حقيقة عدِّهم ، وأهمل الزمخشريّ الأقوال الأخرى ، وكذلك فعل الفخر الرازي فلم يذكر من الأقوال إلاَّ ما اعتقد صحته ، وهو الوجه الذي ارتضاه الزمخشري نفسه ، قائلا :((ظاهر قوله: {أو يزيدون} يوجب الشك ، وذلك على الله تعالى محال ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾(المرسلات:٦)، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه: من الآية٤٤) ، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾(طه: من الآية١١٣) ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾(النحل: من الآية٧٧)،

---

١ - معاني القرآن وإعرابه : ٤\ ٣١٤ .
٢ - إعراب القرآن : ٢\ ٧٧٣ ، وينظر معه : معاني القرآن : ٦\ ٥٩ - ٦١.
٣ - معاني القرآن :٦ \ ٦١ .
٤ - ظ : مجمع البيان : ٨\٣٣٣ .
٥ - ظ : البيان في إعراب غريب القرآن : ٢\ ٣٠٨ .
٦ - ظ : مشكل إعراب القرآن : ٢\ ٦١٩ .
٧ - ظ : التبيان : ٨\٥٢٧ .
٨ - الكشاف : ٣\ ٣٥٣ .

وقوله تعالى:﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾(النجم:٩) ، وأجابوا عنه من وجوه كثيرةٍ ، والأصحُّ منها وجهٌ واحدٌ وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم ، بمعنى أنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون على المئة، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا.))[١] ، وخرجها العكبريُّ كذلك على هذا المعنى[٢]، وقد اتفق كثير من العلماء على أنه أجود الأقوال ، لما فيه من دفع لشبه قد ترد على ذهن شخص ما .

أقول في هذه الآية دليلٌ آخر على أن السياق هو الذي يضفي على الحرف معناه الخاص ، ولولا السياق لا تظهر للحرف تلك المعاني الإضافية ، ويبقى في حدود معناه العام ، وهذا ما ذكره العلماء ، كقول ابن يعيش:((والذي يدلّ أن أصلهما أحد الشيئين أنَّه إذا لم يكن معك في الكلام دليل يوجب زيادة معنى على هذا المعنى لم يحمل في التأويل إلاَّ عليه .))[٣] ، لقد فسَّر هؤلاء العلماء (أو) في هذه الآية وغيرها بناءً على ما فرزته أمامهم قرائن النص الداخلية والخارجية ، تساعدها الروايات المختلفة لتكوين معنى دقيق لآيات القرآن الكريم . وقد أوصلهم بحثهم المُعَمَّق في محاولة فهم النص القرآني إلى تقليب الوجوه المحتملة كلها ، ومناقشة كل وجه ، مخافة أن يكون القول بهذا الوجه أو ذالك تطاولا على النص القرآني ، أو نسبة شيء من النقص ، أو السوء إلى الذات المقدسة . وخيرُ شاهدٍ على ذلك ما نقلته عن الفخر الرازي قبل قليل . وأعتقد أنَّ فيما ذكرته من الأمثلة دليلا على ما افترضته آنفا من إن الحرف له معنى عام يتلون من خلال السياق الذي يرد فيه بألوان خاصة من المعاني .

خامساً : (بَلْ)

وهي حرف من الهوامل ، ومعناه المركزي الذي لا يفارقه الإضراب ، ويقع بعدها مفردٌ، ويقع بعدها جملة ، وقد ينظم إلى الإضراب معانٍ أُخر[٤]، يساعدُ عليها السياقُ:

فإن كانت داخلةً على **جملةٍ** ، فيكثر أن :

- يكون **<u>الإضرَابُ للإبطال</u>** ، كقوله تعالى :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(الأنبياء:٢٦) ، والمعنى أضرب لإبطال قول الكافرين فقرر أنهم عبادٌ مُكرَمُون .
- ويكون **<u>الإضرَابُ للانتقال</u>** ، من غرض إلى آخر ، بمعنى آخر ترك الشيء ، والأخذ في غيره ، من غير إبطالٍ ، وأكثر مَجيئُهَا في القرآن من هذا النوع[٥] ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾(الأعلى:١٤- ١٦) ، وقوله تعالى:﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا، . . . ﴾(المؤمنون:٦٢-٦٣) .

---

١ - مفاتيح الغيب : ٢٦\ ٣٥٥.
٢ - ظ : التبيان في إعراب القرآن : ٢\ ٢٠٧ .
٣ - شرح المفصل : ٨\٩٧ .
٤ - ظ : الأصول في النحو:٢\٥٧، اللمع في العربية:١٧٦، حروف المعاني:١٤، معاني الحروف:٩٤، الإيضاح العضدي :٢٩٠، الصاحبي في فقه اللغة:١٤٥، المخصص:١٤\٥٥، البيان في شرح اللمع : ١٨٥ ، شرح المفصل : ٨\ ١٠٥، شرح جمل الزجاجي:١\٣٢٩ ، شرح ألفية ابن مالك : ٢١١، رصف المباني : ١٥٣ – ١٥٤ ، الجنى الداني : ٢٥٣ ، مغني اللبيب : ١٥٢، جواهر الأدب : ١٢٧- ١٢٩ .
٥ - ظ : معاني الحروف : ٩٤ ، وينظر الفصل الثالث من الأطروحة صفحة : ١٨١.

وقيل عند دخول (بل) على الجملة فهي حرفُ ابتداءٍ لا عطف ، على أصح القولين[١].

معنى (الإبطال) أو (الانتقال) المضاف إلى معنى الإضراب المركزي في حقيقته هو غاية الإضراب ، ولا يمكننا أن نفهمه من (بل) مجردة من السياق ، بل السياق هو الذي يحدد لنا غاية الإضراب ، ومن ثم يضفي معنى زائدا على معنى الحرف المركزي .

وإن كانت داخلة على **مفرد** [٢]:

- فيكثر أن يكون **<u>الإضرَاب للترك</u>** ، أي ترك الأول وأخذ الثاني بالمعنى المسند في الجملة، ويكون هذا الإضرَاب لمعنى يظهر له في أثناء الكلام ، كقول القائل : اضرب زيدا بل عمرا .
- أو يكون **<u>الإضرَاب للبداء</u>** ، وهو ((وضع الشيء على معنى بالقصد ، ثم يَتَبيَّن أن الأولى غير ذلك الشيء ، ففي المدح يؤتى بأحسن ، وفي الذم يؤتى بأقبح ، كقولك : هندُ شمسٌ بل دنيا ، وهندٌ ليلٌ بل كابوس .)) [٣]
- أو يكون **<u>الإضرَاب للغلط</u>** ، إذ يذكر المتكلم لفظا وهو يريد غيره ، كقولهم رأيت رجلا بل حمارا ، ((وهذا لا يقع في القرآن ولا في فصيح كلامٍ في حال تبليغ .)) [٤].
- أو يكون **<u>الإضرَاب للنسيان</u>** ، كقولنا سافرت يوم الاثنين بل الثلاثاء ، وهذا القسم وسابقه لا يقعان في القرآن الكريم ولا في كلام مُبَلِّغ عن الله تعالى . والفرق بينه وبين سابقه من جهة المعنى في التصور المبني عليه الكلام ؛ إذ النسيان وضع شيء على غيره ، من غير علم به ، ولا خطوره ببال المتكلم ، في حين الغلط وضع شيء على غيره بمضي الوهم إليه ، ثم يظهر المقصود [٥] ، وهذان الوجهان الأخيران (الغلط والنسيان) يشتملان على معنى الإبطال ، فالإضراب معهما يبطل الأول ويثبت الثاني .

هذه المعاني الملحوظة هنا هي أسباب الإضراب وليست غاياته ، وعندها فقد يصاحب أحد هذه المعاني الأربعة الأخيرة معنى الإضرَاب إذا كان بعد (بل) جملة ، وليس الأمر مقصورا على المعنيين اللَّذَين ذُكِرَا أولاً ، بل الأكثرُ فيها مع الجمل أن يلحظ غاية الإضراب ، والأكثر هنا أن يلحظ سبب الإضراب . وجليٌّ للعيان أن تحقق المعنى الخاصِ مع المعنى العام كان للسياق أثره الكبير فيه ، فمن خلال السياق إذا عرفنا أن المتكلم ذكر جملةً لقائل ما وأضرب عنها بغية إبطالها ، فنكون قد أضفنا إلى (بل) معنى آخر وإذا عرفنا أنه كان ناسيا أو غلطانا نكون قد أضفنا معنى خاصا لـ(بل) .

وتكون (بل) عاطفة عند دخولها على **المفرد** فإن تقدمها [٦] :

- **<u>أمرٌ أو إيجابٌ</u>** ، فإنها تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه ، فلا يحكم عليه بشيء ، ويثبت الحكم لما بعدها ، كقولنا : اضرب زيدا بل عمرا ، وقولنا : قام زيدٌ بل عمرٌو .
- وإن تقدمها **<u>نهي أو نفي</u>** ، فتكون لتقرير ما قبلها على حالته ، وجعل ضده لما بعده ، نحو : (ما قام زيدٌ بل عمرو) ، فهنا قررت نفي القيام لزيد وأثبتته لعمرو ، و (لا يقم زيدٌ بل عمرو) ، والمعنى هنا قررت النهي عن القيام لزيد وأمرت عمر به . وجوَّز بعضهم أن

١ - ظ : الجنى الداني : ٢٥٣ ، مغني اللبيب : ١٥٢ .
٢ - ظ : شرح المفصل :٨\ ١٠٥، رصف المباني : ١٥٣ ، مغني اللبيب : ١٥٢ .
٣ - رصف المباني : ١٥٣ - ١٥٤ .
٤ - المصدر نفسه : ١٥٣ ، وينظر معه : أسرار العربية : ٢٦٩، اللباب في علل البناء والإعراب : ١\ ٤٢٦.
٥ - ظ : المصدر نفسه .
٦ - ظ : شرح ألفية ابن مالك : ٢١١، رصف المباني : ١٥٤ ، الجنى الداني : ٢٣٥-٢٥٤ ، مغني اللبيب : ١٥٢ .

تكون (بل) في هذه الحال ناقلة لمعنى النهي أو النفي إلى ما بعدها ، وعلى هذا القول صحَّ :(ما زيدٌ قائما بل قاعدا ، وبل قاعدٌ) ويختلف المعنى تبعا لذلك .

ويمكن أن نقسم الإضرَاب من حيث المُضرَب عنه على ثلاثة أنواع :((وتحقيق ذلك أن الإضرَاب تارة يكون عن المُحَدَّثِ عنه ، فتأتي بعد بل بمُحَدَّثٍ عنه ، نحو: (ضربت زيدا بل عمرا ، وما ضربت زيدا بل عمرا) ، وتارة عن الحديث ، فتأتي بعد بل بالحديث المقصود إليه ، نحو: (ضربت زيدا بل أكرمته) كأنك أردت أن تقول أكرمت زيدا فسبق لسانك إلى ضربت ، فأضربت عنه إلى المقصود ، وهو أكرمته ، وتارة تضرب عن الجميع ، وتأتي بعد بل بالمقصود من الحديث والمُحَدَّثِ عنه ، وذلك نحو :(ضربت زيدا بل أكرمت خالدا) كأنَّك أردت من الأول أن تقول : أكرمت خالدا ، فسبق لسانك إلى غيره فأضربت عنه ببل وأتيت بعدها بالمقصود .))[1] ، وتحقيق أحد أنواع الإضـرَاب على هـذا التقسيم لا يمكن أن يتوصل إليه ، خارج السياق .

إن في هذا الحرف دليلا قويا يؤيد فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية للحرف ، فمعناه المركزي الإضراب ، وقد يلحظ معه الغاية منه أو سببه ، أو يلحظ معه ملاحظ أخرى ، فيضاف هذا الجزء من المعنى إلى المعنى المركزي ، وكل هذا لا يكون إلاَّ داخل السياق .

سادساً : (عَنْ)

ذكرت المصادر أن (عن) تأتي في الكلام على أحد ثلاثة أوجه هي :

الوجه الأول : تكون فيه (عن) حرف جرٍّ ، وذكروا له معنىً ، أو معاني ومجمل هذه المعاني التي ذكرت له في المصادر المختلفة عشرة [2]: أولها وأهمها معنى **المجاوزة** ، نحو قولهم : (سافرت عن البلد) ، و(رغبت عن الطعام) ، و(رميت السهم عن القوس) ، ولم يذكر البصريون لـ(عن) غير هذا المعنى ، وذكر لها الكوفيون مع معنى المجاوزة معاني أخر ستأتي الإشارة إليها .

الوجه الثاني [3]**:** تكون فيه (عن) حرفا مصدريا ، وذلك في لغة بني تميم خاصّة ، يقولون : أعجبني عن تفعل ، يريدون (أن تفعل) ، وعليه قول ذي الرُّمَّة(ت١١٧هـ)[4] :

(البسيط)

أَعَــن تَرَسَّــمتَ مِــن خَرقــاءَ مَنزِلَــةً   مــاءُ الصَــبابَةِ مِــن عَينَيــكَ مَســجومُ

يريد :(أأن ترسَّمت الدار) أي : تأملتها ، ومثل هذا يفعلون في (أنَّ) فيقولون : أشهد عنَّ محمدا رسول الله ، وهذه هي عنعنة تميم .

١ - شرح المفصل : ٨\١٠٥ .
٢ - ظ : ليست المصادر كلها تذكر هذه المعاني العشرة ، فكل منهم يذكر بعضها ، ولم يجمعها كلها إلاَّ ابن هشام ، ولمتابعة هذه المعاني في المصادر ينظر : حروف المعاني : ٧٩- ٨١ ، حروف المعاني : ٩٤-٩٥، شرح جمل الزجاجي:١\٥١٣ ، شرح ألفية ابن مالك :١٤٤، شرح ابن عقيل :٢\٢٣، رصف المباني :٣٦٦-٣٧٠ ، الجنى الداني :٢٦٠- ٢٦٥، مغني اللبيب :١٩٦-٢٠٠ ، أوضح المسالك :٣\٤٣ ، همع الهوامع :٢\٢٩.
٣ - ظ : رصف المباني : ٣٧٠ ، الجنى الداني : ٢٦٥ ، مغني اللبيب : ١٩٨-١٩٩ .
٤ - ديوان ذي الرُّمَّة :١\٣٧١ ، وينظر معه : مجالس ثعلب :١\٨١، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤\٣٤٥ ، ١١\٢٣٥ ، والبيت في الديوان بلفظ (أأن ترسمت...) .

الوجه الثالث : وتكون فيه (عن) اسما ومعناه (جانب) ، وذلك في ثلاثة مواضع[1]:

- الأول : أن يدخل على (عن) حرف الجر (من) ، ومنه قول قَطَرِيّ بن الفجاءة (ت٧٨هـ)[2]:

(الكامل)

فَلَقَد أَرانِي لِلرِّماحِ دَرِيئَةً مِن عَن يَمِيني مَرَّةً وَأَمامي

ومنه أيضاً قول القطاميِّ التغلبيِّ (ت١٣٠هـ)[3]:

(البسيط)

فقلت للرَّكبِ لَمَّا أَن علا بهمُ مِن عَن يمينِ الحُبَيَّا نظرَةٌ قَبَلُ

ووصف ابن هشام هذا الاستعمال بأنه كثير[4] .

- الثاني : أن يدخل على (عن) حرف الجر (على) ، وهذا نادر، والمحفوظ منه بيت واحد ، يقول صاحبه[5] :

(الطويل)

عَلَى عَنْ يَمِيني مَرَّت الطَّيرُ سُنَّحَاً وَكَيفَ سُنُوح واليَمِينُ قَطِيعُ

- الثالث : أن يكون مجرور (عن) وفاعل متعلقها ضميرين لمسمى واحد ، كقول امرئ القيس[6] :

(الطويل)

دَعْ عَنْكَ نَهباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

لئلا يؤدي تعدي فعل المضمر المتصل إلى ضميره المتصل .

♦ مناقشة الوجهين الثاني والثالث :

الوجه الثاني يقول فيه النحاة : إنَّه لغة بني تميم في (أن) المصدرية يقلبون الهمزة عينا وهي لهجة مسجلة لهم ، ومستعملة عندهم ، وتسمى عنعنة تميم ، فالأمر لا يتعلق بحرف الجر(عن) ، بل هو الحرف المصدري (أن) قلبت همزته ، ولا أعرف لِمَ يضعه النحاة مع أقسام (عن) الفصيحة ؟ والصحيح أن يشار في موارد (أنْ) أن قوما من العرب يقلبون همزتها عينا ، ولا تذكر هنا البتة ؛ لأن ذكرها يولد لبساً . لا علاقة لـ(عن) به .

وأمَّا الوجه الثالث ، قالوا فيه إن الحرف لا يدخل على الحرف ، ولمَّا دخل حرف جر على (عَنْ) أصبحت (عَنْ) اسما ، وهذا ليس بمسلم به عند العلماء كلهم ، وقد ذُكِرَتْ له ثلاث حالات ، الحالة الأولى دخلت فيها (مِنْ) على (عَنْ) ، و(مِنْ) هذه عند ابن مالك فيما ينقل عنه أنها زائدة و(عن) باقية على حرفيتها ، وينقل عن غيره أنها لابتداء الغاية المكانية ، فإذا قيل : (قعدت عن يمينه) ، كان المعنى (في جانب يمينه) ، وهذا يحتمل الملاصقة في القعود وعدمها ، فإن أدخلت (مِنْ) معها تعيَّن كون القعود ملاصقا لأول ناحية اليمين[7] ، ومن الغريب أنْ يصفَ ابنُ هشامٍ دخول (مِنْ) على (عَنْ) بأنه كثير[8] ، في حين تَبَيَّنَ لي من خلال الإحصاء أن

---

١ - ظ : شرح جمل الزجاجي: ١\٤٧٦، رصف المباني:٣٦٦-٣٦٧، الجنى الداني:٢٦٠، مغني اللبيب:١٩٩-٢٠٠ .
٢ - ظ : مغني اللبيب : ١٩٩ ، شرح ابن عقيل : ١\ ٢٤٣ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ ١٠\١٥٨.
٣ - ديوان القطامي : ٢٨ ، وينظر معه : معاني الحروف : ٩٥، شرح ألفية ابن مالك : ١٤٤، جواهر الأدب : ٢٦٠.
٤ - ظ : مغني اللبيب : ١٩٩ .
٥ - البيت مجهول القائل ، ينظر : الجنى الداني : ٢٦٠، مغني اللبيب :١٩٩ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ :١٠\١٥٩ .
٦ - ديوان امرئ القيس :٩٤ ، وينظر معه : شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\٢٤٤.
٧ - ظ : شرح المفصل :٨\٤٠-٤١ ، مغني اللبيب :١٩٩.
٨ - ظ :مغني اللبيب :١٩٩.

أصحاب المعلقات لم يستعملوه في دواوينهم – البالغ عدد أبياتها أكثر من خمسة آلاف ونصف الألف – ولا مرَّة ، وعندها دفعني الفضول العلمي إلى أن أبحث في استعمالات الجاهليين كلهم ، فتبين من إحصاء أشعارهم أن (١٦٢) شاعرا جاهليا استعملوا (عن) داخلة على الاسم وليست الداخلة على الضمير ، وكان مجموع استعمالاتهم (٦٠٦) مرَّة ، ولم تدخل (مِنْ) على (عَنْ) مرَّة واحدة ، هذا يعني أن أشعار الجاهليين البالغة أكثر من عشرين ألف بيت ، لم تستعمل فيها (مِنْ عَنْ) ولا مرَّة ، أما عند المخضرمين فقد استعملت (عن) مع الاسم الظاهر (١١١٠) مرات ، مرَّةٌ واحدةٌ فقط منها أدخلت عليها (مِنْ) ، وذلك في قول سُحَيم الحبشي عبدِ بني الحَسحَاسِ (ت٤٠هـ)[1] :

(الطويل)

أَقَلِّبُهـــا لِلجـــانِبين وأَتَّقـــى ... بِهـا الـرِيحَ والشَـفَّانَ مِـن عَـن شِمالِيـا

واعتمادا على لغة الأرقام هذه أستطيع القول : إن سُحَيمَ بني الحَسحَاس المخضرم – وهو عبدٌ حبشي – أوَّلَ من أدخل (مِنْ) على (عَنْ) في ما وصل إلينا من الشعر العربي ، وبقي هذا الاستعمال نادرا – لا كما زعم ابن هشام كثيرا – فلم يستعمل في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام إلاَّ في قول سُحَيم هذا ، وكان مجموع أبيات هذين العصرين التي شملها الإحصاء أكثر من خمسة وخمسين ألف بيت شعري ، ويزداد عجبي من زعم ابن هشام كثرة هذا الاستعمال ، والمصادر المختلفة لم تستشهد له إلاَّ ببيت قطري بن الفجاءة وبيت القطامي وكلاهما من العصر الأموي . من هنا أستطيع أن أجزم بندرة هذا الاستعمال ، أمَّا الحالة الثانية فلم يجدوا عليها شاهدا إلاَّ قولَ شاعرٍ مجهولٍ ليسَ لهُ سندٌ آخرٌ يُعاضِدُهُ ، فحشروه مع القواعد العامة ، ولم يضعوه جانبا ، وكان الأولى أن يُسجَّلَ في باب الاستعمال الشاذ والنادر ، وأما الحالة الثالثة فقد ردَّ عليها ابن هشام بما يبين ضعفها[2] ، ومما يدلُّ على أنها هنا ليست اسما أنَّه أنَّه لا يصح إبدال كلمة (الجانب) محلها .

ونستطيع الابتعاد عن مجال إثبات (عن) الاسمية أو نفيها فيما إذا دخل عليها حرف جر آخر ، ويمكن الإشارة إلى فارق دقيق في التمييز بين (عن) الاسمية و(عن) الحرفية فالحرفية هي التي توصل معنى الفعل الذي قبلها إلى الاسم الذي بعدها فعملها الربط – كما تبين في الفصل الأول – أما الاسمية فيكون لها معنى في نفسها ، قال ابن يعيش :((والفرق بينها إذا كانت اسما وإذا كانت حرفا : إنه متى اعتقد فيها الاسمية ، فادخل عليها حرف الجر ، وقيل جلست من عن يمينه ، كانت بمعنى الناحية ، ودلّت على معنى في نفسها ، وهو المكان ، كأنك قلت جلست من ناحية يمينه ومكانه ، وإذا لم تدخل عليها من فإنها تفيد أن اليمين موضع لجلوسك ،...، وإذا كانت اسما كانت هي الموضع .)) [3]. إن ما أشار إليه ابن يعيش ملحظ دقيق دقيق في التمييز بين (عن) إن أردناها اسما أو حرفا ، والفيصل في ذاك هو مقصد المتكلم عند نطقه الجملة ، فعلى أيِّ المعنيين أراد أنْ تَتَحَدَّدُ هوية (عن) ، والمتلقي للنص قد يُدركُ مقصدَ المتكلم من خلال القرائن ، وقد يفوته هذا الإدراك ، فإذا فاته إدراك مقصد المنشئ يحصل خللٌ ولبس في عملية التوصيل للفكرة ، ولعل أكثر الاختلافات في تأويل النصوص متأت من عدم فهم مقصد المتكلم من إنشائه للعبارة ، وبعض ذلك الاختلاف لا يرجع إلى هذا السبب بل إلى طبيعة النص ، وذلك في النصوص الأدبية على وجه الخصوص ، التي لها طرقها الخاصة في التعامل مع الألفاظ لتوصيل المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة .

وإذا صحَّ إثبات (عن) الاسمية عند بعض النحاة ، فهو خارج حدود هذه الدراسة ؛ لأنه اسمٌ ، وإن لم يصح فستدخل (عن) ضمن المعاني التي ذكرت في الوجه الأول .

---

١ - ديوان سُحيم عبد بني الحسحاس : ٢١ .

٢ - ظ : مغني اللبيب :١٩٤ ، ٢٠٠.

٣ - شرح المفصل : ٤١\٨.

معنى (عن) الحرفية :

ما يتعلق بمعنى هذا الحرف فالبصريون يصرون على أن لـ(عن) معنى واحد هو المجاوزة وهي البُعد والانتقال[1] ، فمعنى المجاوزة ملازمٌ لها لا ينفكُّ عنها ، هذا ما نقله أصحاب كتب معاني الحروف عن البصريين[2] ، وربما نظر إلى هذا المعنى بعضهم من زاوية أخرى فأطلق على معناها :((الانحطاط والنزول ، تقول : نزل عن الجبل ، وعن ظهر الدابَّة وأخذ العلم عن زيد ؛ لأنَّ المأخوذ عنه أعلى رتبة من الآخذ.))[3] . إنَّ اختلاف التسمية هنا اختلاف اصطلاحي وليس اختلاف في المعنى ، فمعنى المجاوزة والبعد متحقق فيما نقله من أمثلة .

والمجاوزة تكون حقيقةً ، نحو :(رحلت عن زيد) ، وتكون مجازاً ، نحو :(أخذت العلم عن والدي) ، قال تعالى :﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ﴾(النساء: من الآية١٤٩) ، أي تتجاوزوا عن السوء ، ولأنها للمجاوزة عدِّي بها الفعل (أعرض) و(صدَّ) و(رغب) و(مال) إذا أريد ترك المتعلق ، نحو :(رغبت عن اللهو) و(ملت عن الغيِّ) ، قال تعالى :﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾(البقرة: من الآية١٣٠) ، قال الرازي : ((يقال : رغبت عن الأمر إذا كرهته ، ورغبت فيه إذا أردته .)) [4] وقال ﷻ :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ ﴾(آل عمران: من الآية٩٩)، وقوله أيضاً :﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾(النساء:١٦٠)، ومثل هذا المعنى مستعمل بكثرة عند الشعراء ، ومنه قول امرئ القيس[5]:

(الطويل)

فَبِتنــا تَصُــدُّ الــوَحشُ عَنّــا كَأَنَّنــا   قَتــيلانِ لَــم يَعلَــم لَنــا النــاسُ مَصْــرَعَا

أما الكوفيون فذكروا لها معاني أخر مع معناها الرئيس ، واختلفوا في هذه المعاني فمنهم من كثّر فيها ومنهم من اقتصد ، وفي كلام البصريين وكلام الكوفيين شهادة لما ذكرته آنفا من إن لكل حرف معنى عاما لا يفارقه ، وقد يكون هذا المعنى قابلا للتلون بمعان هامشية تبعا للسياق الذي يرد فيه الحرف ، فالبصريون كانوا متمسكين بالمعنى العام ، الذي لا يفارق الحرف ، والذي يمكن رَجْعُ المعاني التي ذكرها غيرهم إليه ، والكوفيون كانوا ينظرون إلى الخصوصية في المعاني الهامشية التي هي فروع على المعنى الأصلي . إن المعاني التي ذكرها الكوفيون لم تكن معاني مطردة في الاستعمال ، فلكل معنى ذُكر شاهد أو اثنان من الآيات القرآنية أو الأبيات الشعرية ، وأعني بعدم الاطراد إن الحرف خارج ذاك السياق لا يؤدي ذلك المعنى الذي أشاروا له ، وإنما هو يؤدي ذلك المعنى داخل النص الخاص الذي ورد فيه ، وكان لبعض العلماء فهمهم الخاص لبعض الخطاب القرآني ، وكان هذا الفهم يسمح لهم بالتوسع في فهم تلك النصوص ، ما يولد معاني جديدة قد لا يرغب غيرهم في الوصول إليها . وسنتتبع تلك المعاني التي ذكروها لنتبيَّن ما قيل فيها .

---

١ - ظ : اللمع في العربية:١٤٩، المخصص:٥٤\١٤، المفصل في صنعة الإعراب:٣٨٥، البيان في شرح اللمع:١٤٩-١٥٠، اللباب في علل البناء والإعراب:٣٥٧\١، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد:١٤٦، شرح المفصل:٣٩\٨-٤٠، المقرب:٢٠١\١، همع الهوامع :٢٩\٢.

٢ - ظ : معاني الحروف:٩٥ ، رصف المباني :٣٧٦، الجنى الداني :٢٦١، مغني اللبيب :١٩٤ ،٢٠٠ ، الجنى الداني :١٩٤.

٣ - الصاحبي في فقه اللغة : ١٥٥- ١٥٦.

٤ - مفاتيح الغيب : ٦٠\٤ .

٥ - ديوان امرئ القيس : ٢٤٢ .

المعنى الأول الذي ذكر لها بعد معناها العام هو **البدل** واستشهدوا له بقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً** ﴾(البقرة: من الآية٤٨) ، ومنه ما يروى عن النبي 9 : ((صُومِي عَنْ أمِّكِ)) [١]، أي (بدل أمك) ، إن معنى المجاوزة والبعد في النصيين ملحوظ ، فمعنى الآية لا تُقابل مكروهها بشيء يدرؤه أي يبعد عنها المكروه ويتجاوز بها العذاب ، ولا تجزي أي لا تغني عنها [٢] ، وكذا معنى الحديث صومي عن أمك تجاوزا عنها وإبعادا للمكروه عنها . إن السياق وظَّف الحرف ليوصل فضلا عن معناه الذي هو المجاوزة معنى البدليَّة ، ومعنى البدليَّة معنى هامشي يؤديه (عن) داخل هذه الآية ، فإن أخرج منها فليس له تلك القدرة على إيصال هذا الجزء من المعنى .

وذكر لها معنى **الاستعلاء** ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** ﴾(ص: من الآية٣٢) ، أي قدمته عليه [٣]، وحمل عليه قول ذي الإصبع العدواني (ت٢٢أو٢٥ق.هـ) [٤] :

(البسيط)

لاهِ ابنُ عَمِّكَ لا أَفضَلتَ في حَسَبٍ   عَنّي وَلا أَنتَ دَيّاني فَتَخزوني

أي (لا أفضلت في حسب عليَّ) [٥] . ولما كان الاستعلاء هو معنى (على) الرئيس قال بعضهم إن الحرفين تناوبا أو قال بعضهم إن الفعل (أحببت) تضمن معنى الفعل (آثرت) ، قال أبو حيان : ((وانتصب حب الخير، قيل : على المفعول به لتضمن أحببت معنى آثرت، قاله الفرّاء. وقيل: منصوب على المصدر التشبيهي ، أي أحببت الخيل كحب الخير، أي حباً مثل حب الخير. وقيل: عدى بعن فضمن معنى فعل يتعدى بها، أي أَنَبْتُ حب الخير عن ذكر ربي، أو جعلت حب الخير مغنيا عن ذكر ربي .)) [٦] ، فأبو حيان يقول بمبدأ التضمين الذي بيناه في التمهيد ، وإن الحرف باق على معناه والفعل ضُمِّن معنى فعل آخر يتعدى بهذا الحرف ، وقال ابن هشام ناقلا ردِّ العلماء على من قال بمبدأ التناوب : ((وقيل هي على بابها، وتعلقها بحال محذوفة ، أي : (منصرفا عن ذكر ربي) ، وحكى الرماني عن أبي عبيدة : أنَّ (أحببت) من (أحبَّ البعير إحبابا) إذا برك فلم يثر؛ فعن متعلقة به باعتبار معناه التضميني ، وهي على حقيقتها، أي (إني تثبطت عن ذكر ربي) ، وعلى هذا فحب الخير مفعول لأجله .)) [٧] ، ابن هشام وأبو حيان وأمثالهم يؤكدون بقاء الحرف على معناه العام ، عن طريق القول بالتضمين . وأنا أعتقد أنَّ نظرية المعنى العام المركزي القابل للتلون بحسب ضرورات السياق أكثر ملاءمة للنص القرآني من نظرية التضمين التي تقود إلى تجميد النص في حين تضمن لنا نظرية المعنى العام التي أعتقد بها حركية دائمة ومستمرة للنص ، فكل مفسر تتوافر أمامه قرائن معينة يستطيع أن يحمل الحرف معاني هامشية يتمكن من تأديتها داخل السياق .

ومن المعاني المذكورة لـ(عن) **التعليل** ، والتعليل المعنى الرئيس لحرف (اللام) ، ومن قال به قال بالمعاقبة والتناوب بين (عن) و(اللام) ، واستشهدوا عليه بقوله تعالى :﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ** ﴾(هود: من الآية٥٣) . ورأي الزمخشريّ أنها باقية على حالها إذ يقول :(({عن

---

١ - ظ :السنن الكبرى (البيهقي) : ١٥١\٤.
٢ - ظ : التبيان ٢١١\١، مجمع البيان :٢٠١\١ ، جوامع الجامع : ١٠٢\١، التبيان في إعراب القرآن : ٣٥\١ .
٣ - ظ : معاني الحروف :٩٥، الجنى الداني:٢٦٢، تناوب حروف الجر في لغة القرآن :١٠٥، نظرية الحروف العاملة :١٨٩.
٤ - ديوان ذي الإصبع العدواني : ٨٩ .
٥ - ظ : المخصص:٦٦\١٤، ارتشاف الضرب :٤٤٧\٢، التضمين بين حروف الجر في القرآن الكريم : ١١٢ .
٦ - البحر المحيط : ١٥٠-١٨٥.
٧ - مغني اللبيب : ١٩٦ – ١٧٠ ، وينظر معه المصدر المتقدم .

قولك} حال من الضمير في {تاركي} آلهتنا ، كأنه قيل : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك))[1]. ومنه قوله ﷻ : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾(البقرة: من الآية٣٦) ، الضمير في {عنها} إن كان يرجع إلى {الشجرة} فالمعنى حملهما على الزلة بسببها ، وحقيقته أنه أصدر الزلة عنها ، ونقل فيها حملها (عن) على المعنى العام ، فقيل :((فأزلَّهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: زلَّ عن مرتبته. وزلَّ عنِّي ذاك : إذا ذهب عنك وزلَّ من الشهر كذا .)) [2] ، ورجع أبو حيان معنى السببية إلى أثر همزة التعدية في الكلام بمعنى أنه مكنه من الزلل بتهيئة أسبابه أمامه ، وأورد أيضاً معنى الإبعاد لأن الزلة هي سقوط في المعنى ، إذ فيها خروج فاعلها عن طريق الاستقامة ، وبعده عنها[3]. ومن إشارة أبي حيان يفهم يفهم أثر السياق في إفادة معنى السببية الذي أضيف إلى (عن) ، وعندها يكون حَملُ الحرفِ على المعنى العام هو الأقرب في الآية ، أما حملها على معنى السببية فهو أبعد رتبة وإن كان يشترك في المعنى العام بوجه كما بين الزمخشري ونقله عنه ومال إليه ابن هشام[4] .

وذكر أيضاً أنها تأتي **مرادفة (بعد)** ، كقول القائل :(أطعمته عن جوع ، وآمنته عن خوف) أي بعد جوع وبعد خوف ، وحمل عليه قول امرئ القيس في معلقته [5] :

(الطويل)

وَتُضحي فَتيتُ المِسكِ فَوقَ فِراشِها نَؤومُ الضُحى لَم تَنتَطِق عَن تَفَضُّلِ

لم تنتطق أي لم تشدد وسطها بنطاق للعمل ، والتفضل بقاء الإنسان في ثوب واحد للنوم أو العمل[6]، والسياق هنا يحتمل أنها لم تشدد النطاق بعد أن نزعته للتفضل ليلا ، ويحتمل لم تنتطق بسبب التفضل ، فهي نزعت ثيابها وإن كان الوقت ضحى وبسبب التفضل فهي غير منتطقة ، وهذا المعنى لم يشر إليه شراح الأشعار لكن المعنى يحتمله ، وقد يكون هنالك معنى آخر أنها لم تنتطق كما تنتطق غيرها من النساء اللواتي تعاني أجسامهن من فضول السمنة التي تذهب برشاقتهن ، فهي رشيقة أصلا وليست بها حاجة للبس نطاق ، وأبعاد النطاق ومجاوزته موجود في التخريجين ، فهو معنى عام يشملهما ، وكل من (السببية) أو معنى (بعد) زيادة أضيفت إلى المعنى الرئيس ، فالسياق يبقى هو مولد المعاني الهامشية في النصوص الأدبية .

ومن القرآن الكريم حمل على معنى (بعد) قوله ﷻ : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾(المؤمنون:٤٠) ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾(النساء: من الآية٤٦) ، وقال في موضع آخر : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾(المائدة: من الآية٤١) ، فأبدلت (عن مواضعه) بـ(من بعد مواضعه) . وسياق الآية يحتمل أن يكون التحريف بعد مواضعه ، أي من بعد أن وضعه الله مواضعه ، ففرض فروضه وأحل حلاله وحرّم حرامه[7]. ويحتمل أن يكون التحريف بإبعاد النص عن مواضعه بالنطق أو بالإخراج من أصل النص أي إسقاطه من الكتاب، وكل هذا مجاوزة للموضع ، ففي التخريج الأول معنى الإبعاد والتجاوز حاصل بعد أن

---

١ - الكشاف : ٢٧٥\٢ ، وينظر معه : همع الهوامع :٢٩\٢ .
٢ - الكشاف : ٢٧٣\١ ، وينظر معه : مفاتيح الغيب : ٤٣٠\٣-٤٣٥ .
٣ - ظ : البحر المحيط : ٢٥٧\١-٢٥٨.
٤ - ظ: مغني اللبيب :١٩٧ ، التراكيب اللغوية في العربية:٦٧.
٥ - ديوان امرئ القيس : ١٧.
٦ - ظ : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٦٥ ، شرح المعلقات السبع : ١٠٣، شرح القصائد التسع المشهورات:١٤٧\١، المخصص:٦٧\١٤، شرح الشعار الستة الجاهلية:٩١\١ ، البيان في غريب إعراب القرآن: ٥٠٣\٢ ، التضمين بين حروف الجر في القرآن الكريم :١١٥ ، النحو في شروح المعلقات :٤٥.
٧ - ظ : مفاتيح الغيب : ٣٥٨\١١ ، تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) : ٤٢٩\١ ، فتح القدير :٤٠\٢.

كان الله تعالى قرر الأحكام تجاوزها المتجاوزون ، وفي الثاني هنالك تجاوز حقيقي بإبعاد النص الإلهي ، وهذا هو معنى (عن) المركزي .

ويطرد هذا الحال في النصوص المختلف التي استشهدوا بها لإثبات دعواهم بأن (عن) تأتي **للظرفية** أي بدلا من **(في)** ، واستشهدوا عليه بقول الأعشى الكبير (ت٧هـ) [١] :

(الطويل)

وَآسِ سَـراةَ الحَـيِّ حَيـثُ لَقيـتَهُم   وَلا تَـكُ عَـن حَمـلِ الرِباعَـةِ وانِيـا

أي :((ولا تكن وانيا في حمل الرباعة)) [٢] ؛ ولأن (وَنِيَ) يتعدَّى بـ(في) في قوله تعالى[٣]: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾(طه:٤٢) . قال العلماء : إن (عن) جاءت في بيت الأعشى بمعنى (في) أو بدلا منها ، في حين قول الأعشى يحتمل معنى البعد والمجاوزة ، وما من موجب لطلب معنى آخر فهو يريد(لا تك متجاوزا ومبتعدا عن حملها) ، وقد أشار ابن هشام إلى معنى دقيق في هذا الفعل ، إذ يقول : ((والظاهر أن معنى (وَنَى عن كذا) جاوزه ، ولم يدخل فيه ، و(وَنِيَ فيه) دخل فيه .)) [٤] ، أعتقد أنَّ استشهاد بعض العلماء بهذا البيت لإثبات لإثبات معاقبة (عن) (في) لم يحظ بالمسوغات الكافية ، وكل الذي دفعهم له أنهم رأوا (وَنَى) في الآية التي ذكروها متعديا بـ(في) فظنوا أن الفعل ليس له إلاَّ هذا الحرف . غافلين عما أشار إليه ابن هشام .

وتأتي (عن) **بمعنى (من)** ، واستشهدوا له بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(التوبة: من الآية١٠٤) ، أي يقبل التوبة من عباده ، فالفعل (قبل) يتعدَّى بـ(من) قال تعالى: ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾(المائدة: من الآية٢٧) ، إن المعنى في الآية الأولى ليس مثل المعنى المراد في الآية الثانية ففي الأولى يقبل التوبة عن عباده أي يتجاوز بالتوبة عن العباد وتبعد التوبة عنهم العذاب ، وتابوا عن ذنوبهم أي ابتعدوا عنها وتجاوزوها ، في حين في الآية الثانية معناه رضي من أحدهما وأخذ منه ، وهذا المعنى ليس كذاك . قال الرازي :(({عن} في قوله تعالى: {عن عباده} فيه وجهان: الأول: أنه لا فرق بين قوله: {عن عباده} وبين قوله: من عباده يقال: أخذت هذا منك وأخذت هذا عنك. والثاني: قال القاضي: لعل {عن} أبلغ لأنه ينبيء عن القبول مع تسهيل سبيله إلى التوبة التي قبلت، وأقول: إنه لم يبين كيفية دلالة لفظة {عن} على هذا المعنى، والذي أقوله إن كلمة {عن} وكلمة «من» متقاربتان، إلا أن كلمة {عن} تفيد البعد، فإذا قيل: جلس فلان عن يمين الأمير، أفاد أنه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضرب من البعد فقوله: {عن عباده} يفيد أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه صار مبعداً عن قبول الله تعالى له بسبب ذلك الذنب، ويحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه، وبعده عن حضرة نفسه، فلفظة {عن} كالتنبيه على أنه لا بد من حصول هذا المعنى للتائب.)) [٥] ، يقدم لنا هذا النص ثلاثة مشارب مختلفة في فهم الخطاب القرآني ، ولكل رأيه الذي كونه بمساعدة القرائن المتعددة لفهم كلام الله تعالى ، فالأول هو القول بتناوب الحروف – وهو ما لا أعتقده – والثاني منهما استشعر مع معنى (عن) العام معنى إضافيا هو تسهيل السبيل إلى التوبة ، ولم يَعِ الرازي كيف فهم صاحب هذا القول من الحرف هذه الدلالة ، وأنا أيضاً لا أفهم كيف فهم من الحرف ذالك ،

---

١ - ديوان الأعشى : ٣٢٩ .
٢ - ارتشاف الضرب :٢\٤٤٨ .
٣ - ظ : معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٢\ ٤٠٧ .
٤ - مغني اللبيب : ١٩٨ .
٥ - مفاتيح الغيب : ١٦\١٣٩.

لكن وجود هذا الرأي فيه تأييد لما يراه الباحث من نظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية ، أما رأي الرازي نفسه فقد أبقى الحرف على معناه العام والذي هو المجاوزة والبعد ، وفهم النص في ضوء هذا المعنى ، وقال ابن يعيش : ((وتقول أطعمته من جوع وعن جوع ، فإذا جئت بمن كانت لابتداء الغاية ؛ لأن الجوع ابتداء الإطعام ، وإذا جئت بعن فالمعنى أن الإطعام صرف الجوع لأن (عن) لما عدا الشيء .)) [١] ، يشير ابن يعيش إلى ضرورة التنبه على مقصد المتكلم من العبارة ، فإن لحظ الجوع بوصفه بداية الإطعام كان المعنى يقتضي (من) ، وإن لُحِظَ بوصفه صارفاً للجوع ومبعداً له كان المعنى يتطلب (عن) ، فالمتكلم هو صاحب الحق في أقرار أي الحرفين يضع في عبارته ، فالمتلقي ما عليه إلاَّ الاستقبال من المنشئ فإن جاءته (عن) كان للعبارة معنى ، وإن جاءته (من) كان لها معنى آخر ، أما إشمام (عن) معنى (من) فهذا يتوقف على قابلية منشئ الكلام على تحميل سياق عبارته من القرائن ما تجعل المتلقي يفهم ذلك القدر من المعنى الإضافي الذي يريده المنشئ ، وأفضل النصوص قدرة على إثارة المعاني هي النصوص الأدبية عامة والشعرية خاصة .

وقيل : إن (عن) تأتي **بمعنى الباء** ، ومثّلوا له بقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ (النجم:٣)، أي : ما ينطق بالهوى . إن ما طرحه أصحاب هذا الرأي فيه تغيرٌ كبيرٌ للمعنى ، وأكثر المفسرين يقولون ببقاء (عن) على بابها ، قال العكبريُّ :((و(عن) على بابها : أي لا يصدر نطقه عن الهوى ، وقيل هو بمعنى الباء .)) [٢] ، وقال الزركشيُّ إنها تأتي : ((بمعنى الباء نحو {ينطق عن الهوى} وقيل على حقيقتها ، أي : وما يصدر قوله عن هوى ، وقيل للمجاوزة لان نطقه متباعد عن الهوى متجاوز عنه ، وفيه نظر ؛ لأنها إذا كانت بمعنى الباء نفي عنه النطق في حال كونه متلبسا بالهوى ، وهو صحيح ، وإذا كانت على بابها نفي عنه التعلق حال كونه مجاوزا عن الهوى ، فيلزم إن يكون النطق حال كونه متلبسا بالهوى ، وهو فاسد .)) [٣]. الإشكال الأخير الذي طرحه الزركشيُّ ليس دقيقا ؛ إذ لا يلزم من كونه متجاوزا عن الهوى ومبتعد عنه أن يكون متلبسا فيه[٤] ، وكذالك رأى الشوكانيُّ أن الحرف هنا باق على أصله قائلا :((أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن، ولا بغيره ، فعن على بابها. وقال أبو عبيدة: إنّ عن بمعنى الباء أي : بالهوى .)) [٥] ، وهذا هو رأي ابن هشام أيضاً بقاء (عن) على بابها[٦] . ومما حمل على معنى الباء قول امرئ القيس في معلقته [٧] :

(الطويل)

تَصُدُّ وَتُبدي عَن أَسيلٍ وَتَتَّقي بِناظِرَةٍ مِن وَحشِ وَجرَةَ مُطفِلِ

وأعتقد أنَّ حمل (عن) على معنى الباء فيه إجحاف لمعنى البيت فهو يريد المعنى كما أتصوره (فبينا هي تعرض عنهم وتدير وجهها ، تبدي خَدَّاً أسيلا) ، ولا يريد معنى أنها تَعرِضُ عنهم وتبدي (بأسيل) ، والأسيل الأملس المستوي ، وهو ضد (الكزِّ) ، والخد الأسيل هو اللين السهل الطويل[٨] ، فإذا حملنا البيت على معنى (عن) الرئيس وهو التجاوز تكون هذه الفتاة متجاوزة بخدها مقاييس الجمال العادية إلى ما هو أبعد لتصبح تلك الفتاة فوق الطبيعي من

---

١ - شرح المفصل : ٨\٤١ -٤٢.
٢ - التبيان في إعراب القرآن : ٢\٢٤٦ ، وينظر معه : التبيان :٩\٤٢١ ، مجمع البيان : ٩\٢٨٨ .
٣ - البرهان : ٤\ ٢٨٧.
٤ - ظ : تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم : ٢٩، ١٠٤.
٥ - فتح القدير : ٥\١٠٤.
٦ - مغني اللبيب : ١٩٨.
٧ - ديوان امرئ القيس:١٦، وينظر معه: المخصص:١٤\٦٥، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٥٩، شرح المعلقات السبع:١٠٠ ، شرح القصائد التسع المشهورات :١\١٤١-١٤٢، شرح الأشعار الستة الجاهلية:١\٨٧.
٨ - ظ : لسان العرب : مادة(أسل) : ١١\١٥.

هذه المقاييس . والذي دعاهم إلى تخريج (عن) على معنى (الباء) مخافة وقوعهم في إشكال التنازع في العمل إذ هنالك فعلان يطلبان الاسم ، ولابد أن يكون العامل فيه واحداً منهما[١] .

إن قول العلماء بمجيء (عن) بمعنى (في) أو (من) أو (الباء) فيه اعتراف ضمني ودليل صريح على أن لكل واحد من هذه الحروف معنى مركزيا يدل عليه و(عن) قد جاءت تفيد هذا المعنى المركزي لا غيره ، إذ هم يذكرون لكل واحد من هذه الحروف معاني كثيرة فلو كانت كلها معاني أصلية موضوعا لها الحرف على نحو المشترك اللفظي لأصبح قولهم بمجيء (عن) مكان أحدها يولد لبسا وعدم وضوح ، أي إلى أيٍّ من تلك المعاني الكثيرة كان سيشير(عن) ؟ فالعلماء كانوا يرون أن الحرف يشير إلى أشهر تلك المعاني ، وهو المعنى المركزي للحرف ، وإن لم يصرحوا بذلك . فالقول بالتناوب يتضمن اعترافا بأن لكل حرف معنى مركزيا ، وهذا القدر مشترك بين فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية ، والقول بالتناوب ، ويفترقان بأنهم يقولون أن الحرف يأتي نائبا مكان حرف آخر ، وأقول إن الحرف باقٍ على معناه العام لكن السياق يحمله توصيل أجزاء مضافة إلى ذلك المعنى العام ، وتختلف هذه الإضافات من نص لآخر.

أما معنى **<u>الاستعانة</u>** ، كقولهم (رميت عن القوس) يريد رميت بالقوس ، فهو نفسه معنى (الباء) ، ونقله ابن هشام عن ابن مالك [٢]. والمثال الذي مثلوا به لمجيء (عن) بمعنى (الاستعانة) نتحسس فيه المعنى العام لـ(عن) بوضوح فرميت عن القوس أبعدت السهم عنه وتجاوزت السهم بالقوس . أما معنى الاستعانة فيفهم من السياق ، إذ الأداة التي تستعمل في إنجاز الفعل تكون معينة للرجل على ذلك الفعل . و(عن) خارج هذا السياق لا تفيد معنى الاستعانة .

وقال بعضهم إنها تأتي **<u>زائدة للتعويض</u>** ومثلوا له بقول زيد بن رزين[٣] :

(الطويل)

أتجــزع أن نفــس أتاهــا حمامهــا ... فهـلا الـتي عـن بـين جنبيـك تـدفع

بمعنى : فهلاَّ تدفع عن التي بين جنبيك فحذفت (عن) من أول الموصول وزيدت بعده . وأرى أن في البيت تقديما وتأخيرا دفع الشاعر إليه مقاييسُ الشعر ، ولو كان في سعة الكلام لم يقل مثل هذا الكلام العويص ، وقال ابن جني : ((أراد : (فهلا عن التي بين جنبيك تدفع) فزاد (عن) في قوله : (عن بين جنبيك) ، وجعلها عوض من (عن) التي حذفها ، وهو يريدها في قوله (فهلا التي) ، ومعناها : (فهلا عن التي) .))[٤] ، وهذا الذي ذكره ابن جني إطالة لا موجب موجب لها ، وهي تظهر مقدرة النحاة على سلوك السبل الطويلة والمتعرجة للوصول إلى الأهداف القريبة ، في حين نصَّ سيبويه على إن (عن) لا تزاد[٥] ، ولا أعلم ما المانع من أن نقول : إن (التي) قدِّمت لضرورات الشعر فوضعت قبل (عن) ، وكان حقها أن تكون بعدها ، ولو كان القائل في غير الشعر لما قال مثل هذا الكلام .

هذه هي الأقوال التي ذكرت في معاني (عن) وقال المراديُّ عنها :((إن هذه المعاني السابقة إنما أثبتها الكوفيون ، ومن وافقهم ، كالقتبي ، وابن مالك ، قال بعض النحويين : وهذا الذي ذهب الكوفيون إليه باطل ؛ إذ لو كانت لها معاني هذه الحروف لجاز أن تقع حيث تقع هذه

---

١ - ظ : رصف المباني : ٣٦٩-٣٧٠ .
٢ - ظ : مغني اللبيب : ١٩٨.
٣ - ظ : مغني اللبيب : ١٩٨ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ: ١٠\١٤٤.
٤ - ظ : المحتسب : ١\٢٨٠.
٥ - ظ : الكتاب :١\٣٨ .

الحروف ، فوجب أن يتأوَّل جميع ما ذكروه ، مما خالف معنى المجاوزة .)) [١] ، أقول إن معنى إبطال قول الكوفيين في معاني (عن) يكون صحيحا إذا أريد به أن (عن) لها معان متعددة منفصلة بعضها عن بعض ، أي حالها حال الاسم المشترك الموضوع لأكثر من معنى ، أما إذا حمل كلام الكوفيين على أن للحرف معاني هامشية مضافة إلى معناه المركزي ، يضفيها عليه السياق ، فعندها يكون كلامهم – كما أعتقد – صحيحا لا غبار عليه .

كانت إثارة تلك المعاني تكثر في تفسير الآيات القرآنية ، فالخطاب القرآني خطاب معجز، ومن وجوه إعجازه أنه متعدد الجوانب كلما نظر إليه المفسر من جهة أعطاه أبعادا جديدة ومعاني عميقة ، وكلما تعددت القراءات له تعددت المعاني المفهومة منه ، لذا كان الخطاب القرآني الأرض الخصبة لطرح الجديد من الآراء اللغوية ، ومن هنا أيضاً كانت كتب (معاني الحروف) تعتمد على النص القرآني في استشهادها على المعاني التي تُعْطَى هذا الحرف أو ذاك ، ولو كان الحال مقتصرا على دراسة النص الشعري لما تنوعت المعاني إلى هذا الحد ، ولما ابتدعت دلالات جديدة كان القرآن الكريم رائدها .

سابعاً : (فِي)

حرف من حروف الجر ، وضع لإفادة معنى الظرفية والوعاء ، وربما سماه بعضهم (التضمُّن)[٢] ، ولا يثبت البصريون له غير هذا المعنى[٣]، وحقيقة الظرفية هي الاستقرار والتمَكُّن ، فالظرف مُستقرٌ لما يحتويه ، ومتمكن منه ، والظرفية تكون حقيقيةً ، وعندها قد تكون زمانية أو مكانية وقد اجتمعتا في قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾(الروم : ٢-٤) ، أو مجازا ، كقوله ﷻ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (البقرة من الآية :١٧٩) ، وقوله ﷻ : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ (البقرة من الآية:٢٠٨)، وقد أثبت لها الكوفيون عددا آخر من المعاني ، وبهذا يكون مثلها مثل (عن) و(أو) ؛ إذ أختلف في عدد تلك المعاني المنسوبة إليها حتى أوصلها بعضهم إلى عشرة معان[٤]، واختلف أيضاً في تسمية المعنى الذي أدته في بعض مواضع استعمالها .

ويدلُّ هذا كما أشرت آنفا على أن القدر المشترك من المعنى هو الذي يدور في خلد العلماء والمفسرين ، وهو المعنى المركزي للحرف ، الموضوع له أصلا ، أما هذه الزيادات التي هي معان هامشية فتفهم بمساعدة القرائن والسياق العام للنص ، وهنالك من العلماء من صرَّح بأنها لا تفيد سوى معنى واحدٍ ، وأن بقية المعاني راجعة إلى ذلك المعنى الرئيس ، وأن هذا الاستعمال في المعاني الأخرى يكون على نحو الاتساع[٥] ، وبشيء من التأويل ترجع إلى المعنى الرئيس ، قال المالقيُّ عن (في) : إنها ((تجيء بمعنى حروف أخر، إذا حققت رجع معناها إليها .)) [٦] ، وقال المراديُّ :((مذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أن (في) لا

١ - الجنى الداني : ٢٦٤ .
٢ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة : ١٥٧ .
٣ - ظ : حروف المعاني : ١٢، معاني الحروف : ٩٦، المخصص:٥٤\١٤ ، المفصّل في صنعة الإعراب:٣٨١ ، البيان في شرح اللمع:١٤٩، المثل السائر:٢٤٠\٢، المقرب:٢٠١\١، شرح جمل الزجاجي:٥١\١، شرح الرضي على الكافية:٢٧٩\٤، رصف المباني:٣٨٨، الجنى الداني:٢٦٦، مغني اللبيب:٢٢٣، جواهر الأدب:١٣٠، شرح ألفية ابن مالك:١٤٣، الإتقان:١٦٦\١.
٤ - المصادر نفسها .
٥ - ظ : معاني الحروف : ٩٦ ، أسرار العربية : ٢٣٥، اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٥٨\١.
٦ - رصف المباني : ٣٨٨.

تكـون إلاّ ظرفيـة حقيقـة أو مجـازا ، ومـا أوهـم خـلاف ذلـك رُدَّ بالتأويـل إليـه.))[1] ، وفـي تصريحاتهم تأييد لما أطرحه من فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية للحرف ، إلاَّ أن القول بعودة المعنى إلى الظرفية عن طريق التأويل قد يفقد بعض النصوص حيويتها ، وقد يكون في التأويل تكلفٌ وتعسفٌ وهذا ما استشعره الإربليُّ[2] ، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافا علينا أن نقول : إن المعنـى الجديد الذي أفاده الحرف – في أمثال تلك النصوص – هو المعنى الأصلي الذي تلوَّن بفعل السياق فأصبحت له خصوصية معينة، وأضحت لمعناه الأصلي ظلال لطيفة، عندها يكون المعنى أكثر حيوية وملاءمة لواقع استعمال اللغة بوصفها طاقة إبداعية قابلة لتوصيل المعنى بأشكال مختلفة ومتنوعة بحسب قدرة مستعمل هذه اللغة وإمكانياته في توظيف عناصرها المرنة لتوصيل أكبر قدر من المعنى في أقل قدر من الألفاظ ، وهنا تكمن مزايا تفوق لغة ما على غيرها .

من المعاني التي قيل إن (في) تأتي بها **<u>معنى المصاحبة</u> أي معنى (مَعَ)**[3]، كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ . .** ﴾ (الأعراف من الآية : ٣٨) ، معناه : ((ادخلوا في النار مع أمم {قد خلت من قبلكم} وتقدّم زمانهم زمانكم .))[4]، وقال الرازيّ :((أما أما قوله تعالى : {ادخلوا في أمم} ففيه وجهان : الوجه الأول : التقدير: ادخلوا في النار مع أمم ، وعلى هذا القول ففي الآية إضمارٌ ومجازٌ، أما الإضمار فلأنا أضمرنا فيها قولنا: في النار. وأما المجاز، فلأنا حملنا كلمة «في» على «مع» لأنا قلنا معنى قوله : {في أمم} أي مع أمم. والوجه الثاني : أن لا يلتزم الإضمار ولا يلتزم المجاز، والتقدير: ادخلوا في أمم في النار، ومعنى الدخول في الأمم ، الدخول فيما بينهم .))[5] . ويبدو من خلال الإطلاع على تفاسير جمع من العلماء أن الأولى حمل الآية على معنى الظرفية لا على معنى المصاحبة[6] ؛ وذلك لأن المصاحبة تفيد المشاركة في وقت الدخول والاقتران في الدخول إلى النار في وقت واحد ، أي : كل تلك الأمم تدخل في وقت واحد ، في حين أنَّ الظاهر من الآية أن الأمم المتقدمة زمنيا هي السابقة في الدخول إلى النار والأمم الكافرة اللاحقة أو المتأخرة زمانيا تدخل بعد تلك الأمم المتقدمة ، وهذا ما يوافق العدل الإلهي ، ويدل عليه قوله تعالى في نهاية الآية :﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ** ﴾ فالتدارك يدل على أن الأمم اللاحقة قد دخلت النار بعد الأمم السابقة وهنالك مهلة ووقت قبل اجتماعهم فيها جميعا وحصول ذلك الحوار بينهم .

ثم إن إبقاء معنى (في) على الظرفية في هذه الآية أولى ؛ لأن الآية الكريمة تريد أن تلك الأمم التي خلت من قبلهم أصبحت هي نفسها ظرفا ووعاءً لهذه الأمم اللاحقة ، فالأمم المتقدمة بدخولها النار في زمن سابق للأمم اللاحقة أضحت جزءا من النار ، ومن ثم فهي جزءٌ من الوعاء الذي يحتوي الأمم اللاحقة ، وهذا المعنى يستعان على فهمه بقوله تعالى:﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾(البقرة من الآية :٢٤) ؛ إذ الآية تشير إلى أن الناس يصبحون بعد

---

١ - الجنى الداني : ٢٦٨.

٢ - ظ : جواهر الأدب : ١٣٢.

٣ - ظ : حروف المعاني : ٨٣، رصف المباني : ٣٩١، الجنى الداني : ٢٦٦ مغني اللبيب: ٢٢٣، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣\٣٨ ، جواهر الأدب : ١٣١.

٤ - الكشاف : ٢\٧٨ ، وينظر معه : التبيان : ٢٢٧\٩.

٥ - مفاتيح الغيب : ٢٣٧\١٤ .

٦ - ظ : معاني القرآن (النحاس):٣\٣٢، جامع البيان : ١٢٧\٨، جوامع الجامع : ١\٦٤٥، مفاتيح الغيب : ٢٣٧\١٤، التبيان في إعراب القرآن : ٢\٣٣٥، الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٤\٧ ، البحر المحيط : ٥\٤٠-٤٦ ، التضمين بين حروف الجر في القرآن الكريم : ١٢٩.

دخولهم النار جزءا منها إذ هم وقودها الذي يشتعل ، وهذا الفهم للآية أراه واضحا وجليا ، وإن لم أر من إشارة إليه في ما اطلعت عليه من تفاسير، وعليه يكون إبقاء الحرف (في) على دلالته المركزية أولى لأنه سيوصل قدرا أكبر من المعنى مما لو حملناه على معنى المصاحبة .

ومن المواضع التي حمل معنى (في) فيها على معنى المصاحبة قوله تعالى :﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾(القصص : ٧٩) ، قال القرطبيُّ :((«فِي زِينَتِهِ» أي مع زينته.)) [١] ، وقد راجعت في هذه الآية الكريمة كل ما وقع تحت يدي من أمات التفاسير فلم أجد من يشير إلى هذا المعنى غير القرطبيّ ، ويخرجها ابن جني بحذف متعلق الظرف وبقاء (في) على معناها الأصلي ، إذ ليس لها معنى غير الظرفية عند البصريين [٢]، والأنسب في معنى الآية أن يحمل معنى (في) فيها على المعنى العام وهو الظرفية ، إذ الآية الكريمة تريد تصوير قارون وقد خرج على قومه وزينته كلها ظرف له لينبهر به وبملكه هذا كل من يراه ممن يريدون ثواب الدنيا ، فهؤلاء يشعرون بعظمته لعظم أمواله وزينته[٣] ، وأعتقد أنَّ الآية الكريمة كانت تريد الإلحاح على هذا المعنى في ذهن المتلقي .

وربما فهم بعضهم معنى المصاحبة من قول امرئ القيس[٤]:

(الطويل)

أَلا عِـم صَـباحاً أَيُّهـا الطَّلَـلُ البـالي   وَهَـل يَعِمَـن مَـن كانَ فِي العُصُـرِ الخـالي

وَهَـل يَعِمَـن مَـن كـانَ أَحـدَثُ عَهـدِهِ   ثَلاثـينَ شَـهراً فِي ثَلاثَـةِ أَحـوالِ

قالوا معناه ثلاثين شهرا مع ثلاثة أحوال ، في حين كان البطليوسيّ(ت٥٢١هـ) وكثير من العلماء يرون أن **معنى (في) هنا معنى (من)**[٥] ، أقول : إن حمل معنى (في) في هذا البيت على معنى (مع) حملٌ على معنى بعيد ، قد يكون غير مستساغ إذ المعنى سيكون : إن أحدث عهده بتلك الديار خمس سنين ونصف ، وهو مجموع ثلاثة أحوال مع ثلاثين شهرا ، وفي هذا الكلام لبسٌ لا يلجأ إليه البليغ في نظمه ، فأراه مستبعدا ، أما حمله على معنى (من) فممكن أن يكون ذلك معنى هامشيا مضافا إلى المعنى المركزي وهو الظرفية فالأحوال الثلاثة متضمنة للأشهر الثلاثين وهي وعاءٌ لها ، ومن ثم فالثلاثون جزءا منها ، وهكذا يتبين المعنى المركزي والمعنى السياقي بوضوح لا لبس فيه ، بل فيه تعبير عن المعنى في أقل قدر من الألفاظ وهذا سبيل الكلام البليغ .

إن الشواهد المتقدمة التي حاول بها العلماء أن يثبتوا معنى المصاحبة لـ(في) قليلة الدقة ولا تحتمل هذا المعنى ، وأفضل منها شاهدٌ ذكره المالقيّ ، وهو قول الشاعر[٦]:

(الطويل)

أَوْ طَعـمُ غَادِيَـةٍ فِي جَـوْفِ ذِي حَـدَبٍ   مِـن سَـاكِنِ الْمُـزْنِ يَجْـرِي فِي الغَرَانِيـقِ

أي: مع الغَرَانِيق، وهي طيرُ الماء ، ورجع المالقيُّ المعنى هنا أيضاً إلى معنى الظرف والوعاء المجازي :((لأن الماء وإن كان جاريا مع الغرانيق فهو في جملتها في الجري ، وكلما

١ - الجامع لأحكام القرآن : ٣١٦\١٣ ، وينظر معه مغني اللبيب : ٢٢٣.
٢ - الخصائص : ٣١٤\٢- ٣١٥.
٣ - ظ : مفاتيح الغيب : ١٦\٢٥.
٤ - ظ :معاني الحروف : ٩٦ ، والبيت في ديوان امرئ القيس : ٢٧.
٥ - ظ :حروف المعاني:٨٣، شرح الأشعار الستة الجاهلية:١١٧\١،ارتشاف الضرب:٤٤٦\٢،الجنى الداني:٢٦٧،مغني اللبيب:٢٢٥.

٦ - رصف المباني : ٣٩١، والبيت ينسب لخراشة بن عمرو العبسي ، وينظر معه : المخصص :١٤\ ٦٨.

يرد عليك من وضعها[يعني (في)] مكان غيرها فإلى معناها يرجع .))[١] . إن معنى المصاحبة في الجري بين الماء وطيور الغرانيق ملحوظ هنا ، وإن كان الماء وعاءً لجري الغرانيق ، فالحرف (في) حُمِّل في هذا السياق معنى إضافيا إلى الظرفية التي هي معناه المركزي هذه الإضافة هي كون الوعاء (الماء) وما يحتويه كلاهما في حالة جريان ، إن تكريس[٢] المعنى بهذا الشكل شأن المستوى البليغ من كلام الشعراء والخطباء ، ولو كان للحرف معنى جامد لما تمكن الشاعر من توظيفه لنقل قدر مضاف من المعنى إلى معناه الأصلي بسهولة ويسر.

ومن المعاني الشهيرة التي قيل إن (في) تأتي لها **معنى التعليل والسببية**[٣] ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾(يوسف من الآية :٣٢) ، وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(النور:١٤)، ومنه ما يروى عن النبي9: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ، ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض .)) [٤] [٤] ، قال النووي في شرحه :((معناه عُذِّبَت بسبب هرةٍ ومعنى دخلت فيها أي بسببها .))[٥]، إن إن معنى التعليل والسببية مستفاد من السياق في الحديث وفي الآيتين الكريمتين ، والعلّة زيادة على المعنى المركزي لهذا الحرف أوجدها السياق من باب المجاز إذ ((السبب يتضمن الحكم ، والحكم يلازمه فصار للحكم كالظرف الحافظ لما فيه .))[٦] .

ومن المعاني التي ذكرتها المصادر على أنها من معاني (في) **معنى (على) وهو الاستعلاء**[٧] ، وأشهر ما مثلوا به لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾(طه من الآية:٧١) ، يرى الطبري – وفريق معه – أن معناه ((لأصلبنكم على جذوع النخل ، كما قال الشاعر[وهو سويد اليشكريّ (ت٦٠هـ) [٨]]:

(الطويل)

وَهُم صَلَبوا العَبديَّ في جَذعِ نَخلَةٍ فَلا عَطَسَت شَيبانُ إلّا بأَجدَعا

يعني على جذع نخلة ، وإنما قيل : في جذوع ، لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها ، ثم يصير عليها ، فيقال: صلب عليها .))[٩] ، وهذا هو معنى التناوب بين حروف الجر، الذي قال به الكوفيون ، كما أشرت في ما تقدم .

في حين كان النحاس يرى هذا الكلام غير دقيق إذ يقول :((وقد قال هذا [أي التناوب بين حروف الجر] بعض أهل اللغة ، وذهبوا إلى أن حروف الخفض يُبدَل بعضها من بعض

---

١ - رصف المباني : ٣٩١ .
٢ - التكريس : ضمُّ الشيء بعضه إلى بعض ، ينظر : لسان العرب : مادة (كرس) : ١٩٤\٦ .
٣ - ظ : شرح الرضي على الكافية : ٢٧٩\٤، الجنى الداني : ٢٦٦ ، مغني اللبيب : ٢٢٤ ، أوضح المسالك : ٣٨\٣، شرح ابن عقيل: ٢١\٢ ، البرهان : ٣٠٢\٤ ، الإتقان :١٦٦\١ ، التراكيب اللغوية في العربية: ٦٧.
٤ - مسند أحمد ٢٦١\٢ ، وينظر معه : صحيح البخاري :٧٧\٣، ١٠٠\٤ ، وسائل الشيعة : ٥٤٤\١١، ١٤\٢٩، ٢٦١ .
٥ - صحيح مسلم بشرح النووي : ٢٤٠\١٤ .
٦ - اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٥٨\١ .
٧ - ظ : حروف المعاني : ١٢، معاني الحروف : ٩٦ ، الصاحبي في فقه اللغة :١٥٨، شرح الرضي على الكافية : ٢٧٩\٤، رصف المباني:٣٨٨-٣٨٩، الجنى الداني:٢٦٦، مغني اللبيب:٢٢٤، اللباب في علل البناء والإعراب:٣٥٨\١، الإتقان:١٦٦\١ .
٨ - ديوان سويد بن كاهل اليشكري: ٤٥، وينظر معه : الخصائص : ٣١٣\٢، الصاحبي في فقه اللغة :١٥٨، المخصص: ٦٤\١٤، الأمالي الشجريَّة : ٢٦٧\٢ .
٩ - جامع البيان : ١٤٠\١٦ ، وينظر معه : التبيان : ١٩٠\٧، مجمع البيان : ٣٨\٧ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٤\١١ ، التضمين بين حروف الجر في القرآن الكريم :١٢٨.

واحتجوا بقوله تعالى :﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ قالوا معنى (في) معنى (على) وهذا القول عند أهل النظر لا يصح ؛ لأن لكل حرف معناه ، وإنما يتفق الحرفان لتقارب المعنى فقوله تعالى {ولا صلبنكم في جذوع النخل} كان الجذع مشتملا على من صلب ، ولهذا دخلت (في) ؛ لأنه قد صار بمنزلة الظرف .)) [1]، ويتفق معه الزمخشريُّ إذ يقول:((شبه تمكن المصلوب في في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل:{في جذوع النخل} .))[2]، وكذا العكبريُّ رأى أن (((في) هنا على بابها لأن الجذع مكان للمصلوب ومحتو عليه.)) [3]، وقد عدَّ الرازي القول إن (في) بمعنى (على) في هذه الآية الكريمة من المشهور لكنه ضعيفٌ [4]. وتقارب المعنى الذي أشار إليه النحاس في نصه المتقدم هو مرادهم من نظرية التضمين التي يقول بها البصريون قبالة نظرية تناوب الحروف الكوفية ، وهذا ما صرَّح به ابن يعيش قائلا :((وأما قوله تعالى :{ولأصلبنكم في جذوع النخل } فليست في معنى (على) على ما يظنه من لا تحقيق عنده ، ولما كان الصلب بمعنى الاستقرار والتمكُّن عُدِّيَ بـ(في) كما يُعَدَّى الاستقرار ، فكما يقال تمكن في الشجرة ، كذلك ما هو في معناه .)) [5] .

إن ما أشار إليه البصريون من بقاء (في) على معناها الأصلي الذي هو الظرفية صحيح ، وهذا هو معنى الحرف المركزي الذي يبقى محافظا على قدر معين منه في استعمالاته كلها ، ولكن السياق هنا حمَّل هذا الحرف قدرا إضافيا من المعنى استشعره كل من الكوفيين والبصريين ، هو معنى استعلاء جثة المصلوب فوق الخشبة التي يصلب عليها ، وارتكاز هذه الصورة في الذهن هي التي أتت بمعنى الاستعلاء في هذا النص وأمثاله ، ولكن النص في الآية الكريمة لم يكن يريد معنى الاستعلاء فقط ، ولو كانت الآية تريد ذلك فقط لأتت بـ(على) ، لكن معنى الظرفية والتَمكُّن واستقرار جثة المصلوب ملحوظٌ ومقصودٌ أيضاً ، لذا جاء النص الكريم بـ(في) دالة على معناها المركزي ، وحملها السياق معنى مضافا هو الاستعلاء ، فتمكن الاستعمال البلاغي للمفردة في هذا النص من توظيفها توظيفا بلاغيا لإيصال قدر أكبر من المعنى .

إنَّ تغليب النصوص البلاغية للمعنى الهامشي لحرف ما عملٌ مقصودٌ يعند إليه منشئ النص ، فهو سمة بلاغية لا يجوز لغير النصوص البليغة أن تبدعه ، فليس للمتكلم في مجالات الكلام اليومية المعتادة أن يخرج عن المعهود من السياقات الكلامية للغة الكلام اليومي ، وليس للمتكلم باللغة القياسية أن يفعل ذلك أيضاً ، فالخروج على المألوف لا يسمح به إلاَّ في مستوى النصوص البليغة ، ولقد أبدع النص القرآني كثيرا من السياقات التي جعلت الحرف يوصل لنا معنى خاصا فضلا عن معناه المركزي .

ومما حمل على معنى الاستعلاء من استعمالات أصحاب المعلقات لـ(في) قول عنترة[6]:

(الكامل)

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيابَهُ في سَرحَةٍ   يُحذى نِعالَ السِبتِ لَيسَ بِتَوأَمِ

يصف عنترة بطلا كان قد أجهز عليه وقتله بأنه طويل حتى كأن ثيابه ليست على بدن إنسان بل هي تستر شجرة عظيمة طويلة . إن معنى الاستقرار ملحوظ هنا أيضاً كما في الآية المتقدمة ((لأنه قد علم أن الشجرة لا تنشق وتستودع الثياب ، وإنما المراد استقرارها في

---

١ - معاني القران : ١\٤٠٥.
٢ - الكشاف : ٢\٥٤٥ ، وينظر معه : جوامع الجامع : ٢\٤٩٢.
٣ - التبيان في إعراب القران : ٢\١٢٤.
٤ - مفاتيح الغيب : ٢٢\٧٥.
٥ - شرح المفصل : ٨\٢٠ ، وينظر معه : شرح الرضي على الكافية : ٤\٢٧٩ ، البحر المحيط : ٧\٣٥٥ .
٦ - ديوان عنترة (مولوي) :٢١٢ ، وينظر معه : مغني اللبيب : ٢٢٤ ، خُزَانَةُ الأَدَب:٩\٤٨٥ .

سرحة ، فهو من قبيل الفعلين أحدهما في معنى الآخر.)) [١] فهي على هذا الفهم الذي يقول به البصريون تكون على بابها ، لأن ثيابه إذا كانت عليها ، أضحت (السرحة) موضعاً لها[٢]. الظرفية التي هي المعنى المركزي لـ(في) جاءت بمعنى الاستقرار ، ومعنى الاستعلاء تأتّى من السياق ، وبهذا نحفظ للحرف معناه الذي وضع له أصلا ، ونحفظ للشاعر إبداعه الأدبي في نصه الذي تمكن فيه من تحميل المفردات معاني هامشية بحسب مقدرته .

ومن المعاني التي نسبت إلى هذا الحرف **مرادفته لـ(إلى)** [٣]، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾(إبراهيم من الآية :٩) ، قال المالقيُّ :((أي : إلى أفواههم ؛ لأن (ردَّ) يتعدى بـ(إلى) ، كقوله تعالى :{إنا رادوه إليك} ، لكن إذا تحققت هذا فالمعنى :أنهم ردُّوا أيديهم إلى أفواههم فقد أدخلوها فيها .)) [٤]، يبدو من كلام المالقي إن الذي حمل بعض النحاة على القول بأن معنى (في) في هذه الآية معنى (إلى) هو ما لاحظوه من كثرة تعدي الفعل (ردَّ) بـ(إلى) ، ومعنى (إلى) هو انتهاء الغاية ، فإذا أردنا أن نطبق هذا المعنى في هذا النص سيكون الكافرون ردوا أيديهم إلى أن انتهوا بها إلى أفواههم ، فالأفواه مكان انتهت الأيدي إليه ، لكن هذا المعنى ليس هو المراد من هذا النص ، وإذا أخذناه بهذه السهولة سوف نفقده الكثير من قيمته الجمالية والبلاغية .

لقد نقلت كتب التفاسير المختلفة أكثر من سبعة أوجه في تأويل هذه الآية الكريمة ، وأعتقد أنَّ أولاها بالقبول قولهم ((إن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم ، ونظيره قوله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾(آل عمران: من الآية ١١٩) وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى ، وهو اختيار القاضي .)) [٥]، وقد رأى النحاس أن هذا القول أولاها وأجلها إسنادا ثم استدل على صحته بآية سورة آل عمران ، وبقول الشاعر[٦]:

(الرجــز)

لــو أن ســلمى أبصــرت تخــددي	ودقــةً في عظــم ســاقي ويــدي
وبعــد أهلــي وجفــاء عــودي	عضــت مــن الوجــد بــأطراف اليــد

إن الحزين والمغيظ والنادم والمتأسف يَعضُّ أطرافَ أصابعه جزعاً ، والكافرون كانوا قد تغيظوا من سماع نصح الأنبياء وتبرموا من دعوة المصلحين إياهم إلى طريق الرشاد ، ويبدو أنهم بلغوا غاية الضجر والبرم والحنق على أولئك المرسلين ، فلم يكفهم أن يَعضُّوا أناملهم كما هي عادة الضَّجِر والمُغاظ ، بل جعلوا أيديهم كلها في أفواههم فكانت أفواههم ظرفا ومستقرا لأيديهم التي عضوا عليها بنواجذهم لما هم فيه ، وفيه أيضاً تلميح لوَلَهِ الكافرين وحَيرَتهم ، فلم يفطنوا إلى أنهم يَعضُّون أيديهم كلها لا أناملهم ، إن حمل (في) في هذه الآية على معنى (إلى) قد يكون فيه تقليل من بلاغة الصورة الفنية التي ترسمها الآية الكريمة لحال الكافرين وشدة غضبهم

١ - شرح المفصل:٢١\٨، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٣٥٢، شرح المعلقات السبع :٢٨١، شرح القصائد التسع المشهورات:٥١٩\٢ .
٢ - ظ : الخصائص : ٣١١\٢، شرح الرضي على الكافية : ٢٧٩\٤ ، خُزَانَةُ الأَدَب :٤٨٥\٩ النحو في شروح المعلقات :٤٨.
٣ - شرح الرضي على الكافية : ٢٧٩\٤ ، مغني اللبيب: ٢٢٥.
٤ - رصف المباني : ٣٨٨.
٥ - مفاتيح الغيب :٦٧\١٩، وينظر معه جامع البيان :١٢٥\١٣، التبيان :٢٧٨\٦، الكشاف :٣٦٨\٢، مجمع البيان :٦٢\٦-٦٣، زاد المسير :٢٥٦\٤-٢٥٧،التبيان في إعراب القرآن :٦٦\٢، الجامع لأحكام القرآن :٣٤٥\٩، تفسير ابن كثير:٥٤٤\٢ .
٦ - معاني القران :٥١٩\٣ ، والبيت مجهول القائل .

وعنادهم عن الحق لما جاءهم ودعاهم الأنبياء إليه ، ولقد صرَّح العكبريُّ ببقاء(في) على بابها دالة على الظرفية في هذه الآية[١]. وتأسيسا على هذا يمكن القول إن الفعل (ردَّ) يتعدى في لغة القرآن الكريم بـ(إلى) وبـ(في) ولكل موضع معناه المناسب ، ولا يحق لمتتبع أن يبخس النص دلالته الفنية لتصحيح قاعدة نحوية ، أو لفرض اطرادها من دون استقصاء الاستعمالات كلها .

هذه هي أبرز المعاني التي ذكرتها المصادر لـ(في) وهنالك معان أخر أعرض عنها خشية الإطالة ، قائلا : إن المعنى المركزي لهذا الحرف هو الظرفية بما تدل عليه من استقرار الشيء فيها وكونها مستودعا له ، ويمكن هذا الحرف أن يُحمَّلَ بعض الدلالات السياقية زيادة على معناه الأصلي ، وذلك تبعا لمقدرة منشئ النص على ذلك ، ومقدار امتلاكه لناصية اللغة .

إن المعنى الهامشي الذي يؤديه الحرف ليس هو معنى آخر منفصل للحرف نفسه ، بل هو قدر مضاف من المعنى إلى المعنى الأصلي للحرف ، فعندما أحمل (في) على معنى (من) أو معنى (مع) ، فإني لا أقصد أن أسلب معنى الظرفية من (في) ، وأمنحها معنى جديدا هو معنى (من) نفسه ، فمعنى (من) المركزي لا يساوي معنى (في) الهامشي عندما تحمل معنى (من) . وقيام الحرف بمعنيين مختلفين هو الفهم الذي يتبادر إلى الذهن عندما يقول العلماء إنَّ (في) تكون بمعنى (من) أو بمعنى (مع) أو غيرهما من الحروف ، وفي كلامهم هذا جمود للمعنى عندما نحاول أن نضع حرفا مكان آخر بمعنى المساواة الحقيقية ، وهذا فيما أرى مأخذ كبير على نظرية التناوب يقود إلى تقيد المعنى وتجميده ، ولا تسلم منه نظرية التضمين أيضاً ، أما في فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية فإننا نتخلص من هذا المأخذ بصورة أمينة تخدم النص وتطوره ، إذ المعنى المركزي يبقى ملحوظا ، هنا مع المعنى الهامشي بقدر تختلف قوَّته بحسب حاجة منشئ النص إلى إبرازه أو إخفائه ، لكنه يبقى ملحوظا ، وعندها فلا يتساوى هذا المعنى الهامشي مع المعنى المركزي لحرف آخر، فمعنى (الاستعلاء) الهامشي الذي أدته (في) في تلك الآية المتقدمة لا يجعلها مساوية للمعنى نفسه لو استبدل بها(على) في ذلك النص ، وكذلك معنى (من) الهامشي الذي أدته في البيت الشعري لا يجعل معنى النص هو نفسه إذا ما استبدلنا (من) بـ(في) في ذلك النص ، إذ المعنى المركزي وهو الظرفية ملحوظ مع المعنى الهامشي في كلا النصيين ، ولو افترضنا جدلا أننا نبدل (في) بالحرفين الآخرين في هذين النصيين فإنا لا نحصل على المعنى المفهوم من النصين الآن .

وهكذا تمكننا فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية من أن نجيب عن سؤال كبير أرى أنه كان يقف عقبة أمام نظرية التناوب ذلك هو ما الفائدة من تناوب الحروف؟ وما الذي يدفع منشئ النص إليه ؟ ولم أستطع رصد جواب واضح ومقنع لهذا السؤال عند القائلين بالتناوب ، ولم يتمكن القائلون بالتضمين أيضا من أن يجيبوا عن هذا السؤال بدقة ، لكن فرضية المعنى المركزي تستطيع أن تضع جوابا دقيقا لاستعمال المتكلم لكل حرف ، وإن كان يريد به معنى خاصا فهو لا يبتعد به عن معناه المركزي ولا يغادره البتة ، وإن كان يستطيع أن يبتعد عنه إلى حدٍّ ما لكنه يبقى يلحظه بقدر معين . أي : إن المعنى الهامشي لا يساوي أيَّ معنى مركزي لأي حرف آخر ، بل لا يساوي أي معنى هامشي للحروف الأخرى . فله خصوصية منحها السياق إياه .

١ - التبيان في إعراب القرآن :٢\٦٦ .

ثامنا : (قد)

اختص هذا الحرف بالفعل المتصرف الخبري المثبت المجرد من الناصب والجازم وحرف التنفيس ، وهو معه كالجزء فلا ينفصل عنه بشيء ، أما معناه فجملة ما تناقله النحويون خمسة معان هي : (التَّوَقُّع والتقريب والتقليل والتكثير والتحقيق) ، لكنهم اختلفوا في تشخيص المعنى الرئيس لهذا الحرف فمنهم من قال التَّوَقُّع[١] ، ومنهم من قال التحقيق[٢] ، ومنهم من قال التقريب[٣] ، ومن خلال متابعتي المتأنية لما قيل في هذا الحرف وجدت كلام المالقيّ أدقَّ من غيره في تشخيص المعنى المركزي لهذا الحرف إذ يقول :(((قدْ) حرفُ إخبارٍ إلاَّ أنها أبدا تلزمُ الفعلَ ماضيا أو مضارعا ، فتكون مع الماضي حرفَ تحقيقٍ ،...، ومنه قوله تعالى :﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾(المجادلة من الآية:١) ، و﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب من الآية : ٢١) ، وتكون مع المضارع حرفَ تَوَقُّعٍ تارةً وهو الكثير فيها ،...، وتكون للتحقيق معه وهو قليلٌ ، كقول الشاعر [وهو امرؤ القيس[٤]]:

(الطويل)

وَقَـــد أَغتَـــدي وَالطَّـــيرُ في وُكُناتِهـــا بِمُنجَـــردٍ قَيـــدِ الأَوابِـــدِ هَيكَـــلِ

وقد تكون تقليلا وهو أيضاً قليلٌ ، كقول الشاعر [٥]:

(البسيط)

قَـــد أَتـــرُكُ القِـــرنَ مُصـــفَرّاً أَنامِلُـــهُ كَـــأَنَّ أَثوابَـــهُ مُجَّـــت بِفرصـــادِ

والإخبار في جميع ذلك لا يخالفها ، فهو الخاص بها الذي تبقى به .)) [٦] ، وبعبارة أخرى هو معناها المركزي . فهذا الحرف وضع للإخبار ، ومن ثم فهنالك معان هامشية يضفيها عليه السياق ، فإن ورد مع الماضي أفاد التحقيق ، وإن ورد مع المضارع فكثيرا ما يكون للتوقع ، وقد يكون للتحقيق ، وهنالك معنى آخر قد يشير إليه هذا الحرف هو التقليل .

إن **معنى التحقيق** ، قد يكون من أشهر المعاني التي نسبت لـ(قد) ، وكلام المالقيّ الذي نقلته عنه آنفا يبيِّن أن (قد) حرف إخبار يأتي مع الماضي والمضارع ، وله معنى هامشي فتكون مع الماضي حرفَ تحقيقٍ ، وتفيد مع المضارع التَوَقُّع تارةً والتحقيق تارة أخرى ، ووافقه على هذا أغلب النحاة فيما اطلعت عليه[٧] ، وإذا كان ابنُ هشام يخالف في صحة إثبات التوقع لـ(قد) ، فإن معنى التحقيق لم ينفه أحد من العلماء عن هذا الحرف قال الأستراباذي :((هذا الحرف إذا دخل على الماضي أو المضارع فلا بد فيه من معنى التحقيق ، ثم إنه ينضاف في بعض المواضع إلى هذا المعنى ، في الماضي : التقريب من الحال مع التوقع ، ...، ففيه إذن ، ثلاثة معان مجتمعة : التحقيق ، والتوقع والتقريب ، وقد يكون مع التحقيق : التقريب فقط ، وتدخل أيضاً على المضارع المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، فينضاف إلى التحقيق

---

١ - ظ : معاني الحروف : ٦٨، إعراب ثلاثين سورة من القرآن (لابن خالويه) : ٦١، ٨٨ ، ١٠٢، شرح الرضي على الكافية : ٤٤٤\٤، الجنى الداني : ٢٦٩، ٢٧٣ .

٢ - ظ : شرح الرضي على الكافية : ٤٤٤\٤.

٣ - ظ : شرح المفصل : ١٤٧\٨.

٤ - ظ : ديوان امرئ القيس:١٩، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٨٢، شرح المعلقات السبع:١١٢، خُزَانَةُ الأَدَبِ:١٥٦\٣.

٥ - البيت لعبيد بن الأبرص(ت٢٥ق.هـ) ظ : ديوان عبيد بن الأبرص :٧١ ،١٤٩، وينظر معه : الكتاب:٢٢٤\٤، ونسب فيه إلى أحد الهذليين وليس في ديوانهم ، شرح المفصل : ١٤٧\٨، المخصص : ٥٥\١٤.

٦ - رصف المباني : ٣٩٢-٣٩٣.

٧ - ظ :حروف المعاني:١٣، رصف المباني:٣٩٢، الجنى الداني:٢٧٣، مغني اللبيب:٢٣١، البرهان:٣٠٥\٤-٣٠٩، الإتقان:١٦٧\١.

في الأغلب : التقليل ، نحو : (إنَّ الكذوب قد يصدق) ، أيْ ، بالحقيقة يصدر منه الصدق ، وإن كان قليلا ، وقد تستعمل للتحقيق مجردا من معنى التقليل ، نحو: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(البقرة من الآية :١٤٤) ، وتستعمل أيضا للتكثير في موضع التَمدُّح .)) [١]، كلام الرضي كأنه يجعل من التحقيق المعنى الرئيس لـ(قد)، لكني لا أميل إلى ذلك كثيرا ، فقد يتخلى هذا المعنى عن (قد) في بعض مواضعها التي تدخل فيها على الماضي أو المضارع ، ومعنى تخليها عن المعنى في بعض المواضع أنه ليس معنى مركزيا للكلمة .

ذكرت بعض المصادر أن (قد) مع الماضي تكون حرف تحقيق ومع المضارع تأتي كذلك وتأتي لغير ذلك ، لكن لم أر مصدرا يشر إلى مقدار استعمال هذا الحرف داخلا على الماضي ومقدار استعماله داخلا على المضارع ، وبعد الإحصاءات تبيَّن أن الحرف غالبا ما كان يستعمل مع الفعل الماضي ودخوله على المضارع كان قليلا جدا أو نادرا ، فقد بلغت نسبة دخول (قد) على الماضي في استعمالات أصحاب المعلقات (٩٢%) من مجموع استعمالاتهم[٢] ، ولقد ازدادت النسبة في الاستعمال القرآني لـ(قد) لتصل إلى (٩٨%) من مجموع الاستعمال العام لهذا الحرف في القرآن الكريم فمن أصل (٤٠٦) أربعمئة وستة استعمالات قرآنية لـ(قد) كانت في ثمانية منها فقط داخلة على المضارع والبقية كلها كانت تدخل على الفعل الماضي ، وأرى أن هذه الكثرة في استعمال الحرف مع الماضي ركَّز معنى التحقيق فيه ، وجعله ملازما لمعنى الإخبار الذي أعتقد أنَّه معناه المركزي ، ومما يساعد على تركيز هذا المعنى أن هذا الحرف كان كثيرا ما تدخل عليه (لام القسم) ليصبح (لقد) ، وكانت نسبة دخولها عليه (٤٥%) من مجموع استعمالاته القرآنية ، أي قرابة نصف استعمالاته كانت تصحبه فيها هذه اللام . والقسم يراد به توكيد مضمون الجملة أي تحقيق وقوعها ، وأعتقد أنَّ هذا كان له أثر كبير في ترسيخ معنى التوكيد في هذا الحرف نتيجة لكثرة استعمال الحرف في سياق القسم ، وبقي هذا المعنى الهامشي يدور مع (قد) في كثير من استعمالاتها . من هنا أستطيع أن أقول : (قد) حرف معناه المركزي الإخبار ، وغالبا ما يكون المخبر عنه محققا أو في حكم المحقق ؛ لذا كان التحقيق أشهر معانيه الهامشية ، وقد تنضم إلى هذا الحرف معان هامشية أخرى مثل أن يكون المخبر عنه متوقعا أو يكون قليل الوقوع أو كثير الوقوع .

وقد يتزاحم المعنيان الهامشي والمركزي في الجملة الواحدة، ففي قول عمرو بن كلثوم[٣]:
كلثوم[٣]:

(الوافر)

وَرِثنا المَجدَ قَد عَلِمَت مَعَدٌّ ... نُطاعِنُ دونَهُ حَتّى يَبينا

قد يصعب على الباحث تحديد مقدار سيادة أيٍّ من المعنيين – المركزي والهامشي - على الآخر ، فالمعنى الذي يصل إلى المتلقي هو خليط من الإخبار والتحقيق ، وقد يكون التحقيق أبرز . ومن أمثلته أيضاً قول زهير [٤]:

(البسيط)

---

١ - شرح الرضي على الكافية : ٤\٤٤٤- ٤٤٥ .
٢ - يمكن مراجعة نسب استعمالا الحرف مفصلا في الفصل الثالث : ١٩٢- ١٩٣.
٣ - نشر المستشرق كرنكو شعر عمرو بن كلثوم في مجلة المشرق العدد السابع سنة ١٩٢٢م ، ولم تعد هذه الطبعة متوافرة بين أيدي الباحثين اليوم ، وقد قام مؤخرا أحد الباحثين بإعادة تحقيق ونشر شعر عمرو في مجلة جامعيَّة محكَّمة بعنوان (عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره) وسأعتمد على هذا البحث في تخريج أشعار الشاعر، علما أنَّ عدد أبياته موافق لما موجود في الموسوعة الشعرية الإلكترونية ، ينظر عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١٣٧، شرح المعلقات السبع : ١٢٥.
٤ - شرح ديوان زهير : ٢٨١.

أَقــولُ لِلقَــومِ وَالأَنفــاسُ قَــد بَلَغَــتْ   دونَ اللَّهَــا غَــيرَ أَن لَــم يَــنْقُصِ العَــدَدُ

معنى التَّوَقُّع الذي أشار إليه المالقيُّ إشارة سريعة ركَّز عليه الآخرون ، إذ عدَّه الرماني هو المعنى الرئيس لهذا الحرف ، وقد جعل الرضي قسما قائما من أصناف الحروف (حروف التَّوَقُّع) وفي هذا الصنف حرف واحد هو (قد)[١] ، وكذا جعل المراديُّ وابن هشام هذا المعنى في مقدمة المعاني التي تؤديها (قد)[٢] ، وكأنهم يشيرون إلى أنه المعنى الرئيس لها أو ليس أقل من إنه المعنى صاحب المرتبة الأولى .

الدلالة على التَّوَقُّع مع المضارع واضحة في نحو قولهم :(قد يقدم الغائب اليوم) وهذا يعني أن القدوم منتظرٌ متوقعٌ ، وأخبر القائل بهذا التَّوَقُّع ، وأما التَّوَقُّع مع الماضي فأثبته الكثيرون ونسب للخليل أنه يقال (قد فَعَل) لقوم ينتظرون الخبر ، ومنه قول المؤذن :(قد قامت الصلاة) ؛ لأن الجماعة منتظرون لذلك [٣]. وأنكر بعضهم التَّوَقُّع مع الماضي ؛ لأن التَّوَقُّع انتظار الوقوع ، والماضي قد وقع ، ورد عليه بأنه كان مُتوقَّعا منتظرا ، نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾(المجادلة من الآية:١) ؛ لأنها كانت تتوقع إجابة الله تعالى دعاءها . قال الزمخشريُّ عن (قد) في هذه الآية :((معناه التَّوَقُّع ؛ لأن رسول الله9 والمُجَادِلةُ كانا يتوقعان أن يسمع الله مُجَادَلَتها وشكواها ويُنزِلَ في ذلك ما يفرّج عنها .)) [٤] ، وإذا دققنا النظر في حقيقة التَّوَقُّع نجده معنى ثانويا مستفادا من السياق ، فإرادة الإخبار لا تزال قائمة في هذا الحرف ، فعندما يقول المؤذن :(قد قامت الصلاة) ، يريد إخبار المتلقين بأن وقتها قد حان ، أما المتلقون فقسم منهم كان يتوقع ويترقب حلول الوقت ، فَجَاءَهُ الخبرُ بأنه قد حلَّ الوقت ، وقسم آخر ربَّما كان مشغولا غيرَ ملتفتٍ إلى قربِ حلولِ وقت الصلاة ، فيأتيه الإخبار بأن الوقت قد حان ، وعليك المبادرة لأداء الصلاة ، فالمعنى الذي يريده منشئ النص ليس إبراز معنى التَّوَقُّع بل يريد الإخبار بحلول الوقت .

وكذلك الآية الشريفة تريد ألإخبار بأن الله تعالى معكم يسمع إِخْبَارَ المرأة النبي9 عن حالها ، ومما يؤيد ما أراه من إن معنى التَّوَقُّع معنى هامشيٌ أن ابن هشام يرى أنها لا تفيد التَّوَقُّع أصلا إذ يقول :((والذي يظهر لي قول ثالث ، وهو أنها لا تفيد التَّوَقُّع أصلا ، أما في المضارع فلأن قولك (يَقدِمُ الغائبُ) يُفيدُ التَّوَقُّع بدون (قد) ، إذ الظاهر من حال المُخْبِر عن مستقبلٍ أنَّه متوقعٌ لَه ، وأما في الماضي فلأنه لو صحَّ إثباتُ التَّوَقُّع لها بمعنى أنها تدخل على ما هو متوقع لصحَّ أن يقال في (لا رجُلَ) بالفتح إن (لا) للاستفهام ؛ لأنها لا تدخل إلا جوابا لمن قال : (هل من رجل) ، ونحوه فالذي بعد (لا) مستفهم عنه من جهة شخص آخر ، كما أن الماضي بعد قد متوقع كذلك ، وعبارة ابن مالك في ذلك حَسَنَةٌ ، فإنه قال : إنها تدخل على ماضٍ متوقعٍ ، ولم يقل إنها تفيد التَّوَقُّع ، ولم يتعرض للتوقع في الداخلة على المضارع البتة ، وهذا هو الحَق .))[٥]. اعتراض ابن هشام فيه وَجَاهَةٌ ، وأرى كلام ابن مالك الذي نقله عنه دقيقا ، فقياس ابن هشام (قد) على (لا) يدلل على أن معناها الإخبار ، ثم إن هذا الذي يُخْبَرُ عنه قد يكون مُتَوقَّعا وقد لا يكون مُتوقَّعا ، فالأمر عائد إلى ملابسات الكلام ودوافعه أو فلنقل عائد إلى السياق ، وهذا ما أراه أكثر دقة من القول بأنها تفيد التَّوَقُّع بنفسها ؛ إذ هي خارج السياق لا تفيد التَّوَقُّع البتة .

---

١ - ظ : معاني الحروف : ٦٨، شرح الرضي على الكافية : ٤٤٤\٤ .
٢ - ظ : الجنى الداني : ٢٧٠- ٢٧١ ، مغني اللبيب : ٢٢٧ - ٢٢٨.
٣ - ظ : الكتاب : ٢٢٣\٤، الجنى الداني : ٢٧١ ، مغني اللبيب : ٢٢٧ - ٢٢٨.
٤ - الكشاف : ٦٩\٤ ، وينظر معه : مفاتيح الغيب : ٤٧٧\٢٩ ، البحر المحيط :١١٨\١٠.
٥ - مغني اللبيب : ٢٢٨.

أما **معنى التقريب** الذي ذكر لها فلا ترد للدلالة عليه إلاَّ مع الماضي ، فعند دخولها عليه تقربه من الحال ، ولهذا فهي تلزم كثيرا معه إذا ما جاء الماضي حالا نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(الأنعام من الآية :١١٩) ، وقد جعل الزمخشريُّ التقريب المعنى الرئيس لهذا الحرف ، قائلا :((ومن أصناف الحروف (حرف التقريب) وهو(قد) يقرب الماضي من الحال إذا قلت قد فعل ، ومنه قول المؤذن:(قد قامت الصلاة) ولابُدَّ فيه من معنى التوقع))[١]، جعله الزمخشريُّ حرف تقريب وألزمه تأدية معنى التوقع أيضاً فقولهم (قد قامت الصلاة) يعني قد حان وقتها في هذا الزمان ، ونقل عن آخرين مثل هذا القول أي انها إذا دخلت على الماضي ((أثرت فيه معنيين تقريبه من زمن الحال وجعله خبرا منتظرا .))[٢] . إن معنى التقريب يتعلق بدخولها على الماضي ، إذن فهو مرتبط بالسياق الذي ترد فيه (قد) وهي خارج ذلك السياق لا تدل على هذا المعنى فإذا وردت مع المضارع لا تدل على التقريب

وقيل إن من معاني (قد) **التقليل**[٣] وأكثر من قال بهذا المعنى وصفه بأنه قليل الاستعمال ، نحو قولهم :(قد يَصدُقُ الكَذوبُ) و(قَد يَجُودُ البَخِيلُ) وهذا يدل على تقليل وقوع الفعل من الفاعل ، وقد يفيد تقليل متعلق الفعل نحو قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾(النور من الآية :٦٤) ، معناه الذي هم عليه أقلُّ ما يعلمه تبارك وتعالى ، وعقَّب المراديُّ على هذا المعنى بقوله :((ونازع بعضهم في إفادة (قد) لمعنى التقليل ، فقال :(قد) تدل على توقع الفعل ممن اسند إليه ، وتقليل المعنى لم يستفد من (قد) ، بل لو قيل : البخيلُ يَجُودُ ، فهم منه التقليل ؛ لأن الحكم على من شأنه البخل بالجود إن لم يحمل على صدور ذلك قليلا كان الكلام كاذبا ؛ لأن آخره يدفع أوله .)) [٤] ، هذا الاعتراض الذي نقله المراديّ دقيقٌ ووجيهٌ ، وهو ما أذهب إليه في فرضية المعنى المركزي والمعاني السياقية فطبيعة الكلام وسياقه العام هو الذي أفادنا معنى التقليل أما الحرف (قد) فربما حُمِّلَ بعض معنى التقليل وأداه لكنه أداه ضمن معناه العام الذي هو الإخبار وفي ظله .

ويؤيد هذا أيضاً أن المفسرين قد فهموا من سياق هذه الآية من سورة النور معنى التوكيد قال الزمخشريُّ :((أدخل {قد} ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد .)) [٥] فقد فهم هذا المفسر اللغوي معنى معينا من الحرف لكن هذا هذا الفهم لم يكن مبنيا على الحرف فقط بل أعانه عليه بقية عناصر السياق العام لهذا النص .

واستفاد شعراء المعلقات من قدرة هذا الحرف على تأدية معنى التقليل الهامشي في دواوينهم، ومن أمثلته أيضاً قول زهير[٦] :

(المنسرح)

قَـد يُقبِـلُ المـالُ بَعـدَ حـينٍ عَلـى الـ (م) ـمَرءِ وَحينـاً لِهُلكِـهِ دُبُـرُ

---

١ - شرح المفصل : ٨\١٤٧.
٢ - الجنى الداني : ٢٧١ - ٢٧٢.
٣ - ظ : معاني الحروف : ٩٩، رصف المباني : ٣٩٢، الجنى الداني : ٢٧٢ ، مغني اللبيب : ٢٣٠- ٢٣١ .
٤ - الجنى الداني ، ونقله عنه ابن هشام في مغني اللبيب : ٢٣١.
٥ - الكشاف : ٣\٨٠ ، وينظر معه مفاتيح الغيب : ٢٤\٤٢٥.
٦ - شرح ديوان زهير : ٣١٤ ، وينظر معه: ديوان طرفة بن العبد : ١٠٢ ، ١٠٣، ديوان طرفة(درية الخطيب):١١٤.

فزهير يخبر لائمته أنه خَبَرَ الحياة وفهم منها أن المال يأتي المرء بعد حين ، فهنالك رازق للعباد ، فأقلّي من لومك لي ، وربما عاد ما أهلكه من أموال ، فلا تبتئسي لذالك . ومعنى التقليل هنا يفهم من قرائن خارجة عن النص المباشر ، فخبرة الإنسان في الحياة هي التي جعلته يفهم معنى التقليل هنا .

أما **معنى التكثير** فنسبه بعضهم لـ(قد) وكأنه معنى رئيس لها قال الأسترآبادي:((وتستعمل أيضاً للتكثير في موضع التمدُّح ، كما ذكرنا في (ربما) قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ (الأحزاب من الآية : ١٨).))[١] ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (البقرة من الآية :١٤٤) ، قال الزمخشريُّ في تفسيرها:(({قد نرى} ربما نرى ، ومعناه : كثرة الرؤية .)) [٢]، واستشهدوا عليه ببيت امرئ القيس[٣]:

(البسيط)

قَـدْ أَشْـهَدُ الغَـارَةَ الشَّـعواءَ تَحمِلُـني   جَـرْدَاءُ مَعرُوقَـةُ اللَّحَـيَينِ سُـرحُوبُ

وحمل على معنى التكثير أيضاً قول زهير[٤]:

(الطويل)

أَخـي ثِقَـةٍ لا تُتلِـفُ الخَمـرُ مالَـهُ   وَلَكِنَّـهُ قَـد يُهلِـكُ المـالَ نائِلُـه

لقد وصف المالقيُّ دلالة (قد) على التكثير بأنه معنى غريب ، ثم قال :((ورام بعضهم استنباط هذا المعنى من كلام سيبويه ، فإنه قال : وأما (قد) فجواب لقوله (لمَّا يفعل) ثم قال وتكون بمنزلة ...(ربما)، ... فتشبيهه بـ(ربما) يدل على أنه للتكثير، وعكس ذلك بعضهم فقال: بل تدل على التقليل ؛ لأن (ربما) للتقليل .)) [٥]، ورفض أن ينسب هذا المعنى إلى (قد) أبو حيان قائلا :((وكون (قد) إذا دخلت على المضارع أفادت التكثير قول بعض النحاة ، وليس بصحيح ، وإنما التكثير مفهوم من سياقة الكلام في المدح ، والصحيح في (ربَّ) إنها لتقليل الشيء أو تقليل نظيره ، فإن فهم تكثيرٌ فليس ذلك من (ربَّ) ، ولا (قد) إنما هو من سياق الكلام، وقد بُيِّنَ ذلك في علم النحو .)) [٦] ، لا أحتاج إلى أن أزيد شيئا على كلام أبي حيان فمعنى التكثير في (قد) و(ربَّ) راجع إلى السياق وليس للحرف ، و(قد) عندما يُحمِّلها السياق قدرا مضافا من المعنى إلى معناها الرئيس وهو الدلالة على التكثير فهي تبقى تدل على معناها المركزي الذي هو الإخبار ، فهي في تلك النصوص تخبر عن تكثير وقوع الشيء من الفاعل ، لكن دلالة التكثير لم تستفد من الحرف وحده .

واستعمال هذا المعنى ليس قليلا عند الشعراء ، وخير شاهد على هذا قول عنترة[٧]:

(الكامل)

قَـد طالَمـا لَـبِسَ الحَديـدَ فَإِنَّمـا   صَـدَأُ الحَديـدِ بِجِلـدِهِ لَـم يُغسَـلِ

معنى التكثير الهامشي قد يفهم هنا من (طالما) فهي التي دلَّت على كثرة مزاولة الفاعل للبس الحديد ، ومن قرائن خارجية أيضاً هي سيرة عنترة العامة وكثرة ممارسته للحرب تفرض

١ - شرح الرضي على الكافية : ٤\٤٤٥، وينظر معه : الجنى الداني : ٢٧٢ ، مغني اللبيب : ٢٣٠- ٢٣١ .
٢ - الكشاف : ١\٣١٩.
٣ - ديوان امرئ القيس :٢٢٥.
٤ - شرح ديوان زهير: ١٤١ ، وينظر معه البحر المحيط :٨\٧٤-٧٦.
٥ - ظ : الجنى الداني : ٢٧٢.
٦ - البحر المحيط : ٨\٧٤-٧٥.
٧ - ديوان عنترة(مولوي) : ٢٥٤، وينظر مثله في : شرح ديوان زهير : ٣١٥.

عليه لبس الدروع كثيرا ، وهكذا يبقى السياق مؤثرا كبيرا في إعطاء بعض الحروف صبغات من المعاني الهامشية زيادة على معانيها المركزية .

تاسعا : (كَيْ)

نقلت المصادر أن (كي) تكون :

- أولا : حرفا جارا بمنزلة لام التعليل في المعنى والعمل ، فهي تدلّ على العلَّة والغرض ، وهذه هي الداخلة على[1]:
  1. (ما) الاستفهامية ، كما في قولهم : (كَيمَهْ) بمعنى (لمه؟) .
  2. (ما) المصدرية كما في قول الشاعر[2] :

(الطويل)

إذا أَنـتَ لَـمْ تَنفَـعْ فَضُـرَّ فإنَّمـا ... يُرَجَّـى الفَتَـى كَيمـا يَضُـرُّ ويَنفَـعُ

وقيل (ما) في هذا البيت كافة .

  3. وعلى (أن) المصدرية المضمرة ، نحو قولهم : جئتك كي تكرمني ، إذا قدَّرت النصب بـ(أنْ) .

- ثانيا : وتكون (كي) حرفا مصدريا بمنزلة (أن) المصدرية في المعنى والعمل[3] ، وذلك إذا إذا دخلت عليها (اللام) ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾(النحل: من الآية٧٠) ، فهي هنا ليست حرف تعليل ، وإلاَّ لما صحَّ دخول لام التعليل عليها ، إنها هنا مصدرية ناصبة .

إذن (كي) عند العلماء حرفٌ إما بمنزلة لام التعليل ، أو بمنزلة (أن) المصدرية . والذي يبدو أن علماء النحو قد فرضوا على هذا الحرف قسمة شكلية جائرة من حيث المعنى ، إذ طبقوا بحقه قواعد النحو المنطقية من حيث والعلة والمعلول ، فما كان منهم إلاَّ أن اعتمدوا على تلك الأقيسة المتطرفة ، وحكَّموها في هذا الحرف ، ولو نظروا إلى حقيقة استعماله لكان لهم حكم آخر عليه .

أكثر ما استعمل هذا الحرف مقترنا بـ(اللام) ؛ فقد ورد ست مرات من أصل عشر[4] عند عند شعراء المعلقات مقترنا باللام ، كقول زهير[5] :

(الطويل)

سَـعى بَعـدَهُم قَـومٌ لِكَـي يُـدرِكوهُمُ ... فَلَـم يَفعَلـوا وَلَـم يُليمـوا وَلَـم يَـأَلوا

و معنى التعليل في البيت واضح . ومن استعمالها مقترنة باللام قول لبيد [6] :

(الطويل)

---

١ - ظ : معاني الحروف:٩٩-١٠٠، الإيضاح العضدي :٣١٠، البغداديات :١٩٥، الإنصاف في مسائل الخلاف : ٥٧٠\٢، شرح المفصل:٤٩\٨، شرح ألفية ابن مالك:١٤٠، شرح ابن عقيل:٣\٢، رصف المباني ٢١٥، الجنى الداني:٢٧٦، مغني اللبيب:٢٤١، شرح قطر الندى:٢٥١، أوضح المسالك:٤٨\٣، جواهر الأدب:١٣٢، التراكيب اللغوية في العربية:٧٥.

٢ - هذا البيت مختلف في نسبته ، فيروى للنابغة الجعدي ، ولقيس بن الخطيم ، ولعبد الله بن معاوية ، ويروى بلفظ (يضرَّ وينفعا) ، ينظر في شأنه : ديوان النابغة الجعدي : ٢٤٦ ، ديوان قيس بن الخطيم :٨٠ ، الحماسة (للبحتري) :٢١٣، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤٩٨\٨ ، مغني اللبيب : ٢٤١ .

٣ - ظ : معاني الحروف:٩٩- ١٠٠، التفاحة في النحو:١٩،البغداديات:١٩٥، اللمع في العربية:٢١٩، البيان في شرح اللمع:٢٥٩، شرح المفصل:٤٩\٨، شرح ألفية ابن مالك:٢٦١، ارتشاف الضرب :٣٩٢\٢، رصف المباني:٢١٥، الجنى الداني:٢٧٧، مغني اللبيب:٢٤١، جواهر الأدب:١٣٣.

٤ - ينظر الفصل الثالث : ١٩٤ .

٥ - شرح ديوان زهير :١١٤ ، وله بيت آخر في صفحة : ٢٧٦.

٦ - شرح ديوان لبيد : ٢٨٦ .

لِكَـي مـا يَكـونَ السَـندَرِيُّ نَديـدَتي   وَأَجعَـلَ أَقوامـاً عُمومـاً عَماعِمـا

في حين جاءت (كي) في أربعة أبيات فقط عَارية من اللام منها ، منها قول لبيد [1] :

(الطويل)

وَمُصـعَدُهُم كَـي يَقطَعـوا بَطـنَ مَـنعِجٍ   فَضـاقَت بِهِـم ذَرعـاً خَـزازٌ وَعاقِـلُ

وفي القرآن الكريم بقي استعمال هذا الحرف متسقا مع ما كان علية عند الشعراء ، بل مطابقا له ؛ إذ استعمل مع اللام ست مرات[2] من أصل عشر ، وكل الموارد الست التي دخلت (اللام) فيها على (كي) في القرآن كانت تأتي بعدها (لا) قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرا** ﴾(الأحزاب: من الآية٣٧) ، وقال ﷻ : ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾(آل عمران: من الآية١٥٣) ، وهذه (اللام) كما يقرره النحاة هي لام التعليل ، فالتعليل إذن مستفادٌ من (اللام) ، ولما كان اقتران (اللام) بـ(كي) في (٦٠%) من استعمالها في القرآن والشعر ، صار معنى التعليل ملازما لها ، أي إن التعليل ترشح لها من اللام الملازمة لها دوما ، وإلاَّ فهي مصدرية مثل (أن) . قال أبو علي الفارسيّ ((فـ(كي) بعدَ اللام لا يخلو من أن يكون ناصبا للفعل بنفسه ، أو بإضمار حرفٍ ، فلا يجوز أن يكون بإضمار حرفٍ ؛ لأنَّ الحرف إنَّما يُضمرُ بعدها إذا كانت داخلة على الاسم كلام الجرِّ،...، فإذا لم يجز أن يكون (كي) في قولك : جئت لكي تفعل وفي قوله تعالى : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا** ﴾(الحديد: من الآية٢٣)، التي ينتصب الفعل بعدها بإضمار (أن) ثَبُتَ أنَّها هي الناصبة للفعل بنفسها.))[3] ، قاعدة عدم جواز دخول حرف جر على حرف آخر كانت ستخرق هنا إذا ما قيل بأن النصب بحرف مقدر ؛ لذا رفض هذا القول أبو علي وغيره من النحاة ، وأقروا بأنها هنا مصدريَّة ناصبة .

وعندما جاءت (كي) وحدها من غير اللام برز الخلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : إنها المصدرية نفسها ، وإن الفعل بعدها منصوب بها ، ومنهم من قال: إنها جارّة بدل اللام ، والنصب بـ(أن) مضمرة بعدها ، وهي تفيد التعليل[4]، وأعتقد أنَّ الذي دفعهم لهذا القول رسوخُ معنى التعليل فيها ؛ لقربها المستمر من اللام واقترانها الدائم بها . ويؤيد صحة كونها مصدرية : ((حلول (أن) محلها ، ولأنها لو كانت حرف تعليل لم يدخل عليها حرف تعليل .))[5].

إن معنى المصدرية واضح في بيت امرئ القيس [6] :

(الطويل)

فقُلـتُ لَهـا أَيُّ القَبائِـلِ تُنسَـبى   لَعَلّـي بَـينَ النَـاسِ في الشِـعرِ كَـي أُسَـل

١ - شرح ديوان لبيد : ٢٦٥ .

٢ - استشهدنا هنا بثلاثة منهن والبقية : ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾(الأحزاب: من الآية٥٠) و : ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾(الحج: من الآية٥) ، و﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(الحديد: من الآية٢٣) .

٣ - البغداديات : ١٩٥- ١٩٦ .

٤ - ظ: رصف المباني : ٢١٥-٢١٦ ، مغني اللبيب : ٢٤٢.

٥ - مغني اللبيب : ٢٤٢ .

٦ - ديوان امرئ القيس : ٤٦٧ .

وكذلك صرَّح بعض العلماء بأنها في جاءت مصدرية في قوله تعالى[1] : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾(الحشر: من الآية٧) [2] ، فهي هنا وإن كانت غير مقترنة باللام مصدرية .
وكذلك صرَّح اللغويون بأنها حرف مصدري ، قال ابن منظور:(((كي) : حرف من حروف المعاني ينصب الأفعال بمنزلة (أن) ، ومعناه العلّة لوقوع الشيء ، كقولك : جئت كي تكرمني ، وقال في التهذيب : تنصب الفعل الغابر .)) [3]

أمَّا استعمالها جارة بصيغة (كيمه) فلم ترد في القرآن قَطُّ . وفي الشعر لم تستعمل في دواوين أصحاب المعلقات سوى عند عنترة ، فقد استعملها ثلاث مرات : قال عنترة [4] :

(الطويل)

شَكَت سَقَماً كَيما تُعادُ وَما بِها ... سِوى فَترَةِ العَينَينِ سُقمٌ لِعائِدِ

نقلت فيما تقدم قول النحاة أنها في (كيما) تكون (كي) قد دخلت على (ما) المصدرية ، وإنها بمنزلة (لام) التعليل في المعنى والعمل ، وأنا هنا أظن أن معنى التعليل أصبح ملاصقا لـ(كي) من خلال الاستعمال العام واقترانها فيه بـ(اللام) ، و(كي) باقية على حالها الأصلي ، أقصد مصدرية ناصبة فيها معنى التعليل ، و(ما) هنا كافة لها عن العمل[5] ، ليكون تقدير الكلام الكلام في بيت عنترة : شكت سقما لأجل أن تُعَادَ . والذي يؤيد هذا إن عنترة استعملها في البيت الثالث وقد أدخل عليها اللام قائلا[6]:

(الكامل)

وَسَلي لِكَيما تُخبَري بِفَعائِلي ... عِندَ الوَغى وَمَواقِفِ الأَهوالِ

ولو كانت (كي) في مثل هذا الموضع حرف جرٍّ لما جاز له أن يدخل عليها حرف جر آخر ، فهي باقية على معنى المصدرية الناصبة ، ومعنى التعليل أضيف إليها من السياق نتيجة لاقترانها باللام كثيرا .

وقد تنبه الكوفيون على ما يبدو إلى هذا فقالوا : إن (كي) ناصبة دائما [7]، وهم على حق في هذا ، لكنَّ ابن هشام ردَّ عليهم وأشكل بـ(كيمه؟) كما يقولون (لمه؟) ، أقول ليس من يقين أن تكون (كيمه) هي (كي) الداخلة على (ما) الاستفهامية ، ومن ثم تحولت (الألف) إلى (هاء) ، ولماذا لا نعتقد أنَّ (كيمه) كلمة واحده تدلّ على الاستفهام ، كانت مستعملة قديما ، وانحسر استعمالها وتلاشى ، حتى أننا لم نجدها ترد في القرآن الكريم ولا في الشعر العربي لا قبل الإسلام ولا بعده حتى يومنا هذا [8] ، ولماذا نقيس على شيء نادر الاستعمال ولم نجد شاهدا على استعماله في كلام العرب البليغ .

---

١ - ظ : الجامع لأحكام القرآن : ١٦\١٨ ، مغني اللبيب : ٢٤٢ .
٢ - هذه إحدى الآيات الأربع التي جاءت فيها (كي) غير مقترنة باللم والثلاثة الباقية هي : ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾(طـه:٣٣) و ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾(طـه: من الآية٤٠) و ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾(القصص: من الآية١٣).
٣ - لسان العرب: مادة (كيا) : ١٥\٢٣٦.
٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٤٠ .
٥ - نقل هذا ابن هشام عن بعضهم ، ينظر : مغني اللبيب : ٢٤١ ، وينظر معه : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٢\٥٧٢-٥٧٣.
٦ - ديوان عنترة(مولوي) : ٣٣٦ .
٧ - ظ : مغني اللبيب : ٢٤٢ .
٨ - أجريت إحصاءا شاملا للشعر العربي من خلال برنامج (الموسوعة الشعرية٣) والتي تحتوي على أكثر من مليونين وأربعمئة ألف بيت شعري لـ(٢٣٠٠) شاعر ، فلم أضفر إلاَّ ببيت واحد لسعد الكرمي (ت١٩٣٥م) يستعمل فيه (كيمه) وهذا أبعد من أن يستشهد به .

أما الفرع الثالث من الوجه الأول الذي ذكروا فيه أنَّ كي تدخل على (أن) المصدرية المضمرة ، نحو قولهم : (جئتك كي تكرمني) ، فيما إذا قدَّرت النصب بـ(أنْ) ، وعندها تكون (كي) حرف جر قريب من اللام [1]، أقول هذه من فذلكة النحاة ، وتحميلهم الأشياء فوق طاقتها واستحقاقها ، ولماذا كل هذا التعقيد وتأويل المضمر؟ وعندنا قاعدة تشير إلى أن عدم التأويل أولى من التأويل . إن (كي) في قولهم (جئت كي تكرمني) ، هي (كي) الناصبة وقد عملت في الفعل بمباشرتها إياه ، وليست بنا حاجة إلى تأويل عامل مضمر عمل في الفعل ؛ إذ العامل الفعلي الحقيقي موجودٌ وظاهر في الكلام ، فلا ضرورة لتركه وتقدير عامل آخر ، أما معنى بيان الغاية فهو واضح من قوَّة السياق وترشح معنى التعليل من (كي) ، ولو أردنا أن نُبدل (أن) مكان (كي) في هذه الجملة افتراضا ، فإن المعنى سيبقى واضحا ، وفيه دلالة ما على غاية المجيء وسببه ، فإذا ما استعملت (كي) برز ذلك المعنى وصار التعليل أوضح ، لما قلنا من إن (كي) صار ملاصقا لها معنى التعليل .

إن (كي) حرف ناصب كما قال الكوفيون ، وقد اكتسب معنى التعليل نتيجة استعماله مقترنا باللام كثيرا ، وأصبح التعليل من ظلال معناه العام ولا يكاد يفارقه ، إذ كان في أكثر استعماله في الشعر والقران مقترنا باللام التي تفيد التعليل .

عاشرا : (مِنْ)

في الوقت الذي ذكر فيه بعض النحاة لـ(مِن) معنى واحدا لا تفارقه هو **ابتداء الغاية**[2]، نجد من كثَّرَ المعاني التي نسبت لهذا الحرف حتى أوصلوها إلى خمسة عشر معنى ، منها **التبعيض** نحو: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾(البقرة من الآية:٢٥٣) ، و **بيان الجنس** نحو: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾(فاطر من الآية:٢) ، ومنها **التعليل** كقوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾(البقرة من الآية:١٩)، و**البدل** نحو: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(التوبة من الآية:٣٨)، و(من) الحروف التي كثر التناوب فيها فكانت تتناوب مع حروف أخرى فتأتي بدلا منها ، فقد قيل إنها استعملت **بمعنى (عن)** كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(الزمر من الآية :٢٢) ، واستعملت **بمعنى (في)** نحو﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾(فاطر من الآية:٤٠) ، وكذلك استعملت مكان **(الباء) و(على)** واستعملت موافقة **لـ(عند)** وغير هذه من المعاني[3] .

والسؤال المعروض الآن :هل كلُّ هذه المعاني مُسلَّمٌ بها ؟ وهل كلها معانٍ أصيلة للحرف؟ لاشكَّ في إن اختلاف العلماء في مقدار معين من هذه المعاني المنسوبة لـ(من) ،

---

١ - ظ : شرح ألفية ابن مالك : ٢٦١معاني الحروف : ٩٩- ١٠٠ ، شرح المفصل : ٨\ ٤٩، رصف المباني ٢١٥، الجنى الداني : ٢٧٦، مغني اللبيب : ٢٤١ ، جواهر الأدب : ١٣٣ .

٢ - ظ: الكتاب:٤\٢٢٤، المقتضب:١\٤٤، ٤\١٣٦-١٣٧، معاني القرآن(الأخفش الأوسط):٢\٣٣٧ ، المفصَّل في صنعة الإعراب :٣٧٩ ، شرح المفصل: ٨\١٠– ١٤، الإنصاف في مسائل الخلاف : ١\٣٧٠،المقرب:١\١٩٨، شرح جمل الزجاجي: ١\٤٩٠، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد :١٤٤، دراسات لأسلوب القرآن الكريم:٣\٣٢٣.

٣ - ظ : حروف المعاني:٥٠، ٧٦،٨٢، معاني الحروف:٩٧- ٩٨، رسالتان في اللغة:٤٩، أسرا العربية:٢٣٣، المخصص:١٤\٥٣، اللباب في علل البناء والإعراب:١\٣٥٣، البيان في شرح اللمع:١٤٧- ١٤٨، شرح جمل الزجاجي:١\٤٨٤، شرح ألفية ابن مالك:١٤١، ارتشاف الضرب:٢\٤٤١-٤٤٣، رصف المباني:٣٢٢-٣٢٥، الجنى الداني:٣١٤-٣٢٣، مغني اللبيب:٤١٩-٤٣١، أوضح المسالك:٣\٢١- ٢٨، دراسات لأسلوب القرآن الكريم:٣\ ٣٢٣-٤٢١، التراكيب اللغوية في العربية:٧٠.

وإهمال عدد آخر يدلُّ بوضوح على أنْ ليس كل تلك المعاني مسلما بها عند العلماء جميعهم ، أما ما يتعلق بالمعنى الأصيل أو المركزي فقد قال المراديُّ :((ولم يثبت أكثر النحويين لـ(من) جميع هذه المعاني ، بل تأولوا كثيرا من ذلك على التضمين أو غيره ، وقد ذهب المبردُ وابنُ السراج والأخفشُ الأصغر وطائفةٌ من الحذاق والسهيليُّ إلى أنها لا تكون إلاَّ لابتداء الغاية ، وأن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى ، ألا ترى أن التبعيض من أشهر معانيها ، وهو راجع إلى ابتداء الغاية ، فإنك إذا قلت : (أكلت من الرغيف) إنما أوقعت الأكل على جزء فانفصل فمآل معنى الكلام إلى ابتداء الغاية .))[1] ، والى هذا ذهب الزمخشريُّ أيضاً إذ يقول : ((فـ(من) معناها ابتداء الغاية كقولك سرت من البصرة ، وكونها مُبَعِّضَةً في نحو: أخذت من الدراهم ، ومُبَيِّنَةٌ في نحو: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾(الحج من الآية : ٣٠) ، ومَزِيدَةٌ في نحو : (ما جاءني من أحد) راجع إلى هذا . قال الشارح [وهو ابن يعيش]: قد صدَّر صاحبُ الكتاب كلامه وابتدأه بـ(من) وهي حريةٌ بالتقديم ؛ لكثرة دَورِهَا في الكلام ، وَسِعَةِ تَصرِّفها . ومعانيها وإن تعددت فمتلاحمةٌ ، فمن ذلك كونها لابتداء الغاية،...، والغالب على استعمال (من) في هذا المعنى .))[2]، وزاد الأسترآبادي على القائلين بهذا الرأي عبد القاهر الجرجاني[3] .

يتبيَّن من كلام المراديّ وابن يعيش وغيرهما : أن (من) حرفٌ كثيرُ الاستعمال في لغة العرب ، وسنتحقق من حجم استعمالها بصورة دقيقة في الفصل القادم عندما نوازن بين الاستعمال الشعري والقرآني للحرف ، كما يشير أيضاً إلى سعة تصرف هذا الحرف ، ومعنى سعة التصرف – كما أفهمه – أن المعنى الذي يؤديه هذا الحرف ليس معنىً جامدا ثابتا على حال واحدة ، بل هو معنى متحركٌ ، وحركيَّة المعنى تجعله يتلون بألوان خاصة من ظلال المعاني التي ترد عليه ، أما القوة الفاعلة في حركيَّته فلاشك في أنها السياق ، وكثرة دوران الحرف في اللغة جعله يرد في سياقات متعددة ، ومن ثم تتلون معانيه إلى درجة ملحوظة ، ويستمر ابن يعيش في الشرح قائلا : ((وقول صاحب الكتاب (وكونها مُبَعِّضَةً وزائدةٌ راجع إلى هذا المعنى) إلى ابتداء الغاية، فإن ابتداء الغاية لا يفارقها في جميع ضروبها، فإذا قلت أخذت من الدراهم درهما فإنك ابتدأت بالدرهم ، ولم تنته إلى آخر الدراهم ، فالدرهم ابتداء الأخذ إلى أن لا يبقى منه شيء ، ففي كل تبعيض معنى الابتداء الذي انتهاؤه الكل .))[4] ثم يستمر في كلامه في محاولة منه لبيان كيفية عَودَةِ المعاني الكثيرة التي نسبت لـ(من) إلى معنى ابتداء الغاية الذي هو المعنى الأصلي لهذا الحرف عند هؤلاء العلماء .

ومع أن هذا الرأي – عودة معاني (من) إلى معنى واحد – قد أيَّده كبار النحويين إنني أجد قُبَالته رأياً آخر، ربما كان يميل إليه سيبويه وآخرون ، فمعنى فقولنا :(أخذت من المال) عند هؤلاء أخذت بعضه ، فـ(من) عند سيبويه تكون للتبعيض مجردةً من الابتداء[5] ، أي إن معناها قسمٌ برأسه ، وهنا نعود فنتذكر كلام ابن جنيٍّ الذي يقول فيه :((فإن قلت يكون من الحروف ما يصلح من المعاني لأكثر من الواحد نحو (مِنْ) فإنها تكون : تبعيضا وابتداءً ، ولا تكون : نفيا ونهيا وتوكيدا ، و(إن) فإنها تكون : شرطا ونفيا وتوكيدا . قيل : هذا إلزام يُسقطه تَأمُله ، وذلك أن (من) و(لا) و(إن) ونحو ذلك لم يقتصر بها على معنى واحد ؛ لأنها حروف وقعت مشتركة، كما وقعت الأسماء مشتركة ،...، وقعت الأفعال مشتركة ،...، فكذلك جاء نحو هذا في

---

١ - الجنى الداني : ٣١٩- ٣٢٠ ، وينظر معه : المقتضب : ٤٠٤\١ ، الأصول : ٣٢٦\١- ٣٢٧، شرح الرضي على الكافية : ٤\ ٢٦٦، مغني اللبيب : ٤١٩.

٢ - شرح المفصل : ٨\ ١٠ .

٣ - ظ : شرح الرضي على الكافية : ٤\ ٢٦٦ .

٤ - شرح المفصل : ٨\١٣ .

٥ - ظ : الكتاب : ٤\٢٢٤- ٢٢٥ .

الحروف.))[1] فـ(من) عند ابن جنيّ من المشترك في اللغة وضعت لأكثر من معنى وهي عنده لمعنيين رئيسين هما (ابتداء الغاية والتبعيض) ، وهذا ما صرح به عند حديثه عن (من) قائلاً : ((فمعنى (من) الابتداء كقولك :(سرت من البصرة إلى الكوفة) ، أي ابتدأت السير من البصرة ، وتكون تبعيِّضا ، كقولك أخذت من المال أي بعضه ، وشربت من الماء أي بعضه ، وتكون زائدة ..))[2] ، وقال أبو البركات العلوي (ت٥٣٩هـ) في شرحه :((ويكون التبعيض كقولك : (أخذت من المال) أي بعضه ، هذا مذهب سيبويه ، قال أبو العباس المبرد : وليس هو عندي كما قال سيبويه ؛ لأن قوله أخذت من ماله إنما جعل ماله ابتداء غاية ما أخذ ، وكذلك أخذت منه درهما ، وسمعت منه حديثا ، أي هو أول الحديث ، وأول مخرج الدرهم ،...، فيكون عند أبي العباس لابتداء الغاية ، ودلالتها على التبعيض عنده من حيث ما هي انتهاءٌ ، وهذا مذهبه فاعرفه ، وعند سيبويه إنها تكون للتبعيض في هذا مجردة عن[3] الابتداء .))[4] . خلاصة هذا الكلام أن أمامنا مذهبين مذهب لسيبويه وابن جني يرى أن (من) من الكلمات المشتركة في لغة العرب ، ولها معنيان رئيسان وضعت لكل منهما هما معنى (الابتداء) ومعنى(التبعيض) ، ومذهب آخر يلتزمه المبرد وكبار النحويين الآخرين ، ويرجعون فيه معاني (من) المتعددة إلى معنى واحد أصيل هو معنى (ابتداء الغاية) ، وكل من القولين يمثل دليلا داعما لفرضية المعنى المركزي للحرف والمعاني السياقية أو الهامشية ، ولكني في مجال التحقيق والتطبيق أميلُ إلى الأخذ برأي سيبويه وابن جني في أن للحرف معنيين مركزيين يمثل كل منهما معنى لصورة من صورتين لـ(من) ، إذ قد يكون في محاولة رَجْع المبرد معنى التبعيض إلى معنى الابتداء ليٌّ لعنق النص وتحميله فوق ما طاقته ، وليست بنا حاجة إلى تأويلٍ يُخرِجُ اللغةَ عن بساطتها المتعارفةِ وسماتها المعهودة .

وهذا يقودنا إلى شيء مهم ذلك : أن الكلمات الكثيرة الاستعمال في اللغة يجب أن تكون واضحة المعنى ولا يكتنفها الغموض ؛ لأن الغموض مع كثرة الاستعمال لابدَّ من أن يولد لبسا في المعنى ، وهذا ما تبتعد اللغة عنه دوما ، فكيف تسنى لـ(من) أن تؤدي عددا كبيرا من المعاني؟ في محاولة الجواب عن هذا السؤال يمكنني القول : إن كون هذا الحرف من المشترك اللفظي ساعده على توليد معان هامشية أكثر من غيره من الحروف فكلٌّ أصلٍ من الأصلين يُكوِّن له عددا من المعاني الهامشية ، التي تتلون تبعا لطبيعة استعمال المفردة داخل النص ، وما يحيط بها من ظروف ، والفاصلُ المُعينُ في تحديد المعنى الدقيق وطبيعته هو السياق ، فهو يمثل صمام الأمان للمعنى ، ولولاه لكان التشابه الموجود في أشكال الكلمات المشتركة يولد لبسا كبيرا بين مفردات اللغة ، فالسياق يجعل الغموض الناتج عن الاشتراك اللفظي سطحيا ، ولا يقف عائقا في عملية التخاطب اللغوي بين البشر[5] .

لقد أعاد ابن هشام كثيرا من المعاني التي ذكرها لـ(من) إلى معنى الابتداء معترضا على الإقرار بتلك المعاني ورافضا لها ، وسأعرض لبعض هذه المعاني لنرى كيف حمل النص المفردة معنى هامشيا مضافا لمعناها الأصلي ، قيل إنها تأتي **<u>بمعنى (عن)</u>** كقوله تعالى : ﴿**يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا**﴾(الأنبياء من الآية:٩٧)، قال ابن الجوزيّ(ت٥٩٧هـ):((ويقولون:{يا ويلنا قد كنا} أي: في الدنيا {في غفلة من هذا} أي: عن هذا))[6] ، ولم أر من المفسرين غيره يصرح بأن

١ - الخصائص : ٣\١١٠- ١١١.
٢ - اللمع في العربية : ١٤٩ .
٣ - وردت هكذا ، والصحيح : مجردة من . ظ : لسان العرب : مادة (جرد) : ٣\١١٥ .
٤ - البيان في شرح اللمع لابن جني : ١٤٧- ١٤٨ .
٥ - ظ : دور الكلمة في اللغة : ١٤١.
٦ - زاد المسير : ٥\٢٧٠ ، وينظر معه : دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ٣\٤٢٠.

بأن (من) هنا بمعنى (عن) ، ((وقيل هي في هذه للابتداء ، لتفيد أن ما بعد ذلك أشدُّ .))[١] على هذا التأويل تكون غفلتهم عن أول العذاب وبدايته ، وبذا تكون غفلتهم عن العذاب كله وإدراك كنهه وحقيقته مستبعدةٌ ؛ لأنهم لم يكونوا يكترثون بالتفكر في نتائج معصيتهم وجحدهم لآيات الخالق العظيم تبارك اسمه . أما من فهم من النص معنى (عن) فيكون تأويل الكلام عنده : كنا في غفلة متجاوزين العذاب ومبتعدين عنه مشغولين بأمور الدنيا . إن للمفسر أن يفهم النص تبعا لما تتوافر أمامه من قرائن تعينه على التأويل ، وكانت من سمات النص القرآني أنه حمال أوجه ، وهذه المزيَّة من أوجه إعجازه ، فالسياق هنا يمكن أن يُفهم منه مثل ذلك المعنى فيقدر معنىً هامشيٍّ لـ(من) مضافٍ إلى معناها المركزي الذي هو الابتداء ليكون المعنى إنا كنا في غفلة مبتعدين ومشغولين عن التفكير ببداية العذاب الذي سينالنا . فيكون النص بذلك قد أضاف شيئاً إلى معناه المركزي .

اختلف النحويون في معنى (من) في قولنا :(زيد أفضل من عمرو) ، فسيبويه كان يذهب إلى أنها لابتداء الغاية ، ولا تخلو من **معنى التبعيض** ، وكأنَّه يُحَمِّلُ (من) معنى مضافا إلى معناها المركزي فيقول : ((كذلك (هو أفضل من زيدٍ) إنما أراد أن يُفضِّله على بعضٍ ولا يُعمُّ ، وجعل زيداً الموضع الذي ارتفع منه ، أو سَفَلَ منه في قولك : شرٌّ من زيد .))[٢]، فكانت (من) هنا تفيد ابتداء الغاية المكانية ، ومضافا إليها معنى التبعيض فالقائل لا يريد أن يفضله على عموم الناس بل يريد بعضهم . في حين كان المبرد يجعل معناها هنا ابتداء الغاية فقط [٣]، ونقل المراديُّ عن ابن عصفور أنه كان يرى هذا المذهب قائلا:((والصحيح أن التبعيض ليس مفهوما من (أفعل من) ، وإنما فهم ذلك من جهة أنك إذا أدخلت (من) التي لابتداء الغاية على الموضع الذي ابتدأ منه التفضيل علم أنك لم ترد التعميم في التفضيل ، وإنما أردت أن تذكر الموضع الذي ابتدأت منه التفضيل.)) [٤]، ونقل ابن هشام عن ابن مالك أنه يرى (من) هنا للمجاوزة ((وكأنه قيل : (جاوز زيد عمراً في الفضل) ، قال وهو أولى من قول سيبويه وغيره : إنها لابتداء الارتفاع في نحو(أفضل منه) وابتداء الانحطاط في نحو(شرٌّ منه) إذ لا يقع بعدها إلى.))[٥] ، أمَّا ابن مالك فيَفهَمُ من السياق هنا أن (من) بمعنى (مَعَ) وهو المجاوزة ، وأعتقد أنَّ المعنى يحتمل أن يكون معنى المجاوزة معنى هامشيا مضافا إلى المعنى المركزي ، وليس معنى بديلا يحل محله . فهو حين يثبت له الفضل يكون مبتدئا به مبتعدا عنه إلى نقص الفضل فيمن سواه كلما ابتعد عنه .

قيل إن (من) تأتي **مرادفة لمعنى (الباء)** نحو قوله تعالى :﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾(الشورى من الآية :٤٥) ، نقل الطبري عن يونس أنه قال : ((إن (من طرف) مثل بطرف ، كما تقول العرب : ضربته في السيف ، وضربته بالسيف .)) [٦] . ويبدو أن العلماء لم يساندوا قول يونس مع أن كثيرا منهم نقله عنه ، في حين ذُكرَ لهم في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال أخرى غير هذا قال ابن الجوزيّ :(({يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} وفيه أربعة أقوال ، أحدها[٧]: من طرفٍ ذليلٍ ، ، رواه العوفيُّ عن ابن عباس وبه قال مجاهد ، وقال الأخفش: ينظرون من عين ضعيفة ، وقال غيره من بمعنى الباء ، والثاني : يسارقون النظر قاله قَتَادَةُ والسديُّ والثالث: ينظرون ببعض العين ، قاله أبو عبيدة ، والرابع : أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم ؛ لأنهم قد حشروا عميا فلم

١ - مغني اللبيب : ٤٢٣.
٢ - الكتاب :٢٢٥\٤ .
٣ - ظ : المقتضب : ٤٤\١ .
٤ - شرح التسهيل (المرادي) مخطوط: ١٢ \١٦ . [نقلا عن حقق الجنى الداني صفحة ٣١٧، هامش : ٦٨٥].
٥ - مغني اللبيب : ٤٢٣ .
٦ - جامع البيان : ٥٥\٢٥ ، وينظر معه : دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٤٢٣\٣..
٧ - وردت هكذا والصحيح : (الأول :) .

يروها بأعينهم ، حكاه الفراء والزجاج .))[١] . إن هذه الأقوال المتعددة للنص تدل على اختلاف في فهم النص ، واختلاف في القراءات له ، فكل قراءة مبنية على عوامل ثقافية متعددة تشكل شخصية المفسر العلمية وملكة التي تمكنه من تأويل كتاب الله تعالى بما يراه متفقا وطبيعة اللغة العربية وأساليب استعمالها ، وليس يخفى هنا أثر السياق – بمعناه العام – في توجيه المعنى نحو كل من هذه الأقوال .

يرى الطبري أن أصح الأقوال ((القول الذي ذكرناه عن ابن عباس ومجاهد ، وهو أن معناه : أنهم ينظرون إلى النار من طرف ذليل ، وصفه الله جل ثناؤه بالخفاء للذلة التي قد ركبتهم ، حتى كادت أعينهم أن تغور، فتذهب .))[٢] ، في حين يقول الزمخشريُّ : (({ينظرون من طرف خفي} أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيفٍ خفي بمُسَارَقَةٍ ، كما ترى المصبُورَ ينظر إلى السيف. وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المَحَابِّ .))[٣]، ولقد ذهب أكثر المفسرين إلى هذا القول مع مع أنهم ذكروا الأقوال الأخرى في الآية الكريمة[٤] . إن قول يونس الذي جعل فيه (من) بمعنى (الباء) يقتضي أن يكون النظر بالطرف ، والطرف ليس هو آلة النظر ، فالناظر ينظر بعينه ، ولكنه يوجه نظره جهة طرف العين ليسترق النظر، أي ينظرُ خلسةً ، والدافع للنظر خلسة مختلف من حالة إلى أخرى ، فقد يكون الحياء ، وقد يكون الخوف والرعب وعدم الجرأة كما هو في حال هؤلاء الظالمين ، وأعتقد أنَّ إبقاء معنى (من) على دلالته المركزية أولى وأكثر حيوية في تصوير حالة استراق النظر بذلَّةٍ وخوفٍ عظيمتين إذ لا يجرؤ أحدٌ منهم أن ينظرَ بعينه كلها فيصرف نظره عن مشهد النار، لكن خوفه ورعبه منها يدفعانه إلى استراق النظر وهو في نظره هذا ذليلٌ ، وهكذا هو حالهم يترددون بين صرف وجوههم عن العذاب قبل ملاقاته واستراق النظر إليه ، هذا المشهد القرآني صورةٌ متحركةٌ تبعثُ على إثارةِ مشاعرٍ عظيمةٍ لدى المتلقي ، ولاشك في أن استثارة المشاعر عند مستمع القرآن هدف ملحوظ من أهدافه الشريفة .

ومن المعاني التي جاءت بها (من) **معنى الاستعلاء** فجاءت على قول بعضهم مرادفة لـ(على) نحو قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾(الأنبياء من الآية: ٧٧) ، فذهب ابن قتيبة إلى أن المعنى (على القوم)[٥] ، ونسب أيضاً إلى أبي عبيدة والأخفش[٦]، وقال البصريون إن معناه على التضمين فضُمِّنَ الفعل معنى فعل آخر وهو (منعناه) منهم بالنصر[٧]، إن تحميل الحرف (من) معنى الاستعلاء وجعله معنىً مضافاً إلى معناه الأصلي في هذه الآية الكريمة يزيد في دلالة النص ، ففي الوقت الذي يتحقق فيه النصر لرسل الله تعالى يتحقق معه الاستعلاء والغلبة لهم على الكافرين والمعاندين ، فيصبح النبي ومن معه فوقهم ، فالدلالة الهامشية للحرف تتمكن هنا من أن تضيف شيئا مكملا لمعنى النص ، وبذا يحقق النص واحدة من مزايا البلاغة وهي إيصال أكبر قدر من المعنى بأقل قدر من الألفاظ .

---

١ - زاد المسير٧\٨٥ .
٢ - جامع البيان : ٢٥\٥٥ .
٣ - الكشاف : ٣\٤٧٤ .
٤ - ظ : معاني القران (الفراء):٣\٢٦، إعراب القرآن (النحاس):٣\٠٧٠، التبيان:٩\١٧٢، مفاتيح الغيب:٢٧\٦٠٤-٦٠٧، الجامع لأحكام القرآن:١٦\٤٥، البحر المحيط:٩\٣٤٨-٣٥٢ ، البرهان:٤\٤٢٠، تفسير الثعالبي:٥\١٦٧ ، فتح القدير:٤\٥٤٣ .
٥ - ظ: تأويل مشكل القرآن:٤٣٢، وينظر معه: جامع البيان:١٧\٣٧، مجمع البيان:٧\١٠٣، دراسات لأسلوب القرآن الكريم:٣\٤٢١.

٦ - ظ: مجمع البيان:٧\١٠٣، الجامع لأحكام القرآن:١١\٣٧، الجنى الداني: ٣١٨، فتح القدير:٣\٤١٧ .
٧ - ظ : التبيان:٧\٢٦٧، جوامع الجامع:٢\٥٣٢، زاد المسير:٥\٢٥٦، الجامع لأحكام القرآن:١١\٣٠٧، الجنى الداني:٣١٨، مغني اللبيب:٤٢٤،البرهان:٤\٤٢٠، فتح القدير:٣\٤١٧، نظرية الحروف العاملة :١٩٣، تناوب حروف الجر في لغة القرآن:١٢٠.

إن القول بالمعنى الهامشي الذي يسمح به السياق يغنينا عن الحاجة إلى نظرية التضمين التي ينادي بها البصريون ، وإني أستشعر قيودها الثقيلة على المعنى فهي تقلل من طاقة النص الإبداعية في توليد المعاني المستمرة ، ففي هذا النص إذا قلنا بالتضمين كما قالوا فالمعنى عندها يسلب منه معنى الاستعلاء وما فيه من رفعة لشأن الأنبياء ، ويصبح النص أقل حيوية مما لو قلنا : إن معنى الاستعلاء معنى مضاف إلى المعنى المركزي للحرف . ويبقى الحال في بقية المعاني التي نسبت لـ(من) مثل هذا يفهم بعض المفسرين أو اللغويين معنى معينا من الحرف تبعا لعوامل يمليها السياق القرآني وملابسات تفسير النص فيضفي على هذا الحرف معنى إضافيا مع معناه المركزي يستشعره قوم فيتذوقونه ويغفل عنه آخرون فيفوتهم .

حادي عشر : (هَلْ)

اختصَّت (هل) بطلب التصديق الإيجابي ، فهي حرف موضوع لهذا الغرض ، دون التصور ، ودون التصديق السلبي ، نحو:(هل قام زيدٌ؟) و(هل زيدٌ قائمُ؟) ولمَّا كانت لا تختص بأحد القِبَيلين ، الاسم والفعل ، وتدخل على كل منهما ، كانت من الحروف الهوامل[1]. وقد ذكرت لها المصادر مع هذا المعنى معاني أخر سيأتي بيانها .

إن الكلمات في اللغة قد وضعت ابتداءً لتدل كل واحدة منهن على معنى معين[2] ، فـ(هل) قد وضعت لتدلَّ على **الاستفهام التصديقي الموجب** ، وصارت مختصَّة به ، واستعملت في لغة الحياة اليومية بهذا المعنى ، ولكنَّ المشكلة التي وقع فيها النحاة – والتي أشرت إليها في الفصل الأول[3] – أنَّهم في مرحلة تقعيد اللغة العربية ، خلطوا بين مستويات الكلام ، ولم يعتقدوا ضرورة التمييز بين مستوى اللغة البسيطة الصحيحة التي تستعمل في الحياة اليومية ، والمستوى الفني للغة ، وأبرز مصاديقه يوم ذاك الشعر الجاهلي ، والقرآن الكريم ، الذي نزل ليكون قمة الهرم في الصياغة الفنية البلاغية للغة العربية . لكن النحاة كانوا يعدُّون لغة الأعرابي في فِنَاء قبيلته مثل لغة الشعر في إحدى قصائد المعلقات ، بل لا يختلف عن لغة القرآن الكريم ، فكله عربي يصح لإثبات القواعد النحوية . وأنا لا أقول : إن كلام البدوي في قبيلته وبين أهله ليس عربيا ، ولا أقول : إنه لا يصلح لتقنين قواعد اللغة ، بل أقول : إننا يجب أن لا نخلط قواعد لغة القبائل بقواعد اللغة المشتركة في الأسواق العامة التي تفهمها القبائل كلها ، ولا نخلطها بلغة القصائد التي تلقى في المواسم العامة ، وهي تلقى بلغة العرب الفصيحة المشتركة التي أطلق عليها فيما بعد (لغة قريش) ، ويجب أيضاً أن لا نخلطها بلغة القرآن ، ولا نضع قواعد هذه إلى جنب قواعد تلك ، ونعدها كلها سواء . وكذلك يجب أن لا نخلط لغة القرآن ، بما نقرره من قواعد تخص لغة التعامل اليومي ، ولا نخلط لغة الشعر بقواعد لغة التعامل اليومي ، بل إننا إذا أردنا الدقَّة العلمية يجب أن نتنبه إلى خصائص لغة القرآن الكريم وخصائص لغة الشعر الفصيح المشترك ونميِّز بين كل منهما ، لنكون أكثر إنصافا للغتنا ، وأكثر حفاظا على مقوماتها .

إن ما قرره النحاة من إن أصل الوضع في (هل) ، أنَّها حرف للاستفهام التصديقي الموجب ، غفلوا عنه عندما صاروا إلى تطبيق هذا المعنى على ما وجدوه من استعمالاتها في القرآن والشعر، وصاروا في شبه حيرة من أمرهم ، فمنهم من قال إنها أبدا لا تأتي بمعنى (قد)،

---

١ - ظ : حروف المعاني : ٢ ، معاني الحروف : ١٠٢ ،المخصص:٥٥\١٤، رصف المباني : ٤٠٦ – ٤٠٧، الجنى الداني : ٣٣٩ – ٣٤١، مغني اللبيب : ٤٥٦-٤٥٧ ، مختصر المعاني : ١٣١- ١٣٢ ، الأشباه والنظائر :٢٦٨\٢-٢٦٩، في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٦٦، التراكيب اللغوية في العربية:١٧، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٣٦١.

٢ - هذا إذا استثنينا (المشترك) ، وهي الموضوعة للدلالة على أكثر من معنى في وقت واحد مثل لفظ (عين) التي تدلّ على الحاسة الباصرة ، والجاسوس ، وعين الماء ، والذهب .

٣ - ظ : الفصل الأول : ٣٣- ٣٥.

ومنهم من قال إنها أبدا بمعنى قد [١]، وهذان القولان هما حدَّا الإفراط والتفريط في معنى هذا الحرف ، ومنهم من قال إن لها معاني أخر تدلَّ عليها ، فضلا عن معناها الأصلي الذي وضعت له ، وأرى أنَّ الذي حملهم على هذه الأقوال هو خلطهم لمستويات الكلام البليغة من القرآن الكريم والشعر الفصيح بلغة التعامل اليومي ، وما فيها من حفاظ على التعامل الحقيقي في دلالة الألفاظ ، فاللغة اليومية واللغة العلمية تسعيان إلى المطابقة بين الاستعمال اللغوي والدلالة الحقيقية للفظ ، للتوصل إلى أدقَّ النتائج وأكثرها ضبطا ، لتكون بعيدة عن الشبهات ، والمجاز الذي قد يجرَّ إلى مشكلات معينة ، لا يريدها المتكلم وينأى بنفسه عنها في لغة التعامل اليومي واللغة العلمية ولغة العقود والبيع والشراء وما شاكلها .

في حين تكون لغة الأدب معتمدة بشكل كبير على المجاز، لما فيه من خصائص تكثيف المعنى في العبارة ، ومنحها قدرة عالية على إيصال أكبر قدر من المعنى بأقلِّ قدر من الألفاظ . إن للكلمات في اللغة الأدبية وزنا أثقل من وزنها الطبيعي ، فهي مشحونة بالمعنى في النص الأدبي ، وليست لها تلك القدرة خارج سياق هذا النص الأدبي ، ولعلَّ أهم ما يستعين به الخيال الفني لخلق الصورة الأدبية هو (المجاز) ، وذلك حينما يعمل على نقل مستوى الكلام من الدلالة الحقيقية إلى مستوى الدلالة العاطفية ، فـ((المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع .)) [٢] ، وهذا الكلام المجازي قد يستعصي على معايير الصدق والكذب ، وقد لا نستطيع أن نُحكِّمَ علية قاعدة (صادق أو كاذب) . إنَّه وسيلة التوصيل في اللغة الأدبية ، وهي أكثر تعقيدا منها في لغة التعامل اليومي أو لغة العلم ، لما يتوالد داخل سياق النص فيها من معان ، قد لا تدلَّ عليها الألفاظ خارج هذا السياق [٣].

إنَّ حقيقة الاستفهام هي طلب الفهم[٤] ، أو طلب حصول صورة الشيء في الذهن[٥] ، فهو طلب لما في الخارج ، ويلزم من هذا أن لا يكون حقيقيا إلاَّ إذا صدر من شاكٍّ مصدِّق بإمكان الإعلام ، إذ غير الشاك إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل ، وإن لم يكن يصدِّق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام ، وصار عبثا[٦] . من هنا كان الاستفهام في الاستعمال الشعري والاستعمال القرآني له وضعه الخاص ، وشكله المميز ، ففي الشعر نجده صادر من عالم بنتيجة الاستفهام في أكثر الأحيان ، وإنما يصير إليه للخروج به إلى معان أخر ، وفي القرآن يكون الاستفهام صادرا عن علاَّم الغيوب ، العالم بكل شيء فكيف يستفهم وهو يعلم كل شيء؟ فالاستفهام في القرآن غير حقيقي ؛ لأنه واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الفهم والإعلام ، فإنما يقع الاستفهام في القرآن الكريم على جهة التوبيخ والتقرير ، فالخالق العالم يستفهم خلقه ليقررهم ويذكرهم ، أنهم قد علموا حق الشيء المستفهم عنه وحقيقته ، وأنهم إذا عادوا إلى ضمائرهم وجدوا علم ذلك الشيء حاضرا عندهم ، وهذا أدعى للإقرار بالحقائق [٧]. قال الزمخشريُّ :((فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟ قلت: معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهت به ألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم .)) [٨]، ومن هنا أيضا كان الاستفهام في القرآن في كثير من مواضعه لا يحتاج إلى جواب حقيقي من المخاطب ، وهذا ما

---

١ - ستأتي الإشارة إلى أصحاب هذه الأقوال مفصلا بعد قليل .
٢ - العمدة : ٢٦٦\١ .
٣ - ظ : لغة الشعر في هاشميات الكميت :٢٢-٢٦ .
٤ - توافق على هذا المعنى اللغويين والنحاة والبلاغيين ، ظ : لسان العرب :مادة (فهم) ، الصاحبي في فقه اللغة :١٨١، التعريفات : ٢٧ ، الأمالي الشجريَّة : ٢٦٢\١، الفروق اللغوية : ٢٥ ، شرح المفصل : ٨\ ١٥٠، اللباب في علل البناء والإعراب:١٢٩\٢، البرهان:٣٢٦\٢، في النحو العربي نقد وتوجيه:٢٦٤، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٣٠٧ .
٥ - ظ : مختصر المعاني : ١٣١ ، الأشباه والنظائر : ٦٩\٤.
٦ - ظ : البرهان : ٣٢٦\٢ - ٣٢٧.
٧ - ظ: البرهان:٣٢٧\٢، معترك الأقران:٤٣١\١-٤٣٢، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٣٠٨-٣٠٩.
٨ - الكشاف : ٦٧\٢ وينظر معه : الأمالي الشجريَّة :٢٦٤\١.

أشار إليه أبو حيان في تفسيره قائلا:((وهذا الاستفهام لا يحتاج إلى جواب، وكذا أكثر استفهامات القرآن ، لأنها من عالم الشهادة ، وإنما استفهامه تعالى تقريع .)) [١] .

وكذلك كان الاستفهام في كثير من استعمالاته عند الشعراء لا يحتاج إلى جواب حقيقي ؛ إذ هو استعمالٌ مجازيٌ أيضاً ، فالشاعر لم يكن يريد أن يستفهم حقيقةً ، لأن الاستفهام الحقيقي غرض من أغراض الحياة اليومية ويستعمل في لغة التخاطب اليومي ، وإذا ما أراد الإنسان أن يستفهم عن حالة ما فمن المستبعد أن ينظم استفهامه في أبيات شعرية ، نعم قد يحصل ذلك لكنه من باب النوادر والفكاهة، ولا يقاس عليه ، ولذلك وجدنا أغلب الأبيات لا تتطلب جوابا حقيقيا .

إذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا نتبيَّنُ بشكل واضح خصائصَ استعمال (هل) في الشعر ، والقرآن الكريم ، فهذا الحرف استعمل هنا على نحو المجاز ، والمجاز كما قدمت في النصوص البلاغية يعمل على إعطاء الكلمة قدرةً وقابليةً على أن تحمل لنا معنى أو معاني إضافية فوق معناها الأصلي .

لا يخلو القرآن من مواضع استعملت فيها (هل) بمعناها المركزي ، لكنها كانت من باب الحكاية ، كما في قوله تعالى :﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ ﴾(الأعراف: من الآية٤٤) ، فهذه الآية الكريمة تحكي لنا حوارا بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وضمن هذا الحوار يرد استفهام بـ(هل) ، وهذه الاستفهام حقيقي ، وقد ورد جوابه معه على لسان أصحاب النار (قالوا نعم) ، لكن حقيقة الحال أنَّ هذه الحادثة لم تقع بعد فهي تقع يوم القيامة بعد أن يقضي الله بين الخلق ويذهب كلٌّ إلى مستقره ، فحقيقة التعبير مجازي أيضاً ، والمعنى المراد منه معنى آخر ليس الإخبار بهذه القصة التي ستجرى في يوم القيامة ، بل الخطاب القرآني يريد بها أمرا عبَّر عنه الزمخشريُّ بقوله :((قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة في غمهم، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها .)) [٢] ، وقال أبو حيان فيها:((عبر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه ، وهذا النداء فيه تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين وزيادة في كرب أهل النار بأن شَرفوا عليهم، وبخلق إدراك أهل النار لذلك النداء في أسماعهم .)) [٣] ، فهكذا يكون هذا النداء والاستفهام في الآية إذا نظر إليه من وجه فهو استفهام حقيقي وجوابه معه ، وإذا نظر إليه من وجه آخر تبيَّن أنَّ المراد به الوجه المجازي لاستعماله ، وهو تقريع الكفار والشماتة بما سيؤول إليه حالهم ، وفرح المؤمنين والاغتباط بما يصيرون إليه من رحمة الله تعالى التي وعدهم بها .

ومن الاستعمال الحقيق لهذا الحرف في القرآن ما جاء في قوله ﷻ :﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾(آل عمران: من الآية١٥٤) ، ففي هذه الآية حكاية لقول المنافقين وفيه استفهام (هل لنا من الأمر من شيء) وهذا الاستفهام كان على وجه الحقيقة منهم ، وجاءهم الجواب بالنفي وإقرار أن الأمر كله لله تعالى يحكِّم ما يشاء[٤] .

---

١ - البحر المحيط : ٨٠\٣ .
٢ - الكشاف : ٨٠\٢ .
٣ - البحر المحيط : ٣٥\٥-٦٧ .
٤ - ظ : مفاتيح الغيب : ٣٩٥\٩-٣٩٧ .

إن الاستعمال المجازي لـ(هل) في الشعر أو القرآن الكريم لابدَّ أنه يخرج به إلى أغراض متعددة ، وهذه الأغراض تعتمد بشكل كبير جدا على السياق التي ترد فيه ، والسياق هو الذي سيمنح الحرف داخله دلالات خاصة ، ومعاني إضافية لا يتمكن من تأديتها خارجه ، وقد استعمل هذا الحرف (هل) الذي معناه العام الاستفهام التصديقي الموجب لإفادة معان مختلفة وذلك عن طريق الاستعمال المجازي للاستفهام ، إن الاستعمال المجازي للحرف هو من إفرازات السياق العام للنص الذي يرد فيه ذلك الحرف . استطعت أن أحدد من خلال ما نقلته المصادر عن استعمالات (هل) ومراجعتي المطولة للآيات والأبيات الشعرية عددا من المعاني المجازية التي أفادها هذا الحرف هي :

المعنى الأول : التحقيق

ذكرت بعض المصادر أن (هل) تأتي بمعنى (قد) ، فجعلت هذا المعنى قسيما لاستعمالها الأصلي التي وضعت له [1]، وأشهر ما استشهد به لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً** ﴾(الإنسان:١) ، أي :(قد أتى) ، ونقل ابن هشام[2] عن الزمخشريّ زعمه أن (هل) أبدا بمعنى (قد) ، وأنَّ الاستفهام يستفاد من همزة مقدرة معها ، وقد تركت هذه الهمزة لكثرة استعمالها فيه ، وقد ذُكرت في بعض الشعر وهي داخلة عليها كقول زيد الخير(ت٩هـ) [3] :

(البسيط)

سَـــائِل فَـــوارِسَ يَربـــوعٍ بِشِـــدَّتِنا   أَهَـل رَأَونـا بِسَـفحِ القـاعِ ذي الأَكَـمِ

وتقدير المعنى عندهم :(أ هل رأونا...؟) ، وقد قال الزمخشريُّ في تفسير هذه الآية ما نصه:((هل بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة ، والأصل: (أهل) ، بدليل قوله: (أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ...) فالمعنى: أقد أتى؟ على التقرير والتقريب جميعاً، أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب {حين من الدهر لم يكن} فيه {شيئاً مذكوراً} أي كان شيئاً منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب ،...)) [4] . لا أدري كيف فهم ابن هشام من كلام الزمخشري أنه يزعم أنها أبدا بمعنى (قد) ، في حين نرى الزمخشريَّ يقول : هي بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة ، ثم يعقب فالمعنى : أقد أتى على التقرير والتقريب ، والذي أفهمه من كلام الزمخشري : أنه يقصد أن (هل) داخل سياق الاستفهام أصبح لها معنى (قد) ، وذلك الاستفهام المجازي الذي خرج إلى معنى التقرير والتقريب ، هو الذي أضفى على (هل) هذه الزيادة في المعنى ، وتجدر الإشارة هنا أنَّ صيغة (أهل...؟) لم تستعمل عند الجاهليين كلهم ، كما تبيَّن من إحصاء أشعارهم ؛ ما يجعل من زعم من يرى أن أصلها(أهل) والاستفهام يفهم من همزة مقدرة معها كانت ترافقها دوما زعما نظريا أكثر منه تطبيقيا ، وقد يكون زيد الخير أول من يردنا عنه هذا الاستعمال ويحتمل أنه أعاد حرف الاستفهام من باب التوكيد .

---

١ - ظ :الكتاب:١\١٠٠، مجاز القرآن:٢\٢٧٩، تأويل مشكل القرآن:٤١٠، المقتضب:١\٤٣، ٣\٢٨٩، الخصائص:٢\٤٦٢، حروف المعاني:٢، معاني الحروف:١٠٢، الكشاف:٤\٦٦٥، البيان في غريب إعراب القرآن:٢\٤٨٠، التبيان في إعراب القرآن: ٢\٢٧٥، البحر المحيط:٨\ ٣٩٣، رصف المباني:٤٠٦–٤٠٧، الجنى الداني:٣٤٠–٣٤١، مغني اللبيب:٤٥٩-٤٦٠، همع الهوامع :٢\٧٧، ٧٨ ، في النحو العربي نقد وتوجيه :٢٦٩، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٣\٤٩٤.

٢ - ظ : مغني اللبيب : ٤٦٠ ، في النحو العربي نقد وتوجيه :٢٦٩.

٣ - ديوان زيد الخيل:١٠٠، وينظر معه:اللمع في العربية :٣٦٠، الجنى الداني:٣٤٠، مغني اللبيب:٤٦٠ .

٤ - الكشاف : ٤\١٩٤ ، وينظر معه شرح الرضي على الكافية : ١\٤٥٩ ، ٤\١١٣ .

ويستمر ابن هشام في ردّه على الزمخشري الذي يعتقد أنه وجماعة آخرين يرون أن (هل) أبدا بمعنى (قد) ، وليست بنا حاجة إلى تتبع ردّه عليهم[1] ، ثم يذكر بعد ذلك أنَّ قوما آخرين زعموا أنَّ (هل) لا تأتي بمعنى (قد) أصلا ، ويرى أنَّه الصواب ، وأنها في الآية هذه الآية: ((للاستفهام التقريري ، والمُقرَّرُ به من أنكر البعث ، وقد علم أنهم يقولون : نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه ، فيقال لهم : فالذي أحدث الناس بعد أن لم يكونوا كيف يمتنع عليه إحياؤهم بعد موتهم ؟ وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(الواقعة:٦٢) ، أي فهلاَّ تتذكرون فتعلمون أنه : من أنشأ شيئا بعد أن لم يكن ، قادرٌ على إعادته بعد عدمه؟))[2]، إن ما يؤول إليه المعنى سواء أخرَّجناه على رأي الزمخشري أم على رأي ابن هشام قريبٌ بعضه من بعض جدا ، ولكن السؤال الذي يبقى قائما : هل يسمح سياق ما للاستفهام أن تفيد (هل) فيه معنى (قد) ، أعتقد أنَّ ما أشار إليه الزمخشري له أمثلة أخرى فـ(هل) قد يجرها معنى الاستفهام المجازي إلى أن يخرج بها إلى معنى (قد) على معنى التقرير . وقد استطعت أن أرصد لـ(هل) (٩) تسعة استعمالات قرآنية يمكن أن تؤول بهذا المعنى[3] .

لقد أشار كمال محمد بشر إلى أهميَّة علم الأصوات في دراسة اللغة ، مبينا إمكانيَّة التفريق بين الجمل الإثباتيَّة والجمل الاستفهاميَّة على أساسٍ صوتيٍّ ؛ فالتنغيم أو التلوين الموسيقي جزء لا يمكن تجاهله من بين عناصر الدلالة في الجملة ، ويمكن أن يكون فيصلا وحكما في تشخيص الجُمَلِ هل هي إثباتيَّة أو استفهاميَّة حقيقيَّة ؟ [4] ، ويرى في قول المفسرين واللغويين في آية الدهر أنها (للاستفهام التقريري) خروجا من الحقيقة إلى المجاز في استعمال (هل) ((وفيصل الأمر في رأينا هو التنغيم والموسيقى .)) [5] إنَّ طريقة إلقاء الجملة على المتلقي هي التي تُفهمه هل كان المتحدث يريد الاستفهام الحقيقي أو المجازي (التقرير)؟ ولقد استثمر القرآن الكريم الجانب الصوتي خير استثمار في إيصال المعنى إلى المتلقي ، لكن قد يتعيَّن على المفسِّر للقرآن الكريم الاستعانة بالقرائن المتعددة لتحديد هذا المعنى دون ذاك . وبالجملة فإنَّ التنغيم الذي له أثره الكبير في تحديد بعض المعاني في الكلام ما هو إلاَّ جزء السياق وبعض ملابسات الكلام ، وبذا يكون هذا الفهم متفقا مع ما افترضه الفصل من كون السياق قوَّة مؤثرة في تكوين المعاني الهامشية للحروف .

ومن أمثلة هذا الاستعمال قوله تعالى:﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾(يوسف:٨٩) ، قال ابن الجوزيُّ :((إن (هل) بمعنى (قد) ذكره بعض أهل التفسير.)) [6] ، ، ومنها أيضاً قوله ﷻ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾(طه:٩) ، قال الرازي : ((قوله: { وهل أتاك} وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب في قلبه ، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك ، كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يرمى إليه ، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبي عليه السلام لا من قبل الله تعالى.)) [7] ، وقيل :((وهل أتاك حديث موسى هذا استفهام تقرير، ومعناه : (قد أتاك) قال ابن الأنباري : وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي هل معبرة عن (قد) ،

---

١ - ظ : مغني اللبيب : ٤٦٠ - ٤٦١.
٢ - ظ : المصدر نفسه : ٤٦١ .
٣ - يمكن مراجعتها في الفصل الثالث : ٢١٤.
٤ - ظ : علم اللغة العام (الأصوات) : ١٨٩- ١٩٩.
٥ - نفسه : ١٨٩.
٦ - زاد المسير:٢١٠\٤، وينظر معه:التبيان:١٨٧\٦، مجمع البيان:٤٤٨\٥، الجامع لأحكام القرآن:٢٥٥\٩، فتح القدير:٥٢\٣ .
٧ - مفاتيح الغيب : ١٥\٢٢ .

فقد قال رسول الله 9 وهو أفصح العرب: اللهم هل بلغت؟ يريد : قد بلغت .))[1] ، وهكذا فإن هذا المعنى نستطيع أن نتلمس له شواهد أخرى . هذا من جهة القرآن الكريم .

ومن الشعر يمكن أن نحمل بعض أبيات أصحاب المعلقات على هذا المعنى ، منها قول الحارث بن حلزة [2]:

(الخفيف)

هَــل عَلِمـــتُم أَيّـــامَ يُنتَهَـــبُ النـــا (م) سُ غِـــواراً لِكُـــلِّ حَـــيٍّ عُـــواءُ

المعنى هنا يمكن أن يكون قد علمتم أيام يُنتَهَبُ الناس في الغارات ويكون لكل حي عواء وصياحٌ ، فإن لنا في تلك الأيام شأنا . ومنها أيضا قول عمرو بن كلثوم [3]:

(الطويل)

أَلا هَــل أَتــى بِنــتَ الثُــوَيرِ مَغارُنــا عَلى حَيِّ كَلبٍ وَالضُحى لَم تَرَحَّـلِ

أي قد أتى بنت الثوير أخبار غارتنا على حي كُليب مصبحين [4].

ثم إن التحقيق قد يكون معه التأكيد فيكون **بمعنى (إنَّ)** وقد خرج الاستفهام إلى هذا المعنى المجازي فحمَّل (هل) أداء هذا المعنى مع معناها الأصلي ، وقد حملوا عليه قوله تعالى:﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** ﴾(الفجر:٥) ، قال الرازي :((استفهام والمراد منه التأكيد كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال : هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية ، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه .)) [5] وقال الطبري معناه :((إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه في الأقسام .))[6] ، إن هذا المعنى الذي فهمه قلّة من المفسرين لم أجد له نماذج أخرى تصلح أن تحمل على مثله ، وقد ضعفه ابن هشام وعدَّه قولا بعيدا ، فهو يرى الاستفهام هنا للتقرير[7] . لقد قدمت في بداية الكلام إن المجاز قد يستعصي على قاعدة (صادق أو كاذب) ، ومادام الاستفهام هنا مجازيا فلعلَّ مفسرا يفهم منه وجها لمعنى ما ويرفضه الآخر في حين يفهم الآخر وجها لا يراه الأول ، وفهم كل منهم مرتكز على قرائن معينة تظهر له من خلال السياق العام للنص .

المعنى الثاني : النفي

قد يخرج الاستفهام بـ(هل) إلى الإنكار ومن أهم معاني الإنكار النفي ، ويمكن إن يقسَّم الإنكار الذي يخرج له الاستفهام في المجاز من حيث (المَنْكُور) على ثلاثة أوجه : إنكار على من ادعى وقوع الشيء، نحو قولنا: (أتقول زيد مريض) ، وإنكار على من أوقع الشيء ، نحو : (أتضرب زيدا وهو أخوك) ، وإنكار لوقوع الشيء ، وهذا هو معنى النفي ، وهذا الذي تنفرد به(هل) عن الهمزة ، في حين تأتي الهمزة في النوعين المتقدمين [8].

---

١ - زاد المسير : ١٩٠\٥، وينظر معه : مجمع البيان : ١٢\٧ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٧١\١١، فتح القدير : ٣٥٧\٣ .
٢ - ديوان الحارث بن حلزة : ١٢.
٣ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١٢٥.
٤ - وهنالك مواضع أخرى يمكن مراجعتها في الفصل الثالث : ٢١٤ .
٥ - مفاتيح الغيب : ١٤٨\٣١ .
٦ - جامع البيان ٣٠|٢١٧ .
٧ - ظ : مغني اللبيب : ٤٦٢ .
٨ - ظ : مغني اللبيب : ٤٦٠ .

ولقد كان خروج الاستفهام إلى معنى الإنكار بارزا وحاضرا في استعمالات الشعراء لـ(هل) ، وقد يُحَتِّمُ السياقُ على (هل) أن تكونَ مثل (ما) النافية ؛ ولهذا دخلت على الخبر بعدها (إلاَّ) ، وقد وردت في أشعار أصحاب المعلقات ، فمنها قول لبيد[1]:

(الطويل)

هَـلِ الـنَفسُ إِلاَّ مُتعَـةٌ مُسـتَعارَةٌ تُعـارُ فَتَـأتي رَبَّهـا فَـرطَ أَشـهُرِ

أي ما النفس إلاّ متعةٌ مستعارةٌ [2] .

وكذلك استعملها عنترة بهذا المعنى قائلا [3]:

(البسيط)

فَسـائِلي فَرَسـي هَـل كُنـتُ أُطلِقُـهُ إِلاَّ عَلـى مَوكِـبٍ كَاللَيـلِ مُحتَبِـكِ

وَسـائِلي السَيفَ عَنّي هَل ضَرَبتُ بِـهِ يَـومَ الكَريهَـةِ إِلاَّ هامَـةَ المَلِـكِ

وَسـائِلي الـرُمحَ عَنّي هَـل طَعَنتُ بِـهِ إِلاَّ المُـدَرَّعَ بَـينَ النَحـرِ وَالحَنَـكِ

فالاستفهام المجازي جعل معنى (هل) في هذه الأبيات مثل معنى (ما) النافية ، وقد استعمل امرؤ القيس (هل) مرّة مع (إلاَّ) واستعملها مرَّة مع (غير) لتعطي معنى (ما) النافية في الموضعين ، قال امرؤ القيس [4]:

(الطويل)

أُغـادي الصَّـبُوحَ عِنـدَ هِـرٍّ وَفَرتَنـى وَليـداً وَهَـل أَفنـى شَـبابِيَ غَـيرُ هِـرّ

أي : ما أفنى شبابي إلاَّ حبيبتي (هر) .

ومن موارده هذا الاستعمال المجازي لـ(هل) في القرآن قوله تعالى :﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ**﴾(البقرة: من الآية٢١٠) ، قال القرطبيُّ : ((«هل» يراد به هنا الجَحْد ، أي ما ينتظرون إلاَّ)) [5] ، ومثلها أيضاً قوله ﷻ :﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً**﴾(الإسراء: من الآية٩٣) ، ((أيْ : ما أنا «إلاّ بشراً رسولاً» أتبع ما يوحى إليّ من ربّي))[6].

ربّي))[6]. وأُكرر هنا أن السياق الذي وردت فيه (هل) هو المسؤول عن إخراجها إلى هذا المعنى المجازي ، فالنفي هنا نفي ضمني أي حصل ((بأداة غير صريحة في النفي ،...، وهو يستفاد من السياق ، ومن المواقف الكلامية (المقام) ، وهذا يعني أن هناك أدوات تنتقل من معناها الوظيفي أو المعجمي إلى معنى آخر ، إذا ما وضعت في تركيب لغوي معيَّن .)) [7]، فليس دقيقا أن نقول إن (هل) تساوي (ما) النافية ، بل الأصح أن يقال قد ترد (هل) ضمن سياق

---

١ - شرح ديوان لبيد : ٥٧ .
٢ - وله أيضاً بيت آخر من السريع في الصفحة: ٣٥٧ يحمل على هذا المعنى.
٣ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٢٩، وينظر معه : أشعار عنترة العبسي :٢٧٠.
٤ - ديوان امرئ القيس : ١١٠، وينظر معه : شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٢٥٨\١ .
٥ - الجامع لأحكام القرآن : ٢٥\٣ .
٦ - المصدر نفسه :٣٢٧\١٠ .
٧ - أساليب النفي في العربية :٢٢٥ .

الاستفهام المجازي بمعنى النفي ، ولا أرى عبارة القرطبيّ المتقدمة إذ قال بها عن (هل) يراد بها الجحد دقيقة ، فالاستفهام المجازي هنا مستعمل لتقرير الجحد على الكافرين .

وقد يخرج بها السياق إلى جهة معان مجازية أخرى منها التوبيخ والتقرير ، فيكون معناها المستلُّ منها معنى (ليس) أو معنى (لا) النافية ، وكانت هذه الطريقة شائعة في أشعار أصحاب المعلقات ، منها قول امرئ القيس[1]:

(الطويل)

أَلا عِـم صَـباحاً أَيُّهـا الطَّلَـلُ البـالي ... وَهَـل يَعِمَـن مَـن كـانَ في العُصُـرِ الخـالي

وَهَـل يَعِمَـن إِلّـا سَـعيدٌ مُخَلَّـدٌ ... قَليـلُ الهُمـومِ مـا يَبيـتُ بِأَوجـالِ

وَهَـل يَعِمَـن مَـن كـانَ أَحـدَثُ عَهـدِهِ ... ثَلاثيـنَ شَـهراً في ثَلاثَـةِ أَحـوالِ

الاستفهام الإنكاري في البيت الأول يجعلنا نفهم من (هل) معنى (لا) النافية أي : (ولا يعمن من كان في العصر الخالي) ، أما في البيت الثاني فتُـوَظَّفُ (هل) فيه لتُعطيَ معنى (ما) النافية ومن ثم تفيد هي و(إلاَّ) الواردة معها معنى الحصر والقصر ، أما في البيت الثالث فتعود لتعطي لنا معنى (لا) أي :(ولا يعمن من كان أحدثَ ...) ، فالحرف واحد (هل) لكن الاستفهام وظَّفه لإفادةِ معانٍ متعددةٍ ، وهذا هو سحرُ المجازِ في اللغة وسببُ الاعتماد عليه كثيرا في النصوص الأدبية عموما والشعرية بصورة خاصة . ومثل هذا الاستعمال قول طرفة[2]:

(الطويل)

أَلا أَيُّهَـذا الزَّاجِـري أَحضُـرَ الـوَغى ... وَأَن أَشـهَدَ اللَذّاتِ هَـل أَنـتَ مُخلِـدي

التقدير: أنك لست بمخلدي ، فطرفة يُنكر على من يلومه أنَّه يحضر الوغى ويحضر اللذات، ويستفهم مقررا له ومنكرا عليه ، هل يضمن له الخلود إن امتنع مما لامه لأجله .

ومثل هذا المعنى أيضاً قول الحارث بن حلِّزة [3]:

(الخفيف)

كَتَكـاليفِ قَومِنـا إِذ غَـزا المُنـ (م) ـذِرُ هَـل نَحـنُ لابـنِ هِنـدٍ رِعـاءُ

فالحارث يُنكر على ابن هند أن يكونوا عبيدا لهم ، أي لسنا عبيدا له . إن هذا المعنى تكرر كثيرا في أشعار أصحاب المعلقات .

وكذلك كان شائعا في القرآن الكريم أن يستعمل أسلوب الاستفهام الإنكاري ليفيد معنى النفي ، ولتعطي فيه (هل) معنى (ليس) أو (لا) ، فمن أمثلة الأول قوله تعالى:﴿ **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾(يونس: من الآية٣٤) ، قال القرطبيُّ :((أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير؛ فإن أجابوك وإلاَّ فـ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ يَبْدأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ وليس غيره يفعل ذلك.))[4] ، فهذا الاستفهام الإنكاري يخرج إلى معنى التوبيخ والتقرير ، والجواب ليس مطلوبا فيه على وجه الحقيقة ، فسكوتهم يعني إقرارهم ، وسكوتهم يعني أن ليس من شركائهم من يفعل

---

١ - ديوان امرئ القيس :٢٧ ، وينظر معه : شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٢٥٨\١ .
٢ - ديوان طرفة بن العبد : ٢٧ ، ديوان طرفة(درية الخطيب):٤٥، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:١٩٢.
٣ - ديوان الحارث بن حلزة : ١٤ ، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٤٨٧.
٤ - الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٠\٨ .

ذلك . ومثله قوله ﷻ :﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ** ﴾(ق:٣٦) ، قال الرازي ((استفهام بمعنى الإنكار ، أي لم يكن لهم محيص .)) [١] ، أيْ : ليس لهم من محيص .

وقد يجعلها الاستفهام الإنكاري بمعنى (لا) النافية ، مثل قوله تعالى :﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾(الأنعام: من الآية٥٠) ومثلها قوله ﷻ :﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾(هود:٢٤) ، وكذلك :﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** ﴾(الرعد: من الآية١٦) ، قال النحاس :((أيْ : كما لا يستوي العالم والجاهل كذا لا يستوي المطيع والعاصي .)) [٢] .

المعنى الثالث الأمر :

هنالك بعض المواضع استعملت فيها (هل) في استفهام مجازي يراد به معنى الأمر أو النهي[٣]، منها قوله تعالى :﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾(المائدة: من الآية٩١) ، أي: انتهوا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾(هود: من الآية١٤) ، أي :أسلموا ، وكذلك :﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾(الأنبياء:من الآية٨٠) ، أي : اشكروا ، قال الرازي في تفسير آية المائدة :((واعلم أن هذا وإن كان استفهاماً في الظاهر إلا أن المراد منه هو النهي في الحقيقة ، وإنما حَسُنَ هذا المجاز ؛ لأنه تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها للمخاطب ، فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلاَّ على الإقرار بالترك ، فكأنه قيل له : أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر فصار قوله {فهل أنتم منتهون} جارياً مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء مقروناً بإقرار الملكف بوجوب الانتهاء .))[٤]، وقال في تفسير آية الأنبياء :((أي اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة .)) [٥] . إن المعنى الذي خرجت له (هل) ما كانت لتؤديه لولا ورودها في استعمال مجازي للاستفهام ، فهي خارج الاستفهام لا تؤدي معنى الأمر البتة ، إذن السياق الذي وردت فيه هو الذي مكنها من إعطاء معنى جديد فضلا عن المعنى الموضوعة له في أصل الوضع .

هذه هي المعاني الهامشية التي أدتها (هل) ضمن سياق الاستفهام المجازي في القرآن الكريم ودواوين أصحاب المعلقات ، وما كان لها أن تؤديها خارج سياق الاستفهام المجازي . في حين كانت المصادر تذكر هذه المعاني على أنها معان أصلية يؤديها الحرف بنفسه ، ولو فرقت بين مستوى الاستعمال المجازي للغة ومستوى استعمالها العادي في لغة التعامل اليومي لعلها لم تذكر تلك المعاني على أنها معان حقيقية لـ(هل) ، بل هي معان مجازية يتوصل إليها من خلال السياق وهذا هو معنى قولنا بالمعنى المركزي للحرف والمعاني الهامشية .

---

١ - مفاتيح الغيب:١٤٩\٢٨، وينظر معه:التبيان :٣٧٣\٩، مجمع البيان :٢٤٩\٩، تفسير الثعالبي :٢٩١\٥، فتح القدير:٨٠\٥ .
٢ - معاني القرآن : ١٥٩\٦، وينظر معه : التبيان : ١٤٢\٤، ٤١٠\٦ ، مجمع البيان : ٢٥٩\٥ ، تفسير الثعالبي : ٣ \ ٣٦٦ .
٣ - ظ : الأمالي الشجريَّة :٢٦٤\١ .
٤ - مفاتيح الغيب : ٤٢٤\١٢ ، وينظر معه مجالس ثعلب :٥٨٨\٢ ، والأمالي الشجريَّة :٢٦٤\١.
٥ - مفاتيح الغيب : ١٦٨\٢٢-١٦٩ .

ثاني عشر : (يَا)

للنداء في كلام العرب ستَةُ أحرف[1] ، وأكثر هذه الأحرف استعمالا هي (يا) فهي أُمُّ الباب في أحرف النداء ، و(يا) حرف موضوع لنداء البعيد حقيقةً أو حكماً ، وإنما كانت مختصةً بالبعيدِ ؛ لأنها تنتهي بـ(الألف) مما يسمح للناطق بها أن يمدَّ صوته بها كما يريد وبحسب حاجته لذلك [2] ، وقد ينادى بها القريب توكيدا وزيادة في الانتباه ، وقيل هي مشتركة بين القريب والبعيد ، وقيل بينهما والمتوسط [3]. والمراد بالبعيد حكما النائم والغافل والساهي ، وإن كان قريبا من المنادي ؛ لأن أي فرد من هؤلاء لا يقبل على المُنادِي إلاَّ مع الجهد ورفع الصوت ومدَّه ، ومن أمثلة المنادى البعيد قول النابغة الذبياني [4] :

(البسيط)

يـــا دارَ مَيَّـــةَ بِالعَليـــاءِ فَالسَـــنَدِ　　　أَقــوَت وَطــالَ عَلَيهــا ســالِفُ الأَبَــدِ

ولما كانت الدار لا تجيب النداء أنزلت منزلة البعيد ، ومن نداء المتوسط بها قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾(هود: من الآية٥١) ، ومن أمثلة نداء القريب بها قولنا : يا رجل و يا أيها الرجل . وقد حمل سيبويه نداء القريب من المتكلم والملتفت إليه بـ(يا) على معنى التوكيد قائلا : ((كما تقولُ للذي هوَ مقبلٌ عليك بوجهه ، مستمعٌ منصتٌ لك :(كذا كان الأمرُ يا أبا فلان) توكيدا .)) [5]، وزاد الزمخشريُّ على معنى التأكيد معنى العناية بما بعد النداء ، قائلا :((فإذا نودي به القريب المُفَاطِن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جداً .)) [6] . وقد وقد يراد زيادة شدَّة الانتباه للحديث لأهميته فيصار إلى خطاب المُتَحدَّث معه في أثناء الحديث ، وهذا جار عندنا حتى اليوم ، فحين أنت تُحدِّث وإذا بك تقول لشخص معين : (يا أبا فلان) طالبا منه أن يلتفت إليك بكله . وهذه الإضافات كلها معان هامشية يضفيها السياق على الجملة .

---

١ - ظ :الأصول في النحو : ٤٠٠، اللمع في العربية : ١٩٨، شرح المفصل : ١١٨\٨، شرح ألفية ابن مالك :٢١٩- ٢٢٠ ، النداء في العربيَّة :٩.

٢ - ظ : الكتاب : ٢٢٩\٢-٢٣٠ ، المقتضب : ٢٣٣\٤ ، حروف المعاني : ١٩، البيان في شرح اللمع :٢٦٦ ، شرح المفصل : ١١٨\٨ ، مغني اللبيب : ٤٨٨، الأشباه والنظائر : ١٢٤\٢- ١٢٥ ، النداء في العربيَّة : ١٣- ١٤.

٣ - ينظر مع المصادر المذكورة في الهامش المتقدم : الأصول في النحو : ٤٠٠-٤٠١ ، معاني الحروف :٩٢ ، الكشاف : ٢٤٤\١ ، البرهان : ٤١٥\٢، رصف المباني :٤٥١-٤٥٢، الجنى الداني:٣٤٩-٣٥٠، القاموس المحيط : مادة (يا) :٤١٥\٤ ، الأشباه والنظائر: ٧٨\٣.

٤ - ديوان النابغة الذبياني : ٣٧ .

٥ - الكتاب : ٢٣٢\٢ .

٦ - الكشاف : ٢٢٤\١ .

وقال بعض النحاة إن (يا) تأتي **للتنبيه المجرد** عندما يليها ما ليس بمنادى ، وهو أحد خمسة أشياء[1] :

١- الأمر ، ((ألا يا اسجدوا)) في قراءة للزهري والكسائيّ[2] ، ومنه قول الشَّمَاخ بن ضرار الذبياني(ت٢٢هـ) [3] :

(الطويل)

أَلا يا اسقِياني قَبلَ غارَةِ سِنْجَالِ وَقَبلَ مَنايا باكِراتٍ وَآجالِ

٢- الدعاء ، كقول الشاعر[4] :

(البسيط)

يَا لَعْنَةُ اللهِ والأقوامِ كُلِّهِمُ والصالِحينَ على سِمْعَانَ من جارِ

٣- ليت ، نحو قوله تعالى :﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾(الفرقان: من الآية٢٧).

٤- ربَّ ، نحو قول الشاعر[5] :

(الرجز)

يَا رُبَّ سَارٍ بَاتَ مَا تَوَسَّدا إلاَّ ذِرَاعَ العِيسِ أوْ كَفَّ اليَدَا

٥- حبذا ، كقول جرير(ت١١٠هـ) [6] :

(البسيط)

يا حَبَّذا جَبَلُ الرّيانِ مِن جَبَلٍ وَحَبَّذا ساكِنُ الرّيانِ مَن كانا

فـ(يا) في مثل هذه المواضع المتقدمة حرفُ تنبيه لا حرفَ نداءٍ على رأي هؤلاء ، وقالت طائفة أخرى من النحاة : إنها التي للنداء ، والمنادى محذوف ، والتقدير (ألا يا هؤلاء اسجدوا) ، و(ألا يا هذان اسقياني) ، وقد رُدَّ عليهم بأمرين : بأن (يا) قد نابت مناب الفعل المحذوف ، ولو حذف المنادى لزم حذف الجملة بأسرها ، وهذا إجحاف ، وثانيهما : أن المنادى معتمد المقصد فإذا حذف تناقض المراد . وقد نقل عن ابن مالك التفصيل ، إذ يرى إن وليها الأمر أو الدعاء فهي للنداء ، والمنادى محذوف ، لكثرة وقوع النداء قبلهما ، وإن وليها : (ليت) أو (ربَّ) أو (حبذا) فهي للتنبيه[7]. وأعتقد أنَّ الخلاف المزعوم هو خلاف شكلي في المصطلح لا حقيقة له ، وذلك لسببين :

السبب الأول :

النداء واحد من أساليب الطلب في اللغة العربية ، ويراد به ((تنبيه المدعو ليقبل عليك))[8]،((لتخاطبه بما تريد أن تخاطبه به وليس النداء إخبارا ولا استخبارا ولا أمرا ولا نهيا نهيا ولا عرضا ولا تمنيا ، وإنما تلقي إلى المدعو من هذه المعاني ما شئت بعد دعائك إياه

---

١ - ظ : رصف المباني:٤٥٢-٤٥٣، الجنى الداني:٣٤٩-٣٥٠، مغني اللبيب:٤٨٨-٤٨٩، دراسات لأسلوب القرآن الكريم٣\٦٣٧.

٢ - ظ : النشر في القراءات العشر : ٢\٣٢٣.

٣ - ديوان الشماخ : ٤٥٦، وروايتها في الديوان :(ألا يا اصحباني ...) وينظر معه : الكتاب :٤\٢٢٤ ، المخصص : ١٤\٥٦ ، شرح المفصل : ٨\١١٥ ، النداء في العربيَّة :١٦.

٤ - قائله مجهول ، ينظر : الكتاب:٢\٢١٩، أخبار أبي القاسم الزجاجي: ١٥٣ ، شرح المفصل : ٨\١٢٠ ، النداء في العربيَّة :١٥.

٥ - قائله مجهول ، وينظر : الجنى الداني : ٣٥٠، جواهر الأدب : ١٧٢ ، خُزَانَةُ الأَدَب :٧\٤٩٨ .

٦ - ديوان جرير : ٥٩٦ ، وينظر معه : الجنى الداني : ٣٥٠، خُزَانَةُ الأَدَب : ١١\١٩٩.

٧ - ظ : رصف المباني : ٤٥٢-٤٥٣ ، الجنى الداني :٣٤٩- ٣٥٠، مغني اللبيب : ٤٨٨-٤٨٩ ، النداء في العربيَّة :١٥- ١٦.

٨ - الأصول في النحو : ١\٤٠١، وينظر معه النداء في العربيَّة : ٢.

.))[1] أو بعبارة ثانية :((التصويت بالمُنَادَى ليَعْطِفَ على المُنَـادِي .))[2] ، وقال عنه التفتازانيُّ إنه :((طلبُ الإقبالِ بحرفٍ نائبٍ منابَ (أدعو) لفظا أو تقديرا .))[3] . فأصلُ النداء يَكْـمُنُ في طلب لفت الانتباه إليك وجلبِ فكرِ المُنَادَي نحوكَ . والنداءُ ليسَ مقصـوداً لنفسـه ، إنَّما يُصَـارُ إلى النـداءِ ((لتنبيه المُخَاطَبِ ليَصغِي إلى ما يَجِيءُ بعدَّهُ من الكلامِ .))[4] . فالغايةُ منه وصول مفهوم الكلام التالي للنداء إلى المتلقي غير الملتفت إلى المتكلم ، فينبهه بالنداء .

وما معنى (التنبيه) الذي جعلوه قبالـة (النداء) إلاَّ التَفَطـُّنَ والوقوفَ على الشـيء ، ولفت النظر إلى ما تريد [5] ، و(التنبيه) مصطلح يفضي إلى وجود شخصٍ غير ملتفتٍ يُرادُ تنبيهه ، وشيء يراد التنبيه عليه ، ومُنَبه ينبه الغافل على الشيء . هذه العملية في حقيقتها مطابقة تماما للنداء الذي يتطلب أيضاً شخصا غير ملتفت إليك ، وموضوعا تريد أن تبينه له ، ونداءً وهو المُنَبِّه ، فما الفرق بين الاثنين ، ولا يمكن أن يَدَّعُوا أن التنبيه للحاضر أو القريب أو من أنت مشغول معه في الحديث ، والنداء لغير هؤلاء ، فكل هذه المواطن قالوا إنها يصح معها النداء ، فأما القريب فيصح نداؤه إذا كان بمنزلة البعيد ، فكان نائما أو ساهيا أو مشغول الذهن لدرجة كبيرة ، حتى أننا نجهد في النداء وقد نكرره أكثر من مرَّة إلى أن نلفت عنايته لنا ، وقد ننادي القريب بـ(يا) لنواح بلاغية مختلفة [6]، وأما الحاضر، فهو إما حاضر قريب أو بعيد وكل منهما يصح أن نناديه بـ(يا) وبغيرها لنصرف عنايته لنا ، وأما من كنا مشغولين معه بحديث فهذا أيضاً يصح نداؤه لزيادة الانتباه والتنبه لأهمية الشيء المراد طرحه ، أو للتأكيد ، أو لنواح بلاغية أخرى .

التنبيه ليس مقصودا لذاته ، والنداء - كما قدمنا قبل قليل - ليس هو الغاية بل الغاية في كليهما أن يصل ما بعدهما من مفهوم الخطاب إلى المتلقي . فالتنبيه هو النداء والنداء هو التنبيه ولا فارق حقيقيا بينهما ، وما ذكره العلماء من خلافٍ خلافٌ غير واقعيٍّ خلافٌ في المصطلح لا في حقيقة الشيء .

ومن الطريف في الأمر أن المالقيّ قال عن (يا) : ((حرفٌ من حروف التنبيه ، يُنَادَى به مرَّة ، ولا يُنادى به أخرى)) وقال بعد قليل :((وأما إذا لم يكن بعده المنادى فتكون للتنبيه لا غير.)) [7] ، وهل التنبيه يكون إلاَّ لشخص غيرَ مُنتَبِهٍ ، إن اختلافَ التسمية كان مَخْرَجَاً لبعض العلماء مما وقعوا به من إشكال في تركيب الجملة ، وقَصْرِهَا على نوعين فقط ، وهذا ما سأذكره في النقطة الآتية . ووافق المراديُّ المالقيَّ في رأيه فقال :(((يا) حرف تنبيه ، وهي قسمان : الأول : أن تكون لتنبيه المنادى ، نحو(يا زيد) ، فهي في هذا حرف نداء ، وهي أمُّ باب النداء ،...، الثاني : أن تكون لمجرد التنبيه لا للنداء .)) [8] ، أرى أن هذا تلاعب بالألفاظ لا لا طائل منه ، فمن يشاء أن يسميها تنبيها فله ذلك ، ومن يشاء أن يسميها حرفَ نداء فليفعل ، فالمعنى واحد ولا فارق بينهما .

السبب الثاني :

قَسَّمَ العلماءُ الإسنادَ على نوعين إسنادٌ فعلي وإسنادٌ اسمي ، فكانت بذلك الجملة اسمية وفعلية ، ولم يكن تقسيمهم هذا مطردا لهم فسرعان ما ظهرت لهم مشكلة في مثل (النداء) ،

---

١ - الأمالي الشجريَّة : ٢٧٣\١.
٢ - شرح المفصل : ١١٨\٨ .
٣ - مختصر المعاني : ١٤٢.
٤ - أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٢١٨، وينظر معه: الجملة العربية وتطورها الدلالي بين النحويين والأصوليين:١٥٥.
٥ - ظ : مادة(نبه) في : العين : ٥٦\٤ ، تاج اللغة وصحاح العربية : ٢٢٥٢\٦ ، لسان العرب : ٥٤٦\١٣ .
٦ - ظ : الكشاف : ٢٢٤\١-٢٢٥ ، شرح المفصل : ١٢١\٨ ، الإتقان : ٨٣\٢ ، معترك الأقران : ٤٤٨\١ .
٧ - رصف المباني :٤٥١ ، ٤٥٢ .
٨ - الجنى الداني : ٣٤٩ .

ولقد تنبه بعض النحويين المتأخرين إلى خصوصية النداء في الإسناد ، قال الأشمونيُّ : ((وأقلُّ ما يكون منه ذلك [أي الإسناد] اسمان ، نحو :(ذا زيدٌ) أو فعل واسم ، نحو:(استقم) و(قائمٌ زيد)، بشهادة الاستقراء ، ولا نقض بالنداء فإنه من الثاني)) ، قال الصبان(ت١٢٠٦هـ) في شرح هذا الكلام :((وقوله :(ولا نقض بالنداء) أي الجملة الندائية ، فإنه أي عند الجمهور من الثاني ، أي المركب من اسم وفعل ؛ لأن (يا) نائبة عن (أدعو) وهو فعل .))(١) . وتوافق على هذا الرأي أكثر العلماء .

ويبدو أن سيبويه كان له رأيٌ آخر في جملة النداء ، فسيبويه كان قد قسم في كتابه الإسناد على ثلاثة أصنف – وإن لم يتنبه إلى ذلك الكثيرون – الإسناد الاسمي ، والإسناد الفعلي ، والنوع الثلث الإسناد الذي يعتمد على الأداة ويجري مُجرى الفعل في تأثيره في الأسماء ، وقد جمع تحت هذا النوع :(النداء ، الحروف الخمسة ، كم ، النفي بـ(لا) ، الاستثناء بـ(إلاَّ) وما أشبهها) هذه الأصناف الخمسة تتكون الجملة فيها من أداة تعمل هي بنفسها في الاسم الذي تتعلق به كما كان الفعل يعمل في الاسم الذي يتعلق به ، وقد عالج سيبويه هذه المواضيع في أبواب متتابعة تدلُّ على رؤيته الواضحة والصريحة لأنها قسمٌ قائم برأسه فبدأ بأبواب الحروف الخمسة قائلا : ((الحروف الخمسة ، التي تعمل في ما بعدها ، كعمل الفعل فيما بعده ،...)) ، وآخر أبواب هذا النوع هو باب :((باب لا يكون ، وليس ، وما أشبههما)) (٢) ، وكان عدد أبواب هذا الإسناد خمسة وستين بابا من ضمنها أبواب النداء والندبة والترخيم ، وهذه الأخيرة ملحقة بأبواب النداء.(٣)

إن تقسيم سيبويه هذا - الذي لا يكون فيه النداء جملة فعلية - يخلص النحاة من إشكال كبير وقعوا به ، حينما قدَّروا أن حرف النداء نائب مناب الفعل (أدعو) ذلك التقدير الذي يخرج الجملة من حقيقتها الطلبية جاعلا إياها خبرية ، وهذا ما لا يريده المتكلم من نطقه بـ(يا زيد) ، وقد حاول الصبَّان نفسه الالتفاف على هذا الواقع بأن ادعى أن الفعل نقل إلى الإنشاء قائلا : ((وأعترض على نيابة حرف النداء عن (أدعو) ، بأن (أدعو) خبر ، والنداء إنشاء ، وأُجيبُ : بأن (أدعو) نقل إلى الإنشاء .)) (٤) جوابه هذا لم يصرح به أحد ولا حجَّة له لإثباته ، بل هو خروج عن حقيقة وضع اللفظ من غير مسوغ .

تَوَافَقَ فَهمُ بعض النحويين المحدثين لطبيعة أسلوب النداء ووظيفته مع فهم سيبويه فيقول:((إن أسلوب النداء ينبني على شيئين ، أداة نداء ، ومنادى ، ومنهما ينشأ مركب لفظي ليس فيه معنى فعل مقدَّر، وليس فيه إسناد ، ولا يصح عدُّه في الجمل الفعلية – كما قصد النحاة إليه – ولا يصح أيضاً عدُّه جملة حتى وإن كانت غير إسنادية ،...، فليس في مثل قولهم : يا زيد ، ويا رجل ، ويا عبد الله ، ويا طالعا جبلا ، ويا رجلا صالحا ، شيء من إسناد أو تقدير فعل ؛ لأن ذلك كله نداء ، والنداء تنبيه ولا شيء غيره .)) (٥) . هذا المركب اللفظي هو كتلة واحدة كالكلمة الواحدة في رأي هذا الباحث يراد به التنبيه ، وسواء أكنت أوافقه الرأي أم لي ملاحظة عليه فهو يوصلني إلى نتيجة مهمة هي ما أريدها هنا ، تلك هي أن النداء والتنبيه حقيقة واحدةٌ ، ولا معنى للفصل بينهما لا من حيث الشكل ولا من حيث المعنى . أما من حيث المعنى فقد بينته ، وأما من حيث الشكل ، فإن النحاة قد اعترضوا على من قال إن (يا) في المواضع الخمسة التي ذكروها للتنبيه وليست للنداء ؛ لأن قولهم إنها للنداء يقتضي أن تكون الجملة كلها محذوفة وهذا فيه إجحاف ، أقول : هذا مرتكز على تصورهم أن (يا) نائبة مناب الفعل الذي

---

١ - حاشية الصبان على شرح الأشموني : ١\٢٤ وينظر معه : النداء في العربيَّة : ٣-٤.
٢ - الكتاب : ١٣١\٢-٣٤٧.
٣ - ظ : منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي : ٩١- ٩٦ ، ٣٨٢- ٤٢١ ، وينظر معه : النداء في العربيَّة : ٣.
٤ - حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٣\١٣٣.
٥ - في النحو العربي ، نقد وتوجيه :٣٠٤، وينظر معه: الجملة العربية وتطورها الدلالي بين النحويين والأصوليين:١٥٩-١٦١.

ينبغي أن يكون هو العامل في هذه الجملة ، أما على تصور سيبويه وبعض النحويين المحدثين فـ(يا) ليست نائبة بل هي المحرِّكُ في جملة النداء ، وهي العامل فيها في الاسم ، فإذا حذف الاسم بعدها (المنادى) فذلك لضرورات بيانية يقتضيها المقام ، لكن النداء يبقى قائما . بناءً على ما تقدم أرى أن يُقَالَ في حق (يا) إنها حرفٌ موضوعٌ **للنداء العام** ، ليشمل ذلك أنواع النداء كلها القريب والبعيد والمتوسط ، ويشمل أيضا النداء المجازي والندبة والاستغاثة ، وغيرها .

المبحث الثاني : الحروف الثلاثية

أولا : (أَلاَ)

(ألا) حرف ثلاثي يُستَفتَحُ به الكلام للتنبيه والتحقيق ، وعلامتها صحة الكلام بغيرها ، وهي تدخل على الجملة ، اسمية كانت أو فعلية ، ولا تدخل على المفرد[1]، نحو قوله تعالى:﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ﴾(الأنعام من الآية:٦٢) ، وقوله ﷻ :﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(هود من الآية:٥) . ومنها قول امرئ القيس[2] :

(الطويل)

أَلا رُبَّ يَــومٍ لَــكَ مِنــهُنَّ صــالِحٌ وَلا سِــيَّما يَــومٌ بِــدارَةِ جُلجُــلِ

واختُلِفَ في (ألا) الاستفتاحية هل هي بسيطة أو مركبة ، يبدو أن ابن فارس كان يرى أنها اجتماع حرفين مع بقاء معنى كل حرف محفوظاً ومستقلا ، فيقول :((وَقَدْ قيل: إن (الهمزة) للتنبيه و(لا) نفيٌ لدعوى فِي قوله جلّ ثناؤه:﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾(البقرة من الآيتين:١١-١٢)، فالهمزة تنبيهٌ لمخاطب و(لا) نفي للإصلاح عنهم . وَفِي كلام العرب كلمة أخرى تُشبهها لَمْ تجيء فِي القرآن وهي (أَمَا) ، وهي كلمة تحقيق إذا قلت (أَمَا إنّه قائمٌ) ، فمعناه (حقاً إنّه قائمٌ) .))[3] . التنبيه هنا راجع إلى الهمزة فقط ، والتحقيق متأتٍ من نفي دعوى الإصلاح التي ادَّعاها المنافقون ، وبهذا تكون(ألا) حرفين مجتمعين في كلمة واحدة .

في حين كان الزمخشريُّ يقول :((هي مركبة من الهمزة و(لا) النافية ، مُغَيِّرَةً معناها الأول إلى التنبيه ، ولذلك جاز أن تليها (لا) النافية في قوله [وهو عمرو بن كلثوم[4]] :

(الوافـر)

أَلا لا يَجهَلَــنَّ أَحَــدٌ عَلَينــا فَنَجهَــلَ فَــوقَ جَهــلِ الجاهِلينــا

---

١ - ظ : حروف المعاني :١١ ، معاني الحروف :١١٣، الصاحبي في فقه اللغة : ١٣٣، شرح المفصل : ١١٣\٨ ، شرح الرضي على الكافية : ٤٢١\٤، رصف المباني :٧٨، الجنى الداني :٣٧٠، مغني اللبيب :٩٥، جواهر الأدب ١٩٨ .

٢ - ديوان امرئ القيس : ١٠ .

٣ - الصاحبي في فقه اللغة : ١٣٣ .

٤ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١٤١ ، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٤٢٦ .

وصـار يليهـا الاسـم والفعـل والحـرف .)) [1] فـالمعنى هنـا كمـا يـراه الزمخشـريُّ تغيَّـر بالتركيب وصار للكلمة المركبة الجديدة معنى خاص هو التنبيه والتحقيق ويؤكد هذا في مكان آخر قائلا :(({ألا} مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ؛ لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها . والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾ (القيامة من الآية:٤٠) ولكونها في هذا المنصب من التحقيق ، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدَّرةً بنحو ما يُتَلَقَّى به القسم . وأختها التي هي «أمَا» من مقدّمات اليمين وطلائعها .))[2] ووافقه على هذا ابن يعيش في شرحه والأستراباذي[3]، وكان البصريون يرون ((أن الحروف إذا ركب بعضها مع بعض تغير حكمها الأول وحدث لها بالتركيب حكم آخر ، كما قلنا في لولا بمعنى التحضيض ولوما وألا وما أشبهه)) [4] ، فالمعنى هنا ناتج من خلط معنيين لحرفين ، وبعد تركيبهما أنتجا معنى جديدا قد يكون أعمق وأغنى ، وهو معنى الحرف المركب وليس معناه معنى أحد الحرفين الأصلين ، فالحرفان كأنهما صُهِرَا في بوتقة وصُبَّ منهما معنى جديد .

كان ابن مالك يرى أن (ألا) الاستفتاحية حرفٌ بسيطٌ[5] ، ووافقه أبو حيان الأندلسيُّ فقد ردَّ دعوى التركيب قائلا : ((إن (ألا) التنبيهية حرفٌ بسيطٌ ؛ لأن دعوى التركيب على خلاف الأصل .))[6] ويقدم دليلا آخر على اعتقاده ببساطتها وعدم تركيبها هو أنها جاءت قبل (إنَّ) و(رُبَّ) و(ليتَ) و(النداء) ولا يصح النفي قبل أي من هذه[7] ، وأعتقد أنَّ اعتراض أبي حيان يصح على ما طرحه ابن فارس الذي يرى (ألا) حرفين مجتمعين ولكل منهما معناه الخاص ، أما على رأي الزمخشريّ والأستراباذي فلا يصح لأنهما يريان أن (ألا) لا تساوي في خواصها ومعناها (الهمزة + لا) بل هذه حرفٌ جديدٌ مركب من اجتماع حرفيين فتتغير بذلك خواصه ، ولا تصح المآخذ التي ذكرها أبو حيان عليه .

يرى ابن هشام أن المُعرِبينَ حينما يقولون عن (ألا) إنها(حرف استفتاح) فإنهم بذلك يُبيِّنونَ مكانها ، ويُهمِلُونَ معناها الذي هو التنبيه على تحقيق ما بعدها[8] ، فالاستفتاح لا يراه ابن هشام معنى بحد ذاته ، بل هو إشارةٌ إلى وقوع الحرف في مفتتح الكلام ، وكان الإربليُّ يُفصِّل فيها فيرى أنها حرف تنبيه إذا كان الغرض من إدخالها تنبيه المخاطب لئلا يفوته المقصود بغفلته عنه ، وتكون حرف استفتاح إذا كان الغرض من إدخالها مجرد تأكيد مضمون الجملة وتحقيقه[9] . وتعليق معنى المفردة على الغرض من إدخالها في الكلام يجرنا إلى تأكيد العوامل أو القرائن الخارجية للنص في معناه العام ، وإدراك القرائن الخارجية يتوقف عل تفاعل مشترك بين المنشئ والمتلقي ، وكلما كانت أواصر الترابط بينهما متينة استطاع المنشئ إيصال دفعات كبيرة من المعنى بجهد أقل من خلال مسالك متعددة منها الاعتماد على المعاني الهامشية وما تضيفه من إغناء للمعنى المركزي .

وإذا أردنا أن نجعل قول الإربليّ أكثر قبولا على وفق فرضية المعنى المركزي والمعاني الهامشية أستطيع القول إن المعنى المركزي لـ(ألا) هو التنبيه على تحقيق ما بعدها ، أما الاستفتاح فهو لحظ لموقعها من الكلام ، ومن يلحظه ولا يغفل عنه فقد جعله معنى هامشيا مضافا إلى المعنى المركزي . ومن يتجاهله فهو يريد معناها المركزي بصورة رئيسة .

---

١ - شرح المفصل : ١١٥\٨.
٢ - الكشاف : ١٧٩\١.
٣ - ظ : شرح المفصل : ١١٣\٨ ، شرح الرضي على الكافية : ٤٢١\٤.
٤ - الإنصاف في مسائل الخلاف : ٧٨\١ ، ٢١٣، وينظر معه : سر صناعة الإعراب : ٣٠٦\١.
٥ - ظ : الجنى الداني : ٣٧٠.
٦ - البحر المحيط : ٩٩\١.
٧ - المصدر نفسه .
٨ - ظ : مغني اللبيب : ٩٦.
٩ - ظ : جواهر الأدب : ١٩٩.

الغريب أن بعض المصادر ذكرت أن لـ(ألا) معاني أُخَر وحقيقةُ الأمر أن (ألا) لا علاقة لها بتلك المعاني ، فقد قيل إن من معانيها **العرض والتحضيض** ، ومعناهما طلب الشيء ، وأحدهما أشد من الآخر، فالعرض طلبٌ بلينٍ والتحضيض طلبٌ بحثٍّ[1] ، نحو قوله تعالى : ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوٓاْ أَيْمَانَهُمْ﴾(التوبة من الآية :١٣) ، وكقوله ﷻ : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(النور من الآية :٢٢) ، ووجه الغرابة في الأمر أنهم في الوقت الذي تحدثوا فيه عن كون(ألا) حرفا بسيطا أو مركبا غفل كثير من النحاة هذا الأمر هنا ، ففي الآيتين الكريمتين عندنا همزة استفهام استعملت استعمالا مجازيا وكانت داخلة على (لا) ، وليست هذه (ألا) الاستفتاحية ، فالاستفهام المجازي هو الذي أفاد معنى التحضيض أو العرض ، ومع هذا الخلط فليس غريبا أن نجد النحويين والبلاغيين قد استشهدوا بالآيتين الشريفتين عند تمثيلهم لخروج الاستفهام إلى معان مجازية منها العرض والتحضيض[2]. قال الزمخشريُّ في الآية الأولى :(({ألا تقاتلون} دخلت الهمزة على {لا تقاتلون} تقريراً بانتفاء المقاتلة . ومعناه : الحضّ عليها على سبيل المبالغة))[3]، ونقل المراديُّ عن ابن مالك قوله :(((ألا) التي للعرض مركبة من (لا) النافية والهمزة ، بخلاف التي للاستفتاح فإنها غير مركبة .))[4] فالذي دلَّ على التحضيض هنا كلمتان مجتمعتان في موضع واحد .

وربما فهم بعض العلماء أن (ألا) هذه كلمة واحدة موضوعة للتحضيض قال الطوسي : ((قوله {ألا} كلمة موضوعة للتحضيض على الفعل ، وأصلها (لا) دخلت عليها ألف الاستفهام ، فصارت تحضيضا كما أنها إذا دخلت على (ليس) صارت تقريرا و(ألا) موافقة للتحضيض بالاستقبال و(أ ليس) إنما هي للحال ، فهي موافقة للحال بهذا المعنى . وإذا قال :{ألا تقاتلون} كان معناه التحضيض على قتالهم .))[5]، وذهب أبو حيان أيضاً إلى أنها كلمة بسيطة غير مركبة مخالفا بذلك ابن مالك[6] . وإذا ما اعتقدنا مثل هذا الرأي أي أنَّ(ألا) كلمة واحدة تدل على على التحضيض وَجَبَ أن نميزها من (ألا) الاستفتاحية فهي تختلف عنها . ولقد صرَّح بذلك الأستراباذي قائلا:((وأما (أما) و(ألا) للعرض ، فهما حرفان يختصان بالفعل ، ولا شك في كونهما ، إذن ، مركبين من همزة الإنكار وحرف النفي ، وليستا كحرفي الاستفتاح ، لأنهما بعد التركيب تدخلان على الجملتين : الاسمية والفعلية بلا خلاف ، واللتان للعرض تختصان بالفعلية .))[7] . وجاء منها عند أصحاب المعلقات بيت لامرئ القيس يقول فيه[8] :

(المتقارب)

فَأَنْشَبَ أَظفَارَهُ في النَسَا ... فَقُلتُ هُبلتَ أَلَا تَنْتَصِر

فَكَرَّ إِلَيهِ بِمِبراتِهِ ... كَمَا خَلَّ ظَهرَ اللِسانِ المُجِر

ومن المعاني التي نسبت أيضاً إلى (ألا) **التوبيخ والإنكار**[9] وذكروا شاهدا عليه قول حسَّان بن ثابت (ت٥٤هـ)[1] :

---

١ - ظ :معاني الحروف : ١١٣، رصف المباني ٧٩ ، الجنى الداني : ٣٧٠ ، مغني اللبيب : ٩٧.
٢ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة : ١٨٧- ١٨٨، شرح المفصل : ١٤٤\٨، البحر المحيط : ٣٦٩\٥-٣٧٥ ، مختصر المعاني : ١٣٨ – ١٣٩، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ٤٤٥.
٣ - الكشاف : ١٧٧\٢ ، وينظر معه :مجمع البيان : ٢٢\٥، مفاتيح الغيب : ٥٣٥\١٥ ، الجامع لأحكام القرآن : ٦٨\٨ .
٤ - الجنى الداني : ٢٧١.
٥ - التبيان : ١٨٣\٥ ، وينظر معه البحر المحيط : ٣٦٩\٥- ٣٧٥.
٦ - ظ: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك :٦١١\٣ ، وينظر معه رصف المباني : ٧٩، الجنى الداني : ٣٧١ .
٧ - شرح الرضي على الكافية : ٤٢١\٤.
٨ - ديوان امرئ القيس : ١٦١ .
٩ - ظ : الجنى الداني : ٣٧١ ، مغني اللبيب : ٩٥-٩٦.

(البسيط)

أَلا طِعَـــانَ أَلا فُرســـانَ عادِيَـــةً   إِلاَّ تَجَشُّـــؤُكُم حَـــولَ التَنـــانيرِ

وحقيقته أنه مثل المعنى السابق استفهام استعمل استعمالا مجازيا ، ولا علاقة لـ(ألا) الاستفتاحية بهذا المعنى .

وكذلك نسب إليها **معنى التمني**[2] وذكروا له شاهدا قول الشاعر[3] :

(الطويل)

أَلا عُمـــر ولّـــى مســـتطاعٌ رُجُوعـــه   فـــيرأَبَ مـــا أَثْـــأَتْ يَـــدُ الغفَـــلاتِ

ووجدت خيرا من هذا شاهدا قول عنترة[4] :

(الطويل)

أَلا غَنّيـــا لِي بِالصَـــهيلِ فَإِنَّـــهُ   سَـــماعي وَرَقَـــراقُ الـــدِماءِ نِـــدامي

وأكثر من هذا غرابة أن ينسب إلى (ألا) معنى **الاستفهام عن النفي** ، نحو (ألا رجل في الدار) ، وكقول قيس بن الملوح(ت٦٨هـ) [5] :

(البسيط)

أَلا اِصـــطِبارَ لِســـلمى أَمْ لَهـــا جَلَـــدٌ   إِذاً أُلاقـــي الَّـــذي لاقـــاهُ أَمثـــالي

(ألا) هذه التي نسب إليها معاني التوبيخ والتمني والاستفهام ((مركبة بغير إشكال ، و(لا) باقية على حكمها قبل دخول الهمزة .))[6] ومعنى التركيب هنا اجتماع الحرفين في مكان واحد ، وليس معناه صهر معنى الحرفين وإنتاج معنى جديد ، فمازال معنى الاستفهام قائما ومتميزا من معنى النفي وبخروجه إلى معان مجازية لا يفقد حقيقته كونه حرف استفهام .

لم يبق من المعاني التي نسبت إلى (ألا) الاستفتاحية إلاَّ معناها المركزي الذي هو التنبيه على تحقيق ما بعدها ، وقد تُحمَّل معنى هامشيا واحدا هو دلالتها على الاستفتاح وكونها بداية الكلام وأن ما بعدها مبتدأ به ، وهذا ما سيتبيَّن بجلاء في الفصل القادم حينما أتتبع استعمالها في الدواوين وفي القرآن . أما ما نسب إليها من معاني التحضيض و التوبيخ والإنكار و التمني والاستفهام عن النفي فهذه كلها معان لهمزة الاستفهام ولا علاقة لهذا الحرف بها .

ثانيا : (إلى)

---

١ - شرح ديوان حسَّان بن ثابت:٢٧١ ، والبيت منسوب أيضاً لخداش بن زهير(ت٦هـ): ينظر:الكتاب:٣٠٦\٢ ، الحلل في إصلاح الخلل : ، خُزَانَةُ الأَدَبِ: ٩٦\٤. وهكذا ضبط عند سيبويه والبغدادي ، وهو الأصح ، وضبط في الديوان هكذا :

أَلا طِعانٌ أَلا فُرسانُ عادِيَةٌ   إِلّا تُجَشُّؤَكُم حَولَ التَنانيرِ

٢ - ظ : الجنى الداني :٣٧٢، مغني اللبيب : ٩٧.

٣ - قائله مجهول ، ظ : الجنى الداني : ٣٧٢، مغني اللبيب : ٩٧، همع الهوامع : ١٤٧\١، خُزَانَةُ الأَدَبِ:٧٠\١٢.

٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٠٤.

٥ - ديوان مجنون ليلى : ٢٢٨، وروايته في الديوان بلفظ :(ألا اصطبار لليلى ...) ، وينظر معه : الجنى الداني : ٣٧٢، مغني اللبيب : ٩٧، همع الهوامع : ١٤٧\١.

٦ - الجنى الداني : ٣٧٢ .

(إلى) حرفُ جرٍّ كثيرُ الاستعمال في اللغة العربية ، اتفق الجميع على أن أشهر معانيه وأكثرها استعمالا دلالته على **انتهاء الغاية** ، وهو معناه المركزي . والغاية قد تكون زمانية ، نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾(البقرة من الآية:١٨٧)، وقد تكون غاية مكانية كقوله ﷻ : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ﴾(الإسراء من الآية:١) ، وربما قسَّمها بعضهم على : غايةٍ حسِّية كقولهم :(سرت إلى بغداد) ، وغايةٍ حكميَّةٍ ، نحو (مَالَ قلبي إلى عليٍّ) . و(إلى) عند البصريين لم يوضع إلاَّ لمعنى الانتهاء ، وكل ما استعمل فيه بغير هذا المعنى راجع إليه بالتأويل ، أو استعمل فيه على التضمين من باب التوسع ، فالانتهاء إما هو المعنى الوحيد أو أصل المعاني ، وكان كثير منهم يصرح بهذا . قال المراديُّ :((إن أكثر البصريين لم يثبتوا لها غير معنى انتهاء الغاية ، وجميع هذه الشواهد عندهم متأوَّل .))[1].

وفي دخول ما بعدها في حكم ما قبلها أقوال ، في حالة وجود قرينة تدلُّ على الدخول أو الخروج عُمِلَ بها ، كقولنا في الدخول :(قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره) فهنا نريد الكُل وآخرُ القرآن جزءٌ منه ، والقارئ قد قرأه ، فهو داخل في حكم ما قبله ، وهذه القرينة عقلية ، ومثال الخروج كما في آية تحديد وقت الصيام ، أو في قوله تعالى :﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾(البقرة من الآية ٢٨٠)، إذ دلت القرائن على أن الصيام حتى الليل ، ولا يدخل الليلُ في وقته ، وكذلك تدل القرائن على أن الغَريمَ إن كان مُعسراً فينتظر حتى وقت يكون فيه ميسورا ، فيستوفى منه الحق ، ولا يجوز عقلا أن يدخل وقتُ يَسَارِه في حكم ما قبل (إلى) وهو الانتظار . وإن لم تكن قرينةٌ تدل على الدخول أو الخروج ، فيبدو أن أصح الأقوال عدم الدخول مطلقا سواء أكان من جنس ما قبله أم لا[2] .

يُبنَى على مسألة دخول ما بعد (إلى) في حكم ما قبلها أو عدم دخوله بعض الخلافات الفقهية للأحكام المستنبطة من نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأشهر أمثلتها آية الوضوء: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾(المائدة من الآية:٦) فدخول المرافق في حد المغسول ، والكعبين في حد الممسوح ، ومدى وجوب ذلك وما مقدار الداخل كل هذا مبنيٌّ على هذا الخلاف اللغوي ، وهنالك أمثلة فقهية كثيرة غيرها ، والفيصل في المسألة – كما أعتقد – أن نرجع دخول الغاية أو عدم الدخول إلى كونه دلالة هامشية يدلُّ عليها السياق عن طريق القرائن المختلفة العقلية والنقليَّة التي تصاحب النص ، وتكون عونا على تفسيره وفهم المراد الحقيقي منه أو ما هو أقرب إلى الحقيقة ، فمعنى (إلى) الذي هو الانتهاء يدلُّ على ملامسة ما يُنتَهَى إليه ، أما الدخول وعدمه فهذا القدر يعتمد على نحو كبير على السياق فهو إضافة على المعنى الرئيس .

---

١ - الجنى الداني:٣٧٦، وينظر معه : الكتاب:٢٣١\٤، اللمع في العربية:١٤٩، الصاحبي في فقه اللغة:١٣٢، المخصص:٥٧\١٤، المفصَّل في صنعة الإعراب:٣٨٠، البيان في شرح اللمع:١٤٩، شرح المفصل:١٤\٨، اللباب في علل البناء والإعراب:٣٥٦\١، المقرب:١٩٩\١، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد:١٤٥، شرح الرضي على الكافية:٢٧١\٤، رصف المباني:٨٠، مغني اللبيب:١٠٤، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك:٧٤\٣، جواهر الأدب:٢٠٢، همع الهوامع:٢٠\٢.

٢ - ظ : البيان في شرح اللمع:١٤٩، شرح المفصل:١٤\٨- ١٥، شرح الرضي على الكافية:٢٧١\٤، رصف المباني:٨٠، الجنى الداني:٣٧٣، مغني اللبيب:١٠٤، جواهر الأدب:٢٠٢.

أما المعاني الأخرى التي نسبت إلى هذا الحرف فقد أوصلها بعضهم إلى سبعة غير المعنى الرئيس ، من أشهرها أنها **تكون بمعنى (مع)** وهو معنى المَعيَّة أو المصاحبة ، وذلك إذا ضممت شيئا إلى آخر، نَقَلَ هذا المعنى بعضُ العلماءِ عن الكوفيين وحُكِيَ عن بعضِ البصريين مثل ابن مالك أيضاً ، وصرَّح بعضهم بأن التحقيق يرجع بهذا المعنى إلى معنى الانتهاء[1]، أي يرجع به إلى المعنى المركزي للحرف ، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(آل عمران من الآية:٥٢) ، وكذلك قوله ﷻ : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾(النساء من الآية:٢) ، وحمل على معنى المصاحبة أيضاً قول امرئ القيس[2] :

(الطويل)

لَــهُ كَفَــلٌ كَالــدِّعْصِ لَبَّــدَهُ النَّــدى إلى حــارِكٍ مِثْــلِ الغَبِــيطِ المُــذَأَّبِ

أي مع حارِكٍ[3] مثل الغبيط . قال الفراء عن الآية الأولى :((المفسرون يقولون : من أنصاري مع الله ، وهو وجه حسن . وإنما يجوز أن تجعل (إلى) موضع (مع) إذا ضممت الشيء إلى الشيء مما لم يكن معه .)) [4] ، وكان بعض النحاة البصريين يوجهون ذلك بأن (إلى) على بابها ، والمعنى فيه توسعٌ ، وقد عقد ابن جني بابا لاستعمال الحروف بعضها مكان بعض قال فيه :((هذا باب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة ، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه ، وذلك أنهم يقولون : إن (إلى) تكون بمعنى (مع) ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه {من أنصاري إلى الله} أي: مع الله ،...، ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا لكنا نقول : إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب <u>الأحوال الداعية إليه والمسوغة له</u> فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا ، ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلا هكذا لا مقيدا لزمك عليه أن تقول سرت إلى زيد وأنت تريد معه ،...، اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر <u>فإن العرب قد تتسع ، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه</u> إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه ، وذلك كقول الله عزَّ اسمه : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾(البقرة من الآية:١٨٧) وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها أو معها ، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدى أفضيت بـ(إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة ، جئت بـ(إلى) مع الرفث إيذانا وإشعارا أنه بمعناه ،...، وكذلك قول الله تعالى{ من أنصاري إلى الله } أي مع الله ، وأنت لا تقول سرت إلى زيد أي معه لكنه إنما جاء { من أنصاري إلى الله} لما كان معناه : من ينضاف في نصرتي إلى الله فجاز لذلك أن تأتى هنا (إلى) .)) [5]، وكان هذا رأي النحاة البصريين الآخرين أيضا[6]، وفي كلام ابن جني أبعَادٌ مُتعددة ، فقد انتقد فيه القائلين بنظرية تناوب الحروف ، ورجع المعنى في الجملة إلى تضمين الفعل معنى فعلٍ آخرَ ، فيُعدَّى الفعلُ الأوَّلُ بالحرف الذي يُعدَّي به الفعلُ الثاني ليكون أمارةً تُبَيِّن إشراب الفعلِ معنى الفعل الآخر ، لكنه رجع إمكانية ادعاء أن الفعل ضُمِّن معنى فعل آخر إلى الأحوال الداعية إليه والمسوغة له ، وذلك لا يكون في كل موضع كما قال ، وفي هذا إشارة إلى أثر السياق في تحميل هذا المعنى ،

---

١ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة : ١٣٢، شرح المفصل:١٥\٨، الجنى الداني:٣٧٣-٣٧٤، مغني اللبيب:١٠٤، جواهر الأدب:٢٠٢، الإتقان:١٥٣\١، همع الهوامع : ٢٠\٢.

٢ - ديوان امرئ القيس : ٤٧ ، وينظر معه تناوب حروف الجر في لغة القرآن :٨٨ .

٣ - الحارك : أعلى الكاهل ، وقيل فرع الكاهل ، وقيل الحارك منبت أدنى العرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا رُكب ، وقيل الحارك عظم مشرف من جانبي الكاهل اكتنفه فرعا الكتفين ، قال الجوهري : الحارك من الفرس فروع الكتفين وهو أيضا الكاهل . ظ: لسان العرب :مادة(حرك) :٤١٠\١٠ .

٤ - معاني القرآن : ٢١٨\١، وينظر معه : جامع البيان : ١٥٣\٤، ٣٠٥، تأويل مشكل القرآن :٤٢٨ ، أحكام القرآن :٧٧\٢، ٣٣٤، التبيان :٤٧٣\٢، مجمع البيان:٩\٣ ، مفاتيح الغيب : ٤٨٢\٩.

٥ - الخصائص : ٣٠٦\٢- ٣١١ ، وينظر معه : الأشباه والنظائر :٢٣٢\١.

٦ - اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٥٦\١ .

لكن ابن جني والبصريين يقولون بأن الفعل ضُمِّن معنى آخر ، وفي هذه الدراسة أقول : إن الفعل باقٍ على بابه ومعناه ، لكنه يُعَدَّى بحرف معين لغرض معين ، أي لإيصال معنى معين يؤدي الحرفُ جزءا منه عن طريق معناه المركزي وما يُحَمِّله السياق إياه من معنى مضاف إلى ذلك المعنى .

وأكرر القول إن استعمال الحرف بمعنى هامشي معين وتغليبه في سياق ما على المعنى المركزي سمة خاصة بالنصوص البليغة ، ولا يجوز للمتكلم بالمستوى العادي اليومي أن يخرج إليه ابتداء ، أي لا يحق له أن يبتدع مثل ذلك الاستعمال ، في حين إن ذلك جائز للشعراء الذين وصفوا بأنهم ((أمراءُ الكلامِ يُصرفونَه أنَّى شاءوا .)) [1]؛ وقصر هذه المزية على الكلام البليغ يحفظ للغة سمتها العام ، واستعمالها المتعارف .

وفي ضوء ما يطرحه ابن جني والبصريون يفسر الزجاج (تأكلوا) بمعنى (تضيفوا) أو(تجمعوا) إذ يقول : ((لا تضيفوا أموالهم في الأكل إلى أموالكم ، أي إن احتجتم إليها فليس لكم أن تأكلوها مع أموالكم .)) [2] ، وكان النحاس يقول :((قيل المعنى (مع أموالكم) والأجود أن تكون (إلى) في موضعها، ويكون المعنى ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم .))[3] ((أيْ : لا تجمعوا بينهما فتأكلوهما .)) [4] ، وقال الزمخشريُّ :((ولا تضموها إليها في الإنفاق، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلَّةَ مبالاةٍ بما لا يحل لكم . وتسويةً بينه وبين الحلال .))[5]، إن تفسير الآية الكريمة على هذا النحو ممكنٌ ، وله وجهٌ ، لكنه تفسيرٌ بسيطٌ أوليٌّ ، لا يضفي على الآية تلك الحركة والروح التصويريَّة الحيَّة التي تتميز بها آياتُ القرآن الكريم .

في حين لو أردنا فهم الآية في ضوء نظرية المعاني الهامشية فقد نستطيع القول : عبَّرت الآية بالأكل وكانت تريد أوجه النفع المختلفة[6] التي يتمكن الإنسان بها من الاستحواذ على مال اليتيم ، وإتلاف ذلك المال قبل تمكن اليتيم من البلوغ واستحصال أمواله ، وتعبيرُ الآية عن هذا المعنى بالأكل لتُصَوِّرَ لنا بشاعة ذلك العمل ، كما صوَّرت لنا معنى الغِيبَةِ بصورةٍ بشعةٍ في قوله تعالى:﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾(الحجرات من الآية :١٢) لتُنَفِّرَ منه المؤمنين ، أما تعدية أكل بـ(إلى) في الآية فهو مقصودٌ بلا ريب ، فالآية الشريفة تريد : أنكم تأخذون أموالهم لتضموها إلى أموالكم ، فأنتم أصحابُ أموال ولستم فقراء ، وإلاَّ لو كانوا فقراء فقد جوز لهم القرآن الكريم في موضع آخر أن يأكلوا من أموال اليتامى بالمعروف ، فقد قال تعالى بعد بضع آيات :﴿ **وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾(النساء من الآية :٦) ، ففي هذه الآية الكريمة المعنى المراد بالأكل ليس هو نفسه المراد في الآية المتقدمة (النساء :٢) ، فهنا يراد به الأكل المتعارف الذي يقيم به الإنسان حياته ، أما في تلك الآية فالمراد به استحواذ الأغنياء على أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا لينتهوا بها إلى أموالهم ، إن تفسير المعنى من هذه الزاوية وعلى وفق هذه الرؤية أراه أكثر حيويَّة ، ويشعرنا بالحركة التي يتميز بها النص القرآني ، ويبعده عن الجمود لو فُسِّرَ في ضوء نظرية البصريين المعتمدة على التضمين . إذن (إلى) باقيةٌ على معناها دالـَّة على انتهاء الغاية ، وَحَمَّلها السياقُ معنى إضافيا هو دلالتها على الجمع ، إذ ستجمع أموال اليتامى مع أموال الأغنياء ، وإبقاء الفعل (تأكلوا) على دلالته الأصلية يكون أكثر خدمة للنص في تصوير المعنى المراد .

---

١ - زهر الآداب :٦٣٣\٢.
٢ - معاني القرآن وإعرابه :٧\٢.
٣ - معاني القرآن :٩\٢
٤ - إعراب القرآن(النحاس) : ١\ ٣٩٢ .
٥ - الكشاف : ٤٩٤\١ ، وينظر معه : مفاتيح الغيب :٤٨٣\٩- ٤٨٤ ، البحر المحيط : ٤٩٣\٣- ٥٠٠.
٦ - أحكام القرآن : ٦٣\٢، ١٣٥\٣.

ونسب أيضا إلى (إلى) أنها تأتي **بمعنى (في)** وذلك في قوله تعالى[1]: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(النساء من الآية:٨٧)، وجعل أبو عبيدة منه قوله ﷻ [2]: ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾(آل عمران من الآية:٥٢) ، وجعل بعض المفسرين المتأخرين منه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(آل عمران:١٢) إذ يقول:((وتحشرون عطف على ستغلبون والمراد في الآخر إلى جهنم وهى غاية حشرهم ومنتهاه فـ(إلى) على معناه المتبادر، وقيل بمعنى في والمعنى أنهم يجمعون فيها .)) [3] ، وجُعِلَ منه قول طرفة[4]:

(الطويل)

وَإِن يَلتَقِ الحَيُّ الجَميعُ تُلاقِني إِلى ذِروَةِ المَجدِ الكَريمِ المُصَمَّدِ

أي في ذروة المجد[5] ، وتأول بعضهم هذه المواضع على تعلق (إلى) بمحذوف ، وقال آخرون هو على التضمين[6]، وجعله المالقيُّ موقوفا على السماع لقلَّته[7] .

إن التَفكُّرَ في معاني هذه المواضع التي استُشهِدَ بها لإثبات معنى (في) لـ(إلى) يجعلني أميل كثيرا إلى إبقاء (إلى) على معناها المركزي ، وجعل الظرفية معنى هامشيا في مثل هذه الأمثلة ؛ لأن السياق يحتمل إضافة مثل هذا القدر من المعنى للحرف ، ففي قوله تعالى{وتحشرون إلى جهنم} المعنى : يُنتَهَى بهم إلى جهنم ، وأن جهنم هي غاية ما يصلون إليه يوم القيامة ، فلا تنفعهم أعمالهم التي اقترفوها في حياتهم ، وليس هنالك من سبيل ليتجاوز عن خطاياهم ، فينتهي بهم الحال إلى النار، أما كون جهنم ظرفا لهم فهذا معنى مفهوم من السياق القرآني العام ، ومن مجموع الآيات التي عالجت مثل هذا الموضوع .

وكذلك المعنى في قوله ﷻ : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فالمعنى هنا إذا ما قدِّر(ليجمعنكم في يوم القيامة) يختلف تماما عمَّا هو عليه في الآية الكريمة ، ففي الآية يجمعون على ما روي في القبور إلى يوم القيامة ، فيوم القيامة هو منتهى جمعهم ليقوموا للحساب ، أما إذا ما قدِّر بـ(في) سيكون الجمع في ذلك اليوم وليس قبله ، وهنالك فرق بين المعنيين لا يمكن تجاوزه . ولكن إذا قدِّر بقاء (إلى) على معناها المركزي ، وإضافة معنى هامشي هو معنى الظرفية لـ(إلى) في هذا الموضع سوف يكون المعنى أغنى وأعمق ، واستفادة هذا المعنى الهامشي ليس من السياق المباشر لهذا النص بل هو من سياق الآيات القرآنية العامة التي تناولت موضوع جمع الناس في يوم الحساب ، وعندها يكون ذلك اليوم ظرفا ووعاءً للناس . فالسياق العام للنص يوحي بإمكانية إضافة قدر من المعنى إلى المعنى المركزي للحرف . وهذا التأويل يكون أليق بالمعنى وأحفظ لخصوصياته .

وفي بيت طرفة كذلك هنالك فرق في المعنى إذا ما قدَّرنا معنى (إلى) بالظرفية فقط وتركنا معناه الأصلي ، فالشاعر كما يبدو لم يكن يريد أنه في ذروة المجد فقط ، بل هو يقول إنه

١ - ظ : حروف المعاني : ٧٩، مجاز القرآن : ٩٤\١ ، رصف المباني : ٨٣ ، مغني اللبيب: ١٠٥ ، همع الهوامع :٢٠\٢ .
٢ - مجاز القرآن : ٩٤\١.
٣ - روح المعاني : ٣ \ ٩٥.
٤ - ديوان طرفة بن العبد:٢٥، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٤٣، وينظر معه: معاني الحروف :١١٥، رصف المباني:٨٣، تناوب حروف الجر في لغة القرآن:٨٥.
٥ - ظ : معاني الحروف:١١٥، رصف المباني:٨٣، الأزهية:٢٨٤، خُزَانَةُ الأَدَبِ:٤٦٩\٩، تناوب حروف الجر في لغة القرآن:٨٥.
٦ - ظ : مغني اللبيب : ١٠٥.
٧ - ظ : رصف المباني : ٨٣.

ينتهي إلى ذروة المجد فآباؤه وأجداده هم ذروة المجد وهو ينتهي إليها ، فقد جعل أصله وأرومته هي ذروة المجد ، ولم يرد أنَّ هنالك ذروة للمجد وهو يحل فيها ، والمعنى على هذا التأويل يكون أعمق ، ولا ينافي هذا أن يكون معنى الظرفية لمن يريد أن يستشعره من النص ممكن أن يكون معنى هامشيا ، وبهذا نضيف إلى المعنى معنى آخر، ولا نخرج به إلى معنى قد ينقص قيمة التصوير الفني للنص الأدبي . وبذا يتأصَّل ما حاول البحث إثباته من إن نظرية المعنى المركزي للحرف والمعاني الهامشية تجعل المعنى متحركا ، وحيويا ، ومتفاعلا مع قدرات المتلقي في فهم النص وتأويله من زوايا متعددة تغني المعنى وتعمقه .

ومن المعاني التي قيل إن(إلى) تأتي بها **معنى اللام** ، إذ جعل الفراء منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾(هود من الآية :٢٣)، قائلا :((معناه تخشعوا لربهم والى ربهم ، وربما جعلت العرب (إلى) موضع اللام.))[١]، في حين قال الرازي: ((«أخبت» أي دخل في الخبت ، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم ، ومنه المخبت من الناس الذي أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه ، ولفظ الإخبات يتعدى بـ(إلى) وبـ(اللام)، فإذا قلنا : أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه ، وإذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له.))[٢] .

صحيح أن (خبت وأخبت) يتعدى بالحرفين ، لكن معناه مع كل منهما يختلف عن معناه مع الآخر، (فأخبت له) أي لأجله ، وأخبت إليه أي اطمئن إليه فكان غايته في الطمأنينة ، فالآية الكريمة تريد أن تبيِّن صنفا من الناس هم المؤمنون ، فعرفتهم بأنهم عملوا الصالحات وأنهم انتهوا في خشوعهم وتضرعهم إلى الله ، فكانت الذات الإلهية المقدسة هي غاية ما يطلبون في الخشوع والتضرع . وهذا المعنى يختلف إذا ما أردنا استبدال (اللام) بـ(إلى) لأنها تفيد معنى التعليل والسببية ، وعندها سيكون المعنى أنهم خشعوا لأجل الله . نعم في هذه الآية خصوصية هي اتحاد الغاية والسبب ، فهؤلاء المؤمنون خافوا الله حق خوفه ، فخشوه وتضرعوا إليه وتضرعوا له ، فإذا قلنا بتناوب الحروف فسيفقد النص شطرا من معناه ، وإذا قلنا بالتضمين فسنفقده أيضا جزءا من معناه ، أما إذا قلنا : إن (إلى) له مع معناه المركزي زيادةٌ في المعنى هي معنى اللام التعليلية ففي هذه الحالة سنحفظ للنص حيويَّته ونعطيه بعدا محمودا نَتَبَيَّنُ خلاله السبب والغاية في هذه الآية الكريمة متحدان . إن قوَّة المعنى المركزي إلى المعنى الهامشي ليست واحدة في النصوص كلها فقد يطغى المعنى المركزي على المعنى الهامشي بقوَّة في نص ما وقد يظهر المعنى الهامشي على المعنى المركزي في نصٍّ آخر وقد يتساويان في الظهور ، ويبقى المعنى المركزي دائما له وجود ولو كان قليلا .

هذه أشهر المعاني التي نسبت إلى (إلى) وهنالك غيرها يمكن الرجوع إليها في أماكنها ، ومن خلال تتبع هذه المعاني أستطيع أن أقول : إن نظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية يمكن أن تُطبَّق بنجاح على هذا الحرف ، وتحلَّ بديلا طبيعيا مكان نظريتي التناوب والتضمين .

ثالثا : (ثُمَّ)

واحد من حروف العطفِ التي تسمى أيضاً حروفَ النسقِ ، وهي حروفٌ تَجْتَمِعُ كلها في إدخال الثاني في إعراب الأول ، أي تُشرِكُ الثانيَ في حكمِ الأوَّلِ ، لكنَّ معانيها مختلفة[٣] ،

---

١ - معاني القرآن:٩\٢، وينظر معه جامع البيان:١٦\١٢، الجنى الداني : ٣٧٤، مغني اللبيب :١٠٤ ، البرهان : ٢٣٤\٤، نظرية الحروف العاملة:١٩٧، تناوب حروف الجر في لغة القرآن:٨٦.

٢ - مفاتيح الغيب : ١٧\ ٣٣٥ ، وينظر معه مادة(خبت) في : العين:٢٤١\٤ ، لسان العرب : ٢٧\٢- ٢٨.

٣ - ظ : اللمع في العربية :١٧٤ ، شرح جمل الزجاجي: ٢٢٣\١ .

فـ(ثُمَّ) يفيد مع الإشراك في الحكم الترتيب بمهلة ، نحو قولهم : قام زيدٌ ثـُمَّ عمرو ، فهذا يعني قيام الثاني بعد قيام الأول بمهلة ، وهذا مذهب الجمهور، وما أوهم خلاف هذا تأولوه[1]، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(البقرة:٢٨) ، هنا استفهام على وجه التعجب والتوبيخ ، أي : ويحكم كيف تكفرون بالله ؟ وكنتم أمواتا – يعني نطفا – فأحياكم من النطف ، ثـُمَّ يميتكم بعد الحياة ، ثـُمَّ يحييكم للبعث ، وكل واحد من هذه المراحل تأتي بعد الأخرى وبينهما مهلة ووقت[2] ، ((فإن قيل لم كان العطف الأول بالفاء والبواقي بـ(ثُمَّ)؟ قلنا لأن الأحياء الأول قد يعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الأحياء ، والأحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً.))[3].
إن دلالة (ثُمَّ) المركزية هي الترتيب المتراخي أي مع المهلة ، وهذا المعنى هو أكثر المعاني شيوعا في استعمالاتها ، وهو ملازم لها دوما . قال عنترة [4]:

(الكامل)

فـيهِنَّ هَيفـاءُ القَـوامِ كَأَنَّهـا	فُلـكٌ مُشَـرَّعَةٌ عَلـى الأَمـواجِ
خَطَـفَ الظَـلامُ كَسـارِقٍ مِـن شَـعرِها	فَكَأَنَّمـا قَـرَنَ الـدُجى بِـدَياجي
أَبصَـرتُ ثُـمَّ هَوَيـتُ ثُـمَّ كَتَمـتُ مـا	أَلقـى وَلَـم يَعلَـم بِـذاكَ مُنـاجي
فَوَصَلـتُ ثُـمَّ قَـدَرتُ ثُـمَّ عَفَفـتُ مِـن	شَـرَفٍ تَنـاهى بـي إِلى الإِنضـاجِ

هذه المراحل التي مرَّ بها الشاعر منذ أن أبصر هذه الفتاة الهيفاء إلى أن عفَّ عنها ، مراحل مترتبةٌ ، وكل مرحلةٍ جاءت بعدَ أختها ، وكانت بينهنَّ مهلةٌ يبدو أن الشاعرَ كان فيها يصارعُ نفسه بين نزوته وشرفه الرفيع الذي لا يريد أن يخدشه ، فاختار بعد برهة أن يعفَّ عنها ، بعد أن تمكَّن وقَدرَ.

وقد يكون التراخي والمهلة مجازية ، فتأتي (ثُمَّ) في جملة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها ؛ وذلك لعدم مناسبته له ، نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾(الأنعام :١-٢) ، فالإشراك بالله تعالى مستبعدٌ بعد أن قدمت الآية دليلا على قدرته على خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، فهذا غير مناسب مع ثبوت المعنى الأول ، فهذا مَسوقٌ لإنكار ما عليه الكفرة ، واستبعادِه من مخالفتهم لمضمونه ، واجترائِهم على ما تقضي ببُطلانه بديهةُ العقول ، فيكون معنى (ثُمَّ) استبعاد الشرك بعد وضوحِ ما ذُكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلان الشرك ، وهذا المعنى : فرع التراخي ومجازه . ومثل هذا المعنى كثيرٌ في القرآن الكريم[5].

١ - ظ : حروف المعاني:١٦، معاني الحروف:٤٠٦، أسرار العربية:٢٦٩، الصاحبي في فقه اللغة :١٤٨، شرح المفصل:٩٤\٨، شرح جمل الزجاجي:٢٣١\١ ، شرح الرضي على الكافية :٣٨٩\٤، شرح ألفية ابن مالك:٣٠٦، رصف المباني : ١٧٣، مغني اللبيب : ١٥٨، جواهر الأدب : ٢١٦.
٢ - ظ : معاني القران (الفراء) : ١\ ٢٣- ٢٥.
٣ - مفاتيح الغيب : ٣٧٥\٣ ، وينظر معه المثل السائر :٢٣٦\٢- ٢٣٩ .
٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٦٨ ، أشعار عنترة العبسي : ١٤٠ .
٥ - ظ : التبيان : ٧٦\٤-٧٧، الكشاف : ٣\٢ ، مفاتيح الغيب : ١٢\ ٤٧٨ ، الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٤\٦-٣٩٠، شرح الرضي على الكافية : ٣٨٩\٤، تفسير أبي السعود : ١٠٤\٣.

ومثلما كان السياقُ يضيفُ إلى الحرفِ معنىً هامشياً مضافاً إلى معناه المركزي ، يبدو أنه هنا قد يُجبَرُ الحرفُ على التخلي عن بعض معناه المركزي ، **فقد يتخلَّى (ثُمَّ) عن دلالته على الترتيب** قال الإربليُّ:((وقد تأتي معرَّاة عن[1] إفادة التراخي بل لمجرد الترتيب في الذكر والتدرج في درجات الارتقاء .))[2] ، كما في قوله تعالى:﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾(الزمر من الآية:٦)، ومعلوم أن هذا الجعل كان قبل خلقنا[3]، ومنه قوله ﷻ :﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾(السجدة من الآية:٧-٩) ، وجعل منه أيضا قول أبي نواس(ت١٩٨هـ)[4]:

(الخفيف)

قُـلْ لِمَـنْ سـادَ ثُـمَّ سـادَ أَبـوهُ قَبْلَـهُ ثُـمَّ قَبـلَ ذلِـكَ جَـدُّهُ

فتدرج الشاعر في ترتيب درجات معالي الممدوح ، فابتدأ بسيادته ، وانتهى بسيادة جدِّه ، وحقيقة الأمر أن سيادة جدَّه متقدمة على سيادة أبيه وسيادته وإنما فعل هذا ؛ لأن سيادة نفسه أخص ثُمَّ سيادة الأب ثُمَّ سيادة الجدِّ[5].

وقد أجيب عن الآية الأولى بخمسة أجوبة ذكرها ابن هشام منها : أن العطف على محذوف تقديره (أنشأها ثُمَّ جعل منها زوجها) ، ومنها أن (ثُمَّ) لترتيب الإخبار لا لترتيب الحكم ، كما يقال: (بلغني ما صنعتَ اليومَ ثُمَّ إن ما صنعتَ أمسِ أعجبُ) ، وربما كان الفراء يميل إلى هذا القول[6] ، وكان الزمخشريُّ يقول :((فإن قلت : ما وجه قوله : {ثُمَّ جعل منها زوجها} وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت : هما آيتان من جملة الآيات التي عدَّدها دالاً على وحدانيته وقدرته : تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصيراه ؛ إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة ، والأخرى لم تجريها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل في كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بـ(ثُمَّ) على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود .))[7] ، وذكر أيضاً أوجه الرد الأخرى على من يقول بأن التراخي هنا غير موجود . وأُجيب عن الآية الثانية أنَّ (سوَّاه) عطف على الجملة الأولى لا الثانية ، أي بدأ خلق الإنسان من طين ثُمَّ سوَّاه ونفخ فيه من روحه ، ففيها تقديم وتأخير وبهذا تكون المهلة محفوظة[8] .

الردود التي ذكرها بعض المتمسكين بأن (ثُمَّ) تفيد (الترتيب بمهلة) لا تمنع من أن يعتقد بعض النحويين والمفسرين بتخلي هذا الحرف عن بعض معناه ، فلو أردنا أن نحمل النصوص التي استشهدوا بها على المعنى المتبادر، ولا نسعى إلى تأويلها فسنجد ، أن الترتيب قد لا يكون مقصودا ؛ لأنه ليس من أهمية فيه للنص ، فذكرُ آيات الله وتَعجيزُ القوم بها هو المهمُّ ولا يؤثِّر في مقدار أهميته وإعجازه مراعاة ترتيبه ، فالمهم هو بيان قدرة الله تعالى على بدء خلق الإنسان من طين وجعل استمرار نسل الإنسان وعَمَار الأرض وخلافة الله مرتبطا بماء مهين ، فكل هذه

---

١ - هكذا وردت ، والصحيح (معراة من) ، ظ : لسان العرب مادة (عرا) : ٤٦\١٥.
٢ - جواهر الأدب : ٢١٦.
٣ - ظ : معاني القران (الفراء): ٤١٥\٢.
٤ - ديوان أبي نواس:٤٩٣، وينظر معه : شرح الرضي على الكافية : ٣٩٠\٤، الجنى الداني : ٤٠٧ ، جواهر الأدب : ٢١٦، مغني اللبيب :١٥٩، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٣٧\١١، ولفظه عند البغدادي : إنَّ من ساد ثمَّ ساد أبوه .... .
٥ - ظ : شرح الرضي على الكافية:٣٩٠\٤، الجنى الداني:٤٠٧، جواهر الأدب:٢١٦، مغني اللبيب:١٥٩، خُزَانَةُ الأَدَبِ:٣٧\١١.
٦ - ظ : معاني القرآن (الفراء): ٤١٥\٢،الجنى الداني:٤٠٧- ٤٠٨، البحر المحيط:١٧٨\٩-١٨٢، مغني اللبيب:١٥٩- ١٦٠.
٧ - الكشاف :٣٨٨\٣ .
٨ - ظ : مفاتيح الغيب : ١٤١\٢٥ ، مغني اللبيب : ١٦٠ .

الحضارة والعلم منوط بهذا الماء المهين ، وهذا من معاجز الرحمن ، وعظمة هذه الآية تدلُّ على عظمة الخالق ، وبعد هذا فمن آيات الله تعالى ومعاجزه أن جعل في هذا الإنسان روحا ونسبها إلى ذاته المقدَّسة قائلا: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾(السجدة من الآية:٩) ، وهذه الروح سرٌّ إلهيٌّ يجسِّد عظمة الخالق عجز العلم عن إدراك كنهها ، فالنص في مقام ذكر بعض آيات الخلَّاق العليم مما يعجز البشر عن استيعابها والتصدي لها ، وكون بعض هذه الآيات مترتبا زمانيا بعد بعضها الآخر لا يمنع من عظم الآية ، ولا يقدح في إعجازها . وكذا في البيت الشعري ، لم يكن في ذهن الشاعر أن يُرَتِّبَ الفضلَ والسيادة كما يقتضيه المنطق العقلي ، فقد كان مشغولا في إثبات الفضل لممدوحه ولأجداده أكثر من عنايته بترتيب التسلسل الزمني لمجد أسرة الممدوح ، ولا نغفل عن خواص قوانين الصنعة الشعرية التي قد يكون الشاعر اعتمد عليها للوصول إلى هذه الصياغة الفنية المقصودة ، وقد يكون لها بعض الأثر في هذا الترتيب.

خلاصته أن النص قد لا يكون ملحوظا فيه الترتيب ، أو لحظ الترتيب في مرتبة ثانية في الدلالة ، فيستغنى عن جزء من دلالة الحرف ، وهذا ما حصل في الأمثلة التي ذكروها ، وتَأوّلُ بعض العلماء أوجها لقسر النص على العودة إلى الدلالة بكامل معناها قد يكون فيه تَعَسُّفٌ ، فمثلما تكون إضافة بعض المعاني الهامشية للمفردات مزيَّة فنِّـيَّةً في الكلام . إن اجتزاء بعض المعنى من مفردة ما مزيَّة أخرى من مزايا الكلام البليغ .

وكذالك **قد يتخلى (ثُمَّ) عن دلالته على المُهلة** يفهم هذا من ادعاء الفراء أن (ثُمَّ) قد تكون لترتيب الأخبار لا لترتيب الأحداث ((من ذلك أن تقول : قد بلغني ما صنعت يومك هذا ، ثُمَّ ما صنعت أمسِ أعجب ، فهذا نسق من خبر المتكلم .)) [١] ، فـ(ثُمَّ) هنا تفيد ترتيب الأخبار ولا تراخي بين الإخبارين . وحمل ابن مالك على هذا المعنى قوله تعالى[٢]: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾(الأنعام من الآيتين:١٥٣- ١٥٤) ، ونُقِلَ في تخريجها على معناها الأصلي بشقَّيه أوجها :((الأول: التقدير: ثُمَّ إني أخبركم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام ، إنا آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة «ثُمَّ» لتأخير الخبر عن الخبر، لا لتأخير الواقعة،...، والثاني: أن التكاليف التسعة المذكورة في الآية المتقدمة لا يجوز اختلافها بحسب اختلاف الشرائع ، بل هي أحكام واجبة الثبوت من أول زمان التكليف إلى قيام القيامة. وأما الشرائع التي كانت التوبة مختصة بها ، فهي إنما حدثت بعد تلك التكاليف التسعة ، فتقدير الآية أنه تعالى لما ذكرها قال: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثا ، ثُمَّ بعد ذلك آتينا موسى الكتاب . الثالث : أن فيه حذفاً تقديره : ثُمَّ قل يا محمد إنا آتينا موسى ، فتقديره: اتل ما أوحى إليك ثُمَّ اتل عليهم خبر ما آتينا موسى .)) [٣] ، هذه الوجوه التي ذكرت للتأويل ممكنة ويستطيع ويستطيع بعض النحاة تخريج الكلام عليها ، لكن بعض النحاة لا يرى ذلك بل يفهم من السياق أن المعنى هنا أهمل فيه جانب الدلالة على المهلة في ترتيب الأخبار ، وعندها أفترض أن النص كان يريد تقرير الخبر وإثباته وذكر ترتيبه أكثر من أرادته ذكر المهلة وجودها أو عدم الوجود ، فالمهلة لم تكن الملحوظ الأول في النص أو في الدرجة نفسها مع ملحظ الترتيب ، لذا قد يستغنى عنها تبعا لمتطلبات فهم النص وتعقب دلالته .

وحملوا عليه قول الشاعر[٤]:

---

١ - معاني القرآن : ٢\١٥ ٤ .
٢ - ظ : مغني اللبيب : ١٦٠ ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ١٧٥، الجنى الداني : ٤٠٦.
٣ - مفاتيح الغيب : ١٤\١٨٦.
٤ - البيت لأبي دؤاد الإيادي أحد وصَّافي الخيل ، ضمن قصيدة في ديوان حميد بن ثور الهلالي : ٤٣ ، وينظر معه: شرح ألفية ابن مالك : ٣٠٦، الجنى الداني : ٤٠٦، مغني اللبيب : ١٦٠، وهي في الديوان بلفظ:(كهز الرُّدَينيِّ بين الأكف ...).

(المتقارب)

كهَـــزِّ الــــرُّدَينِيِّ تَحْـــتَ العَجَـــاجِ ... جَــرى فِي الْأَنابِيـــبِ ثُـــمَّ اضـــطَرَبْ

فمتى ما هُزَّ الرُّدَينيُّ جرى الهزُّ في أنبوب الرمح فيعقبه الاضطراب . فهنا لا مهلة بين الهزِّ والاضطراب ، وأنا أفسر الحالة هنا كما ذكرت قبل قليل من إن غاية منشئ النص الإشارة إلى ترتيب الأحداث ، أكثر من أن تكون الإشارة إلى المهلة في وقوع تلك الأحداث ، ويضيف هنا في هذا النص ، أننا يجب أن لا نغفل ضغوط القالب الشعري الذي قد يدفع الشاعر إلى استعمالٍ معيَّن للغة . وهكذا تبقى الدلالة المركزية لـ(ثُمَّ) دلالتها على الترتيب بمهلة ، ولا يمنع هذا من أن يضطرها السياق إلى التخليّ عن بعض معناها في نصوص معينة .

رابعا : (رُبَّ)

حَرفُ جَرٍّ على ما أثبته البصريون ، واختلف في معناه بين دلالته على التقليل أو التكثير، فقيل معناه التقليل ، وهو مذهب أكثر النحويين ، وقيل إنها تفيد التكثير، وقيل هي للتقليل والتكثير فهي من الأضداد ، وقيل أكثر ما تكون للتقليل ، وقيل أكثر ما تكون للتكثير والتقليل نادر ، وقيل هي للتكثير في موضع المباهاة والافتخار[1] ، هذه ستة أقوال ذكرت في معنى هذا الحرف لتبيَّن لنا الاضطراب بين العلماء وعدم وضوح معنى الحرف ولا استقراره ، فإفادتها معنى التقليل ينقل أنه رأي أكثرية العلماء ، وذكر السيوطيُّ أكثر من عشرين من أكابر النحويين يقولون به[2] ، لكن هذه الأوجه المتعددة التي نقلت عن بعضهم تجعلني أشكك في هذا القول ، بل إن رأي الأكثرية هذا لم يكن عاصما من أن يجهر ابن هشام بخلافه قائلا :((وليس معناه التقليل دائما ، خلافا للأكثرين ، ولا التكثير دائما خلافا لابن درستويه وجماعة ، بل ترد للتكثير كثيرا وللتقليل قليلا .)) [3] ، وقد استطعت من خلال تتبع كلام بعض العلماء أن أرصد سببين لخلاف العلماء الكبير في معنى هذا الحرف هما :

- السبب الأول : اختلاف الجهة التي ينظر إليها في تحديد القلَّة والكثرة ، أي اختلاف الزاوية التي ينظر بها القائلون بالقلَّة والقائلون بالكثرة ، يتبيَّن هذا جليا من النظر إلى تقسيم المالقيّ وآخرين معنى التقليل على قسمين :
  1. الأول يكون لتقليل الشيء في نفسه ، نحو الشاعر[4]:

(الطويل)

ألا ربَّ مَولُـــودٍ وَلَـــيْسَ لَـــهُ أبٌ ... وَذِيْ وَلَـــدٍ لَـــمْ يَلـــدْهُ أبَـــوَانِ

وَذِي شَــامَةٍ سَــودَاءَ فِي حُــرّ وَجْهِــهِ ... مُجَلَّلَــــــةٍ لا تَنقَضِـــــي لِأوَانِ

المولود الذي ليس له أبٌ هو عيسىعليه السلام ، أما ذو الولد الذي لم يلده أبوان فهو آدم عليه السلام ، وذو الشامة فهو البدر ، وهذه الثلاثة ليس لها نظير فهي قليلة الوجود في أنفسها . فتكون (رُبَّ) هنا لتثبيت قلّـة هذه الأشياء . ومنه أيضاً قول زهير[5]:

(الطويل)

---

١ - ظ : اللمع في العربية :١٥٠، حروف المعاني : ١٤، معاني الحروف ١٠٦، أسرا العربية : ٢٣٧، اللباب في علل البناء والإعراب : ٣٦٣\١، البيان في شرح اللمع :١٤٩، شرح جمل الزجاجي :٥٠٠\١، رصف المباني : ١٨٨ ، لسان العرب : مادة(ربب) :٤٠٨\١، الجنى الداني : ٤١٧، شرح المفصل : ٢٦\٨، ، جواهر الأدب : ٢١٧.

٢ - ظ : همع الهوامع : ٢٥\٢.

٣ - مغني اللبيب : ١٨٠، وينظر معه : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ١٤٧-١٤٨، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٥١\٣.

٤ - البيتان منسوبان لرجل من أزد السراة ، ويروى أيضا (عجبت لمولود ..) ينظر : الكتاب :٢٦٦\٢، الخصائص : ٣٣٣\٢، المقرَّب:١٩٩\١، شرح المفصل : ١٢٦\٩، همع الهوامع:٢٦\٢ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٣٨١\٢ - ٣٨٢.

٥ - شرح ديوان زهير :١٣٩- ١٤٠ .

وَأَبــيَضَ فَيّــاضٍ يَــداهُ غَمامَــةٌ   عَلى مُعتَفيـهِ مـا تُغِـبُّ فَواضِـلُه

وهذا القول يخصُّ ممدوحه ، وهو (حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري) وهو شخص واحد لا وجه للتكثير فيه ، وليس هنالك جماعة كثيرة هذه صفتهم .

٢. القسم الثاني : لتقليل النظير، وهي كثيرة الاستعمال ، ومنها قول امرئ القيس[١]:

(الطويل)

فَـإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ بُهمَـةٍ   كَشَـفتُ إِذا مـا اِسـوَدَّ وَجـهُ جَبـانِ

وَإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ قَينَـةٍ   مُنَعَّمَـــةٍ أَعمَلتُهـــا بِكِـــرانِ

وَإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ غـارَةٍ   شَـهِدتُ عَلـى أَقَـبَّ رَخـوِ اللَبـانِ

الشاعر يريد أن يمتدح نفسه ويفخر بفعاله التي هي نادرة وقليلة عند غيره ، لكنها عنده كثيرة ، وقد اعتاد هذه الأشياء ، فكثير من الكرب المظلمة كَشَفَها ، وكثير من القينات الناعمات كُنَّ له يلهو معهن ، وله عددٌ من الغارات التي شهدها ، وهو فارس على جواد مطيع له ، وهذه الأعمال قلَّ مثلها لغيره ، وقول النحويين : إن (رُبَّ) للتقليل يريدون به تقليل نظير الفعل عند غير المفتخر أو الممدوح ، أما عنده هو نفسه فالفعل معتاد كثير الوقوع . إن القسم الثاني هو أكثر القسمين استعمالا لهذا الحرف[٢] ، وعندها فمن نظر إلى كثرة وقوع الفعل من الممدوح قال إنها تأتي للتكثير، ومن نظر إلى قلَّة وقوع الفعل من الآخرين ، وأنه نادر من غير الممدوح قال إنها تعني التقليل . فاختلاف زاوية النظر هذه يرجع إليها بعض اللبس والخلط في أقوال العلماء في معنى هذا الحرف .

لقد احتجَّ القائلون بأن (رُبَّ) حرف تقليل بأنه رأي الجمهور ، وبأنها جاءت في مواضع لا تحتمل إلاَّ التقليل – مثلَ قولِ الأزديِّ وقول زهير المتقدمين – وجاءت في مواضع ظاهرها التكثير وهي محتملة لإرادة التقليل بضرب من التأويل ، فتعيَّن أنها تكون حرف تقليل ، والتقليلُ مطردٌ فيها ، أما المواضع التي هي فيها للتكثير ، وتصير للتقليل بشيء من التأويل ، فهي مثل قول امرئ القيس المتقدم فهذه يقال فيها للتقليل والمراد تقليل النظير عند الآخرين ويقال فيها للتكثير ويراد بها التكثير عند الممدوح[٣] .

- أما السبب الآخر : في تضارب أقوال العلماء في معنى هذا الحرف يرجع إلى أن أكثر العلماء لم يتنبهوا إلى تأثير السياق في تقرير معنى القلَّة والكثرة في معنى الحرف .

و قد يكون معنى الحرف المركزي معنى آخر لم يفطن بعضهم له ، وهذا المعنى ذكره المراديُّ عندما عدد أقوال العلماء في معنى هذا الحرف قائلا :((إنها [أي(رُبَّ)] **حرف إثبات** لم وضع لتقليل ولا تكثير ، بل ذلك مستفادٌ من السياق .))[٤] ، ولا أعلم حقيقة هل هذا القول للمرادي نفسه أو ينقله عن آخرين ؛ إذ لم أعثر على من يصرح به قبله ، ولم يأبه له المراديُّ نفسه على ما له من أهمية ، وأعتقد أن هذا المعنى حريٌّ أن يكون هو المعنى المركزي لهذا الحرف ، وأما دلالته على القلَّة والكثرة فمرجعها إلى السياق حقا .

---

١ - ديوان امرئ القيس : ٨٦ .
٢ - ظ : رصف المباني : ١٨٨- ١٨٩ .
٣ - ظ : الجنى الداني : ٤٢٠-٤٢١ .
٤ - الجنى الداني : ٤١٨ .

من المواضع التي أثَّر فيها السياق في المعنى ، وأرشدنا إلى المراد من هذا الحرف قولهم: (رُبَّ عالمٍ لقيتُ ، و رُبَّ كتاب قرأت) يقولها القائل وهو في حقيقة الأمر قد لقي كثيرا من العلماء ، وقرأ كثيرا من الكتب لكنه يقلل إثبات عدد مرات وقوع الفعل منه **تواضعا** ، فالسياق هنا قد مكننا من تحديد المراد من معنى الحرف ، وهو غير معنى القلّة أو الكثرة .

ومن أمثلة المواضع التي يُفهم المعنى فيها من خلال السياق ، ويكون له أثر فيه أن الرَّجل يقول لصديقه : (لا تعادِ ، فربما ندمت) ، والندامة لو كانت قليلة فحريٌّ بالشخص أن يتجنب مواردها ، والعداء كثيرا ما يجلب الندامة ، فهو من مواردها المعتادة ، فصار هنا اللفظ الدال على التقليل أدلَّ وأبلغ من اللفظ الدال على التكثير، وأضحى مناسبا أن نفسر (رُبَّ) هنا بمعنى القليل ، وهذا القليل يقتضي أن يُتَجَنَّب .

لم يستعمل هذا الحرف في القرآن الكريم بصورة تمكننا من تدبِّر سياقات قرآنية كثيرة ومنوعة ، لتميز حقيقة معناه واستعمالاته ؛ إذ استعمل في موضع واحد ، قال تعالى:﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾(الحجر:٢)، وقد فُسِّرَ هذا الموضع بتفسيرٍ مماثل لما تَقدَّمَ ، فقيل ((هي للتقليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها ؛ لشَغْلهم بالعذاب.))[(١)]، إنَّ كثيرا من المفسرين واللغويين يرون أن (رُبَّ) هنا أفادت التقليل ، لكن وصولهم إلى فهم هذا المعنى كان عبر السياق الذي ورد فيه الحرف .

ولم يمنع هذا من أن يفهم ابن هشام عكس هذا المعنى إذ يقول :((ترد [رُبَّ] للتكثير كثيرا ، وللتقليل قليلا ، فمن الأول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ ، وفي الحديث:(يا رُبَّ كاسيةٍ في الدُّنيا عاريةٍ يومَ القيامةِ)[(٢)] ، وسمع أعرابي يقول بعد انقضاء رمضان (يا رُبَّ صائمهِ لن يصومَه ، ويا رُبَّ قائمهِ لن يقومَه) . ومن الثاني قول أبي طالب في النبي9 [(٣)]:

(الطويل)

وَأَبيَضَ يُستَسقى الغَمامُ بِوَجهِهِ ... ثِمالُ اليَتامى عِصمَةٌ لِلأَرامِلِ))[(٤)]

فهم ابن هشام من الآية والحديث وقول الأعرابي أن (رُبَّ) تفيد التكثير وهو ما تدلُّ عليه في كثير من مواضع استعمالها ، وقد يكون يفهم منها معنى التكثير في الآية ؛ لأن الكافرين كلما رأوا حالهم وحال المسلمين تمنوا ذلك وتحسروا عليه ، وهذا الحال مستمر فعذاب الكافرين لا ينتهي ، ونعيم المؤمنين لا ينفد . فعندها يفهم من (رُبَّ) معنى التكثير ، في حين تفيد التقليل في مثل قول أبي طالب ؛ لأنها يراد بها التخصيص ، فهو يعني شخصا واحدا ، ومثله قول الأزديِّ المذكور آنفا .

ومرجع خلاف ابن هشام مع بقيَّة العلماء يعود إلى السياق ، فهو الذي حدَّد ما يمكن أن يُفهَمَ من الحرف ، وهنا نستذكر قول المراديّ : إن (رُبَّ) **حرفُ إثباتٍ** لم توضع لتقليل ولا تكثير ، بل ذلك مستفادٌ من السياق . وما قيل في تفسير أحوال هذا الحرف واضطراب العلماء فيه ، واختلاف الجهات في النظر إلى معناه يؤكد هذا القول ، ويؤكد أن للحرف معنى مركزيا ،

---

١ - الجامع لأحكام القرآن : ١\١٠- ٢ ، وينظر معه : معاني القرآن (الفراء):٨٢\٢، معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٣٧٨\٢، إعراب القرآن (النحاس): ١٩٠\٢، مشكل إعراب القرآن :٤٠٩\١، البيان في غريب إعراب القرآن : ٦٣\٢-٦٤.

٢ - ظ : فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٢٥٦\١٠، بحار الأنوار: ٣٢١\٦٧ .

٣ - ديوان أبي طالب : ٧٢.

٤ - مغني اللبيب : ١٨٠.

ومعنى (رُبَّ) المركزي هو (الإثبات) ، وله معان هامشية مستفادةٌ من السياق ، وهي دلالته على التقليل أو التكثير بحسب ما يفهم من قرائن دالة على ذالك .

خامسا : (على)

حرف من حروف الجر كثيرة الاستعمال في اللغة العربية ، ذكرت له المصادر تسعة معان ، وأجمعت على أن معناه الأول هو **الاستعلاء**[1] ، واقتصر بعض المصادر على هذا المعنى ، ((ولم يثبت لها أكثر البصريين غير هذا المعنى ، وتأولوا ما أوهم خلافه))[2] على الاتساع أو على تضمين الفعل معنى فعل آخر . فالاستعلاء هو المعنى المركزي لهذا الحرف ، وهو أما حقيقيٌّ حسيٌّ ، نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾(البقرة من الآية :٢٦٠) ، وقوله ﷻ : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(القمر:١٣) ، ومنه قول امرئ القيس[3]:

(الطويل)

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً　　عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي

وإما حكميٌّ مجازيٌّ ، كقولهم : عليه كآبةٌ ، وكأنها تغلبه وتظهر عليه ، وعليه دينٌ ، إذ يلزمه الانقياد به[4] ، و كقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾(الشعراء :١٤) ، وقوله تبارك : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(البقرة :٥) ، ومن الاستعلاء المجازي – وهو كثير الاستعمال – قول الحارث[5]:

(الخفيف)

فَبَقينا عَلى الشَناءَةِ تَنمي　(م)　نا حُصونٌ وَعِزَّةٌ قَعساءُ

١ - ظ : حروف المعاني:٢٣، معاني الحروف:١٠٨،المخصص:١٤\٥٧، البيان في شرح اللمع:١٤٩، شرح المفصل:٨\٣٧، المثل السائر:٢٤٠\١٢، شرح جمل الزجاجي :١\٥٠٩، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد:١٤٦، شرح ألفية ابن مالك:١٤٤، شرح الرضي على الكافية:٤\٣٢١، رصف المباني:٣٧٢، الجنى الداني:٤٤٤، مغني اللبيب:١٩٠، جواهر الأدب:٢٢٢، همع الهوامع:٢٨.
٢ - الجنى الداني : ٤٤٤ .
٣ - ديوان امرئ القيس : ٩ .
٤ - ظ : اللباب في علل البناء والإعراب : ١\٣٥٩، شرح الرضي على الكافية:٤\٣٢١، رصف المباني:٣٧٢، الجنى الداني:٤٤٤، مغني اللبيب:١٠٩، جواهر الأدب :٢٢٢.
٥ - ديوان الحارث بن حلِّزة : ١١.

والاستعلاء الحقيقي إما يكون على المجرور مباشرة وهو الغالب فيه ، نحو: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(المؤمنون:٢٢) ، أو يكون الاستعلاء على ما يقرب من المجرور، كقوله ﷻ : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾(طه من الآية:١٠) .

وحال هذا الحرف عند الكوفيين لا يختلف عن أحوال الحروف الأخرى ، فقد نسبوا إليه معاني أخر أختلف العلماء فيما بينهم في عددها وتسمياتها ، واختلفوا أيضاً في نسبة أكثر من معنى إلى الحرف في نصٍّ واحد ، وكانت هذه الخلافات أمارة عندي على أن تلك المعاني هي معاني هامشية تفهم من خلال تتبع القرائن المواكبة للسياق العام للنص ، من المعاني التي نسبت إلى هذا الحرف معنى **المصاحبة وهو معنى (مع)** [1]، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(البقرة من الآية:١٧٧)، المعنى: (({على حبه} مع حب المال والشُحِّ به ، كما قال ابن مسعود : (أن تؤتيه وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تأملُ العيشَ وتخشىَ الفقرَ، ولا تمهلُ حتى إذا بلغَتْ الحلقومَ قلتَ لفلانٍ : كذا ولفلان كذا) . وقيلَ : على حُبِّ الله . وقيل : على حُبِّ الإيتاء ، يُريد أن يُعطيَهُ وهو طَيِّبُ النفسِ بإعطائه .)) [2] ، يلاحظ أن هنالك خلافا في عودة الهاء في(حبِّه) فقد قيل فهو إما عائدٌ إلى المال ، وإما عائد إلى الإتيان ، أي ألا تدفعه وأنت مُتَسَخِّطٌ عليه كاره له . ويحتمل أيضاً وجها ثالثا : وهو أن يكون الضمير عائدا إلى الله ، ويكون التقدير على حب الله ، فيكون خالصا لوجهه [3] ، وكان أبو حيَّان يرى أن الضمير عائد إلى المال ؛ ((لأنه أقربُ مذكورٍ ، ومن قواعد النحويين أن الضمير لا يعود على غير الأقرب إلاَّ بدليلٍ .)) [4]، واختلاف عائديَّة الضمير لا يغيِّر معنى الحرف كثيرا ، فالسياق يحتمل أن يضاف إلى معنى الحرف المركزي قدرا مضافا من المعنى هو المصاحبة ، فالإنفاق مصاحبٌ لشيءٍ ما إما حُبِّ المال أو حُبِّ الإتيان أو حُبِّ الله تعالى ، وإذا أردنا أن نُرجع الضمير إلى المال يكون المعنى :(آتى المال متعاليا بالإتيان فوق حبِّه للمال) ، وهذا التعالي لا يمنع من المصاحبة بين الإتيان وحب المال ، أما إذا أردنا أن نرجع الضمير إلى لفظ الجلالة فيكون معنى المصاحبة أبرز وأوضح إذ يكون المعنى:(آتى المال متعاليا مع حبِّه لله تعالى) أي تعالت نفسه مع ما يقتضيه الحب الإلهي فآتى المال ، وإذا أعدنا الضمير إلى الإتيان يكون المعنى :(آتى المال متعاليا مع حبِّه للإيتاء) أي مع ما يقتضيه حب الإيتاء ، وروح التعاون الإنسانية فقد أنفق ماله .

إنَّ معنى المصاحبة الهامشي الذي يرافق المعنى المركزي لا يكون على درجة واحدة من الظهور والبروز ، ففي كل تقدير من التقديرات الثلاثة المتقدمة كان المعنى الهامشيّ إما يَقوىَ أو يَضعُف وكان في أكثرها بروزا عندما قَدَّرنا عودة الضمير إلى لفظ الجلالة فأضحى معنى المصاحبة واضحا جليا ، وهنا تكمن إحدى مزايا المعاني الهامشية : أنها معان متحركة مع النص تقوى حينا وتفتر آخر بحسب متطلبات التفسير لكل نصٍّ من النصوص .

---

١ - ظ : الجنى الداني:٤٤٤، مغني اللبيب:١٠٩، همع الهوامع:٢٨\٢، تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم : ١٠٢.
٢ - الكشاف : ٣٣٠\١ ، وينظر معه: جوامع الجامع ١٧٨\١.
٣ - التبيان : ٩٦\٢، وينظر معه : أحكام القران : ١٦٠\١، مفاتيح الغيب : ٢١٣\٥-٢١٦ الجامع لأحكام القران : ٢٤٢\٢ .
٤ - البحر المحيط : ١٢٠\٢-١٥٠ .

ومما حمل على معنى المصاحبة قوله عَزَّ شَأنُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾(الرعد من الآية:٦) أيْ :((مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب .))[1] . إنَّ المعنى المركزيّ هنا واضح وإن كان معنى المصاحبة الهامشي يُمكن أن يُفهَم من السياق ، فالله تعالى شأنه ذو مغفرةٍ متعالٍ فوقَ تصرفات الناس وظلمِهم ، وهذه المغفرةُ مع وجود الظلم فهي تصحبه ، وسعة رحمة الله ورأفته بالعباد لم تشترط أن يتخلى الناس عن الظلم ويتركوه لتنالهم الرحمة الإلهية ، بل هي تعمُّ المؤمن والظالم ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(النحل من الآية:٦١) ، فمعنى الاستعلاء واضحٌ جليٌّ ، ويرافقه معنى المصاحبة . ولو كنا نقول بالتناوب كما يقول الكوفيون لتخلينا عن معنى الاستعلاء ، وحفظنا معنى المصاحبة فقط ، وفي هذا اقتطاع لجزء حيويٍّ مهمٍّ من المعنى لا يمكن التخلي عنه ، فلو قلنا إن ربك لذو مغفرة للناس مع ظلمهم فلسائل أن يسأل عن سبب المغفرة مع الظلم وما الذي يقتضيها ، أهو ضَعفٌ ؟ أم غفلةٌ ؟ أم تهاونٌ ؟ أم تعالي الذات المقدسة عن العجلة والرأفة بالعباد؟ وهنالك الكثير من الأسباب . في حين تستطيع نظرية المعنى الهامشي أن تحفظ لنا الجواب ، وتطرحه مع النص مباشرة ، وتمنع مثل تلك الحيرة عند المتلقي ، فالله تعالى شأنه متعالٍ عن الناس ، وإن كانوا ظالمين ، وبيَّنت القرائن المساعدة للنص سبب ذلك كما في آية النحل .

ومن المعاني الأخرى التي حمل عليها (على) **<u>معنى اللام أي التعليل</u>**[2]، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾(الحج من الآية :٣٧) ، أي لهدايته إياكم ، وربما خرَّجَ بعضُ البصريين المعنى على التضمين قال الزمخشريُّ :((لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجّه ، بأن تكبروا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمَّن التكبير معنى الشكر، وعُدِّىَ تَعديَتَهُ .)) [3] . أقول يمكن أن يكون التعليل معنى هامشيا في هذه الآية فهنالك قدرٌ من الاستعلاء ملحوظٌ ، فقد سخَّر الله الأنعام للإنسان ليصل بها إلى مناسك الحج ، وهذا يقتضي الشكر والتكبير ، فيكبر الله تعالى مرتفعا بالتكبير فوق الحمد على الهداية لدينه فقط ، بل يكبِّرُ الله حمدا له على الهداية لدينه وحمدا على تسخيره هذه الأنعام وتمكينه منها[4] .

ومن الحروف التي قالوا بتناوبها مع هذا الحرف **<u>(من)</u>** وذلك في نحو قوله تعالى :﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ <u>عَلَى ٱلنَّاسِ</u> يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾(المطففين :١-٣) ، قال الفراء :((يريد :اكتالوا من الناس ، وهما تتعاقبان : (على ومن) في هذا الموضع ، فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال :اكتلت منك ، فهو كقولك استوفيت منك .))[5] ، ونقل أن ((البصريين يذهبون في هذا إلى التضمين ، أي : وإذا حكموا على الناس في الكيل .))[6]. الذي دفع البصريين إلى هذا التأويل التزامهم بنظرية التضمين ، وأن الحرف باق على معناه ، وليس له إلاَّ معنى الاستعلاء ، أما قول الكوفيين بتناوب الحرف يفقده أيضاً معنى الاستعلاء ، ويبقي له معنى ابتداء الغاية ، وفي الحالتين إخلال بتمام المعنى .

---

١ - جوامع الجامع : ٢٥١\٢.
٢ - ظ : الجنى الداني :٤٤٥، مغني اللبيب :١٩١، جواهر الأدب : ٢٢٢، البرهان : ٢٨٤\٤، نظرية الحروف العاملة :١٩٧، تناوب حروف الجر في لغة القرآن : ١٠١، التراكيب اللغوية في العربية : ٦٦.
٣ - الكشاف :١٥\٣ .
٤ - ظ : مفاتيح الغيب :٢٢٥\٣٢-٢٢٧، تفسير أبي السعود :١٠٣\٦-١٠٧ .
٥ - معاني القرآن:٢٤٦\٣، وينظر معه:مجاز القرآن:١٤١\١، تأويل مشكل القرآن:٤٢٩، معاني القرآن وإعرابه:٢٣٩\٢، مغني اللبيب:١٩١،جواهر الأدب:٢٢٢، همع الهوامع:٢٨\٢، نظرية الحروف العاملة:١٩٨، تناوب حروف الجر في لغة القرآن:١٠٢.
٦ - الجنى الداني : ٤٤٥ .

إن القول بنظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية يسمح لنا بطرح تأويلٍ أكثرَ قبولاً وأكثرَ منطقيَّة لهذه الآية وأمثالها ، متمشيا مع روح التعبير القرآني المتحرك ، وذلك على النحو الآتي : يقال في اللغة :((كَالَ الطعام ونحوه يَكِيلُ كَيْلاً،...، واكتاله وكاله طعاما وكاله له ،...، يقال : كال المعطي واكتال الآخذ .))[1] وبناءً على هذا بإمكان نصٍّ مماثل لهذه الآية القرآنية أن يكتفي بالقول :(ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا يخسرون)، فيُفهَم من هذا النص أن المطففين يستوفون حقَّهم إذا كانوا آخذين ، ويبخسون الناس إذا كانوا معطين ، ولكن الآية لم ترد إيصال هذا المعنى فقط ، بل كانت توصل معه دفعات من المعاني الهامشية التي أفادها السياق بإضافة (على الناس) ، فالآية الكريمة تصوِّرُ طائفة من الناس كأنهم يرون أنفسهم فوق البشر، وأعلى منهم رتبة ، فيعمد هؤلاء إلى بخس الناس حقوقهم ، ومنها حقهم في الكيل والميزان ، فهؤلاء يُصوِّرهم القرآنُ الكريمُ يكتالون من منظار الفوقيَّة ، وأنهم أعلى من الناس ؛ ولأنهم أعلى من الناس وَجَبَ أن يستوفوا كيلهم عندما يكونون آخذين ، ولا يضر أن يبخسوا الناس حينما يكونون معطين . أما ما يفهمه بعض المفسرين من أنها بمعنى (من) وأنَّه كالدين في حق الآخرين يجب أن يؤخذ منهم فهو معنى هامشي متأت من قرائن معينة مصاحبة للنص ، ويبقى معنى الاستعلاء ملازما له ، وتبقى النظرة الفوقية مسيطرة على النص . إن هذا التفسير يتمكن من أن يجمع بين المعنيين ، ولا يطرح أحدهما ، ولا يجمِّد الصورة القرآنية ؛ من هنا تأتي قوَّة نظرية المعنى الحرفي المركزي والمعاني السياقية المرافقة له .

ليس غريبا أن نجد من يعوِّض **(عن)** بـ(على) في هذه الآية وغيرها ، ويقول : إنها نابت منابها فقد قال ابن منظور((قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾(البقرة من الآية :٢٥٩) ، أي خاوية عن عروشها لتهدمها ، **جعل على بمعنى عن** ، كما قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ ، أي اكتالوا عنهم لأنفسهم ، وعروشها : سقوفها ، يعني قد سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان .)) [2] ، وقال في موضع آخر:((قال أبو زيد في باب الأضداد : طلعت على القوم أطلع طلوعا إذا غبت عنهم حتى لا يروك ، وطلعت عليهم إذا أقبلت عليهم حتى يروك . قال ابن السكِّيت : طلعت على القوم إذا غبت عنهم صحيحٌ ، جعل **(على) فيه بمعنى (عن)** ، كما قال الله ﷻ :﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، معناه :عن الناس ، ومن الناس . قال وكذلك قال أهل اللغة أجمعون .))[3]. اختلافُ المعاني المنسوبة إلى (على) في آية المطففين يَنِمُّ على اضطرابٍ ، وعدمِ استقرارٍ في تحديد معنى الحرف ، وقد يُعدُّ هذا التعدد في نسبة المعاني ، وعدم الاستقرار على واحد منها خرقا بحسب نظرية التضمين البصرية ، التي تفترض أن كلَّ حرفٍ له معنىً واحد ، في حين تسمح نظرية المعاني الهامشية بتعدد المعاني وتكثرها ، فكلَّما استطاع المفسر أن يوجِّه الكلام وجهة جديدةً – تبعا لقرائن السياق المتوافرة بين يده – استطاع أن يولِّدَ معاني جديدة .

إنَّ نسبة معنى (عن) إلى (على) في آية المطففين يكون بهذه الصورة : إن هؤلاء الناس إذا اكتالوا أي كانوا آخذين فإنهم يستوفون متجاوزين الناس غير آبهين لهم ، إذ إنَّهم يبخسونهم حقوقهم عندما يكيلونهم في حين يستوفون عندما يكتالون منهم ، ولا أرى المعنى واضحا أكثر

---

١ - لسان العرب: مادة(كيل) :١١/ ٦٠٤- ٦٠٥ .

٢ - لسان العرب: مادة(عرش) :٦/٣١٤ .

٣ - لسان العرب: مادة(طلع) :٨/٢٣٧ .

من هذا الحد وأرجِّح أن يبقى الحرف على معناه المركزي ، أو معناه المركزي مضافا إليه معنى (من) الهامشي كما تقدَّمَ آنفا .

أما في قوله تعالى:﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، قال الرازي في تفسيرها:((يقال للبيت إذا انهدم : خَوَىَ لأنَّه بتهدمه يَخلُو من أهله ،...، والعَرشُ سَقفُ البيتِ ، والعُرُوش الأبنية ، والسقوف من الخشب ،...، فقوله: {وهي خاوية على عروشها} أي مُنهَدِمَةٌ سَاقِطَةٌ خَرَابٌ ، قاله ابن عباس N ، وفيه وجوه أحدها : أن حيطانها كانت قائمة وقد تهدمت سقوفها، ثم انقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المنهدمة ، ومعنى الخاوية المنقلعة وهي المنقلعة من أصولها يدل عليه قوله تعالى : {أعجاز نخل خاوية} (الحاقة: ٧) وموضع آخر {أعجاز نخل منعقر} (القمر: ٢٠) وهذه الصفة في خراب المنازل من أحسن ما يوصف به والثاني : قوله تعالى : {خاوية على عروشها} أي خاوية عن عروشها، جعل {على} بمعنى {عن} كقوله {إذا اكتالوا على الناس} (المطففين: ٢) أي عنهم والثالث: أن المراد أن القرية خاوية مع كون أشجارها معروشة فكان التعجب من ذلك أكثر، لأن الغالب من القرية الخالية الخاوية أن يبطل ما فيها من عروش الفاكهة ، فلما خربت القرية مع بقاء عروشها كان التعجب أكثر.)) [١] الوجه الأول الذي ذكره الرازي عن ابن عباس تُفَسَّرُ فيه (على) بمعناها المركزي ، وهو الاستعلاء ، فالقرية خاوية فوق عروشها ، وهو المعنى الأول المتبادر ولعلَّه أبسط المعاني تركيبا ، أما المعنى الثاني الذي يعوض فيه (عن) بـ(على) فلم يفسره الرازي واكتفى بأن مثَّله بآية المطففين ، وأستطيع أن أقدِّم تَصوُّري عن هذا المعنى وفاقا لنظرية المعاني الهامشية بالصورة الآتية : لما كانت (عن) تعني المُجاوزة والبُعد ، وهذه القرية خاوية على عروشها بمعنى عن عروشها ، فكأني بهذه القرية قد حلَّ بها غضب الله ، فتناثرت جدرانها وأثاثها ، وعنده سقطت السقوف فوق أسس البناء ، في حين الجدران والأثاث(القرية) قد تناثر مبتعدا عن العروش (السقوف) ، ولعلَّ شيئا من تلك الجدران سقط ثانية فوق العروش فعلاها ، فالصورة بحسب هذا الفهم توضَّح لنا ، كأن زلزالا أصابَ القرية ، أو انفجارا مما نشهده في هذا العصر قد حلَّ بها ، فتناثرت مبتعدة عن السقوف ، التي عادة ما تكون ثقيلة نسبيا ، فسقطت مكانها وصورة القرية المتناثرة أدعى للعجب إذا ما أراد الله إعادتها إلى حياتها الأولى . إن القرائن هي التي تسمح للمفسر أن يطرح تفسيرا معينا لكل نصٍّ ؛ لأنها توفر أمامه معطيات استنباط المعنى من ذلك النص .

ومن أشهر الأبيات التي قيل إن (على) أتت فيه بمعنى (عن) قول القحيف العقيلي(ت١٣٠هـ)[٢]:

(الوافر)

إذا رَضِيَت عليَّ بنو قُشَيرٍ ... لعَمرُ اللهِ أَعجَبَني رضاها

أي عني ، وقيل يحتمل أن الفعل (رَضِيَ) ضُمِّنَ معنى (عطف) الذي يتعدى بـ(على) وهذا تبعا لرأي البصريين في بقاء الحرف على معناه الأصلي وتضمين الفعل معنى فعلٍ آخر . وفي نظرية المعاني الهامشية نستطيع أن نقول إن معنى الاستعلاء ما زال محفوظا ، فبنو قُشَير حينما يرضون عليه فهم في مرتبة أعلى وهو يطلب رضاهم ، وأما المجاوزة بعد الرضا فهي قدرٌ مضافٌ من المعنى .

---

١ - مفاتيح الغيب :٢٠١٧-٣٤ .

٢ - شرح ابن عقيل:٢\٢٥، الأمالي الشجريَّة :٢\٢٦٩، المخصص:١٤\٦٥، الأزهية:٢٨٧، ارتشاف الضرب:٢\٤٥٣، الجنى الداني:٤٤٥، مغني اللبيب:١٩١، خُزَانَةُ الأَدَبِ:١٠\١٣٢.

ونسب أيضاً لـ(على) **معنى الظرفية** [1]، في نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾(القصص : ١٥) ، أي في حين غفلة ، ولم أجد من المفسرين من يصرِّح بأن (على) هنا بمعنى (في) على كثرة ما راجعت من التفاسير ، فيبقى هذا الكلام زعما من اللغويين ، قال القرطبيُّ في تفسيرها :((يقال في الكلام : دخلت المدينة حين غفل أهلها ، ولا يقال : على حين غفل أهلها ، فدخلت (على) في هذه الآية لأن الغفلةَ هي المقصودةُ ، فصار هذا كما تقول : جئت على غفلة ، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية .)) [2]، إن معنى الاستعلاء إذا ما لحظ في تفسير الآية يزيد المعنى رونقا ورصانة فقد دخل موسى المدينة مستعليا على أهلها لأنهم غافلون فهو غير آبه لحالهم وتوعدهم له ، وأنا أفهم منها أنه دخل المدينة وقلبه مطمئن لا خائف ولم يدخل الخوف قلبه حتى قتل ذلك الرجل عندها خشي القوم ، أما معنى الظرفية فمفهوم من السياق وإن لم يصرِّح به المفسرون ، إذ عند دخوله المدينة أصبحت ظرفا له وقد حلَّ بها ، وهذا يضاف إلى المعنى المركزي للحرف ، ولم يدلّ الحرف عليه صراحة ، بل فهم من السياق العام للنص .

وفي قوله ﷻ : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾(البقرة من الآية : ١٠٢)، قال الفراء : ((كما تقول: في ملك سليمان ، تصلح (في) و(على) في مثل هذا الموضع ، تقول : أتيته في عهد سليمان وعلى عهده سواء .))[3] ، وخرَّج الرازي المعنى على تقدير محذوف قائلا: ((والأقرب أن يكون المراد : واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان ؛ لأنهم كانوا يقرؤون من كتب السحر ويقولون : إن سليمان إنما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم، فكانت تلاوتهم لتلك الكتب كالافتراء على ملك سليمان .))[4]، وكان ابن كثير قد ضمَّن الفعل (تتلوا) معنى (تكذب) وعدَّه أحسن وأولى [5] ، تقدير الرازي ليحافظ على المعنى الأصلي لـ(على) وهو هنا استعلاء مجازي بمعنى ارتفع عن الحقيقة وابتعد عنها ، وكذا تضمين ابن كثير الفعل معنى(تكذب) ؛ لأنه يتعدى بـ(على) ، فعدِّي (تتلوا) بـ(على) ؛ لأنه أشرب معنى (تكذب) ، وفي الأحوال كلها فالمعنى المركزي له وجوده بقدر ما ، أما معنى الظرفية ؛ فكونهم يخوضون في هذا الحديث أصبح ظرفا مجازيا لهم .

تميز الاستعمال القرآني للحروف من غيره فقد يجعل من الحرف مقابلا لحرف آخر في مقابلات ثنائيَّة بيانيَّة يصعب التفريط بها ، وقد يغفل عن أمثالها بعض البلغاء ، من ذالك ما أشار إليه أبن الأثير (ت٦٣٨هـ) في أثناء حديثه عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(سبأ:٢٤) ، إذ خالفت الآية الكريمة في وصف المهتدين بأنهم على الهدى ، ومن كان ضالاً فهو في الضلال ، فيقول :((ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفيّ الجر ها هنا ، فإنه إنما خُولِفَ بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرسٍ جوادٍ يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه مُنغَمِسٌ في ظلامٍ منخفضٍ فيه لا يدري أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله في الكلام ، وكثيرا ما سمعت إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على كل أمر من الأمور،

---

١ - ظ : الجنى الداني : ٤٤٥، مغني اللبيب : ١٩١،البرهان : ٢٨٤\٤، جواهر الأدب : ٢٢٢، همع الهوامع :٢٨، نظرية الحروف العاملة :١٩٩، تناوب حروف الجر في لغة القرآن : ١٠٠ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٠\١٣.

٣ - معاني القرآن : ٦٣\١، وينظر معه : الكشاف : ٣٠١\١، الجامع لأحكام القرآن : ٤١\٢، .

٤ - مفاتيح الغيب : ٦١٨\٣ .

٥ - ظ : تفسير ابن كثير :١٤١\١.

فيقول له : أنت على ضلالك القديم كما أعهدك ، فيأتي بـ(على) في موضع (في) ، وإن كان هذا جائزا إلا أن استعمال (في) ههنا أولى .)) [1] ، هذه المقابلة الثنائيَّة في استعمال حرفي الجر كان لها أثرها الكبير في إيصال المعنى بدقَّة قد يصعب الوصول إلى مثلها عند تغيير تلك الحروف في مثل ذلك النص . ولا مجال هنا للقول بإمكانيَّة التناوب بين الحروف فكل من الحرفين استعمل ليدلَّ على معناه المركزي بدقَّة ووضوح .

هذه هي أشهر المعاني التي قيلت في (على) وهنالك غيرها ، وقد قال المراديُّ في عقبها: ((وأكثر هذه المعاني إنما قال به الكوفيون، ومن وافقهم كالقتبيّ ، والبصريون يؤولون ذلك.))[2]، وقال الإربليُّ: ((ومعنى الاستعلاء ملحوظ في جميع ذلك .)) [3] ، كلام هؤلاء العلماء يعزز من نظرية المعنى المركزي للحرف والمعاني الهامشية .

في نهاية هذا الفصل يمكن تلخيص ما تقدم بالقول : إن الفرضية التي طرحت في مستهلِّ هذا الفصل ، قد دُعِّمت بعوامل كثيرة ، منها أقوال علماءَ كانوا يستشعرون المعنى الحرفي المركزي ، ومنها أدلَّة من صميم اللغة وطبيعتها تؤيِّدُ أن الحرف له معنىً مركزيٌّ ، أمَّا ما يعتريه من دلالات أخرى فهي دلالات ينتجها النص كاملا ، ويختصُّ الحرف بقسط منها ، تلك هي المعاني الهامشية ، وبعد كلِّ ما تقدم أعتقد أنَّه يحقُّ لي أن أطرح بتواضع واستسماح الفرضية السابقة بوصفها نظريَّة تعالج معاني الحروف بصورة مطردة في اللغة العربية الفصحى مقترحا لها اسم **(نظرية الدلالة المركزية للحرف والدلالات الهامشية)** ، ومجال البحث العلمي مفتوحٌ أمامَ الباحثين لنقاشها وتقويمها ودعمها وتهذيبها مما يساعد على تطوير فهم جديد للغتنا العربية المجيدة . وأعيد الآن ترتيب النظرية على النحو الآتي :

١. لكلِّ حرفٍ معنىً مركزيّ ، هو المعنى الموضوع له الحرف أصلا ، ويختلف المعنى المركزي لكل حرف عن المعاني المركزية للحروف الأخرى ، حتى وإن كانت الحروف تشترك في وظيفة نحوية واحدة كحروف الجر أو حروف العطف ، والمفروض أن ليس هنالك حرفان لهما معنى مركزي مشترك ؛ إذ أصل الوضع والحكمة منه تقتضي ذلك .

٢. هنالك عدد من المعاني الهامشية يستطيع أن يؤديها كل حرف ، ويتمكن الحرف من تأدية هذه المعاني الهامشية من خلال النص ، أما خارج النص فلا يتمكن الحرف إلاَّ من أداء معناه المركزي الذي هو معنى مُتَقوِّمٌ بالغير كما تبيَّن من الفصل الأول ، وتختلف المعاني الهامشية تبعا للسياقات اللغوية الوارد فيها الحرف ، وكلَّما كان الحرف كثير الاستعمال كثرت السياقات التي يرد فيها ، وعليه تكثر احتماليَّة توليد معان جديدة لهذا الحرف ، وقد رأينا أن الحروف كثيرة الاستعمال (مثل بعض حروف الجر أو بعض حروف العطف) ؛ ولذا كثرت المعاني الهامشية المرصودة فيها .

٣. تسير هذه الدلالات الثانوية في ظلال المعنى المركزي ، وتتصارع معه في ساحة النص محاولة الظهور والطغيان على المعنى المركزي ، وقد تفلح في نصوص ما فيطغى فيها المعنى الهامشي على الدلالة المركزية للحرف ، وقد لا تسعف القرائن النص على إبراز

١ - المثل السائر :٢٤٠:٢- ٢٤١ .
٢ - الجنى الداني : ٤٤٧ .
٣ - جواهر الأدب :٢٢٣ .

ذلك المعنى ، فيبقى المعنى المركزي هو السائد في النص ، ولا تمنع هذه النظرية من اشتراك أكثر من معنى هامشي في نص واحد ، إذ قد تتضافر المعاني الهامشية في إيصال قدر مشترك من المعاني من خلال هذا الحرف أو ذاك .

٤. قد يكون هنالك بعض الحروف من المشترك اللفظي فتشترك مع حروف أخرى في صورة واحدة ، فيتحصَّل من هذا حرفان مختلفا الدلالة يشتركان في صورة واحدة ، وعندها يكون هنالك معنيان مركزيان لهذه الصورة ، أو أكثر، كل معنى لحرف منهما ، ولا يعني هذا أن لحرف ما معنيين مركزيين ، بل هما معنيان لحرفين مختلفين مشتركين في الصورة ، حالهما في ذلك حال بقيَّة المفردات في باب المشترك اللفظي ، وقد رأينا (إن) و(من) أمثلة لذلك .

٥. في نظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية نستطيع أن نحفظ للنصوص الأدبية حيويَّتها ، ونبقيها تبض بالحياة أمام المتلقي ، في حين تسقط نظرية تناوب الحروف الكوفيَّة دلالة الحرف على معناه المركزي ، حينما تزعم أنَّه جاء بمعنى حرف آخر ، وبذا تسقط جزءا من معناه داخل النص . من جهة أخرى تجمِّدُ نظرية التضمين البصريَّة المعنى حينما تدَّعي أن الفعل ضُمِّن معنى فعل آخر يتعدَّى بهذا الحرف ، وقولها هذا لم ينبع من روح النص ، بل قالوا به لتمسكهم بوحدة المعنى الحرفي ، وعدم جواز تعدده ، في حين تستثمر نظرية المعنى المركزي طاقات النص الإبداعيَّة كلَّها بغية الوصول إلى معان كثيرة ومتعددة وحيَّة يوحي بها النصُّ .

٦. ليس شرطا أن يتفق العلماء على فهم معنى هامشيٍّ معيَّن لحرف ما في نصٍّ محددٍ ، فقد يفهم هذا المعنى عالمٌ أو مفسِّرٌ وقد لا يتبيَّنُ لآخر ، وذلك بحسب ما تتوافر من قرائن ومعطيات من داخل النص أو خارجه تسمح بفهم معنى ما من ذلك الحرف داخل هذا النص ، أي إن هذه النظرية تسمح بتعدد الفهم وكثرة القراءات للنص الواحد ، في حين التزامنا بوحدة المعنى الحرفي يجعلنا في ضيق من تعدد الأقوال في معنى حرف معيَّن في نصٍّ معين ، وقد نصل مع هذه الحال إلى اضطراب في تحديد معنى الحرف ، قد يدفعنا إلى وصف النص بالغموض أو القصور عن الإفهام ، مع أنه نصٌّ أدبيٌّ فصيحٌ .

٧. تشعرنا هذه النظرية بقيمة النصوص الأدبية ومقدرة منشئ النص على استثمار قدرات اللغة كلها ليتمكن من توليد معان كثيرة بألفاظ قليلة ، وهذه من أبرز سمات النصوص الأدبية .

٨. توليد المعاني الهامشية من خلال السياق سمة خاصَّة بالنصوص البلاغية التي تستعمل اللغة في مستواها الفني البليغ ، فهذا المستوى هو صاحب الحق في استعمال المفردات عموما والحروف خصوصا بسياقات يُحملها بها معان هامشية معينة . ولا يحق للمتكلم بمستوى اللغة اليومي المتعارف في لغة العامة من أن يبتدع أو يَخرج في استعماله للحروف بقصد أنه يريد بها معان هامشية ، إذ أن ذلك سيولد شيئا فشيئا لبسا في الكلام واختلاطا في دلالات الألفاظ ، مما يشكل خطرا على سلامة اللغة ، ويجب عليه أن يتقيد بالدلالات المركزية للحروف ، نعم يحق له استعمال المعاني الهامشية على وفق الأنماط البليغة التي شاعت وأصبحت مألوفة ؛ لكي تسلم له بذلك عملية توصيل الأفكار بسهولة ويسر ووضوح .

الفصل الثالث

أثرُ السِّياق القُرآني في معاني الحروف

فَرَضيَّةُ الفَصل :

المبحث الأول : ما طوَّرَه القرانُ من معاني الحروف .
ويضمُّ عشرين حرفا .

المبحث الثاني : ما تفرَّدَ به القرانُ الكريمُ من معاني الحروف.
في فرعين :

- أولا : المعاني المركزية التي تفرَّدَ بها القران الكريم . ويضمُّ خمسة معان .
- ثانيا : المعاني الهامشية التي تفرَّدَ بها القران الكريم . ويضمُّ أربعة عشرَ معنى .

فَرَضيَّةُ الفَصل :

في هذا الفصل أعرض فرضية أخرى هي الفرضية الرئيسة الثانية في الأطروحة إذ تفترض الدراسة أن **(السياقَ القرآني المؤثرُ الرئيسُ في تطوير معاني الحروف)** في اللغة العربية الفصحى البليغة ، وهو قوَّةٌ فاعلةٌ في تطويرِ معانٍ مركزيةٍ كانت مستعملةً ، فأوجد معها معاني هامشية جديدة ، أو أحدث معاني مركزية جديدة كانت من إبداعات النص القرآني ، ولم يسبقه إليها غيره من النصوص الأدبية .

كانت محاولة رصد التطور في الاستعمال القرآني للحروف دافعا كبيرا وراء هذه الدراسة ، في محاولة لاستكشاف حجم ذلك التطور الذي أحدثه القرآن في استعماله لحروف المعاني ، ولقد افترضت الدراسة أنه أحدث تطورا ما في استعمال كثير من الحروف ، ومما ساعدني على الإفصاح عن هذه الفرضية أمورٌ، منها : أن القرآن الكريم ، لما ثبت عندنا من طرق العقل والنقل أنه معجز ، فلا بدَّ له من أن يتميز من كلام البشر المخلوقين ، ومنها : إن القرآن أحدثَ ثوراتٍ في المعارف المختلفة التي عالجها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ولاسيما في مجال اللغة إذ حشد في لغته الكريمة طاقاتٍ تعبيريةٍ هائلةٍ ، ومن ضمنها ما يتعلق بموضوع البحث خاصَّة – (حروف المعاني) – إذ قرر من قبلي باحثٌ معاصرٌ فقال :((أن كل ما قيل في معانيها [أي حروف المعاني] أو معظمه – بلفظ أدق – قد اعتمد في استنتاجه واستخلاصه على القرآن الكريم ،...، فلو تدبرنا مثلا حروف الجر لرأينا أن مراجع النحو بمجموعها تعرض هذه الحروف مستدلة لها بحشدٍ هائل من الأدلة القرآنية ، دون أن تجد من ضمنها شيئا من الأدلة الأخرى ، سوى ما ندر بالنسبة لبعض الحروف التي يشترك في الدلالة عليها بالإضافة إلى القرآن الكريم بيت أو بيتان من الشعر،...، وفي اعتقادي أنه لو صح للنحاة أدلَّة شعرية أو نثرية غير القرآن ليستدلوا بها على تلك المعاني لما توانوا عن رصدها وإلحاقها بالأدلَّة المذكورة .))[١]، لقد ساعدت هذه النظرةُ البحثَ في عرض فرضيَّته هذه .

وسأحاول في هذا الفصل أن أحدد بالأرقام وأشخِّصَ بدقة بعض مكامن التطور في الاستعمال القرآني للحرف ، وليس من المعقول أن أدعي أني سأحيط بتلك المواضع كلها أو

١ - أثر القرآن والقراءات في النحو العربي: ٢٠٦- ٢٠٨ .

أحدد كل ما طوره القران في الاستعمال الحرفي ، فهذا ما لا طاقة لي به ، وأنا أقف عاجزا أمام كتاب الله أن أفقه كل ذلك ، ولكن سأثبت ما استطعت رصده من المواضع التي كان للقرآن أثر بارز في تطويرها ، مراعيا ما يحتمله المقام هنا من وجوب اللمح والإشارة بما لا يكون اقتضابا مخلا ولا إسهابا مملا . وسيكون ذلك في مبحثين : أولهما سيتناول ما كان مستعملا وطوره القرآن على نحو ما ، والآخر سيخصص لما أنفرد به الاستعمال القرآني من معاني الحروف .

المبحث الأول :
ما طوَّرَه القرانُ من معاني الحروف .

أولا : (أمْ)

بغية تَعرّف حجم استعمال (أم) في دواوين شعراء المعلقات والقرآن الكريم أحصيتُ هذه الأداة في كل من النصَّين فكانت النتائج الآتية :

في القرآن الكريم تكررت (أم) (١٣٧) مئة وسبعا وثلاثين مرَّة[١]، ولما كان عدد آيات القرآن (٦٢٣٦)[٢] آية تكون النسبة المئوية بين مجموع استعمالات (أم) إلى مجموع آيات القرآن (٢,١%) وهذا يعني تكرارها مرتين كل مئة آية ، أو إحدى وعشرين مرَّة في كل ألف آية قرآنية ، أما في الشعر فقد استطعت أن أرصد (٤٦) ستة وأربعين استعمالا لـ(أم) في (٤٣) ثلاثة وأربعين بيتا شعريا ضمن مجموع دواوين أصحاب المعلقات[٣]، وإذا كان مجموع أبيات

---

١ - ظ : اعتمدت في جميع الإحصاءات القرآنية على ما أُحصيه بنفسي من خلال البرامج الكومبيوترية المتطورة والدقيقة جدا في إحصاء المفردات القرآنية وتصنيفها ، أمثال برنامج (نور جامع الأحاديث) ، تبيَّن من خلال هذه الإحصاءات وجود أخطاء كثيرة في (معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم) سأشير إلى بعضها في بعض الأماكن ، وقد اشتبه عليهم هذا الحرف الآية رقم(١٣) من سورة هود ، فأثبتوها :(٣٥\١١) ، والصحيح (١١\ ١٣) ، ينظر : معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٨٦ .

٢ - مسألة ضبط عدد آيات القران الكريم فيها روايات عديدة والمسألة موضع نقاش بحسب ثبوت الأدلة عند العلماء ، ولكنني اعتمد في هذا العدد على ما أحصيته بنفسي جامعا عدد آيات كل السور كما هو مثبت في المصحف العثماني على ما يوافق رواية حفص عن عاصم ، وهذا العدد ما يرويه الكوفيون عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب(عليه السلام) ، وهو موافق لما ذكر عن مشايخ القراء الكوفيين ، وأما سبب اختلافهم فهو كما نقله السيوطي عن بعضهم : أن النبي9 كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف ، فإذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة ، ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٥٥٩\١، مناهل العرفان : ٣٣٦\١ .

٣ - ظ : ديوان امرئ القيس :٩، ٤١، ٤٩، ٦٩، ١٠١، ١١٨، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٥، ١٨٠، وينظر معه: شرح الستة الجاهلية : ٤٨\١، ٤٩ ، ١٥٣،٢٧٤، ديوان طرفة بن العبد :٦٨، ٤٥، ٦٠، ٦١ ، ١٥٠ ، ديوان الحارث بن حلزة:١٣،٢٥، وينظر معه: شرح القصائد التسع المشهورات:٢\ ٥٨٣-٥٨٦، شرح القصائد العشر:٣٩٦ ، عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره :١٣٦، وينظر معه: شرح القصائد التسع المشهورات:٢\ ٦١٩-٦٢٠، شرح القصائد العشر:٣٢٥ -٣٢٦ ، ديوان

دواوين شعرائنا يبلغ (٥٥٨٦) بيتا ، فعنده ستكون النسبة المئوية لاستعمالات (أم) إلى عدد الأبيات هي (٠,٨%) وهذا يعني ورودها ثماني مرات في كل ألف بيت من أبيات هؤلاء الشعراء . وكما هو واضح فإن استعمال(أم) في القرآن أكثر منه عند الشعراء بما يقرب من ثلاثة أضعاف .

المعنى المركزي لـ(أم) :

لقد تتبعت استعمال القرآن الكريم في الموارد التي أتت فيها (أم) كلها موردا موردا ، ورجعت في كل مورد إلى عدد من التفاسير أنظر في وصف المفسرين واللغويين لكل استعمال وأين يصنفونه ، فوجدت أن (٤٥) خمسة وأربعين موردا من موارد (أم) يمكن أن نقول فيها إنها مستعملة للدلالة على معناها المركزي ، وهي (أم) المتصلة التي تتقدم عليها همزة يطلب بها وبـ(أم) التعيين ، و(أم) المتصلة التعينيَّة قد تمثل وجها حقيقيا لأسلوب الاستفهام في اللغة العربية ؛ إذ يُطلَبُ بها الفهم ممن يُتَوقَّعُ أنه يَعرفُ الجوابَ [1] . وبذا تكون نسبة (أم) المستعملة للدلالة على معناها المركزي إلى مجموع استعمالات (أم) القرآنية كلها يبلغ (٣٢%) ، أي أكثر من ثلث الاستعمال القرآني بقليل ، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ** ﴾(الصافات:١١) ، وقال ﷻ : ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** ﴾(ص:٧٥) . (الهمزة) و(أم) استعملتا في الآيتين للدلالة على معناهما المركزي ، وهو الاستفهام الابتدائي في الهمزة ، والاستفهام المعطوف في (أم) ، ولكن أسلوب الاستفهام في الآيتين خرج إلى معان مجازية (التقرير والإنكار) ، وبذا يكون المعنى الكلي للآية الشريفة مُكوَّنا من مجموعة دلالات لعناصر متعددة تتضافر فيما بينها لتعطي معنى متكاملا تريد الآية إيصاله إلى المتلقي[2].

وفي الشعر تتبعت أيضاً أبيات الشعراء مستعينا بالشروح ، فتمكنت من تحديد (٢٦) ستة وعشرين موضعا كانت فيه (أم) متصلة تعينيَّة من أصل (٤٦) ست وأربعين مرَّة استعمل فيها هذا الحرف في دواوين أصحاب المعلقات ، لتكون نسبتها إلى المجموع الكلي لاستعمالاتهم (٥٦%) ، ومن أمثلتها قول امرئ القيس[3]:

(الطويل)

أَذَلِكَ أَم جَونٌ يُطارِدُ آتُناً ... حَمَلنَ فَأَربى حَملُهُنَّ دُروصُ

ومنه أيضاً قول عنترة[4]:

(الوافر)

يَفيضُ عَطاؤُهُ مِن راحَتَيهِ ... فَما نَدري أَبَحرٌ أَم غَمامُ

وإذا ما وازنا استعمال المعنى المركزي لـ(أم) عند الشعراء ، بالاستعمال القرآني له تتبيَّن لنا كثرةُ استعمال الشعراء للمعنى المركزي لهذا الحرف في أشعارهم ، في حين قلَّ الاعتمادُ

عنترة (مولوي): ١٨٦، ٢٩٢، وينظر معه: شرح القصائد العشر:٢٦٣-٢٦٤ ، شرح ديوان زهير : ٣٣٠، ٦٥ ،٣٧٩، ٢٧٩، ٢٣٢، ١٣٢، ٧٣ ، شرح ديوان لبيد :٨١، ٢٣٨، ٣٠٧ ، ١٤٧، ٢٥٤، ٤٠٣، ٤٤.

١ - ظ : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ٣٠٧ – ٣٠٨ ، وينظر مصادره .

٢ - ينظر في شأن الآيتين : الكشاف : ٣\٣٣٧ ، ٣٨٢ ، مفاتيح الغيب : ٢٦\ ٣٢١ ، ٤١٠ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٥\ ٢٢٨ .

٣ - ديوان امرئ القيس : ١٨٠.

٤ - أشعار عنترة العبسي :٢١٨ .

عليه في الاستعمال القرآني ، بمقدار أقل من النصف بقليل عمَّا كان عليه عند شعراء المعلقات ، وسأحاول تعليل هذا بعد قليل .

المعاني الهامشية لـ(أم) :

- ١- معنى التسوية :

أهم المعاني الهامشية التي يمكن رصدها في هذا الحرف إفادته معنى التسوية مع معناه المركزي ، وقد ذكرت في الفصل الثاني أن النحاة كانوا يعدُّون (أم التسوية) جزءا من (أم المتصلة) ، وهذا النوع هو الذي تتقدم فيه همزة التسوية على (أم) ، ولقد وردت من هذا النوع ستة موارد في القرآن الكريم [١]، بمعنى أن نسبة استعماله إلى مجموع الاستعمالات الكلية لـ(أم) في القرآن تكون(٤,٣%) ، ومن استعمالاتها القرآنية في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة:٦) ، قال الزمخشريُّ :(({الهمزة} و{أم} مجرّدتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً . قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك : اللهمّ اغفر لنا أيتها العصابة ، يعني أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء . ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المُستَفهِم عنهما لأنه قد عَلِمَ أنَّ أحد الأمرين كائنٌ ، إمّا الإنذار وإمّا عدمه ، ولكن لا بعينه ، فكلاهما معلومٌ بعلمٍ غيرِ مُعَيَّنٍ .))[٢]، لقد عدَّ الزمخشريُّ (الهمزة و أم) تدلان على معنى التسوية ، في حين إن المفهوم من كلام سيبويه الذي استدلَّ به أن أسلوب الاستفهام هو الذي خرج إلى معنى مجازي ، ومعنى التسوية مستفاد من كلمة (سواء) الموجودة داخل النص ، ولكن الغرض من الاستفهام لم يكن حقيقيا ؛ لذا خرج إلى معنى مجازي هو التسوية ، وإذا كان الحرف فيه شيء من الإشارة إلى معنى التسوية فهو قدر من المعنى مضافٌ إلى معناه المركزي ، وقد حمَّله له السياق كاملا ، وليست كلمة (سواء) فقط ، وهذا أولى من أن ينسب معنى التسوية تارة إلى أسلوب الاستفهام[٣]، وتارة أخرى إلى الحرف فقط .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾(الشعراء:١٣٦)، وقال الرازي في شأن هذه الآية: ((أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه ، واستخفافهم بما أورده . فإن قيل : لو قال (أ وعظت أم لم تعظ) كان أخصر والمعنى واحد ، جوابه : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ؛ لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ .)) [٤] الاستخفاف والاستهزاء من المعاني المجازية التي قد يخرج إليها الاستفهام[٥] ، وهذا الخروج إلى المجاز ليس إلاَّ ثمرة لتناسق مكونات النص كلها وتفاعلها ، فقد وُظِّفَ معنى التسوية الذي خرج إليه أسلوب الاستفهام بحرفية المستعملين إلى إفادة معنى الاستخفاف والسخرية بوعظ أنبياء الله ورسله ، والاستهانة بمقامهم ، فضلا عن كلام الكافرين والمعاندين ، معنى ذلك أن (أم) حرف استعمل في معناه المركزي في سياق خاصٍ حملَّه قدرا يسيرا من الإشارة إلى معنى آخر ليتضافر مع مكونات النص الأخرى في بلورة المعنى المتكامل للآية الشريفة .

---

١ - ظ : البقرة : ٦، الأعراف : ١٩٣، إبراهيم :٢١، الشعراء : ١٣٦، يس : ١٠ ، المنافقون : ٦ .
٢ - الكشاف : ١\١٥٠ ، وينظر معه الكتاب :٢\٢٣٢ .
٣ - ظ : مجاز القرآن : ٢\١٥٨، البرهان:٢\٣٣٦، الأشباه والنظائر:١\٢٣٣، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:٤٣٢.
٤ - مفاتيح الغيب : ٢٤\ ٥٢٢ ، وينظر معه : الجامع لأحام القرآن : ١٣\١٢٥.
٥ - ظ : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ٤٤٦-٤٤٧، وينظر مصادره .

في دواوين أصحاب المعلقات موضع واحدٌ فقط من المواضع الستة والأربعين التي استعملت فيها (أم) أفادت فيه (أم) معنى التسوية بمساعدة السياق ، وهذا يعني أنَّ نسبة (أم التسوية) إلى المجموع الكلي للاستعمالها عند الشعراء (٢,١%) ، والبيت الذي جاءت فيه (أم) مع همزة التسوية هو قول زهير[١]:

(الطويل)

سَــواءٌ عَلَيــهِ أَيَّ حــينٍ أَتَيتَــهُ　　أَســاعَةَ نَحــسٍ تُتَّقــى أَم بِأَســعُدِ

يشير زهير إلى أن ممدوحه متى ما تقدم عليه فهو كريم جواد لا يتطير من شيء ، ولا يضنُّ بالمال ساعة النحس إذا ما تطير الناس ، فالأوقات كلها مستوية عنده وليس منها ما يتقى في عُرفِه ، فمعنى التسوية لم يُتوصل إليه بـ(أم) أصالة ، بل (أم) أفادت معناها المركزي ، وربَّما حملها السياق قدرا ما من الدلالة على معنى التسوية الذي خرج إليه أسلوب الاستفهام بحرفيه .

ولعلَّ بعض العلماء يفهم معنى التسوية من خلال وقوع الهمزة بعد كلمات أخرى غير(سواء) ، مثل (ليت شعري ، ولا أدري ، ولا أبالي)[٢] ، لكن ابن هشام لم يرض منه هذا عندما وصف قول زهير[٣] :

(الوافر)

وَمــا أَدري وَسَــوفَ إِخــالُ أَدري　　أَقَــومٌ آلُ حِصــنٍ أَم نِســاءُ

بأنه لا يراد به التسوية ، وعلَّق عليه قائلا :((والذي غَلَّطَ ابن الشجري ، حتى جعله من النوع الأول [أي الذي للتسوية] تَوهُّمُه أن معنى الاستفهام فيه غير مقصود البتة ، لمنافاته لفعل الدراية . وجوابه أن معنى قولك :(علمت أزيد قائم؟) علمت جواب (أزيد قائم؟) ، وكذلك (ما علمت) .))[٤] ، ومقتضى كلامه أن الاستفهام مقصود على نحو الحقيقة ، وأن فعل الدراية (أدري) كأنه دخل على مضمون الجملة العام ، أي على جواب هذا الاستفهام ، ولعل هذا الفهم يتلاءم مع ما استشعرته من كلام المفسرين عند مراجعتي لهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾(الأنبياء:١٠٩) ، وقوله تعالى :﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾(الجن:١٠) ، وقوله عزَّ من قائل :﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾(الجن:٢٥)، فلم أجد من المفسرين من يصرح بأنَّ (أم) في الآيتين تفيد معنى التسوية[٥] .

إن معنى التسوية الذي استعملت فيه (أم) كان قليلا جدا في دواوين شعراء المعلقات ، وقد توسع فيه القرآن بمقدار ضعف ما كان عليه عند الشعراء ونصف .

- ٢- معنى الإضراب :

---

١ - شرح ديوان زهير : ٢٣٢.
٢ - ظ : التبيان في إعراب القرآن : ١\١٥، الجنى الداني : ٩٨.
٣ - شرح ديوان زهير : ٧٣.
٤ - مغني اللبيب : ٦١ ،٦٢ .
٥ - ينظر في شأن هذه الآيات الثلاث : معاني القرآن (الفراء):٣\١٩٣، جامع البيان : ٢٩\١٠٥ ، ١١٥، إعراب القرآن : ٣\٥٢٢، ٥٢٨ ، التبيان :١٠\١٥٠، الكشاف :٢\٥٨٦، ٤\ ١٦٨ ،١٧١ ، مجمع البيان :١٠\١٤٧، مفاتيح الغيب :٢٢\١٩٦، ٣٠\ ٦٧٠،٦٧٧ ، البحر المحيط : ١٠\ ٢٩٢- ٢٩٥، الجامع لأحكام القرآن : ١١\١٩، ٢٥.

استعملت (أم) المنقطعة التي تدلُّ على معنى هامشي (الإضراب) مع معناها المركزي (٨٦) ستا وثمانين مرَّة في القران الكريم[١]. لتكون نسبتها المئوية إلى مجموع استعمالات (أم) القرآنية (٦٢%) ، ومن أمثلة هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾(النمل:٢٠) ، قال الزمخشريُّ عن (أم) في هذه الآية :((هي المنقطعة: نَظَرَ إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، فقال : {مالي لا أرى} على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء .))[٢] ، معنى الإضراب لم يفهم هنا من (أم) مباشرة بل هي أدَّت معناها المركزي (الاستفهام المعطوف على كلام قبله) ، ولكن سياق الآية العام حمَّل الحرف معنى إضافيا هو (الإضراب) ، وهذا التخريج الذي بيَّنه الزمخشريُّ عمَّا دار في ذهن داود(عليه السلام) لم يأت به الحرف ، بل فهمه المفسر من خلال تدبره النص ، وفهمه للمعنى الكامل للآية الشريفة ، فعندنا هنا استفهام معطوف على كلام متقدم ، مع إرادة الإضراب عن معنى ما تقدم من كلام .

وإذا كانت أكثر الآيات التي تشتمل على (أم) المنقطعة أمكن أن تقدَّر(أم) فيها بـ(بل) والهمزة ، فهنالك من الآيات ما يُسمَحُ فيه للمفسرين بتقدير (أم) فيها بـ(بل) فقط دون الهمزة ، منها قوله تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(النور:٥٠) ، قال أبو حيان:(({أم} هنا منقطعة والتقدير: بل ارتابوا بل أيخافون ، وهو استفهام توقيف وتوبيخ ، ليقروا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم ، وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة مما يوبخ به ويذم ، أو مما يمدح به وهو بليغ جداً ، ... ، وقسَّم تعالى جهات صدودهم عن حكومته ، فقال {أفي قلوبهم مرض} أي نفاق وعدم إخلاص {أم ارتابوا} أي عرضت لهم الريبة والشك في نبوته بعد أن كانوا مخلصين {أم يخافون} أي يعرض لهم الخوف من الحيف في الحكومة، فيكون ذلك ظلماً لهم . ثم استدرك ببل أنهم {هم الظالمون}.))[٣] ، فـ(أم) الأولى قُدِّرَت بالإضراب فقط ، والثانية به وبالهمزة . معنى الآية العام الذي يفهم من تتبع القرائن الكاملة لسياق النص يدفع المفسرين إلى أن يقولوا : إن (أم) خلصت هنا للإضراب فقط ، فتقدَّر بـ(بل) دون الهمزة، وهذا المعنى ما كانت (أم) لتؤديه خارج النص .

ومثلها أيضا قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾(النمل: ٥٩-٦٠) ، قيل في تفسيرها : إن(أم) في {أم ما يشركون} متصلة؛ لأنّ المعنى: أيهما خير. و(أم) في {أمَّن خلق؟} منقطعة بمعنى (بل)؛ لأنه لما قال تعالى : آلله خير أم الآلهة؟ قال: بل من خلق السموات والأرض خير؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء[٤] ، فـ(أم) الثانية لابدَّ من أن تقدَّر بـ(بل) والهمزة ؛ لأن المعنى يكتمل بهذا التقدير ، وهو الذي قادنا إلى تقدير دلالة الحرف الدقيقة ،

---

١ - ظ : البقرة :١٣٣، ١٤٠، ٢١٤، آل عمران:١٤٢، النساء:٥٣، ٥٤، ١٠٩، الأنعام:١٤٣، ١٤٤، الأعراف :١٩٥، التوبة:١٦، يونس:٣١، ٣٥، ٣٨، هود:١٣، ٣٥، الرعد:١٦، ٣٣، الإسراء:٦٩، الكهف:٩، مريم: ٧٨، الأنبياء:٢١، ٢٤، ٤٣، المؤمنون: ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢، النور:٥٠، الفرقان:٤٤، النمل:٢٠، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، العنكبوت:٤، الروم:٣٥، السجدة:٣، فاطر:٤٠، ص:٩، ١٠، ٢٨، ٦٣، الزمر:٩، ٤٣، الشورى:٩، ٢١، ٢٤، الزخرف:١٦،٢١، ٧٩، ٨٠، الجاثية:٢١، الأحقاف:٤، ٨، محمد: ٢٤، ٢٩، الطور:١٥، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، النجم:٢٤، ٣٦، القمر:٤٣، ٤٤ ، الملك:١٧،٢١، ٢٢، القلم: ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٤٧ .

٢ - الكشاف : ١٤٢\٣، وينظر معه : جامع البيان : ٨٩\١٩ ، تفسير أبي السعود : ٢٧٨\٦ .

٣ - البحر المحيط : ٦٠\٨ ، وينظر معه تفسير أبي السعود : ٦\ ١٨٦ .

٤ - ظ : الكشاف : ١٥٥\٣ ، مفاتيح الغيب :٥٦٣\٢٤ .

والمعنى الذي أداه الحرف مَكَّنَه من إيصاله سياق النص العام . فهو معنى هامشي يؤديه بفضل السياق .

قد يتدافع المعنى المركزي والمعنى الهامشي في بعض الآيات[1]، فيفهم بعض المفسرين من الحرف معناه المركزي فقط ، ويضيف إليه آخرون معنى الإضراب فيفسرونها بأنها منقطعة ، وذلك ؛ لأن لكل مفسر رأيه وأدواته التي يستعين بها في تحليله للنص القرآني ، منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(يونس:٥٩)، قال الزمخشريُّ فيها:((أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريراً للافتراء .)) [2] ، من فهم معنى الإضراب من الحرف مع معناه المركزي جعله من باب التقرير ، فجعل ما قبله استفهاما مجازيا ، وأضرب عنه في استفهام مجازي آخر تقريرا لهم ، وعليه تقدَّر (أم) بـ(بل والهمزة) . هذا التدافع في المعنى ، وفَهمُ بعض المفسرين معنى الإضراب خلافا لآخرين يؤكد أن معنى الإضراب ما هو إلاَّ معنى مضاف إلى المعنى المركزي .

وأما في الشعر فإن استعمالات (أم) المنقطعة بلغت (١٧) سبعة عشر استعمالا فقط في مجموع الدواوين ، وبذلك تكون نسبة استعمال (أم) المنقطعة إلى مجموع استعمالات الشعراء (٣٨,٦%) ، ومن أمثلته في دواوين شعراء المعلقات ، قول امرئ القيس الذي تقدم في الفصل الثاني[3] ، ومثله قول طرفة[4] :

(الخفيف)

أَعَلَينــا جُنــاحُ كِنــدَةَ أَن يَغــ (م) ــنَمَ غــازِيهُمُ وَمِنّــا الجَــزاءُ

أَم عَلَينــا جَــرّى قُضــاعَةَ أَم لَيــ (م) ــسَ عَلَينــا مِمّــا جَنَــوا أَنــداءُ

فـ(أم) الأولى معادلة لهمزة التعيين ، أما (أم) الثانية في البيت فهي المنقطعة بمعني (بل) فقط ، ولا يمكننا هنا أن نقدر معها همزة أخرى ؛ لأن المعنى لا يحتمل ذلك ، فهو يريد أن ينفي عنهم جريرة الجرم الذي ارتكبه غيرهم ، ولو قدرنا مع بل همزة لكان إقرارا منه بأنهم يتحملون جرم غيرهم .

ومن أمثلة (أم) المنقطعة أيضاً قول عمرو بن كلثوم [5]:

(الوافر)

قِفــي نَســأَلكِ هَــل أَحــدَثتِ صَــرماً لِوَشــكِ الــبَينِ أَم خُنــتِ الأَمينــا

وهنا تقدر (أم) المنقطعة بـ(بل) والهمزة ليكون المعنى: بل أَخُنْتِ الأمينا؟ هذه بعض النماذج من استعمال الشعراء لـ(أم) المنقطعة ، يتبين من خلال تتبعها أنهم وظفوها في خدمة أشعارهم لتأدية المعنى المركزي وقد يضعونها في سياقات خاصة فتؤدي مع ذلك المعنى معاني أخر مثل التسوية أو الإضراب مع الاستفهام أو قد تصير إلى الإضراب المحض ، وبذا نقرر أنَّ الاستعمال القرآني لـ(أم) كان متسقا مع الاستعمال السائد لها قبل نزوله، لكنه توسع في استعمال المعاني الهامشية للحرف أكثر من استعماله في تأدية معناه المركزي .

---

١ - من هذه الآيات مثلا : البقرة : ١٠٨، ١٣٣، يونس : ٥٩ ، الزمر : ٩ ، الواقعة : ٥٩، ٦٤ ، ٦٩، ٧٢.

٢ - الكشاف : ٢\٢٤٢ ، وينظر معه : جوامع الجامع : ٢\١٣٤، مفاتيح الغيب :١٧\٢٧١ ، الجامع لأحكام القرآن : ٨\٣٥٤.

٣ - ديوان امرئ القيس :١٥٤، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٤٨ .

٤ - ديوان الحارث بن حلزة : ١٣، وينظر في شرحه: شرح القصائد التسع المشهورات : ٢\٥٨٢ ، شرح المعلقات السبع :٣٠٤، شرح القصائد العشر : ٣٩٦ - ٣٩٧.

٥ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره :١٣٦، شرح المعلقات السبع :٢٤٠ ، شرح القصائد التسع المشهورات:٢\٦١٩– ٦٢٠، شرح القصائد العشر : ٣٢٥ -٣٢٦.

يبقى لنا هنا أن نورد جدولا يبين استعمال كل شاعر لـ(أم) ، لنَتبيَّن أيُّهم كان أكثر إيرادا لها في شعره .

ت	اسم الشاعر	المعنى المركزي	المعاني الهامشية		المجموع	عدد أبياته	النسبة المئوية
			التسوية	الإضراب			
١	امرؤ القيس	٤	--	٣	٧	٦٩٥	%١
٢	طرفة بن العبد	٣	--	٢	٥	٤٣٦	%١,١
٣	الحارث بن حلِّزة	١	--	٦	٧	١٧٨	%٣,٩
٤	عمرو بن كلثوم	--	--	١	١	٢٩٢	%٠,٣
٥	عنترة بن شداد	٤	--	٤	٨	١٧٦٩	%٠,٤
٦	زهير بن أبي سلمى	٥	١	٢	٨	٨٩٤	%٠,٨
٧	لبيد بن ربيعة	٩	--	١	١٠	١٣٢٢	%٠,٧
	المجموع	٢٦	١	١٧	٤٦	٥٥٨٦	%٠,٨

يَتبيَّن من خلال الجدول والإحصاءات أن أكثر الشعراء استعمالا لـ(أم) هو الحارث بن حلزة ؛ إذ اقتربت النسبة المئوية بين مجموع استعمالاته لـ(أم) إلى مجموع أبياته في الديوان من أربعة استعمالات في كل مئة بيت من أشعاره ، وأقلّ الشعراء استعمالا لها كان عمرو بن كلثوم ، الذي بلغت نسبة استعماله للحرف ثلاث مرات في كل ألف بيت ، وقريب منه جدا عنترة بن شداد ، واقتربت النسب المئوية واتسقت فيما بينها لدى كل من امرئ القيس وزهير ولبيد ، ويبدو ارتفاع النسبة عند الحارث غير طبيعي وهذا يجعلني ارجع السبب في ذلك إلى صغر ديوانه الذي لم يعطنا دقَّة عالية في تصور لغته الشعرية كما هو الحال عند عنترة أو لبيد .

وعند الموازنة بين استعمال القرآن الكريم واستعمال الشعراء لهذا الحرف يتضح ما يأتي :

- الاستعمال القرآني لـ(أم) عموما أوسع من استعمال الشعراء لهذا الحرف بما يقترب من ثلاثة أضعاف . إذ يبلغ ثماني مرات في كل ألف بيت شعري ، في حين ترد إحدى وعشرين مرَّة في كل ألف آية قرآنية .
- (أم) المتصلة المعادلة لهمزة التسوية ، أي التي يضاف إلى معناها المركزي معنى التسوية استعملت في الشعر بنسبة (٢,١%) في حين توسع الاستعمال القرآني لها إلى ما يربو على الضعف بقليل إذ بلغ (٤,٣%)، وهذا يعني توسع الاستعمال القرآني لهذا المعنى الهامشي .
- (أم) المتصلة المعادلة لهمزة التعيين أي المستعملة في معناها المركزي استعملت في الشعر بنسبة (٥٦%) ، وقلَّ الاستعمال القرآني لها حتى بلغ (٣٢%) ، وهذا خلاف سعة الاستعمال القرآني العام لهذا الحرف .
- (أم) المنقطعة أي التي أضيف إليها معنى الإضراب استعملت في الشعر بنسبة (٣٨%) ، في حين توسع الاستعمال القرآني لها حتى وصل إلى (٦٢%) .
- كان استعمال (أم) المتصلة المعادلة لهمزة التعيين أكثر من استعمالها معادلة لهمزة التسوية في القرآن الكريم وفي دواوين شعراء المعلقات ، وهذا واضح من خلال النسب المئوية لكل منهما ، بمعنى إن غرض (التسوية) الذي تستعمل فيه (الهمزة) و(أم) أقلُّ استعمالا في عموم اللغة العربية إذا ما قيس بالتعيين في الحرفين المذكورين .

إن ارتفاع نسبة (أم) المتصلة التعيينية في الشعر ، وانخفاضها في القرآن الكريم من جهة وارتفاع نسبة (أم) المنقطعة في القرآن ، وانخفاضها في الشعر ، من جهة ثانية ، يقتضي مِنَّا أن نضع له تعليلا . وأقول في تعليله : إن استعمال المعنى المركزي للحرف هو استعمال أوليٌّ ، أي يُعتَمَدُ عليه في اللغة القياسية وفي النصوص البلاغية ، لكن في النصوص البلاغية لا يكتفي منشئ النص بهذه الدلالة الأولية ، بل غالبا ما يدفع بها إلى الخلف ليستثمر من اللغة طاقاتها الإبداعية فيكون اعتماده بصورة كبيرة على المعاني الثانوية ، والدلالات الهامشية للمفردات أكثر من الاعتماد على المعنى المركزي ، وهذا طريق من طرق الإبداع الأدبي ، إذ تتمكن النصوص الأدبية من إيصال أكبر قدر من المعاني من خلال طرق متعددة . وهذا الملحظ في استعمال اللغة يظهر لنا أن القرآن وظَّفه في خدمة المعنى الذي يريده فأكثر من استعمال المعاني الهامشية بمساعدة السياق ، في حين لم يستثمره الشعراء بمقدار ما استثمره النص القرآني . ومن هنا أيضا نفسر أتساع الاستعمال القرآني لمعنى (التسوية) الهامشي في هذا الحرف ، وقلَّته عند الشعراء ، هذا من جهة .

ومن جهةٍ أخرى ، إن الاستفهام في القرآن أسلوبٌ له سمته الخاصة التي تجعله مختلفاً عن استعماله في اللغة العربية عموما ، ((ولكون الاستفهام طلب ما في الخارج أو تحصيله في الذهن لزم ألا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام ، فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل ، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام)) [(١)]، فشرط الاستفهام الحقيقي عدم علم المُستَفهِم أو كونه شاكاً فيما يستفهم عنه ، وصدور القرآن عن الخالق العالم العليم بكل الموجودات وأحوالها علما مطلقاً ، يجعل من أسلوب الاستفهام مجازيا في القرآن الكريم عموما ، و((الاستفهام في القرآن غير حقيقي ؛ لأنه واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام ، وإنما يخرج الاستفهام في القرآن مخرج التوبيخ والتقرير، فالله تعالى يستفهم عباده ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء ، فإذا استفهموا أنفسهم عنه يجدونه عندها تخبرهم به .))[(٢)] ، وهذا الأسلوب البديع من خصائص خطاب القرآن التي تميَّز بها ، والاستفهام في كلام البشر مختلف عن ذلك .

هذه المجازيَّة في أسلوب الاستفهام هي التي جعلت (أم) المنقطعة تكثر فيه ، ويُتَوَسَّعُ استعمالها عمَّا كان عليه لدى شعراء المعلقات ، أما (أم) المتصلة التعيينية فهي مرتفعة عند هؤلاء الشعراء لتشير إلى حالة الحيرة والشك المستمرة لديهم ، فحياتهم في الجزيرة العربية بما فيها من سمات وصعاب جعلت العربي دائم السؤال قلقا عن مصيره ، قلقا يزيد على قلق الإنسان المستقر في الحواضر . هذا الهاجس من الخوف والوجل ودوام التنقل وعدم ضمان المستقبل أشياء تجعل الإنسان دائم السؤال يطلب الجواب عمَّا يدور في خلده من أفكار وأوهام تتعلق بوجوده العام ، والغاية من ذلك الوجود ، ولا ريب في أن هذه الحيرة والشك والتوجس زالت أو تراجعت إلى حد بعيد مع نزول القرآن الذي أجاب الإنسان عن كثير مما كان يقلقه ويؤرقه ، وأضفى على حياة العربي طمأنينة جعلته أكثر هدوءا واستقرارا ، وهذا كله كان له الأثر الكبير في لغته العامة فضلا عن لغته الانفعالية المتمثلة في نموذجها الأمثل في دواوين أصحاب المعلقات .

لقد طوَّر الاستعمال القرآني لهذا الحرف طاقات إبداعية كامنة فيه ، وقد تنبه لها الاستعمال البلاغي الشعري قبل نزوله لكنه لم يستثمرها مثل القرآن الكريم ، إذ اعتمد على هذه المعاني الهامشية مع الاستعمال المجازي للاستفهام لإيصال معان كثيرة من خلال طريق واحد

---

١ - البرهان : ٢\٣٢٦ -٣٢٧ ، وينظر معه أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين :٣٠٨ .
٢ - المصدر نفسه ، وينظر مصادره في هذه الصفحة .

هو الاستفهام ، وما كان هذا إلاَّ أثرا للسياقات القرآنية البليغة والمتحركة ، أي القادرة على إيصال معان متعددة في وقت واحد ، كلما تنوعت ثقافة المتلقي واختلفت الزاوية التي ينظر منها للنص .

ثانيا : (إِنْ)

استُعملَت (إن) في القرآن الكريم في أشكال مختلفة كما يبينها هذا الجدول [١] :

أشكال(إن)	عدد ها في القرآن
إنْ	٥١٥
إنِ	١٦
فإنْ	٩١
فإنِ	٨
فإلَّم(فـ+إن+لم)	١
لَئِنْ	٥٥
لَئِنِ	٦
إلاّ (إن+لا)	٥
إمَّا (إن+ما)	١٤
المجموع	٧١١

إن مجموع استعمالات (إن) في القرآن الكريم قد بلغ (٧١١) سبعمئة وأحد عشر استعمالا ، هذا يعني أن نسبة مجموع الاستعمالات إلى المجوع الكلي لآيات القرآن هي (١١%) أي أننا سوف نجد (إن) مرَّة واحدة في كل عشر آيات في القرآن الكريم .

وفي دواوين أصحاب المعلقات بلغ مجموع استعمالاتهم لهذا الحرف (٣٣٨) مرَّة [٢]، وبهذا تكون النسبة المئوية لمجموع استعمالاتهم لهذا الحرف إلى مجموع أبياتهم في الدواوين (٦%)، ومنه يتبيَّن أن الاستعمال القرآني ضعف الاستعمال الشعري لهذا الحرف تقريبا .

أما ما يتعلق بمعاني هذه الاستعمالات فقد تبيَّن في الفصل الثاني أنّ هذا الحرف من المشترك اللفظي ، وهذه الاستعمالات تشمل أنواع (أن) الشرطية والنافية والمخففة من الثقيلة ،

---

١ - يمكن الإطلاع على هذه المواضع مفصلة من خلال مراجعة برنامج (نور جامع الأحاديث) ، ويمكن الإطلاع عليها مجملة في: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ١١٠، لكن فات على مؤلفي المعجم مواضع سقطت من الإحصاء وهي ستة مواضع (إن) مفردة، وهذه أرقام السور والآيات مثلما مذكور في هذا المعجم (١٣٧\٢، ١٣٧\٢، ١٠٤\٤، ٣٣\١١ ، ٤٠\١٣، ٨\١٤) ، وهنالك (١٤) موضع (إمَّا)=(إن + ما) جعلها مع مواضع (إما) الرباعية وهذه أرقامها :(٣٨\٢، ٦٨\٦ ، ٣٥\٧ ، ٢٠٠\٧ ، ٥٧\٨ ، ٥٨\٨ ، ٤٦\١٠ ، ٢٣\١٧ ، ٢٨\١٧ ، ٢٦\١٩ ، ١٢٣\٢٠ ، ٩٣\٢٣، ٣٦\٤١ ، ٤١\٤٣)، وهنالك اشتباه في قوله تعالى(فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) إذ رُقِّمَت خطأ : ٢٣٨\٢ ورقمها الصحيح (٢٣٩\٢).

٢ - للإطلاع على هذه المواضع يمكن مراجعة البحث عن المفردة من خلال برنامج (الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث).

وسأتحدث هنا عن الشرطية ، أما النافية والمخففة فسيكون الحديث عنها في المبحث الثاني من هذا الفصل :

(إن) الشرطية :

لقد تتبعت موارد (إن) في القرآن و الشعر جميعها وصنفت استعمالاتها بحسب المعاني المفهومة منها ، فكانت الصدارة لـ(إن) الشرطية في الشعر الجاهلي ، وبقيت كذلك في الاستعمال القرآني . لقد بلغت موارد (إن) الشرطية في القرآن الكريم (٥٧٠) خمسمئة وسبعين موردا[1]، لتكون نسبة استعمال (إن) الشرطية إلى مجموع استعمالات (إن) في القرآن الكريم (٨٠%) من الاستعمالات كلها ، ونسبة استعمال الشرطية إلى مجموع آيات القرآن الكريم هي(٩,١%) أي سنحصل على تسعة موارد لـ(إن) الشرطية كل مئة آية أو واحد وتسعين موردا كل ألف آية .

وأما في دواوين الشعراء فقد وردت (إن) الشرطية (٣١٨) ثلاثمئة وثماني عشرة مرَّة من أصل (٣٣٨) ثلاثمئة وثمانية وثلاثين استعمالا ، لتكون النسبة المئوية بينهما (٩٤%) ، والنسبة بينها ومجموع أبيات الدواوين (٥,٦%) أي سنحصل على خمسة موارد لـ(إن) الشرطية كل مئة بيت . من خلال هذه الإحصاءات يظهر بقاء (إن) الشرطية في مقدمة استعمالاتها في اللغة العربية قبل القرآن الكريم وبعده ، ولعل هذه الكثرة في الاستعمال موافقة لدعوى النحاة أن (إن) أُم باب أدوات الشرط في العربية .

يبدو من الجدول المتقدم أن لـ(إن) الشرطية مرونة تسمح لها بالتشكل مع حروف أخر ، فقد تشكلت مع (لام الابتداء أو لام القسم) ، و أتت مقترنة بـ(لا) النافية ، ومقترنة بـ(ما) ، وكذلك اقترنت بـ(لم) ، وكل صورة من هذه الصور تضيف للحرف طاقات تعبيرية جديدة ، سأشير إليها .

استعمال (إن) مقترنة بـ(لا) النافية ، إحدى الصور التي تشكلت بها (إن) فعبَّرت عن شرطٍ معلَّق بنفيٍ ، نحو قوله تعالى :﴿ **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾(الأنفال: من الآية٧٣) والمعنى على ما قرره المفسرون : إن لم تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولي بعضهم بعضاً ، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار ، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة [2]، ومثلها قوله تعالى :﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ**

---

١ - لقد تتبع عبد السَّلام المسدِّيّ وصاحبه هذه المواضع في كتابيهما(الشرط في القران، على نهج اللسانيات الوصفية)، ووضعا في نهاية الكتاب ثبتا عاما للجملة الشرطية في القران، فيمكن الرجوع إلى هذه المواضع في صفحة:١٨٢-٢٢١ مع ملاحظة الآتي:

- لقد ذكر المسدي (١٧) موضعا من مواضع (إن) المخففة من (إنَّ) الثقيلة على أنها شرطية والصحيح عندي أنها مخففة وأرقام السور والآيات لهذه المواضع هي : (٢\ ١٤٣، ٢\ ١٩٨ ، ٣\١٦٤، ٦\١٥٦، ٧\١٠٢، ١٢\ ٣ ، ١٢\ ٩١، ١٤\٤٦، ١٥\٧٨، ١٧\٧٣، ١٧\٧٦، ٢٣\٣٠، ٣٠\٤٩، ٣٧\١٦٧، ٣٩\٥٦ ، ٦٢\٢، ٦٨\٥١) علما أن لهذه المواضع مثيلات تشبهها بالضبط أهملها ولا أعرف لم ذكر هذه وأهمل تلك ، وأحسب أنه اشتباه علمي . وقد استعملت أرقام السور والآيات لكي تسهل متابعته لأنه استعملها هكذا .
- سقط من حسابه خمس آيات وردت فيها (إن) الشرطية هي :(٧\٩٠، ١٣\٤٠، ٣٣\٢٤، ٣٣\٥٠ ، ٥٦\٨٧) .
- ذكر المسدي (إمَّا) (إن+ ما) في موضع مستقل عن (إن) وكأنه يعدُّها أداة شرطيَّة منفردة ، والأصح عندي أن تذكر مع (إن) ، حالها حال (إلاَّ = إن + لا) ، ومع هذا فقد سقط من تتبعه لـ(إمَّا) موضع واحد هو (٧\٣٥) .
- قوله تعالى :﴿ . .واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أثبت رقمه (٢\١٧٣) والصحيح أن رقم هذه الآية (٢\١٧٢) .

٢ - ظ : مفاتيح الغيب : ١٥\٥١٦ ، البحر المحيط :٥\٣٥٨ .

إِلَيْهِنَّ﴾(يوسف: من الآية٣٣) ، قال الرازي ((هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه .)) [١]. لكن هذا الاستعمال قليلٌ ؛ إذ لم يأت في القرآن سوى خمس مرات[٢] ، لتكون نسبته إلى عموم الاستعمال القرآني لـ(إن) الشرطية (٠,٧%) .

ويبدو أن هذا الاستعمال كان معروفا عند شعراء المعلقات ، فقد قال امرؤ القيس[٣]:

(الوافر)

أَلا إِلاَّ تَكُـــن إِبِـــلٌ فَمِعـــزى ... كَـــأَنَّ قُـــرونَ جُلَّتِهـــا العِصِـــيُّ

لكني لم أعثر في أشعار أصحاب المعلقات إلاَّ على هذا البيت ، وهذا يعني أن نسبته إلى عموم الاستعمال الشعري لـ(إن) الشرطية (٠,٢%) . من هنا يتبيَّن أن الاستعمال القرآني توسع في إدخال (لا) النافية على (إن) الشرطية بمقدار يفوق ضعف الاستعمال الشعري لأصحاب المعلقات ، ليستثمر بذلك الطاقات التعبيرية التي وفرتها (إن) الشرطية ، من خلال تشكلها مع غيرها من الحروف[٤] .

وكثيرا ما دخلت لام القسم على (إن) في القرآن الكريم ، وربما سماها بعضهم لام الابتداء ، و((يسميها بعضهم (لام الشرط) ، لدخولها على حرف الشرط ، وبعضهم يسميها (الموطئة) ؛ لأنها يتعقبها جواب القسم ، كأنها توطئة لذكر الجواب ، وليست جوابا للقسم .))[٥]، ومع اختلاف التسمية ، فهي تضفي على الجملة شحنة من التأكيد ، ومثالها في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾(هود:٩- ١٠) ، قوله تعالى (({ولئن} اللام لتوطئة القسم ، والقسم محذوف وجوابه {ليقولن} ومثله {ولئن أذقنا} وجواب القسم {إنه ليؤوس} وسد القسم وجوابه مسد جواب الشرط .))[٦] ، وكان هذا الاستعمال معروفا في دواوين أصحاب المعلقات أيضاً[٧]، ومنه قول عنترة [٨]:

(الكامل)

اِصبِر حُصَينُ لَئِن تَرَكتَ بِوَجهِهِ ... أَثَـــراً فَـــإِنّي لا إِخالُـــكَ تَصـــبِرُ

لقد جعل عنترة الجواب في بيته للشرط مع تأخره عن القسم ولم يجعله للقسم كما في الآية القرآنية ، وهذا ما يغلب على لغة الكثيرين ، ولاسيما في العصر الحديث ، في حين كانت الآية الكريمة قد جعلت الجواب للقسم وهو الأفصح .

إن سعة استعمال لـ(لَئِنْ) في الشعر الجاهلي لم تكن كما هي عليه في القرآن ؛ فقد جاءت (٢١) مرَّة في الدواوين عشرة منها عند عنترة ، لتبلغ نسبتها إلى مجموع (إن) الشرطية في الدواوين (٦,٦%) ، في حين جاءت (٦١) مرَّة في القرآن الكريم لتبلغ نسبتها إلى مجموع

١ - مفاتيح الغيب :٤٥١\١٨ ، وينظر معه : الجامع لأحكام القرآن : ١٨٤\٩ ، مغني اللبيب : ٣٣.
٢ - ظ : الأنفال : ٧٣، التوبة : ٣٩، ٤٠ ، هود : ٤٧، يوسف : ٣٣ .
٣ - ديوان امرئ القيس :١٣٧ ، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٣١٣\١.
٤ - ظ : الشرط في القران :٢٩.
٥ - شرح المفصل : ٢٢\٩، وينظر معه : الشرط في القرآن : ٢٩.
٦ - التبيان في إعراب القرآن : ٣٥\٢.
٧ - ظ : ديوان طرفة بن العبد : ٥١، ١٥٩، ديوان طرفة(درية الخطيب):٦٥، ١٨٢، شرح ديوان زهير : ١٨٢-١٨٣، شرح ديوان لبيد : ١٦٧، ٣٢٣، ٣٦١، ٣٦٢ .
٨ - ديوان عنترة(مولوي) : ٣٢٧ .

الشرطية في القرآن (١٠,٧%) ، ومنه نستنتج أن القرآن الكريم توسع في اعتماد (لَئِنْ) بما فيها من قَسَم محذوف ، ومنه نلمح أيضا أن المخاطبين به كانوا في صراع عقائدي وحيرة فكرية ، ولعل بعضهم كان في عناد دائم للحق الذي جاءهم ، فكان البيان القرآني يَعمدُ إلى تأكيد الخطاب بالقسم .

ولعل كثرةَ استعمال أسلوب الشرط يرجع في بعض نواحيه إلى هذا السبب أيضا ، فتبكيت المشركين والمعاندين وتقرير المتشككين كان يتم في جزء كبير منه عن طريق الشرط والتعجيز، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾(الإسراء:٨٨) ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة:٢٣) ، وهذا سبب ما نلحظه أيضاً من تكرار قوله تعالى :﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة: من الآية٢٣) وقوله ﷻ أيضاً :﴿ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(البقرة: من الآية٩١) ، عشرات المرات في القرآن ، فهذا الشرط وأمثاله كان يراد به إثبات صدق الدعوة المحمدية ، وبيان عجز المعاندين لها وتبكيتهم .

أمَّا في الشعر الجاهلي فأعتقد أنَّ سبب كثرة استعمال الشرط – وإن كان أقل من نصف مستواه في لغة الذكر الحكيم – يرجع في جزء كبير منه إلى ذلك الصراع الدائم بين الشاعر الجاهلي وبيئته ، وما فيها من صعاب كبرى ، وأسئلة وتناقضات يحاول الإجابة عنها ، والتعايش معها ، قال امرؤ القيس يصف سياسة الثأر في مسيرة حياتهم العامة[١]:

(المتقارب)

فَــإِن تَــدفُنوا الــداءَ لا نُخفِــهِ	وَإِن تَبعَثــوا الحَــربَ لا نَقعُــدِ
فَــإِن تَقتُلونــا نُقَــتِّلكُم	وَإِن تَقصِــدوا لِــدَمٍ نَقصُــدِ

فامرؤ القيس يصور لنا علاقة ثنائية متعادلة الطرفين بينه وبين خصومه ، مبينا من خلالها أنهم لا يضيع عليهم حقهم ، ولا يسكتون عن ثأرهم ، ولا يجبنون مخافة القتل ، ويعتمد في عقد هذه المعادلة على أسلوب الشرط مستعملا أشهر أدواته وأكثرها تمكنا من إيصال المعنى المطلوب .

أما طرفة فيقول واصفا فلسفته في الحياة معتمدا أيضاً على أسلوب الشرط في تقريره[٢]:

(الطويل)

فَــإِن تَــبغِني في حَلقَــةِ القَــومِ تَلقَــني	وَإِن تَقتَنِصــني في الحَوانيــتِ تَصــطَدِ
فَــإِن كُنــتَ لا تَســطيع دَفــعَ مَنــيَّتي	فَــدَعني أُبادِرهــا بِمــا مَلَكَــت يَــدي
كَــريمٌ يُــرَوّي نَفسَــهُ في حَياتِــهِ	سَــتَعلَمُ إِن مُتنــا غَــداً أَيُنــا الصَــدي

يشرح الشاعر سبب لهوه وعدم اكتراثه بالحياة بأن الإنسان لا محالة ميت ، ولم يكن يؤمن بما بعد الموت من ثواب وعقاب ، وهذا يستوجب أن يخوض غمار الحياة ، فيقدم على

---

١ - ديوان امرئ القيس : ١٨٦.
٢ - ديوان طرفة بن العبد :٢٤ ، ٢٨، ٣٠ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٤٢، ٤٥، ٤٨، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ١٨٦- ١٨٧.

ملاذَّها ، ولا يهرب من منيته التي لا يملك أحدٌ لها دفعا ، هذه الأفكار التي تصور فلسفة الشاعر في عيشه جعلها أيضاً في مقابلات ثنائية ، وأفكار مرتبط بعضها ببعض ، بل متوقف عليه ، وكان خير ما يُمَكِنَهُ من صياغة أفكاره بهذه الطريقة أسلوبُ الشرطِ .

ولعل ما يؤيد التعليل المذكور آنفا لكثرة استعمال الشرط في القرآن الكريم ، دخول القسم عليه في (لئن) من جهة ، ومن جهة أخرى زيادة (ما) على (إن) الشرطية في بعض الحالات ، قال ابن يعيش : ((زيدت ما على إن لتأكيد معنى الجزاء ، ويدخل معها نون التوكيد وإن لم يكن الشرط من مواضعها))[١] ، فما الدافع لهذا التأكيد إلاَّ كون المخاطب مُنِكراً للحقائق أو مُتَنَكِراً لها ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾(الأنفال: من الآية٥٨) ، قال الفراء في هذه الآية :((ولا تكاد العرب تدخل النون الشديدة ولا الخفيفة في الجزاء حتى يصلوها بـ(ما) ؛ فإذا وصلوها آثروا التنوين ؛ وذلك أنهم وجدوا لـ(إمَّا) وهي جزاء شبيها بـ(إمَّا) من التخيير ، فأحدثوا النون ليعلم بها تفرقة بينهما ؛ ثم جعلوا أكثر جوابها بالفاء .))[٢] ، فلم يكف زيادة (ما) في تأكيد معنى الجزاء في نفس المخاطب حتى أُدخل على الفعل نون التوكيد الثقيلة ، وما هذا إلاّ دليل على عمق الشك والصراع في أنفس المخاطبين .

ولقد كان إدخال الشعراء (ما) على (إن) لتوكيد مضمون الجزاء مألوفا ، فقد قال عنترة[٣]:

(الكامل)

إِمّا تَرَيني قَد نَحَلتُ وَمَن يَكُن ... غَرَضاً لِأَطرافِ الأَسِنَّةِ يَنحَلِ

فَلَرُبَّ أَبلَجَ مِثلِ بَعلِكِ بادِنٍ ... ضَخمٍ عَلى ظَهرِ الجَوادِ مُهَيَّلِ

ولكنهم فيما يبدو لم يكونوا يلتزمون إدخال نون التوكيد على فعل الشرط عند زيادتها ، كما هو الحال في القرآن فيما بعد ، فقد أدخلت النون في أربعة أبيات من أصل تسع استُعْمِلَت فيها (إن) الشرطية بهذا الشكل . في حين كانوا يلتزمون الفاء في الجواب ، قال الحارث[٤]:

(الخفيف)

فَاترُكوا الطَّيخَ وَالتَّعَدي وَإِمّا ... تَتَعاشَوا فَفي التَعاشي الداءُ

وقال لبيد[٥] :

(الطويل)

وَإِمّا تَعُدّوا الصالِحاتِ فَإِنَّني ... أَقولُ بِها حَتّى أَمَلَّ وَأَسأَما

لقد سجل استعمال (إمَّا)(إن + ما) ارتفاعا عند شعراء المعلقات ، إذا ما قيس بالاستعمال القرآني لهذه الصيغة من (إن) ، فقد وردت تسع مرات عند الشعراء ، لتكون نسبة هذه الصيغة من (إن) إلى (إن) الشرطية عموما عندهم (٢,٨%)، وكذلك جاءت تسع مرات في القرآن الكريم ، لكن النسبة هنا ستنخفض إلى (١,٥%)، لنتمكن مع هذه النتيجة من القول : إن الشعراء كانوا يحتاجون إلى توكيد الجزاء بشدَّة في حالات كثيرة ؛ ولعل هذا يشير إلى ترسُّخ

١ - شرح المفصل : ٥١٩ .
٢ - معاني القرآن : ١/ ٤١٤ .
٣ - ديوان عنترة(مولوي) : ٢٥٦.
٤ - ديوان الحارث بن حلزة :١٣.
٥ - شرح ديوان لبيد :٢٨٣.

حالة الشك عند المخاطبين بهذا الشعر ، ولم يحتج القرآن إلى هذا القدر من التوكيد كثيرا ، إذن ما نسجله هنا : إن القرآن الكريم جعل إدخال (نون التوكيد) على فعل الشرط مقترنا بزيادة (ما) إذا ما زيدت على (إن) الشرطية .

لم تتنوع المعاني الهامشية لـ(إن) مع كونها كثيرة الاستعمال في اللغة الشعرية ، وتوسع استعمالها في القران الكريم أكثر مما كانت عليه ، وهذا يعني إن هذا الحرف له قوَّةٌ وجمودٌ حافظ بهما على معناه ، على الرغم من تَنوِّع السياقات التي استعمل فيها ، فهو حرف جامد وليس حرفا مرنا مثل غيره من الحروف .

(إن) الزائدة تدل على التوكيد:

استعمل الشعراء (إن) الزائدة في دواوينهم ، وقد أشرت في الفصل الثاني إلى أن (إن) الشرطية قد ترد زائدة في مواضع ، وبيَّنت معنى الزيادة وأنها ليست معنى من معاني الحرف ، بل هي إما زيادة في أركان الجملة الرئيسة ، أو تكرار، واستطعت أن أحصي (٢٠) عشرين موردا استعملت فيه (إن) زائدة ، بذلك تكون نسبة استعمالها زائدة إلى مجموع الاستعمال الشعري العام لهذا الحرف تكون (٥,٩%) أي خمس مرات في كل مئة بيت ، وهو استعمال قليل بلا شك . منها قول امرئ القيس[1] :

(الطويل)

فَقالَتْ يَمينَ اللهِ ما لَكَ حِيلَةٌ ... وَما إنْ أَرَى عَنكَ الغَوايَةَ تَنجَلي

اتفق شراح المعلقات على زيادة (إن) هنا[2] ، وكذلك قال الحارث[3] :

(الخفيف)

وَفَعَلنا بِهِم كَما عَلِمَ اللَّـ (م) ـهُ وَما إن لِلحائِنينَ دِماءُ

قال النحاس في شرح هذا البيت : ((و(إن) هاهنا للتوكيد ، وسيبويه يجعلها كافة بمنزلة (ما) في قولك : إنَّما زيد منطلق ، كفَّت (ما) (إنَّ) عن العمل ، وكذلك (إنْ) في قولك : ما إنْ زيد منطلق ، وكنت تقول : ما زيد منطلقاً ، فكفَّت (إنْ) (ما) عن العمل .))[4]، دخلت (إن) على (ما) فكفتها عن العمل وصارت لا تصلح للدخول على فعل لتعمل فيه ، فكانت هنا زائدة ، واعتاد النحاة تفسير الزيادة بأنها تفيد التوكيد .

وفي القرآن الكريم لم أعثر على شاهد لهذا الاستعمال ، ويبدو أن أصحاب كتب حروف المعاني ، وغيرهم من علماء اللغة لم يعثروا من قبل على شاهد قرآني لـ(إن) الزائدة[5] ، ومن هنا أقول : إن القرآن الكريم لم يستعمل (إن) زائدة كما كان الشعراء يستعملونها ، وقد تكون خصائص الشعر ، وقيود القوانين الشعرية هي التي تدفع الشعراء في بعض الأحيان إلى استعمال حرف ما زائدا ، ومثل هذه القيود لم تنل القران المعجز .

أما استعمالات الشعراء المختلفة لأنواع (إن) ونسبها في دواوينهم ، فيبينها هذا الجدول :

---

١ - ديوان امرئ القيس : ١٤، شرح المعلقات السبع : ٩٦ ، شرح القصائد التسع المشهورات :١\١٣٣، شرح القصائد العشر :٥٣ ، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\٨٤.

٢ - ينظر مع المصادر المذكورة في الهامش السابق : النحو في شروح المعلقات :٥٠ .

٣ - ديوان الحارث بن حلزة: ١٦ .

٤ - شرح القصائد التسع المشهورات : ٢\٦٠٥ ، وينظر معه : النحو في شروح المعلقات : ٥٠ .

٥ - ذكر الزوبعي أنها لم تأتي زائدة في القران إلاَّ في موضع واحد هو قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾(الأحقاف من الآية :٢٦) ، على رأي بعضهم ، لكنه استطرد وذكر رأي أكثر المفسرين بعدِّها هنا من النافية أي مكناهم ما لم نمكنكم ، ويوافقهم على هذا ، وبهذا فليس في القرآن (إن) زائدة . ينظر : معجم الجملة القرآنية القسم الأول الحروف الزائدة :١٥.

ت	اسم الشاعر	(إن) الشرطية	(إن) الزائدة	مجموع استعمالاته	عدد أبياته في الديوان	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	٣١	٣	٣٤	٦٩٥	%٤,٨
٢	طرفة بن العبد	٣١	١	٣٢	٤٣٦	%٧,٣
٣	الحارث بن حلّزة	٩	٢	١١	١٧٨	%٦,١
٤	عمرو بن كلثوم	١٤	٢	١٦	٢٩٢	%٥,٤
٥	عنترة بن شداد	١٠٦	--	١٠٦	١٧٦٩	%٥,٦
٦	زهير بن أبي سلمى	٥٤	٤	٥٨	٨٩٤	%٦,٤
٧	لبيد بن ربيعة العامري	٧٣	٨	٨١	١٣٢٢	%٦,١
	المجموع	٣١٨	٢٠	٣٣٨	٥٥٨٦	%٦

تبدو نسب استعمال الشعراء لهذا الحرف متقاربة فيما بينهم مع اختلاف أحجام دواوينهم ، وهذا يعطي انطباعا دقيقا عن حجم استعمال هذا الحرف في لغة الشعر الجاهلي قبيل نزول القرآن ، الذي توسع في استعمال هذا الحرف قرابة ضعف ما كان عليه عند هؤلاء الشعراء .

ثالثا : (أَنْ)

لقد كانت نتائج إحصاء استعمالات (أنْ) في القرآن الكريم ، والدواوين أنها وردت بأشكال متعددة ، وعلى ما يوضحها الجدول الآتي :

أشكال(أنْ)	عدد مرات ورودها	
	في القرآن	في الشعر
أنْ	٥٤٢	١٣٣
أنِ	٢٣	--
بأنْ	٣	٣
لأنْ	١	--
لِئَلاّ (لِـ+أنْ+لا)	٣	--
ألاّ (أنْ+لا)	٤٥	١
ألَّن (أنْ+ لَنْ)	٢	--
المجموع	٦١٩	١٣٧

كان مجموع استعمالات هذه الأشكال السبعة من (أنْ) في المصحف (٦١٩) ستمئة وتسعة عشر استعمالا[١] ، لتكون النسبة المئوية لمجوع استعمالات (أنْ) إلى عدد آيات المصحف البالغة (٦٢٣٦) آية هي (٩,٩%) ، وإذا أردنا التقريب أكثر نستطيع القول : إنا سنعثر على استعمال واحد لهذا الحرف كل عشر آيات قرآنية تقريبا . وهذه النسبة تقلُّ قليلا عن نسبة الحرف السابق (أنْ) ولكنها قريبة جدا منه .

وفي الشعر كان استعمال (أنْ) أقلّ بكثير، إذ نجده قد ورد في دواوين أصحاب المعلقات (١٣٧) مئة وسبعا وثلاثين مرَّة[٢] ، ضمن (٥٥٨٦) بيتا هي مجموع أبيات هذه الدواوين ، وبذا تكون نسبة استعمال هذا الحرف إلى مجموع أبيات الدواوين (٢,٤%) ، وهذه النسبة تنخفض كثيرا عن

١ - يمكن الإطلاع على الموارد جميعها مفصلة من خلال مراجعة برنامج (نور جامع الأحاديث) أو يمكن الإطلاع عليها مجملة في معجم الأدوات والضمائر في القران الكريم : ٩٠- ١٠٣، علما أن الآية:﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ رُقِّمَت خطأ (٢٦\٢) ورقمها الصحيح هو:(٢٧\٢) ، وكذا قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ رُقِّمَت (٢١٣\٢) ورقمها الصحيح هو(٢١٤\٢) .

٢ - يمكن الرجوع إلى برنامج (الموسوعة الشعرية – الإصدار الثالث) للإطلاع على هذه المواضع جميعها مفصَّلة ، ويمكن متابعتها بالرجوع إلى دواوين الشعراء فينظر: ديوان امرئ القيس :٢٨، ٩٢، ١٠٥،١٠٧، ١٢٨،١٢٩، ١٦٨، ٢٤٠،٢٤١، شرح الستة الجاهلية : ٢٤٧\١، ١٢١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤، ١٢٠، ديوان طرفة بن العبد : ٢٧ ، ١٢٣، ١٣٦، ١١٩، ١١٢ ، ١١٩، ٤٠ ،5 ، ديوان الحارث بن حلزة :١٣ ،١٩، ٢٤، عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١٢٠، ١٢٤،١٢٢، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، وينظر معه: شرح القصائد التسع المشهورات:٢\ ٦٢٩، ٦٤٢، ٦٥٣، ٦٧٤، ٦٧٨ ، ديوان عنترة(فوزي عطوي) :٢٢٠، ٢٢٦، ٢٦٣، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣١١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٤٠، شرح القصائد التسع المشهورات: ٥٣٥\٢ ، شرح ديوان زهير : ٣٥٧، ٢٨١ ، ٨٨ ، ١٢٢، ٣٠٧، ٣٠٨، ٢٩٧، ١٠٣ ، ٢٧١، ٢٦٩ ،

الاستعمال القرآني لهذا الحرف ، وهذا يعني : أن القرآن الكريم قد توسع عند نزوله في استعمال هذا الحرف أربعة أضعاف ما كان عليه استعماله قبل نزوله .

أما معاني هذا الحرف فله معنيان مركزيان(المصدرية ، والتوكيد) سأشير إليهما تباعا، وللمصدرية معنى آخر هامشي سيرد في المبحث الثاني من هذا الفصل .

المعنى الأول : (أَنْ) المصدرية

وهذا أكثر معاني هذا الحرف دورانا في النصوص الشعرية ، وكذلك في القرآن الكريم ، فقد وردت (أنْ) المصدرية (١١٥) مئة وخمس عشرة مرَّة – على ما أحصيته – في دواوين شعراء المعلقات السبع ، من أصل (١٣٧) مرَّة مجوع استعمالات الشعراء لهذا الحرف ، لتكون النسبة المئوية بين استعمالها مصدرية إلى مجموع الاستعمالات عندهم (٨٣,٩%) ، أما نسبة استعمال المصدرية إلى مجموع أبيات الدواوين فتبلغ (٢%) ، ولعلَّ سعةَ الاستعمالِ هذه متسقةٌ مع تسمية العلماء (أنْ) أمُّ باب (الأدوات الناصبة) .

وبقي استعمالها في لغة القرآن الحكيم متفقا تماما مع ما كانت عليه قبل نزوله ، فقد وردت (أنْ) المصدرية (٥٣١) خمسمئة وواحدة وثلاثين مرَّة ، وعندها تكون نسبة استعمال هذا المعنى إلى مجموع الاستعمالات القرآنية لهذا الحرف (٨٥,٧%) ، ونسبة ورود (أنْ) المصدرية إلى مجموع آيات المصحف الكريم (٨,٥%) ، لقد كشف الاستعمال القرآني لـ(أنْ) المصدرية ارتفاعا طفيفا جدا بالقياس إلى المعاني الأخرى على ما كانت عليه عند الشعراء قبل نزوله . إن استعمال (أنْ) المصدرية الناصبة يُشكـِّلُ الغالبية العظمى من استعمالات هذا الحرف .

لقد كانت النسبة المئوية لاستعمال (أنْ) المصدرية إلى مجوع المعاني الأخرى لها قريبة جدا في الاستعمال القرآني لما كانت عليه في الاستعمال الشعري عند أصحاب المعلقات . لكننا في الوقت نفسه نلحظ فرقا ملموسا في نسبة ورود (أنْ) مصدرية في الآيات القرآنية والأبيات الشعرية ، ففي كل مئة آية نجد ثماني مرات (أنْ) مصدرية ، في حين نجد في كل مئة بيت من الشعر مرتين فقط (أنْ) المصدرية ، فالارتفاع الذي كان في النسبة العامة لاستعمال هذا الحرف قرآنيا كان من نصيب (أنْ) المصدرية الناصبة .

نقلتُ في الفصل المتقدِّم عن العلماء : أن (أنْ) المصدرية أكثر ما تدخل على الفعل المضارع ناصبة له ومُخَلـِّصَةً إياه للاستقبال ، وكان العلماء قد أوردوا شواهدهم لإثبات هذا القول من الآيات القرآنية ، ولم يكن ذلك لعدم توافر شواهد شعرية لهذا الاستعمال قطعا ، بل لعله كان لقرب المأخذ من النص القرآني ، وقوَّة الدليل الذي اتفق الجميع على أنَّه أقوى النصوص ، وأرجح الأدلة لإثبات أيَّة قاعدة نحوية ، أو معنى لغوي[1]، وفي هذا ردٌّ على أحد الباحثين المعاصرين الذي ادعى : أن العلماء إنما أوردوا شواهد معاني الحروف من القرآن الكريم لأنهم لم يجدوا لها أمثلة في استعمال الشعراء قبل نزوله[2] .

٢٦٠، ٢٩١، ٦٢ ، ٧٥، ٣٤، ٣٥، ٢١٢ ، ٩٩، ٣٤١، ٣١٤ ، ٧٤، ٧٥، ٣٥٦، ٢٦١، ٣٣١، ٧٨، ٣٦٨، ٢٤٥، ٣٠٠ ،
شرح ديوان لبيد:٢،٨، ٢١٣، ١٨٠، ١٧٣، ١٧٠، ١٦٣، ١٠٨، ٧٤، ٣٧، ٢٦٥، ٢٥٥، ٢٤٠، ٣١٢، ٢٩٣، ٢٨٣، ٢٨٠، ٢٧٩، ٢٧٥ ، ٣٥٥، ٣٢١، ٣١٣.

١ - ظ : الفصل الأول : ٣٢.

٢ - ظ : أثر القرآن والقراءات في النحو العربي : ٢٠٦- ٢٠٨.

وإذا طبقنا ما قرره العلماء على الاستعمال الشعري عند أصحاب المعلقات نجده دقيقا جدا ، إذ وردت (أنْ) المصدرية متصلة بالفعل المضارع عندهم (١٠٣) مئة وثلاث مرات من أصل (١١٥) مرَّة استعملت فيها (أنْ) مصدرية ، وسأذكر هنا بعض الشواهد الشعرية لهذا الاستعمال ، فقد قال امرؤ القيس[١] :

(الطويل)

فَإمّــا تَــريني لا أُغَمّــضُ ســاعَةً ... مِــنَ اللَيــلِ إلاَّ أَنْ أَكُــبَّ فَأَنعَســا

تَــأَوَّبَني دائــي القَــديمُ فَغَلَّســا ... أُحــاذِرُ أَنْ يَرتَــدَّ دائــي فَأُنكَســا

وقال عمرو بن كلثوم[٢] :

(الطويل)

مَعــاذَ الإِلَــهِ أَن تَنــوحَ نِســاؤُنا ... عَلـى هالِـكٍ أَو أَن نَضِـجَّ مِـنَ القَتـلِ

ووصل (أنْ) المصدرية بالفعل الماضي مستعمل على قلَّة ، إذ وردت عند الشعراء (١٢) اثنتي عشرة مرَّة موصولة بالفعل الماضي من أصل (١١٥) استعملت فيها مصدرية ، أي إن نسبة استعمالها مصدرية مع الفعل الماضي (١٠,٤%) ، واستعمالها مصدرية مع الفعل المضارع بنسبة (٨٩,٥%) ، ومن استعمالها مع الماضي قول عمرو بن كلثوم[٣] :

(الرمـل)

بَكَـــــرَت تَعــــــذُلُني في أَن رَأَتْ ... إِبِلــي نَهبــاً لِشَــربٍ وَفِضــالِ

أما في القرآن فقد استعملت مصدرية مع الفعل الماضي (٣٦) ستا وثلاثين مرَّة من أصل(٥٣١) كانت فيها مصدرية ، لتكون نسبة استعمالها مصدرية مع الفعل الماضي إلى مجموع المصدرية (٦,٧%) ، أي إن الاستعمال القرآني لهذا الحرف قلَّل من مجيء المصدرية متصلة بالفعل الماضي عما كان عليه عند الشعراء قبل نزوله ، ومن استعمالها موصلة بالماضي قوله ﷻ[٤]: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الأعراف: من الآية:٦٣) .

وَصلُ (أنْ) المصدرية مع فعل الأمر حكاه سيبويه في قولهم (كتبت إليه أن افعل ، وأمرته أن قم)[٥]، وقد نقله الأستراباذي وصَحَّحهُ المراديُّ وابنُ هشام ، وتجاهلهُ المالقيُّ [٦]، وقد رفضه أبو حيان الأندلسيّ ، وزعم أن كل ما سمع من ذلك كانت (أنْ) فيه تفسيرية ، واستدل بدليلين يسيرين ما لبث أن فنَّدَهُما ابنُ هشام [٧]، ولا حاجة للإطالة بذكرهما . ويبدو أنَّ هذه المسألة مرتبطة بمعنى من معاني (أنْ) ، وهو (أن التفسيرية) ، إذ هي فيه تدخل على فعل الأمر ، وفي الوقت الذي كان فيه الكوفيون لا يرون صحة القول بالتفسيرية ، إنهم يرجعونها إلى

---

١ - ديوان امرئ القيس: ١٠٥- ١٠٦ .

٢ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره :١٣٥.

٣ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره:١٢٦، وينظر مثله أيضاً في : ديوان امرئ القيس:١٦٨، وديوان طرفة : ٢٧، ١١٢، وفي ديوان الحارث: ١٩، وعند عمرو ينظر : عمرو بن كلثوم حياته وشعره : ١٢٠، ١٣٩، وفي شرح ديوان زهير : ٣٥، ٢٨١، وفي شرح ديوان لبيد:٨، ٣٥٥ .

٤ - وينظر أيضا: البقرة : ٢٥٨ ، آل عمران : ١٤٧، المائدة :٢، ٥٩ ،٨٠، الأنعام: ٢٣، الأعراف:٥، ٦٣ ،٦٩ ،٨٢، ١٢٦، يونس:٢، هود:٦٩، يوسف:٢٤، ١٠٠، إبراهيم:٢٢، الإسراء:٥٩، مريم :٩١،الفرقان:٤٢،الشعراء:٢٢ ،٥١ ، النمل:٨، القصص:١٠ ،٨٢، العنكبوت:٢٤، ٢٩ ، الروم:١٠ ،٢١،٢٠ ، ص:٤، الزخرف:٥، الجاثية:٢٥، الفتح:٢٤، ق:٢، الحشر:٣، القلم:٤٩.

٥ - ظ : الكتاب : ٣\١٦٢- ١٦٥.

٦ - ظ : شرح الرضي على الكافية : ٤\٤٤١ ، رصف المباني : ١١٢ ، الجنى الداني : ٢٣٥ ، مغني اللبيب : ٤٣.

٧ - ظ : مغني اللبيب : ٤٣ .

المصدرية الداخلة على فعل الأمر بتقدير حرف جر يدخل على المصدر وهذا ما سنذكره فيما بعد .

ومع هذا الخلاف اليسير في إثبات دخول المصدرية على فعل الأمر ومحاولة نكرانه ، ليس غريبا أنْ لا أعثر على بيت واحد من أشعار أصحاب المعلقات - في مجموع دواوينهم - تدخل فيه (أنْ) على فعل الأمر ، ولعل أصحاب كتب معاني الحروف حاولوا إيجاد بيت يؤيد هذا الاستعمال فلم يظفروا به ، فاكتفوا بحكاية سيبويه فقط ، ولم يذكروا شاهدا آخر عليها .

ويبدو أن ابن طاهر(ت بعد ٥٨٠هـ) كان مخالفا للعلماء إذ يرى أنَّ (أنْ) الداخلة على الماضي والأمر قسم آخر غير الناصبة للفعل المضارع ، وقد ردَّ عليه ابن هشام شبهته هذه ، في حين صرح المراديُّ بعدم صحة هذا الرأي[١] .

إن استعمال (أن) المصدرية بنسبة عالية جدا في القرآن الكريم أستطيع تفسيره على النحو الآتي : (أن+الفعل) يساوي مصدرا ، والمصدر اسمٌ يمكن أن يكون خبرا لمبتدأ أو فاعلا لفعل أو مفعولا من المفاعيل ، أي يوصف به و يخبر به ، فلماذا استعمله القرآن بدل الاسم الصريح أو المصدر الصريح؟ قرر البلاغيون وأصحاب المعاني <u>أن الاسم يدل على الثبوت والفعل يدل على التجدد والحدوث والانتقال</u>[٢] ، من هنا فالقران كان يريد أن يخبر ويصف بما يدل على التجدد والانتقال والحدوث وهذا الفهم يتفق تماما مع أشرت إليه في الفصل الثاني من إنَّ بعض المحدثين[٣] يرى أنَّ الغاية من استعمال (أنْ) أنْ تكون واسطة لوضع الجملة موضع المفرد فنصف بالجملة الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث الأسماء و(أنْ) هي الرابط بين الموصوف والوصف . أي قد يُطلبُ تغير الوضع الساكن الذي كان عليه المجتمع ، أو قد يُخبر عن تغيرات وانتقالات كانت دائمة في حال المتلقي قبل نزول القرآن ، والقرآن أوجد لهذا التنقل غير المرغوب فيه حالة من السكون والطمأنينة ، تدفع الإنسان إلى الاستقرار والعيش في حياة مدنية – ومن هذا تحريم الهجرة بعد الاستقرار- وتخليص (أن) الفعل للمستقبل يدل على أنه يشير إلى أن التغيير واقع في المستقبل ؛ نتيجة التطبيق لما جاء به القرآن . إذن وصف الواقع المتغير والمتنقل الذي كان عليه العرب قبل نزول القرآن ، ومطالبة المتلقي بالتغيير والتجديد بما ينقل المجتمع نحو تغير كبير كانا عاملين كبيرين في الاعتماد على (أن+ الفعل) لتكوين مصادر يخبر بها عن الأسماء ، أو يوصف بها في لغة الذكر الحكيم .

أما نسبته المرتفعة عند شعراء المعلقات فيرجع أكثرها إلى وصف الحياة التي كانت سائدة وهي حياة بداوة قائمة على الترحال والانتقال ، ولقد كثر الوصف لجزئيات هذه الحياة في قصائد الجاهليين ، أما مطالبة القبيلة والمتلقي بالتغيير ، فلم يكن همًّا ذا أثر يدفع الشاعر لنظم قصائده ، بل هو همٌّ ثانوي ، فالسبب الرئيس في كثرة استعمال الشعراء لـ(أن) المصدرية هو ذلك الوصف لواقع حياتهم .

<u>المعنى الثاني : (أنْ) المخففة من الثقيلة</u>

(أن) المخففة ثلاثية الأصل ، ومعناها المركزي باق على ما كان عليه في الحرف الثلاثي ، فإن كان معناها التوكيد كما يراه اغلب النحاة فهي هنا تفيده[٤] ، وإن كانت (أنَّ) أداة

---

١ - ظ : مغني اللبيب :٣٤- ٤٤ ، الجنى الداني :٢٣٦ .
٢ - ظ : دلائل الإعجاز : ١٣٢- ١٣٨ ، مختصر المعاني : ٨٧ .
٣ - ظ : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٣١٥- ٣١٦، في النحو العربي قواعد وتطبيق :٤٢ -٤٣ .
٤ - ظ : المفصل في صنعة الإعراب:٢٩٣ .

وصل وواسطة تعبير تستعمل ((لتصنع من الجملة التي لم تكن – في تركيبها وهيئتها – لتكون مبتدأ ، أو فاعلا ، أو مضافا إليه ، مثلا ، جملة تقع موقع المبتدأ والفاعل ، والمضاف إليه .))[١] ، وهذا ما أميل إليه إنها باقية في هذا المعنى ، ويأتي هذا المعنى في الدرجة الثانية في في استعمال هذا الحرف ، وقد وردت في دواوين شعراء المعلقات (١٨) مرَّة ، لتكون نسبة استعمال هذا النوع عند الشعراء إلى الأنواع الأخرى من هذا الحرف (١٣%) ، في حين تكون نسبة ورود (أنْ) المخففة إلى مجموع الأبيات الشعرية في الدواوين (٠,٣%) أي ثلاث مرات ترد (أن) المخففة في كل ألف بيت شعري . ومن أمثلتها قول امرئ القيس[٢] :

(الطويل)

أَلا زَعَمَــت بَسباسَـــةُ اليَـــومَ أَنَّـــني　　　كَبِــرتُ وَأَلاَّ يُحسِــنُ اللَهـوَ أَمثـالي

قال البطليوسيَّ (ت٥٢١هـ) :((ويروى :(وأنْ لا يحسنُ) بالرفع ، وهو أحسن على أن يكون اسم (أنْ) مضمرا فيها وتكون مخفَّفة من الثقيلة ، وتقديره أنَّه لا يحسن .)) [٣] .

ومنه أيضاً قول زهير [٤]:

(البسيط)

تَاللَـهِ قَـد عَلِمَـت قَـيسٌ إِذا قَـذَفَت　　　ريــحُ الشِتـاءِ بُيــوتَ الحَــيِّ بِــالعُنَنِ

أَن نِعـــمَ مُعتَـــرَكُ الحَـــيِّ الجِيـاعِ إِذا　　　خَـبَّ السَـفيرُ وَمَـأوى البـائِسِ الـبَطِنِ

وتقديره (أنه نعم معترك الحي) ، وإذا أردنا متابعة الشروط التي ذكرت لاستعمال هذا النوع[٥] نجدها متوافرة فعلا في استعمال أصحاب المعلقات ، فهي تأتي بعد أفعال التحقيق ، وشرط اسمها أن يكون ضميرا محذوفا ، وشرط خبرها أن يكون جملة اسمية ، أو فعلية مفصولٌ فيها بين (أنْ) والفعل بفاصل أو يكون الفعل غير متصرف ، أما اسمها فقد كان في النماذج جميعها ضميرا محذوفا ولم ألحظ استعماله بارزا ، وبذا تقلُّ أهميَّة البيت المجهول القائل الذي ذكر دليلا على جواز الإتيان باسمها بارزا عند الضرورة[٦] ، ومع فرض صحة ذلك البيت البيت نقول إنه شاذ لا يقاس عليه في الفصيح من الاستعمال .

وأما في الاستعمال القرآني فقد جاءت (أنْ) المخففة من الثقيلة (٤٧) سبعا وأربعين مرَّةً[٧]، لتكون نسبة استعمال المخففة إلى مجموع استعمالات (أنْ) القرآنية (٧,٥%) ، وإذا ما وازنَّا هذه النسبة بنسبة الاستعمال الشعري يتضح لنا أن القرآن الكريم قلَّل من استعمال (أنْ) المخففة من الثقيلة قرابة النصف مما كانت عليه عند الشعراء ، معتمدا بدلا منها على (أنْ) المصدرية الناصبة للفعل ، ومع هذا التقليل من الاستعمال لـ(أنْ) المخففة إننا نجد معدل ورود (أنْ) المخففة في آيات القرآن الكريم هي (٠,٧%) أي ورودها سبع مرات كل ألف آية قرآنية ، وهذا يتسق مع الارتفاع العام في مجموع استعمالات (أنْ) بأنواعها المتعددة في القرآن الكريم في مقابل قلَّة هذا الاستعمال عند الشعراء .

---

١ - في النحو العربي نقد وتوجيه : ٣١٧-٣١٨.
٢ - ديوان امرئ القيس : ٢٨ .
٣ - شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\١٢١ .
٤ - شرح ديوان زهير : ١٢١-١٢٢.
٥ - للإطلاع على هذه الشروط ينظر الفصل الثاني : ٦٨ .
٦ - ظ : الفصل الثاني : ٦٨ .
٧ - النساء: ١٤٠، المائدة:٧١، ١١٣، الأنعام :١٣١، الأعراف:٤٤، ٤٦،٤٤، ١٠٠، ١٦٩،١٠٥، ١٨٥، التوبة:١٠٢، ١١٨، هود:١٤، يوسف:٢١، ٨٣، الرعد:٣١، الإسراء:٥١، ٧٩، الكهف٢٤، ٤٨، طه:٨٩،الأنبياء:٨٧، الحج:٢٦، النمل:٧٢، القصص:٩، ٣٠، ٣١، ٦٧، سبأ:١٤، محمد:٢٩، النجم:٣٩،٣٨، الحديد:٢٩، التغابن:٧، القلم١٤، الجن:٥، ٧، ١٦،١٢، ٢٨، المزمل:٢٠،٢٠، القيامة:٣، الانشقاق:١٤، البلد:٥، ٧.

ومن أمثلة الاستعمال القرآني لـ(أنْ) المخففة قوله تعالى :﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾(النساء: من الآية١٤٠) ، قال الزمخشري :(({أن إذا سمعتم} هي أن المخففة من الثقيلة ، والمعنى أنه إذا سمعتم ، أي نزل عليكم أنّ الشأن كذا ، والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها، و(أنْ) مع ما في حيِّزها في موضع الرفع بـ(نزِّل) ، أو في موضع النصب بـ(نزّل) ، فيمن قرأ به.)) [١]، ومعنى (أن) المخففة من الثقيلة هو نفسه معناها قبل التخفيف ، أي إفادة التوكيد والتحقيق على رأي القدماء أو كونها وصلة وواسطة لوصف الاسم بالفعل بطريقة معينة . وقد يكون لها دلالة هامشية أخرى سأشير إليها في المبحث الثاني من هذا الفصل .

المعنى الثالث : (أنْ) المصدرية (زائدة) تدل على التوكيد:

من المعاني الهامشية لـ(أنْ) المصدرية دلالتها على التوكيد عندما تكون زائدة يبدو أن استعمال (أنْ) زائدة بعد لمَّا التوقيتية هو الوجه المعروف من استعمالها زائدة في دواوين أصحاب المعلقات ، وفي الاستعمال القرآني أيضا ، أما المواضع الأخرى التي ذكر فيها استعمال (أنْ) زائدة ، من مجيئها بعد بين (فعل القسم) و(لو) ، أو مجيئها بين (الكاف) ومخفوضها ، أو بعد (إذ)[٢] فهذا كله لم أعثر له على نماذج في النصوص المدروسة ، ومنه استنتج أن استعمال (أنْ) زائدة جاء في الفصيح البليغ المشترك من كلام العرب بعد لمَّا فقط .

إن استعمال (أنْ) زائدة قليل ، ففي دواوين الشعراء أحصيت ثلاثة أبيات فقط كانت فيها (أنْ) زائدة[٣]، وهذا يعني أن نسبة استعمال (أنْ) الزائدة إلى مجموع استعمالات (أنْ) في المعاني جميعها عند الشعراء هي (٢,٩%) أي في كل مئة استعمال لها عند الشعراء نحصل على موردين تكون فيه زائدة ، وهي نسبة قليلة ، منها قول عنترة [٤]:

(الوافـر)

وَذَلَّ الـدَهرُ لَمّـا أَن رَآنـي ... أُلاقـي كُـلَّ نائِبَـةٍ بِصَـدري

أما في الاستعمال القرآني فلم أعثر إلاَّ على ثلاث آيات جاءت فيها (أنْ) بعد (لمَّا) زائدة[٥]، وبهذا تكون نسبة استعمالها زائدة إلى مجموع الاستعمال العام في القرآن (٠,٤%) أي أي كل ألف مرَّة تستعمل فيها (أنْ) بمختلف معانيها نحصل على أربعة موارد تكون فيها زائدة ، ومنه نلحظ ندرة هذا الاستعمال في القرآن الكريم إذا ما قيس باستعمال (أنْ) الزائدة عند الشعراء ، فاستعمالها عندهم يفوق استعمالها القرآني سبع مرات . لقد قلَّل الاستعمال القرآني إلى حدٍّ بعيد من استعمال (أنْ) زائدة ، وواحدة من الآيات الثلاث قد مرَّ ذكرها والأخريان هما قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾(يوسف: من الآية٩٦) ، وقوله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا

---

١ - الكشاف : ٥٧٢\١ ، وينظر معه : التبيان في إعراب القرآن : ١٩٨\١ .
٢ - ظ : الفصل الثاني : ٧٠.
٣ - ظ : ديوان الحارث بن حلزة : ٧٢، ديوان عنترة(فوزي عطوي) : ٨٩، شرح ديوان زهير : ٥٩ .
٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي):٨٩.
٥ - ظ : يوسف: ٩٦، العنكبوت: ٣٣، القصص: ١٩ .

﴿أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾(القصص: من الآية١٩) ، فـ(أنْ) في الآيتين زائدة لا موقع لها من الإعراب على ما صرَّح به العلماء[1]. وقد يكون من المناسب هنا أن أشير إلى أن بعض المفسرين قد يفهم من آية ما أن معنى (أنْ) فيها زائدة ، ولكن فهمه هذا يكون فهما خاصًّا قد يردَّه عليه غيره من العلماء[2] ، وقد نقل أبو حيان عن الزمخشريّ والفارسيّ أنهما يريان أنَّ ثمَّة معنى يصحب التوكيد الذي تدل عليه زيادة (أنْ) وهو :((أنَّ الجواب يكون بعقب الفعل الذي يلي (أنْ) فيه فينبه على السبب والاتصال .)) [3] لكنه استدرك على رأيهما بقوله :((وما ذهبا إليه لا يعرفه كبراء النحويين .)) [4] .

قد يكون ما نقله أبو حيان صحيحا فأكثر النحويين قد لا يتنبهون إلى بعض المعاني في الكلام لكن أصحاب المعاني يقعون على تلك المعاني فهم لا يسلمون بزيادة (أنْ) في مثل هذه الآيات ، وخيرُ مثل لهم ابنُ الأثير(ت٦٣٨هـ) ، الذي التفتَ إلى دقيقةٍ لغويَّةٍ لم يلتفت إليها النحويون ، فهو يرى أنَّ (أنْ) هنا أفادت معنىً معينٍ ، وقد كان لها مكانها المخصص في الآية الكريمة ، ولا يجوز أن يُفرَّطَ بها ، فتوصف بالزيادة ، وسأنقل نصَّه في معنى الآيتين على أنه طويل ؛ للفائدة المرجوَّة منه ، قال ابن الأثير :((فقوله تعالى :﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ بتكرير (أن) مرتين دليل على أنَّ موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنده إبطاءٌ في بسط يده إليه ، فعبَّر القرآنُ عن ذلك بقوله تعالى:﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ . وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضةٌ في هذه الآية ، فقال إنَّ (أنْ) الأولى زائدةٌ ، ولو حذفت ، فقيل (فلما أراد أن يبطش) لكان المعنى سواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ، وقد اتفق النحاة على أنَّ (أنْ) الواردة بعد (لمَّا) وقبل الفعل زائدةٌ ، فقلت له : النحاةُ لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة بأسرارهما ، من حيث إنَّهم نحاة ، ولا شك أنَّهم وجدوا (أنْ) ترد بعد (لمَّا) وقبل الفعل في القرآن الكريم ، وفي كلام فصحاء العرب ، فظنوا أنَّ المعنى بوجودها كالمعنى إذا سقطت ، فقالوا : هذه زائدةٌ ، وليس الأمر كذلك ، بل إذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أنْ) دلَّ ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أنَّ الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء .))[5] ثمَّ استدلَّ على كلامه هذا بدليلين بَيَّن فيهما أن الكلمة وضعت لمعنى ، واستعمالها واستعمالها في نص بليغ لابدَّ أن يكون مقصودا ، ويراد بها الدلالة على شيءٍ معينٍ ، ولا يمكن قبول القول بزيادة الحروف في مثل هذه الآيات ؛ لأنه يضرُّ بالإعجاز القرآني . وبعدها تحدث عن معنى الإبطاء في الآية الثانية قائلا :((وأما قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ، فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب ، وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وُجِدَ أنَّه كان ثَمَّ إبطاء بعيدٌ ، وقد اختلف في طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثَمَّ مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بـ(أنْ) بعد (لمَّا) وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية :(فلما جاء البشير ألقاه على وجهه) . وهذه دقائقٌ ورموزٌ لا تؤخذ من النحاة ، لأنها ليست من شأنهم .))[6]، إنَّ

---

١ - ظ: مفاتيح الغيب:١٨\٥٠٧، ارتشاف الضرب :٢\٤٢٣، الجامع لأحكام القرآن:٩\٢٥٩، معجم الجملة القرآنية: القسم الأول، الحروف الزائدة في ضوء الدراسات القرآنية:١٦.
٢ - ينظر مثال ذلك ما نقله الرضي : ٤\٤٣٨ .
٣ - ارتشاف الضرب :٢\٤٢٣.
٤ - المصدر نفسه .
٥ - المثل السائر : ٣\١٢-١٣ .
٦ - نفسه : ٣\١٤-١٥ .

فهم هذا المفسر للقرآن الكريم حتَّم عليه رفض القبول بفكرة القول بزيادة الحروف التي يرددها النحاة ، وإن كان بعضهم لا يريد بها أنَّ الحرف الزائد ليس له معنى في النص الوارد فيه . إنَّ معنى الإبطاء الذي أشار إليه ابن الأثير يمكن أن يكون معنى هامشيا أضَافَهُ السياقُ إلى دلالة الحرف ، ولم يتنبه كثير من النحاة إلى هذا المعنى .

بقي أن نضع جدولا يبيِّن استعمالات الشعراء لـ(أنْ)، ونسبها :

ت	اسم الشاعر	(أن) المصدرية	(أن) المخففة	(أن) الزائدة	مجموع الاستعمال	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	١١	١	١	١٣	٦٩٥	%١,٨
٢	طرفة بن العبد	٦	٣	--	٩	٤٣٦	%٢
٣	الحارث بن حلِّزة	٣	--	١	٤	١٧٨	%٢,٢
٤	عمرو بن كلثوم	١٧	--	--	١٧	٢٩٢	%٥,٨
٥	عنترة بن شداد	٢٨	٢	١	٣١	١٧٦٩	%١,٧
٦	زهير بن أبي سلمى	٢٥	٦	١	٣٢	٨٩٤	%٣,٥
٧	لبيد بن ربيعة العامري	٢٥	٦	--	٣١	١٣٢٢	%٢,٣
	المجموع	١١٥	١٨	٤	١٣٧	٥٥٨٦	%٢,٤

تبدو نسبة استعمال (أن) المصدرية مرتفعة جدا عند عمرو بن كلثوم على صغر ديوانه إذا ما قيست بنسبة استعمال طرفة (١,٣%) أو عنترة(١,٧%) اللذين كانا أقلّ الشعراء نسبيا استعمالا لهذا الحرف . ثم البقية تتقارب نسب استعمالهم لهذا الحرف ، أما أكثرهم استعمالا للمخففة فطرفة وزهير اللذان كانت نسبة استعمالهما لـ(أن) المخففة (٠,٦%) ستة بالألف ، في حين كان عنترة أقلهم استعمالا لـ(أن) المخففة إذ بلغت نسبتها عنده(٠,١%) واحد بالألف . وهذا يعني أن طرفة وزهيرا احتاجا إلى تأكيد كلامهما بـ(أن) المخففة من الثقيلة أكثر من غيرهما ، وإذا كان استعمال التأكيد في الكلام يعني أن عند المتلقي إنكارا بدرجة معينة لما يتلقى من المنشئ ، فهذا يعني أن طرفة وزهيرا كانا في صراع ومحاولة إقناع للمتلقي أكثر من غيرهما في حين يكون عنترة أكثر تثبتا منهما ، ولعلَّ حالة الفروسية عنده ولَّـدت عنده حالة من الثقة بالنفس جعلت كلامه مقبولا عند المتلقي ، وقد لا يحتاج إلى كثير من التأكيد .

رابعا :(أَوْ)

تبيَّن من خلال الإحصاء أن (أو) استعمل في القرآن الكريم (٢٨٠) مئتين وثمانين مرَّة[١]، وهذا يعني أن نسبة استعمال هذا الحرف إلى مجموع آيات القرآن الكريم هي (٤,٤%) وبهذا سنجد أربعة وأربعين موردا تستعمل فيه (أو) في كل ألف آية قرآنية .

في حين استعملت عند شعراء المعلقات في دواوينهم (١٨٩) مئة وتسعا وثمانين مرَّة[٢]، وهذا يجعل النسبة المئوية لاستعمال هذا الحرف إلى مجموع أبيات الدواوين (٣,٣%) ، أي أننا سنجد ثلاثة وثلاثين موردا لـ(أو) في كل ألف بيت شعري ، ومن هذه الأرقام يتبيَّن أن

---

١ - يمكن مراجعة هذه المواضع مفصلة من خلال برنامج (نور جامع الأحاديث) ، ومجملة في معجم الأدوات والضمائر :١٥٨، علما أنَّه اشتبه في قوله تعالى:﴿ فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ﴾ فرقَّمه (٢٣٨|٢) والصحيح أن رقم هذه الآية :(٢٣٩|٢) .

٢ - يمكن مراجعة هذه المواضع مفصلة من خلال برنامج (الموسوعة الشعرية – الإصدار الثالث) .

الاستعمال القرآني لهذا الحرف قد توسع بنسبة (١,١%) واحد بالمئة أو أحد عشر استعمالا بالألف عمَّا كان عليه عند الشعراء قبل نزوله .

بيَّن الفصل الثاني أن المعنى المركزي لـ(أو) نسبة الحكم المسند بها إلى أحد الاسمين المذكورين لا بعينه ، أما دلالتها على عدد من المعاني فلم يكن إلاَّ بتأثير السياق ، وما يضيفه لها من زيادات على المعنى المركزي ، وقد نقلت عددا غير قليل من الآيات القرآنية المباركة التي فهم منها المفسرون معاني هامشية لهذا الحرف ، وتنوع فهمهم لها بحسب ما يمتلكه كل منهم من أدوات ، وقرائن تعينه على تحليل النص ، وفهم معناه الدقيق . وأزيد هنا : إن آيات الأحكام كان لها حظ وافر في النقاش الدائر حول معاني هذا الحرف ، وقد اشتمل عدد منها على هذا الحرف ، وكان لوجوده أثر بالغ في استنباط الحكم الشرعي ، كما هو الحال في آية الكفارة (المائدة :٨٩) ، وآية الفدية (البقرة : ١٩٦) وما دار حولهما من نقاش بين الفقهاء في جواز الجمع بين الكفارات أم لا وما إلى ذلك ، وآية الوضوء والطهارة (النساء : ٤٣، المائدة:٦) ، وآية الصيام في السفر(البقرة : ١٨٤ ، ١٨٥) وآيات المواريث(النساء : ١١، ١٢) والمحرمات من النساء (النساء :٣٣) وغيرها الكثير أبتعد عن الخوض في تفاصيلها ؛ خشية الإطالة .

إنَّ الاستعمال الشعري لهذا الحرف ، مرتبط بتفسير النص القرآني إلى حدٍّ ما ، فلم تتحدث المصادر اللغوية عن الأبيات الشعرية لشعراء المعلقات منفصلة ، بل جاء الحديث عنها في أثناء كلامهم على تأويل الآيات القرآنية ، وهذا دليل يؤكد أن النص القرآني كان المحفز الأول عند علماء اللغة لبحثهم عن معاني هذا الحرف أو غيره ، ولولا النص القرآني فإني على يقين أنَّه لم تكن المعاني الخاصة بهذا الحرف تتوسع حتَّى جاوزت العشرة ، وقد يعود هذا التوسع إلى وجهين :

أحدهما أن نسبة استعمال هذا الحرف في القرآن تزيد على نسبة استعماله عند شعراء المعلقات في دواوينهم بمقدار (١,١%) كما ذكرت قبل قليل ، وهذه الزيادة في الاستعمال القرآني تكسب الحرف زيادة في السياقات الوارد ضمنها ، مما يجعله عرضة للتلون بمعان خاصة أكثر منه عند الشعراء .

والوجه الآخر : أن السياق القرآني سياق معجز في استخدام اللغة ، وُظفت فيه الألفاظ لتعطي أكبر قدر من المعاني ، في أقل قدر من الألفاظ . وهذا ما تلمسته عند تتبعي لمعاني هذا الحرف ، ففي الآية الواحد قد تصل المعاني التي يمكن أن يعطيها الحرف إلى ستة أو أكثر ، بحسب وجهة نظر المتلقي . وهذا الشيء لم أره في الاستعمال الشعري عند أصحاب المعلقات ، وهذا تأكيد لعبارة أحد الباحثين المعاصرين إذ يقول: ((لقد كان للقرآن الكريم – زيادة على ما ذكر - فضلٌ كبيرٌ في استحداث المعاني المختلفة للحروف ، سواء أكانت حروفا عاملة أو عاطفة ، ونحن إذا استعرضنا حروف الجر أو العطف أو الاستفهام ، أو غير ذلك من الحروف ، فسنجد أن كل ما قيل في معانيها ، أو معظمه بلفظ أدقّ ، قد اعتمد استنتاجه واستخلاصه على القرآن الكريم .))[1] ، وإذ أنقل هذا القول لا اقصد به أن تلك القواعد لم تكن مستعملة في لغة العرب قبل نزول القرآن ، بل أريد القول : إن فضل الكشف عن أغلبها يعود إلى القرآن ، ولا يلغي هذا وجود قسمٍ آخرَ استحدثه القرآن ، لم يكن الشعر يعرفه قبل نزوله ، وهذا ما نذكره في المبحث الثاني من هذا الفصل .

---

١ - أثر القرآن والقراءات في النحو العربي : ٢٠٦ .

وإذا أردت أن أذكر بعض النماذج لاستعمال الشعراء لهذا الحرف ، فإني أذكر من استعمالات امرئ القيس لـ(أو) في أشعاره قوله [1] :

(الطويل)

أَلِمّا عَلى الرَبعِ القَديمِ بِعَسعَسا كَأَنّي أُنادي أَو أُكَلِّمُ أَخرَسا

يخاطب الشاعر صاحبيه أن ينزلا في الربع القديم بعسعس ، أي في إدبار الليل في آخره ، ليساعداه على الإلمام بهذا الموضع ، ومناشدته له عن أحوال أحبته ، ثم بيَّن أنه في ندائه له كمن ينادي ، أو يكلم أخرسَ ؛ إذ لم يرجع له جوابا ، ويمكن أن تفيد (أو) هنا المعاني التي أفادتها في آية تمثيل الكفار بموقد النار، أو تمثيلهم بالصيب (في الآية:١٩من سورة البقرة)[2]، فنستطيع حملها على معنى (الواو) ، أي أنادي وأكلِّمُ أخرسَ ؛ إذ النداء غير التكليم فيجوز الجمع بينهما ، ويجوز حملها على التخيير ، أي من يراني يمكن أن يُمَثلني بمن يكلم أخرسَ ، أو يمثلني بمن ينادي أخرسَ ، ويمكن أيضاً حملها على معنى الإباحة ، فيجوز للرائي أن يجمع بين المثلين ، ولا يبعد حملها على الشك ، وهو أصل المعاني ، فهو شاكٌّ في حاله ، وقد تحمل على الإبهام ، بل ليس مستبعدا حملها على معنى (بل) ؛ لأنه قال أول الأمر : إنه كمن ينادي أخرس ، ثم تنبه إلى أن في النداء بُعدا في المسافةِ بين المُنَادِي و المُنَادَى ، ومع البُعدِ قد يكون هُنالك شغلٌ وعدمُ انتباه المُنَادَى ، فليس عجبا أن لا يستمع لندائه ، ومن ثم لا يجيبه ، فعندها عَدَلَ عن هذا المعنى إلى ما هو أليق بالمقام ، فهو لا ينادي ، بل يُكلِّمُ ، والتكليم فيه قُربٌ بين المُتكلِّمَينِ وفيه التفات أحدهما للآخر، وإقباله عليه ، وعندها يصبح عدم الإجابة منه أمرا عجبا ومحيرا ، وزاد من الحيرة في عدم الجواب أن جعل من يُكلِّمَهُ أخرسَ لا يقدرُ على النُّطقِ ، ومن هذا الوجه يصلح حمل (أو) في البيت على معنى (بل) .

إن اختلاف المعنى في كل تفسير يرجع إلى جهةٍ مُعيـَّنَةٍ في الكلام ، ومحاولة توجيه الكلام نحو تلك الجهة ، ففي حمله على معنى التخيير والإباحة يكون الكلام مُراعى فيه حال الرائي ، واستشراف ما سيمثل حال الشاعر به ، هل هو الأمر الأول أو الثاني أو يجمع بينهما؟ وأما حملها على معنى الشك فمراعى فيه حال الشاعر نفسه وحيرته ، وحمله على الإبهام فمراعى فيه حال الشاعر والمخاطب في وقت واحد ، لغاية في نفسه [أي الشاعر] أنْ يُبهم على المخاطب ، أما حمل المعنى على معنى الواو فمراعى فيه التوسع في الكلام ، وأن النداء والتكليم بينهما عموم وخصوص من وجه - على حدِّ تعبير المناطقة - وفي الحمل على معنى (بل) مراعى فيه الحالة النفسية للشاعر ، والارتقاء بالنفس الشعري ، والصعود به إلى مستوى أعلى . خلاصة ما تقدم : أن للسياق الأثر الكبير في أعطاء الحرف معناه الخاص به ضمن النص المعين ، ولم يكن العلماء ليتنبهوا إلى كلِّ تلك المعاني إلاَّ من خلال النص القرآني ، ومع وجودها في النص الشعري ، المقدَّم زمنيا على القرآن الكريم إلاَّ أن الفضل كله يعود إلى القرآن في الكشف عن مكامن اللغة ، ودقائق معانيها البلاغية . ومن أقوال امرئ القيس أيضاً قوله[3]:

(الطويل)

فَقُلتُ لَهُ لا تَبكِ عَينُكَ إِنَّما نُحاوِلُ مُلكاً أَو نَموتَ فَنُعذَرا

وقد فُسِّرَت (أو) في البيت بمعنى (إلاَّ) في الاستثناء ، فيكون المعنى نحاول ملكا إلاَّ أن نموت فنعذرا[4] ، قال البطليوسيُّ :((وإنما نصب على تقدير (إلاَّ أن نموت) ، وهذا مثل قولك

---

١ - ديوان امرئ القيس : ١٠٥، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١| ٢٦٤.

٢ - وهي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾(البقرة:١٧-١٩) ظ : الفصل الثاني : ٧٥.

٣ - ديوان امرئ القيس :٦٦.

٤ - ظ : الصاحبي في فقه اللغة : ١٢٨ ، رصف المباني : ١٣٣، خُزَانَةُ الأَدَب:٨|٥٤٤ .

لألزمنك أو تقضيني[1] حقي ، فمعناه : لألزمنك إلى الوقت الذي لا أستطيع فيه الطلبة ، وهو وقت الموت ، وقال بعضهم :(أو) بمعنى (حتَّى) ، فكأنه قال نحاول ملكا حتى نموت فنعذرا .))[2]، ونقل البغدادي عن بعضهم أن (((أو) هنا للغاية ، أيْ : نحاول الملك إلى أن نموت .)) [3] ، هذه ثلاثة معان سمح بها السياق ، وقد أفاد المفسرون من هذا البيت في تفاسيرهم ، إذ استشهد به الطبريَّ(ت٣١٠هـ) والنحاسُ(ت٣٣٨هـ) والطوسيُّ(ت٤٦٠هـ) والقرطبيُّ(ت٦٧١هـ) والشوكانيُّ(ت١٢٥٠هـ) في عدد من الآيات[4]، وفي ذلك تأيدٌ لما قلته من إن القرآن الكريم كان سببا للخوض في معاني هذا الحرف وغيره .

ومثل هذا البيت تماما قول عنترة [5]:

(الطويل)

دَعوني أَجِدّ السَعيَ في طَلَبِ العُلا فَأُدرِكَ سُؤلي أَو أَموتَ فَأُعذَرُ

فـ(أو) في هذا البيت كما في بيت امرئ القيس قد تُحمَلُ على معنى (إلاَّ أن) ، ويصح أن تحمل على معنى (حتَّى) .

ومن الأبيات التي استعملت فيها (أو) قول لبيد بن ربيعة [6]:

(الطويل)

تَمَنّى اِبنَتايَ أَن يَعيشَ أَبوهُما وَهَل أَنا إِلّا مِن رَبيعَةَ أَو مُضَر

جاء في الديوان :((و(أو) هنا قيل للإبهام على السامع ، وقال الكوفيون إنها بمعنى الواو.)) [7] ، وذكر الرضي أنها هنا للإبهام [8] ونقل ابن منظور مثله [9]، وأشار الإربليُّ بعد أن أن استشهد ببيت لبيد إلى أن الشاعر يعرف من أي القبيلتين هو لكنه أبهم على السامع لغاية معينة[10] . وزعم الكوفيون أن (أو) هنا بمعنى الواو ، وقد نقل عنهم هذا ابن الشجري في أماليه ، وحكاه عنهم البغدادي قائلا :(((أو) هنا بمعنى الواو ، لأنه لا يشك في نسبه حتى لا يدري أمن ربيعة هو أم من مضر؟ ولكنه أراد بربيعة أباه الذي ولده ، لأنه لبيد بن ربيعة . ثم قال : أو مضر، يريد : ومضر، يعني مضر بن نزار بن معد بن عدنان .))[11] ، وقد استشهد ابن الجوزيّ في تفسيره بهذا البيت على أن (أو) للإبهام [12]. ومن استعمالات طرفة لـ(أو) قوله [13]:

(الوافر)

لَعَمرُكَ إِنَّ قابوسَ بنَ هِندٍ لَيَخلِطُ مُلكَهُ نوكٌ كَثيرُ

قَسَمتَ الدَهرَ في زَمَنٍ رَخيٍّ كَذاكَ الحُكمُ يَقصِدُ أَو يَجورُ

---

١ - هكذا وردت ولعل الأصوب أن يقال : تقضي حقي .
٢ - شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\ ١٩٥.
٣ - خُزَانَةُ الأَدَب :٨\٥٤٤ .
٤ - ظ : جامع البيان : ١٣\٢١٥ ، معاني القرآن (النحاس) : ١\٤٢٣ ، التبيان : ٢\ ٥٨٦ ، الجامع لأحكام القرآن : ١\ ٤٢٣ ، ٤\١١٤، ٧\٢١٨ ، ١٠\٣٩١، ١٦\ ٢٧٣، فتح القدير : ٢\٢١٠.
٥ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٣٥.
٦ - شرح ديوان لبيد : ٢١٣.
٧ - المصدر نفسه .
٨ - ظ : شرح الرضي على الكافية ٤\٣٩٧ .
٩ - ظ : لسان العرب : مادة (أوا) :١٤\٥٤.
١٠ - جواهر الأدب : ١٢١ .
١١ - خُزَانَةُ الأَدَب: ١١\٦٠ - ٦٢ ، وينظر معه : النحو في شروح المعلقات : ٨١ .
١٢ - زاد المسير : ١\٣٣ .
١٣ - ديوان طرفة بن العبد : ٩٧ ، ديوان طرفة(درية الخطيب):١٠٩ .

يصف طرفة حكم الملك قابوس بأنه أحمق في بعض أوقاته ، ثم يبيِّن لنا رؤيته في الحاكم والحكم ، فهو إما عادل وإما جائر ، فـ(أو) يمكن أن تحمل هنا على معنى التفصيل لإجمال (الحكم) . ومما يحمل على التقسيم أيضاً قول زهير[1]:

(الطويل)

وَلَيسَ لِمَن لَم يَركَبِ الهَولَ بُغيَةٌ ... وَلَيسَ لِرَحلٍ حَطَّهُ اللَهُ حامِلُ

إذا أَنتَ لَم تُقصِر عَنِ الجَهلِ وَالخَنا ... أَصَبتَ حَليماً أَو أَصابَكَ جاهِلُ

يشير زهير إلى فلسفة معينة قد يكون متبعا لها في حياته ، أنَّ الأهوال إذا ركبت الإنسان فليس دونها بدٌّ ، وأنَّ الله تعالى إذا أراد شيئا فليس دون إرادته مانع ، وكذلك يُبيِّن أنَّك في هذه الدنيا إن لم تتصف بالحكمة وتنزيه النفس عن الرذائل والنواقص ، فإنك أمَّا أن تجور على حليم وتظلمه ، وإمّا أن يجور عليك جاهل فيظلمك . ومن الأبيات الأخرى التي استعملت فيها (أو) وكان للسياق فيها إضافة معنى خاص على الحرف قول امرئ القيس[2]:

(الطويل)

وَظَلَّ طُهاةُ اللَحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ ... صَفيفَ شِواءٍ أَو قَديرٍ مُعَجَّلِ

(أو) هنا بمعنى الواو[3] فطهاة اللحم كانوا صنفين شوَّاءٌ وطبَّاخٌ بالقدر . فأصل المعنى أن أن طهاة اللحم كانوا بين أن يكون من الذين يشوون أو من الذين يطبخون في القدور ، وفي حال سعة الكلام ، أصبحت (أو) بمعنى الواو . وأكتفي بهذا القدر من التمثيل بأشعار أصحاب المعلقات ففيها كفاية .

إن المعاني الهامشية التي اكتسبها الحرف بفعل السياق ، كانت مستعملة في أشعار أصحاب المعلقات ، لكن أحدا من اللغويين لم يشر إليها إلاَّ من خلال حديثهم عند تفسير النص القرآني ، أما استشهادهم بالآيات في إثبات أكثر المعاني التي نسبوها لـ(أو) فمردُّه كما قلتُ من قبل ؛ إلى أن القرآن أوثق النصوص وأكثرها حضورا عند العلماء ، والشعر أصبح أبعَد درجةً منه في الدلالة ، وفي الحضور .

وبعد هذه الجولة في إثبات معاني (أو) الهامشية عند شعراء المعلقات أذكر الآن جدولا يُبَيِّنُ استعمالَ الشعراءِ لهذا الحرف ، والنسب المئوية لاستعمالاتهم :

ت	اسم الشاعر	استعمال (أو)	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	٢٨	٦٩٥	%٤
٢	طرفة بن العبد	١٤	٤٣٦	%٣,٢
٣	الحارث بن حلِّزة	٨	١٧٨	%٤,٤
٤	عمرو بن كلثوم	١١	٢٩٢	%٣,٧
٥	عنترة بن شداد	٣٦	١٧٦٩	%٢
٦	زهير بن أبي سلمى	٤٨	٨٩٤	%٥,٣
٧	لبيد بن ربيعة	٤٤	١٣٢٢	%٣,٣

١ - شرح ديوان زهير : ٣٠٠ .

٢ - ديوان امرئ القيس :٢٢ ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٩٧ ، شرح القصائد التسع المشهورات:١\١٨٣، شرح الأشعار الستة الجاهلية:١\١٠٥-١٠٦، خُزَانَةُ الأَدَبِ:٣\٢٥٠ .

٣ - ظ : شرح ألفية ابن مالك : ٢٠٩، خُزَانَةُ الأَدَبِ: ٣\٢٥٠ .

المجموع	١٨٩	٥٥٨٦	%٣,٣

مـن خـلال النسـب المثبتـة فـي الجدول لاستعمال كل شاعر يتبين أن أكثر الشعراء استعمالا لـ(أو) كـان زهير بـن أبـي سلمى ، ففي كل مئة بيت من ديوانه نحصل على خمسة موارد يستعمل فيها (أو) ، في حين كـان عنترة بن شداد أقل الشعراء استعمالا لهذا الحرف ، إذ نستطيع أن نحصل فـي كـل مئـة بيت مـن أبياتـه على موردين فقط لـ(أو) . وإذا كان استعمال (أو) الرئيس للشك فنستطيع القول : إنَّ نفس عنترة كانت أكثر ثباتا ويقينا ، مما جعل شعره يندر فيه استعمال حرف الشك ، فـي حين يكون زهير أكثر شعراء المعلقات السبع اضطرابا نفسيا وقلقلا وتشككا في واقعه وحياتـه ، حتـى كـان شـعره الأكثر في استعمال حرف الشك ، وتأتي هذه النتيجة متسقة تماما مع نتيجة إحصـاء استعمالاتهم لـ(أنْ) المخففة التي تدل على التوكيد والتحقيق ، وقد مرَّ آنفا أنَّ عنترة كان أقلهم استعمالا لها ، وفسرته هنالك بأن الفروسية ولـَّدت عنده حالة من الثقة بالنفس جعلت كلامه مقبولا عند المتلقي وقد لا يحتاج إلى كثير من التأكيد في كلامه ، في حين كان زهير وطرفة أكثرهم استعمالا لذلك الحرف ، وقلت إنهما أكثر شاعرين يعانيان الصراع النفسي ، ويحاولان إقناع المتلقي أكثر من غيرهمـا ، والنتيجـة هنـا متفقـة مـع مـا تقدم وإحداهما تعاضد الأخـرى ، فزهيـر أكثـر الشـعراء استعمالا لحرف الشك ، وكذا النسبة مرتفعة عند طرفة .

أما في النص القرآنـي فقد ارتفعت نسبة استعمال حرف الشَّك عشرة بـالألف عمَّـا كـان عليه عند هؤلاء الشعراء ، وهذا يعني في وجه من الوجوه ازدياد الحيرة والشك في هذا النص ، وهذا صحيحٌ من حيث أن المخاطبين بالقران كان أكثرهم بين شاكٍّ به ، ومكذِّب لـه ، ومُعرِضٍ عنه ، فالشَّكُّ عند المُخَاطَبِ ، وكان القرآن الكريم يريد تبديد تلك المخاوف والشكوك فـي نفـوس المخاطبين حتى يؤمنوا بأنه الحق ، فتلك الزيادة تدلُّ على حالـة الصـراع النفسـي العقائـدي الـذي عانى منه المخـاطبون بـالقران ، والمَدعُوونَ للإيمـان بـه ، وهـذا الصـراع قـد يكـون مستمرا مـا دامت الدعوة إلى الإيمان مستمرة .

خامسا :(بَلْ)

لـم يكـن (بـل) مـن الحـروف الشـائعة الاسـتعمال فـي أشـعار أصـحاب المعلقـات ، فكـل مـا استطعت أن أرصده من استعمالاته من خلال البحث المعمق في دواوينهم : أربعـة أبيـات لعنتـرة بن شداد ، وبيتين لزهير بن أبي سلمى ، وثلاثة للبيد بن ربيعة ليكون المجموع (٩) تسعة أبيات ضمن (٥٥٨٦) بيتا شعريا مجموع أشعار دواوين أصحاب المعلقات ، لتكون نسبة استعمال هذا الحـرف إلـى مجمـوع الأبيـات فـي الـدواوين (٠,١٦%) أي سنحصـل علـى استعمال واحـد لهـذا الحرف في كل ألف بيت ، وهي نسبة قليلة جدا .

أما في القرآن الكريم فقد شهد هذا الحرف سعة في الاستعمال بلغت قرابـة عشـرين ضـعفا لمـا كـان عليـه عنـد الشـعراء ؛ إذ وردت (بـل) فـي القـرآن الكـريم (١٢٧) مئـة وسـبعا وعشـرين مرَّة[١]، وهذا يجعل النسبة المئوية لاستعملها في القرآن إلى مجموع آياته (٢%) ، أي سنحصـل على عشرين استعمالا لها في كل ألف آية ، في حين كانت عند الشعراء مرَّة واحدة في كـل ألـف بيت .

١ - يمكن الرجوع إلى برنامج (نور جامع الأحاديث) أو ينظر: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم :٢١٣-٢١٦.

المعنى العام الذي لا يفارق (بل) هو الإضراب ، وثمَّة معان هامشية تُبَيِّنُ سببَ الإضرابِ قد ترافق هذا المعنى العام ، سننظر في هذه المعاني الخاصة لتلك الاستعمالات في الشعر والقرآن الكريم لعلنا نتوصل إلى سبب يُفسِّرُ لنا سعة الاستعمال القرآني لهذا الحرف .

في الشعر استعمل الإضرَاب للانتقال إما من غرض إلى آخر من أغراض القصيدة التقليدية المتعددة ، أو من معنى جملة إلى آخر لا على نحو الإبطال ، فمن النوع الأول ما نراه عند زهير، فبعد أن انتهى من وصف الطرد والرحلة ، أضرب عن ذلك وصار إلى غرضه الرئيس فبدأ في وصف ممدوحه قائلا [1]:

(البسيط)

بَـلِ اذكُـرَن خَـيرَ قَـيسٍ كلّهـا حَسَـباً وَخَيرَهـا نـائِلاً وَخَيرَهـا خُلُقـا

أي دَعْ عنك ما ذكر، واذكر خَيرَ قَيْسٍ حَسبًا ونَائِلا وخُلقا . فهو إضراب للانتقال لا على نحو الإبطال لما سبقه . ومثله قول لبيد [2]:

(الكامل)

بَـل مـا تَـذَكَّرُ مِـن نَـوارَ وَقَـد نَـأَت وَتَقَطَّعَـت أَسـبابُها وَرِمامُهـا

فبعد أن تنقَّل الشاعر من لوحة إلى أخرى في معلقته ، يُعرِضُ عن تذكُّر الفلاة وما فيها ويَصير إلى تذكُّر حبيبته (نوار) ، فهو إضراب للانتقال من غرض شعري إلى آخر ، وهذا ما تعارف عليه الشعراء في مُطَوَّلاتِهم قبل نزول القرآن الكريم ، فهم يَنتقلون من موضوع إلى آخر في قصيدتهم الطويلة ، التي تحوي أغراضا متعددة من وصف الديار إلى تذكر الأحبة إلى وصف الرحلة والراحلة وصفاتها إلى وصف الطرد ، ثم يصيرون إلى غرضهم الرئيس وهو المدح دائما ، ولكنهم لا يستعملون حرف الإضرَاب (بل) دائما في الانتقال من غرض إلى آخر، بل لهم طرقهم الخاصة في ذلك ، ويبدو أن أقلَّ تلك الطرق استعمالُ (بل) ، كما ثبت من الإحصاء .

وقد استعملت (بل) أيضاً للانتقال من معنى جملة إلى معنى آخر ، وهذا في الأبيات الباقية التي استعملت فيها ، فقد قال عنترة [3]:

(الكامل)

قُـولا لِقَـيْسٍ وَالرَبيـعِ بِـأَنَّني خَـطُّ المَشيبِ عَلى شَبابي مَا عَلا

بَـلْ لَـوْ صَـدَمتُ بِهمَّـتي جَبَلـي حَـرَّى قَسَـماً وَحَـقِّ أَبـي قُبَـيسَ تَزَلـزَلا

فعنترةُ بعدما ذكر في الجملة الأولى أنه لم يعترضه الشيب ، أضرب إلى معنى ثان هو أنَّ همته لو صدمت الجبال لتزلزلت ، وهو لا يريد إبطال المعنى الأول بل ، يضيف له معنى آخر أعلى منه في الرتبة . ومثله قوله أيضا[4]:

(الطويل)

خَليلَـيَّ مـا أَنسـاكُما بَـل فِـداكُما أَبـي وَأَبوهـا أَيـنَ أَيـنَ المُعَـرَّجُ

وهنا أيضا بعدما يقرر أنه لا ينساهما ، يُضرب إلى معنى آخر ، وهو أنه يَفْدِيهِمَا بأبيه . وهذا معنى آخر فوق ذلك المعنى . ومثل هذا قول لبيد [5]:

(الكامل)

---

١ - شرح ديوان زهير :٤٨ .
٢ - شرح ديوان لبيد : ٣٠١ .
٣ - ديوان عنترة (فوزي عطوي):١٨٥ .
٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي):٨١ .
٥ - شرح ديوان لبيد : ٣١٣ ، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٥٧٣- ٥٧٤ .

تَــــرّاكُ أَمكِنَــــةٍ إِذا لَــــم أَرضَــــها أَو يَعتَلِــقْ بَعــضَ النُفــوسِ حِمامُهــا

بَــل أَنــتِ لا تَــدرينَ كَــم مِــن لَيلَــةٍ طَلــقٍ لَذيــــذٍ لَهوُهــــا وَنِــــدامُها

ينتقل لبيد من وصف حاله ، بالتنقل من أماكن لا يرتضيها ، إلى مُكَالَمَة صاحبته مُخبِراً إيَّاها عن كثير من الليالي الجميلة التي قضاها في حياته ، فهو ينتقل من معنى إلى آخر ، مع بقاء المعنى الأول مطلوبا ، وغيرَ مُسْتَغني عنه ، وكذلك ينتقل لبيد من معنى جملة إلى آخر في قوله[1]:

(الكامـل)

وَالمــــاءُ وَالــــنيرانُ مِــــن آياتِــــهِ فــيهِنَّ مَوعِظَــةٌ لِمَــن لَــم يَجهَــلِ

بَــل كُــلُّ سَــعيكَ باطِــلٌ إِلّــا التُقــى فَــإِذا اِنقَضــى شَــيءٌ كَــأَن لَــم يُفعَــلِ

ففي حين يذكر آيات الله تعالى ، وما يجب على الإنسان من أخذ العبرة منها ، إذا به ينتقل إلى معنى آخر ، مخاطبا المتلقي بأن سعيه كله باطلٌ من غير تقوى الله ، وهو لا يريد إبطال المعنى الأول ، بل يضيف شيئا له ، وتتسق هذه الإضافة مع النفس الشعري المتصاعد عند الشاعر في هذه القصيدة .

وكذلك تَنَقّلَ عنترة من معنى إلى آخر قائلاً [2]:

(الكامـل)

لا تَســـقِني مـــاءَ الحَيـــاةِ بِذِلَّـــةٍ بَــل فَاِســقِني بِــالعِزِّ كَــأسَ الحَنظَــلِ

قرر الشاعر في الشطر الأول معنىً معينا هو أنَّه لا يريد هذه الحياة وإن امتدت إذا كانت مقرونة بالذُلَّ والهوان ؛ فعزَّة نفس الشاعر تمنعه من العيش ذليلا ، وفي عجز البيت ينتقل إلى معنى آخر يتسق مع الأول بل هو امتداد له ، فيطلب أن يُسقى المنون بعزٍّ وكرامةٍ ، وهذا تأكيد للمعنى الذي أورده في صدر البيت وإثبات له . ومثل هذا الاستعمال للحرف قوله في بيت آخر[3]:

(البسيط)

يــا بَــينُ رَوَّعــتَ قَلــبي بِــالفِراقِ وَمــا أَبكــي لِفُرقَــةِ أَصــحابٍ وَلا طَلَــلِ

بَــلْ مِــنْ فِــراقِ الَّــتي فِي جَفنِهــا سَــقَمٌ قَــدْ زادَنــيْ عِلَــلاً مِنــهُ عَلــى عِلَلــي

يرتقي عنترة من معنى أول في عجز البيت الأول إلى معنى ثانٍ في البيت الذي يليه ، وهذا الانتقال لا على إبطال المعنى الأول ، بل على تثبيته وتأكيده من خلال ذكر المعنى الثاني المتسق معه والمبنيّ عليه .

وهذا ما فعله زهير في بيته الآخر الذي استعمل فيه (بل) ، فيقول [4]:

(البسيط)

حَتّـــى إِذا قَبَضَـــت أولى أَظـــافِرِهِ مِنــها وَأَوشَــك بِمــا لَــم تَخشَــهُ يَقَــعُ

حَــثَّ عَلَيهــا بِصَــكٍّ لَــيسَ مُؤتَليــاً بَــل هــو لِأَمثالِهــا مِــن مِثلِــهِ يَــدَعُ

---

١ - شرح ديوان لبيد :٢٧٢.

٢ - ديوان عنترة (فوزي عطوي) : ١١٣.

٣ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١١٦.

٤ - شرح ديوان زهير : ٢٤٤- ٢٤٥ .

فهو يصف صقرا يصيد قطاةً ، فما أن نبتت أظافر الصقر فيها راح يحث عليها بصك جناحيه يضربها بهما لا يألو جهدا في ذلك ، وإذا به يضرب عن هذا المعنى ذاكرا أنَّ أمثاله في هذا الموقف يدعُّون أمثالها .

هذا كل ما عثرنا عليه في دواوين أصحاب المعلقات من استعمالاتِ هذا الحرف ، والمعنى الذي تناولوه فيه هو الإضرَاب للانتقال من معنى إلى آخر ، تارةً من معنى جملةٍ قريبةٍ إلى جملة أخرى تابعةٍ لها ، وتارةً من معنى عامٍّ كان الشاعرُ قد تناوله في أبياتٍ كثيرةٍ مُشكِّلَةً غرضاً من أغراضِ القصيدةِ إلى معنىً آخرَ لاحقٍ لهُ يَتَناوله في أبياتٍ كثيرةٍ أخرى ، وهو بهذا الانتقال يَدخلُ إلى غَرضِه الرئيس في القصيدة . وكانت (بل) في الأبيات كلها قد دخلت على جملة ، ولم نَرَهُم يُدْخِلُونها على المفرد . ونضع جدولا للشعراء نسجل فيه استعمالاتهم لهذا الحرف ، ونسب الاستعمال إلى مجموع أبياتهم :

ومن الطريف أن نرى نسب استعمالات الشعراء فيما بينهم متساوية ، وهذا يدلل على أنَّ المعدل العام لكل الشعراء هو قريب من هذه النسبة ، وهي استعمالان لـ(بل) في كل ألف بيت شعري .

اسم الشاعر	استعمال (بل)	عدد أبياته	النسبة المئوية
عنترة بن شداد	٤	١٧٦٩	%٠,٢٢٦
زهير بن أبي سلمى	٢	٨٩٤	%٠,٢٢٣
لبيد بن ربيعة	٣	١٣٢٢	%٠,٢٢٦

أما في القرآن الكريم فقد تتبعت استعمالات(بل) فوجدتها تدخل على الجمل أيضاً ، ولم أعثر لها على مورد واحدٍ تدخلُ فيه على المفرد ، على أنَّ هنالك بعض الموارد قد يُشتبَه بها أنها داخلة على المفرد لكن حقيقة الحال أنَّها داخلة على جملة ، كقوله تعالى :﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾(البقرة:١٥٤) ، قال الفراء :((لا تقولوا : هُمْ أمواتٌ بَلْ هُمْ أحياءٌ))[١]، ومثلها قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(الأنبياء:٢٦) أي بل هم عباد مكرمون[٢] .

وبذا يتفق الاستعمال القرآني مع ما كان عليه استعمال الحرف عند الشعراء ، مما يجعلني أعتقد أنَّ الاستعمال الفني البلاغي لهذا الحرف يقتصر به على دخوله على الجملة ، أما دخوله على المفرد فيبدو أنَّه من خواص لغة التعامل اليومي ، التي تستعمل الإضرَاب في معناه الحقيقي الصرف ، وهو العدول عن شيء إلى آخر نتيجة سبق اللسان أو الخطأ أو النسيان أو البداء ، وهذه هي المعاني الحقيقية للإضراب[٣] ، ولكن الاستعمال الفني البليغ يبتعد بطبيعته عن الخطأ والنسيان والبداء ، إذ هو استعمال مقصود للغة ، وهذا القصد فيه يجعل إعمال الفكر والتروي في انتقاء الألفاظ سمة ملحوظة في النص الأدبي ، والتروي وإعمال الفكر من شأنه أن يُبعد النص الفني عن الإضرَاب الحقيقي ، ولا يبقى له سوى أن يستعمل الإضرَاب المجازي ، لغرض الإفادة من المعاني التي تصاحبه ، وتوظيف تلك المعاني في خدمة المعنى العام للنص الأدبي .

١ - معاني القرآن : ١\ ٩٣ ، وينظر معه : إعراب القرآن (النحاس) : ١\ ٢٢٣ ، مشكل إعراب القرآن : ١١٤\١.
٢ - ظ : معاني القرآن : ٢\ ٢٠١ ، إعراب القرآن (النحاس) : ٢\ ٣٧٠ ، مشكل إعراب القرآن : ٤٧٨\٢ .
٣ - ظ : الفصل الثاني : ٨٤.

كان الإضراب للانتقال من معنى إلى آخر هو الأكثر استعمالا في القرآن الكريم ، وهذا موافق لما ذكره العلماء ، ونقلته عنهم آنفا[١]، وقد أحصيت منه في القرآن (٧٠) سبعين موردا[٢] لتكون نسبته إلى المجموع العام (٥٥%) ، وهي أكثر من نصف الاستعمالات ، ومن أمثلته :

- قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾(المؤمنون:٧١) ، في الوقت الذي يقرر فيه الحق تعالى أنْ تدبير الأمر في هذا الوجود راجع إلى الخالق الحكيم العليم بمصالح الوجود ، ولا يتبع أهواء قوم دون آخرين ، يضرب عن هذا المعنى لا على نحو الإبطال له ، لا بل على نحو الانتقال إلى معنى آخر مناسب له ومتفق معه ، فيذكر تعالى أنه ذكَّر هؤلاء القوم من خلال رسولهم وبعث إليهم بذكرهم وأنذرهم يوم العقاب ليؤمن من آمن عن بينة ، ويعذب من كفر عن بينة [٣].

- وقد يكون الإضرَاب للانتقال من معنى إلى آخر أعلى منه وأشد في تمكنه ، كما في قوله تبارك : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(الأعراف:١٧٩) ، بيَّنت الآية الكريمة أنَّ المعاندين للحق ، والكافرين به لا يفقهون ما يَسَّرَهُ اللهُ تعالى للدلالة عليه ، ولم يتبين هؤلاء آيات الله المنتشرة في الآفاق وفي أنفسهم ، فهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ، ولا يسمعون بآذانهم ، وهذه النعم التي سخرها الله تعالى لهم لم يفيدوا منها فهم كالأنعام التي لا تعي ما تسمعه وتنظره ، ولا تفقه بقلوبها ما حولها ، إلاَّ بما توجبه عليها غرائزها ، ولما كانت الأنعام مجبولة على ذلك ، والإنسان قد كرَّمه الله تعالى على الخلائق ، بما وهبه له من نعم السمع والنطق والبصر والتفكير ، فإذا جمَّد الإنسان هذه النعم عنادا واستكبارا كان أضل من الأنعام ؛ لأنه يمتلك مقومات الرقي في الوجود ولا يرضى لنفسه إلاَّ الدون ، والانغماس في الرذيلة والكفر[٤] . فهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة بعد أن أضربت عن المعنى الأول ، هو في الحقيقة أعلى من الأول ، وأشد منه في وصف حال أولئك المعاندين الكافرين ، لذا نرى البيان القرآني تدرج في وصفهم من درجة تشبيههم بالأنعام إلى درجة أعلى هي أنهم أضلُّ منها . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(الفرقان:٤٤) .

- وربما كان الإضرَاب للانتقال إلى معنى ثانٍ مؤكد لمعنى الجملة الأولى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(آل عمران:١٨٠) فالمعنى الأول الذي كانت الآية قد قررته هو أن بخلهم بما رزقهم الله تعالى من فضله ليس خيرا لهم ، وأضرب وانتقل الخطاب القرآني إلى معنى آخر ، هو أن بخلهم بما آتاهم الله شرٌ لهم ، وهذا المعنى هو عين الأول فالإضراب إليه جاء بفائدة التوكيد لهذا المعنى .

---

١ - ظ :معاني الحروف : ٩٤ ، وينظر الفصل الثاني صفحة : ٨٣ .
٢ - لقد حددت في المبحث الثاني موارد (بل) التي تفرد بها الاستعمال القرآني ، فالمتبقي من غير تلك كان الإضراب بها للانتقال.
٣ - ظ : مفاتيح الغيب : ٢٣ \ ٢٨٥ .
٤ - ظ : الكشاف : ٢\ ١٣١ ، مفاتيح الغيب : ٢٣ \ ٤٠٨- ٤١٢ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٤ \ ٣٢٤.

هذه المعاني الجزئية التي ذكرت بعضا منها في الإضرَاب الذي هو للانتقال لم أكن أجد من يشير إليها من المفسرين واللغويين ، بل يمكن أن يصل إليها المُتأمل للنص القرآني ، إذا ما أعمل فكره فيه ، ووفقه الله لِتَفهُّم معاني كتابه الكريم . إن هذه المعاني الجزئية هي إضافات للمعنى العام الذي هو الإضرَاب ، فـ(بل) معناه العام الذي لا يفارقه الإضرَاب ، لكننا قد ننظر إلى غاية الإضرَاب فنجدها تختلف من نص إلى آخر ، وقد ننظر إلى سبب الإضرَاب فنجده كذلك مختلفا من آية إلى أخرى ، وقد ننظر إلى حيثيات أخرى فيه فتكون مختلفة أيضاً ، ومع كل اختلاف ينشأ معنى جديد ، وقد تشترك آيات كثيرة في معنى واحد ، لكنها بكل تأكيد ستفترق عن آيات أخرى في المعاني الإضافية للإضراب .

أما سبب قلَّة استعمال هذا الحرف في أشعار أصحاب المعلقات ، وكثرة استعماله في القرآن الكريم حتى بلغت هذه الكثرة عشرين ضعفا لما كانت عليه عند شعراء المعلقات ، فأقول فيه : إن القرآن أُنزل إلى قوم فيهم كثير من المعاندين والمتشككين والمرتابين والمنافقين وأصناف أخرى من الناس ، وكان من الطبيعي أن تتنوع أساليب الجدال والنقاش والحجج لإقناع نفر كبير من هؤلاء الناس ؛ إذ غاية القرآن هداية البشر ، وإفراغ الجهد كاملا في سبيل استنقاذهم ، وكان من طرق الجدل والحجاج والإقناع أن يَذكُرَ الخطابُ القرآني معنى ما ثم يضرب عنه لغايات متعدد بيّنا قسما منها في ما تقدم ، ليقرر بعدها معنى آخر يكون أقوى في الإقناع وألزم بالحجة ، لقد وُجِدَ في النصوص القرآنية من المعاني الفرعية المصاحبة للإضراب ما يدلُّ على إعجاز هذا النص السماوي . أمَّا في الشعر فلم يكن الحجاج والإقناع هدفا مقصودا ، ولا غرضا مطلوبا لتتنوع أساليبه وتكثر موارده ، لذا كان استعمال الإضرَاب استعمالا طبيعيا يسيرا تمثل في الانتقال من معنى إلى آخر ، وخلى من كثير من المعاني التي يمكن أن يوظف لها الإضرَاب ، وقد تبيَّنت تلك المعاني فيما بعد في الاستعمال القرآني .

سادسا :(عَنْ)

(عن) ليست من الحروف القليلة الاستعمال في اللغة ، إذ إنَّ مجموع استعمالاتها في دواوين أصحاب المعلقات (٣٦٤) ثلاثمئة وأربع وستين مرَّة ، فنسبة استعمالات الحرف إلى مجموع أبيات الدواوين (٦,٥%) أي خمسة وستين استعمالا في كل ألف بيت ، وتنوَّعت صورُ استعمالها ، فهي تدخل على الاسم الصريح فهي تدخل على الضمير بأنواعه المختلفة ، ولبيان صور استعمالاتها عند الشعراء وأعدادها ونسبها ، أضع هذا الجدول[1]:

اسم الشاعر	عن	عنه	عنا	عنكم	عنكَ	عنكِ	عنها	عنهم	عني	عنهن	المجموع	نسبته في الديوان
امرؤ القيس	٢٦	٣	١	--	٤	--	٤	--	٢	١	٤١	٥,٨ %
طرفة بن العبد	١٦	٣	١	--	٢	--	٤	--	٤	--	٣٠	٦,٨ %
الحارث بن حلِّزة	٧	٢	٣	--	--	--	--	--	--	---	١٢	٦,٧ %
عمرو بن كلثوم	٨	١	٤	--	--	--	١	٣	٢	--	١٩	٦,٥ %
عنترة بن شداد	٥٨	١١	٨	١	٧	٢	٦	٦	٢٦	--	١٢٥	٧ %
زهير بن أبي سلمى	٤٠	٧	١	--	١	--	١٤	١	٥	--	٦٩	٨ %
لبيد بن ربيعة	٤١	١٠	١	--	٢	--	٤	٢	٨	--	٦٨	٥,١ %

١ - يمكن الإطلاع على هذه الاستعمالات مفصلة بدقة بمراجعة برنامج :(الموسوعة الشعرية- الإصدار الثالث) .

المجموع	١٩٦	٣٧	١٩	١	١٦	٢	٣٣	١٢	٤٧	١	٣٦٤	٦,٥ %

يتضح من بيانات الجدول أن استعمال (عن) مع الضمائر المتصلة كثيرٌ عند الشعراء في دواوينهم ، لكن استعمالها مع الاسم الصريح هو الأكثر، إذ استعملت بنسبةٍ فاقت نصف مجموع الاستعمالات في الدواوين ، ومن الطرافة أن نجد نسبة استعمالها داخلةً على ضمير المفرد الغائب ، مقاربةً جدا لنسبة استعمالها وهي داخلةً على ضمير المفردةِ الغائبةِ ، وتزداد نسبة استعمال (عن) الداخلة على ياء المتكلم في لغة الشعراء عموما ، مما يؤيد مبدأ الاهتمام بالذات الفردية عند العربي الجاهلي واعتزازه بـ(الأنا) ولم يكن هذا عيبا ، فالاعتزاز بالنفس مبدأ محترم ، يجعل صاحبه واثقا بنفسه ومعتدا بها ، شريطة أن لا يطغى على السلوك العام فيصبح عند ذلك عيبا . وكانت هذه السمة واضحةً جدا عند عنترة بن شداد ؛ إذ استعمل (عنّي) بنسبة (٢٠%) أي خُمس استعمالاته لهذا الحرف ، وهذه النتيجة مؤيدة لما توسمته من تحديدٍ لملامح شخصية عنترة من قبل ، بما فيها من ثقة بالنفس واعتداد بها ، مستفيدا ذلك من استعماله لحروف التوكيد وحرف الشك في أشعاره .

في القرآن الكريم استعملت (عن) بنسبة تزيد على الاستعمال الشعري عند أصحاب المعلقات بمقدار واحد بالمئة تقريبا ، فبلغ مجموع استعمالاتها القرآنية (٤٦٥) مرّةً[١]، وكانت نسبة استعمالها إلى مجموع آيات القرآن الكريم (٧,٣%) سبعة استعمالات في كل مئة آية أو ثلاثة وسبعين استعمالا في كل ألف آية من القرآن المجيد . وتنوعت صور استعمالها من حيث دخولها على الضمائر المتصلة ، كما كانت عند الشعراء ، وسيوضح هذا الجدول استعمالات القرآن الكريم لـ(عن) مفردةً وداخلةً على الضمائر ، وموازنتها بالاستعمال الشعري :

	عن	عنا	عنكَ	عنكِ	عنكم	عنه	عنها	عنهم	عنهما	عني	عنهن	المجموع
مرات الاستعمال في القرآن الكريم	٢٢٨	١١	٨	--	٢٤	٣٧	٢٤	٧٥	٤	٦	--	٤٦٥
مرات الاستعمال في الدواوين	١٩٦	١٩	١٦	٢	١	٣٧	٣٣	١٢	--	٤٧	١	٣٦٤

في الاستعمال القرآني بقي استعمال (عن) مع الاسم الصريح أكثر من استعمالها وهي داخلة على الضمير ، أما أكثر الضمائر مباشرة لـ(عن) فكان ضمير جماعة الغائبين ، إذ بلغت نسبة استعمال (عنهم) (١٦%) من مجموع الاستعمال القرآني ، في حين كانت نسبتها في الاستعمال الشعري عند أصحاب المعلقات (٣%) فقط فالاستعمال القرآني زاد على الاستعمال الشعري بأكثر من خمسة أضعاف . وإذا أردنا الدقّة أكثر وجمعنا نسب استعمالات (عن) الداخلة على ضمائر الجمع ، وهي(عنّا ، وعنكم ، وعنهم) فسترتفع النسبة لتصل إلى (٢٣%) أي قرابة رُبع مجموع الاستعمالات القرآنية لهذا الحرف ، في حين كان مجموع نسب (عنّا ، وعنكم، وعنهم ، وعنهن) في الاستعمال الشعري لأصحاب المعلقات (٩%) .

---

١ - يمكن الإطلاع على هذه الاستعمالات مفصلة من خلال برنامج (نور جامع الأحاديث) ، أو الإطلاع عليها مجملة في : معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم: ٢٧١-٢٧٨، علما أنّه سقط من إحصائهم موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُّعْرِضُونَ﴾ (٣\٢٣)، وحصل اشتباه في ثلاثة مواضع فرقمت خطأ ، قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ رُقِّمَ(٢١٨\٢) والصحيح(٢١٩\٢) ، و﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ رُقِّمَ :(٢\٥٣) والصحيح :(٣\٥٣) و﴿هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ رُقِّم (٢٨\٦٩) والصحيح :(٢٩\٦٩) .

أما مجموع نسب استعمال القرآن لـ(عن) مع ضمير المفرد (عنه ، وعنك ، وعنها، وعنِّي) فيصل إلى (١٦%) من مجموع الاستعمالات ، في حين وصل مجموع نسب هذه الأربعة في الاستعمال الشعري (٣٧%) ، ومنه يتبيَّن أن الاستعمال القرآني لـ(عن) مع ضمائر الجمع يزيد على الاستعمال الشعري لها بضعفين ونصف ، ويقل في استعمالها مع ضمائر المفرد بالنسبة نفسها تقريبا .

إن الاستعمال القرآني لهذا الحرف – ومن خلال دخوله على الضمائر – وضع لنا معلما واضحا على اهتمام الخطاب القرآني بالمجموع أكثر من اهتمامه بالفرد ، وبعكسه كان الخطاب الشعري ، الذي بَيَّنَت الأرقامُ بصدقٍ أنه يسعى دائما إلى تعزيز الفردية والذاتية . ويؤكد هذا الاستعمال النظرة الشمولية لبني البشر في الخطاب القرآني ، فالقران المُنَزَّل إلى الكل لابدَّ أن يهتم بخطاب الكل ، أما لماذا كانت نسبة ضمير جماعة الغائبين (عنهم) في الخطاب القرآني تزيد على ضعف استعمال هذا الحرف مع ضمير جماعة الحاضرين (عنَّا وعنكم) ؟ فأعتقد: إن الخطاب القرآني في كثير من مواضعه كان يُوَجَّه إلى النبي9 صاحب المقام الأول في البشرية ، والمستحق بكرامته أن يُوَجَّهَ الخطابُ الإلهي المباشر له ، وكان هذا الخطاب يُعْنَى بشؤون البشر كلهم ، وفيهم كثيرٌ من العاصين والمذنبين والكافرين ، وهؤلاء ليسوا في مقام أن يحضروا في الخطاب الإلهي المباشر بين المُرسِل والرَّسُول ، فناسب المقام أن يُكنى عنهم بضمير الغيبة ، مراعاةً لأدب الخطاب في توجيه الرسالة الإلهية بوساطة النبي9 إلى البشرية جمعاء .

لقد تبيَّن من الفصل الثاني : إن المعنى المركزي لـ(عن) هو المجاوزة والبعد وكان هذا المعنى هو السائد في استعمالات الشعراء له في دواوينهم ، وقد ذكرت بعض الشواهد هنالك وإن كان المقام لا يستوجب الاستشهاد له لكثرته ووضوحه ، أما المعاني الهامشية التي ذكرت في الاستعمال القرآني لهذا الحرف ، فقد تمكنت من رصد نماذج مماثلة لتلك المعاني في أشعار أصحاب المعلقات ، وهذا يعني أن أكثر تلك المعاني كانت مستعملة ، وقد نزل القرآن على سنن كلام العرب ، واستعمالاتهم لمفرداته ، لكن فضل الكشف عن تلك المعاني لا يغادر القرآن والدراسات القرآنية بحال من الأحوال ، ولا يمنع هذا من أن يبتدع القرآن معنى هنا أو هنالك ، ويستعمله الناس حتى كأنه مألوفٌ عندهم ، غير نافر عن طباع لغتهم .

من المعاني الهامشية التي ذكرت في الفصل السابق لـ(عن) أنها تأتي <u>بمعنى البدل</u> ، واستشهدوا له بقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً** ﴾(البقرة: من الآية٤٨) ، ويظهر أن هذا المعنى كان مستعمل في مثل قول امرئ القيس[1]:

(الطويل)

فَيا رُبَّ مَكروبٍ كَرَرتُ وَراءَهُ   وَطاعَنتُ عَنهُ الخَيلَ حَتّى تَنَفَّسا

يقول الشاعر لئن عاد إليَّ دائي القديم وأضرَّ بي ، لقد أخذت من الدنيا نصيبي ، وأخذ يذكر بعض ما يفخر به منه أنَّه كثيرا ما كرَّ في إثر مكروب وطاعن بدله الخيل ودفع عنه أعداءه ، فـ(عن) هنا فيها زيادة على معناها المركزي هي تحملها معنى (البدلية) ، فهو أبعد الخيل ، وهذا الإبعاد لم يأت من المكروب ، بل من امرئ القيس . ومثله قوله في ذمِّ (البراجم ويربوع) أنهم لم يقاتلوا جارهم ، ولم ينصروه [2]:

١ - ديوان امرئ القيس :١٠٦، وينظر معه شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٢٦٦\١.
٢ - ديوان امرئ القيس : ١٣١.

(الطويل)

فَمـــا قـــاتَلوا عَـــن رَبِّهِـــم وَرَبيـــبِهِم　　وَلا آذَنـــوا جـــاراً فَـــيَظعَنَ ســـالِما

وقد يحمل على هذا المعنى أيضاً قول كثير منهم (أبلغ عني) وما ماثلها[1]، فإبلاغ الرسائل يكون بدلا منه ، وإنَّ استعمال (عن) في ذلك ليعطي دلالة البعد بينه وبين من يريد إبلاغه ، من ذلك قول طرفة [2]:

(الطويل)

أَلا أَبلِغـــا عَبـــدَ الضَـــلالِ رِســـالَةً　　وَقَـــد يُبلِـــغُ الأَنبـــاءَ عَنـــكَ رَســـولُ

من المعاني الهامشية الأخرى التي أتت بها (عن) في الاستعمال القرآني معنى التعليل ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾(هود: من الآية٥٣) ، وكان عنترة قد حمَّل (عن) معنى التعليل ، فضلا عن معناها المركزي في قوله[3]:

(الكامل)

فَزَجَرتُهـــا عَـــن نِســـوَةٍ مِـــن عـــامِرٍ　　أَفخـــــاذُهُنَّ كَـــــأَنَّهُنَّ الخَـــــروَعُ

وإنما زجرها عنترة لينهاها عن أولئك النسوة ، فالنسوة سبب الزجر ، واستعمل عنترة (عن) ليعطي معنى البعد عنهن ، فضلا عن كونهن سبب الزجر .

وقد تَحمِلُ (عن) معنى الظرفية ، وقد استدل النحاة عليه ببيت الأعشى الكبير كما نقلته عنهم في الفصل الثاني – وفيه نظر – وقد وجدت بيتا للبيد يصلح للاستشهاد لهذا المعنى أفضل من بيت الأعشى وذلك قوله[4]:

(الطويل)

فَلَـــم أَرَ يَومـــاً كـــانَ أَكثَـــرَ باكِيـــاً　　وَحَســـناءَ قامَـــت عَـــن طِـــرافٍ مُجَـــوَّرِ

الطراف هو البيت المصنوع من الأُدم ، ومجوَّر أي مقوَّض وساقط ، فيصف لبيد تلك الحسناء وقد قامت في هذا البيت المقوَّض باكية ونادبة ، فـ(قامت عنه) فيه معنى المجاوزة والبعد ، وإن كان معنى الظرفية ملموحا أيضاً ، إذ البيت محل القيام ابتداءً .

ولم يذكر النحاة لمثل هذا المعنى شاهدا من القرآن ، لكن عند تتبعي لاستعمالات القرآن الكريم لهذا الحرف وجدت ثلاثة مواضع قد يصح أن يقال فيها أنها تحوي معنى الظرفية مع معنى(عن) المركزي ، أولها قوله تعالى :﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾(النساء من الآية:١٠٧) ، الذي أفهمه من سياق الآية أن معنى (عن) هنا يحتمل فضلا عن معناه المركزي الذي هو المجاوزة والبعد معنى أو معاني هامشية أخرى ، فهو يحتمل معنى الظرفية ؛ لأن الجدال كان في هؤلاء الذين يختانون أنفسهم أي يخونونها ، وقد قال تعالى في موضع آخر :﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾(المجادلة: من الآية:١) ، فعدَّى الفعل بـ(في) في حين عُدِّيَ هنا بـ(عن) ،

---

١ - ظ : ديوان طرفة بن العبد: ١١٣، ديوان طرفة(درية الخطيب):١٢٤، الحارث بن حلزة : ١١، عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره:١٢١، ١٣٣ ، ديوان عنترة(فوزي عطوي): ٣١٠ ، شرح ديوان زهير :١٨، ٣٠٥، .

٢ - ديوان طرفة بن العبد : ٧٧ ، ديوان طرفة(درية الخطيب):٩٠ .

٣ - ديوان عنترة (مولوي) : ٢٦٤.

٤ - شرح ديوان لبيد :٥١ .

وتحتمل (عن) هنا أيضاً معنى البدليَّة ، فالنبي9 كان يجادل بدلا عنهم رأفة بهم ، وكان الجدال فيهم ، وقد استعملت الآية هنا (عن) ؛ لأنها تريد أن تبتعد بذكر النبي المقدَّس9 من أن يقترن بهؤلاء الخائنين أنفسهم والظالمين لها ، ومكانة النبي مع ما فيها من الرحمة تنأى عن أن تقرن بذكر هؤلاء ، وهذا هو الخطاب القرآني البليغ المهذب ، فالنبي يجادل فيهم وبدلا عنهم مبتعدا ومتجاوزا ذواتهم لما فيها من نقص ، في حين في آية المجادلة استعملت (في) ، ولم يكن هنالك ما يدعو لإبدالها بغيرها ، بل كانت تلك في محلها أبلغ . هذا الفهم القائم على الإفادة من نظرية المعنى الحرفي المركزي والمعاني الهامشية المرافقة له تجعل النص أكثر تعبيرا ، وأكثر إيصالا للمعاني منه إذا قلنا بالتناوب ، أو قلنا بالتضمين ، إذ سيفقدنا الأول جزاءً من المعنى ويجمِّد الثاني المعنى على نحو معيَّن ، علما أن المفسرين لم يشيروا إلى هذه المعاني[1] . ولا أريد هنا أن أُحمِّل النص القرآني معنى قد لا يتفق معي فيه عالم آخر ، بل أقول إن من المفسرين من فهم من النص معنى الظرفية ، بناءا على ما توافر أمامه من قرائن ، وفهمه هذا المعنى يمكن تخريجه بصورة أمثل وأكثر كمالا إذا ما فسر فهم المفسر على وفق نظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية للحروف .

أما الآية الثانية التي يصحُّ حملها على مثل هذا المعنى قوله ﷻ : ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾(الذاريات من الآية:٤٤) ، قال الرازي:((عتا يستعمل بـ(على) قال تعالى :﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيّاً ﴾(مريم: ٦٩) ، وههنا استُعمِلَ مع كلمة (عن) فنقول : فيه معنى الاستعلاء فحيث قال تعالى:{عن أمرهم ربهم} كان كقوله :﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾(الأعراف:٢٠٦) ، وحيث قال (على) كان كقول القائل : فلان يتكبر علينا))[2]، استشعر الرازي هنا معنى الاستعلاء ؛ لرسوخ تعدي الفعل (عتا) بـ(على) في ذهنه ، في حين أنَّ المعنى فيه فرق واضح إذا ما عدِّي بـ(عن) أو عدِّي بـ(على) ، وقد يكون في هذه الآية الكريمة معنى الظرفية مع المعنى المركزي للحرف فثمود قد عتوا وتجاوزوا الحد في تخطيهم حدود ما أمرهم الله تعالى به ، فهم قد عتوا عن الأمر، والأمر هو نفسه محل العتو وظرفه . ومثلها قوله تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾(الطلاق من الآية:٨) . أقول : إن التبصُّر بآيات القرآن الكريم قد توصل إلى فهم معان أخرى لا تبدو ظاهرة بل يتحسسها المتأمل للنص القرآني ، وهذه مزيَّة مما تميز بها هذا النص المعجز .

أما معنى (من) فقد أضيف إلى معنى (عن) المركزي في كثير من أبيات أصحاب المعلقات ، منها قول امرئ القيس [3]:

(الطويل)

كَـأَنَّ فُصُـوصَ الطَـوقِ لَمَّـا تَنَـاثَرَت ... ضِـيَاءُ مَصـابيحٍ تَطَـايَرنَ عَـن شـعَل

يصف فصوص الطوق بأنها ضياءٌ متطايرٌ من شُعَل المصابيح ، لكنه استعمل (عن) ليدلَّ على ابتعاد كتل الضوء عن مصدرها ، وتجاوزها المصابيح ليكون نورها أكثر ظهورا ، وهذا هو معنى الابتعاد والمجاوزة ، وهو المعنى المركزي لـ(عن) ، وحمل معه معنى (من) الذي هو ابتداء الغاية ، ليلمح إلى ابتداء التطاير ومصدره ، ومنه قول طرفة[4]:

---

١ - ظ : الكشاف :٥٦٢\١ ، مفاتيح الغيب : ٢١٣\١١ .
٢ - مفاتيح الغيب : ١٨٥\٢٨، وينظر معه : الكشاف:١٩\٤ .
٣ - ديوان امرئ القيس :٤٦٨ .
٤ - ديوان طرفة بن العبد : ٦٠ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٧٤ .

(الرمـل)

وَرِثــــوا السُـــــؤدُدَ عَــــن آبــــائِهم　　ثُــمَّ ســـادوا سُــؤدُداً غَــيرَ زَمِــر

(عن) هنا تحتمل فضلا عن معناها المركزي معنى(من) ؛ لأنهم إنما ورثوا السؤدد من آبائهم فتجاوز الآباء إلى الأبناء ، ثم إن الأبناء سادوا سيادة غير قليلة ، زيادة عمَّا ورثوه من آبائهم ، لذا استعمل الشاعر (عن) ليفيد من المعنى المركزي مع المعنى الهامشي الذي أعان على فهمه السياق . ومثله بيت لعمرو بن كلثوم[١] ، وعند شعراء المعلقات أبيات غير قليلة يُحمِّلُونَ فيها (عن) معنى (من) مع معناها المركزي[٢] .

وكذالك قد يُحمِّل بعض الشعراء (عن) معنى (الباء) كقول عمرو[٣]:

(الوافر)

مَلَأنــا البَــرَّ حَتّــى ضــاقَ عَنّــا　　وَنَحــنُ البَحــرُ نَمــلأُهُ سَــفينا

لمَّا كثر عددهم حتى ملؤوا البر فضاق بهم ، واستعمل (عن) ليدلَّ على أنهم تجاوزوه كثرة وعددا ، وقال مثله عنترة يصف جيش الفرس وكثرتها وقد ضاقت بها البيداء [٤]:

(الكامل)

وَلَقَـد لَقيـتُ الفُـرسَ يـا اِبنَـةَ مالِـكٍ　　وَجُيوشُـها قَـد ضـاقَ عَنـها البيـدُ

ومن استعمال هذا المعنى قول طرفة [٥]:

(الطويل)

وَتَبسِــمُ عَــن أَلمــى كَــأَنَّ مُنَــوِّراً　　تَخَلَّـلَ حُـرَّ الرَمـلِ دِعـصٌ لَـهُ نَـدي

يصف فتاةً تبسم بثغر ألمى اللِّثتَين ، ووصف اللثاتَ بأنها سمرٌ يعني أنَّ بياض الثغر يكون في أشده ، والمنوَّر هو زهرة الأقحوان وقد ظهر نورها ، فالتبسم والضحك يكون بالثغر ، وقد استعمل الشاعر (عن) بدل (الباء) ؛ لأنه أراد أن يجمع مع معنى البعد والمجاوزة معنى الباء .

هذه هي جملة المعاني الهامشية لـ(عن) التي تنبَّه لاستعمالها القرآني العلماءُ ، وقد استطعت أن أرصد لها نماذجَ مماثلة تُحمَلُ عليها من أشعار أصحاب المعلقات ، وهذا يعني أن هذا الحرف كان يتحلَّى بمرونة عالية ، وقابليَّةٍ كبيرةٍ على تَحَمُّلِ معانٍ إضافيةٍ مع معناه المركزي ، وتأديتها من خلال النصوص الأدبية ، مما يجعل النص متحركا في معناه يتقلب للرائي ، كلما عاود النظر إليه من مكان ما ظهر له بلون جديد .

سابعا :(فِي)

١ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره :١٤٠.
٢ - ظ: ديوان الحارث بن حلِّزة: ١٠، ديوان عنترة(فوزي عطوي): ١٦٠، ٤٦، شرح ديوان زهير:٢٥٤، شرح ديوان لبيد:٧٠ .
٣ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١٤١.
٤ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٤٢.
٥ - ديوان طرفة بن العبد:٨ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٢٦، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:١٤٣ .

جاءت (في) باستعمالات مختلفة وقد دخلت على أنواع الضمائر في الشعر والقران ، ولتعرِّفِ استعمالاتها في الموضعين ، ونسبها نضع هذا الجدول :

	في	لَفي	فيمَ	فيما	فيكم	فينا	فيهن	فيه	فيها	فيهم	فيهما	فيكِ	فيكَ	المجموع	نسبته المئوية
في القرآن الكريم	١٢٢٢	٢٩	٢	٢٥	١٣	٥	٩	١٢٨	٢٤٤	١٦	٨	--	--	١٧٠١	٢٧%
في دواوين الشعراء	٨٧٠	--	٢	٧	٢	١٧	٦	٥٤	٨٠	٢٥	٤	١٠	١	١٠٧٨	١٩%

كان استعمال هذا الحرف كثيرا في القرآن والشعر ، وقد بلغ مجموع استعمالات الشعراء لهذا الحرف (١٠٧٨) ألفا وثمانية وسبعين استعمالا [١]، لتكون نسبته إلى مجموع أبيات الشعراء : (١٩%) أي أننا نجد استعمالين لهذا الحرف في كل عشرة أبيات ، وهي نسبة مرتفعة بين الحروف كلها ، وجاء القرآن الكريم ليؤكد ارتفاع نسبة استعمال هذا الحرف في اللغة العربية عموما ، إذ زاد في استعماله لهذا الحرف حتى وصل به إلى (١٧٠١) ألف وسبعمئة واستعمال واحدٍ[٢] ، مما جعل نسبة هذا الحرف إلى مجموع آيات القرآن تصل (٢٧) بارتفاع (٨%) عمَّا كان عليه عند الشعراء .

دخول (في) على ضمير المفردة الغائبة شكَّلَ أعلى نسبة في الاستعمالين القرآني والشعري من بين استعمالاتها داخلةً على الضمائر بأنواعها المختلفة ، وكانت نسبته إلى مجموع الاستعمال الشعري (٧%) وارتفعت هذه النسبة بنزول القرآن لتصل فيه إلى (١٤%) من مجموع استعمالات (في) القرآنية ، وكان هذا الضمير في الشعر غالبا ما يشير إلى مفاهيم وأسماء معينة مثل(الحبيبة ، الصحراء ، الناقة ، الحرب ، الخمرة ، الدمنة) وما ماثلها ، أما في القرآن الكريم فقد تغيرت إشارة هذا الضمير وتحولت إلى مفاهيم إسلامية وإنسانية مثل : (الجنة ، الأرض ، الأنعام ، السماء ، رحمة الله ، المرأة ، الآخرة ، الساعة ، النار) ، هذا التحول تحول طبيعي ، فالقران كتاب سماوي منزل لهداية البشر ، وإذا كان الضمير يشير في الاستعمال الشعري إلى الصحراء أو إلى صحراء معينة فهو في القرآن يشير إلى الأرض ، وإذا كان هناك يشير إلى الحبيبة ، فهو في القرآن يشير إلى المرأة ، وكذا كان هناك يشير إلى الناقة ، وهنا أصبح يعود على الأنعام ، وهذا كلُّه يؤكد النظرة الشمولية للخطاب القرآني ، وهو تحول من الجزئية في تناول مفردات الحياة في الاستعمال الشعري إلى الكلية في البيان القرآني . وقد يكون هذا من أسباب عدم ورود (في) داخلة على ضمير المخاطبة الحاضرة أو المخاطب الحاضر ، فالقران المنزل من الله تعالى ما كان ليخاطب امرأة حاضرة بعينها أو رجلا بعينه من عموم العباد ؛ لأنه كتاب للكل فهو يراعي خطاب الكل . في حين ورد خطاب المؤنثة الحاضرة عشر مرات كانت تسع منهن عند عنترة الذي كان يعاني البعد والفراق ، ويجد في خطاب المؤنثة الحاضرة ما يسلي همه .

---

١ - يمكن متابعة هذه المواضع مفصَّلة ودقيقة من خلال برنامج الموسوعة الشعرية .

٢ - للإطلاع على هذه المواضع بشكل مفصَّل ودقيق جدا ينظر برنامج (نور جامع الأحاديث) وللإطلاع الإجمالي ينظر: معجم الأدوات والضمائر في القران الكريم: ٣٣١ – ٣٥٨، علما أنه سقطت من إحصائه مواضع كثيرة هي:(١٣٧\٢، ٢٧٥)،(١٥١\٧، ١٦٣) ، (٧٦\١٢)، (٢٩\١٩)، (٢٤\٤٦) ، واشتبه في تسمية مواضع هي :(١٤٣\٢أعطاه رقم ١٤٢\٢)،(١٩١\٢أعطاه رقم١٩٢\٢)،(٢\١٢٤رقمه خطأ : ٢\١٢٣)،(٢٢\٥٠كتبه خطأ ٢٣\٥٠)،(٣٧\٦٨و ٣٨\٦٨ كتبها خطأ ٢٧\٨٦و ٢٨\٦٨)، وفي صفحة : ٣٤٩ اشتبه في الآيات الراجعة إلى سورة الأحزاب فأعطاها رقم (٣٢) ورقم السورة الصحيح (٣٣).

ودخلت (في) على اسم الاستفهام فأصبحت (فيم) مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(النساء من الآية: ٩٧) ، قال النحاس :((الأصل (فيما؟) حذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر؛ لأن قبلها حرف خفض ، والوقف عند أهل العربية (فيمه؟)؛ لئلا تحذف الألف والحركة ، ولأن فيها حرف خفض .))[١]، الغرض المجازي المستعمل فيه الاستفهام هنا هو التوبيخ على أنهم لم يكونوا في شيء من الدين ، حين قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، وجاء عذرهم في ذلك بأن(قالوا: كنا مستضعفين) اعتذاراً مما وبخوا عليه واعتلالاً بالاستضعاف ، فبكتتهم الملائكة بقوله: {ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ، ومن الهجرة إلى رسول الله[٢] ، وكذا قوله ﷻ : ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾(النازعات:٤٣)، ولكن الاستفهام هنا على التعجب من كثرة ذكر النبي9 لها ((والمعنى أنهم يسألونك عنها ، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها.)) [٣].

وقد جاء مثل هذا الاستعمال عند شعراء المعلقات مرتين أيضاً ، مرَّة في قول زهير[٤]:
(المنسرح)

فـــيمَ لَحَـــت إنَّ لومَهـــا ذُعُـــرُ ... أَحَميـــتِ لومـــاً كَأَنَّـــهُ الإِبَـــرُ

يعجب زهير من ملامة زوجه (أمُّ كعب) وعذلها له في أي شيء كان ولماذا؟ فالغرض من الاستفهام هنا التعجب .

وأخرى في قول لبيد كان الاستفهام حقيقيا ، إذ جاء حكاية عن لسان عاذلته قال[٥]:
(الطويل)

فَـإِن تَسـأَلينا فـيمَ نَحـنُ فَإِنَّنـا ... عَصـافيرُ مِـن هَـذا الأَنـامِ المُسَـحَّرِ

وكذالك دخلت (في) على (ما) الموصولة في القرآن في (٢٥) خمسة وعشرين موضعا[٦] منها قوله تعالى : ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾(البقرة من الآية : ٢١٣) ، أي في الذي اختلفوا فيه . ومثل هذا الاستعمال جاء في الشعر (٧) سبع مرات[٧] ، منها قول طرفة[٨]:
(الكامل)

كُـلُّ امـرِئٍ فيمـا أَلَـمَّ بِـهِ ... يَومـاً يَـبينُ مِـنَ الغِنـى فَقُـرُه

---

١ - إعراب القرآن : ٤٤٨\١ وينظر معه : التبيان في إعراب القرآن : ١٩٢\١.
٢ - التبيان: ٣٠٣\٣ ، الكشاف: ٥٥٦\١ ، جوامع الجامع : ٤٣٣\١، مفاتيح الغيب : ١٩٥\١١.
٣ - مفاتيح الغيب :٣١\ ٥٠ .
٤ - شرح ديوان زهير : ٣١٣ .
٥ - شرح ديوان لبيد :٥٦ .
٦ - البقرة :١١٣، ٢٢٩،٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٥، آل عمران :٥٥، ٦٦، النساء:٢٤، ٦٥، المائدة: ٩٣، الأعراف:١٩٠، الأنفال: ٦٨،يونس:١٩، ٩٣، النحل:١٢٤، الحج: ٦٩، المؤمنون :١٠٠، النور:١٤، القصص:٧٧، السجدة: ٢٥،الأحزاب:٥، ٣٨، الجاثية: ١٧، الأحقاف: ٢٦ .
٧ - ظ: ديوان طرفة بن العبد:١٢٥، ديوان طرفة(درية الخطيب): ١٣٥، شرح ديوان زهير:٢٨٠، ديوان عنترة (فوزي عطوي):٨٥، شرح ديوان لبيد:٢، ٦،٧، ١٥٦ .
٨ - ديوان طرفة بن العبد : ١٢٥ .

أما المعاني الهامشية التي استعملت مع (في) فقد تعددت حتى وصلت إلى عشرة معان ، وقد تحدثت عنها آنفا ، وكانت أغلب الشواهد المستعملة لإثبات هذه المعاني شواهد قرآنية ، ولا يعني هذا أن تلك المعاني لم تكن معروفة كلها عند الشعراء ، فقد استشهدوا مثلا لمعنى المصاحبة ببيت لامرئ القيس المذكور آنفا ، وهو قوله[1]:

(الطويل)

أَلا عِـم صَـباحاً أَيُّهـا الطَلَـلُ البـالي   وَهَـل يَعِمَـن مَـن كـانَ فِي العُصُـرِ الخـالي

وَهَـل يَعِمَـن مَـن كـانَ أَحـدَثُ عَهـدِهِ   ثَلاثيـنَ شَـهراً فِي ثَلاثَـةِ أَحـوالِ

لكني لا أراه كذالك كما ذكرت آنفا ، ولو استشهدوا بهذا البيت للحارث لكان أنسب للمعنى ، إذ يقول [2]:

(الخفيف)

وَاِعلَمـوا أَنَّنـا وَإِيّـاكُم فِي   مـا اِشـتَرَطنا يَـومَ اِختَلَفنـا سَـواءُ

يحمل (في) هنا مع دلالته المركزية معنى المصاحبة الهامشي ، ودلالته عليه بيِّنة ، وكذا يحمل على معنى المصاحبة قول زهير[3]:

(المتقارب)

إِذا أَدلَجـوا لِحِـوالِ الغِـوا (م)   رِ لَـم تُلـفِ فِي القَـومِ نِكسـاً ضَـئِيلا

يشير الشاعر إلى أن القوم إذا ساروا من أوَّل الليل في غارة لهم لم تجد مصاحبا للقوم نكسا أو ضئيلا ، ولو استعمل الشاعر (مع) لفوَّت جزءا من المعنى وهو الظرفية التي جاءت بها (في) ومعها معنى المصاحبة . مثل هذه الاستعمالات دليل على معرفة شعراء المعلقات به .

ومن المعاني الهامشية لـ(في) معنى التعليل والسببية ومثاله من أشعارهم قول طرفة [4]:

(الرمل)

نَحـنُ فِي المَشـتاةِ نَـدعو الجَفَلـى   لا تَـرى الآدِبَ فينـا يَنتَقِـر

يفخر الشاعر بأنهم وقت الشتاء والبرد وبسببه يدعون الجَفْلَى أي الدعوة العامة ، وآدبهم حينما يدعو إلى طعامه لا ينتقر ، أي لا يخص أفرادا بعينهم في دعوته ، فالمشتاة هي الظرف وهي السبب في الدعوة . إذ في الشتاء يحل القحط بالناس وقسم منهم تشتد به الحاجة ، لكن قومه لا يضر بهم الشتاء ، بل يدعون الدعوة العامة ، بسبب ما يصيب بعض الناس من القحط والجوع . نعم معنى الظرفية هنا أكثر بروزا وظهورا من المعنى الهامشي ، حتى يكاد يغلب على معنى البيت ، ومع هذا تبقى للسببية مساحة في معنى البيت ؛ إذ القحط والمشتاة سبب الدعوة للطعام .

أما معنى الاستعلاء فقد ذكروا له بيتا لعنترة يدلُّ عليه[5]، لكن يبقى الاستعمال القرآني له خصوصيته وتفرُّده ، فقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾(طه من الآية:٧١)، هذه الصورة من خواص الاستعمال القرآني التي لم يسبق إليها ، ولا يعني استعمال الشعراء (في) بمعنى هامشي

١ - ديوان امرئ القيس : ٢٧ ، وينظر الفصل الثاني : ٩٦.
٢ - ديوان الحارث بن حلزة: ١٣ .
٣ - شرح ديوان زهير : ١٩٦ .
٤ - ديوان طرفة بن العبد : ٦٠ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٧٤ .
٥ - ديوان عنترة بن شداد(مولوي) :٢١٢ ، أشعار عنترة العبسي : ٢٩ ، وينظر : الفصل الثاني : ٩٩.

هو الاستعلاء أنهم عرفوا مثل هذا النظم القرآني البليغ ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن استعمال (في) مع مادة (صلب) وتحولاتها (يصلب، مصلوب، أصلب، صلب) استعمال قراني لم يسبق إليه ، فقد تقصيت استعمال الشعراء الجاهليين زيادة على دواوين أصحاب المعلقات فلم أجد من استعمل مثل هذا الاستعمال .

وكذا جاءت (في) تحمل مع معناها المركزي معنى (إلى) في قول طرفة [1]:

(الرمل)

ذُلُــــقٌ في غــــــارَةٍ مَســــــفوحَةٍ   وَلَـدى البَــأسِ حُمــاةٌ مــا نُفُــر

ذُلقٌ في غارةٍ مسفوحةٍ ، الذلق : المسرع ، أي مسرعون إلى غارةٍ يكثرَ القتلُ فيها ، هذا إذا كان الشاعر يصور حالهم قبل بدء الغارة ، أي في أثناء المسير إليها ، أما إذا كانت الغارة قد بدأت ، فيكون معنى (في) المركزي هو الأظهر، والأكثر بروزا من المعنى الهامشي ، وتسمح نظرية المعنى المركزي والمعاني الهامشية بتصارع المعنيين في ساحة النص الأدبي وتزاحمهما ، وأن يكون أحدهما أكثر وضوحا من الآخر . وهم لا يهابون ذلك لشجاعتهم وبسالتهم ، ولو استعمل الشاعر (إلى) مكان (في) كما تقول نظرية التناوب لكان تاركا بعض المعنى الذي أحرزه عندما استعمل (في) ، فهنا أحرز معنى الظرفية المركزي ؛ لأنَّ الغارَةَ هي مَحلُّ الإسراع ، واليها يكون الإسراع ، فقد اجتمع المعنيان في عبارة لطيفة ، وبهذا التفسير يكون المعنى متحركا لا جامدا ولا مُقتطعا .

هذه الاستعمالات الشعرية وعشرات غيرها تدلل على أن الحرف كان يستعمل في معانيه الهامشية ، لكن فضل الكشف عن تلك المعاني يعود إلى القرآن الكريم التي تفتقت بين يدي دارسيه معاني الحروف .

وأما استعمالات الشعراء لـ(في) ونسبها فيوضحها هذا الجدول:

	في	فيمَ	فيما	فيكم	فينا	فيهن	فيه	فيها	فيهم	فيهما	فيكِ	فيكَ	المجموع	نسبته المئوية
امرؤ القيس	١٠٠	--	--	--	--	--	١٣	٨	١	١	١	--	١٢٤	%١٧
طرفة بن العبد	٦٤	--	١	٢	٤	--	٤	٤	--	٢	--	--	٨١	%١٨
الحارث بن حلزة	١٩	--	--	--	١	--	٥	٦	--	--	--	--	٣١	%١٧
عمرو بن كلثوم	٢٧	--	--	--	٣	--		٦	٢	--	--	--	٣٨	%١٣
عنترة بن شداد	٣٦٦	--	١	--	٣	١	١٨	٢٧	١٠	--	٩	١	٤٣٦	%٢٤
زهير بن أبي سلمى	١٢٥	١	١	--	١	١	٨	١٦	٥	١	--	--	١٥٩	%١٧
لبيد بن ربيعة	١٦٩	١	٤	--	٥	٤	٦	١٣	٧	--	--	--	٢٠٩	%١٥
المجموع	٨٧٠	٢	٧	٢	١٧	٦	٥٤	٨٠	٢٥	٤	١٠	١	١٠٧٨	%١٩

كان عنترة أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف ، وكان ضمير المفردة الغائبة أكثر الضمائر استعمالا مع هذا الحرف ، وقد قلت قبل قليل عن هذا الضمير إنه يعود غالبا على مفاهيم أو أسماء جاهلية مثل الصحراء أو بعض مناطقها الخاصة ، أي هو مرتبط بها لأنها مكان الربع والأهل والأحبَّة ، وقد يعود هذا الضمير على بعض المعارك التي أظهر فيها

١ - ديوان عنترة (مولوي) : ٦٢ .

شجاعته وأثبت ذاته . واستعمل (فيكِ) تسع مرات ليخاطب بها عبلة التي مازال يناديها عن بعد . إنَّ ارتفاع نسبة استعمال عنترة لهذا الحرف إلى (٢٤%) قد أفسره بأنَّ الشاعر كان يشعر بحاجته الملحَّة إلى ظرف يعيش فيه ، وهو حمى قبيلته التي اضطرته ظروف حياه لتركه وعاش بعيدا عنه ، وقد يساعد عليه أن لبيداً الذي عاش في الحاضرة ، كان أقل الشعراء استعمالا لهذا الحرف ، هذا التحليل النفسي لاستعمال الشاعر ، قد لا يرتضيه باحثون آخرون ، وقد يأتون بتفسيرات أخرى إذا ما توافرت أمامهم حقائق علمية أكثر وضوحا ، وحتى ذالك الوقت إني أقدم هذا التفسير .

ثامنا :(قد)

(قد) حرف معناه المركزي الإخبار وله معانٍ هامشية : التحقيق والتَّوَقُّع والتقريب والتقليل والتكثير ، دلَّ استعمال (قد) عند شعراء المعلقَات على عنايتهم بها ، إذ بلغ مجموع استعمالاتهم لهذا الحرف (٥١٧) خمسمئة وسبعة عشر استعمالا ، لتكون نسبته المئوية إلى مجموع أبيات الدواوين (٩,٥%) تسعة استعمالات في كل مئة بيت ، أي سنعثر على (قد) مرَّةً في كل عشرة أبيات تقريبا ، وكانت في الأعم الأغلب من استعمالاتها تدخل على الماضي ، حتى أحصيت لها (٤٧٦) أربعمئة وستا وسبعين مرَّة استعملت فيها مع الماضي أي بنسبة (٩٢%) من مجموع استعمالاتها في الدواوين ، والباقي (١٤) موضعا كانت داخلة فيها على المضارع ، لتكون نسبتها مع المضارع (٧,٩%) من استعمالها الشعري ، تبيَّن في ما تقدم من كلام على هذا الحرف أن التحقيق متأت له من استعماله مع الماضي ، وهذه النسبة المرتفعة لدخوله على الماضي كانت السبب الرئيس وليس الوحيد في تحميل حرف الإخبار(قد) معنى هامشيا هو دلالته على التحقيق إذا ما دخل على الفعل الماضي ، ولكثرة دخوله على الماضي ترسَّخ في الذهن معناه الهامشي ، حتى كاد يطغى على معناه المركزي .

ولقد ساعد الاستعمال القرآني على زيادة ترسيخ المعنى الهامشي إذ من بين استعمالات الحرف القرآنية البالغة(٤٠٦) أربعمئة وستة استعمالات ، كان ثمانية منها فقط مع الفعل المضارع ، والبقيَّة كلها دخلت (قد) على المضارع ، لترفع نسبة استعملها مع الماضي إلى (٩٨%) من مجموع استعمالاتها القرآنية بزيادة (٦%) عمَّا كانت عليه عند الشعراء ، أما نسبة استعمالها القرآني مع المضارع فقد تراجعت حتى وصلت إلى(١,٩%) من مجموع الاستعمال ، علما أن نسبة استعمال(قد) إلى مجموع آيات القرآن (٦,٥%) .

العامل الآخر الذي ساعد على ترسيخ معنى التحقيق الهامشي في (قد) دخول (لام القسم) عليها لتصبح (لقد) ، التي استعملت عند الشعراء (٨٩) تسعا وثمانين مرَّة لتكون نسبتها إلى مجموع الاستعمالات الشعرية للحرف (١٧%) ، وزادها الاستعمال القرآني إلى (٤٥%) من مجموع استعمالاته بعد أن استعمل القرآن (لقد) (١٨٣) مئة وثلاثا وثمانين مرَّة . الغرض الرئيس من استعمال القسم هو توكيد مضمون الكلام ، ولمَّا استعملت (قد) في سياق القسم بهذه الكثرة التي اقتربت من نصف استعمالها القرآني ، طوَّر هذا الاستعمال معنى التحقيق إلى معنى التوكيد ، وبذا صار معنى التحقيق والتوكيد معنيين هامشيين كثيري الاستعمال والمصاحبة لـ(قد) حتى نافسا معناه المركزي الذي هو الإخبار .

وربَّما عمل السياق في تحميل الحرف معاني أخر مثل معنى التقليل أو التكثير الذي استشهدوا له بأبيات لشعراء المعلقات ، وقد توسع الاستعمال القرآني في استثمار مرونة هذا

الحرف وقابليته على أداء معان هامشية بجنب معناه المركزي بغية إيصال المعاني بأبلغ أسلوب ، وقد مرَّت آنفا أمثلة تلك الاستعمالات .

وبغية تعرُّف استعمالات كلٍّ من الشعراء لهذا الحرف ونسبهم أضع هذا الجدول :

	الشاعر	مع الماضي		مع المضارع		مجموع استعمالات قد	مجموع أبياته	النسبة المئوية
		قد	لقد	قد	لقد			
١	امرؤ القيس	٤٦	٥	٩	--	٦٠	٦٩٥	٨,٦ %
٢	طرفة بن العبد	١٥	١٠	٦	--	٣١	٤٣٦	٧,١ %
٣	الحارث بن حلِّزة	٨	١	١	--	١٠	١٧٨	٥,٦ %
٤	عمرو بن كلثوم	١٥	٤	--	--	١٩	٢٩٢	٦,٥ %
٥	عنترة بن شداد	١٦٦	٣٤	--	--	٢٠٠	١٧٦٩	١١,٣%
٦	زهير بن أبي سلمى	٦٣	١٠	١٠	٢	٨٥	٨٩٤	٩,٥%
٧	لبيد بن ربيعة	٧٤	٢٥	٧	٦	١١٢	١٣٢٢	٨,٤ %
	المجموع	٤٧٦	٨٩	٤١	٨	٥١٧	٥٥٨٦	٩,٢ %

يتضح من الجدول أن أكثر الشعراء استعمالا لحرف الإخبار (قد) كان عنترة الذي بلغت نسبة استعمالاته للحرف (١١,٣%) أيْ سنجد (قد) في كل عشرة أبيات من أشعاره ، وكل استعمالاته كانت مع الفعل الماضي وبذا يكون معنى التحقيق الهامشي مصاحبا لهذه الاستعمالات ، ولعلَّ هذه النسبة المرتفعة في استعمال عنترة لهذا الحرف متفقة مع بعده عن ديار الأهل والأحبة بما فيها من مرارة وألم في نفسه ، ومن ثمَّ فهو يريد أن ينقل إلى المتلقي أخباره وبطولاته وشجاعته في الحروب التي بها يثبت شخصيته ، ويحقق ذاته ، وارتفاع النسبة عنده منسجم أيضا مع ما سيأتي من كونه أكثر من استعمل النداء أيضاً ، في حين كان أقل الشعراء استعمالا لهذا الحرف الحارث إذ انخفضت نسبة استعماله لتصل إلى نصف نسبة استعمالات عنترة ، ولعلَّ بعض السبب في هذا يعود لصغر ديوانه .

تاسعا :(كي)

استعمالُ (كي) عند شعراء المعلقات قليلٌ جدا ؛ إذ وردت في دواوينهم (١٠) عشر مرات فقط ، مرَّة عند امرئ القيس ، ومرتين عند زهير ، وخمس مرات عند عنترة ، ومرتين عند لبيد ، وهذا العدد القليل لاستعمال هذا الحرف يجعله في حقل الحروف القليلة الاستعمال ، فقد بلغت نسبة استعماله عند الشعراء إلى مجموع أبياتهم في الدواوين (٠,١٧%) واحد بالألف أو سبعة عشر استعمالا لـ(كي) في كل عشرة آلاف بيت من أشعار أصحاب المعلقات .

وفي القرآن الكريم وردت (كي) (١٠) عشر مرات أيضا[١] ، لتكون نسبة استعمالها إلى مجموع آيات القرآن الكريم (٠,١٥) واحدا بالألف ، أو خمسة عشر استعمالا في كل عشرة آلاف آية قرآنية . فالنسبة متقاربة جدا في كلٍّ من القران الكريم والشعر ، وهي نسبةٌ قليلةٌ جدا تدلُّ على ندرة استعمال هذا الحرف في اللغة العربية عموما .

١ - وهي : آل عمران :٣ ، النحل:٧٠، طه:٣٣، ٤٠، الحج : ٥، القصص: ١٣، الأحزاب:٣٧، ٥٠ ، الحديد:٢٣، الحشر:٧، ظ : برنامج (نور جامع الأحاديث) ، معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٣٧٥ .

لقد ذكرتُ : إن (كي) حرفُ ناصبُ ، وقد اكتسب معنى التعليل ؛ لأنه استعمل مقترنا باللام كثيرا ، فأصبح التعليل معناه الهامشي الفرد ، وهو ظلُّ معناه العام فلا يكاد يفارقه ، إذ كان أكثر استعماله في الشعر والقران مقترنا باللام التي تفيد التعليل ، وقد اقتربت نسبة استعماله في القرآن مع ما كانت عليه عند شعراء المعلقات ، حتى تطابق الاستعمال في بعض الجهات .

أما ما يتعلق باستعمال الشعراء لهذا الحرف ونسب تلك الاستعمالات فيبينها هذا الجدول :

ت	اسم الشاعر	استعمال (كي)	استعمال (لكي)	استعمال (كيما، لكيما)	مجموع استعمالاته	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	١	--	--	١	٦٩٥	%٠,١٤
٢	عنترة بن شداد	--	٢	٢ + ١	٥	١٧٦٩	%٠,٢٨
٣	زهير بن أبي سلمى	--	٢	--	٢	٨٩٤	%٠,٢٢
٤	لبيد بن ربيعة	١	١	---	٢	١٣٢٢	%٠,١٥
	المجموع	٢	٥	٣	١٠	٥٥٨٦	%٠,١٧

ومنه يتَّضح أنَّ أكثر الشعراء استعمالا لـ(كي) عنترة بن شداد ، إذ بلغت نسبة استعماله لهذا الحرف ثمانيا وعشرين مرَّة في كل عشرة آلاف بيت ، ويأتي بعده زهير ، وأقل هؤلاء استعمالا امرؤ القيس الذي بلغت نسبة استعماله أربعَ عشرة مرَّة في كل عشرة آلاف بيت .

إن التعليل يأتي ردًّا على جواب مفترض حقيقي أو متخيل ، فإذا سَأَلَ سَائِلٌ: لم فعلت ذاك؟ فسيأتي الجواب بالعلَّة التي دعته للقيام بالعمل ، فالتعليل مقترن بالسؤال ، وإذا كان عنترة أكثر من أقرانه استعمالا لحرف يفيد التعليل على وجه ما ، فإنَّ معنى ذلك أنَّ هنالك أسئلة يحاول الإجابة عنها ، وقد تكون هذه الأسئلة مطروحة منه مباشرة أو من متلقي شعره ، وهي في الحالين تدلَّ على صراع نفسي قد يكون داخليا ، على نحو معين ، والشاعر يحاول أن يثبت وجوده من خلال الإجابة عن تلك الأسئلة ، ونفس عنترة العصيَّة والمتمردة بوصفه شاعرا فارسا يكثر الحروب ، تحاول أن تثبت وجودها ، وواحدة من طرق إثبات الذات الإجابة عن الأسئلة . ولعل هذا سببا من أسباب قلَّة الاستعمال القرآني لهذا الحرف قياسا بما كان عليه عند الشعراء ولو بشيء قليل جدا ، وهذا يعني أن النص القرآني أكثر استقرارا من النص الشعري ، علما أنَّ الأسئلة التي يحاول القرآن الإجابة عنها هي أسئلة المتلقي وليست أسئلة القرآن الكريم نفسه . فالمتلقي للقران كانت نفسه أكثر ثباتا من نفس المتلقي للشعر الجاهلي ومبدع ذلك الشعر .

عاشرا :(لَمْ)

(لم) حرف نفي مختص بالدخول على الأفعال المضارعة ويعمل فيها الجزم ، وتعدُّ (لم) من القرائن التي تصرف معنى المضارع إلى الماضي[1] ، فهي ((تدل على نفي وقوع الحدث

---

١ - ظ : حروف المعاني:٨، التفاحة في النحو:٢٠، الإيضاح العضدي:٣١٩، المخصص:٥٥\١٤، اللمع في العربية:٢٢٦، حروف المعاني:١٠٠، البيان في شرح اللمع:٢٦٨، شرح المفصل:١٠٩\٨،المقرب:٢٧١\١، شرح ألفية ابن مالك:٢٧٠، رصف المباني :٢٨٠، الجنى الداني:٢٨٠-٢٨٣، مغني اللبيب:٣٦٥-٣٦٧، جواهر الأدب:١٤٨-١٥٠، لسان العرب:مادة (لمم):٥٥٣\١٢.

في الماضي المنقطع))[1]، نحو قوله تعالى :﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(الإخلاص:٣) ، وهي بمثابة جواب لمن قال (فَعَلَ) ، فيقال :(لَمْ يَفعَلْ) ، هذا مذهب سيبويه والمبرد وأكثر المتأخرين [2].

كانت نسبة استعمال هذا الحرف عند أصحاب المعلقات في دواوينهم مرتفعة إذا ما قيس بغيره من الحروف ، فقد استعمل في الدواوين (٣٣٤) ثلاثمئة وأربعا وثلاثين مرَّة[3] ، لتكون نسبة استعماله إلى مجموع الأبيات الشعرية (٥,٩%) أي قرابة ستة استعمالات في كل مئة بيت أو بعبارة أدق هي تسعة وخمسون استعمالا في كل ألف بيت من أشعار أصحاب المعلقات السبع . وتوزع هذا الاستعمال في الدواوين على ما يُبَيِّنه هذا الجدول :

ت	اسم الشاعر	استعماله لـ(لم)	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	٥١	٦٩٥	%٧,٣
٢	طرفة بن العبد	٣٣	٤٣٦	%٧,٥
٣	الحارث بن حلِّزة	٨	١٧٨	%٤,٤
٤	عمرو بن كلثوم	١٤	٢٩٢	%٤,٧
٥	عنترة بن شداد	٧٦	١٧٦٩	%٤,٢
٦	زهير بن أبي سلمى	٦٦	٨٩٤	%٧,٣
٧	لبيد بن ربيعة	٨٦	١٣٢٢	%٦,٥
	المجموع	٣٣٤	٥٥٨٦	%٥,٩

نلحظ من الجدول : إن أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف كان طرفة الذي بلغ أعلى نسبة في استعماله له ، وأقل الشعراء استعمالا له هو عنترة بن شداد ، وهنالك تقارب في نسبة استعمال الحرف عند كل من امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وتقاربت نسبة استعمال الحارث وعمرو، وعنترة .

لتحليل هذه الظاهرة نستذكر أنَّ النَّفي أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول ، وهو أسلوب نقض وإنكار ، يستعمل لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب من أفكار لا يرضاها المتكلم[4] ، فالنفي يدلُّ على رفض لواقع معين يعيش فيه الفرد ، وتكرار النفي يدلّ على تكرار الرفض المستمر ، وقد يُشَمُ من هذا فكْرة تمرُّد داخلي على الواقع ، أقول إذا صحَّ هذا أمكن القول : إن امرأ القيس وطرفة وزهيرا كانوا أكثر رفضا لواقعهم الذي يعيشون فيه ، ويحاولون التمرد عليه ، وإذا تذكرنا أن (لم) من القرائن التي تقلب دلالة الفعل المضارع إلى الماضي ، قلت : إن رفض هؤلاء كان لواقعهم المنصرم ، وليس رفضا للغد وما فيه من أمل ، بل هم يحاولون تسخير العيش في الغد لينالوا ما يرضيهم فيه من متع الحياة وبهجتها . ولعلي أستطيع أن أعزز هذا الرأي من خلال إنعام النظر في حياة امرئ القيس الذي كان عابثا يعيش للهو واللذة . أما الحارث وعمرو وعنترة فكانوا أكثر رضا عن واقعهم الذي يحيونه ، ولعل عنترة وجد في الصحراء التي يقطنها ، وفي حياة الفروسية التي يحياها ما يرضي دوافعه النفسية ، ومن ثم كان أكثر قدرة على معالجة الواقع الذي هو فيه من خلال الفروسية والشجاعة والإقدام . وتميز لبيد المخضرم ، فقد كان بين هؤلاء وهؤلاء ، إذ عايش العصرين ولاشك أن حياته في الجاهلية كانت تضطرب ببعض ما لا يُرضيه مما قد يدفعه إلى النفي في الكلام بل الإكثار من النفي في الشعر ، أما في الإسلام فقد كان أكثر استقرارا مما كان عليه في عهده الأول ، ولا يمنع عدم نظمه الشعر بعد إسلامه من القول بهذا ، إذ المراد أن نفسية هذا الشاعر كانت تعتمل فيها عناصر الرفض لواقع معين لكنها أقل مما في نفس امرئ القيس ورفيقيه .

---

١ - في النحو العربي ، نقد وتوجيه : ٢٥٤.
٢ - ظ : الكتاب :٤| ٢٢٠، المقتضب :١| ٩٦ ، وينظر معه المصادر المذكورة في الهامش المتقدم .
٣ - للإطلاع على استعمالات الشعراء مفصلة ينظر: برنامج الموسوعة الشعرية – الإصدار الثالث .
٤ - ظ : في النحو العربي ، نقد وتوجيه : ٢٤٦ .

إن هذا الاستنتاج ليس قانونا علميا ثابتا يمكن قياسه بمقاييس العلم المنضبط كالرياضيات والفيزياء ، وإنما هي ملاحظات علمية تتسم بالشمول والاطراد ترشح من خلال المعطيات الفكرية للغة الأفراد ، وتساعدها قرائن معينة من حياتهم العامة والخاصة ، ويحق لباحث آخر أن يرفضها إن توافرت أمامه حقائق أكثر ثباتا منها ، وأكثر اطرادا مما قدمته ، لكنني أرى في ما تقدم انطباقا على واقع الحياة العامة والخاصة لأصحاب المعلقات السبع ، وهو مطرد مع ما يترشَّح من استعمالاتهم للحروف الأخرى .

استعملت (لم) في القرآن الكريم (٣٤٨) ثلاثمئة وثمانيا وأربعين مرَّة [١]، فكانت نسبتها إلى مجموع آيات الكتاب العزيز (٥,٤%) أي أننا سنلقى خمسة موارد في كل مئة آية أو أربعة وخمسين موردا في كل ألف آية ، وهذه النسبة في الاستعمال القرآني نسبة ظاهرة وملحوظة وهذا يعني إن هذا الحرف ليس من الحروف القليلة الاستعمال في لغة القرآن الكريم ، وليس من الحروف الكثيرة الاستعمال بل هو حالة وسط ، وتقلُّ نسبة استعمال هذا الحرف عمَّا كانت عليه عند الشعراء أصحاب المعلقات بمقدار(٠,٥%) خمسة استعمالات في الألف ، وهو مقدارٌ يسيرٌ جدا .

قد تدخل همزة الاستفهام على (لم) فسينقلب الاستفهام إلى المجاز، فيدخله معنى التقرير أو التوبيخ نحو قول القائل :(ألم أحْسِنْ إليك؟) فالمعنى هنا تقرير الإحسان والتوبيخ على نكرانه ، وليست الهمزة هنا للاستفهام الحقيقي ، إذ الاستفهام يجب أن يكون عن شيء لا يعلمه المستفهم ، بخلاف التقرير والتوبيخ ، وفي هذه العبارة يكون المستفهم على يقين من الإحسان ، لكنه يوبخ المخاطَب على نكرانه [٢].

لقد استعمل الشعراء الهمزة الداخلة على (لم) في ستة عشر موردا في دواوينهم [٣]، وكان أكثرهم استعمالا لها زهير فقد استعملها خمس مرات ، وهذا متفق مع ما قدمته من حالة الرفض الدائم لواقعة ومعاناته بسبب ذلك الواقع الذي يكابده ، وكان يستعملها للتقرير ، والإنكار على من يظن أن كرائم ماله تنجيه من الأقدار أو تنجيه عزته ومنعته منها ، فيخلد ، يقول زهير [٤]:

(الطويل)

وَمـا إن أَرى نَفسـي تَقيهـا كَـريهَتي ... وَمـا إِن تَقـي نَفسـي كَـرائِمُ مالِيـا

أَلا لا أَرى عَلـى الحَـوادِثِ باقِيـا ... وَلا خالِـداً إِلاَّ الجِبـالَ الرَواسِـيا

وَإِلاَّ السَـماءَ وَالـبِلادَ وَرَبَّنـا ... وَأَيّامَنـا مَعـدودَةً وَاللَيالِيـا

أَلَـم تَـرَ أَنَّ اللَـهَ أَهلَـكَ تُبَّعـاً ... وَأَهلَـكَ لُقمـانَ بـنَ عـادٍ وَعادِيـا

١ - ذُكر في (معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٥٠٧) أنها تكررت (٣٤٦) ، بفارق آيتين عمَّا أثبته ، وعندما عدد الآيات ذكر لنا (٣٤٧) فاشتبه في العدِّ في آية ، ثم إنه قد فاتته آية واحدة هي (النساء :٢٥) لم يلتفت إليها ، وقد اشتبه أيضاً في آيتين فأعطاهما أرقاما مخالفة لحقيقتها هما:الآية(٢\٣٣) سماها (٢\١٠٦) ، و الآية (٥\٤١) سماها :(٥\٤) والآية (١٤\٢٤) سماها (١٤\٢٨) . والصحيح أن مجموع تكرار هذا الحرف (٣٤٨) تبعا لما أحصيته مستعينا ببرنامج (نور جامع الأحاديث) ، فيمكن الرجوع إليه للإطلاع على هذه المواضع مفصَّلة .

٢ - ظ : رصف المباني : ٢٨٠ .

٣ - ظ: ديوان امرئ القيس:٤١، ٩٨، ديوان طرفة بن العبد:١٤٨، عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره :١٣٠، ١٣٤ ، ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٥٨ ، ١٥١، أشعار عنترة العبسي :٥١، شرح ديوان زهير :١٢٠، ٢٦٠، ٢٨٨، ٣٢٨، شرح ديوان لبيد :٢، ٧٢ .

٤ - شرح ديوان زهير : ٢٨٧- ٢٨٨ .

أَلا لا أَرى ذا إِمَّـةٍ أَصبَحَت بِـهِ	فَتَترُكُـهُ الأَيـامُ وَهـيَ كَما هِيا
أَلَـم تَـرَ لِلنُعمـانِ كـانَ بِنَجـوَةٍ	مِـنَ الشَـرِّ لَـو أَنَّ اِمـرَأً كـانَ ناجِيـا

فنفسُ الشاعرِ كانت مقرَّةً بالموت والفناء وعدم الخلود ولكن هنالك خوفا ينازعه هذا الشعور ، وهاجس من احتمال إمكان الخلود وعدمه ، وهنالك لوم كان الشاعر عرضة له ، وهو يصارع هذا اللوم ، ويسوغه لما طرحه من فناء الناس جميعا ، فكان الشاعر رافضا لهذا الواقع والصراع النفسي المُرِّ ، فيقرر في قصيدته هذه مشهدا معبرا جدا عن هذا الرفض ، ومحاولة إقناع المخاطب بأنه ملاقي الفناء لا محالة . وكان هذا المعنى شائعا فقد سبقه إليه طرفة في ما ينسب له من قوله [1]:

(الطويل)

فَكَيـفَ يُرَجّـي المَـرءُ دَهـراً مُخَلَّـداً	وَأَعمالُـهُ عَمّـا قَليـلٍ تُحاسِـبُه
أَلَـم تَـرَ لُقمـانَ بـنَ عـادٍ تَتابَعَـت	عَلَيـهِ النُسـورُ ثُـمَّ غابَـت كَواكِبُـه

هلاك العظماء من البشر سببٌ مُلِحٌّ يدعو إلى الاعتقاد بحتمية الفناء ، وهذا الشيء كان يؤرق الإنسان على طول الدهر ، حتى جاءت الديانات ، فأقرت الموت لكنها خففت من حدَّة الخوف منه بأن بيَّنت طبيعة الحياة والموت والغاية من وجود الإنسان على الأرض ، فخففت من شيءٍ رَعَبَ الإنسان دهرا طويلا .

توسع استعمال القرآن الكريم لهمزة الاستفهام الداخلة على (لم) فقد أحصيت (١٢٥) مئة وخمسة وعشرين موردا لها ضمن استعمالات القرآن لـ(لم) [2]، مما يعني نسبة (٣٥,٩%) أي أكثر من ثلث الاستعمال القرآني لـ(لم) وكانت في تلك المواضع كما قلت تقريرا وإنكارا ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(البقرة: من الآية٣٣) ، وقوله :﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة: من الآية١٠٦) ، ففي هذه الآيات الكريمات إنكار لفعل معين عن طريق الاستفهام المجازي ، ومثل هذا قوله ﷻ :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(إبراهيم:١٩) ، لقد تكررت صيغة (ألم تَرَ) وحدها واحدة وثلاثين مرَّة[3] ، وفيها دلالة واضحة على المطالبة بإعمال الفكر والتدبر في أدلة إثبات الخالق هذا التكرار في الخطاب القرآني للاستفهام الإنكاري يكشف لنا عن سبب ارتفاع نسبة استعمال (لم) في القرآن الكريم وبقائها مقاربة للنسبة التي كانت عليه عند شعراء المعلقات ، فقد استعمل هذا الحرف لرفض الفكر والواقع الذي عاش فيه الناس وما كانوا فيه من تكبر وجحد للخالق العظيم ، ونكران لآياته المنتشرة في أنفسهم وفي الآفاق ، وإذا كانت الحياة قبل الإسلام تشتمل على واقع فيه ما يجب رفضه ، وفيه ما تبحث له الناس آنذاك عن إجابات مقنعة ، فقد جاء القرآن بخطاب يلائم ذلك الواقع ، فرفض نكرانهم لأدلة وجود الخالق ، وأنكر عليهم بعض ما كانوا يعيشون فيه من واقع حياتهم اليومية .

---

١ - ديوان طرفة بن العبد : ١٤٨ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ١٤٦ .
٢ - يمكن متابعتها من خلال الرجوع إلى برنامج (نور جامع الأحاديث) .
٣ - البقرة:٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٨، آل عمران : ٢٣، النساء: ٤٤، ٤٩، ٥١، ٦٠، ٧٧، إبراهيم:١٩، ٢٤، ٢٨، مريم :٨٣، الحج:١٨، ٦٣، ٦٥، النور: ٤١، ٤٣، الفرقان:٤٥، الشعراء: ٢٢٥، لقمان: ٢٩، ٣١، فاطر: ٢٧، الزمر:٢١، غافر:٦٩، المجادلة:٧،٨، ١٤، الحشر:١١، الفجر:٦، الفيل:١ .

من هنا كانت نسبة استعمال هذا الحرف قريبة جدا مما كانت عليه عند شعراء المعلقات ، فالخطاب القرآني موجه إلى المجتمع نفسه الذي كان الشعراء يوجهون إليه خطابهم الشعري ، وأن كانت الغاية والأهداف تختلف بين النصيين إلاّ أن المشكلات كانت متحدة في بعض جوانبها ، ومحاولة العلاج موجودة في قسم من الشعر ، وموجودة مؤكدة في القرآن العزيز الذي أُنزل لإنقاذ البشر وهدايتهم .

وليس النفي بـ(لم) كله معناه الرفض للواقع أو محاولة إبراز الذات من خلال المعارضة وما شاكل هذا من المعاني ، فهناك مقدار من النفي طبيعي الوجود في كل لغة وكل كلام ، بل هو ضرورة في الكلام ، فهنالك ثنائية بارزة في الوجود هي ثنائية (السلب والإيجاب) أو (الوجود والعدم) ، والحياة تتشكل على أساس هذه الثنائية ، فالوجود يعبر عنه في الكلام بالكلام الموجب ، أما السلب فيعبر عنه بالسلب أو النفي ، ففي قوله تعالى :﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ﴾(البقرة: من الآية١٩٦) ، وقوله تعالى :﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾(النساء: من الآية٩٢) ، حددت شريعة السماء حدودا وفرضت على من يتجاوزها غرامات عينية أو مادية والإنسان أما أن يكون مالكا ومستطيعا لدفع هذه الغرامات أو لا ، هذه هي الثنائية وقد جاءت الآية في معرض بيان حكم كل الصنفين ، وهذا الاستعمال طبيعي للنفي في اللغة ، وليست فيه دلالة على الرفض والاعتراض على الواقع ، ومثلها قوله تعالى :﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾(البقرة: من الآية٢٤٧)، فالإنسان إما أن يكون صاحب مال أو لا ، واستعمال (لم) في الكلام لبيان هذه النقطة وليست لنفي فعل معين يقول به شخص ما .

وقد كان هذا الاستعمال موجودا في أشعار أصحاب المعلقات على نحوٍ طبيعي وكان منسجما مع طبيعة التعبير عن التجربة الشعرية لكل منهم ومنه قول امرئ القيس [1]:

(الطويل)

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها ... لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ

فالدار التي سألهم الوقوف عليها لم يعفُ رسمها ، وهكذا الرسوم إما أنْ تكون قد عفت أو لم تعف بعد ، فاستعمال الشاعر لـ(لم) في مثل هذه المواضع طبيعي ليصف وقائع الحياة . وهذا الاستعمال من الكثرة بما لا يستوجب التمثيل ، ولكني أوردته لئلاً يُظَنَ أني أقول : إن كل نفي هو رفض لواقع معين كان الشاعر لا يريده ، وإنما الاستعمال لذلك المعنى هو بعض الاستعمال العام للحرف . وإليه أرجعت بعض السبب في ارتفاع النسبة لاستعمال الحرف .

حادي عشر :(لَنْ)

---

١ - ديوان امرئ القيس :٨، وينظر معه : شرح القصائد التسع المشهورات :١/١٠٠، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١/٧٠ .

(لن) حرف نفي مختص بالدخول على الأفعال المضارعة فيعمل فيها النصب ، ويخلِّص معنى المضارع إلى الاستقبال[1] ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾(البلد:٥) ، وهي كالجواب لمن قال (سيفعل) ، فيقال :(لن يفعل) و(يفعل) تشعر بالدلالة على ما يأتي من الزمان ، و(لن) ناصبة للفعل الذي بعدها بنفسها على مذهب سيبويه وأكثر النحويين .

وينسب للزمخشريُّ أنه كان يذهب إلى القول : إن(لن) تفيد توكيد النفي ، ولم يوافقه كثير من العلماء على هذا ، وذهب أيضاً إلى القول إن (لن) تفيد تأبيد النفي ، وقد وافقه ابن يعيش[2] على هذا وخالفه الآخرون فيه[3] .

كان استعمال (لن) عند الشعراء قليلا جدا ، فلم ترد إلاَّ (٩) تسع مرات فقط في مجموع الدواوين[4] ، لتكون نسبة استعمالها إلى مجموع أبيات الدواوين (٠,١%) استعمال واحد في كل ألف بيت من أشعارهم ، ولم يستعملها الشعراء كلهم ، بل ثلاثة منهم فقط وهم :

لبيد أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف ، فبلغت نسبة استعماله له أربع مرات في كل ألف بيت من أشعاره ، وكان عنترة أقلهم استعمالا ، وكانت نسبة استعماله لها ضئيلة جدا ، وهي خمس مرات في كل عشرة آلاف بيت .

ت	اسم الشاعر	استعمال (لن)	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	عنترة بن شداد	١	١٧٦٩	٠,٠٥%
٢	زهير بن أبي سلمى	٢	٨٩٤	٠,٢٢%
٣	لبيد بن ربيعة	٦	١٣٢٢	٠,٤٥%

ولما كان استعمال هذا الحرف قليلا إلى هذا الحد ، أحببت أن أوسع دائرة البحث أكثر لتكون النتائج أكثر ضبطا ، فأجريت إحصاءً لأشعار جميع الشعراء الجاهلين ، فتبين أن القلَّة في استعمال أصحاب المعلقات لهذا الحرف لم تكن غريبة ، فالجاهليون كلهم لم يستعملوا هذا الحرف إلاَّ (٦٨) مرَّة ، ولما كان مجموع أبيات هؤلاء الشعراء كلهم يبلغ (٢٠٠٣٤) بيتا ، كانت نسبة استعمال هذا الحرف عند الجاهليين إلى مجموع أبياتهم تبلغ (٠,٣٣%) ثلاثة استعمالات في كل ألف بيت جاهلي ، أو ثلاثة وثلاثين استعمالا في كل عشرة آلاف بيت من أشعار الجاهلين .

ومن الغرابة بمكان أن نرى استعمال هذا الحرف يبقى على حاله عند المخضرمين أيضاً ، وعلى الرغم من إن القرآن الكريم توسع أكثر من خمسة أضعاف نسبة استعمال الجاهلين له ، إنَّ الشعراء المخضرمين لم يتوسعوا في استعمال هذا الحرف ، وكان مجموع استعمال المخضرمين كلهم لـ(لن) (١١٧) مرَّة ، ومجموع أبيات هؤلاء (٣٥١٢٨) بيتا ، ومعنى ذالك أنَّا نجد أن نسبة استعمال الحرف إلى مجموع الأبيات تكون (٠,٣٣%) وهي نسبة تطابق نسبة استعمال الجاهليين تماما . ولعل هذا من أسرار العربية أن يتساوى استعمال الحرف ضمن مجموعتين كبيرتين جدا من الشعر في مرحلتين مختلفتين ، شهدت نهايات الأولى منهما نزول القرآن الكريم الذي كان بركانا فجَّر طاقات اللغة العربية الإبداعية .

---

١ - ظ : حروف المعاني:٨، حروف المعاني:١٠٠، التفاحة في النحو:١٩، الإيضاح العضدي :٣٠٩،المخصص:١٤\٥٥، اللمع في العربية:٢١٩، البيان في شرح اللمع:٢٥٩، شرح المفصل:٨\١١١، المقرب:١\٢٦١، ارتشاف الضرب :٢\٣٩١، شرح ألفية ابن مالك:٢٦١،شرح الرضي على الكافية:٤\٣٨، رصف المباني:٢٨٥، الجنى الداني:٢٨٤-٢٨٥، مغني اللبيب:٣٧٣-٣٧٥، جواهر الأدب:١٥٠-١٥١، همع الهوامع:٢\٣، وينظر مادة(لن) في :العين:١\٣٥٠، تهذيب اللغة:١٥\٣٣٢، لسان العرب:١٣\ ٣٩٢، في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٥٦،أساليب النفي في العربية:٩١-٩٥.

٢ - ظ : شرح المفصل : ٨\ ١١١ ، أساليب النفي في العربية : ٩١، مسائل النحو الخلافية بين الزمخشري وابن مالك :١٥٣.

٣ - أغلب المصادر المذكورة في الهامشين المتقدمين تذكر رأي الزمخشري وترد عليه بأنه غير مسلم به ، وأنه بلا دليل .

٤ - يمكن الإطلاع على هذه الموارد من خلال برنامج الموسوعة الشعرية . وينظر معه : شرح ديوان زهير: ١٨٠، ٣٣٨، ديوان عنترة (فوزي عطوي) : ١٧٥،أشعار عنترة العبسي : ٢٢٣، شرح ديوان لبيد: ٢٥١، ٢٨٠، ٢٨٦ ، ٣٢٥، ٣٢٦، ١٦٣. .

إن موازنة استعمال (لن) عند الشعراء باستعمال (لم) عندهم - الذي بلغ(٥,٩%) تسعا وخمسين مرَّة في كل ألف بيت – تُبَيِنُ لنا أنَّ استعمال (لم) يَزيدُ على استعمال (لن) بعشرين ضعفا ، وهذا شيء غريب .

لكن الحال في القرآن الكريم مختلف ، فقد استعملت (لن) في القرآن (١٠٦) مئة وست مرات[١] ، لتكون نسبة استعمالها إلى مجموع آيات القرآن المجيد (١,٦%) أي ستة عشر استعمالا في كل ألف آية . وإذا أردنا قياسها باستعمال (لم) القرآني فقد كانت نسبة استعمال (لم) في القرآن المجيد (٥,٤%) أربعة وخمسين استعمالا في كل ألف آية ، أي إن استعمال (لم) يفوق استعمال (لن) بثلاثة أضعاف .

وسأحاول أن أتبين طبيعة الاستعمال الشعري والاستعمال القرآني لعلي أجد سببا لقلَّة الاستعمال عند الشعراء عموما . لقد كان استعمال الشعراء لهذا الحرف يسيرا جدا لا يعدو كونه حرف نفي يدخل على المضارع فينصبه ، ويخلِّص دلالته على المستقبل . ومن استعمالاتهم قول عنترة[٢]:

(الطويل)

أَيـا عِزّنـا لا عِـزَّ في النـاسِ مِثْلُـهُ   عَلـى عَهـدِ ذي القَـرنَينِ لَـن يَتَهَـدَّما

ومنها قول زهير [٣]:

(الوافر)

فَقُلنـا يـالَ أَشـجَعَ لَـن تَفوتـوا   بِنَهـبِكُمُ وَمِرجَلُنـا يَفـورُ

ومنها قول لبيد [٤]:

(الطويل)

فَـإِن تَقبَلـوا المَعـروفَ نَصـبِر لِحَقِّكُـم   وَلَـن يَعـدَمَ المَعـروفُ خُفّـاً وَمَنسِـما

أما في القرآن فقد تتبعت موارد استعمال (لن) وخلصت إلى نتيجة مفادها الآتي :

كانت حياة العربي التي يعيش فيها حياة بداوة ، تتسم بالتجزئة في كثير من معاييرها وقيمها ، وهي حياة قائمة على الواقع الحاضر ، ولا تأبه كثيرا للمستقبل ، فكل حياتهم تقوم على ما في اليوم أو اليوم والغد ، ولا يهتم الفرد منهم حتى بالموت ، ولا يعني عنده شيئا فهو سُنَّة الحياة التي وُجد فيها ، ألم يقل طرفة[٥]:

(الطويل)

أَلا أَيُّهَـذا اللائِمـي أَحضُـرَ الـوَغى   وَأَن أَشـهَدَ اللَـذّاتِ هَـل أَنـتَ مُخلِـدي

فَـإِن كُنـتَ لا تَسـطيعُ دَفـعَ مَنِـيَّتي   فَـدَعني أُبادِرهـا بِمـا مَلَكَـت يَـدي

١ - ظ : برنامج (نور جامع الأحاديث) ، معجم الأدوات والضمائر: ٥١٧- ٥١٩ .
٢ - ديوان عنترة (فوزي عطوي) : ١٧٥ ، أشعار عنترة العبسي : ٢٢٣ .
٣ - شرح ديوان زهير : ٣٣٨ .
٤ - شرح ديوان لبيد : ٢٨٦ .
٥ - ديوان طرفة بن العبد : ٢٧- ٣٠ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٤٥- ٤٨ .

وَلَـولا ثَـلاثٌ هُـنَّ مِـن عيشَـةِ الفَتـى وَجَـدِّكَ لَـم أَحفِـل مَتـى قـامَ عُـوَّدي

فَمِنـهُنَّ سَـبقي العـاذِلاتِ بِشَـربَةٍ كُمَيـتٍ مَتـى مـا تُعـلَ بِالمـاءِ تُزبِـدِ

وَكَـرّي إِذا نـادى المُضـافُ مُحَنَّبـاً كَسـيدِ الغَضـا نَبَّهتَـهُ المُتَـوَرِّدِ

وَتَقصـيرُ يَـومَ الـدَجنِ وَالـدَجنُ مُعجِـبٌ بِبَهكَنَـةٍ تَحـتَ الطِـرافِ المُعَمَّـدِ

كَـريمٌ يُـرَوّي نَفسَـهُ في حَياتِـهِ سَـتَعلَمُ إِن مُتنـا غَـداً أَيُّنـا الصَـدي

تبين هذه الأبيات جزءاً من فلسفة هؤلاء القوم في الحياة ، فحياتهم قائمة على هذه المتع الثلاث ، ولولاها لم يحفلوا بالموت ، وعلى الفرد أن يروي نفسه من متع الحياة قبل الموت الذي سيدركهم لا محالة ، لكن ما بعد الموت ، لا علم لهم به ، ولم يكشف الشاعر في قصيدته هذه عما يعتقده من عالم الآخرة ، وهل يعتقد بوجود عالم آخر للحساب أو البعث والنشور، لم يشر إلى شيء من هذا ، بل كان نفر منهم يصرح بعدم وجود شيء غير هذه الأيام المَعيش فيها . هذه الحياة القائمة على الواقع الذي يحيونه جعلت من المستقبل شيئا ثانويا ، فالمهم هو الحاضر . ولكن الحاضر عندهم كان قائما على الماضي ، والماضي له أثره الكبير في الحاضر فله أهمية خاصة في حياتهم ، فأمجادهم وبطولاتهم ، وأيامهم ، وتذكر الديار والدمن ، وما إلى ذلك له حضوره الكبير في حياتهم وهو جزء مهم من الحاضر ، فالعلاقة بين الحاضر والماضي متينة جدا ، لكن العلاقة بين الحاضر والمستقبل ضعيفة جدا ، ومن المؤكد أن ضعف العلاقة هذا أثّر في لغتهم ، وهي المعبرة عن فكرهم وممارساتهم اليومية ، من هنا كنا نرى العلاقة بالماضي واضحة في لغتهم ، في حين العلاقة بالمستقبل ضعيفة جدا ، وخير مثال على ذلك هو استعمال حرفي النفي فـ(لم) و (لن) حرفان لنفي المضارع ، الأول يربطه بالماضي والثاني يربطه بالمستقبل ، كان استعمال الرابط بالماضي يفوق استعمال الرابط بالمستقبل بعشرين ضعفا ، وهذا مَعْلَمٌ واضحٌ لضعف العلاقة بين الجاهلي ومستقبل حياته .

القرآن الكريم كتاب سماوي منزَّل من خالق الكون ، والغاية منه صلاح الإنسان وحسن معيشته في الأرض التي استخلفه الله تعالى فيها ، فالنظرة فيه إلى الإنسان والوجود نظرة شموليةٌ واحدةٌ تربط الماضي بالحاضر وتوظفهما لخدمة المستقبل ، ولكل عصر من أطوار وجود الإنسان في كتاب الله تعالى مكان لا يتجاوزه ذلك هو مكانه الطبيعي ، الذي قدَّره الله تعالى له وهو مقدِّر الأشياء بمقاديرها ، وهذا هو الفارق بين لغة القرآن الكريم ولغة الشعر عند الجاهليين عموما ، وأصحاب المعلقات خصوصا . النظرة عند الشعراء تجزيئية ، وفي كتاب الله شمولية ، لا يُهمَلُ فيها جانب على حساب جانب آخر ، في حين في الشعر ، ليس الشمول من طبيعة الشعر ، ولا يسمح فكرُ الشعراء بتلك النظرة الشمولية ، فالشاعر معبر عن فكره هو ، وهو ليس فيلسوفا متخصصا في التفكير في الوجود ، وإنما هو معبر عن تجربة مرَّت به يحاول وصفها وصفا أمينا ، وتمثيل انطباعه عنها . ولكن مع هذه السمة الجزئية في الشعر تبقى لغة الشعراء معيارا مهما نتبيَّن منه كثيرا من عادات المجتمع وأفكاره وعلاقاته ، من خلال تجميع الجزئيات وترتيب الأفكار .

من هنا كنا نجد في القرآن الكريم هذه الآيات الكثيرة التي تتحدث عن مستقبل الإنسان وتستعمل فيها (لن) لتربط حاضر الفرد بمستقبله ، منها آيات كريمات وصفن حال المشركين وتصورهم لما بعد الدنيا ، منها قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً** ﴾(البقرة: من الآية٨٠)،

ومثله قوله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾(البقرة: من الآية١١١) ، فهذه الآيات ومثيلاتها ، يتحدثن عن اليوم الآخر وهو أمر مستقبلي ، وكانت محاولة بعض الكافرين في دعوتهم أن النار لن تمسهم محاولة للقفز فوق الوقت تستبق العصر لتحاول أن تهدئ من روع الكافرين ، فعلاقة الكافرين بالمستقبل ، مشحونة بالخوف والرعب مما كانوا يسمعونه من الوعد والوعيد في آيات القرآن ، أو من قصص الأمم السالفة . وكان هنالك عدد آخر من الآيات يخص الكافرين أيضاً لكنه يتعلق بأحوالهم في الحياة الدنيا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(البقرة: من الآية٥٥) ، ومنها قوله تبارك شأنه : ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾(غافر: من الآية٣٤) ، ولم يقتصر بيان حال المستقبل على الكافرين فقد جاءت آيات أخر، منها قوله ﷻ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾(آل عمران: من الآية٩٢) ، فهذه الآية تبين للمسلمين أن الإنفاق طريق للوصول إلى البر في المستقبل ، ويجب اغتنام الحاضر للإفادة من المستقبل ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾(التوبة: من الآية٥١) ، إن ما يمر على الإنسان من أحداث هو ما كتبه الله له ، وعلى وفق هذه النظرية الإسلامية يجب على الإنسان أن يعي حقيقة الوجود ، ويفهم كيف ينتفع من حياته للوصول إلى رضا الله في المستقبل .

أما المخضرمون فلم يسمح لهم الوقت بعد بتصحيح الفكر القديم ، وتشكيله في ضوء المعطيات الجديد للقران الكريم ، فقوَّة الفكر والعقيدة تحتاج إلى وقت ليس بالقصير لتغير من سلوك الإنسان وتبعا لهذا التغيير تتغير لغته ، فأعتقد أنَّ الوقت لم يسعفهم بعد بالنظر إلى المستقبل نظرة شمولية ، فبقيت لغتهم تستقي من الماضي ، ولا تعتمد على المستقبل بصورة كبيرة .

من خلال ما تقدَّم أعتقد أنَّي أقدِّم تفسيرا مقبولا ومعقولا لقلَّة استعمال الجاهليين والمخضرمين لـ(لن)، وكثرة استعمال القرآن الكريم لهذا الحرف .

ثاني عشر : (مِنْ)

حرف كثير الاستعمال في اللغة العربية وقد أحصيت له عند الشعراء (١٤٥٤) ألفا وأربعمئة وأربعاً وخمسين مرَّة[١] ، لتكون نسبة استعماله إلى مجموع أبياتهم في الدواوين (٢٦%) ، أي إنَّ أكثر من ربع الأبيات تشتمل على هذا الحرف ، أما في القرآن الكريم فقد بلغت استعمالاته (٢٤٧٥) ألفين وأربعمئة وخمسا وسبعين مرَّة[٢]، لتصل نسبته إلى مجموع آيات القرآن إلى (٥١%) أيْ إنَّ أكثر من نصف الآيات تحوي هذا الحرف ، وبذا تكون لغة القرآن قد توسعت في استعمال هذا الحرف بنسبة (٢٥%) عمَّا كان عليه استعماله عند

١ - للإحاطة بهذه المواضع مفصَّلة يمكن الرجوع إلى برنامج (الموسوعة الشعرية) .
٢ - للإطلاع على هذه المواضع مفصَّلة يمكن الرجوع إلى برنامج (نور - جامع الأحاديث) ، أو للإطلاع عليها مجملة ينظر: معجم الأدوات الحروف : ٥٨٩- ٦٣٨، علما أنَّه سقطت من إحصاءه خمسة مواضع .

الشعراء ، ومع هذا العدد الكبير يصبح هذا الحرف أكثر الحروف الثنائية والثلاثية استعمالا في القرآن الكريم والدواوين . وكذا تنوعت صور اتصاله بالضمائر أو أسماء الاستفهام أكثر من غيره ، ولحصر هذه الأنماط من الاستعمالات في القرآن والشعر نضعها في هذا الجدول :

	مِن	مِنّا	مِنكَ	مِنكِ	مِنكم	مِنكن	مِنه	مِنها	مِنهم	مِنهما	مِنهن	منّي	مِمَّ	ممّا	ممّن	لِمن	لَمِنكم
في القرآن الكريم	٢٤٧٥	٣٥	٧	--	١١٥	٤	٩٠	٩٥	١٩٠	١٠	٧	١٠	١	١٢٢	٣٦	٢٨	١
في دواوين الشعراء	١١٠٥	٣٣	٧	١٣	٧	--	٧٦	٧٩	٤٩	٤	١٢	٤١	--	٢٢	٦	--	--

تبقى إن ظاهرة استعمال الحرف داخلا على الضمائر التي تشير إلى الجمع والمثنى في الاستعمال القرآني تفوق ما عليه في الاستعمال الشعري ، فقد وصلت نسبة استعمال الحرف داخلا على هذه الضمائر (مِنَّا ، مِنكُم ، مِنكُن ، مِنهُم ، مِنهُمَا ، مِنهُنَّ ، لَمِنكُم) في القرآن إلى (١١%) من مجموع استعمال الحرف القرآني ، في حين كانت في دواوين الشعراء (٧%) ، وينعكس الحال في استعمال الحرف داخلا على الضمائر التي تشير إلى المفرد ، فقد كانت نسبة استعمال الحرف داخلا على(مِنكَ ، مِنكِ ، مِنهُ ، مِنهَا ، مِنِّي) في الدواوين (١٤,٨%) من مجموع استعمالهم له ، في حين تراجعت هذه النسبة في القرآن لتصل إلى(٣,٥%) من مجموع الاستعمال القرآني ، وفي هذا تأكيد لِمَا قلته آنفا من إن الخطاب القرآني ينحو نحو الجمع لا المفرد ، إذ هو يخاطب المجتمع ، ويسعى لإصلاح المجتمع ، في حين كان الشعر خطابا ذاتيا موجها إلى الفرد الآخر ، فهذا تجزيئيٌّ والقران شموليٌّ .

وكانت نسبة استعمال الحرف داخلا على ضمائر المذكر عالية في الخطاب القرآني حتى وصلت إلى (١٢%) من مجموع الاستعمال القرآني للحرف ، وكانت في الاستعمال الشعري قد بلغت(٩,٨%) ، في حين كان استعمال الحرف داخلا على ضمائر المؤنث في الاستعمال الشعري (٧,١%) من مجموع استعمالات الشعراء للحرف ، وتراجعت في الخطاب القرآني لتصل إلى (٣,٢%) ، لا يعني هذا قلَّة رعاية القرآن لشؤون المرأة إطلاقا ولا إجحافا بحقها ؛ لأن القرآن كتاب نزل بلغة العرب مراعيا أعرافهم ، وكان عرف المجتمع الجاهلي أن الخطاب يكون للرجل ، ولو ارتفعت نسبة خطاب المرأة المفردة في القرآن لربَّما نفروا منه ، فخاطبهم القرآن من حيث يريدون لكنه فرض للمرأة حقوقها ، ورفع مكانتها من حيث يريد الله تعالى .

(من) لفظ مشترك ، له معنيان مركزيان (التبعيض والابتداء) ، ويبدو أنَّ كثيرا من اللغويين لم يتنبهوا لهذا ، في حين صرَّح به ابن جني وتنبَّه له[1] ، سوى هذين المعنيين المركزيين هنالك عددٌ من المعاني الهامشية التي رافقت هذين المعنيين ، وكان استشهاد كتب (معاني الحروف) يقتصر تقريبا على الأمثلة القرآنية، ولم تذكر إلاَّ أربعة أمثلة شعرية واحد منها فقط كان لامرئ القيس[2]، وقد يعطي هذا انطباعا عن قلَّة استعمال تلك المعاني عند الشعراء ، لكنَّ هذا الانطباع قد يكون متسرعا وغير دقيق ، إذ استعملَ الشعراءُ هذه المعاني بكثرةٍ ، أمَّا المعنيان المركزيان فاستعمالهما من الكثرة بما يغني عن الحاجة إلى الاستشهاد لهما وتكفي نظرة عابرة إلى أيٍّ من الدواوين لتثبت هذا[3] ، وأمَّا المعاني الهامشية فهي أيضاً ليست

---

١ - ظ : الخصائص : ٣\١١٠- ١١١، وينظر معه : الفصل الثاني : ١١٠.

٢ - ظ : حروف المعاني:٧٦،٥٠،٨٢، معاني الحروف:٩٧- ٩٨، رسالتان في اللغة:٤٩، أسرا العربية:٢٣٣، اللباب في علل البناء والإعراب:١\٣٥٣، البيان في شرح اللمع:١٤٧- ١٤٨، شرح ألفية ابن مالك:١٤١، رصف المباني:٣٢٢- ٣٢٥، الجنى الداني :٣١٤- ٣٢٣، مغني اللبيب:٤١٩- ٤٣١، أوضح المسالك:٣\٢١-٢٨، دراسات لأسلوب القرآن الكريم:٣\٣٢٣-٣٦٦.

٣ - ظ : ديوان طرفة بن العبد : ١٥٧، ديوان طرفة(درية الخطيب): ١٧٨، ديوان الحارث بن حلزة : ١٤، شرح ديوان زهير: ٢٨١، شرح ديوان لبيد: ٣٥، ١٧٠ .

قليلة الاستعمال فمعنى بيان الجنس الذي يرافق معنى التبعيض قد مثَّلوا له بقوله تعالى :﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾(البقرة من الآية:١٠٦) ، وقالوا : إن(من) كثيرا ما تقع بهذا المعنى بعد(ما ومهما) لشدَّة إبهامهما ، وقد اعتاد الشعراء استعمال هذا المعنى[١]، ومنه قول زهير[٢]:

(الطويل)

وَمَهما تَكُن عِندَ امرِئٍ مِن خَليقَةٍ   وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

ومعنى التعليل الهامشي الذي يرافق معنى ابتداء الغاية كان من المعاني التي استشهدوا لها بقول امرئ القيس[٣]:

(المتقارب)

وَذَلِكَ مِن نَبَإٍ جاءَني   وَأُنبِئتُهُ عَن أَبي الأَسوَدِ

ما يعانيه الشاعر من السهر والألم كان بسبب النبأ الذي جاءه فـ(من) حملت معنى التعليل والسببية فضلا عن كونها بداية السهر ومصدره .

معنى البدليَّة قد يرافق معنى التبعيض ، كما في قول زهير [٤]:

(الوافر)

تَحَمَّلَ أَهلُهُ مِنهُ فَبانوا   وَفي عَرَصاتِهِ مِنهُم رُسومُ

الرسوم التي بقيت في العرصات هي بديل من أهل الحي بعد أن بانوا عنه ومعنى الابتداء المركزي ما زال جزء منه محفوظا في المعنى فهم مصدر تلك الرسوم التي بقيت بعدهم .

وقد تحوي (من) الابتدائية معنى (إلى) فضلا عن معناها المركزي ، ولم يستشهد النحاة لهذا المعنى بقول بليغ من كلام العرب ، في حين نجدُ خيرَ مثالٍ لها قولَ لبيدٍ [٥]:

(الوافر)

وَهَل يَشتاقُ مِثلُكَ مِن دِيارٍ   دَوارِسَ بَينَ تُختَمَ وَالخِلالِ

فالشوق إلى الديارِ ، والديارُ مبدأُ صدورِ الشوقِ .

وكذا معنى (عن) قد يرافق (من) الابتدائية كما في قول الحارث بن حلزة[٦]:

(الخفيف)

ثُمَّ فاءَوا مِنهُم بِقاصِمَةِ الـ (م) ـظَهرِ وَلا يَبرُدُ الغَليلَ الماءُ

وكذا في قول زهير [٧]:

(البسيط)

مُحَسَّدونَ عَلى ما كانَ مِن نِعَمٍ   لا يَنزِعُ اللَهُ مِنهُم ما لَهُ حُسِدوا

فالنزع يكون عنهم لأنه إبعاد الشيء عن الجسد ، لكنه استعمل هنا من للدلالة على معناها المركزي وهو الابتداء مصحوبا بالمعنى المجاوزة والبعد الهامشي .

---

١ - ظ : ديوان الحارث بن حلزة:١٣،١٤،٢١، ديوان طرفة بن العبد:٣١، ديوان طرفة(درية الخطيب):٤٩، شرح ديوان زهير:٣٢، شرح ديوان لبيد :١٠٥،٧ .

٢ - شرح ديوان زهير : ٣٢ ، وينظر معه : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:٢٨٩.

٣ - ديوان امرئ القيس : ١٨٥.

٤ - شرح ديوان زهير :٢٠٨ .

٥ - شرح ديوان لبيد : ٧٥ .

٦ - ديوان الحارث بن حلزة :١٤ ، ومثله صفحة: ١٦ البيت رقم :٨٤ .

٧ - شرح ديوان زهير : ٢٨٢ .

ومن معاني (من) الهامشية التي ذكرت موافقتها لـ(عند)، وذكر له من القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾(آل عمران: من الآية:١٠) ، أي لن تغني عند الله تعالى، وقيل هي هنا بدليَّة[١]، ويمكن أن نتلمس مثل هذا المعنى الهامشي في قول الحارث[٢]:

(الخفيف)

فَتَنَوَّرتُ نارَها مِن بَعيدٍ بِخَزارٍ هَيهاتَ مِنكَ الصَلاءُ

أي هيهات عندكِ الصلاءُ ؛ لأنها بَعُدَتْ عنه ، ولم يعد بالإمكان أن يصطلي عندها ، وإن كانت هي ونارها مبدأ ذلك الدفء .

كثُرَتْ المعاني الهامشية التي حملتها (من) الابتدائية مع معناها المركزي فمعنى الظرفية قد ذكروا له مثلا قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾(الجمعة من الآية : ٩)[٣] ، نجد له مثيلا في قول زهير [٤]:

(الطويل)

فَأَنقَذَها مِن غَمرَةِ المَوتِ أَنَّها رَأَت أَنَّها إِن تَنظُرِ النَبلَ تُقصَدِ

وقت الإنقاذ كان وقتَ أنْ عَلتهَا غَمرَةُ الموتِ لكن بداية الإنقاذ كانت غمرة الموت أيضا فهنا تداخل المعنى البداية والظرفية ، وهذا الاستعمال البلاغي استعمال مقصود في اللغة ولو كان الشاعر استعمل (في) لفوَّت عليه جزءا من المعنى الابتداء .

واستعملت (من) وقد أعطت معنى (الباء) في قوله تعالى: ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾(الشورى من الآية :٤٥) ، وقد فصَّلت القول فيما تقدَّم ، وعرفَ الشعرُ مثلَ هذا ، قال امرؤ القيس[٥]:

(السريع)

قَد قَرَّتِ العَينانِ مِن مالِكٍ وَمِن بَني عَمروٍ وَمِن كاهِلِ

فالعينان قد قرَّت بمالك وفعاله وببني عمرو وكاهل ، ومنهم كان ذلك القرار ، فهم سببه وآلته ومبدؤه ، اجتماع المعاني بهذا الشكل لا يمكن أن يؤدَّى إلاَّ من خلال اجتماع المعاني الهامشية مع المعنى المركزي للحرف .

وكذا قيل إن (من) تأتي بمعنى (على) في نحو قوله ﷻ : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾(الأنبياء من الآية :٧٧) ، أي عليهم ، فالنصر من القوم الظالمين ، وفيه علوٌّ وارتفاعٌ فوقهم ، ويبدو أن لامرئ القيس بيتا يُحَمِّلُ (من) فيه معنى الاستعلاء زيادةً على معناها المركزي ، وذلك قوله[٦]:

(الطويل)

---

١ - ظ : مغني اللبيب : ٤٢٤ .
٢ - ديوان الحارث بن حلزة :١٤ ، ومثله صفحة: ١٦ البيت رقم :٨٤ .
٣ - ظ :التبيان في إعراب القران : ١٢٨\٢، شرح الرضي على الكافية: ٢٩٨\٢، البرهان : ٤٢٠\٤، دراسات لأسلوب القران الكريم : ٤١٨\٣.
٤ - شرح ديوان زهير : ٢٢٩ .
٥ - ديوان امرئ القيس : ١٢٠ .
٦ - ديوان امرئ القيس : ١٢٠ .

أَقَـبَّ كَسِـرحانِ الغَضَـى مُتَمَطِّـرٍ تَـرى المـاءَ مِـن أَعطافِـهِ قَـد تَحَـدَّرا

يصف فرسه بأنه أقبٌّ أي ضامر كذئب الغضى[1] ، ومُتَمَطِّر أي سابق ، يقال جاءت الخيل متمطِّرة أي يسبق بعضها بعضا ، والماء يريد به العرق الذي أخذ يجرى من أعطافه وهما منكباه[2] ، وهذا الجريان يكون فوق المنكبين نزولا منهما ، فمعنى الفوقية والاستعلاء على المنكبين موجودٌ بكل حال ، بل لا يفارق المعنى الرئيس ، إذ المنكبان هما مصدر فَرْز العرق ، فمنهما يجري ، وعليهما يسيل .

أما معنى التوكيد عندما تكون زائدة فقد فصَّل القول في هذا المبحث باحثٌ معاصرٌ بما لا يستوجب الزيادة قائلا في نهاية مبحثه القيِّم :((تطرد دلالة (من) في المواضع التي زعم الأخفش وغيره ورودها زائدة ، على معنى التبعيض ، وهو من المعاني الأصليَّة لـ(من) بإتقان النحاة والمفسرين واللغويين ، وترد (من) ابتدائية في مَواضعَ أُخرى ،...، ويصح أن تفيد (من) توكيد العبارة ، ولا يصحُّ القول بزيادتها ،أيًّا كان القصدُ من هذه الكلمة .)) [3]، قوله هذا يتفق مع ما أراه في نظرية المعني المركزي والمعاني الهامشية ، فقد حدد المعنيين المركزيين ولحظ اطراد دلالة (من) في تلك المواضع على التبعيض ، وعليه أقول إن (من) التبعيضيَّة تحمل معنى التوكيد هامشيا أكثر من الابتدائية التي قد تأتي به أيضا ، ومعنى التوكيد يبقى معنى هامشيا يأتي بفعل العوامل التي يوفرها السياق .

لقد كانت (من) من الحروف الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم وفي دواوين أصحاب المعلقات ، وكانت على قسمين ، أعني عندنا حرفين (من) التبعيضيَّة و(من) الابتدائية ، وتأتي كل واحد منهما في سياقات خاصَّة تحمل فيها مع معناها المركزي معاني أخر قد أشرت إلى أكثرها ، وكانت تلك المعاني معروفة في الاستعمال الشعري قبل نزول القرآن الكريم ، لكنَّ فضل الكشف عنها يعود للنص القرآني ، وما حفَّ به من دراسات لغوية ودلاليَّة ، واستعمال المعنى قبل القرآن ، لم يمنعه من أن يتفرَّد بصورٍ خاصَّة في استعمال كلِّ حرف سواءً في دلالته المركزية أو في معانيه الهامشيَّة ، ولستُ هنا بصدد تتبع الصور التي تفرَّد بها القرآن ، بل أحاول أن أرصد الاستعمالات أو المعاني التي تفرَّد بها القرآن ولم يكن الشعراء قد عرفوها قبل نزوله .

وبغية معرفة استعمالات الشعراء ونسبها وأشكالها أضع هذا الجدول لبيانها :

	من	منّا	منكَ	منكِ	منكم	منه	منها	منهم	منهما	منهنَّ	مِني	ممّا	ممَّن	المجموع	نسبته المئوية
امرؤ القيس	١٥٥	١	٢	١	--	١١	٥	٢	١	٧	٤	٤	--	١٩٣	%٢٧
طرفه بن العبد	٨٣	٢	٢	١	--	٤	٨	٢	١	١	١	--	--	١٠٥	%٢٤
الحارث بن حلزة	٣٦	٥	--	١	--	٢	١	١	--	--	--	٢	١	٤٩	%٢٧
عمرو بن كلثوم	٥٤	١٠	--	١	١	٤	٤	٥	--	--	--	--	--	٧٩	%٢٧
عنترة بن شداد	٣٧٢	٧	١	٨	٣	١٨	١٥	١٣	--	٣	١٩	٤	٣	٤٦٦	%٢٦
زهير بن ابي سلمى	١٩٩	٣	--	١	٣	٢٣	٢٥	١٢	١	١	٦	٢	--	٢٧٦	%٣٠
لبيد بن ربيعه	٢٠٦	٥	٢	--	--	١٤	٢١	١٤	١	--	١١	١٠	٢	٢٨٦	%٢١

١ - الغَضَى: نوع من الشَجَر ، ويقال : ذِئبُ غَضىً نسبة إلى هذا الشجر. والغَضَى: من نَباتِ الرمل له هَدَب كهَدَبِ الأَرْطَى، قال ابن سيده ((وقال ثعلب يُكْتَبُ بالأَلِفِ ولا أَدْري لمَ ذلك، واحِدتُه غَضاةٌ ،...، وأَهلُ الغَضَى: أَهلُ نَجْدٍ لكَثْرَتِه هنالك ،..، عن ثعلب: والعرب تقول: أَخْبَثُ الذِّئابِ ذِئبُ الغَضَى، وإِنما صار كذا لأَنه لا يُباشِرُ الناس إلا إذا أَراد أَن يُغيرَ،...، وذِئابُ الغَضَى: بنُو كعبِ بنِ مالكِ بن حَنْظَلة، شُبِّهُوا بتلك الذئابِ لخُبْثِها .)) ينظر : لسان العرب : مادة (غضا) : ٤٣١\١٤.

٢ - ظ : شرح الأشعار الستة الجاهلية: ١٩٧\١ .

٣ - معجم الجملة القرآنية \ القسم الأول : الحروف الزائدة في ضوء الدراسات القرآنية: ١٣١، وينظر معه : كتاب: ٣٠٧\٢، المقتضب : ٤٥\١، ١٣٧\٤، ٤٢١، الإنصاف في مسائل الخلاف : ٣٧٧\١، شرح جمل الزجاجي: ٤٨٥\١ ، البرهان: ٤٢١\٤، دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ٤٠٩- ٤١٣٨، التراكيب اللغوية في العربية:١٤٣.

المجموع	١١٠٥	٣٣	٧	١٣	٧	٧٦	٧٩	٤٩	٤	١٢	٤١	٢٢	٦	١٤٥٤	%٢٦

أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف كان زهير الذي بلغت نسبة استعماله إلى مجموع أبيات ديوانه(٣٠%) ، وأقلُّ الشعراء كان لبيد ، وكانت نسبته إلى مجموع أبيات ديوانه (٢١%)، وكثر استعمال عنترة للحرف داخلا على ضمير المخاطبة(مِنكِ) فوصل إلى ثماني مرات ليكون أكثر الشعراء استعمالا لهذه الصيغة ، ولعلَّ لهذا ما يسوغه ، وذلك بعده عن حبيبته عبلة التي صعب عليه فراقها ، فما كان منه إلاَّ تصورها حاضرة عنده يخاطبها ويكلمها ، وقد تكرر هذا مرارا في حروف أخر ، وليس هذا فحسب فقد كان عنترة أكثر الشعراء استعمالا للحرف داخلا على ضمير المتكلم (مِنِّي) فقد جاء عنده في الديوان (١٩) مرَّة، وتفسير هذا في ما أعتقد وبحسب ما تبيَّن من استعماله لحرف أخر، أنَّه يتحدث عن نفسه كثيرا ، لاعتداده بها وثقته العالية بأفعاله وشجاعته وبطولاته ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، يتكلم على أخباره ويشيعها بين الناس لتصل إلى حبيبته وأهل عشيرته الذين بَعُدَ عنهم ، وفي هذا الحديث المتواصل محاولة لإثبات الذات وترسيخ مكانته في القبيلة وإن كان غائبا عنها .

ترتفع نسبة استعمال (مِن) وهي داخلة على ضمائر المفرد (مِنْكَ ، مِنْكِ ، مِنْهُ ، مِنْهَا ، مِنِّي) عند زهير وتبلغ نسبتها عنده إلى مجموع استعمالاته للحرف (١٩%) أي خمس الاستعمالات ، ويأتي من بعده لبيد الذي انخفضت نسبتها عنده إلى (١٦%) ، ومن بعدهما يأتي عنترة ، وكانت نسبة استعماله للحرف مع هذه الضمائر (١٣%) ، وأفسِّرُ ظاهرة استعمال ضمائر المفرد أكثر من استعمال ضمائر الجمع بأن الشاعر يُعنى بالشخص ، ونظرته إلى ما حوله نظرةٌ تجزيئيَّةٌ ، أساسها الفرد وليس المجتمع ، وأنا أعتقد أنَّ النظرة التجزيئيَّة متسقة مع حياة العربي في الجاهلية ، فالمعيشة في الصحراء قد فرضت عليهم مثل هذا المناخ . إن هذا التفسير لا يمثل قانونا علميا ثابتا لا يمكن نقضه ، إنما هو ملاحظات اعتقدها دقيقة ؛ لأنها تقوم على تقصي حياة العرب قبل الإسلام ، ومتابعة طرق معيشتهم ، وملامح الفكر عندهم من خلال لغتهم وعلاقتها بفكرهم .

كان أكثر الشعراء استعمالا لـ(من) داخلة على ضمائر الإناث (مِنْكِ ، مِنْهَا ، مِنْهُنَّ) زهير؛ إذ بلغت نسبة استعماله لها (٩,٧%) أي قرابة نصف الخمس من مجموع استعمالاته للحرف في الديوان ، ومثله طرفة(٩,٥%) ، ويأتي من بعدهما لبيد الذي انخفضت النسبة عنده لتصل إلى (٧,٣%) من مجموع استعمالاته للحرف ، تسجل المرأة حضورا في استعمال زهير أكثر من غيره في هذا الحرف ، لكن لن نتسرع بالحكم هنا بل سنرقب استعمالها في الحروف الأخرى لتكون الصورة أكمل ، فلنا إليها عودة في المبحث الثاني .

ثالث عشر : (ها)

(ها) حرفُ تَنْبيهٍ ، ويأتي مطردا في أربعة مواضع[1]:

١- مع أسماء الإشارة وهي (ذا ، وذي ، وذه ، وذان ، وذين ، وتان ، وتين ، وأولاء ، وهنا)[2] ، ولا تلزم معه إلاَّ إذا أريد القرب والحضور ، ومنه قوله تعالى :﴿ **هَذَا صِرَاطٌ**

١ - ظ : حروف المعاني : ٧٣ ، شرح المفصل : ٨\ ١١٣-١١٦، شرح الرضي على الكافية : ١٤ : ، رصف المباني : ٤٠٤ ، الجنى الداني : ٣٤٢، مغني اللبيب : ٤٥٥، لسان العرب : مادة(ها) : ١٥\٤٨٠،٤٧٥ .

٢ - ظ :شرح قطر الندى : ٩٨-١٠٠، شرح ابن عقيل : ١\١٣٠ – ١٣٦ .

مُسْتَقِيمٌ﴾(آل عمران: من الآية٥١) ، وربما جاءت مع اسم الإشارة المقرون بالكاف ، ومنه قول طرفة [١] :

(الطويل)

رَأَيــتُ بَــني غَــبراءَ لا يُنكِــرونَني وَلا أَهــلُ هَــذاكَ الطِــرافِ المُمَــدَّدِ

قيل ولا يقاس عليه ، ولا تأتي مع المقرون بالكاف واللام ، فلا يقال (هذالك) ؛ لكثرة الزوائد[٢] .

٢- مع (أيّ) في النداء ، للتوصل بها إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وقيل (ها) لازمة هنا ؛ لأنها كالصلة لـ(أيّ) بسبب ما فاتها من الإضافة التي تشترط فيها ، ولهذا السبب يقال في إعراب (ها) صلة وتنبيه . ومنها قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾(البقرة: من الآية٢١) .

٣- مع ضمير الرفع المنفصل إذا كان مبتدأ مخبرا عنه باسم الإشارة ، كقولهم (ها أنا ذا) ، ومنه قوله تعالى :﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾(آل عمران: من الآية١١٩) ، وقيل في هذا النوع : التي كانت داخلة على اسم الإشارة ، فقدمت[٣] ، وردَّ عليهم بأنها قد تدخل على الداخلة على اسم الإشارة ، كما في قوله ﷻ : ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ﴾(آل عمران: من الآية٦٦)، وأجاب ابن هشام عن هذا بأنها أعيدت ثانية للتوكيد[٤] . ذكر المراديُّ : أنه يقال: (ها أنا ذا) ، و(ها أنا هذا) ، و(أنا هذا) ، وأكثر هذه الأقوال استعمالا الأول ثم الثاني ثم الثالث[٥] . في حين قال الفراء :((العرب إذا جاءت إلى اسم مُكنًّى قد وُصِفَ بـ(هذا وهذان وهؤلاء) فرَّقوا بين (ها) و(ذا) وجعلوا المُكنَّى بينهما ، وذلك في جهة التقريب لا في غيرها ، فيقولون : (أين أنت؟) فيقول القائل :(ها أنا ذا) ، ولا يكادون يقولون (هذا أنا) . وكذلك في التثنية والجمع .)) [٦].

٤- مع اسم الله تعالى في القسم ، عند حذف الحرف خاصَّة ، كقولهم : (ها الله لأفْعَلَنْ) ، وعلى الرغم من ادعاء النحاة اطراد هذا النوع ، إني لم أعثر له على شاهد واحد في أشعار الجاهليين كلهم فضلا عن أصحاب المعلقات ، فقد توسعت في البحث ولم يفلح الجهد . وكذا لم يرد مثل هذا في الاستعمال القرآني لهذا الحرف ، لذا يكون زعمهم هذا غير دقيق ، وقد يكون هذا الاستعمال موجودا في لغة بعض القبائل العربية ، أو قد يكون مستعملا في لغة الحياة اليومية ، لكنه يقينا غيرَ موجودٍ في اللغة العربية الفصيحة البليغة المشتركة (شعرها وقرآنها) .

وقد تقع في غير المواضع المتقدمة ، إذا أريد التنبيه فيقال (ها أنا أفعل) و (ها السلام عليكم)، وقد تستعمل مفردة (ها) بمعنى : تَنبَّه [٧].

استعمل حرف التنبيه (ها) عند أصحاب المعلقات قليلا ؛ فبلغ مجموع استعمالاتهم له (٥٢) اثنتين وخمسين مرَّة في مجموع دواوينهم ، لتكون نسبة استعمال هذا الحرف إلى مجموع

---

١ - ديوان طرفة بن العبد : ٢٧، ديوان طرفة(درية الخطيب):٤٥ .
٢ - ينظر مع المصادر المذكورة في الهامش الثالث من هذا المبحث : التبيان في إعراب القرآن : ١٠١\١ .
٣ - ظ : معاني القرآن (الفراء) : ٢٣٢\١ ، مجالس ثعلب: ٣٤\١- ٤٤ .
٤ - ط : مغني اللبيب : ٤٥٦.
٥ - ظ : الجنى الداني : ٣٤٣ .
٦ - معاني القرآن : ٢٣٢\١ .
٧- ظ: سر صناعة الإعراب:٣٤٣\١–٣٤٤، رصف المباني:٤٠٦، الجنى الداني:٣٤٤، حروف المعاني في معجم لسان العرب:٢٢١.

أبيات الدواوين (٠,٩%) تسعة استعمالات في كل ألف بيت شعري ، وسأذكر في هذا الجدول أنواع (ها) ، واستعمال الشعراء لكل نوع ، لنتبيَّن الأنواع المستعملة والشعراء المستعملين لها :

ت	اسم الشاعر	استعمالات (ها) التنبيهيَّة الداخلة على : اسم الإشارة				أيُّ	ضمير الرفع	استعمال (ها) للتنبيه	مجموع استعمالات الشاعر	نسبة استعمالات الشاعر إلى مجموع أبياته
		هذا	هذاك	هذه	هذي	أيُّها	ها أنا			
١	امرؤ القيس	٥	--	--	--	٣	--	--	٨	%١,١
٢	طرفة بن العبد	٣	١	--	--	١	--	--	٥	%١,١
٣	الحارث بن حلِّزة	--	--	--	--	٣	--	--	٣	%١,٦
٤	عمرو بن كلثوم	--	--	--	--	--	--	--	--	--
٥	عنترة بن شداد	١١	--	٣	--	١	٤	١	٢٠	١,١
٦	زهير بن أبي سلمى	١	--	١	--	١	--	١	٤	%٠,٤٤
٧	لبيد بن ربيعة	١٠	--	--	١	١	--	--	١٢	%٠,٩٠
	المجموع	٣٠	١	٤	١	١٠	٦	٢	٥٢	%٠,٩٣

إنَّ تحليل بيانات الجدول تظهر لنا أنَّ أكثر صور (ها) التنبيهية استعمالا هي استعمالها داخلة على اسم الإشارة (ذا) الذي يشار به إلى المفرد المذكر ، وقد قاربت نسبة استعماله أن تصل إلى ثلثي مجموع استعمالات الشعراء ، ويأتي من بعده استعمال (ها) داخلة على (أيّ) لتصبح (أيُّها) التي يتوصل بها إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وقد بلغت نسبة استعماله خُمسَ مجموع استعمالات الشعراء لحرف التنبيه (ها) ، أما الإشارة إلى المفردة المؤنثة فقليل جدا ، إذ كانت نسبته نصف العشر من مجموع استعمالات الشعراء . وما يفهم مما تقدم أن القريب الحاضر إلى روح الشاعر الجاهلي عموما ، وأصحاب المعلقات خصوصا هو الإشارة إلى المفرد المذكر ، ثم نداء المعرف بـ(أل) ، ومن بعدهما الإشارة إلى الأنثى .

ليس المقصود من المفرد المذكر هنا (الأشخاص) فقط ، لا ولكن النحاة حينما قسَّموا الألفاظ على مذكر ومؤنث أصبحت هنالك ثنائية تماثل ثنائية كبرى في الوجود ، هي (المذكر والمؤنث) ولما كان العربي يعتزُّ بالرجولة والذكورة لما تتميز به من قوَّة – والقوَّة أساس البقاء في الصحراء ، وعند الجاهليين – أصبح العربي يعتزُّ بكل ما يشير إلى الرجولة التي أضحت عنده رمز القوة فقول عنترة [1] :

(الرمـل)

إن تَكُــن تَشــكو لأوجــاعِ الهَــوى   فَأَنــا أَشــفيكَ مِــن هَــذا الوَجَــع

لا يشير فيه إلى شخص ، بل يشير به إلى معنى الوجع ، وهو معنى يدلّ عليه لفظ مذكر ، ومثله قوله أيضاً[2] :

(الوافـر)

سَــأَجهَلُ بَعــدَ هَــذا الحِلــمِ حَتّــى   أُريـــقُ دَمَ الحَواضِـــرِ وَالبَـــوادي

فـ(الحلم) مفهوم محترم عند البشر أجمعهم ، وهذا المفهوم السامي يدلّ عليه لفظ مذكر ، وهكذا قول طرفة[3] :

(الطويل)

---

١ - أشعار عنترة العبسي :٢٧٨ .
٢ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٢٢ .
٣ - ديوان طرفة بن العبد :٨١ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٩٢ .

قِفـي لا يَكُـن هَـذا تَعِلَّـةَ وَصـلِنا ... لِـبَينٍ وَلا ذا حَظُّنـا مِـن نَوالِـكِ

فهو يشير إلى (الصدود والهجران) وهذا المفهوم يدلُّ عليه لفظ مذكر ، ولم تكن الإشارة بـ(هذا) كلها على هذا النحو ، فهناك إشارات كانت تدلُّ على الأفراد كقول امرئ القيس[1]:

(الطويل)

إِذا قُلتُ هَـذا صـاحِبٌ قَـد رَضيتُهُ ... وَقَـرَّت بِـهِ العَينـانِ بُـدِّلتُ آخَـرا

أما استعمال (ها) الداخلة على (أيّ) فكان للتوصل إلى نداء المعرَّف بـ(الـ) ، وغالبا ما كان حرف النداء مقدَّرا وغيرَ ظاهرٍ[2]، كقول امرئ القيس[3] :

(الطويل)

أَلا أَيُّهـا اللَيـلُ الطَويـلُ أَلا انجَلـي ... بِصُـبحٍ وَمـا الإِصـباحُ مِنـكَ بِأَمثَـلِ

وقد جاء حرف النداء ظاهرا مع (أيها) كما في قول الحارث بن حلِّزة [4] :

(السريع)

يـا أَيُّهـا المُزمِـعُ ثُـمَّ انثَنـى ... لا يَثنِـكَ الحـازي وَلا الشـاحِجُ

أما استعمال (ها) مع ضمير الرفع المنفصل فقد جاء ثلاث مرات عند عنترة منها قوله[5]:

(الوافـر)

وَهـا أَنـا قَـد بَـرَزتُ اليَـومَ أَشـفي ... فُـؤادي مِـنكُمُ وَغَليـلَ صَـدري

وفي البيتين الآخرين كانت (ها) داخلة على (أنا) مثل هذا البيت ، وفي هذا الاستعمال ردٌّ آخر على من قال : إن (ها) الداخلة على ضمير الرفع ، هي نفسها الداخلة على اسم الإشارة فقدمت ، وقد نقلت آنفا ردَّ بعض العلماء على هذا القول فيضاف هذا إلى ذاك الرد ، وفي قوله (ها أنا) ردٌّ أيضاً على من يوجب ذكر (ذا) بعدهما .

كان دخول (ها) التنبيهية في المواضع المتقدمة مطردا في الاستعمال ، لكنها قد تدخل في غير هذه المواضع ، منها قول زهير[6] :

(البسيط)

تَعَلَّمَـن هـا لَعَمـرُ اللَـهِ ذا قَسَـماً ... فَاِقـدِر بِـذَرعِكَ وَاِنظُـر أَيـنَ تَنسَـلِكُ

فجاءت (ها) هنا للتنبيه على القسم ، وهذا التنبيه مع القسم يراد منه لفت النظر إلى أهمية الأمر الذي يريد الشاعر قوله . وجاءت أيضاً عند عنترة للتنبيه في قوله[7]:

(الطويل)

---

١ - ديوان امرئ القيس :٦٩. وينظر معه : شرح الأشعار الستة الجاهلية :١\ ٢٠٢ .

٢ - وردت سبعة مواضع خالية من حرف النداء من أصل عشرة استعملت فيها (أيها) ، وكانت عند امرئ القيس ثلاثة ، ينظر ديوانه : ١٨، ٢٧، ١٦٨، وعند طرفة مرة واحدة ، ينظر ديوانه : ٦٣ ، وعند الحارث اثنين ، ينظر ديوانه : ١١، ١٥، ، وعند زهير واحدة ، ينظر شرح ديوانه : ٨ . ويمكن الإطلاع عليها كلها من خلال برنامج الموسوعة الشعرية .

٣ - ديوان امرئ القيس :١٨، وينظر معه : شرح القصائد التسع المشهورات : ١\١٦٠ ، شرح القصائد العشر : ٦٦، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\٩٥.

٤ - ديوان الحارث بن حلِّزة :٢٠ .

٥ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٦٤.

٦ - شرح ديوان زهير : ١٨٢.

٧ - أشعار عنترة العبسي :٢٥٥ .

وَهـا قَـد رَحَلَـتُ اليَـومَ عَنـهُم وَأَمرُنـا   إِلى مَـن لَـهُ في خَلقِـهِ النَهـيُ وَالأَمـرُ

فالشاعر هنا يريد التنبيه إلى معنى تحقق الرحيل مع تفويض الأمر إلى الله تعالى .

وفي القرآن الكريم استعملت (ها) التنبيهية بأشكال مختلفة وتنوعت في دخولها على أسماء الإشارة و(أيّ) وضمير الرفع ، وسيبين هذا الجدول أنواع استعمالات (ها) في القرآن الكريم وعددها :

	استعمالات (ها) التنبيهية الداخلة على :									
	اسم الإشارة							أيُّ		ضمير الرفع
	هذا	هكذا	هذه	هذان	هاتين	هؤلاء	هاهنا	أيُّها	أيتها	ها أنتم
عدد مرات الاستعمال	٢٢٢	١	٤٧	٢	١	٤٦	٤	١٥٢	٢	٤

بلـغ مجمـوع استعمالات القرآن لـ(ها) التنبيهية بكل صورها (٤٨١) أربعمئـة وواحداً وثمـانين استـعمالا [1]، لتكـون نسـبة استـعمال هـذا الحـرف إلـى مجمـوع آيـات القـرآن الكـريم (٧,٥%) سبعة موارد في كل مئة آية ، أو خمسة وسبعين موردا في كل ألف آية ، وهكذا فإن الاستعمال القرآني لهذا الحرف توسع بمقدار ثمانية أضعاف ما كان عليه عند الشعراء ، وإذا كان الحرف معناه التنبيه ، علمنا أن هذا التوسع فيه أمران ، الأول : أن الناس كانوا مشغولين غير ملتفتين إلى ما جاء به القرآن الكريم ، وكان القرآن الكريم ينبههم باستمرار ، وإذا أضفنا إلـى استعمالات (ها) استعمال النداء بـ(يا) فـي القرآن ومـا فيـه من تنبيـه ، وسيأتي أن نسبته (٥,٦%) سيكون مجموع نسب التنبيه في القرآن (١٣,١%) أي سيكون عندنا تنبيه معين في كل عشر آيات قرآنية ، ولاشك في أن هذا إلحاح في الخطاب لشدِّ ذهن المتلقي ليبقى على اتصال دائم بالخطاب القرآني . وثانيهما : أن قسما من الناس لم يكونوا غير ملتفتين إلى الخطاب القرآني ، ولكن هذا الخطاب موجه إلى الكل ، فيكون بالنسبة إلـى هؤلاء طلب زيادة الانتباه ، وذلك لخطورة الأمور التي عالجها القرآن ، وبها يقوم بناء الإنسان ، وتتحقق خلافة الله في أرضه ، وقد يكون الخطاب لنواح بلاغية كما إذا كان للإقبال على المخاطب ليكون أدعى في الاستجابة لتعاليم السماء ، إذا ما أقبل عليه الخالق فكلمه مباشرة [2].

كانت أكثر صور استعمال (ها) تكرارا في القرآن العزيز دخولها على اسم الإشارة المذكر القريب ، وكانت نسبة هذا الاستعمالات إلى بقيَّة الاستعمالات (٤٦%) أي قرابة نصف مجموع الاستعمالات ، في حين كانت نسبة دخولها على اسم الإشارة المؤنث (٩%) أي قرابة العشر من مجموع الاستعمالات ، ومثلها نسبة دخولها على اسم الإشارة إلى المجموع (أولاء) . وهذا يعني أن حضور الإشارة إلى الاسم المؤنث ، والى المجموع كانت بمقدار واحد في القرآن الكريم ، وبقيت السيادة إلى إشارة إلى الاسم المذكر ، إن النسب في الإشارة هنا أكثر توازنا مما كانت عليه عند أصحاب المعلقات ، فقد ارتفعت نسبة الإشارة إلى المؤنث إلى ضعف ما كانت عليه عند الشعراء ، واستعملت الإشارة إلى المجموع التي لم نعثر عليها في الدواوين ، وجاءت نسبة الإشارة إلى المذكر في القرآن أقل من النصف بعد أن كانت عند الشعراء تمثل ثلثي مجموع الاستعمالات ، وجاءت الإشارة إلى المثنى المذكر والمؤنث ، وجاءت الإشارة إلى المكان القريب ، ومثل هذه الاستعمالات لم نرها عند الشعراء ، ويدلل هذا على توازن لطيف

---

١ - يمكن الإطلاع على هذه الاستعمالات مفصلة من خلال برنامج (نور جامع الأحاديث) .

٢ - ظ: الكشاف : ٢٢٤/١ ، وسيأتي بيان هذا مفصلا في المبحث الأخير المخصص لـ(يا) .

في الاستعمال القرآني للألفاظ ، فلم يهمل شيء على حساب شيء ، ولا يكثر استعمال على آخر إلاّ لسبب ، قد نهتدي إليه وقد نغفل عنه .

استعملت (ها) الداخلة على (أيّ) في القرآن بكثرة وكانت نسبة استعمالها تمثل ثلث مجموع استعمالات (ها) في القرآن المجيد ، وفي أكثرها كانت مصاحبة لحرف النداء ، مثل قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(البقرة: من الآية٢١) ، وقوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(النساء: من الآية١٧٤) ، لقد تكرر مجيء (أيها) مقترنا بحرف النداء (١٤٢) مرَّة في الاستعمال القرآني ، والمنادى المباشر بهذا الخطاب هو (أيّ) وهو اسم مبهم ولا يصل إلى المعرَّف (الناس) أو (المؤمنون) إلاَّ بوصلة وهي (ها) التنبيهية ، ((وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أيّ من الإضافة .))[1]، حمل الحرف هنا زيادة على معناه الأصلي الذي هو التنبيه المحض ، هذه الزيادة التي كانت التوكيد ، وهذا التوكيد يحتاج إليه السياق لأن الأمر الذي يطرحه خطير ، وقد يكون في نفوس بعض المتلقين إنكار له ، فاحتاج المقام إلى التوكيد زيادة على التنبيه .

وجاءت (أيها) في القرآن مع حرف نداء مُقدَّرٍ ، وتكرر ذلك في تسعة موارد[2]، منها قوله تعالى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾(النساء: من الآية١٣٣) ، وقوله ﷻ : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾(يوسف: من الآية٤٦) ، ففي الكلام محذوف :((قد ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما ترك وذلك : فأرسلوه ، فأتى يوسف ، فقال له : يا يوسف يا أيها الصديق .)) [3] ، كان إخبار يوسف لهم بتأويل الرؤيا شيئا مهما ؛ لأنه يتعلق بشأن من شؤون الملك ، ومن ثم سيكون فيه إثبات لكرامة يوسف عليه السلام ، لذا كان المقام يقتضي زيادة التنبيه على ما في الخطاب من معانٍ . لقد اختلف الحال في الاستعمال القرآني عما كان عليه عند الشعراء في هذه المسألة ، فالشعراء كانوا إذا أدخلوا (ها) على (أي) في النداء يميلون غالبا إلى حذف حرف النداء من الكلام مكتفين بدلالة (ها) على التنبيه ، وقد يأتون بحرف النداء معها ظاهرا ، لكن الاستعمال القرآني في الأعم الأغلب منه كان يأتي مع (أيها) بحرف النداء الظاهر ، ليزيد من تأكيد تَنَبُّه المتلقي مراعاةً لأهمية الأمور المُنبه عليها والمُنادى لأجلها .
دخلت (ها) التنبيهية على ضمير الرفع (أنتم) فقط ، ولم تدخل على غيره في القرآن الكريم ، قال تعالى :﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾(آل عمران: من الآية٦٦) ، وقال تبارك اسمه :﴿ هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ﴾(آل عمران: من الآية١١٩) ، فـ(ها) هنا للتنبيه ، وقد دخلت على (أنتم) ، في حين كانت عند الشعراء قد دخلت على (أنا) فقط ، ولم تدخل على غيره ، ويقول الطوسي في بيان سبب دخولها على أنتم:((وإنما نبههم على أنفسهم وإن كان الإنسان لا ينبه على نفسه ، وإنما ينبه على ما أغفله من حاله ، لان المراد بذلك تنبيههم بذكر ما يعلمون على ما لا يعلمون ، فلذلك خرج التنبيه على النفس ، والمراد على

١ - الكشاف : ١\٢٢٤ .
٢ - النساء :١٣٣ ، يوسف :٤٦ ، الحجر :٧٥ ، النور :٣١ ، يس :٥٩ ، الزمر :٦٤ ، الذاريات :٣١ ، الرحمن :٣١، الواقعة:٥١.
٣ - جامع البيان : ١٢\٢٩٩ ، وينظر معه :التبيان : ٦\١٤٨، مجمع البيان : ٥\٤١ ، جوامع الجامع :٢\٢٢٣، مفاتيح الغيب : ١٨\٤٦٤ .

حال النفس . ولو جاء على الأصل ، لكان لابد من ذكر النفس للبيان ، ففيه مع ذلك إيجاز.))[1]، كأن التنبيه هنا في الاستعمال القرآني يشخص العلَّـة تشخيص عالمٍ بها مطلع عليها ، فهو ينظر من الأعلى ، ويخاطب البشر من خارج ذاتهم ، ليبيِّن لهم أن هنالك من يراقبهم ، ويرصد أفعالهم ويقومها ، وينبهم بين الحين والآخر على بعض فعالهم . والتنبيه للمجموع لا لفرد بعينه ، في حين كان الشاعر يحاول تأكيد معنى الفردية وهذا نابع من طبيعة حياته التي يعيش فيها والقيم التي تربَّى عليها ، وهي كلها تعتزُّ بالنفس والفخر الذاتي ، ولا يعنيها كثيرا أن تنظر إلى المجموع العام ، وتلحظ المصلحة العامة للمجتمع ، فالنظرة عند الشعراء للحياة كانت جزئية ، والقران كان يتعامل مع الحياة من منظار شمولي ، لذا استعمل الشعراء (ها أنا) واستعمل القرآن (ها أنتم) . وفي هذا تطور في لغة الخطاب القرآني عمَّا كانت عليه عند الشعراء قبل نزوله ، وتحقيق لفرضية الفصل .

رابع عشر : (هَلْ)

(هل) حرف للاستفهام التصديقي الموجب ، وكان لاستعماله في النصوص البلاغية خصوصية أشرت إليها في الفصل الثاني ، فغالبا ما كان هذا الحرف يستعمل على نحو المجاز، ليحمل مع معناه المركزي بعض المعاني الهامشية من خلال استعماله في سياقات خاصَّة .

ومن ناحية وصف الاستعمال العام أقول : جاءت نسب استعمال (هل) في القرآن الكريم ودواوين أصحاب المعلقات متطابقة ، فقد استعملت (هل) في دواوين الشعراء (٧٨) ثمانيا وسبعين مرَّة[2]، ونسبتها إلى مجموع الأبيات الشعرية في الدواوين (١,٤%) أربعة عشر استعمالا في كل ألف بيت شعري ، وكان استعمالها في المصحف الشريف (٩٣) ثلاثا وتسعين مرَّة[3]، لتكون نسبة استعمالها إلى مجموع آيات القرآن الكريم (١,٤%) أي أربعة عشر استعمالا في كل ألف آية ، إن تطابق النسبة إلى هذا الحد بين النصين المدروسين - على سعتهما - يعطي صورةً واضحةً ودقيقةً لحجم استعمال هذا الحرف في اللغة العربية .

إنَّ كل ما استعمل من موارد (هل) في شعر أصحاب المعلقات والأعمّ الأغلب من استعماله القرآني جاء من باب المجاز . والاستعمالُ المجازي للاستفهام يخرج به إلى أغراض متعددة اعتمادا على السياقات التي يرد فيها الحرف ، وهذا يجعل الاستعمال المجازي للحرف نتيجة لإيحاء السياق العام للنص الذي يرد فيه ذلك الحرف .

المعنى الهامشي الأول لـ(هل) التحقيق :

لقد أجمعت المصادر على ذكر شواهد قرآنية لهذا الاستعمال ، ولم يرو لنا أحدهم شاهدا من أشعار أصحاب المعلقات أو غيرهم من الجاهليين ، ما قد يوهم بأن هذا المعنى لم يكن مستعملا قبل نزول القرآن ، ولكن الحق أن هنالك عددا من الشواهد الشعرية يصحُّ حملها على

---

١ - التبيان : ٤٩١\٢ .
٢ - ظ : برنامج الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث .
٣ - ظ: برنامج (نور جامع الأحاديث) ، معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٦٤٨- ٦٥٠، وقد اشتبه عليهم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ فأعطي الرقم (١٠٤\١٨) والصحيح :(١٠٣\١٨) ، وكذا قوله تعالى :﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ إذ أعطي الرقم(٣٥\٨٣) ورقمه الصحيح :(٣٦\٨٣)

هذا المعنى وقد ذكرت هنالك عددا منها للحارث وعمرو ، وأزيد هنا لعنترة بيتا يمكن أن يحمل على هذا المعنى يقول فيه[١]:

(الطويل)

أَلا هَـــل أَتاهـــا أَنَّ يَـــومَ عُراعِـــرٍ شَـفى سَـقَماً لَـو كانَـتِ النَفسُ تَشـتَفي

والمعنى قد أتاها أن يوم عراعر شفى سقمه وأخذ بثأره ، وأكرر هنا ما نقلته آنفا من رأي كمال محمد بشر من أنَّ التنغيم - وهو أحد عناصر السياق - له قدرة على تحويل معنى الجملة من الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام المجازي الذي يخرج إلى معان منها التحقيق[٢]، أي إنَّ الشاعر قادر على إلقاء البيت بصورة يفهم منها المتلقي أنه مستفهم على نحو الحقيقة ويستطيع أن يفهم المتلقي أنه مستفهم على نحو المجاز ، والمحدد الأكثر فاعليَّة في تشخيص أيّ المعنيين هو المراد التنغيم وطريقة نطق البيت أو الجملة .

ولبيد له أيضاً ما يمكن أن يحمل على هذا المعنى [٣]، ومنه أيضاً قوله[٤]:

(الرجز)

هَـل تَعـرِفُ الـدارَ بِسَـفحِ الشَـرَبَه مِـن قُلَـلِ الشِـحرِ فَـذاتِ العُنظُبَـه

أي قد تعرف الدار مع ما جرى عليها من خلال معرفتك بموضعين قريبين منها ،هما (قلل الشحر) و(ذات العنظبة) .

هذه (٥) خمسة مواضع هي كل ما عثرت عليه في أشعار أصحاب المعلقات يمكن أن يكون الاستفهام المجازي فيها أخرج (هل) إلى معنى (قد) ، لتكون نسبته إلى مجموع الاستعمال الشعري (٦%) ، وكنت قد جمعت من الآيات القرآنية المستعملة على هذا المعنى (٩) تسع آيات[٥] ، لتبلغ نسبة استعمالها في القرآن إلى مجموع الاستعمالات القرآنية (٩%) ومعنى هذا أن القرآن قد توسع في استعمال الاستفهام المجازي بنسبة(٣%) ليعطي من خلاله لـ(هل) معنى التحقيق أكثر مما كان عليه عند شعراء المعلقات .

المعنى الهامشي الثاني <u>لـ(هل) النفي</u>:

استعملت (هل) وهي تحمل معنى هامشيا هو معنى (ما) النافية ، وقد ذكرت عددا من أقوال الشعراء والاستعمال القرآني لهذا المعنى بما لا يستوجب المزيد ، وقد أحصيت من استعمالات أصحاب المعلقات لاستفهام المجازي الذي يخرج بـ(هل) إلى معنى (ما) النافية (١١) أحد عشر موردا[٦] ، لتكون نسبة هذا الاستعمال إلى مجموع استعمالات الشعراء (١٤%) .

لقد توسع استعمال هذا المعنى في القرآن الكريم ، إذ وردت بهذا الشكل (٢٢) اثنتين وعشرين مرَّة [٧]، وهذا يعني أن نسبة هذا الاستعمال إلى مجموع الاستعمالات القرآنية (٢٣%) (٢٣%) لتكون نسبة التوسع في استعمال هذا المعنى عمَّا كان عليه عند الشعراء (٠,٩%) .

---

١ - ديوان عنترة (مولوي) : ٢٢٨ ، أشعار عنترة العبسي :٥٨ .
٢ - ظ : علم اللغة العام (الأصوات) : ١٨٩ – ١٩٠ ، وينظر الفصل الثاني من هذه الدراسة :١١٧- ١١٨ .
٣ - شرح ديوان لبيد :٧٤-٧٥ .
٤ - شرح ديوان لبيد :٣٥٥ .
٥ - يوسف: ٨٩، طه:٦، ص:٢١، الذاريات:٢٤، الإنسان : ١، النازعات :١٥، المطففين :٣٦، البروج :١٧، الغاشية:١ .
٦ - كان لامرئ القيس منها اثنين ينظر ديوانه : ٢٧، ١١٠، ولعنترة ثلاثة ينظر ديوانه (فوزي عطوي): ١٢٩، ١٨٨، ولزهير اثنين ينظر شرح ديوانه : ٢٩٦،٢٧٩، وللبيد أربعة ، ينظر شرح ديوانه :٥٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٣٥٧.
٧ - البقرة: ٢١٠،المائدة:٥٩،الأنعام:٤٧، ١٥٨،الأعراف:٥٣ ،١٤٧،التوبة:٥٢، يونس:٥٢، ١٠٢، يوسف:٦٤، النحل:٣٣، ٣٥، الإسراء:٩٣، الأنبياء:٣، النمل:٩٠، سبأ:١٧، ٣٣، الزخرف:٦٦،الرحمن:٦٠، فاطر:٤٣،الأحقاف:٣٥، محمد:١٨ ، وينظر برنامج (نور جامع الأحاديث) و دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ٤٩٠ .

وأُكرر هنا أن السياق الذي وردت فيه (هل) هو المسؤول عن إخراجها إلى هذا المعنى المجازي ، فليس دقيقا أن نقول إن (هل) تساوي (ما) النافية ، بل الأصح أن يقال قد ترد (هل) ضمن سياق الاستفهام المجازي بمعنى النفي .

لقد شاع في الاستعمال البلاغي لهذا الحرف أن يحمل على معنى النفي ، بمعنى (ليس) أو بمعنى (لا) كما مثّلت له بأشعار أصحاب المعلقات ، أو بالآيات القرآنية الكريمة ، ولقد رصدت من الموارد التي يمكن أن تُحْمَلَ في التأويلِ على معنى (ليس) ، أو تُحْمَلَ على معنى (لا) (٣١) واحدا وثلاثين موردا [١]، ليكون مجموع ما جمعناه من استعمال (هل) ضمن سياق الاستفهام الإنكاري الذي يجعلها نافية (٥٣) ثلاثة وخمسين موردا ، وبذلك تبلغ نسبة توظيف الاستعمال القرآني لها لإفادة معنى النفي (٥٦%) من مجمل استعمالها في القرآن الكريم ، أي أكثر من نصف ذلك الاستعمال .

ومن المناسب أن أشيرفي هذا الجدول إلى استعمالات الشعراء لهذا الحرف ونسبها :

ت	اسم الشاعر	استعماله (هل)	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	١٠	٦٩٥	%١,٤
٢	طرفة بن العبد	٤	٤٣٦	%٠,٩
٣	الحارث بن حلّزة	٨	١٧٨	%٤,٤
٤	عمرو بن كلثوم	٣	٢٩٢	%١
٥	عنترة بن شداد	٢٣	١٧٦٩	%١,٣
٦	زهير بن أبي سلمى	١٥	٨٩٤	%١,٦
٧	لبيد بن ربيعة	١٥	١٣٢٢	%١,١
	المجموع	٧٨	٥٥٨٦	%١,٤

إن أقل الشعراء استعملا لـ(هل) طرفة بن العبد؛ إذ بلغت نسبة استعماله هذا الحرف إلى مجموع أبياته الشعرية تسعة استعمالات في كل ألف بيت من أشعاره ، في حين كان أكثرهم استعمالا لهذا الحرف الحارث بن حلّزة الذي بلغت نسبة استعماله له أربعا وأربعين مرَّة في كل ألف بيت من أشعاره . إن روح التحدي وإثبات الذات التي امتازت بها معلقة الحارث في محاولته للظهور أمام الملك ، كانت سببا لكثير من الاستفهام الإنكاري الذي حفلت به معلقته . وقد تقاربت نسب الشعراء البقية فيما بينهم مما يجعلني أعتقد أنَّ النسبة العامة لاستعمال هذا الحرف عند الشعراء الجاهليين عموما تقرب من أربعة عشر استعمالا في كل ألف بيت . وبقيت هذه النسبة في القرآن الكريم على حالها .

خامس عشر : (يَا)

استعملت (يا) في الشعر الجاهلي بصورة واضحة ، لإفادة النداء ، وكان مجموع استعمالها في دواوين أصحاب المعلقات (٢٤٤) مئتين وأربعا وأربعين مرَّة [٢] ، وهي موزعة على الشعراء على النحو المبيَّن في هذا الجدول :

ت	اسم الشاعر	استعما	عدد	النسبة

١ - معنى(ليس) : الأنعام:١٤٨،الأعراف:٥٣،يونس:٣٤، ٣٥، الشعراء:٢٠٣، الروم:٢٨، ٤٠، فاطر:٣،الشورى:٤٤، ق:٣٦، غافر:١١، القمر:١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١ .
معنى(لا) : الأنعام:٥٠،هود:٢٤، الرعد:١٦، النحل:٧٥، ٧٦، مريم: ٩٨، الحج:١٥، الشعراء:٧٢، ٩٣، الزمر:٩، ٢٩، ٣٨، ٣٨، الملك:٣، الحاقة:٨ .

٢ - ظ : برنامج الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث .

		له (يا)	أبياته	المئوية
١	امرؤ القيس	٢١	٦٩٥	٣%
٢	طرفة بن العبد	٥	٤٣٦	١,١%
٣	الحارث بن حلِّزة	٣	١٧٨	١,٦%
٤	عمرو بن كلثوم	١١	٢٩٢	٣,٧%
٥	عنترة بن شداد	١٦٧	١٧٦٩	٩,٤%
٦	زهير بن أبي سلمى	٩	٨٩٤	١%
٧	لبيد بن ربيعة	٢٨	١٣٢٢	٢,١%

الملاحظ من الجدول أن عنترة بن شداد يمتاز من أقرانه باستعماله غير المعهود عندهم لهذا الحرف ، فنرى هنالك تغيرا وسعة غريبة في استعماله ، ففي الوقت الذي بلغ فيه مجموع استعمال الشعراء الستة للحرف (٧٧) سبعا وسبعين مرَّة ، كان استعماله هو وحده(١٦٧) ، مئة وسبعا وستين مرَّة ، وقد تراوحت نسبة الاستعمال عند الشعراء بين (١%) إلى(٣,٧%) ، لكنها تصل عند عنترة إلى (٩,٤%) تسعة بالمئة ، أو أربع وتسعين مرَّة بالألف ، هذه السعة عند عنترة غير طبيعية ، ولا بد لها من سبب – وهذا ما سأحاول أن أجده – ولم يكن من المعقول أن أبقي هذا الاستعمال غير الطبيعي مع الاستعمال الطبيعي عند بقية الشعراء في حساب النسبة العامة لاستعمال الشعراء لهذا الحرف ، لذا قد استثنيت عنترة من حساب النسبة العامة ليكون وحده حالة خاصة ينظر إليها بخصوصية معينة ، وإذا استثنيت استعمال عنترة لهذا الحرف فستكون النسبة المئوية العامة لاستعمال الشعراء الستة إلى مجموع أبياتهم الشعرية (٢%) موضعين لـ(يا) في كل مئة بيت ، أو بعبارة أدق عشرين استعمالا في كل ألف بيت شعري .

وفي القرآن استعملت (يا) (٣٦١) ثلاث مئة وواحدةً وستين مرَّة [١]، لتكون نسبة استعمالها إلى مجموع الآيات القرآنية (٥,٦%) خمسة بالمئة أو ستة وخمسين استعمالا في كل ألف آية . وإذا ما قيست باستعمالات الشعراء الستة فإننا نلحظ زيادة في الاستعمال القرآني لهذا الحرف بمقدار يقترب من ثلاثة أضعاف ما كانت علية عند هؤلاء الشعراء تقريبا .

ولما كان النداء ليس مقصودا لذاته بل هو وسيلة تربط بين مُنَادِي ، ومُنادَىً ، و شيءٍ يراد التنبيه عليه ، ولفت النظر إليه ، فأننا يجب أن ننظر إلى هذه الأطرافَ الثلاثة لنرى مدى التطور الحاصل في استعمال هذا الحرف بين النصَّين المدروسين .

الطرف الأول : المُنَادِي

أما بالنسبة للجهة الصادر منها النداء ، ففي النص الشعري كان الشاعر هو المُنادي ، لكن النداء قد يكون حقيقيا ، وقد يأتي من باب الحكاية ، فينقله لنا الشاعر عن شخص آخر، لقد تكررت حكاية النداء عند الشعراء كلهم سبع مرات ، وكانت عند امرئ القيس مرتين وعند عنترة خمس مرات[٢]، منها قول امرئ القيس[٣] :

(الطويل)

تَقُولُ وَقَد مَالَ الغَبيطُ بِنا مَعاً   عَقَرتَ بَعيري يا اِمرَأَ القَيسِ فَانزُلِ

ومثله قول عنترة [٤] :

---

١ - ظ : برنامج (نور جامع الأحاديث) ، معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٦٦٤، علما أنه نقص من إحصاءه مورد واحد هو(٣\٥٥) ، واشتبه في تسمية موضعين هما(٨\٤٥) رقَّمه(٨\٥٤) ، و(٢٩\٣٦) ذكره برقم(٢٩\٢٦) ، وذكر أن (يا أيها الذين آمنوا استعملت(٩٠) مرة) والصحيح أنها استعملت(٨٩)مرَّة والموضع الذي ذكره خطأ ولم ترد فيه(٤\٤٧) .
٢ - ظ : ديوان امرئ القيس : ١١ ، ١٦٠، ديوان عنترة (فوزي عطوي) :١٩٢، ١٩٦، ٢٢٤ .
٣ - ديوان امرئ القيس:١١، وينظر معه : شرح القصائد التسع المشهورات :١\١٧٧، شرح القصائد العشر :٤٢ ، شرح الأشعار الستة الجاهلية :١\٧٧.
٤ - ديوان عنترة (مولوي): ٢٥٤ ، أشعار عنترة العبسي :٤٦ .

(الكامل)

فَتَضَاحَكَت عَجَباً وَقَالَت يا فَتى لا خَيرَ فيكَ كَأَنَّها لَم تَحفِلِ

إن حكاية النداء في أشعار أصحاب المعلقات كانت قليلة جدا ، فقد بلغت نسبتها (٢,٨%) من مجموع الاستعمالات ، وكان النداء يُحكى عن الحبيبة موجها إلى الشاعر نفسه .

أما القرآن الكريم وهو الصادر عن الله تعالى ، فالنداء فيه صادر عنه تعالى شأنه ، لكنني وجدت في كثير من المواضع أن النداء كان من باب الحكاية ، وقد أحصيت من مواضع حكاية النداء في القرآن (١٥١) مئة وواحد وخمسين موضعا ، لتكون نسبته إلى مجموع الاستعمال العام لهذا الحرف (٤١%)، وهذه نسبة مرتفعة جدا إذا ما قِيْسَت بما كان عند الشعراء ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾(يوسف: من الآية١١) .

الطرف الثاني : المُنَادَى

غالبا ما كان المنادى في أشعار أصحاب المعلقات الديار أو الحي أو الحبيبة أو أبناء القوم والقبيلة والعشيرة ، وتنوع المنادى بين هذه الأشياء بنسب معقولة لا تشهد لتغلب نوع على آخر، ما يدلّ على حضور هذه العناصر المستمر في مخيلة الشاعر التي عمدت إلى مناداتها وتنبيهها على ما تريد أن تبوح به من معانٍ وأفكار . ونادى عنترة ربَّه في بيت واحد فقط من أشعاره قائلا [١] :

(الطويل)

فَيا رَبِّ لا تَجعَل حَياتي مَذَمَّةً وَلا مَوتَتي بَينَ النِساءِ النَوائِحِ

ونادى لبيد الخالق مرَّة واحدة في أشعاره قائلا[٢] :

(الرجز)

أَنامَ أَم يَسمَعُ رَبُّ القُبَّه يا أَوهَبَ الناسِ لِعَنسٍ صُلبَه

وتفرَّد لبيد بمناداة النبي محمد9مرَّة بقوله [٣] :

(الطويل)

أَتَيناكَ يا خَيرَ البَرِيَّةِ كُلِّها لِتَرحَمَنا مِمّا لَقينا مِنَ الأَزلِ

وفي القرآن الكريم حُكِيَ لنا النداء عن النبي محمد9، والمُنادَى فيه الله عزَّ شأنه في موضعين ، وذلك في قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾(الفرقان:٣٠)، وقوله ﷻ :﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(الزخرف:٨٨) ، هذا على أن هنالك نداءات أخرى كان المُنَادَى فيها الخالق المدبر عزّ ذكره ، لكنها كانت على تقدير حرف النداء المحذوف فلم نضعها في قائمة استعمالات (يا) في القرآن التي اقتصرت على ما ذكر فيه حرف النداء ، من أمثلة تلك المواضع قوله تعالى :﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(آل عمران:

١ - أشعار عنترة العبسي :١٤١ .
٢ - شرح ديوان لبيد :٤٠٢ .
٣ - المصدر نفسه:٢٧٧.

من الآية٣٨) ، وقوله : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾(يوسف: من الآية٢٩) ، وقد يكون في ما تقدم إشارة إلى منزلة النبي الأكرم محمد9، الذي اختص من بين سائر الخلق أجمعين بالنداء المباشر بينه وبين ربِّ العزة بحرف النداء .

تميز شعر عنترة الذي حوى نسبة عالية جدا من الجمل الندائية بأن المنادى الأول في أشعاره هي حبيبته (عبلة) ، التي ذكرت مع حرف النداء (يا) (٥٩) تسعا وخمسين مرَّة ، وكنى عنها في (٢٢) اثنين وعشرين موضعا كقوله :(يا بنت السراة ، يا ظلوم ، يا ابنة مالك ، يا ابنة العم ، يا ابنة السادات ، يا ابنة الكرام، يا ابنة العبسيَّ ، يا بدر التمام ، يا أخت المها)[1]، ولم يكتف بذلك بل نادى (دار عبلة) في ثلاثة مواضع ، لتبلغ نسبة نداء عنترة لحبيبته عبلة (٥٠%) من مجموع استعمالاته للنداء ، أي نصف النداءات في ديوان شعره ، إن حياة البعد والغربة التي كان يعيش فيها عنترة حتمت عليه ترك الحمى ، وترك ديار القبيلة والعيش في الصحراء ، هذا البعد المستمر ، والخوف من عدم اللقاء إذا ما حل بهم الموت أو القتل زاد من الشوق إلى الأهل والحبيبة وأشعل نار الوجد في قلب الشاعر، ولم يكن أمامه لتسلية همه وإطفاء نار شوقه إلاَّ النداء المستمر لحبيبته ، ولعلَّ هذا البعد والعزلة عن الأهل هو السبب الرئيس لكثرة النداء في ديوان عنترة ، فهو بين ندائه لحبيبته عبلة وندائه لأعدائه ليوصل لهم تهديده ووعيده ، وبين ندائه لأبناء قبيلته مخبرا إياهم بمآثره وبلائه في الحروب وشجاعته . وهكذا بقي عنترة في نداء دائم مع المجتمع الذي يحيط به ويبعد عنه ، ليشعرهم بوجوده ويثبت لهم ذاته . هذه الخصوصية جعلت شعره متفردا في استعماله الكثير للنداء .

في القرآن الكريم كان المُنادَى الأول فيه هم (المؤمنون) ؛ إذ تكرر قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٨٩) تسعا وثمانين مرَّة [2]، وجاءت لفظ (عبادي) بدلا من (أي) مرتين ، في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾(الزمر: من الآية١٠) ، وفي قوله :﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(العنكبوت:٥٦) ، ليكون مجموع النداء الموجه للمؤمنين مباشرة (٩١) واحدةً وتسعين مرَّة ، وفي هذا النداء للمؤمنين ما يبعث الطمأنينة في نفوسهم ، والإقبال على طاعة الخالق العظيم الذي يلطف بهم في خطابهم ، فيخاطبهم بلا وساطة بينهم وبينه ، وإن كان في مقام تبليغ الرسالة جعل الرسول واسطة بينه وبين الخلق ، لكنه في مثل هذا النداء يرفع الوساطة ويكلمهم مباشرة ، وفي هذا شرف كبير للمؤمنين المخاطبين بها[3].

---

١ - تنظر استعمالات عنترة للنداء من خلال برنامج الموسوعة الشعرية .

٢ - لقد اشتبه الفخر الرازي في عدِّ هذه المواضع فقال :((اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن.)) (مفاتيح الغيب : ٦٣٤\٣) ، وكذلك اشتبه صاحب الميزان فقال إنها وردت في نحو (٨٥) موضع ، (الميزان في تفسير القرآن :٢٤٥\١) ، ولقد اشتبه أصحاب (معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم) ، فذكرا في الصفحة (٦٦٥) : أنها تكررت (٩٠) مرَّة وذكرا من مواردها الآية رقم : ٤٧ من سورة النساء ، في حين إن هذه الآية تخلوا من ذكرها ، والحقيقة أن { يا أيها الذين آمنوا} تكررت في القرآن الكريم (٨٩) مرَّة وهذا ما وجدته من خلال تتبعي الدقيق في إحصائيات المصحف مستعينا بأحدث البرامج الإلكترونية .

٣ - ظ : مفاتيح الغيب : ٦٣٤\٣ ، الميزان : ٢٤٧\١ .

وجاء من النداء ما وجه إلى الناس كلهم كما في قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾التي تكررت في القرآن الكريم (٢٠) عشرين مرَّة[١]، ويضاف إليها قوله تعالى :﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ التي تكررت خمس مرات ، ولما كان القرآن الكريم كتاب الله المنزل إلى عباده كافة كان من الطبيعي أن يكون الإنسان محورا من محاور الحديث الرئيسة فيه ؛ بغية إصلاحه وهدايته . بل أبعد من هذا ما نجده من نداء عام إلى معشر الجن والإنس ، وقد تكرر هذا في موضعين أحدهما قوله تعالى :﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾(الأنعام: من الآية١٣٠) ، فقد راعى كتاب الله في خطابه الموجودات كلها في خطاب منظم ودقيق .

وقد يكون النداء موجها إلى النبي مباشرة كما في قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾(الأنفال: من الآية٦٥) ، وقد تكرر مثل هذا النداء (١٣) ثلاث عشرة مرّة[٢]، جاء مناداته بوصفه رسولا مرتين[٣]، منها قوله ﷻ :﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾(المائدة: من الآية٦٧)، ونودي ﷺ بقوله تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾(المزَّمِّل:١) مرَّة واحدة وبقوله ﷻ :﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾(المدَّثر:١) مرَّة واحدة أيضاً ، ليكون مجموع نداء الله تعالى المباشر للنبي خمس عشرة مرَّة ، في حين نودي موسى ﷺ مباشرة أحدى عشر مرَّة . لكن النداء الموجه إلى حضرة النبي9، قد يكون المراد به أمته كلها وإنما خوطب به تشريفا له ؛ إذ هو سيد الخلق وأشرفهم عند الله ، فناسب المقام أن يخاطبه الحق تعالى نيابة عن أمته ، إعلاءً لشأنه وإظهارا لمنزلته ، وذلك في مثل قوله تعالى[٤]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾(الطلاق: من الآية١).

وإذا نظرتُ إلى أشعار أصحاب المعلقات لا أرى فيها خطابا موجها إلى البشر كلهم ، فضلا عن توجيه خطاب إلى معشر الجن ، مع أنهم رووا لنا أشعارا نسبوها إلى هذا العالم[٥]، وذلك لأن الشاعر لم يكن من همه و كده إصلاح البشرية ، أو رعاية مصالحها ، فهذا ليس من شأن الشاعر . نعم قد تكون نظرته تسع القبيلة فقد خاطب بعضهم قبائلهم أو غيرها طالبين ومحذرين أو منذرين من بعض الأخطار، لكن خطاب البشرية لم يكن يعنيهم ، من ذلك قول امرئ القيس[٦]:

(الطويل)

أَلا يا أهلَ كِندةَ اقتُلوا بِابنِ عَمِّكم ... وإلاَّ فَما أَنتُم قَبيلٌ ولا خَوَلْ

ومن ذلك أيضا قول عنترة[٧] :

١ - ظ : البقرة: ٢١، ١٦٨، النساء:١، ١٧٠، ١٧٤، الأعراف:١٥٨، يونس:٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٨، الحج:١، ٥ ،٤٩، ٧٣، النمل:١٦، لقمان:٣٣، فاطر:٣، ٥، ١٥، الحجرات:١٣ .
٢ - ظ : الأنفال :٦٤، ٦٥، ٧٠، التوبة :٧٣، الأحزاب :١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، الممتحنة :١٢، الطلاق :١، التحريم :١، ٩ .
٣ - ظ : المائدة:٤١، ٦٧ .
٤ - ظ : مفاتيح الغيب : ٣٠\٥٥٨ ، الميزان : ١٩\٣١٢ .
٥ - ظ : البيان والتبيين : ١\٢٨٩-٢٩٠، الحيوان :٦\١٧٢-٢٣٠ .
٦ - ديوان امرئ القيس :٤٦٩ .
٧ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٨٢.

(الخفيف)

يـــا بَـــني عـــامِرٍ سَـــتَلقَونَ بَرقـــاً   مِـن حُسـامي يُجـري الـدِماءَ سِـجاما

ومن خلال قلـّة النداءات الموجه إلى الجماعة وليس إلى الفرد ، قد نستطيع القول :إن النظرة الشمولية للإنسان التي تهتم بالمصلحة العامة لبني البشر كانت قليلة عند هؤلاء الشعراء ، وليس هذا عيبا فيهم ؛ لأن حياتهم كانت قائمة على التجزئة القبلية ، وكيانهم كان يحترم الذاتية الفردية .

وقد لا يكون إظهار المُنَادَى ضروريا عند الشاعر في الكلام فيحذفه كما في قولهم : (يا ربَّ) أو (يا عجبا) أو (يا لهف) ، وهذه من المواضع التي قال عنها بعض النحويين إنها للتنبيه لا للنداء ، ولم أره مناسبا ، ومنه قول امرئ القيس [١] :

(الطويل)

فَـإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ بُهمَـةٍ   كَشَـفتُ إِذا مـا اِسـوَدَّ وَجـهُ جَبـانِ

وَإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ قَينَـةٍ   مُنَعَّمَـــةٍ أَعمَلتُهـــا بِكِـــرانِ

وَإِن أُمـسِ مَكروبـاً فَيـا رُبَّ غـارَةٍ   شَـهِدتُ عَلـى أَقَـبِّ رَخـوِ اللَبـانِ

فالشاعر هنا قد ينادي قومه أو صاحبه أو صاحبيه ، ليس هذا هو المهم عنده ، النقطة التي يريد الشاعر التنبيه عليها هي كثرة لهوه بالقينة ، أو كثرة كشفه عن الأمور العظيمة العويصة ، أو كثرة الغارات التي كان يشنها ، وفي هذه الأشياء منتهى اللذة والتحدي عنده ، إبراز الشيء المُنَبَّه عليه هو مُرَادَهُ هنا ، لكن مَنْ المُنَبَّه؟ المنبه كلُّ من يستمع كلامه .

وقد تكرر هذا عند طرفة في إظهار عجبه قائلا [٢] :

(الطويل)

يـا عَجَبـا مِـن عَبـدِ عَمـرٍو وَبَغيِـهِ   لَقَـد رامَ ظُلمـي عَبـدُ عَمـرٍو فَأَنعَمـا

إظهار العجب هو الغاية عند الشاعر ، والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم يَقَعُ فيه جعلته نداء ، وبذلك يكون أبلغ من أن يقول : أنا أتعجب وقد نقل لنا الطوسيُّ عن سيبويه قوله:((إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت احضر وتعال يا عجب ، فإنه من أزمانك.))[٣]. فليس الشخص المنادى هو الغاية هنا ، وإنما إبراز تلك الدهشة وذلك العجب ، وليكن هذا الإظهار إلى كل من يتلقاه ، ليكون ذلك أبلغ في إيصال معنى العجب ، فكأنه أذهل الشاعر عن أن ينتبه إلى من يوجه كلامه وخطابه ، هذا الحذف أراه منحى بلاغيا جماليا يؤكد من خلاله الشاعر المعنى في الألفاظ ، وهذه هي من مميزات اللغة الشعرية أو اللغة الأدبية البليغة . وقد تكررت مثل هذه الاستعمالات عند شعراء المعلقات بصورة واضحة ، حتى ليمكن القول : إن حذف المنادى أحيانا قد يكون من سمات اللغة الشعرية في أشعار أصحاب المعلقات .

<u>الطرف الثالث</u> : المُنَبَّه عليه

---

١ - ديوان امرئ القيس : ٨٦، وينظر معه شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\٢٣٠-٢٣١.
٢ - ديوان طرفة بن العبد :٩٤ ، ديوان طرفة(درية الخطيب):١٠٦.
٣ - التبيان : ٤\١١٥ .

لقد كان الشاعر ينادي للإخبار عن شيء ما في كثير من المواضع التي كان يستعمل (يا) فيها فقد أحصيت لامرئ القيس (١٢) موضعا يخبر بالنداء ، من أصل (٢٢) مرّة استعمل فيها هذا الحرف منها قوله[١]:

(السريع)

يـــــا دارَ ماوِيَّـــــةَ بالحائِــــــلِ   فَالسُّـــهبِ فَـــالخَبْتَينِ مِـــن عاقِـــلِ

صُــــمَّ صَــــداها وَعَفــــا رَسمُهــــا   وَاِســـتَعجَمَت عَــن مَنطِــقِ الســائِلِ

وأخبر أيضاً عن كثرة الأشياء التي مارسها مستعملا (رُبَّ) سبع مرات في أبياته مع النداء[٢] . وكذلك استعمل عمرو وزهير وعنترة النداء للإخبار ، ولبيد استعمله أيضاً في كثير من أبياته ، منها قوله [٣] :

(الطويل)

أَتَينـــاكَ يـــا خَـــيرَ البَرِيَّـــةِ كُلِّهـــا   لِتَرحَمَنــــا مِمّــــا لَقينــــا مِــــنَ الأَزلِ

واستعمل الشعراء النداء للتنبيه على الأمر ، كقول طرفة بن العبد [٤] :

(الطويل)

فَــإِن مُــتُّ فَــانعيني بِمــا أَنــا أَهلُــهُ   وَشُــقّي عَلَــيَّ الجَيــبَ يــا اِبنَــةَ مَعبَــدِ

هذان الغرضان هما أهم ما أراد الشعراء لفت الأنظار إليه ، وهنالك معان أخرى نجدها في الأبيات التي استعملوا فيها النداء مثبتة في قائمة الاستعمالات في الملاحق .

في القرآن الكريم تنوعت المعاني التي جاء النداء للتنبيه عليها ، وقد رصدت تلك المعاني وأحصيتها ، فكانت على ما هو مثبت في هذا الجدول [٥]:

ت	المعنى المراد التنبيه عليه	تكراره في القرآن	نسبته المئوية
١	الأمر	١١٤	%٣١,٥
٢	النهي	٤١	%١١,٣
٣	الإخبار	١٠٣	%٢٨,٥
٤	الاستفهام	٣٨	%١٠,٥
٥	الشرط	٢٢	%٦
٦	النفي	١٦	%٤,٤
٧	التحسر	٢٧	%٧,٤
مجموع الاستعمالات		٣٦١	

القرآن كتاب الله الذي نزل لهم بشريعة السماء ، ومعنى الشريعة التعاليم ، إذن كان طبيعيا أن نرى أن الأمر هو الذي تصدر في قائمة الأغراض التي أراد القرآن التنبيه عليها ، وإذا أضفنا له النواهي تزداد النسبة لتكون التعاليم الربانية هي الغرض الرئيس المشار إليه عن طريق النداء في القرآن الكريم ، أما الإخبار فيأتي بعده في المرتبة الثانية ، وكان قسم من هذا الإخبار يدلُّ على الأمر أيضاً ، كما ذكر الفقهاء والأصوليون أن من الخبر ما يدلّ على الأمر ، من ذلك قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾(البقرة: من الآية١٨٣) ، فكتب يعني فرض عليكم الصيام ، فهو واجب

١ - ديوان امرئ القيس :١١٩، وينظر معه شرح الأشعار الستة الجاهلية : ١\ ٢٨٠ .
٢ - ظ : ديوان امرئ القيس : ٢٩، ٨٦، ٨٦، ٩٠، ١٠٦، ١٠٦، ٢٣٦ .
٣ - شرح ديوان لبيد : ٢٧٧.
٤ - ديوان طرفة بن العبد :٤١ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٥٦ .
٥ - يمكن الإطلاع على هذه الآيات ومتابعتها من خلال برنامج _(نور جامع الأحاديث) .

والإخبار هنا يدلّ على الوجوب[1]. وكذلك قسم من الجمل الوارد فيها الشرط كانت تدلّ على الوجوب منها قوله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾(المائدة : من الآية٦)، فالتنبيه المباشر هنا للشرط ، لكن في الآية الكريمة واحد من أهم الأوامر الإلهية للعباد ، ذلك هو وجوب التطهر عند كل صلاة . وإذا ما ضُمَّت هذه الآيات التي تشتمل على الأمر ضمن المعاني الأخرى ، إلى تلك التي تحوي الأمر المباشر ، فسترتفع نسبة النداء المستعمل للتنبيه على الأوامر والنواهي الإلهية المبلغة للعباد .

وقد جاء النداء للتنبيه على الاستفهام الحقيقي ، كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(آل عمران: من الآية٣٧) ، فالاستفهام كان حقيقيا من زكريا عليه السلام ، لكنه كان من باب الحكاية في القرآن . فالنداء هنا للتنبيه على استغراب زكريا من وجود الطعام عندها في المحراب ، وقد كان وجوده خارقا للعادة ، فسألها ليستفهم ويفهم من يسمع ويصل إليه الخبر أنها من كرامات مريم التي منَّ الله تعالى عليها بها [2].

وقد يكون الاستفهام إنكاريا ، كما في قوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(آل عمران:٦٥) جاء النداء هنا للتنبيه على عظيم فريه أهل الكتاب في جدالهم بالباطل محاولة منهم لدحض الحق ، فاستفهم الحقُّ تعالى منكرا عليهم فعلهم ذلك ، ومنبها على خطر عنادهم وعدم تركهم له وللجدال بالباطل .

استعمل الشعراء النداء للتنبيه على الاستفهام ، كما في قول الحارث[3] :

(الكامل)

يـا آلَ زَيـدِ مَنـاةَ هَـل مِـن زاجِـرٍ ... لَكُـمُ فَيَنـهى الجَهـلَ عَـن هَمّـامِ

فهذا الاستفهام الذي يراد به النفي ، فمعناه أن ليس من زاجر لكم ، فيزجركم ، وقد جاء النداء للتنبيه على هذا المعنى . ومثله قول لبيد [4] :

(الكامل)

يـا بِشـرُ بِشـرَ إِيـادٍ أَيُّكُـم ... أَدّى أُرَيكَـةَ يَـومَ هَضـبِ الأَجشُـرِ

فالمعنى لم يؤد أريكة منكم أحد ، وجاء النداء للتنبيه على هذا .

تنوع استعمال النداء عند الشعراء بعناصره الثلاثة المُنَادي والمُنَادَى والشيء الذي يراد التنبيه عليه ، وجاء القرآن فتوسع في تلك الاستعمالات وطورها من جهة وابتدع معانيَ جديدة من جهة أخرى ، كل ذلك لتلائم لغة القرآن الكريم الغاية من إنزاله .

سادس عشر : (ألا)

---

١ - ظ : التبيان : ١١٥\٢ ، جوامع الجامع : ١٨٢\١ ، التبيان في إعراب القرآن :٨٠\١ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٢\٢ ، البحر المحيط : ١٧١\٢.
٢ - ظ : مفاتيح الغيب : ٨\ ٢٠٥- ٢٠٧.
٣ - ديوان الحارث بن حلزة : ١٧.
٤ - شرح ديوان لبيد :٢٢٧ .

أطلقت آنفا على بعض الحروف أنَّها جامدةٌ ، وغيرُ مرنةٍ ، وأقصد بذا أنها لا تأتي بمعان هامشية مع معناها المركزي ، بل تُستَعمل في دلالتها المركزية فقط ، ويبدو أنَّ (ألاَ) من هذه الحروف الجامدة ، فليس له من تلك المعاني الإضافية ما يؤديه ، واكتفى بـ(التنبيه على تحقيق ما بعده) . استعمل هذا الحرف قبل نزول القرآن في الشعر ، وكانت عدد مرات وروده عند أصحاب المعلقات (٨٠) ثمانين مرَّة[١] لتكون نسبة استعماله إلى مجموع أبياتهم (١,٤%)، وهي نسبةٌ حسنةٌ إذ نرى استعمالا لها ضمن كلِّ عشرة أبياتٍ من أشعار هؤلاء الشعراء ، ولو كانت لها دلالات أخرى غير معناها الرئيس لأتت ضمن هذا العدد من استعمالاتها .

وفي القرآن الكريم استعمل هذا الحرف (٣٩) تسعا وثلاثين مرَّة[٢] مما يجعل نسبته إلى مجموع آيات القرآن (٠,٦%) ستة استعمالات في كل ألف بيت ، أي تراجع استعماله عمَّا كان عليه عند الشعراء إلى أقل من نصف استعمالهم له . واستعاض القرآنُ منه فيما يبدو بـ(يا) التي زاد من استعمالها ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عن الشعراء قبل نزوله ، وكان استعمالها للتنبيه على أغراض عديدة كما تبيَّن ، أما (ألا) فهي للتنبيه على تحقيق ما بعدها ، وكانت تستعمل في كلِّ تلك المواضع عن الله تعالى شأنه أي المُنَبِّهُ هو الله تعالى ، فلم ترد عن غيره في الاستعمال القرآني ، فالخالق العليم كان يقرر بها تحقيق ما يريد أن ينبه الإنسان على تحقيقه ، في حين كانت (يا) أكثر تنوعا على مستوى عناصر العملية التنبيهيَّة الثلاثة المنبَّه والمنبِّه وما يراد التنبيه عليه ، من هنا كانت (يا) أكثر استعمالا في القرآن ، من جهة ثانية استعملت (ألا) في (٢٢) اثنين وعشرين موضعا قرآنيا وهي في سياق التوكيد بـ(إنَّ)[٣]، أي بنسبة (٥٦%) من مجموع استعمالها في القرآن ، نحو قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة من الآية :٢١٤) ، التوكيد بعد التنبيه يدلُّ على أهميَّة الشيء المراد في هذه الآيات ولفت أنظار المخاطبين إليه ، وكان استعمال (ألا) وبعدها (إن) معروفا عند شعراء المعلقات لكنَّه قليل جدا إذ وردت (٦) ست مرات[٤] ، في استعمالاتهم الثمانين فقط أي بنسبة (٧%) من مجموع استعمالاتهم وبهذا يتبيَّن الفرق الكبير بين الاستعمال القرآني لها والاستعمال الشعري ، وكان المُنَبِّهُ بها عند الشعراء الشاعر نفسه أو غيره ، في حين كان المُنبِّهُ في القرآن هو الخالق العظيم فقط ، ولم تأتِ على لسان أحد من خلقه . ومن أمثلة استعمال الشعراء لها قول طرفة [٥] :

(الطويل)

أَلا إِنَّمـــا أَبكـــي لِيَـــومٍ لَقيتُـــهُ	بِجُـرثُمَ قـاسٍ كُـلُّ مـا بَعـدَهُ جَلَـل
إِذا جـاءَ مـا لا بُـدَّ مِنـهُ فَمَرحَبـاً	بِـهِ حـينَ يَـأتي لا كِـذابٌ وَلا عِلَـل
أَلا إِنَّـني شَـرِبتُ أَسـوَدَ حالِكـاً	أَلا بَجَلـي مِـنَ الشَـرابِ أَلا بَجَـل

---

١ - ظ : برنامج الموسوعة الشعرية .

٢ - البقرة : ١٢ ،١٣ ،٢١٤، الأنعام:٣١، ٦٢، الأعراف:٥٤ ،١٣١، التوبة:٤٩، ٩٩، يونس:٥٥، ٦٢، ٦٦، هود:٥، ٨، ١٨، ٦٠، ٦٨، ٩٥، الرعد:٢٨، النحل:٢٥، ٥٩، النور:٦٤، الصافات:١٥١، الزمر:٣، ٥ ،١٥، فصلت:٥٤، الشورى:٥، ١٨، ٤٥، ٥٣، المجادلة:١٨، ١٩، ٢٢ ، ويمكن الإطلاع على هذه المواضع مفصَّلة في برنامج (نور جامع الأحاديث) ، ومجملة في : معجم الأدوات والحروف : ٢٧ ، علما أنَّه خلط مع (ألا) الاستفتاحية (١٥) موضعا من مواضع الهمزة الداخلة على (لا) .

٣ - البقرة : ١٢ ،١٣، ٢١٤، الأعراف:١٣١، التوبة:٩٩، يونس:٥٥،٥٥، ٦٢، ٦٦، هود:٥، ٦٠، ٦٨، النور:٦٤، الصافات:١٥١، فصلت:٥٤،٥٤ الشورى:٥، ١٨ ، ٤٥، المجادلة:١٨، ١٩، ٢٢ .

٤ - ظ : ديوان امرئ القيس:٨٣، ١٠٨،١٠٩، ١٣٦، ديوان طرفة بن العبد : ٨٩ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ١٠١.

٥ - ديوان طرفة بن العبد : ٨٩ ، ديوان طرفة(درية الخطيب): ١٠١ .

أراد الشاعر التنبيه على أخطر أمر ألمَّ به وهو نزول القدر المحتوم بساحته ، وكان ذاك من شربه شرابا فاسدا أو سما فأدخل (ألا) على (إنَّ) لجسامة ما يريد التنبيه عليه . أما نسب استعمالات الشعراء لهذا الحرف فيوضحها هذا الجدول[١] :

ت	اسم الشاعر	استعماله (ألا)		مجموع استعماله لـ(ألا)	عدد أبياته	النسبة المئوية
		بدون(إنَّ)	مع(إنَّ)			
١	امرؤ القيس	١٧	٢	١٩	٦٩٥	%٢,٧
٢	طرفة بن العبد	٧	٢	٩	٤٣٦	%٢
٣	الحارث بن حلِّزة	١	--	١	١٧٨	%٠,٥
٤	عمرو بن كلثوم	١١	--	١١	٢٩٢	%٣,٧
٥	عنترة بن شداد	٢٥	٢	٢٧	١٧٦٩	%١,٥
٦	زهير بن أبي سلمى	٧	--	٧	٨٩٤	%٠,٧
٧	لبيد بن ربيعة	٦	--	٦	١٣٢٢	%٠,٤
المجموع		٧٤	٦	٨٠	٥٥٨٦	%١,٤

أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف كان عمرو بن كلثوم ، ولعلَّ شعوره بالغبن والظلم نتيجة وشاية الواشين به وبقومه دفعه إلى تنبيه المتلقي ، وطلب في ستة استعمالات من موارد (ألا) إبلاغ رسالة عنه[٢] ، وهذا الطلب يبيِّن بوضوح شعوره بالظلم ، ويحاول أن يدفع عنه وعن وقومه ما نسب إليهم ، ومن غير أن يبدي ضعفا في قوَّته وقوَّة قبيلته ، بل على العكس كان مفتخرا عالي الهمَّة لا يأبه للآخرين معتمدا على قوَّة قومه .

سابع عشر : (إلى)

من الحروف الكثيرة الاستعمال (إلى) فقد ورد عند شعراء المعلقات (٢٧٦) مئتين وستا وسبعين مرَّة[٣]، لتكون نسبته إلى مجموع أبيات الدواوين (٤,٩%) قرابة خمسة استعمالات في كل مئة بيت من أشعارهم ، وورد في القرآن الكريم (٧٤٢) سبعمئة واثنتين وأربعين مرَّة[٤]، لتكون نسبته إلى مجموع آيات المصحف (١١,٨%) أي أحد عشر استعمالا في كل مئة آية ، أو فلنقل استعمال في كل عشر آيات ، وهي نسبة عالية ، تدلُّ على حضور قوي لهذا الحرف في عموم اللغة ، وتنوعت الأشكال التي ورد بها ، فقد اتصل بعدد من الضمائر ، ولبيان ذلك أضع هذا الجدول :

	إلى	إليكَ	إليكِ	إلينا	إليكما	إليَّ	إليها	إليكم	إليهن	إليهم	إليه	لَّإلى	المجموع	نسبته المئوية
في القرآن الكريم	٤٣٢	٧٧	٣	٢٤	١	٢٦	٤	٣٢	٢	٤٠	٩٩	٢	٧٤٢	%١١,٨
في دواوين الشعراء	١٩٢	١٦	١	٦	--	١٥	١٨	٥	--	٣	٢٠	--	٢٧٦	%٤,٩

١ - للإطلاع على هذه المواضع مفصَّلة يمكن متابعتها من خلال برنامج الموسوعة الشعرية . .
٢ - ظ : عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره : ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤.
٣ - ظ : الموسوعة الشعرية .
٤ - ظ : معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : ٧٣- ٨٥ ، علما أنَّه نقص من إحصائه خمسة مواضع هي :(٥٩\٤، ٢٨\٢٧، ٤٤\٢٨، ٤٥\٢٩، ١٢\٤٨)واشتبه في (٢٣\١٩) فرقَّمه خطأ (٢٢\١٩) ، و (٥\٤٩) ذكره برقم (٦\٤٩) ، في حين يمكن أُطلاع على المواضع كلها مفصلة من خلال برنامج _(نور جامع الأحاديث) .

زاد الاستعمال القرآني من دخول (إلى) على أغلب الضمائر عما كان عليه استعمال الشعراء قبل نزوله ، وكانت نسبة دخوله على ضمير المفرد الغائب أكثرهن استعمالا ، فقد بلغت نسبة (إليه) (١٣%) من مجموع الاستعمال القرآني ، في حين كانت نسبتها من الاستعمال الشعري (٧%) أي كانت زيادة الاستعمال القرآن تقرب من ضعف الاستعمال الشعري ، ويأتي من بعده استعمال(إليكَ) الذي بلغت نسبة استعماله القرآني (١٠%) من مجموع الاستعمال ، في حين كانت نسبته عند الشعراء (٥%) فكانت زيادة القرآن ضعف ما كان عليه استعمال الشعراء ، والموضع الوحيد الذي قلَّل منه الاستعمال القرآني هو دخول (إلى) على ضمير المفردة الغائبة ، إذ كانت نسبته في الاستعمال الشعري(٦,٥%) ، وتراجع هذا الاستعمال في القرآن حتى وصل إلى (٠,٥%) ، فقد كان الاستعمال الشعري يفوق الاستعمال القرآني اثني عشر ضعفا ، وإذا كان من تفسير لهذا الظاهرة فأقول : إن استعمال الشعراء لهذه الكلمة كان لكثرة ما ينظمون عن أحوال حبيباتهم وصاحباتهم وانتهائهم إليهن في مختلف الأوقات وكانت سلوتهم وقت الجزع والشدائد تذكُّر الأيام التي قضوها معهن ، وسرد تلك القصص في أشعارهم سَبَّبَ ارتفاعا في نسبة استعمال هذه الكلمة ، أما في القرآن الكريم فقد استعمل كلٌّ بمقدار موزون ، إن تحليل نتائج الجدول بشكل مفصَّل لكل واحد من الاستعمالات يطيل بنا المقام ، لذا أكتفي بهذا القدر لأنظر في المعاني الهامشية للحرف .

معنى الحرف المركزي الانتهاء ، أو انتهاء الغاية ، وذكرت له معاني هامشية كانت مستعملة في الشعر قبل أن يتنبَّه لها العلماء واللغويون في لغة القرآن الكريم ، منها معنى المصاحبة وقد استشهدوا له بقول امرئ القيس مع ذكر الآيات القرآنية ، وكذا معنى الظرفية الذي ذكروا من شواهده بيت طرفة ، وقد تقدَّم الكلام في هذا ، ومن المعاني الهامشية التي لم يذكروا لها من الشعر شواهد معنى موافقتها لمعنى (عند) ، ومثاله قول امرئ القيس[1] :

(الطويل)

وَبــاتَ إِلى أَرطـاةَ حِقـفٍ كَأَنَّهـا ... إِذا أَلثَقَتـها غَبيَـةٌ بَيـتُ مُعـرِسِ

والمعنى بات عند شجرة أرطاة ، ولكنه أراد أيضاً أنه انتهى إليها ، وكأن راحلته التي يصفها هنا كانت تعبة فما أن تركها انتهت إلى تلك الشجرة لتستريح ، وتبيت تلك الليلة عندها.

ومن المعاني الهامشية التي جاءت مع معنى (إلى) المركزي التبيِّن ، وفيه يكون الحرف (إلى) مبيِّناً لفاعليَّة مجروره بعد ما يفيد حبًّا أو بغضا من فعل تعجُّب أو اسم تفضيل[2] ، ومثاله قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾(يوسف من الآية : ٣٣)، وهذا المعنى كان مستعملا في أشعار أصحاب المعلقات فقد قال عنترة[3] :

(الوافر)

صَـباحُ الطَعـنِ في كَـرٍّ وَفَـرٍّ ... وَلا سـاقٍ يَطـوفُ بِكَـأسِ خَمـرِ

أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـن قَـرعِ المَلاهـي ... عَلـى كَـأسٍ وَإِبريـقٍ وَزَهـرِ

(إلى) وإن كانت تُـبيِّن أن الحرب أطيب عنده من غيرها ، فهي لا تخلو من قدر من معناها المركزي ، فصباح الطعن أحبُّ للشاعر من أن ينتهي إلى تلك الملاهي .

---

١ - ديوان امرئ القيس: ١٠٢.

٢ - ظ : مغني اللبيب: ١٠٤ .

٣ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٦٤ ، وينظر معه : أشعار عنترة العبسي :٢٥٩. ومثل هذا الاستعمال عند امرئ القيس ، ينظر ديوانه : ١٠٩، ١١٢، ١١٣، شرح الأشعار الستة الجاهلية : ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٣ .

ومن المعاني المصاحبة لها أيضاً مرادفتها (اللام) ، نحو قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(النمل من الآية : ٣٣)، وجاء مثل هذا المعنى عند عنترة أيضاً في قوله[١] :

(الوافر)

إذا كَشَــفَ الزَمــانُ لَــكَ القِناعــا وَمَــدَّ إِلَيــكَ صَــرفُ الــدَهرِ باعــا

مجيء اللام في صدر البيت أضفى على (إلى) في عجزه شيئا من معناها . هذه المعاني الهامشية التي فهمت من النصوص كانت مستعملة قبل نزول القرآن ، ولم يستشهد أصحاب كتب (معاني الحروف) بأبيات من أشعار أصحاب المعلقات مع توافرها عندهم ، وأكرر ثانية قد يكون ذلك لقرب القرآن من نفوسهم وذاكرتهم ، ولكونه أقوى النصوص في الدلالة والمعنى ولا يمكن ردُّه أو الطعن فيه . وإتماما للفائدة أضع جدولا باستعمالات الشعراء لهذا الحرف ونسبها :

	إلى	إليكَ	إليكِ	إلينا	إليَّ	إليها	إليكم	إليهم	إليه	المجموع	نسبته المئوية
امرؤ القيس	٢٢	٢	--	٣	١	٥	--	--	٣	٣٦	%٥,١
طرفة بن العبد	١٧	٣	--	١	--	١	--	--	١	٢٣	%٥,٢
الحارث بن حلزة	٩	--	--	١	--	--	١	--	--	١١	%٦,١
عمرو بن كلثوم	١١	١	--	--	١	--	٢	--	--	١٥	%٥,١
عنترة بن شداد	٥٦	٣	١	١	١١	٥	--	--	٣	٨٠	%٤,٥
زهير بن أبي سلمى	٤٥	٣	--	--	١	٥	٢	١	١٠	٦٧	%٧,٤
لبيد بن ربيعة	٣٢	٤	--	--	١	٢	--	٢	٣	٤٤	%٣,٣
المجموع	١٩٢	١٦	١	٦	١٥	١٨	٥	٣	٢٠	٢٧٦	%٤,٩

نسب استعمال الشعراء للحرف متقاربة فيما بينها ، وأكثرهم استعمالا له زهير ، وأقلُّهم لبيد ، في حين كان عنترة أكثر الشعراء استعمالا لـ(إليَّ) ويدلُّ هذا بوضوح على اعتزازه بنفسه وثقته العالية بها ولا تزال صورة اعتداد عنترة بنفسه وثقته العالية بها تزداد وضوحا كلما نظرنا في استعماله لحرف بعد حرف ، وكان الوحيد الذي استعمل (إليكِ) مشيرا بها إلى (عبلة) ليكون وفيا لها يذكرها عن بعد وينتهي إليها في الذكرى . وكان زهير أكثر الشعراء استعمالا للحرف داخلا على ضمير المفرد الغائب .

ثامن عشر : (ثمَّ)

حرف معناه المركزي الترتيب المتراخي ، وقد استعمل في القرآن الكريم (٣٣٨) ثلاثمئة وثمانيا وثلاثين مرَّة[٢] لتكون نسبته إلى مجموع آيات القرآن (٥,٤%) خمسة استعمالات في كل مئة بيت ، وكان استعماله في دواوين الشعراء قد بلغ (٨٠) ثمانين استعمالا ، لتكون نسبته إلى مجموع الأبيات (١,٤%) استعمالا واحدا في كلِّ مئة بيتٍ ، يعني أن الاستعمال القرآني قد توسع في استعمال هذا الحرف أربعة أضعاف ما كان عليه عند الشعراء .

١ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ١٥٤، أشعار عنترة العبسي :٢٨٣.
٢ - ينظر برنامج (نور دامع الأحاديث) أو معجم الأدوات والضمائر :٢٢٢- ٢٣٠، وجاءت إحصائياته صحيحة في هذا الحرف .

قد يتخلَّى (ثُمَّ) عن أحد شقية إما الترتيب وإما المهلة ، واستشهدوا لهذين الشقين بأمثلة قرآنية ، وقد نستطيع أن نتلمس لها أمثلة شعرية ، فترك المهلة قد يفهم من قول عنترة [1] :

(الكامل)

فَطَعَنْتُــهُ بِــالرُمحِ ثُــمَّ عَلَوتُــهُ   بِمُهَنَّــدٍ صــافي الحَديــدَةِ مِخــذَمِ

قانون الحرب وأعرافها لا تسمح بالمهلة حين الانقضاض على العدو ، فعندما طعنه عنترة بالرمح لا شكَّ أنَّه بادر إليه بضربة من سيفه ولم يمهله بعض الوقت ، إذ لا بدَّ من الانتهاء منه ، حتى يلتفت إلى غيره ، وإلاَّ يُؤخذ في الحرب من حيث لا يحتسب ، فالمهلة هنا غير مقصودة .

وقد يَحملُ عنترة (ثُمَّ) على التخلي عن معنى الترتيب إذا ما اقتضى المقام ذالك ، ويمكن أن يفهم هذا من قوله[2] :

(الطويل)

هَزَمــتُ تَميمــاً ثُــمَّ جَنــدَلتُ كَبشَــهُم   وَعُــدتُ وَسَــيفي مِــن دَمِ القَــومِ أَحمَــرُ

هزيمة تميم إنما تحققت بعد أن جندل عنترة كبشهم يعني به فارسهم ورئيسهم في الحرب ، ولم تتحقق الهزيمة في الحرب قبلَ قتلِ الفارس ؛ لأن في ذلك انهيار الجيش ، وانكسار شوكته ، وسرعة الخوف إلى قلوب الجند فيهزمون ، وبين قتل القائد وهزيمة الجيش مهلة ، فعلى هذا يكون الحرف قد تخلى عن أحد شقيه في دلالته على معناه المركزي .

تَوَسُّعُ الاستعمالِ القرآني أربعةَ أضعاف الاستعمال الشعري لهذا الحرف قد يُفهَم منه أن الأحداث في القرآن قائمةٌ على ترتيبٍ منتظمٍ ومتأنٍ ، إذ تسيرُ الأمورُ تبعا لمقتضيات أنظمة الطبيعة وقوانينها ، وهذه تربط الأسباب بالمسببات في نظام دقيق غير عجلٍ ، يجعلُ الحياةَ تسيرُ بشكلٍ رتيبٍ قائمٍ على الرويَّة .

أما استعمال الشعراء لهذا الحرف فقد كان على النحو الآتي :

ت	اسم الشاعر	استعماله (ثُمَّ)	عدد أبياته	النسبة المئوية
١	امرؤ القيس	١٣	٦٩٥	%١,٨
٢	طرفة بن العبد	١١	٤٣٦	%٢,٥
٣	الحارث بن حلِّزة	٦	١٧٨	%٣,٣
٤	عنترة بن شداد	١٤	١٧٦٩	%٠,٨
٥	زهير بن أبي سلمى	١٩	٨٩٤	%٢,١
٦	لبيد بن ربيعة	١٧	١٣٢٢	%١,٢
المجموع		٨٠	٥٥٨٦	%١,٤

كان الحارث أكثر الشعراء استعمالا لهذا الحرف ، وهذا قد يعني أنَّه كان يرتب الأخبار والأحداث بعضها بسبب بعض في مهلة وتأنٍ ، وقد يعني تنظيم الأحداث في تفكيره ، أما أقلُّ الشعراء فكان عنترة ، وقد تتلاءم هذه النتيجة مع ما عرفناه من شخصيَّة عنترة ، فهو وإن كان واثقا بنفسه وشجاعا ومقداما ، لكنه يعيش في الصحراء حياة الغريب عن أهله ، وحياته حياة الفارس ، وهذه الحياة قد تكون قائمة على القتال ، وقد لا تسمح لصاحبها بكثير من التأمل والروية ، بل فيها عنصر المفاجأة ، وردُّ الفعل حاضرا ، ومؤثرا تأثيرا كبيرا ، لذا نجد حياة الفرسان ، ومن اعتادوا القتال قائمة على الارتجال ، وعنصر المفاجأة ، والتصرف الآني تبعا لما تفرزه لحظة الحدث ، وكلُّ هذا قد يكون سببا يقلل من استعمال مثل هذا الحرف الذي يعطف الأشياء مرتبة مع المهلة .

١ - ديوان عنترة(مواوي) : ٢١٣ ، أشعار عنترة العبسي :٣١.
٢ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٩٨ ، أشعار عنترة العبسي :٢٤٢.

تاسع عشر : (رُبَّ)

حرفُ إثبات ، وقد يفهم معه التقليل أو التكثير، وهو من الحروف القليلة الاستعمال في اللغة العربية عموما ، إذ استعمل عند الشعراء (٢١) واحدةً وعشرين مرَّة ، لتكون نسبته إلى مجموع أبياتهم الشعرية في الدواوين (٠,٣%) ثلاثة استعمالات في كل ألف بيت ، وهذه النسبة قليلة جدا ، وجاء عند أربعة شعراء : امرؤ القيس الذي كان أكثرهم استعمالا له ، فقد ورد عنده (١٤) أربع عشرة مرَّة ، ثمَّ طرفة (٣) ثلاث مرات ، والحارث مرتين ، ومرَّة عند كل من عنترة وزهير[١] ، وقد استشهدت بأشعارهم على كلٍّ من معنى القلَّة والكثرة اللذين يصاحبان معنى الإثبات في ما تقدَّم من الفصل الثاني ، أما في القرآن الكريم فقد جاءت (ربَّ) مرة واحدة فقط ، وسأشير لمعناها في المبحث الثاني من هذا الفصل .

عشرون : (على)

من الحروف الكثيرة الاستعمال في اللغة العربية (على) ، فقد استعملت في القرآن الكريم (١٤٤٥) ألفا وأربعمئة وخمسا وأربعين مرَّة[٢] ، أي أن نسبتها إلى مجموع آيات القرآن الكريم (٢٣%) ، وهذا يعني استعمالين للحرف في كل عشر آيات ، أما عند الشعراء فقد بلغ استعمالها (٧٦٧) سبعمئة وسبعا وستين مرَّة ، أي أن نسبتها إلى مجموع أبيات الشعراء (١٣%) أي استعمالا واحدا في كلَّ عشرة أبيات ، إن زيادة القرآن في استعمال هذا الحرف قد بلغت (١٠%) عشرة بالمئة عمَّا كانت عليه عند الشعراء قبل نزوله . وقد تنوعت صور (على) بحسب ارتباطها بالضمائر وعلى النحو الآتي :

	على	عليَّ	عليكَ	عليكِ	عليكم	عليكما	علينا	عليه	عليها	عليهم	عليهما	عليهن	لعلى	المجموع	نسبته المئوية
في القرآن الكريم	٧١٠	١٦	٥٦	١	١٦٦	١	٥٢	١٥٢	٥٢	٢١٦	٨	١٢	٣	١٤٤٥	%٢٣
في دواوين الشعراء	٥١٦	٤٧	١٦	٨	٦	١	٢٤	٢٧	٤٨	٢٤	١	٣	١	٧٦٧	%١٣

الاستعمال القرآني لـ(على) الداخلة على ضمائر الجمع والمثني بلغ(٤٥٥) مرَّة ، ليشكل نسبة (٣١%) من مجموع استعمال الحرف في القرآن ، أي ثلث الاستعمالات القرآنية ، وهذه النسبة تزيد على نسبة استعمالها وهي داخلة على ضمائر المفرد التي بلغت(٢٧٧) مرَّة (١٩%) أي قرابة خمس الاستعمالات القرآنية للحرف ، وبذا تكون الزيادة بين الحالتين(١٢%) وهذا مطرد مع ما تبيَّن من حال الحروف المتقدمة من أن الخطاب القرآني يُعنَى بالمجموع أكثر من عنايته بالمفرد ، وفي الاستعمال الشعري عكس الحال بدقَّة ، إذ بلغ مجموع استعمال (على) وهي داخلة على ضمائر الجمع (٥٩) مرَّة لتكون نسبتها(٧%) من مجموع استعمال الشعراء ، في حين أنَّ استعمالهم لها داخلة على ضمائر الجمع ارتفع ليصل إلى (١٤٦) مؤلفا نسبة

---

١ - ظ : ديوان امرئ القيس : ١٠، ١٨، ٢٩، ٨٦، ١٠٦، ٢٣٧، ديوان طرفة بن العبد:٨٢، ٨٣، ديوان طرفة(درية الخطيب): ٩٥، ديوان الحارث بن حلزة: ٩، ٢١، ديوان عنترة (فوزي عطوي) :١٧٥ ، شرح ديوان زهير:٣٢٧ .

٢ - ظ : معجم الأدوات و الضمائر في القران الكريم : ٢٤٨ – ٢٧٠، علما أنه سقطت من إحصاءه مواضع منها : (١٤٢\٢) ، و(٢٨\٤٠) . ويمكن الإطلاع على المواضع مفصلة من خلال برنامج (نور جامع الأحاديث) .

(١٩%) من مجموع الاستعمال ، أي بفارق (١٢%)أيضا ، فالاستعمال الشعري للحرف داخلا على ضمائر الجمع انخفض بنسبة (١٢%) من مجموع الاستعمال ، في حين أنَّ الاستعمال القرآني للحرف وهو داخل على ضمائر الجمع زاد بالنسبة نفسها على استعماله وهو داخل على ضمائر المفرد . ومنه نتبيَّن رعاية الخطاب القرآني للمجموع ، وحرص الخطاب الشعري على المفرد ، أي النظرة في الشعر جزئية في حين أصبحت في القرآن عمومية شاملة هذا من جهة .

ومن جهة ثانية كان الاستعمال الشعري للحرف داخلا على ضمائر المفرد المذكر (٤٣) مرة ، أي بنسبة (٥,٦%) من مجموع استعمالاتهم ، وداخلا على ضمائر المفرد المؤنثة (٥٦) مرة ، أي بنسبة(٧,٣) ، فحضور المؤنثة المفردة أكثر في الخطاب الشعري بقليل من حضور خطاب المفرد المذكر ، أما في القرآن الكريم فبلغ استعمال الحرف داخلا على ضمائر المفرد المذكرة (٢٠٨) مرَّة ، لتكون نسبته(١٤%) من مجموع الاستعمال القرآني للحرف ، وداخلا على ضمائر المفرد المؤنثة (٥٣) مرَّة ، ليشكل نسبة (٣%) فقط من مجموع الاستعمال القرآني ، أي إن الخطاب القرآني للمفرد المذكر زاد أكثر من ثلاثة أضعاف خطاب المفرد المؤنث ، وقد أشرت فيما تقدم إلى أن هذا كان على ما تعارف عليه العرب في توجيه خطابهم بصيغة المذكر ؛ لأنهم يعتقدون أن فيه احتراما للمقابل وإعلاءً لشأنه ، فجاراهم القرآن عليه لكنه رفع قدر المرأة إلى حيث يريد القرآن لها من مكانة .

معنى (على) المركزي الاستعلاء ، وهو معنى كثير الورود في النصين المدروسين ، وقد يصاحبه أحد معنيين هامشيين كثيرا ما يرافقانه هما : الظرفية والمصاحبة ؛ ذلك لأنّ الشيء لابد أن يكون في ظرف يحتويه في هذا الوجود ، والحَدَثُ كذلك له ظرفٌ يقعُ فيه زمانيا أو مكانيا ، وفي كلا الحالين معنى الظرفية محفوظٌ ، أما معنى الاستعلاء ففيه عملية قياسُ شيءٍ إلى آخرَ ، فيكون أحدهما أعلى من الآخر أي فوقه ، وليست عملية القياس مطلوبة دائما ؛ من هنا كان استعمال الحرف(في) في النصيين أعلى من هذا الحرف ، ومعنى المصاحبة فيه عملية قياس أيضا إلى شيء آخر، فقد يكون الحدث أو الذات يَصحَبُ ذاتا أخرى ، أو حدثا آخر ، وقد لا يكون . وقد يتطلب المقام الإشارة إلى هذه الناحية من المعنى ، وهذه الناحية أقل استعمالا من الظرفية ، أو معنى الاستعلاء ؛ لذا كان **معنى الظرفية** يصاحب معنى الاستعلاء في كثير من أبيات الشعراء ، منها قول طرفة[1] :

(الطويل)

فَمـا لِي أَرانـي وَابـنَ عَمِّـيَ مالِكـاً ... مَتـى أَدنُ مِنـهُ يَنـأَ عَنّـي وَيَبعُـدِ

يَلـومُ وَمـا أَدري عَـلامَ يَلـومُني ... كَما لامَـني فِي الحَـيِّ قُـرطُ بـنُ مَعبَدِ

وَأَيأَسَـني مِـن كُـلِّ خَـيرٍ طَلَبتُـهُ ... كَأَنّـا وَضَـعناهُ عَلـى رَمـسٍ مُلحَـدِ

عَلـى غَـيرِ ذَنـبٍ قُلتُـهُ غَـيرَ أَنَّـني ... نَشَـدتُ فَلَـم أُغفِـل حَمولَـةَ مَعبَـدِ

يريد في البيت الثالث أنَّه يئس من كل خير يرجى منه ، كأنَّه قد مات ودفنه والرمس القبر، واللحد الشق في جانبه ، قال شارح الديوان :((وقوله على رمس أراد وضعناه في رمس ، و(على) تبدل من(في) كثيرا .)) [2]، وإذا كان شارح الديوان من أنصار نظرية تناوب الحروف ، فإني لا أخرِّجه على معنى التناوب ، بل على أنَّ الظرفية معنى هامشيٌّ أضيف للحرف بجنب معناه المركزي ، فهو لم يستعمل (في) هنا لأنَّه لا يريد أنَّ صاحبه قد مات فعلا

---

١ - ديوان طرفة بن العبد :٣٢- ٣٣ ، ديوان طرفة(درية الخطيب):٤٩- ٥٠ .
٢ - المصدر نفسه .

ووضـع في القبر ، وأصبح القبر ظرفا له ، بل ما يزال صاحبه فـوق علـى شفيره ، ولـم ينـزل بعد ، وكأني أستشعر من هذا أنَّ له فيه بصيص أمل ورجاء ، ولو كان قطع الأمل والرجاء البتة لقال (في رمس) ، ومصاحبة معنى الظرفية لمعنـى (علـى) المركزي مستعمل عند كثير من الشعراء[١]، واستعمال القرآن لمثله لم يكن غريبا على مسامع العرب ، فقد ألفته نفوسهم وإن لم يَتَنبَّهوا له إلاَّ بعد حين . أما في البيت الثاني فقد اقتضى السياق أن يصاحب **معنى التعليل معنى (على) المركزي** ، أي ما أدري لـِمَ يلومني ؟ أوصلت (علـى) إلينا معنـى التعليل مـع معنـى الاستعلاء ، كأن اللوم كان فيه استعلاء من ابن عمه تجاهه ، وهو يسأل عن اللوم والاستعلاء .
وقد ورد أمثال هذا البيت في مواضع أخر[٢] ، وجاء بـه القرآن كما ذكرت فيما تقدم ، أما في البيت الرابع فقد حَمَلَتْ (على) **معنى (من)** ، فذلك اللوم الذي عرِّضَ له كان من غير ذنبٍ صدرَ عن الشاعر ليكون مبتدأ اللوم وسببا له ، أرى أن المعاني الهامشية تتعاضد في هذه القطعة فيما بينها لتوصل لنا صورة كاملة أراد الشاعر إيصالها بما فيها من تشابك في العلاقات بين ابن عمه وتعاليه عليه وانقطاع رجائه منه واستغرابه لصدور اللوم من غير سبب ، هذه المعاني كان العربيّ يفهمها ويعيها بدقَّة ، لكنه قد لا يكون وقت نزول القرآن وقبله في ظرف يسمح له باكتشاف طاقات اللغة ، ومكامن القوَّة في التعبير الفني البلاغي ، وما يميزه من غيره من أنماط التعبير المستعمل في كل لغة .

وكذا **معنى المصاحبة** كان مألوفا عندهم فقد استعمله الشعراء[٣]، نحو قول زهير[٤]:

(البسيط)

يَطلُبُ شَأوَ اِمرِأَينِ قَدَّما حَسَناً ⁂ نالا المُلوكَ وَبَذّا هَذِهِ السُوَقا

هُوَ الجَوادُ فَإِن يَلحَق بِشَأوِهِما ⁂ عَلى تَكاليفِهِ فَمِثلُهُ لَحِقا

أَو يَسبِقاهُ عَلى ما كانَ مِن مَهَلٍ ⁂ فَمِثلُ ما قَدَّما مِن صالِحٍ سَبَقا

يمدح زهير هنا هرما بأنَّه يريد سَبْقَ أبويه بما قدَّماه ، فإن يلحق بهما مع تكاليفه أي شدته فمثله أهلٌ للحاق بسلفه ، وإن يسبقاه مع ما كان من مهل أي تقدُّم فهو معذورٌ لأنهما تقدَّما في الشرف عليه أي السبق . معنى (على) في البيتين يحمل دلالة هامشية فضلا عن معناه المركزي تلك هي دلالته على المصاحبة ، ومعنى المصاحبة أبرز من المعنى المركزي في البيتين .

ومن المعاني الهامشية لـ(على) **المجاوزة وهو معنى (عن)** وقد استعمل على قلَّة عند الشعراء ، ومنه قول عمرو بن كلثوم[٥]:

(الوافر)

لِيَجزِ اللَهُ مِن جُشَمَ بنِ بَكرٍ ⁂ فَوارِسَ نَجدَةٍ خَيرَ الجَزاءِ

بِما حاموا عَلَيَّ غَداةَ دارَت ⁂ بِوادي الأَخرَمَينِ رَحى صُداءِ

وهؤلاء الفوارس قد حاموا عنه ، وفي فعلهم هذا أصبحوا فوقه ومستعلين عليه ، فاستعمل الشاعر (على) لتفيد معنى المجاوزة مع معناها المركزي .

---

١ - ظ : ديوان طرفة بن العبد :٣٦، :٤٣، ١٠١، ١١٩، ١٥٢، شرح ديوان زهير : ١٦، ٣٢٢، شرح ديوان لبيد : ٦٩، ٧١، ١٧٢، ٢١٧، ٢٤٥، ٢٤٦.
٢ - ظ : ديوان طرفة بن العبد :٤١، شرح ديوان زهير : ٣٦٨، شرح ديوان لبيد : ٣٤٩ .
٣ - ظ : ديوان طرفة بن العبد:١٣٨، شرح ديوان زهير :٤٥، ٥١ ، ٢٨٨،٣٦٤، شرح ديوان لبيد: ٦٣، ١٥٩.
٤ - شرح ديوان زهير :٥١.
٥ - عمرو بن كلثوم حياته وما تبقى من شعره:١٣٢، ومثله قوله في صفحة ١٣٣: أَلا فَاِعلَم أَبَيتَ اللَعنَ أَنّا ⁂ عَلى عَمدٍ سَنَأتي ما نُريدُ

وقد يأتي **معنى الباء** مع معنى (على) المركزي ، كما في قول امرئ القيس[1]:

(الطويل)

وَتَحسِــبُ سَــلمى لا نَــزالُ كَعَهــدِنا   بِــوادي الخُزامــى أَو عَلــى رَسِ أَوعــالِ

أي تحسب سلمى أننا لا نزال على عهدنا بوادي الخزامى أو بـ(رَسِ أوعال) ، وهما منطقتان كان الشاعر يلتقي بهما حبيبته ، وتأثير السياق هنا واضحٌ ، فقد أدخلَ الباءَ على الاسم الأول ، وجعل الاسم الثاني مع (على) ليضيف معنى الاستعلاء المستفاد منها إلى معنى البيت ، فكأنَّه استبطن الوادي لأن الوادي منخفض من الأرض ، واعتلى هو وحبيبته (رَسِ أوعال) ، ومنه أيضاً قول عنترة[2]:

(الطويل)

إِذا مـا لَقيــتُ المَــوتَ عَمَّمــتُ رَأسَــهُ   بِسَــيفٍ عَلــى شُــربِ الــدِما يَتَجَــوهَرُ

سيفُ عنترة إنما يزداد بياضا وصلابة بشرب الدماء ، وهذا السيف مستعلٍ على الدماء ومسيطر عليها .

هذه هي أبرز المعاني الهامشية التي ذكرت في كتب المعاني وكان استشهاد العلماء لها من الآيات القرآنية ولم يذكروا لها أمثلة من أشعار أصحاب المعلقات على الرغم من استعمالها عندهم . أما استعمال الشعراء فيما بينهم للحرف وصور هذا الاستعمال فيبيّنها هذا الجدول:

	على	عليَّ	عليكَ	عليكِ	عليكم	عليكما	علينا	عليه	عليها	عليهم	عليهما	عليهن	لعلى	المجموع	نسبته المئوية
امرؤ القيس	٩٤	٦	٤	١	--	--	٢	٩	٧	--	--	--	--	١٢٣	%١٧
طرفة بن العبد	٤١	٤	١	--	١	--	٤	٣	٤	١	١	--	١	٦١	%١٣
الحارث بن حلزة	٩	١	٢	--	--	--	٧	٢		١	--	--	--	٢٢	%١٢
عمرو بن كلثوم	١٨	٢	١	--	--	--	٦	٥	٣	٤	--	--	--	٣٩	%١٣
عنترة بن شداد	١٥٢	٢٢	٣	٦	١	--	٢	١٦	١٢	٧	--	١	--	٢٢٢	%١٢
زهير بن أبي سلمى	٩٧	٣	٣	--	٢	--	٢	١٦	٨	٥	--	--	--	١٣٦	%١٥
لبيد بن ربيعة	١٠٥	٩	٢	١	٢	١	١	٢١	١٤	٦	--	٢	--	١٦٤	%١٢
المجموع	٥١٦	٤٧	١٦	٨	٦	١	٢٤	٧٢	٤٨	٢٤	١	٣	١	٧٦٧	%١٣

نسب استعمال الشعراء لهذا الحرف متقاربة فيما بينهم ، وكان أكثرهم استعمالا لهذا الحرف امرؤ القيس ، وأقلهم عنترة ولبيد ، ويتميز عنترة في استعماله لهذا الحرف داخلا على ضمير المخاطبة المفردة ست مرات وكان ينادي به (عبلة) فيتصورها حاضرة أمامهم ويخاطبها مرارا ، ويبدو أن هذا ردَّ فعل طبيعي لبعده عنها ومنعه منها . تميز أيضاً بارتفاع نسبة استعماله للحرف داخلا على ضمير المتكلم ، ولعلَّ في هذا محاولة لإثبات وجوده وحضوره في المحافل دوما في أشعاره بدلا من حضوره في قبيلته .

١ - ديوان امرئ القيس : ٢٨.
٢ - ديوان عنترة (فوزي عطوي): ٩٨ ، وينظر معه : أشعار عنترة العبسي : ٢٤٢.

المبحث الثاني :
ما تفرَّدَ به القرانُ الكريمُ من معاني الحروف

في فرعين :

● أولا : المعاني المركزية التي تفرَّدَ بها القران الكريم .

لم يقتصر أثر القرآن الكريم في اللغة على استحداث معان هامشية جديدة للمفردات فقط ، بل تعداه إلى استحداث معان مركزية للمفردات ، أي وضع مفردات ، أو أضاف مفردات جديدة إلى الثروة اللفظية للغة العربية ، وكان قسم من هذه الإضافة عن طريق استحداث معان مركزية للألفاظ كانت موجودة ومستعملة ، فدخلت بذلك باب (المشترك اللفظيhomonymy)[1] إذ تشترك كلمات عدَّة بصيغة واحدة ، وهذا ما حصل في بعض الحروف .

● ١- (إن) النافية :

تأتي (إن) النافية في المرتبة الثانية في الاستعمال القرآني من بين معاني (إن) المركزية الثلاثة (الشرطية والنافية والمخففة) ؛ إذ وردت(إن) في القرآن الكريم (١١٣) مئة وثلاث عشرة مرَّة[2] تفيد معنى النفي ، فتكون نسبة استعمالها نافية إلى مجموع استعمالاتها في القرآن (١٥,٨%) ، ونسبة استعمالها بمعنى النفي إلى مجموع آيات القرآن (١,٨%) ثمانية عشر موردا في كل ألف آية قرآنية ، وكانت في الأعمِّ الأغلب من هذه الموارد تأتي بعدها (إلاَّ)[3] ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً ﴾(النساء:١١٧)، فـ(({إن} ههنا معناه النفي .)) [4] ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(الأنعام: من الآية١١٦)، فـ{إن} هنا بمعنى ما النافية [5]، ومن الآيات التي لم تأت فيها بعد (إن) النافية (إلاَّ) قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾(الجن:٢٥) ، ((أي لا أدري فـ(إن) بمعنى (ما) أو (لا) ؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله .)) [6].

---

١ - ظ: دور الكلمة في اللغة : ١٢٩، ١٣٩- ١٤٦.

٢ - البقرة : ٧٨، النساء:٦٢، ١١٧، ١٥٩، المائدة:١١٠، الأنعام:٧، ٢٥، ٢٩، ٥٠، ٥٧، ٩٠، ١١٦، ١٤٨، ١٤٨، الأعراف : ١٥٥، ١٨٤، ١٨٨، الأنفال:٣١، ٣٤، التوبة:١٠٧،يونس:١٥، ٦٦، ٦٦، ٦٨، ٢٧، هود: ٧، ٢٩، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٨٨، يوسف:٣١، ٤٠، ٦٧، ١٠٤، إبراهيم :١٠، ١١، الحجر:٢١، الإسراء: ٤٤، ٤٧، ٥٢، ٥٨، الكهف:٥، مريم:٧١، ٩٣، طه:١٠٣، ١٠٤، الأنبياء:٣٦، ١٠٩، ١١١، المؤمنون:٢٥، ٣٧، ٣٨، ١١٤، الفرقان:٤، ٨، ٤١، ٤٤، الشعراء:١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١٢٧، ١٣٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠، النمل:٦٨، ٨١، القصص:١٩، الروم:٥٣، ٥٨،الأحزاب:١٣،سبأ:٤٣، ٤٦، ٤٧، فاطر:٢٣، ٢٤، ٤٠، ٤١، يس:١٥، ٢٩، ٤٧، ٥٣، ٦٩،الصافات:١٥، ص:٧، ١٤، ٧٠، ٨٧،غافر:٥٦، الشورى: ٤٨، الزخرف:٢٠، ٥٩، الدخان:٣٥،الجاثية:٣٢،٢٤،الأحقاف:٩، ٢٦،النجم:٤، ٢٣، ٢٣، ٢٨،المجادلة:٢، ٢٠،الملك:٩،الجن:٢٥، المدثر: ٢٤ ،٢٥، التكوير:٢٧.

٣ - حتى نقل ابن هشام عن بعضهم زعمه أنه لا تأتي (إن) النافية إلاَّ وبعدها (إلاَّ) ، لكنه ردَّ هذا القول : ظ : مغني اللبيب :٣٤ ، أساليب النفي في العربية : ٦٢-٦٣ .

٤ - مفاتيح الغيب : ٢٢٠\١١ ، وينظر معه : الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٦\٥.

٥ - ظ : مفاتيح الغيب : ١٢٦\١٣ ، الجامع لأحكام القرآن : ٧١\٧ ، البحر المحيط : ٦٢١\٤.

٦ - الجامع لأحكام القرآن : ٢٥\١٩، وينظر معه: الكشاف :١٧١\٤ ، مفاتيح الغيب : ٦٧٧\٣٠.

أما في الشعر فمع طول البحث والتنقيب لم استطع أن أظفر ببيت لجاهليٍّ ، فضلا عن شعراء المعلقات المخصوصين بالدراسة يستعمل فيه (إن) بمعنى (ما) النافية ، وهذا يفسر بوضوح السؤال الذي يمكن أن يطرح : وهو لِمَ لَمْ يستشهد اللغويون وأصحاب كتب معاني الحروف ببيت واحد يحمل هذا المعنى لهذا الحرف؟[1] لكنهم مع هذا لم يصرحوا أن هذا الاستعمال كان من إبداعات القرآن الكريم ؛ ولعل السبب في ذلك اعتقادهم أنهم لم يحيطوا بنماذج اللغة العربية جميعها . ولكنني اليوم قد أحصيت أشعار (٥٣٦) شاعرا جاهليا ، ومجموع أبياتهم يبلغ (٢٠٠٣٤) بيتا ولم أجد من بينها شاهدا على هذا الاستعمال ؛ فأعتقد أنَّ باستطاعتي أن أزعم : أن لغة القرآن الكريم ابتدعت معنىً مركزيا جديداً لـ(إن) ، هو معنى (إن) النافية ، وغالبا ما كان يأتي بعدها بـ(إلاّ) ، ليكون هذا المعنى من خواص لغة الذكر الحكيم ، وأؤكِّد على أني أترك الباب مفتوحا للباحثين لتأكيد زعمي هذا . وبناءً على هذا يكون استعمال (إن) النافية قد وجد في النصوص التي وصلتنا عن العربية متأخرا ، وقد يكون فيه ردٌّ على من يرى أن استعمال (إن) نافية يرجع إلى زمن مبكر من مراحل اللغة العربية [2]. فليس ببين يدينا نص موثوق به يستعملها بهذا المعنى قبل القرآن الكريم .

• ٢- (إن) للتوكيد أو التحقيق :

وهي المخففة من (إنَّ) ،((وأصلها أنَّها حرف تأكيد .))[3] ، وجاءت في الاستعمال القرآني على ما أحصيته (٢٨) ثمانيا وعشرين مرَّة[4] لهذا المعنى ، بذا تكون نسبة استعمالها للتوكيد إلى مجمل الاستعمالات القرآنية لهذا الحرف (٩,٨%) ، ونسبة استعمالها للتوكيد إلى مجموع آيات القرآن الكريم تكون (٠,٤%) أربعة موارد في كل ألف آية . وقد دخلت على الجملتين الاسمية والفعلية ، كما في الأمثلة التي ذكرت آنفا ، ومنها قوله تعالى :﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾(يس:٣٢) ، وقوله عزَّ مِنْ قَائِل :﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾(يونس:٢٩) ، وقوله ﷻ : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾(يوسف:٩١) ، وقد قرأ بعضهم :﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾(هود: من الآية١١١) ، بتخفيف (إنَّ) ، وزعم أنها هنا (إن) الخفيفة[5] ، وهي عاملة عمل (إنَّ) قال العكبريُّ : ((قوله تعالى { وإن كلا} يقرأ بتشديد النون ونصب (كل) وهو الأصل ، ويقرأ بالتخفيف والنصب ، وهو جيد ؛ لأن {إن} محمولة على الفعل ، والفعل يعمل بعد الحذف كما يعمل قبل الحذف ، نحو: (لم يكن ولم يك) ، وفي خبر {إن} على الوجهين وجهان : أحدهما (ليوفينهم) و{ما} خفيفة زائدة ، لتكون فاصلة بين لام إن ولام القسم كراهية تواليهما ، كما فصلوا بالألف بين النونات في قولهم : أحسنان عنى . والثاني[6] أن الخبر {ما} وهي نكرة : أي لخلق أو جمع ،...، ويقرأ {إن} بتخفيف النون ،

---

١ - نعم استشهد بعضهم ببيت لم يهتد أحد إلى قائله ولا نعرف هل كان البيت جاهليا أو إسلاميا صحيحا أو موضوعا ، وهو قولهم من المنسرح : (إن هوَ مستوليا على أحدٍ إلاَّ على أضعفِ المجانين) وقد أعمل فيه (إن) عمل ما الحجازية ، وهذا ما لم يقل به أحد من النحاة ، وقال المالقيُّ عن هذا البيت ((وهذا من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه ؛ إذ لا نظير له)) رصف المباني : ١٠٧، وينظر معه: حروف المعاني : ٥٧ ، معاني الحروف : ٧٥ ، المقرب:١\١٠٥ ، شرح المفصل : ٨\ ١١٢-١١٣ ، همع الهوامع :١\١٢٥ ، الجنى الداني : ٢٢٩، خُزَانَةُ الأَدَبِ : ٤\١٦٦.

٢ - ظ : أساليب النفي في العربية :٦١، ٦٧ .

٣ - البغداديات :١٧٦.

٤ - البقرة:١٤٣، ١٩٨، آل عمران:١٦٤،الأنعام:١٥٦، الأعراف: ١٢٠، يونس:٢٩، يوسف:٣، ٩١، إبراهيم:٤٦، الحجر:٧٨، الإسراء:٧٣، ٧٦، ١٠٨، طه:٦٣، المؤمنون:٣٠،الفرقان:٤٢، الشعراء:٩٧، ١٨٦، القصص:١٠، الروم:٤٩، يس:٣٢، الصافات:٥٦، ١٦٧، الزمر:٥٦ ، الزخرف:٣٥، الجمعة:٢، القلم:٥١، الطارق:٤ .

٥ - ظ : الحجة في القراءات السبع : ١\١٩٠ ، معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٢\٣٥٩ .

٦ - هكذا وردت ، والأصح : والآخر .

و{كل} بالرفع ، وفيه وجهان : أحدهما أنها المخففة واسمها محذوف ، وكل وخبرها خبر إن ، وعلى هذا تكون { لما} نكرة : أي خلق أو جمع على ما ذكرناه في قراءة النصب . والثاني[1] أن {إن} بمعنى {ما} و{ لما} بمعنى {إلا} أي ما كل إلا ليوفينهم .))[2] ، كانت هذه القراءة حجة لمن يدعي إعمال (إن) المخففة من (إنَّ)الثقيلة عملها ، عند دخولها على الجملة الاسمية ، ولكنهم قرروا أن إعمالها على نحو القلَّة ، أما الأكثر فيها فهو عدم العمل[3]. أقول : إن دعوى أعمالها مبنيَّة على قراءة بعض القراء ، وليست على أصل القراءة المعتمد عليها عند القراء كلهم في المصحف التي هي بالتشديد (إنَّ) ، ولم ترد (إن) المخففة صريحة تعمل عمل (إنَّ) في المواضع التي أحصيتها ، وثمَّة أمر آخر هو إن القول بإعمالها ينافي شرط الاختصاص الذي وضعه النحاة لعمل الحروف ، وهم قد قرروا أنها حينما تدخل على الفعل تُهمَلُ وجوبا [4].

إن دخول (إن) المخففة على الجملة الاسمية كان قليلا ؛ إذ دخلت أربع مرات فقط من أصل سبع وعشرين مرَّة ، لتكون نسبة دخول (إن) المخففة على الجملة الاسمية إلى مجمل استعمالها للتوكيد (١٤%) ، ولم يشر العلماء إلى أن دخولها على الاسمية قليل ، بل هم أثبتوا دخولها على الاسمية فقط ، وذكر العلماء أيضا أنها تدخل على الأفعال الناسخة ، ونجدها قد دخلت (٢٣) ثلاثا وعشرين مرَّة على الأفعال الناسخة لتكون نسبة دخول (إن) المخففة على الأفعال (٨٢%) ، قبالة دخولها على الأسماء ، وذكروا أن الفعل الذي تدخل عليه (إن) المخففة يكثر أن يكون ماضيا ناسخا ، ودونه في الاستعمال أن يكون مضارعا ناسخا[5] ، وقد تحققت من هذا في الاستعمال القرآني فوجدته قولا دقيقا إلى حد ما ؛ إذ دخلت (إن) المخففة على الأفعال الماضية الناسخة (٢١) واحدة وعشرين مرَّة من أصل (٢٣) في حين دخلت على المضارع الناسخ مرتين فقط . ومع هذه النتائج عليَّ أن أقول : إن دخول (إن) المخففة على الأفعال الماضية الناسخة هو الأعم الأغلب من استعمالاتها في هذا المعنى ، وقد تدخل على المضارع الناسخ في بعض الأحيان .

أما في الشعر فلم استطع أن أحصل على بيت واحد لشعراء المعلقات يكون شاهدا على هذا الاستعمال عند الشعراء ، وكذلك لم يستشهد العلماء ببيت واحد لهذا الاستعمال من أشعار الجاهليين ، ولقد عُدتُ إلى أشعارهم متفحصا لها فلم أفلح في رصد نموذج صحيح لـ(إن) المخففة من بين أكثر من عشرين ألف بيت جاهلي ، على النحو الذي استعملها فيه القرآن الكريم . ومع هذه النتيجة <u>أستطيع أن أزعم هنا أيضاً أن استعمال (إن) المخففة من الثقيلة نتاج قراني ابتدعه القرآن الكريم في لغته المعجزة</u> . ويبقى هذا الزعم قائما حتى يأتي باحث بدليل ينقضه .

نعم أشار بعض الكوفيين إلى أن (إن) المخففة من الثقيلة قد تدخل على غير نواسخ الابتداء من الأفعال ، خلافا للبصريين ، فإنهم لا يجيزون ذلك ، وقاس الكوفيون ذلك على قول عاتكة بنت زيد(ت٤٠هـ) [6] :

(الكامل)

شَلَّتْ يَمينُكَ إنْ قَتَلْتَ لَمُسلِمَاً   حَلَّت عَلَيكَ عقُوبَةُ المُتَعَمّدِ

---

١ - هكذا وردت ، والأصح : والآخر .
٢ - التبيان في إعراب القرآن : ٢\٤٦ .
٣ - ظ : مغني اللبيب : ٣٦ .
٤ - نفسه : ٣٧ .
٥ - نفسه .
٦ - روي البيت بروايات مختلفة وألفاظ متعددة ، إذ ورد في شرح المفصل : ٨\٧٢بلفظ (هبلتك أمّك إن...) ، وروي بلفظ (بالله ربك..) في شرح ابن عقيل : ١\٣٨٢ ، وروي باختلاف بعض الألفاظ في عدد من المصادر . ظ : البغداديات : ١٧٨، الإنصاف : ٢\ ٦٤١، ارتشاف الضرب :٢\١٥٠، شرح الرضي : ٤\٣٦٦ ، رصف المباني : ١٠٩ ، الجنى الداني:٢٢٩ ، مغني اللبيب : ٣٧ ، خُزَانَةُ الأَدَبِ:١٠\٣٧٣ ، ٣٧٨.

واستنادا إلى ما تناهى إليهم من قول بعضهم :(إنْ قَنَّعتَ كَاتِبَكَ لَسَوطَاً)[1] . أقول لعل دعوى الكوفيين هذه لا تجد كثيرا من النصرة ، فالاستعمال القرآني لـ(إن) المخففة لا يؤيده البتة ، ثم ان للعلماء فيه قولاً آخر ، وهو ما نقله البغدادي إذ يقول :((هي عندهم {يعني الكوفيين} (إن) النافية و(اللام) بمعنى (إلا) . وهي عند الكسائي مخففةٌ إنْ دخلت على اسم ، ونافيةٌ إنْ دخلت على فعل . فقوله : (إن قتلت لمسلماً) عند جميع الكوفيين (إن) فيه نافية ، و(اللام) بمعنى (إلا) . وعند البصريين مخففة مهملة ، و(اللام) فارقة ، ومسلماً : مفعول قتلت ، وجملة (إن قتلت لمسلماً) جواب القسم .))[2]، وإذا كان تخريج الكوفيين لها على أنها نافية سقط الاحتجاج بها هنا . وقد يحمل هذا البيت على الشذوذ ، كما صّرح العلماء بذلك قائلين في شأن البيت ، وقول بعض العرب : ((وهما من الشذوذ بحيث لا يقاس عليهما .)) [3] ، وقد يكون وجه الشذوذ - إذا أردنا أن نحمل البيت على هذا المعنى - أنها أرادت أن تستعمل (إن) المخففة كما استعملها القرآن الكريم ، فلم تنتبه إلى أنها لا تدخل إلا على الأفعال الناسخة ، فقاست خطأ لِجِدَّةِ عهدها بهذا الاستعمال . ومع هذا فالبيت إسلامي ، ولا يناقض ما ادعيته من أن القرآن الكريم ابتدع معنى مركزيا جديدا في اللغة ، هو استعمال (إن) مخففة من الثقيلة .

- **٣- (إيْ) حرف جواب مقترن بالقسم :**

(إيْ) حرف جواب بمعنى (نعم) ، ولا تقع إلاَّ قبل القسم ، واقترانها بالقسم يجعل معناها فيه مسحة التوكيد والإثبات . وتكون لتصديق مُخبرٍ ، كقولهم : (قام زيدٌ) فيجاب بها : إيْ لعمرك ، أو إعلامُ مُسْتَخبِرٍ ، نحو قولهم : (أقام زيدٌ ؟) فيجاب : إيْ والله ، أو وَعدُ طالبٍ ، كقول القائل: (أعطني ديناراً) ، فيُجاب إيْ وربي . والفارق بينها وبين (نعم) أنَّ نعم تكون في القسم وغيره ، و(إيْ) يشترط معها القسم[4]. ولا يقسم معها إلاَّ بأحد هذه الثلاثة : إيْ والله ، و إيْ وربي، و إيْ لعمرك ، ومنع الرضي أن يقسم بعدها بـ(لعمرك) [5]. وأشار الخليل إلى أنها تدخل على القسم كالصلة والافتتاح[6] .

يبدو أن (إيْ) هذه حرف نادر الاستعمال ؛ فقد تتبعت أشعار أصحاب المعلقات السبع في دواوينهم فلم أجد منهم من يستعملها في شعره ، وعندها رحت أبحث إلكترونيا في أشعار الشعراء الجاهليين كلهم المعروفين والمغمورين عسى أن أعثر على بيت واحدٍ استعمل فيه هذا الحرف ، فلم أجدْ . وكان البحث قد شمل (٥٦٣) خمسمئة وثلاثة وستين شاعرا ، ومجموع أبيات هؤلاء (٢٠٠٣٤) عشرون ألف وأربعة وثلاثين بيتا شعريا ، وبعد هذا بحثت في أشعار المخضرمين ومجموعهم (١٦٨) مئة وثمانية وستون شاعرا ، ومجموع أبياتهم الشعرية (٣٥١٢٨) خمس وثلاثون ألفا ومئة وثمانية وعشرون بيتا ، ومع كل هذا الجهد ، لم أعثر على بيت واحد تستعمل فيه (إيْ) ، وعندها تيقنت أن بإمكاني أن أزعم أن القرآن الكريم استعمل (إيْ) أوَّلَ مرَّة حرف جواب إن لم يكن في اللغة العربية عامَّة ، ففي اللغة الأدبيَّة خاصَّة ، ومع استعمال القرآن الكريم له ، لم يحتذ أثره أحدٌ من الشعراء المخضرمين ، وبقي هذا الحرف مما

---

١ - ظ : المقرَّب : ١\١١٢ ، رصف المباني : ١٠٩.
٢ - خُزَانَةُ الأَدَبِ:١٠\٣٧٣-٣٧٤ .
٣ - رصف المباني : ١٠٩، وينظر معه :المصادر في الهامش السابق .
٤ - ظ : شرح المفصل : ٨\ ١٢٤، رصف المباني:١٣٦، الجنى الداني :٢٥٢، مغني اللبيب :١٠٥-١٠٦، جواهر الأدب :١٢٦ ، العين : ٨\٤٤٠ ، لسان العرب : مادة (أيا) : ١٤\ ٦١ ، حروف المعاني في معجم لسان العرب : ٢٢٩.
٥ - ظ : شرح الرضي على الكافية : ٤\ ٤٣٠ .
٦ - ظ : العين : ٨\٤٤٠ .

يختص بـه الاستعمال القرآنـي ، قبلَ نـزول القرآن وبُعَيْدَه ؛ إذ لـم يَـرِدْ ضـمن أكثـر مـن خمسـة وخمسين ألف بيت شعري شملها البحث [١].

استعملت (إيْ) فـي القرآن بندرة ، إذ وردت فـي القرآن الكريم مرَّة واحدة فقط ، وهذا يجعل نسبة استعمال هذا الحرف إلى مجموع آيات القرآن (٠,٠١%) أي واحداً في كل عشرة ألاف آيـة قرآنيـة ، وهـي نسبة نـادرة جدا ، والآيـة التـي وردت فيهـا (إيْ) هـي قولـه تعـالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾(يونس:٥٣) ، وقد اقترنت (إيْ) في هذه الآية بالقسم ، قـال الزجـاج فـي تفسيرها : ((المعنـى نعـم وربـي .)) [٢] ، وقـال الطوسـيُّ : ((معنـى {ويستنبؤنك} يستخبرونك ، أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر {أحق هو} يعنـي هذا الوعيد الذي ذكره الله في هـذه الآية الأولـى ، فقـال الله لنبيـه { قـل إيْ وربـي } أيْ : نعـم ، وحـقٌّ الله إنَّـه لحق .))[٣] ، وقال الزمخشريُّ فيها :((و {إيْ} بمعنى «نعم» في القسم خاصـة .)) [٤] ، وقـال القرطبيُّ :((قوله تعالى :(ويستنبئونك) أي يستخبرونك يا محمد عن العذاب وقيـام الساعة،...، (قل إيْ) " إيْ " كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . (وربي) قسم . (إنه لحق) جوابه ، أي كـائن لا شـك فيـه.))[٥] ، لقـد صـرَّح المفسـرون بـأن مجـيء القسـم أضـفى معنـى التوكيـد والتحقيق ، فـ(إيْ) لم تُعط هي بنفسها معنى التوكيد ، بل مجيء القسم معها هو الذي جعلها تصطبغ بهذا المعنى .

وقد أجد سبباً أعللُ به ندرة استعمال هذا الحرف ، فأقول : إن استعمالَ اللغـة فـي الشـعر استعمالٌ فنيٌ بليغٌ يسعى إلى وصف تجربة الشاعر العاطفيـة وتقرير أحوالـه ، وخلجـات نفسـه ، وكذلك كـان استعمال اللغـة فـي القرآن الكريم استعمالا بلاغيـا عـالي المستوى ، بل هو أعلـى مستوى للاستعمال البلاغي في اللغة العربية . والسؤال الحقيقي الذي يتطلب جوابا أن ما يحتـاج إليه الفردُ في حياته اليومية ، وفي لغة السوق والبيت والشارع ، أما في اللغة الأدبية فقلَّما يُحتاج إلى السؤال الذي يتطلب الجواب بـ(نعم أو إيْ) ، ولا أقصد من هذا أن حروف الجواب لا تـأتي في اللغة الأدبية البتة ، لا فقد استعملت كلمـة (نعم) علـى قلـَّـة فـي الشِّعر الجاهلـي ، ولكـن مـا أريده : عدم غرابة قلـَّـة استعمال هذه الحروف في اللغة الأدبية ، لكن الغريب أنها لا تـأتي البتَّـة عند الشعراء قبل الإسلام وشعراء صدر الإسلام ولا مرَّة واحدة ، لذا زعمت أن القرآن الكريم استعملها أوَّل مرَّة ، إلى أن يقوم دليلٌ خلاف هذا الزعم .

• ٤- استعمال (هلْ) بمعناها المركزي :

المعنى المركزي لـ(هل) الاستفهام التصديقي الموجب، وكـان استعمالها في النصـوص البلاغية استعمالا مجازيا ، إلاَّ أن الاستعمال القرآنـي لـم يخل من مواضـع استعمل فيها (هل) للدلالة على معناها الحقيقي المركزي ، وقد ذكرت أمثلتها هنـاك[٦] ، ولقد استطعت أن أُحصـي من الموارد التـي حكـى لنـا فيها القرآن الكريم استفهامات حقيقيـة مستعملا (هل) (١٨) ثمانيـة عشر موردا[٧] ، من أصل (٩٣) موردا مجموع استعمالات هذا الحرف .

---

١ - يمكن الرجوع إلى برنامج الموسوعة الشعرية (الإصدار الثالث) لمتابعة البحث ، والتأكد من النتائج .
٢ - معاني القرآن وإعرابه :٢٥\٣، وينظر معه:جامع البيان:٨٥\١١، معاني القرآن (النحاس):٢٩٩\٣، مفاتيح الغيب:٢٦٤\١٧.
٣ - التبيان : ٥\ ٣٩٢ .
٤ - الكشاف : ٢٤١\٢ .
٥ - الجامع لأحكام القرآن:٣٥١\٨، وينظر معه : زاد المسير:٣٤\٤، تفسير ابن كثير:٤٣٥\٢، البرهان في علوم القرآن:٤٤\٣ .
٦ - ظ : الفصل الثاني :١١٦.
٧ - استشهدت بقسم منها ، ويمكن الإطلاع على البقيَّة من خلال برنامج (نور جامع الأحاديث) .

لم ألحظ عند الشعراء مثل هذا الاستعمال ، فلم ترد (هل) عند الشعراء على نحو الحقيقة لا من باب الحكاية ولا غيرها ، فطبيعة الشعر قد تبعده بعض الشيء عن سرد حكاية الحال عن وقائع أو أحداث يومية يجري فيها الاستفهام الحقيقي .

- **٥- (إذن) حرف (جواب وجزاء) :**

(إذن)[١] حرف ينصب المضارع الدال على الاستقبال بشرط تصدرها ، وعدم الفصل بينهما[٢]، ويبدو أنها وضعت ((لتكون جزاءً للفعل ، وجواباً لكلام دالٍّ عليه ، إما محققٌ كقولك لمن قال : (أزورك) ، (إذن أكرمك) فـ(إذن) جزاءٌ للفعل وهو الزيارة ، وجوابٌ لهذا الكلام المحقق، وإما مقدرٌ ، كقولك للقائل : (لو أكرمتني) ،(إذن أكرمك) ، فإذن هنا جواب لكلام مقدَّر كأن القائل سائلٌ ماذا يكون مرتبطا بالإكرام؟ فأجبته بإذن أكرمك .))[٣]، الجواب والجزاء مقترنان في دلالة هذا الحرف ، وأحدهما له علاقة بالآخر ، ويحدد السياق نوع هذه العلاقة ، فقد تكون محققة ، وقد لا تكون كذالك ، من هذا المعنى قوله تعالى :﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البقرة من الآية : ١٤٥)، قال الرازي : ((أما قوله تعالى : {إنك إذاً لمن الظالمين} فالمراد إنك لو فعلت ذلك لكنت بمنزلة القوم في كفرهم وظلمهم لأنفسهم ، والغرض منه التهديد والزجر .))[٤]، خروج الدلالة إلى المجاز يفهم من السياق أيضاً ، وليس من الدلالة الحرفية للكلمات ؛ لأن هذا النص مخاطب به شخص معين ، واجتمعت القرائن الداخلية والخارجية أن المخاطب به لا يمكن أن يتبع أهواءهم بعد الذي جاءه من العلم ، فعليه يكون النص موجها على جهة التهديد والزجر لمن يتبعون أهواءهم . من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة) .

اقتران الجواب بالجزاء فُهِمَ من كلام سيبويه ، وكثيرٌ من النحويين وافقه عليه[٥] ، إلاَّ أنه نُقِلَ عن أبي علي الفارسي أنَّه يفهم أنها جزاء في موضع ، وجواب في موضع ، ونُقِلَ عن الشلوبين(ت٦٤٥هـ) أيضاً أنها عنده (جواب وجزاء) لكنَّ الجوابَ شرطٌ ، فإذا قالَ القائلُ: (أزورك) ، وقال المجيب :(إذن أكرمك) ، فالمعنى عنده : إن تزرني أكرمك[٦]. أما إذا نظرنا إلى المعنى على وفق نظرية المعني المركزي والمعاني الهامشية فإننا سنطمئن إلى أن المعنى المركزي للحرف هو (الجواب والجزاء) ، وقد تصحبه دلالات أخرى مثل الشرط المفهوم من سياق حديث المُتَحدِّثَين في المثال المذكور آنفا . وقد يتخلى الحرف عن جزءٍ من معناه ، فيفيد الجواب فقط ، دون اقترانه بالجزاء ، كما في قوله تعالى :﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(الشعراء :٢٠) ، فـ(إذاً) هنا جواب لا جزاء ؛ لأنه تصديق لكلام فرعون إلاَّ أنه بزيادة عليه ، إذ ((بيَّنَ له

---

١ - هنالك خلاف في رسم هذه الكلمة فمنهم من يرسمها (إذاً) ومنهم من يرسمها (إذن) وقد فصل القول في هذا المالقي وغيره ، وأرى أن الخلاف فيها شكلي لا أثر له في المعنى ، وأميل إلى رسمها (إذن) ؛ لأن الحروف لا تنون والنون فيه مثل (إنَّ) وغيرها كما قال المالقي في رصف المباني :٦٢-٦٣ ، أما كونها لم ترسم في القرآن إلاَّ على بالألف والتنوين هكذا (إذاً) فهو رسم خاص بالقران الكريم ومن خصائصه ولاسيما أن بعض الباحثين قد يرى أن الرسم القرآني موقوفٌ على شكله الذي وصلنا في المصحف العثماني .

٢ - ظ : الجنى الداني : ٣٥٥ .

٣ - جواهر الأدب: ٢٠١- ٢٠٢، وينظر معه : حروف المعاني:٦، الإيضاح العضدي :٣٠٩، الصاحبي في فقه اللغة :١٤١، المقرب:٢٦١\١، رصف المباني:٦٢-٦٣، ارتشاف الضرب:٣٩٥\٢-٣٩٦، الجنى الداني:٣٥٧-٣٥٨، مغني اللبيب:٣٠.

٤ - مفاتيح الغيب: ١٠٧\٤.

٥ - ظ : الكتاب :١٢\٣- ١٦، المقتضب : ١٠\٢، شرح المفصل : ١٢\٩، همع الهوامع : ٦\٢.

٦ - ظ : رصف المباني : ٦٢- ٦٣.

أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافراً أو كافراً لنعمه .)) [1]. وليس هنا جزاء ، فالحرف هنا قد تمحض للجواب بدليل أنه يقال للشخص : (أحبك) فيقول :(إذن أظنك صادقا) فليس في الكلام مجازاة .

استعملت (إذن) في القرآن الكريم بقلَّة ؛ إذ وردت (٣١) واحدة وثلاثين مرَّة[2] ، لتكون نسبتها إلى مجموع آيات القرآن (٠,٤٩%) أربعة استعمالاتٍ في كلِّ ألف آيةٍ من القرآن . ولم تستعمل (إذن) في دواوين أصحاب المعلقات ، ولم أعثر لها على شاهدٍ عندهم . لكني أسجِّلُ هنا أنها استعملت في الشعر الجاهلي كُلّه بندرةٍ ، فقد رصدت لها تسعة استعمالات[3] من خلال إحصاء عموم الشعر الجاهلي المثبت في الموسوعة الشعرية ، ومقداره أكثر من عشرين ألف بيت لتكون نسبة استعمال هذا الحرف في الشعر الجاهلي (٠,٠٤%) أربعة استعمالات في كل عشرة آلاف بيت من أشعار الجاهليين ، وهي نسبة ضئيلة جدا ، وقد رفعها الاستعمال القرآني إلى تسع وأربعين مرة في كل عشرة آلاف آية ، أي أكثر من اثني عشر ضعفا لما كانت عليه في لغة الجاهليين ، أما عند أصحاب المعلقات فلم يستعمل هذا الحرف البتَّة .

• ثانيا : المعاني الهامشية التي تفرَّد بها القرآن الكريم :

هنالك عدد من المعاني الهامشية لبعض الحروف تفرّد القرآن باستعمالها ، ولم أعثر على من يستعملها معه من الشعراء ، وقد رصدت عددا من هذه المعاني :

١- (أنْ) المخففة تدلُّ على (الشك أو الرجحان) :

من استعمال (أن) المخففة مجيئها بعد الفعل (ظنَّ) ، نحو قوله تعالى[4]: ﴿ **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً** ﴾(الجن:٥) ، وقوله :﴿ **وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً** ﴾(الجن:٧).

ولعل من المناسب هنا أن أشير إلى الاستعمال القرآني للفعل (ظنَّ) ، وهي من الأفعال التي تدلّ على يقين الخبر أو رجحانه ، والرجحان يغلب فيها كما يغلب في (حسب وخال) ، لكنها قد تستعمل بمعنى اليقين ، لأن الظن فيه طرفٌ من اليقين لولاه كان جهلا ، ويبدو أن الزركشيّ(ت٧٩٤هـ) قد وضع لنا ضابطين للتفريق في الاستعمال القرآني لهذا الفعل بين الدالِّ على اليقين ، والدالِّ على الرجحان ، فيقول :((وللفرق بينهما في القرآن ضابطان : أنه حيث وجد الظن محمودا مثابا عليه فهو اليقين ، وحيث وجد مذموما متوعدا بالعقاب عليه فهو الشك الثاني: أن كل ظن يتصل بعده إن الخفيفة فهو شك كقوله :﴿ **إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ** ﴾(البقرة: من الآية٢٣٠) ، وقوله :﴿ **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ** ﴾(الفتح: من الآية١٢) . وكلُّ ظن يتصل به إن المشددة

---

١ - مفاتيح الغيب: ٤٩٦\٢٤ .

٢ - البقرة:١٤٥، النساء:٥٣، ٦٧، ١٤٠، المائدة: ١٠٦، ١٠٧، الأنعام: ٥٦، الأعراف:٩٠، يونس:١٠٦، هود:٣١، يوسف:١٤، ٧٩، الحجر:٨، الإسراء: ٤٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ١٠٠، الكهف:١٤، ٢٠، ٥٧، المؤمنون: ٣٤، ٩١، الشعراء:٢٠، ٤٢، العنكبوت: ٤٨، الأحزاب: ١٦،يس: ٢٤، النجم: ٢٢، القمر: ٢٤، النازعات: ١٢ ، ينظر (برنامج نور جامع الأحاديث) ، و معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم: ٢٧ .

٣ - واحد عند الأسود بن يعفر النهشلي ، وواحد عند الشنفرى ، وآخر عند عبد الله بن العجلان ، واستعمال واحد عند أبو الذيَّال ، وخمس مرات عند جنوب الهذليَّة ، ويمكن الرجوع إلى الموسوعة الشعرية لمتابعة هذه المواضع .

٤ - وينظر أيضاً : الجن :١٢، ١٦، ٢٧ .

فالمراد به اليقين ، كقوله: ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾(الحاقة:٢٠) ، و ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾(القيامة:٢٨)، والمعنى فيه إن المشددة للتأكيد فدخلت على اليقين والخفيفة ، بخلافها فدخلت في الشك مثال الأول قوله سبحانه : ﴿ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾(الأنفال: من الآية٦٦) ، ذكر بـ(أَنَّ) وقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد: من الآية١٩) ، ومثال الثاني : ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾(المائدة: من الآية٧١)، والحسبان الشك.)) [1] .

وأعتقد أنَّ هذه القاعدة التي وضعها الزركشيُّ ، ووافقه عليها بعضهم [2]، قد تعوزها بعض الدقَّة ، فقد نفهم من السياق في بعض الآيات خلاف ما سطره الزركشيُّ في قاعدته ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾(التوبة: من الآية١١٨) ، هنا جاء الفعل (ظنوا) وقد وليته (أنْ) المخففة ، وهو دالٌ على اليقين ، أي علموا وتيقنوا ، وقد صرَّح بذلك الزمخشريُّ[3]، وقال الفخر الرازي : (({وظنوا} أي علموا كما في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ﴾(البقرة: من الآية٤٦) ، والدليل عليه أنه تعالى ذكر هذا الوصف في حقهم في معرض المدح والثناء ، ولا يكون كذلك إلا وكانوا عالمين بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه .)) [4] ، ففي الوقت الذي يتطابق فيه الضابط الأول - وهو ذكر المدح والثناء مع الدال على اليقين - إنه يناقض الضابط الثاني ، فليس كل (ظن) تليه المخففة يدلّ على الشك . وكذلك كان معنى آيتي سورة الجن المذكورتين آنفا ، معناهما دالٌ على الاعتقاد القطعي ، وليس دالا على الشك والرجحان ، قال أبو حيان في تفسير الآية السابعة من سورة الجن :(({وأنا ظننا} الآية : أي كنا حسني الظن بالإنس والجن ، واعتقدنا أن أحداً لا يجتريء على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد ، فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فتبينا كذبهم .))[5] ، وأما الآية الثانية عشرة من سورة الفتح التي ذكرها الزركشيّ آنفا مستدلا بها على قاعدته ، فلا يسلم له الاحتجاج بها ؛ لأن معناها لا يدلّ على الشك والرجحان ، بل كان يدلّ على القطع في الاعتقاد ، ذلك أنهم كانوا جازمين بعدم عودة الرسول ومن معه ، قال الرازي في تفسير هذه الآية :((يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم {بل ظننتم أن لن ينقلب} وأن مخففة من الثقيلة ، أي ظننتم أولاً ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ، ويضم إليها مُخَايَلَة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل .)) [6] ، فالرازي صرَّح بأن(أنْ) هنا المخففة ، وكذلك يقرر أن اعتقادهم كان قد وصل إلى مرحلة القطع والجزم . وليس بعد هذه النقول عن العلماء من مجال لقبول رأي الزركشيّ على إطلاقه ، وأقلُّ ما يقال فيها أنها ليست مطردة .

وقد يكون الراغب الأصفهانيّ(ت٤٩٥هـ) أدق منه فقد قرر من قبله أنَّ ((الظن اسم لما يحصل عن أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهم ، ومتى قوى أو تَصوّرَ تصوّر القوي استعمل معه أن المشددة وأن المخففة منها . ومتى ضعف استعمل أنَّ وأن المختصة بالمعدومين من القول والفعل .))[7] فالراغب يبعد المعنى عن اقتران الفعل بـ(أنْ) المخففة أو المثقلة ، ويرجعه إلى نوع آخر من (أنْ) . وأعتقد أنَّ الأسلم القول :

---

١ - البرهان :١٥٦\٤ .
٢ - ظ : أثر القرآن والقراءات في النحو العربي:١٩٦.
٣ - الكشاف : ٢١٨\٢.
٤ - مفاتيح الغيب : ١٦٤\١٦ ، وينظر معه : الجامع لأحكام القرآن :٢٨١\٨.
٥ - البحر المحيط : ٢٩٠\١٠ -٢٩٢ .
٦ - مفاتيح الغيب : ١٢٨\ .
٧ - مفردات غريب القرآن :٣١٧ .

برجوع الأمر كله إلى السياق ، وما يمليه من فهم المعنى تبعا للقرائن الداخلية والخارجية لكل آية .

تتبعت أشعار أصحاب المعلقات الجاهليين لأنظر كيفية استعمالهم للفعل (ظنَّ) فرأيتهم قليلي الاستعمال لهذا الفعل أصلا ، فلم يستعمله إلاَّ عنترة مرَّة واحدة ، إذ يقول [1] :

(الوافر)

ظَنَنتُم يا بَني شَيبانَ ظَنّاً   فَأَخلَفَ ظَنَّكُم جَلدي وَصَبري

وواضح أنه لم يقرنه بـ(أن) المثقلة ولا المخففة . واستكمالا للبحث ، وفي محاولة للإحاطة بجوانبه فقد تتبعت أشعار الجاهليين كلهم (٥٣٦) شاعرا ، فوجدتهم يستعملون هذا الفعل بتقلباته المختلفة (١٤) أربع عشرة مرَّة فقط ، على مدى أكثر من عشرين ألف بيت (ظنَّ تسع مرات ، وظننتم مرتين ، وظننتُ ثلاث مرات) [2] ، لكنهم في هذه الاستعمالات كلها لم يستعملوا (أن) لا المخففة ولا المثقَّلة ، ومن جميل استعمالاتهم قول خزيمة القضاعي(ت٣٤ق.هـ) [3]:

(الوافر)

إذا الجَوزاءُ أَردَفَتِ الثُرَّيا   ظَنَنتُ بِآلِ فاطِمَةَ الظُنونا

ظَنَنتُ بِها وَظَنُّ المَرءِ حوبٌ   وَإِن أَوفى وَإِن سَكَنَ الحَجونا

من هنا أستطيع القول إننا لا نملك شاهدا يثبت لنا استعمال (أن) التوكيدية مع الفعل (ظنَّ) عند الجاهليين ، وقد يكون هذا الاستعمال عرف بعد نزول القرآن الكريم الذي استعمله بوضوح ، فنجد من أصحاب المعلقات المخضرمين لبيد يقول في بيت له[4]:

(الطويل)

إذا المَرءُ أَسرى لَيلَةً ظَنَّ أَنَّهُ   قَضى عَمَلاً وَالمَرءُ ما عاشَ عامِلُ

يريد أن المرء إذا سهر ليله في قضاء عمل ما ظنَّ أنه قد فرغ منه ، فظنَّ هنا تدلُّ على اليقين ، وهذا الاستعمال موافق لما قاله الزركشيُّ آنفا ، واستعمل مخضرمون آخرون أمثال الأعشى(ت٧هـ) وحُميد بن ثور الهلالي(ت٣٠هـ) وحسَّان(ت٥٤هـ) هذا الفعل مع (أنَّ) المثقلة و(أن) المخففة[5] . وأحسَبُ أن هؤلاء تأثروا الاستعمال القرآني واحتذوا سبيله . مما تقدم يمكن أن نظيف معنىً هامشيا إلى (أن) المخففة من الثقيلة ابتدعه القرآن الكريم ، ولم أر من يستعمله قبله ، وإن كنت أتحفظ في قبوله على سعته ، وأرى أنه ليس مطردا تماما ، فالسياق له الأثر الأكبر فيه .

٢- (أنْ) المصدرية تدلُّ على التفسير:

قالوا إنَّ (أنْ) قد تكون تفسيرية بمعني (أيْ) ، وهذا النوع مختلف في أصل وجوده وعدمه ، فالكوفيون ينكرون (أنْ) التفسيرية البتَّة ، ويرى ابن هشام أن إنكارها متجه [6]؛ لأن من يثبتها يشترط أن تكون بين جملتين ، والجملة الثانية وهي المُفسِّرة يجب أن تكون عين الأولى ، وإذا قلنا:(كتبت إليه أن قُمْ) لم تكن (قم) نفس (كتبت) ، كما هو الحال في قولنا (هذا

١ - ديوان عنترة (فوزي عطوي) : ١٦٤.
٢ - يمكن متابعة هذا البحث والإطلاع على نتائجه بالرجوع إلى برنامج (الموسوعة الشعرية – الإصدار الثالث) .
٣ - للإطلاع على حياة الشاعر وأخباره وأشعار يمكن الرجوع إلى برنامج (الموسوعة الشعرية – الإصدار الثالث) .
٤ - شرح ديوان لبيد : ٢٥٤ .
٥ - ظ : ديوان الأعشى الكبير : ١٢١ ، ديوان حميد بن ثور الهلالي : ٨٨ ، شرح ديوان حسان بن ثابت : ٣٢٨ .
٦ - ظ : مغني اللبيب : ٤٧ ، جواهر الأدب : ١٠٩.

عسجدٌ أي ذهبٌ) ، فالأول عين الثاني ، ومن هنا لو افترضنا أنا نضع (أي) بدل (أنْ) في الجملة الأولى لم يستقم الكلام [١] . ومع هذا فقد اشترط القائلون بها لتحققها شروطا : أولها أن تسبقها جملة تامة فيها معنى القول دون حروفه ، وأن تتأخر عنها جملة ، وأن لا يدخل عليها جارٌ [٢] .

ولقد ذكر الأربليُّ أمرا قد يحلُّ ما أشكل على ابن هشام في هذا النوع ، وهو أن المتأمل لأمثلة هذا النوع يجد أنَّ المُفسَّر ليس الجملة المتقدمة على (أنْ) ، وإنما هو مفعول محذوف ، يقدَّر بحسب الكلام ، وما اشتراط تَقَدُّم الجملة التامة إلاَّ ليتسنى تقدير المفعول المُفسَّر بـ(أنْ) ، لا أنَّ المُفسَّر هو الجملة [٣]، ففي قوله تعالى :﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾(المؤمنون: من الآية٢٧)، المُفسَّر هنا ليس جملة (أوحينا) ، لا بل هو مفعول مقدر تقديره (أمرا) ، وتفسره (أنْ) اصنع الفلك ، ودعم رأيه هذا بما ذكره الرضي من إن الفرق بين حرفي التفسير (أي وأن) هو((أن (أي) يُفسَّرُ بها كلَّ مبهم ، من المفرد ، نحو (جاءني زيد أي أبو عبد الله) ، والجملة ، نحو : (هريق دمه أي مات) ، ...، و(أنْ) لا تُفسِّر إلاَّ مفعولا مقدرا للفظٍ دالٍّ على معنى القول ، مؤدٍ معناه ، كقوله تعالى :﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(الصافات:١٠٤) ، فقوله:{يا إبراهيم} تفسير لمفعول نادينا المقدر، أيْ : ناديناه بشيء ، وبلفظ هو قولنا يا إبراهيم ، وكذلك قولك (كتبت إليه أن قم) أيْ : كتبت إليه شيئا هو: قم، فـ(أنْ) حرفٌ دالٌّ على أنَّ (قم) تفسيرٌ للمفعول به المقدَّر لكتبت ، وقد يفسر المفعول به الظاهر ، كقوله تعالى :﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾(طه: ٣٨-٣٩).)) [٤] ، هذا الكلام يدفع الإشكال الذي أورده ابن هشام من إن الجملة المتقدمة على (أنْ) ليست هي عين المفسر بها ، وعلى ما سبق فـ(أيْ) تفسر المفرد بالمفرد والجملة ، و(أنْ) تفسر المفرد الظاهر ، أو المقدَّر بالجملة لا بالمفرد . وإذا صحَّ هذا فأذكر استعمالها في النصوص المدروسة .

ما استطعت أن أحصيه من استعمال (أنْ) تفسيرية في القرآن الكريم (٣٨) ثمانيا وثلاثين مرَّة [٥]، مما يجعل نسبتها إلى مجموع استعمالات (أنْ) العامة في القرآن (٦%) وبذا تكون في المرتبة الثالثة في الاستعمال القرآني لـ(أنْ) ، أما النسبة المئوية بينها وبين مجموع آيات القرآن فهي(٠,٥%) بمعنى أننا نرصد خمسة استعمالات لـ(أنْ) التفسيرية في كل ألف آية .

الآيات التي استعملت فيها (أنْ) تفسيرية كانت في الأعم الأغلب منها تدخل فيها على فعل الأمر ، مثل قوله تعالى :﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(البقرة: من الآية١٢٥) وقوله ﷻ :﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾(آل عمران: من الآية١٩٣) ، ويبدو أن هاجس عدم قول الكوفيين بهذا النوع من معاني (أنْ) كان يلاحق العكبريَّ ، فقد تتبعته فوجدته بعد كل (أنْ) داخلة على فعل أمر يذكر أنها تفسيرية وما يلبث أن يقول بجواز كونها مصدرية ثنائية داخلة على فعل الأمر ، فهو يقول في تفسير الآيتين

١ - ظ : مغني اللبيب: ٤٧-٤٨.
٢ - ظ : شرح المفصل : ٨\١٤٢ ، شرح الرضي على الكافية : ٤\٤٣٧،شرح ألفية ابن مالك :٢٦٢، البرهان : ٤\٢٢٥، مغني اللبيب : ٤٨، جواهر الأدب : ١١٠.
٣ - ظ : جواهر الأدب : ١١٠ .
٤ - شرح الرضي على الكافيَّة : ٤\ ٤٣٨.
٥ - البقرة:١٢٥،آل عمران:١٩٣،المائدة:١١١،الأعراف:٥٠ ،١٦٠،١١٧،التوبة:٨٦، يونس:٢، ٨٧، ١٠٥، هود:٣، إبراهيم:٥، النحل:٣٦، ٦٨، ١٢٣، مريم:١١، طه:٣٩، ٧٧،المؤمنون:٢٧، ٣٢،الشعراء:١٠، ٦٣،٥٢، النمل:٤٥،٢، القصص:٧، لقمان: ١٢، ١٤، سبأ:١١، يس:٦١، الصافات:١٠٤، ص:٦،الشورى:١٣،الدخان:١٨،القلم:٢٢، ٢٤، نوح:١، ٣ .

المتقدمتين :(({أن طهرا} يجوز أن تكون أن هنا بمعنى (أيْ) المفسرة ؛ لأن {عهدنا} بمعنى قلنا ، والمفسرة : ترد بعد القول ، وما كان في معناه فلا موضع لها على هذا ، ويجوز أن تكون مصدرية ، وصلتها الأمر، وهذا مما يجوز أن يكون صلة في أن دون غيرها ، فعلى هذا يكون التقدير بأن طهرا ، فيكون موضعها جرا أو نصبا على الاختلاف بين الخليل وسيبويه .)) [1]، ويقول في تفسير الأخرى :(({أن آمنوا} أن هنا بمعنى أي ، فيكون النداء قوله آمنوا ، ويجوز أن تكون أن المصدرية ، وصلت بالأمر فيكون التقدير : على هذا ينادى للإيمان بأن آمنوا .))[2] .

وأحصيت خمسة موارد كانت (أنْ) قد دخلت على (لا والفعل المضارع) [3] ، وفي هذه المواضع كانت (أنْ) تقبل التفسير على أقوال مختلفة - وقد أسقطتها من حساب التفسيرية والمخففة وبقيت في حساب المصدرية - ففي قوله تعالى :﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾(هود: من الآية٢٦) ، يقول العكبريُّ :(({أن لا تعبدوا} في (أنْ) ثلاثة أوجه : أحدها[4] هي مخففة من الثقيلة ، والثاني أنها الناصبة للفعل ، وعلى الوجهين موضعها رفع تقديره (هي أن لا تعبدوا) ، ويجوز أن يكون التقدير(بأن لا تعبدوا) ، فيكون موضعها جرا أو نصبا على ما حكينا من الخلاف . والوجه الثالث أن تكون (أنْ) بمعنى أي ، فلا يكون لها موضع .)) [5] ، ونقل هذه المسألة ابن هشام في المغني [6]. أقول على المفسِّر للقران أن يكون على قدر كبير من فهم مقتضيات السياق ، وما يفرضه في تقرير معنى معين لكل آية من آيات الكتاب العزيز ، وإذا كان التقدير النحوي يجيز للمفسر هذه الأوجه الإعرابية ، فلابدَّ أن يكون السياق يحتم أحدها دون غيره وهذا ما يجب أن يحذقه المفسرون .

ولقد أشار الرضي إلى أن ما بعد (أن) المفسرة ، ليس من صلة ما قبلها ، إذ يتم الكلام دونه ، ولا يحتاج إليه إلا من جهة تفسير المبهم المقدر فيه ، ففي قوله تعالى :﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس: من الآية١٠) ، لا تكون (أنْ) فيه مفسرة ؛ لأن قوله تعالى : {أن الحمد لله رب العالمين} خبر المبتدأ المتقدم [7].

في دواوين أصحاب المعلقات لم أجد منهم من استعمل هذا المعنى ، ولم أستطع أن أرصد (أنْ) التفسيرية في أشعارهم ، وأعتقد أنَّهم لم يعرفوا هذا المعنى لهذا الحرف ، ومما يؤيد اعتقادي هذا أن أصحاب كتب حروف المعاني لم يستشهدوا ببيت واحد لا لجاهلي ولا لإسلامي عند ذكرهم لهذا النوع من استعمالات (أنْ) . وهذا يجعلنا نضيف إلى قائمة المعاني التي ابتكرها الاستعمال القرآني للحروف معنى جديدا هو استعمال (أنْ) التفسيرية . وهذا يؤيد الفرضية التي ذكرت في مستهل الفصل ، ويؤكد أن السياق القرآني المؤثر الرئيس في تطوير معاني الحروف .

---

١ - التبيان في إعراب القرآن :٦٢\١.
٢ - نفسه : ١٦٣\١ ، ومثله في : ٢٣٢\١.
٣ - ظ : هود : ٢٦ ، الإسراء : ٢٣، فصلت ٣٠، الأحقاف :٢١، الرحمن :٨ .
٤ - هكذا وردت والأصح أن يقال : الأوَّل .
٥ - التبيان في إعراب القرآن : ٣٤١\٢ .
٦ - مغني اللبيب : ٥٠ .
٧ - شرح الرضي على الكافية :٤٣٩\٤ .

٣- (بلْ) الإضراب بها للإبطال :

يأتي الإضرَاب للإبطال في المرتبة الثانية بعد الغرض الأول وهو الإضراب للانتقال ، وقد استطعت أن أحصي من الموارد التي جاء فيها الإضرَاب للإبطال (٣١) واحدا وثلاثين موردا[١] ، ليمثل نسبة (٢٤,٤%) أي قرابة الربع من مجموع استعمالها القرآني ، وكان استعمال الإضراب للإبطال يأتي في سياق الحكاية في تلك الموارد كلها ، وهذا ما أشار إليه من قبلُ أبو حيان في قوله :(({بل} للإضراب والانتقال من شيء إلى شيء ، من غير إبطال لما سبق ، وهكذا يجيء في كتاب الله تعالى إذا كان ما بعدها من إخبار الله تعالى ، لا على سبيل الحكاية عن قوم .))[٢] ، أي إن الإبطال كان لكلام البشر أو مزاعمهم التي يزعمون ، فكان الخطاب القرآني يبطل تلك المزاعم ، ويثبتُ الحقَ بكلماته تعالى شأنه ، ومن أمثلته :

- قال تعالى :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾(البقرة:٨٨) ، ومثلها أيضاً : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾(النساء:١٥٥) ، بيَّن المفسرون في الآيتين أنَّ ما بعد (بل) هو تكذيب لقولهم المتقدم (قلوبنا غلف) ، وبيّن أنه تعالى طبع عليها ، وختم عليها فلا يصل أثر الدعوة والبيان إلى قلوبهم ، وفيه أيضا تكذيب لما ادعوه من أن قلوبهم في أكنَّة ، وعليها أغطية ، ولو كانوا صادقين لما لعنهم الله ، ولما استوجبوا منه الذمَّ ، فالإضراب جاء هنا لإبطال قول الكافرين[٣].

- قال تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(المؤمنون:٧٠) ، قال الطبري في تفسير هذه الآية :((أيقولون بمحمد جنون ، فهو يتكلم بما لا معنى له ولا يفهم ولا يدري ما يقول : بل جاءهم بالحق ، يقول تعالى ذكره : فإن يقولوا ذلك فكذبهم في قِيلِهِم ذلك واضح بين ، وذلك أن المجنون يهذي فيأتي من الكلام بما لا معنى له ، ولا يعقل ولا يفهم ، والذي جاءهم به محمد هو الحكمة التي لا أحكم منها والحق الذي لا تخفى صحته على ذي فطرة صحيحة ، فكيف يجوز أن يقال : هو كلام مجنون ؟))[٤] فما بعد (بل) جاء لبيان فساد قول المعاندين للحق لمَّا جاءهم ، هذا ما يسميه العلماء الإضرَاب للإبطال . ومثاله : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾(سبأ:٨) .

- ومن بديع استعمال القرآن الإضرَابَ للإبطال قوله تعالى :﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾(الفتح:١١) ، إذ ذكرت الآية الكريمة قول المخلفين من الأعراب إنهم تخلفوا عن النبي9 لشغلهم بأموالهم وأهليهم ، فردَّ عليهم الله تعالى بما

---

١ - البقرة:٨٨، ١١٦، ١٣٥، ٢٥٩، النساء: ١٥٥، المائدة:٦٤، يوسف:١٨، ٨٣ ، الحجر:٦٣، النحل:١٠١ ، طه:٦٦، الأنبياء :٢٦، ٦٣، المؤمنون :٧٠، السجدة:٣، سبأ: ٨، ٢٧، ٣٢، ٣٣، فاطر:٤٠، يس:١٩، الصافات:٢٩، ٣٧، ص:٦٠ ، الزمر :٤٩، الأحقاف: ٢٤، الفتح : ١١ ، ١٢، ١٥، ١٥، القمر: ٢٥ .

٢ - البحر المحيط : ٤\١٠٣ أو ٤\٤٧٠-٤٨٢ ، وينظر معه : أساليب النفي في العربية : ١٧٠ - ١٧١.

٣ - ظ : معاني القرآن(الفراء) : ١\٢٩٤ ، جامع البيان : ١\ ٥٧٤ ، معاني القرآن وإعرابه : ١\ ١٦٩ ، التبيان : ١\ ٣٤٢ ، مفاتيح الغيب :٣\ ٥٩٧ ، ١١\ ٢٥٨ ، التبيان في إعراب القرآن : ١\ ٥٠ ، أساليب النفي في العربية : ١٦٩-١٧١.

٤ - جامع البيان : ١٨\ ٥٥ ، وينظر معه : التبيان : ٧\ ٣٨٢ ، جوامع الجامع ٢\٥٩١ ، مفاتيح الغيب :٢٣\ ٢٨٥ .

يبطل دعواهم تلك :((فكذبهم الله تعالى فقال : {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} وهذا يحتمل أمرين أحدهما[1]: أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم {فاستغفر لنا} ،...، ثانيهما: قالوا {شغلتنا} إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا غير، ...، كما قال بعده {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً} (الفتح: ١٢) وقوله {قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً} معناه أنكم تحترزون عن الضر. وتتركون أمر الله ورسوله،...)) [2]، ثم أضرب في نهاية الآية لتأكيد إبطال قولهم المزعوم مقررا أنَّ علاَّم الغيوب عالم بحقيقة السبب الذي دعاكم للتأخر عن القيام مع النبي9، وجاءت الآية التالية ناطقة بالحق :﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾(الفتح:١٢) ، ومُصرِّحَةً بأنهم ظنوا ، وظنهم هنا يدلّ على اليقين – كما بيننا من قبل – أنَّ الرسول9 والمؤمنين لن يرجعوا من حربهم هذه ، وهذا الإضرَاب يدللُّ على كذبهم في ادعائهم في الآية المتقدمة أنَّهم إنما قعدوا عن اللحاق بالجيش بسبب بيوتهم وأهليهم ((يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم {بل ظننتم أن لن ينقلب} و(أنْ) مخففة من الثقيلة ، أي ظننتم أولاً، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به .))[3] ، وقد ختم الله تعالى الآية بذمهم وتوبيخهم ؛ إذ وصفهم بأنهم قومٌ بورٌ ، ولم يذمهم إلاَّ لكذبهم .

ويستمر تقريع المكذبين المنافقين وتأنيبهم حتى تكتمل الصورة في بيان موقفهم هذا بعد آيتين فيقول الحق تعالى :﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾(الفتح :١٥) ، وفي هذه الآية أراد هؤلاء الدفاع عن أنفسهم بأن ادعوا أن المؤمنين يحسدونهم ، وادعاؤهم هذا لاعتقادهم أنهم يبطلون ما قاله لهم الرسول9 بأمر الله تعالى : (لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل) ، فجاءت خاتمة الآية الكريمة بإضراب للإبطال قولهم ودعواهم أن المؤمنين يحسدونهم . وجاء في الآية إضراب لإبطال قول النبي بحد زعمهم وبعده إضراب لأبطال زعمهم هذا ، قد لا يصرح المفسرون دائما بأن الإضرَاب في هذا الموضع لسبب الانتقال أو للإبطال ، بل كان هذا المعنى أو ذاك يفهم من كلامهم بوضوح ففي هذه الآية الكريمة مثلا يقول الزمخشري :((فإن قلت : ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت : الأوّل إضراب معناه : ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين، إلى وصفهم بما هو أطمُّ منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .)) [4] ، ولعل عبارة الرازي أكثر وضوحا إذ يقول : ((ثم قال تعالى : {فسيقولون بل تحسدوننا} رداً على قوله تعالى : {كذلكم قال الله من قبل} كأنهم قالوا : ما قال الله كذلك من قبل ، بل تحسدوننا ، وبل للإضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين،...، ثم قال تعالى رداً عليهم كما ردوا {بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً} أي لم يفقهوا من قولك لا تخرجوا إلا ظاهر النهي ، ولم يفهموا من حكمه إلا قليلاً فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد .)) [5].

إن هذا المعنى المضاف إلى المعنى العام معنى لم يستعمله الشعراء ، وقد تفرد القرآن الكريم باستعماله ، وهو تطور يسجل للغة الذكر الحكيم .

---

١ - هكذا وردت العبارة والأصح أن يقال : أولهما .
٢ - مفاتيح الغيب : ٢٨\ ٧٠- ٧٥ .
٣ - مفاتيح الغيب : ٢٨\ ٧٥- ٨٠ .
٤ - الكشاف : ٣\٥٤٥ .
٥ - مفاتيح الغيب : ٢٨ \ ٨٥-٩٠ .

٤- (بلْ) الإضراب بها للإنكار :

استطعت - بحمد الله - أن أرصد نوعا ثالثا ، لم أرَ من أشار إليه من قبل ، ذلك أنِّي وجدت الاستعمال القرآني قد يُضرِب عن معنى الجملة المتقدمة إلى جملة جديدة ليُنكِرَ معنى الجملة المتقدمة ، ويردع القائلين بها ، ومن ثم يكون إلزام لهم بالمعنى الجديد الذي قررته الجملة التالية لـ(بل) ، وهذا النوع الذي أطلقت عليه الإضرَاب للإنكار منتشرٌ وشائعٌ في الاستعمال القرآني ، ومع هذا لم أجد مشيرا إليه ، وقد رصدت من الموارد لهذا الاستعمال (٢٦) ستة وعشرين موردا[١] ، ليشكل نسبة (٢٠%) أي خمس الاستعمال القرآني لهذا الحرف ، ومن أمثلة هذا الاستعمال :

- قوله تعالى : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(البقرة:١٠٠) ، قال الرازي في هذه الآية : (({بل أكثرهم لا يؤمنون} وفيه قولان الأول : أكثر أولئك الفساق لا يصدقون بك أبداً لحسدهم وبغيهم ، والثاني : لا يؤمنون : أي لا يصدقون بكتابهم لأنهم كانوا في قومهم كالمنافقين مع الرسول ، يظهرون لهم الإيمان بكتابهم ورسولهم ثم لا يعملون بموجبه ومقتضاه .))[٢] ، قال أبو حيان ((ومعنى هذا الإضراب هو: انتقال من خبر إلى خبر.))[٣] . أقول ما قرره الرازي في تفسير الآية صحيحٌ من باب المعنى الأولي لتفسير النص ، ولكن المعنى المراد حقيقة ليس الانتقال من خبر إلى خبر فقط ، كما في آية (المؤمنون :٧١)[٤] التي مرّت آنفا في المبحث الأول ، لا فعندنا هنا معنى جديد ومهم يضاف إلى معنى الإضرَاب ، وهو غاية للإضراب ، ذلك المعنى هو الإنكار لفعل هؤلاء المنافقين الذين كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم . وقد جاء في صدر الآية الشريفة استفهام مجازي المراد به هو الإنكار[٥] ، وفيه قرينة على غاية الإضرَاب وسبب تحول الخطاب القرآني له .

- ومنه أيضاً قول الله جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾(الأعراف:٨١) ، فالسياق هنا ينتقل من معنى إلى آخر ، قال الزمخشري فيه : ((أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى إتباع الشهوات ، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في بعض قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.))[٦] ، وقال الرازي :((المعنى كأنه قال لهم : أنتم مسرفون في كل الأعمال، فلا يبعد منكم أيضاً إقدامكم على هذا الإسراف .))[٧] . أقول هذا المعنى الأولي يقويه ويؤازره إذا ما قلنا : إن الغاية من الإضرَاب هنا هي إنكار عملهم ، واستنكار المجتمع المخاطب بالقرآن إياه . فحينما يصفهم بالإسراف يريد أن يُنكِر عليهم فعالهم القبيحة التي أقدموا عليها ، ولا يريد

١ - البقرة :١٠٠،النساء : ٤٩، الأعراف :٨١ ، النور:٥٠ ، الفرقان :٤٠، الشعراء:١٦٦، النمل:٣٦، ٤٧، ٥٥ ، ٦٠، ٦١، ٦٦،العنكبوت: ٦٣، لقمان :١١، ٢٥، السجدة :١٠، الزمر :٢٩، الحجرات:١٧، الذاريات :٥٣، الطور:٣٣، ٣٦، المدثر، ٥٣، القيامة:٢٠، الانفطار:٩، المطففين:١٤، الفجر:١٧ .

٢ - مفاتيح الغيب :٣\٦١٥.

٣ - البحر المحيط : ١\ ٥١٢-٥٣٢ .

٤ - وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

٥ - ظ : مفاتيح الغيب :٣\٦١٥.

٦ - الكشاف : ٢\٩٢.

٧ - ظ : مفاتيح الغيب :١٤ \٣٠٩.

الإخبار عنهم بأنهم مسرفون في كثير من الأشياء ، وليس غريبا أن يسرفوا هنا ، بل من المؤكد أن الخطاب يريد إنكار فعلهم هذا ، ومثل هذه الآية قوله تعالى :﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾(الشعراء:١٦٦) ، فهنا إنكار أيضاً لفعلهم القبيح .

• وكذلك جاء في قول العزيز الحكيم :﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(النمل:٦٠ - ٦١) ، إن هذه الآيات الكريمات تُبَلِّـغ المشركين بأن الله هو خالق الكون وحده لا شريك له ، وتطعن في إنكارهم لهذه الحقيقة ، من خلال تقديم الأدلـّة الملموسة التي لا يمكنهم نكرانها . ولم يشر المفسرون[1] إلى ما يمكن أن نلحظه من معنى الإنكار الذي يدلّ عليه الإضرَاب بوضوح كما أرى ، فالتقرير الذي تذيلت به كل من الآيتين كان يتبعه إضراب ، وهذا الإضرَاب ليس للعدول عن التقرير ، بل إنكار لفعلهم ، وشركهم مع وجود هذه الدلائل الواضحة على وحدانيَّة الخالق ، وعدم وجود الشريك له تعالى ذكره .

وهكذا تكرر معنى الإنكار مع الإضرَاب في آيات كثيرة ، لكني أستغرب عدم إشارة المفسرين واللغويين له ، مع اطراده وانتشاره ، ومع تفننهم بتشقيق الأنواع وتقسيم الأقسام ، وأرى أنه يصلح أن يكون قسيما للقسمين اللذين ذكرا في كتب اللغويين ، وهما الإضرَاب للإبطال ، والإضراب للانتقال ، ليكون القسم الثالث معهما الإضرَاب للإنكار . لقد تفرد القرآن الكريم باستعمال نوعين من الإضرَاب هما الإضرَاب للإبطال والإضراب للإنكار ، ولم يستعمل الشعر قبل نزول القرآن هذين النوعين من معاني (بل) التي تُضمُّ إلى معناها العام وهو الإضرَاب ، وبذلك نسجل للاستعمال القرآني مَزِيَّة تفردَ بها هي استحداثه لمعنيين فرعيين مع الإضرَاب ، وقد وظفهما في خدمة البيان والتوصيل القرآني للمعنى ، هما استعمال الإضرَاب للإبطال واستعماله للإنكار .

وإذا أردنا أن نرتب الاستعمال القرآني لهذا الحرف نجده على هذا النحو :

ت	نوع الاستعمال	عدده في القرآن	نسبته إلى مجموع الاستعمال العام
١	الإضرَاب للانتقال	٧٠	٥٥ %
٢	الإضرَاب للإبطال	٣٢	٢٥%
٣	الإضرَاب للإنكار	٢٥	١٩,٦ %

١ - ظ : جامع البيان : ٣\١٢٠ ، الكشاف : ٣\ ١٥٥ ، مفاتيح الغيب :٢٤ \٥٦٣.

٥- (لن) تفيد تأكيد النفي وتأبيده :

لم يكن ليفهم من خلال المواضع التسعة التي استعمل الشعراء فيها (لن) هل كانت تفيد التوكيد أو التأبيد فعلا ؟ فالاستعمال كان في مرتبته الأولى ، أقصد استعمالا في سياق نفي يسير لا يمنحها بُعدًا آخرَ ، لذا سأحاول أن أتعرف إلى هذه النقطة من خلال النظر في تفسير بعض الآيات مثل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾(الأعراف: من الآية١٤٣) ، بيَّن الزمخشريُّ في تفسير هذه الآية أن طلب الرؤية كان تبكيتا للذين طلبوا أن يريهم الله جهرة من قبل ، وقال عن (لن) :((فإن قلت : ما معنى {لَن}؟ قلت : تأكيداً للنفي الذي تعطيه (لا) ، وذلك أن (لا) تنفي المستقبل . تقول : (لا أفعل غداً) ، فإذا أكدت نفيها قلت : (لن أفعل غداً) ، والمعنى : أنّ فعله ينافي حالي ، كقوله : ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾(الحج: من الآية٧٣) ، فقوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾(الأنعام: من الآية١٠٣) ، نفي للرؤية فيما يُستَقبل . و {لن تراني} تأكيدٌ وبيانٌ ، لأنّ المنفي منافٍ لصفاته .))[١] ، (لن) عند الزمخشريّ في هذه الآية فيها تأكيدٌ للنفي ، لكن الرازي لا يرى هذا فقد قال :((والجواب: أن {لن} لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه . والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال ، فكان قوله : {لن تراني} نفياً لذلك المطلوب ، فأما أن يفيد النفي الدائم فلا .))[٢] ، ونقل الرازي أيضاً أن بعضا من المفسرين ينقلون عن أهل اللغة أن (لن) تفيد التأبيد ، وقال في تفنيد ذلك : ((ما نقل عن أهل اللغة أن كلمة «لن» للتأبيد . قال الواحديُّ ∑ : هذه دعوى باطلة على أهل اللغة ، وليس يشهد بصحته كتابٌ معتبرٌ ، ولا نقلٌ صحيحٌ .))[٣] .

أهل اللغة الذي يعنيهم الرازي بقوله هو الزمخشريَّ إذ شاع في كتب النحاة واللغويين ما نقل عن الزمخشري من أنّه يقول إن (لن) تفيد تأبيد النفي ، ونقل أنه قال هذا في كتابه (الأنموذج) ، ((ولكثرة دوران هذا القول في كتب المتأخرين من النحاة أصبح يجري على ألسنة المتحدثين بـ(لن) عند النفي المؤكَّد قولهم :(لن الزمخشريَّة) يقصدون بذلك أن النفي بها إنما هو على سبيل التأبيد .))[٤] ، ويبدو أن ما أشيع من نقل عن الزمخشري لم يكن دقيقا ، ففي الوقت الذي يصرح به أنَّ (لن) تفيد توكيد النفي إنه لم يصرح بأنها تفيد التأبيد ، وقد تتبع باحث معاصر رأيه في الأنموذج والمفصل والكشاف فلم يجده يصرح بالتأبيد[٥]، ولقد تتبعت كثيرا من مواضع الكشاف التي وردت فيها (لن) فلم أعثر له على قول صريح بإفادة (لن) التأبيد ، ولكنه قد يفهم من بعض المواضع ليس صريحا .

وبعيدا عن نسبة القول للزمخشريِّ أو نفيه عنه ، أقول : إن المسألة فيها جانبٌ عقائديٌّ ، والمفسر الذي فهم معنى التأبيد كان يصدر عن فهم وفلسفة إسلامية خاصة في فهم الصفات الإلهية ، وهذا الفهم قرائنٌ خارجيةٌ للنص ، لا يمكن عزله عنها . فالزمخشريُّ يصدر في فهمه عن مدرسته الفلسفية ، وغيرهم يصدرون عن فهم مدارس فلسفية أخرى ، وقد لا تتفق الرؤى ،

---

١ - الكشاف : ٢\١١١ ، وينظر معه : الأشباه والنظائر : ٣\٧٨- ٧٩.
٢ - مفاتيح الغيب : ١٤\٣٥٧- ٣٥٨.
٣ - المصدر نفسه.
٤ - مسائل النحو الخلافية بين الزمخشري وابن مالك :١٥٣.
٥ - المصدر نفسه : ١٥٣ – ١٦٢.

فيحمل كل مفسر المعنى على ما يعتقده ، وحملت (لن) ظلالا لمعناها العام الذي هو نفي المستقبل ، ويبدو أن بعض المفسرين كان يصرح بأن (لن) لنفي المستقبل فقط ، فيقول الثعالبيُّ : ((«لَنْ» تنفي الفَعْلَ المستقبَلَ ، ولو بقينا مع هذا النفْي بمجرَّده ، لقضينا أنه لا يَرَاهُ موسَىٰ أبداً ، ولا في الآخرةِ ، لكنْ ورد من جهة أخرَى بالحديثِ المتواتر، أنَّ أهل الإِيمانَ يَرَوْنَ اللَّه يوم القيامة ، فموسى عليه السلام أحرَى برؤيته .))[1] المستقبل الذي تنفيه (لن) عند الثعالبي مفتوحٌ ، وغيرُ محدد بحدٍّ ، من هنا جاء معنى التأبيد في النفي بـ(لن) ؛ لأنها نفي لـ((سوف يفعل ، وسوف نصٌّ على المستقبل .))[2]، وهذا المستقبل عام وغير محدد ، لكنه يفهم ضمن إطار القرائن المصاحبة للنص الخارجية أو الداخلية ، وهكذا يفهم هذا المفسر أو اللغوي المعنى في الآية في ضوء ما يتوافر عنده من القرائن المساعدة لفهم الآية ، ففهم بعضهم المستقبل على أنه يشمل الحياة الدنيا فقط ، ولا يشمل الحياة الآخرة ، ولستُ هنا في مجال إبطال قول مفسر وإثبات آخر، بل أُحاول أن أفهم من أين جاءت نسبة تأبيد النفي إلى (لن) . أعتقد أنَّ السياق بقرائنه المتعددة قاد بعض العلماء إلى تصور معنى التأبيد ، لأن المستقبل غير محدد فهو يشمل كل الأوقات الآتية وليس لانتهائها أمد ، وهذا هو معنى التأبيد ، وهذا صريح كلام الثعالبي .

يبدو أن أهل اللغة لم يرضهم مثل هذا الفهم ، وإن كان ابن يعيش وربما آخرون يرون صحة الرأي المنسوب للزمخشريِّ ومن وافقه في هذا الفهم[3] ، إلاَّ أن أكثر النحاة لا يرون ذلك ووصفوا كلا القولين[القول بأنها للتأبيد ، والقول بأنها لتأكيد النفي] بأنهما دعوى بلا دليل[4] ، بل ذهب بعضهم إلى أن النفي بـ(لا) أوكد من النفي بـ(لن) ؛ لأن المنفي بـ(لا) قد يكون جوابا للقسم، والمنفي بـ(لن) لا يكون جوابا له ، ونفي الفعل إذا أُقسم عليه أوكد . لكن المراديّ ردَّ على هذا الرأي بأن (لن) قد وقعت في جواب القسم أيضاً[5] ، وذلك في مثل قول أبي طالب [6]:

(الكامل)

وَاللّـهِ لَـن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم ... حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا

أشار ابْنُ مالِكٍ في التَّسْهِيلِ: إلى أن (لَنْ) كغيرها من حروفِ النفي في جواز كون استقبال المنفيِّ بها منقَطعاً عنْدَ حَدٍّ وغَيْرَ منقطعٍ ، وهو ممن نقل عن الزمخشريِّ في (أُنْمُوذجِهِ): أَنَّ (لَنْ) لتأبيدِ النفْي[7]، وحاول تسويغ رأي الزمخشري بأن الذي حمله علىٰ ذلك اعتقادُهُ أنَّ اللَّه تعالى لا يُرَى ، وهو اعتقادٌ باطلٌ – كما يرى ابن مالك – ؛ لصحَّةَ ثبوتِ الرؤية عن رَسُولِ اللَّه9 ، واستدلَّ عَلىٰ عدم اختصاصها بالتأبيد بمجيء استقبالِ المنْفِيِّ بها مُغَيَّا إلى غايةٍ ينتهي بانتهائها ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾(طه:٩١) .

لقد تنبه ابن مالك أن الذي حمل بعض المفسرين على ذلك الفهم القرائنُ الخارجيةُ للنص ؛ إذ أثرت في معنى الحرف ، ونحو هذا الرد لابْنِ هشام أيضاً ، ولفظه: ((ولا تفيدُ (لَنْ) توكيدَ المنفيِّ ، خلافاً للزمخشريِّ في «كشافه»، ولا تأْبِيدَهُ ، خلافاً له في «أنموذجه» ، وكلاهما دَعْوَىٰ بلا دليلٍ ، قيل : ولو كانَتْ للتأبيدِ ، لم يقيد منفيُّها بـ(اليوْم) في : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾(مريم:

١ - تفسير الثعالبي : ٥٧٣\١.
٢ - في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٥٦.
٣ - ظ : شرح المفصل : ١١١\٨ .
٤ - ظ : الجنى الداني :٢٨٤ ، مغني اللبيب : ٣٧٤ ، جواهر الأدب :١٥١ ، الأشباه والنظائر : ٧٩\٣، أثر القرآن والقراءات في النحو العربي : ٢٣٢.
٥ - الجنى الداني : ٢٨٤ .
٦ - ديوان أبي طالب : ٨٩ .
٧ - ظ : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ٢٢٩ .

من الآية٢٦) ، و لكـان ذِكْـرُهُ (الأَبَـدَ) فـي ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾(البقرة: من الآية٩٥) تَكْـراراً ، والأصـل عدمه .))[١] . من كلام هؤلاء العلماء نتيقن أن الحرف (لن) حُمِّلَ معنىً هامشيا مضافا إلى معناه الأصلي [النفي المستقبلي للمضارع] وأريد منه أن يدلّ على تأبيد النفي أو تأكيده ، لكن هذا المعنى المضاف لم يكن ينبع من داخل الحرف ، بل جاء من خارجه ، فـ(لن) وحدها لها معنى عام له قابلية التحديد إذا ما جاء معه محددٌ في النص ، كما في كلمة (اليوم) التي وردت معه في الآية المتقدمة ، أو تقييده بـ(حتى) في قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾(يوسف: من الآية٨٠) ، ولا يشترط أن يكون المحددُ مذكورا معه في النصِّ مباشرةً ، بل قد يُفهَمُ من المعنى العام للنص أن الوقت المراد النفي فيه يشمل وقتاً آتياً لكنه محددٌ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾(سبأ:٣١) أفادت (لن) هنا وقتا محددا ، هو الحياة الدنيا ، وهذا مفهوم من الآية الشريفة ، بدليل أنهم حينما أوقفوا عند ربهم آمنوا بما كانوا كفروا به في الحياة الدنيا ، وتلاوموا فيما بينهم أنهم كفروا بما أنزل الله إليهم من قبل .

وإن لم يأت مع (لن) مُحددٌ فهي عامةٌ تشملُ المستقبلَ الآتي كلَّه ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(آل عمران:١٧٧) ، فالمعنى (لن) هنا يشمل نفي الضرر في الوقت الآتي كله ، وهذا الوقت غير محددٍ بشيء . هذا هو معنى (لن) كما أفهمه معنى عام قابل للتحديد ، وقابل لحمل معنى أو معانٍ إضافية إذا ما أثَّر السياق فيه . وفيه أيضا تأكيدٌ لفرضية هذا الفصل من إن السياق القرآني ذو أثر كبير في تطوير معاني الحروف .

٦- (لن) تفيد الإنكار:

أُدخلت (لن) مع الاستفهام الإنكاري مرَّة واحدة في الاستعمال القرآني ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾(آل عمران:١٢٤) ، قال الزمخشري فيها :((ومعنى {ألن يكفيكم} إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة . وإنما جيء بـ(لن) الذي هو لتأكيد النفي ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآيسين من النصر .)) [٢] ، قد يكون الزمخشري يعتقد بأن (لن) في كل استعمالاتها تفيد معنى نفي المستقبل المؤكَّد، وليس نفي المستقبل البسيط الخالي من التأكيد ، ونقل أبو حيان عن بعض العلماء أنها هنا للتقرير ، لا للإنكار[٣]، وليس سوق هذا الرأي غريبا ، فكل عالم يفهم يفهم من النص معنى بحسب ما تتوافر أمامه من القرائن المساعدة له على فهم الكلام ، لكني رأيت كثيرا من المفسرين يميلون إلى أنها هنا للإنكار [٤].

---

١ - ظ : مغني اللبيب :٣٧٤ .
٢ - الكشاف :١\ ٤٦١ ، وينظر معه : البحر المحيط : ٣\٣٣٥ -٣٣٧.
٣ - ظ : البحر المحيط : ٣\٣٣٥ -٣٣٧ ، وينظر معه التبيان في إعراب القرآن : ١\١٤٨.
٤ - ينظر مع المصادر المتقدمة : جوامع الجامع : ١\٣٢٥ ، تفسير أبي السعود : ٢\٧٧- ٨٠ ، فتح القدير : ١\٣٧٧ .

ولم يُستعملْ مثلُ هذا الكلام في دواوين أصحاب المعلقات السبع ، لكن من خلال بحثي في أشعار الجاهليين استطعت أن أرصد مثلا واحدا له عند حبيب الأعلم الهذلي ، إذ يقول[1]:

(مجزوء الكامل)

وَبِجــــــانِبَي نَعمــــــانَ قُلــــــــتُ أَلَـــنْ يُـــبَلِّغَنِي مَـــآرِب

ومعنى الإنكار في البيت بادٍ .

٧- (من) في سياق (إن) التوكيديَّة:

استعملت (من) في القرآن الكريم في سياق (إن) التي تفيد التوكيد ، وجاءت مع (إنَّ) المثقَّلة في (٢٥) خمسة وعشرين موضعا[2] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾(البقرة من الآية :١٣٠) ، وجاءت في أربعة مواضع مع (إنْ) المخففة من الثقيلة[3] ، ومعناها التوكيد أيضاً ، منها قوله ﷻ : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(البقرة من الآية :١٩٨) ، قال النحاس في (اللام) الداخلة على (مِن):((لام التوكيد إلاَّ أنها لازمة لِئلاَّ تكون (إن) بمعنى (ما).)) [4]، ومعنى قوله (لازمة) أن (لام التوكيد أو لام الابتداء أو اللام المزحلقة) تلزم الدخول على خبر(إنْ) المخففة من الثقيلة لِئلاَّ يشتبه بكونها (إنْ) النافية وقد عرضت هذا الأمر في مبحث(إنْ) من الفصل الثاني ، ويبدو أنَّ هذه القاعدة ترشحت لها من استعمال (إنَّ) الأصلي فهذه المواضع التسعة والعشرون التي ذكرتها كلها تلزم (إن) فيها دخول (اللام) على خبرها ، وخبرها في هذه المواضع شبه الجملة المكون من (من ومجرورها) ، فأفادت توكيد الإسناد في هذه الجمل وجعلت (مِن) في سياق التوكيد .

كان مجموع الآيات التي استعملت فيها (مِن) في سياق التوكيد (٢٩) آية لتكون نسبة استعمال هذا الحرف مؤكَّدا إلى مجموع استعمالات القرآن لـ(من) (٠,٨%) ثماني مرات في كل ألف آية قرآنية . هذه النسبة وإن كانت قليلة فإني لم أجد مِن الشعراء مَن يستعمل (مِنْ) التبعيضيَّة أو الابتدائيّة في سياق التوكيد مع (إنَّ) ، <u>فهذا الاستعمال من خصائص الخطاب القرآني .</u>

٨- (ها) تفيد التعجيز:

ومن استعمالات القرآن الفريدة التي لم يستعمل من قبل مثلها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾(النمل: من الآية٤٢) ، فقوله {أهكذا؟} ((أربع كلمات: حرف الاستفهام، وحرف التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة . أي : أمثل هذا عرشك ؟ ولم يقل :أهذا عرشك؟

---

١ - شرح أشعار الهذليين : ٣١٦\١ .

٢ - البقرة :١٤٥،١٣٠، ٢٥٢، المائدة:١٠٦، ١٠٧، الأعراف:٢١، ١١٤، يونس: ٨٣،التوبة:٥٦، هود:٣١، يوسف:٥٤، الحجر:٦٠،النحل:١٢٢، الأنبياء: ٥٩، النور:٦، ٨، الشعراء:٤٢، العنكبوت:٢٧، يس:٣، الصافات:٥٢، ١٢٣، ١٣٣، ١٣٩، ص:٤٧، الشورى:٤٣.

٣ - البقرة :١٩٨، يوسف:٣، الشعراء:١٨٦، الزمر : ٥٦ .

٤ - ظ : إعراب القرآن : ٢٤٧\١ .

لئلا يكون تلقينا .)) [1] ، لقد جمع الخطاب القرآني أربع كلمات في هذا اللفظ المختصر ليعطي أربعة معان مجتمعة : الاستفهام والتنبيه والتشبيه والإشارة ، وزاد الخطاب في التنكير فلم يقل (أهذا عرشك؟) بل قال : (أهكذا عرشك ؟) فأستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته ، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير ، وكان ما في جوابها من الحكمة يتناسب مع هذا الخطاب العالي ، إذ قالت :(كأنه هو) ، والمراد به : (إنه هو) ، وإنما عبَّرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش ، والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت[2]. هذا الاستعمال البليغ لم أشهد له مثيلا من قبل عند الشعراء ، وهو من ابتكارات النص القرآني .

٩- (ها) تفيد القرب والاستقرار:

ومن استعمالات القرآن الكريم التي لم يسبق إليها إدخاله (ها) التنبيهية على اسم الإشارة المخصص للمكان القريب (هنا) قال تعالى :﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(المائدة: من الآية٢٤) ، أي إننا لا نبرح هذا المكان ، لا نتقدم معك ولا نتأخر[3] ، يبدو أنَّ المتحدث يريد أنَّه مستقر في مكانه ولا يريد مجاوزته ، ومكانه الذي هو فيه حاضر عنده (هنا) ومن ثمَّ فهو لا يريد تجاوز الحاضر المعلوم إلى ما هو غير معلوم ، ومثله قوله ﷻ :﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾(الشعراء:١٤٦) . ، وقوله تبارك اسمه :﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾(الحاقة:٣٥) ، فالمراد باليوم يوم القيامة و(ها هنا) يعني الدار الآخرة [4]، هذه الإشارة تجعل العالم الآخر قريبا من الإنسان كأنه يراه ويتحسس قربه، وفيه لمحة الاستقرار والثبات ، وهذا من لطيف استعمالات القرآن وانفراداته .

١٠- (هل) تفيد معنى (الأمر):

خرج الاستعمال المجازي بـ(هل) إلى أن تؤدي معنى الأمر من خلال سياق الاستفهام المجازي الذي استعملت فيه ، نحو قوله تعالى :﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾(الأنبياء:من الآية٨٠) ، وقد أحصيت في القرآن من مثل هذا الاستعمال (٨) ثمانية مواضع [5]، لتكون نسبة هذا الاستعمال إلى مجموع الاستعمال القرآني العام (٨,٦%) ، وهذا الاستعمال مما تفرَّدت به لغة الذكر الحكيم ؛ إذ لم أجد مثل هذا المعنى في الاستعمال الشعري للاستفهام المجازي مع الحرف (هل) ، فلم يوظف (هل) في سياق الاستفهام ليعطي معنى الأمر في شعر أصحاب المعلقات ، وقد يكون هذا التطور في الاستعمال القرآني من صلب خصائص النص القرآني الذي هو كتاب هداية وتشريع ، فمن الطبيعي أن يستحدث طرقا يُفهَّم بها العباد بكل أدب ولطف ما يجب عليهم فعله ، وما ينبغي تركه ، وكان أحد تلك الطرق توظيف الاستفهام ليفيد معنى الأمر .

---

١ - جوامع الجامع : ٧١٢\٢ .
٢ - ظ : الميزان : ٣٦٥\١٥.
٣ - ظ : فتح القدير: ٢٨\٢ .
٤ - ظ : جامع البيان : ٨٠\٢٩ .
٥ - المائدة: ٩١، هود:١٤، إبراهيم :٢١، الأنبياء:٨٠، ١٠٨، الصافات: ٥٤، النازعات:١٨، غافر:٤٧ .

١١- (يا) تفيد النداء على لسان الحيوان:

وفي القرآن نوعٌ لطيفٌ من النداء ، ذلك الذي يحكى على لسان الحيوان ، مثل قوله تعالى :﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾(النمل: من الآية١٨) ، ومثل هذا النوع لم يوجد في أشعار أصحاب المعلقات ، مع شدَّة تعلق العربي بالحيوان ، وطولِ صُحبَتِهِ له ، وكثرة رفقتهما لم يرو لنا أحد الشعراء نداء على لسان حيوان ، وقد يعطي هذا انطباعا عن القرآن بأن العوالم كلها حاضرة فيه ، فعالم النمل بكيانه ووجوده له مكان في كتاب الخالق العالم . وهذا يؤكد النظرة الشمولية للخلق أجمعين في كتاب الله تعالى .

١٢- إضمار المُنَادِي بـ(يا) لأنه غير مقصود أو يراد به التكثير والعموم :

وفي القرآن الكريم أيضاً نواح بلاغية في استعمال النداء مبتكرة ، فقد يُضمَر المُنادِي ولا يُشَخَّصُ ، كقوله تعالى :﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(يّس:٣٠) ، شغلت هذه الآية المفسرين حتى نقل الزركشيُّ عن ابن خالويه (ت٣٧٠هـ) أنها من المسائل الصعبة في القرآن[١] ، وفيها أكثر من جهة للكلام ، فمن جهة من المُنادِي؟ ، ومن جهة ثانية كيف تُنادَى (الحسرة) وهي مما لا يعقل ، والنداء إنما هو للأشخاص لتنبيههم .

أما في كيفية مناداة الحسرة فقال الطوسي فيه :((قال الزجاج : العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم يقع فيه جعلته نداءً ، فلفظه لفظ ما ينبه ، والمنبه به غيره ، كقوله { يا حسرة على العباد} وقوله { يا حسرتي على ما فرطت } و { يا ويلتا أألد وأنا عجوز } و{ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا} ، فهذا أبلغ من أن يقول : أنا أتحسَّر على العباد وأبلغ من أن يقول : الحسرة علينا في تفريطنا . قال سيبويه : إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت احضر وتعال يا عجب ، فانه من أزمانك . وتأويل { يا حسرتنا} انتبهوا على أنا قد خسرنا .)) [٢] فالحسرة عند هؤلاء هي المنادي . ونُقِلَ عن آخرين أن المُنادى محذوفٌ ، وحسرة مصدر أي أتحسر حسرة[٣].

أما من المنادي فهذا فيه أقوال كثيرة منها[٤] :

١. لا متحسر أصلاً في الحقيقة ؛ إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة ، إذ تحققت الندامة عند تحقيق العذاب .
٢. نقل عن مجاهد أنه من قول الله تعالى ، والمراد أنهم حلُّوا محل من يُتَحَسَّر عليه .

---

١ - البرهان :٣\٣٥٣ .
٢ - التبيان : ٤\١١٥ .
٣ - التبيان في إعراب القرآن : ٢\ ٢٠٢ .
٤ - ينظر في تفصيل هذه الأقوال : جامع البيان :٢٣\ ٤-٥ ، معاني القرآن (النحاس) : ٥\٤٨٩ ، التبيان : ٤\١٠٥، ٨\٤٥٣ ، مجمع البيان: ٤\٣٩، ٨\٢٦٨، ٢٧٠ ، زاد المسير:٦\٢٦٩ ، مفاتيح الغيب:٢٦\ ٢٦٩ ، التبيان في إعراب القرآن :١\٢٣٩، ٢\٢٠٢، الجامع لأحكام القرآن :١٥\٢٢-٢٣ ، تفسير ابن كثير : ٣\٥٧٧ ، تفسير الثعالبي : ٥\١١ ، البرهان :٢\١٠٧، ٢٢٣ ، لسان العرب : مادة (حسر) : ٤\١٨٩.

٣. يا حسرة من العباد على أنفسهم ، فالمنادي هو العباد أنفسهم . أي أن يكون العباد فاعلين في المعنى ، أي حين يرو العذاب يتحسَّرون على أنفسهم . وتؤيده قراءة بعض القرَّاء :(يا حسرة العباد) على الإضافة[1] ، أي : يا لتحسيرهم .

٤. أن يكون العباد فاعلين في المعنى أي يَتَحَسَّرُ عليهم من يعنيه أمرهم .

٥. إنه قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، فهو القائل :(يا حسرة على العباد).

٦. إنه قول القوم لما جاءهم العذاب ولم يؤمنوا بالرسل قالوا ذلك بعد أن لم يعد ينفعهم قولهم.

٧. إنه قول الملائكة تتحسر على العباد في تكذيبهم الرسل ، نقل عن الضحاك ومجاهد .

٨. إنه من قول الرسل الثلاثة ، لما قتل القوم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ، وحل بالقوم العذاب .

٩. هو من القوم أنفسهم لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل الثلاثة ، أو لما قتلوا الرجل والرسل الثلاثة . معناه يا حسرة على هؤلاء الرسل وهذا الرجل ليتنا آمنا بهم .

هذه أهمّ الأقوال التي قيلت في هذه المسألة ، فكل نفر من المفسرين فَهِمَ المعنى كما تَبَيَّنَ أمامه وأعانته قرائن النص على فهمه ، والذي اعتقده أن <u>(المُنادِي) حذف في هذه الآية عن قصد</u> ، فكلٌ من يرى هؤلاء الكفار وقد حلَّ بهم ما حلَّ من العذاب الأليم يَرِقُّ لحالهم ويتحسر عليهم أنهم لم يؤمنوا بما أرسل الله لهم من الرسل ، فالملائكة يرقون لهم والناس أجمعون يوم المحشر يرقون لهم ، والأنبياء والرسل يرقون لهم ، ومن بلغه خبرهم في الدنيا ممن لم يعاصرهم يرق لهم ويتحسر عليهم أنهم كفروا ولم يؤمنوا ، ونحن اليوم نتحسر عليهم . كل هؤلاء هم المنادون بهذا النداء :﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ، ولو حدد الفاعل بواحد من هؤلاء ، لم يكن المعنى يشمل الآخرين ، في حين إن الآية تريد أن كل هؤلاء - سواء أكانوا مجتمعين أم متفرقين - يتحسرون على الكفار ، فَحذفُ المُنادِي أو صاحب النداء كان مقصودا لغرضٍ بيانيٍّ ، هو شمول أكبر عدد من المنادين بهذا النداء المؤلم الفاجع ، وبهذا تكبر الحسرة والندامة على الكافرين ، ويتبين عظم الخطب الذي هم فيه ، وجسامة العذاب الذي يعانونه ، حتى أن كل هؤلاء يرقون لحالهم ، ويتحسرون ؛ لأن أولئك الكفار جحدوا ربهم وكفروا بأنعمه وكذّبوا رسله وقتّلوا أنبياءه .

ولما حذف المُنادي ولم يشخص ، صار الأنسب مع السياق والأكثر انسجاما أن يحذف المُنادَى أيضاً ، ذلك أن كل منادي ينادي من يخصهم من قومه أو صنفه ؛ أي سوف يختلف تقدير المُنادَى باختلاف تقدير المُنادِي ، فلما حذف الأول ناسب المقام أن يحذف الثاني ليصبح الفضاء أوسع في فهم النص ، والمجال أرحب في تقدير كل منهما بما يناسب الحال .

هذا الحذف أعطى النص القرآني قدرة كبيرة على إيصال معنى أو معانٍ كثيرةٍ بالألفاظ القليلة ، بطريقة يعجز عنها غير السياق القرآني ، وحقا لم أرصد مثل هذا الاستعمال البليغ لأسلوب النداء في أشعار أصحاب المعلقات ؛ إذ كانت الأمور مقدَّرة بأصولها فالمُنَادِي حاضر والمُنَادَى موجود والنداءُ مفهوم بجزئياته الدقيقة الواقعية ، مما جعل المعنى في ذلك الشكل القياسي محددا غير قابل للتوالد واستمرار التجديد فيه .

---

١ - ظ : مجمع البيان : ٢٦٧\٨ ، التبيان في إعراب القرآن :٢٠٢\٢ .

ويقترب من الآية المتقدمة في الدلالة قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾(الزمر:٥٦) ، فالمنادِي في هذه الآية الكريمة (نفسٌ) وهي نكرة ، وأعتقد أنَّ التنكير كان مقصودا هنا أيضا ؛ ليفسح الطريق أمام المعنى ليُدخلَ عدد أكبر من القائلين هذا القول من التحسر على التفريط في جنب الله ، ويمكن مع هذا التنكير أن يكون القائلون من مراتب مختلفة من البشر ، وسيكون التفريط مختلفا في معناه بحسب تقدير تلك النفس القائلة هذا القول ، فالكافر فرَّط في جنب الله ، والمسلم العاصي الذي اقترف بعض الذنوب فرَّط في جنب الله والمؤمن الرقيق الإيمان قد فرط في جنب الله ، لكن تفريط كل من هؤلاء لا يشبه تفريط الآخر ولا علاقة له به ، فالكافر في تفريطه نال الخلود في النار ، والمسلم في تفريطه نال بعض العقاب ، والمؤمن في تفريطه قلَّ ثوابه ، ولم ينله عقاب أو نصب ، وكان يمكنه أن يحصل على رتب أعلى من الثواب لو ثابر واجتهد في الدنيا أكثر ، وقد كان يستطيع ذلك ، فالنفس المؤمنة مفرطة في قلَّة الطاعة ، ولم تفرط في ارتكاب المعصية[1] ، فهذا الاختلاف في المعنى وتعدده ما كان ليكون لولا تنكير النفس المنادية .

وكانت ظاهرة حذف المُنادَى من سمات لغة القرآن الكريم ، ويمكن أن نعدَّه سمة بلاغية في النص القرآني الكريم . لقد تكررت المواضع التي حذف فيها المنادى ، وقد أحصيت منها (٢٧) سبعة وعشرين موضعا [2]، وكان أغلبها لإظهار التحسر والندم ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾(الأنبياء:١٤) ، والمندى هنا ليس هو المقصود بل إظهار الندم وهول المصاب الذي صاروا إليه هو غاية الكلام ، ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾(الكهف: من الآية٤٢).

إن هذا الاستعمال شكَّل في القرآن الكريم بُعدا دلاليا يخدم النص في إفادة المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ، ويؤكد أثر القرآن الكبير في تطوير معاني الحروف .

١٣- (في) تدلُّ على توكيد معنى (الاستقرار) :

جاءت (في) في القرآن وقد دخلت عليها (لام) التوكيد (٢٩) [3] تسعا وعشرين مرَّة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾(هود من الآية :٦٢) أيْ : ((أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله [أي نبيِّ الله صالح] وقوله[أي الله تعالى] : {مريب} يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله [قول النبي] وهذا مبالغة في تزييف كلامه .)) [4] ، ومثلها أيضاً :﴿ تَاللَّهِ إِن

---

١ - ظ : مفاتيح الغيب : ٢٧\٤٦٣ .

٢ - ظ : معجم الأدوات والضمائر في القران الكريم :٦٦٤ مادة : ياحسرة ، ياحسرتا ، ياحسرتنا ، ياليت ، ياليتنا ، يا ليتني ، يا ليتها، ياويلتا ، يا ويلتنا ، ياويلنا .

٣ - البقرة:١٧٦، آل عمران:١٦٤، النساء:١٥٧، هود:٦٢، ١١٠، يوسف:٨، ٩٥، الرعد:٥، إبراهيم:٩، الحجر:٧٢، الحج:٥٣، الشعراء:٩٧، ١٩٦، السجدة:١٠، سبأ: ٧، يس:٢٤، فصلت:٤٥، الشورى:١٤، ١٨، الذاريات :٨، القمر:٢٤، الجمعة:٢، الانفطار:١٣، المطففين:٧، ١٨، ٢٢، الأعلى: ١٨ ، العصر: ٣ .

٤ - مفاتيح الغيب : ١٨\٣٦٧.

﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(الشعراء:٩٧) ، كلُّ هذه المواضع التي دخل (اللام) فيها على (في) كانت في سياق التوكيد بحرفي التوكيد(إنَّ وأنَّ) مُثقَّلين أو مُخَفَّفين ، ومعنى هذا أن تلك الآيات كانت تسعى إلى توكيد معنى (الاستقرار) المفهوم من (في) ، وما الظرف إلاَّ مكان الاستقرار .

في الآية الأولى كان الشكُّ مستقرّاً في نفوسهم ؛ لذا ختموا وصف دعوة نبيهم صالحاً عليه السلام بقولهم (مريب) ، فالريبة لم تكن في نهي صالح لعبادتهم تلك الأصنام ، بل كانت الريبة عندهم من ادعائه النبوة ، فهم في ريبة من هذا الادعاء ، ومن ثم فهم لا يقبلون منه أيَّ كلام بعد نفي قبولهم لدعواه . وفي الآية الثانية كانت (في) في سياق التوكيد بـ(إن) المخففة من الثقيلة . وهي تؤكِّد استقرارهم في الضلال ورسوخهم في غيِّهم بأنهم كانوا يكفرون بِرسل الله ويسوون الأصنام بربِّ العزَّة تعالى شأنه .

لم يأت مثلُ هذا الاستعمال في شعر أصحاب المعلقات ولا في أشعار الجاهليين كلهم ، وقد تتبعت أشعارهم وأحصيتها باحثا عن مثل هذا الاستعمال، فما وجدت لهم بيتا مثيلا له ، وكلُّ ما جاء من مثل هذا المعنى بيتٌ واحدٌ لعبادة بن عمرو بن كلثوم ، وهو مجهول الوفاة لا نعلم حقيقةً هل كان من المخضرمين أو لا؟ علما أنَّ أباه عمرو بن كلثوم تُوفي قريبا من زمن الهجرة(٣٩ق.هـ) ، قال عبادة[١] :

(البسيط)

إنّـا لَفـي مَنـزِلٍ مـا إن نَخـافُ بِـهِ ... أَمثـالَكُم يـا بَـني غَـنمِ بِـنِ دُودان

يؤكد عبادة استقرارهم في منزل آمن لا يخافون فيه الناس ، وهنا فارقٌ رئيسٌ ومهمٌّ بين الاستعمال القرآني وقول عبادة هذا ، فقد أدخل الاستعمال القرآني (في) في سياق التوكيد حينما كانت (في) داخلة على أسماء المعاني لا أسماء الأماكن ، وهذا معلمُ من المعالم التي تدلُّ على حرص القرآن على التعبير عن (المعاني) أكثر من التعبير عن (الذوات) ، فهو كتاب يحمل فكرا يهدف إلى هداية الناس ، جاء يخاطب الفكر ، ويسمو به من خلال إقرار المعاني في النفوس لا تشخيص[٢] الأحداث ، وتحويلها إلى جزئيات ، في حين كان الشاعر قد استعملها ليؤكد الاستقرار في الأماكن والمنازل ، أي استعملها في معناها اليسير الأولي حينما أدخلها على (ذات) .

استعمل في قول الشاعر التوكيد بحرف التوكيد (إنَّ) المثقلة . وهذا يؤكد أنَّ حرف التوكيد (إن) المخففة لم تستعمل في الشعر كما قررت آنفا . وعندها يبقى هذان الاستعمالان مما انفرد به الاستعمال القرآني . وفيهما تحقيق لفرضية الفصل وتأكيد لأثر القرآن الكبير في استحداث معاني الحروف وتطويرها في اللغة العربية .

١٤- (رُبَّ) تدلُّ على التهديد والتحذير :

استعمل هذا الحرف في القرآن الكريم مرَّة واحدة ، لتكون نسبته المئوية إلى مجموع آيات القرآن : (٠,٠١%) واحد في كل عشرة آلاف آية قرآنية ، وهو أقلُّ الحروف المستعملة في القرآن ورودا ، ولئن كان معنى هذا الحرف المركزي الإثبات - أي لإثبات ما بعدها - إنَّ القرآن الكريم وظَّفها لتأدية معنى هامشيٍّ جديد لم يستعمله الشعراء ، ذلك هو معنى التهديد والتحذير ،

---

١ - ظ: برنامج الموسوعة الشعرية .

٢ - قد يعبر بعض المتكلمين اليوم عن هذا المعنى بمصطلح (شخصنة) .

قال تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾(الحجر:٢) ، التقليل كما يرى الزمخشريُّ : ((وارد على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسانُ على ما فعل ، ولا يَشكُّونَ في تندُّمِهِ ، ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا : ولو كان الندم مشكوكاً فيه ، أو كان قليلاً ، لحقَّ عليك أن لا تفعل هذا الفعل ؛ لأنّ العقلاء يَتَحرَّزونَ من التعرُّضِ للغمِّ المظنون ، كما يتحرّزون من المتيقن ومن القليل منه .)) [1] ، فالقران الكريم يريد أن يثبت أنَّ الذين كفروا يودُّون لو كانوا مؤمنين ، وأمنيتهم هذه لم تكن من فراغ ، بل لما يرون من العذاب الجسيم ، والمهانة العظيمة يوم القامة ، تجعلهم يتمنون ذلك ، فهو هنا وارد على معنى التَهدُّد والتحذير ، تبكيتا لهؤلاء الذين كفروا بربهم ، ولم يسلموا مع المسلمين . وفَهِم ابن هشام من هذه الآية أنها للتكثير [2] ليس مانعا من هذا المعنى الهامشي ، فقد يؤدي الحرف أكثر من معنى هامشي مع معناه المركزي في وقت واحد ، وهنا تظهر براعة منشئ النص – إن كان نصًّا بشريا – وسواء أكان هذا القول منهم على نحو القلَّة أو الكثرة ، فهو يدلُّ على حسرتهم ، وقد يردع بعض المشركين عمَّا هم عليه من الشرك . والذي يراه الباحث أنَّ الآية ليست في مجال إثبات القلَّة أو الكثرة في تكرار تمنيهم ذالك ، بل المراد بها التهديد والتحذير من أن يكون الإنسان في مثل موضع أولئك الكافرين . هذا المعنى لم أجد في الاستعمال الشعري له مثيلا ؛ لذا أعتقد أنَّه معنى قرآني تفرَّدت به لغة الذكر الحكيم .

أعتقد أنَّي في ما تقدَّمَ من صفحات هذا الفصل قد استطعت - بحمد الله - أن أشخِّصَ بعض المواضع التي كان للقرآن فيها الفضلُ في تطوير معاني الحروف في اللغة العربية ، ولم يقتصر التطوير على المعاني الهامشية التي يبدعها النص ، من خلال وضع الحرف في سياق معيَّنٍ يُحَمِّلَهُ به تأدية مَعَانٍ إضافيةٍ زيادة على معناه المركزي ، بل شَمِلَ ذلك التطوير إبداع معانٍ مركزية جديدة للحروف ، لم تكن لغة الأدب أو لغة المستوى الفصيح البليغ من لغة العرب قد استعملته قبل نزوله . وفي كل هذا تحقيق لفرضية الفصل الرئيسة التي ذكرت في بداية الكلام وقد افترضت أن السياق القرآني مؤثّرٌ رئيسٌ في تطوير معاني الحروف . ولا أدعى هنا أني قد أحطت بكل ما طوره القرآن من تلك المعاني ، بل ما ذكرته هنـا هو ما استطعت أن أرصده منها ، وفيها كفاية في إثبات فرضية الفصل . وأكرر مرَّة أخرى أن استعمال المعنى الحرفي في لغة الشعر قبل نزول القرآن لا يعني أن القرآن لم يبدع فيه ، بل لقد رصدت الكثير من الصور التي تفرد بها القرآن ، فكان مبدعها ، لكني هنا في هذه الدراسة حاولت أن أرصد المعنى الذي لم يستعمل من قبل ، ومقدار التغيير والتطور في ما كان مستعملا منها ، أما الصور المفردة التي أبدعها القرآن في كل معنى فهذا يتطلب دراسة مستقلة ، على أني أشرت إلى بعض تلك الصور التي أبدعها القرآن الكريم في لغته .

١ - الكشاف:٣٨٦\٢، وينظر معه : معاني القرآن (الفراء):٨٢\٢، معاني القرآن (الأخفش الأوسط):٣٧٨\٢، معاني القرآن وإعرابه (الزجاج):١٧٢\٣-١٧٣، إعراب القرآن (النحاس):١٩٠\٢، معاني القرآن(النحاس):٨\٤ ، مشكل إعراب القرآن:٤٠٩\١، البيان في غريب إعراب القرآن: ٦٣\٢-٦٤.
٢ - مغني اللبيب : ١٨٠.

ملحقٌ إحصائيٌّ بيانيٌّ يتضمن جداول لمعاني الحروف واستعمالاتها القرآنية والشعرية ، ومخططات بيانيَّة توضح المعاني والاستعمالات

١ - جدول بمعاني الحروف الثنائيَّة

ت	الحرف	المعنى المركزي	المعاني الهامشية المرصودة في استعمالات الحرف	مجموع المعاني
١	آ	نداء البعيد	-----------	١
٢	أم	الاستفهام المعطوف	الإضراب المحض ، الإضراب مع الاستفهام	٣
٣	إنْ	حرف شرط	-----------	١
٤	إنْ	حرف نفي للاسم والفعل	-----------	١
٥	إنْ مخففة	التوكيد والتحقيق	-----------	١
٦	أن	حرف مصدري	معناها بحسب المصدر\ تفسير للمفرد بالجملة	٢
٧	أن مخففة	التوكيد والتحقيق \ أو وصلة	-----------	١
٨	أو	نسبة الحكم إلى أحد الاسمين	التخيير، الإباحة ، الشك ، الإبهام ، الجمع المطلق ، التقسيم ، الإضراب ، معنى (إلى) ، معنى(إلاّ) ، التقريب ، الشرط ، التبعيض .	١٣
٩	إيْ	حرف جواب مع القسم	التوكيد والإثبات ، تصديق المخبر واستعلام المُستَخبر	٤
١٠	أيْ	حرف نداء	التنبيه	٢
١١	أيْ	حرف تفسير المفرد بالمفرد	-----------	١
١٢	بل	الإضراب	الإضراب للإبطال ، للانتقال ، لغلط والنسيان	٤
١٣	عن	المجاوزة والابتعاد	الانتقال ، البدل ، الاستعلاء ، التعليل ، الظرفية ، ابتداء الغاية ، الاستعانة ، مرادفة (بعد)	٩
١٤	في	الظرفية	المصاحبة ، التعليل ، الاستعلاء ، مرادفة : إلى ، من ، الباء ، المقايسة ، التوكيد	١٠
١٥	قد	حرف إخبار	التَّوَقُّع ، التقريب ، التقليل ، التكثير ، التحقيق	٦
١٦	كي	حرف مصدري ناصب	التعليل	٢
١٧	لا	النافية	العطف نفي الجنس ، حرف جواب	٢
١٨	لا	الناهية	تخليص المضارع للاستقبال	٢
١٩	لم	نفي وجزم	تصرف معناه إلى الماضي	٢
٢٠	لن	نفي ونصب	تخليص معنى المضارع للاستقبال	٢
٢١	لو	حرف تلازم	الشرط ، الامتناع ، التعليق ، التمني	٥
٢٢	ما	نافية	-----------	١
٢٣	ما	مصدرية	التوقيت	٢
٢٤	مذ	حرف دال على الوقت	ابتداء الغاية ، الظرفية	٣
٢٥	من	ابتداء الغاية\ والتبعيض	بيان الجنس، التعليل، البدل، مرادفة : عن ، الباء، في، على، عند، ربما، الغاية، الفصل، التنصيص على العموم، التوكيد على العموم	١٥
٢٦	ها	التنبيه	النداء فقط	٢
٢٧	هل	الاستفهام التصديقي الموجب	التحقيق ، النفي ، الأمر	٤
٢٨	وا	حرف نداء للندبة	النداء المجازي	٢
٢٩	يا	النداء العام	التنبيه المجرد	٢

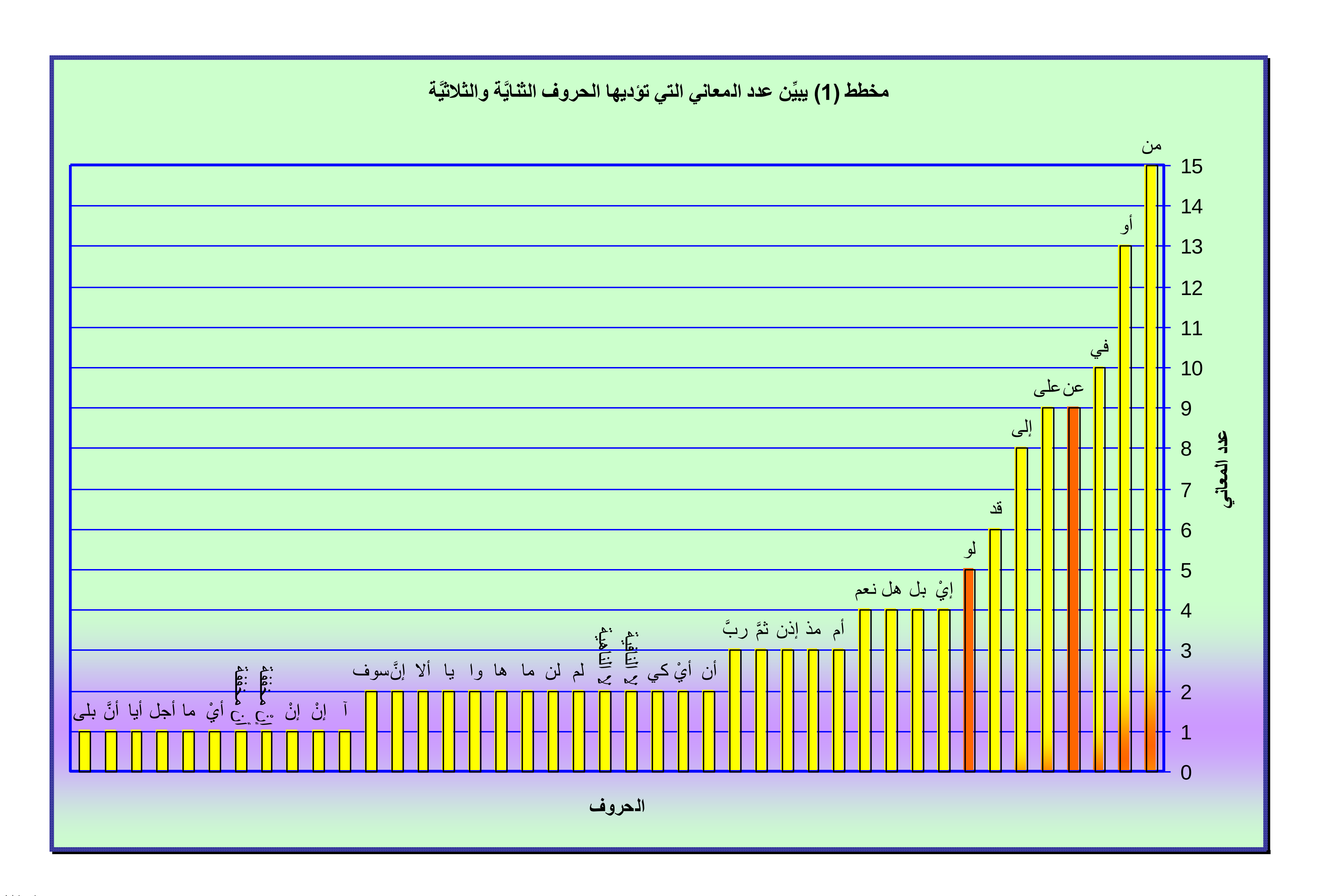
٢ - جدول بمعاني الحروف الثلاثية

ت	الحرف	المعنى المركزي	المعاني الهامشية المرصودة في استعمالات الحرف	مجموع المعاني
١	أجل	حرف جواب يختص بالخبر	----------	١
٢	أيا	حرف نداء للقريب	----------	١
٣	إذن	الجواب المقترن بالجزاء	الارتباط فقط ، الجواب فقط	٣
٤	ألا	التنبيه على تحقيق ما بعدها	الاستفتاح	٢
٥	إلى	انتهاء الغاية	المعية، التبيين ، مرادفة :اللام ،في ، عند، من ، التوكيد	٨
٦	إنَّ	توكيد للجملة	بمعنى : نعم	٢
٧	أنَّ	توكيد للجملة \ أو صلة	----------	١
٨	بلى	جواب للنفي	----------	١
٩	ثمَّ	الترتيب بمهلة	التخلي عن المهلة ، التخلي عن الترتيب	٣
١٠	ربَّ	حرف إثبات	التقليل ، التكثير	٣
١١	سوف	حرف تنفيس	التخليص للاستقبال الواسع	٢
١٢	على	الاستعلاء	المصاحبة ، التعليل ، موافقة : من ، عن ، في ، الباء ، التوكيد ، الاستدراك .	٩
١٣	نعم	حرف جواب	تصديق ، وعد ، إعلام المستخبر	٤

يتبيَّن من الجدولين:

- أن أكثر الحروف الثنائيَّة تنوعا في أداء المعاني الهامشية : هو (من) إذ أدى (١٥) معنى يأتي من بعده (أو) وقد أدى (١٣) معنى ثم (في) (١٠) معان ، ومن بعده (عن) (٩) معان .
- أكثر الحروف الثلاثيَّة تنوعا في أداء المعاني (على) إذ أدى (٩) معان ومن بعده (إلى) وقد أدى (٨) معان .
- أكثر الحروف الثنائيَّة مرونة وقابليَّة على نقل المعنى هو (من) ومن بعده (أو) ثم (في) ثم (عن) .
- أكثر الحروف الثلاثيَّة مرونة في نقل المعاني وأقدر على التوصيل هو (على) ومن بعده (إلى) .
- هنالك حروف جامدة لم تؤد إلاَّ معناها المركزي مثل : (آ) الندائيَّة ، و (إن) الشرطية و (إن) النافية و (إن) المخففة ، و(أن) المخففة ، و(أي) و(ما) النافية .
- الحروف الثلاثيَّة الجامدة هي : (أجل) و (أيا) و(بلى) .

وهذا مخطط بياني يوضح مقدار مرونة الحروف الثنائيَّة والثلاثيَّة في تأدية المعاني :


مخطط (1) يبيِّن عدد المعاني التي تؤديها الحروف الثنائيَّة والثلاثيَّة
عدد المعاني
الحروف
0
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
من
أو
في
عن
على
إلى
قد
لو
إيْ
بل
هل
نعم
أم
مذ
إذن
ثمَّ
ربَّ
أن
أيْ
كي
لم
لن
ما
ها
وا
يا
ألا
إنَّ
سوف
آ
إنْ
إنْ
أيْ
ما
أجل
أيا
أنَّ
بلى

٣ - جدول الحروف الثنائية ونسب استعمالاتها في القرآن الكريم ودواوين الشعراء:

ت	الحرف	معناه المركزي	استعماله في القران	نسبته إلى مجموع الآيات	استعماله في الدواوين	نسبته إلى مجموع الأبيات	مقدار التوسع القرآني
١	آ	نداء البعيد	--	--	--	--	---
٢	أم	الاستفهام المعطوف	١٣٧	%٢,١	٤٦	%٠,٨	%١,٣
٣	إنْ	حرف شرط \ وزائدة	٥٧٠	%٩,١	٣٣٨	%٥,٦	%٣,٥
٤	إنْ	حرف نفي	١١٣	١,٨	--	--	---
٥	إنْ مخففة	التوكيد والتحقيق	٢٨	%٠,٤	--	--	---
٦	أن	حرف مصدري	٥٣١	%٨,٥	١١٥	%٢	%٦,٥
٧	أن مخففة	التوكيد والتحقيق أو وصلة	٤٧	%٠,٧	١٨	%٠,٣	%٠,٤
٨	أو	نسبة الحكم إلى أحد الاسمين	٢٨٠	%٤,٤	١٨٩	%٣,٣	%١,١
٩	إيْ	حرف جواب مع القسم	١	%٠,٠١	--	--	%٠,٠١
١٠	أيْ	حرف نداء	--	--	--	--	---
١١	أيْ	تفسير المفرد بالمفرد	--	--	--	--	---
١٢	بل	الإضراب	١٢٧	%٢	٩	%٠,١٦	%١,٨٤
١٣	عن	المجاوزة والابتعاد	٤٦٥	%٧,٣	٣٦٤	%٦,٥	%٠,٨
١٤	في	الظرفية	١٧٠١	%٢٧	١٠٧٨	%١٩	%٨
١٥	قد	حرف إخبار	٤٠٦	%٦,٥	٥١٧	%٩,٥	%٣ -
١٦	كي	حرف مصدري ناصب	١٠	%٠,١٥	١٠	%٠,١٧	%٠,٠٢ -
١٧	لم	نفي وجزم	٣٤٨	%٥,٤	٣٣٤	%٥,٩	%٠,٥ -
١٨	لن	نفي ونصب	١٠٦	%١,٦	٩	%٠,١٦	%١,٤٤
١٩	لو	حرف تلازم	٢٧٦	%٤,٤	١٤٥	%٢,٦	%١,٨
٢٠	مذ	حرف دال على الوقت	--	--	--	--	---
٢١	من	ابتداء الغاية \ والتبعيض	٢٤٧٥	%٥١	١٤٥٤	%٢٦	%٢٥
٢٢	ها	التنبيه	٤٨١	%٧,٥	٥٢	%٠,٩	%٦,٦
٢٣	هل	الاستفهام التصديقي الموجب	٩٣	%١,٤	٧٨	%١,٤	% ٠
٢٤	وا	حرف نداء للندبة	--	--	٣	%٠,٠٥	%٠,٠٥ -
٢٥	يا	النداء العام	٣٦١	%٥,٦	٢٤٤	%٢	%٣,٦
مجموع استعمالات الحروف الثنائيَّة			٨٥٥٦	%١٣٧	٥٠٠٧	%٨٩	%٤٨

تتضح من الجدول عدَّةُ حقائق أهمها :

١) أكثر الحروف الثنائية استعمالا في القرآن الكريم هو حرف الجر (من) الدال على ابتداء الغاية ، وقد بلغت نسبة استعماله إلى مجموع آيات القرآن (٥١%) ، ويأتي من بعده حرف الجر (في) الدال على الظرفية ، وقد بلغت نسبة استعماله في القرآن (٢٧%) .

٢) أكثر الحروف الثنائية استعمالا في دواوين أصحاب المعلقات هو حرف الجر (من) أيضاً ، وقد بلغت نسبة استعماله إلى مجموع أبيات الشعراء في الدواوين (٢٦%) ، وكذالك يأتي من بعده حرف الجر (في) الذي بلغت نسبة استعماله عندهم (١٩%) . ومن هذا يتضح أن أكثر الحروف الثنائية دورانا في اللغة العربية الفصحى قرآنها وشعرها هو (من) ومن بعده (في) .

٣) زادت نسبة استعمال (من) في القرآن الكريم عمَّا كانت عليه في دواوين أصحاب المعلقات إلى ضعف ما كانت عليه ، وبذا كانت (من) أكثر الحروف التي توسع القرآن الكريم في استعمالها حتى كان مقدار التوسع في الاستعمال القرآني لها (٢٥%) ، وكذا زادت نسبة استعمال (في) في القرآن عمَّا كانت عليه بمقدار(٨%)، فكانت ثاني الحروف الثنائيَّة من حيث زيادة الاستعمال القرآني لها ، ومنه قد نستطيع أن نقول: إن ابتداء الغاية والتبعيض اللذين تدل عليهما (من) هما أكثر المعاني دورانا في اللغة العربية الفصحى ، وتبيَّن لي من خلال المتابعة أن معنى ابتداء الغاية يفوق في نسبة استعماله معنى التبعيض بكثيرة ، ويأتي من بعدهما معنى الظرفية التي تدلُّ عليه (في) ، معنى هذا أن هناك ربطا دائما للأحداث والذوات بشيء ما يكون ابتداء لغاية الحدث أو الذات ، ثم إن هذه الذوات المعبر عنها في اللغة عموما لابدَّ لها من ظروف تحويها في هذا الوجود ، وكذا الأحداث لابد لها من ظرف توجد فيها .

٤) بقي استعمال الحرف (هل) على مستواه الذي كان عليه في الدواوين ، ولم يتسع القرآن في استعماله ، وبقيت نسبة استعماله واحده في كلا النصين .

٥) قلل القرآن الكريم من نسبة استعمال بعض الحروف الثنائيَّة عمَّا كانت عليه في شعر أصحاب المعلقات ، وكانت (قد) أكثر الحروف التي قلل القرآن من استعمالها حتى بلغت نسبة التقليل (٣%) عما كانت عليه ، ويأتي من بعدها (لم) و(كي) ، أما (وا) فلم تستعمل في القرآن قطُّ س .

٦) أقلُّ الحروف الثنائية استعمالا في القرآن الكريم كانت (إيْ) التي تدل على الجواب مع القسم إذ استعمل مرَّة واحدة ، وكانت نسبتها (٠,٠١%) ويأتي من بعدها (كي) ، فقد استعملت عشر مرات لتكون نسبتها (٠,١٥%) .

٧) لم تستعمل (إيْ) عند الشعراء . وكان أقلُّ الحروف الثنائية استعمالا في دواوينهم (وا) الدال على الندبة وقد استعمل ثلاث مرات لتكون نسبته إلى مجموع أبياتهم في الدواوين (٠,٠٥%) ، في حين أن هذا الحرف لم يستعمل في القرآن قطُّ ، ويأتي من بعده في الاستعمال الشعري (بل) و(لن) وقد استعمل كل منهما تسع مرات لتكون نسبته (٠,١٦%) في حين استعمل (كي) عند الشعراء عشر مرات لتكون نسبته (٠,١٧%)

٨) إذن هنالك أربعة أحرف ثنائية لم تستعمل في الدواوين ولم يستعملها القرآن الكريم أيضا وهي :(آ) لنداء البعيد ،و(أيْ) حرف نداء ، (أيْ) حرف تفسير ، (مذ) حرف دال على الوقت . وانفرد القرآن في استعمال (إن) النافية و(إن) المخففة و(إيْ) حرف الجواب مع القسم ، ولم تستعمل هذه الحروف الثلاثة عند الشعراء ، وانفرد الشعراء في استعمال (وا) ولم تستعمل في القرآن الكريم .

٩) بلغ مجموع استعمالات القرآن الكريم للحروف الثنائيَّة كلها (٨٥٥٦) مرَّة ، مما جعل نسبة ورود الحروف الثنائيَّة إلى مجموع آيات القرآن الكريم (١٣٧%) أيْ في كل مئة آية سنجد (١٣٧) حرفا ثنائيًّا أو ثلاثة عشر حرفا في كل عشر آيات .

١٠) بلغ مجموع استعمالات الشعراء للحروف الثنائيَّة (٥٠٠٧) مرَّة ، وهذا يجعل نسبتها إلى مجموع أبيات دواوين أصحاب المعلقات السبع (٨٩%) أيْ أننا سنعثر على (٨٩) حرفا ثنائيًّا في كل مئة بيت من أبيات الدواوين مجتمعة .

١١) بلغ مقدار التوسع القرآني في استعمال الحروف الثنائية عمَّا كانت عليه عند شعراء المعلقات السبع (٤٨%) .

٤ - جدول الحروف الثلاثية ونسب استعمالاتها في القرآن الكريم ودواوين الشعراء :

ت	الحرف	معناه المركزي	استعماله في القران	نسبته إلى مجموع الآيات	استعماله في الدواوين	نسبته إلى مجموع الأبيات	مقدار التوسع القرآني
١	أجل	حرف جواب يختص بالخبر	--	--	--	--	---
٢	أيا	حرف نداء للقريب	--	--	١٠	٠,١٧%	- ٠,١٧%
٣	إذن	الجواب المقترن بالجزاء	٣١	٠,٤٩%	--	--	٠,٤٩%
٤	ألا	التنبيه على تحقيق ما بعدها	٣٩	٠,٦٢%	٨٠	١,٤%	- ٠,٧٨%
٥	إلى	انتهاء الغاية	٧٤٢	١١,٨%	٢٧٦	٤,٩%	٦,٩%
٦	إنَّ	توكيد للجملة	١٤٨٢	٢٣,٧%	٢٥٩	٤,٦%	١٩,١%
٧	أنَّ	توكيد يؤول بمصدر	٣٣٦	٥,٣%	١٧٦	٣,١%	٢,٢%
٨	آي	حرف نداء	--	--	--	--	---
٩	بجل	حرف جواب	--	--	--	--	---
١٠	بلى	جواب للنفي	٢٢	٠,٣٥%	٣	٠,٠٥%	٠,٣%
١١	ثمَّ	الترتيب بمهلة	٣٣٨	٥,٤%	٨٠	١,٤%	٤%
١٢	جلل	حرف جواب	--	--	--	--	---
١٣	ربَّ	حرف إثبات	١	٠,٠١%	٢١	٠,٣٧%	- ٠,٣٦%
١٤	سوف	حرف تنفيس	٤٢	٠,٦٧	١٤	٠,٢٥%	٠,٤٢%
١٥	على	الاستعلاء	١٤٤٥	٢٣,١%	٧٦٧	١٣%	١٠,١%
١٦	ليت	التمني	١٤	٠,٢٢%	١١	٠,١٩%	٠,٠٣%
١٧	منذ	حرف دال على الوقت	--	--	--	--	---
١٨	نعم	حرف جواب	٤	٠,٠٦%	١	٠,٠١%	٠,٠٥%
مجموع استعمالات الحروف الثلاثيَّة			٤٤٩٦	٧٢%	١٦٩٨	٣٠%	٤٢%

تتبيَّن من الجدول عدَّةُ أمور منها :

١) توسع القرآن الكريم في استعمال الحروف الثلاثية عموما ، عدا (ألا) و (ربَّ) فإنه قلل من استعمالهما.

٢) أكثر الحروف الثلاثية استعمالا في القرآن الكريم كان (إنَّ) الدال على توكيد الجملة ، وقد بلغت نسبة استعماله إلى مجموع آيات القرآن (٢٣,٧%) ويأتي من بعده حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء، وقد بلغت نسبة استعماله في القرآن (٢٣,١%) ومن بعده حرف الجر (إلى) بنسبة (١١,٨) .

٣) أكثر الحروف الثلاثية استعمالا في دواوين أصحاب المعلقات هو حرف الجر (علىً) ، وقد بلغت نسبة استعماله إلى مجموع أبيات الشعراء في الدواوين (١٣%) ويأتي من بعده حرف الجر (إلى) الذي بلغت نسبة استعماله عندهم (٤,٩%) .

٤) أكثر الحروف الثلاثيَّة التي توسع القرآن الكريم في استعمالها كانت (إنَّ) ؛ إذ بلغ مقدار التوسع في استعمالها (١٩,١%) عمَّا كانت عليه في أشعار أصحاب المعلقات ، ويأتي من بعده (على) ثمَّ (إلى) ، وقلل القرآن الكريم من استعمال (ألا) الاستفتاحية بنسبة (٠,٧٨%) ويأتي من بعدها (ربَّ) ، ولم يستعمل القرآن (أيا) الندائية التي استعملها الشعراء قليلا .

٥) أقلُّ الحروف الثلاثية استعمالا في القرآن الكريم كانت (ربَّ) التي استعملت مرَّة واحدة ، وكانت نسبتها (٠,٠١%) ، ويأتي من بعدها (نعم) ، فقد استعملت أربع مرات لتكون نسبته (٠,٠٦%) .

٦) كان أقلُّ الحروف الثلاثية استعمالا في دواوين أصحاب المعلقات (نعم) وقد استعمل مرَّة واحدة لتكون نسبته إلى مجموع أبياتهم (٠,٠١%) ، ويأتي من بعده في الاستعمال الشعري (بلى) وقد استعمل ثلاث مرات لتكون نسبته (٠,٠٥%) .

٧) هنالك خمسة أحرف ثلاثية لم تستعمل في الدواوين ولم يستعملها القرآن الكريم أيضا وهي :(أجل) حرف جواب ، و(آيْ) حرف نداء ، و(بجل) حرف جواب ، و(جلل) حرف جواب ، و(منذ) حرف دال على الوقت . وانفرد القرآن في استعمال (إذن) الدالة على الجواب المقترن بالجزاء ، ولم يستعمل هذا الحرف الثلاثي عند الشعراء ، في حين انفرد الشعراء باستعمال (أيا) حرف النداء للقريب . ولم يستعمله القرآن الكريم . قد تكون الحروف الثلاثة (أجل وبجل وجلل) حروف جواب في لهجات بعض القبائل القديمة وقد تركت في الاستعمال العام ولم يصل إلينا شيء من استعمالها ، وأثبتتها كتب اللغة ، من باب حفظ كل ما تناهى إليهم من التراث اللغوي العربي .

٨) بلغ مجموع استعمالات القرآن الكريم للحروف الثلاثيَّة كلها (٤٤٩٦) مرَّة مما جعل نسبة ورود الحروف الثلاثيَّة إلى مجموع آيات القرآن الكريم (٧٢%) أي في كل مئة آية سنجد (٧٢) حرفا ثلاثيًا أو سبعة حروف في كل عشر آيات .

٩) بلغ مجموع استعمالات الشعراء للحروف الثلاثيَّة (١٦٩٨) مرَّة ، وهذا يجعل نسبتها إلى مجموع أبيات دواوين أصحاب المعلقات السبع (٣٠%) أي أننا سنعثر على ثلاثين حرفا ثلاثيًا في كل مئة بيت من أبيات الدواوين مجتمعة .

١٠) بلغ مقدار التوسع القرآني في استعمال الحروف الثلاثيَّة عمَّا كانت عليه عند شعراء المعلقات السبع (٤٢%) .

ومن خلال موازنة نتائج الجدولين (الثنائيَّة والثلاثيَّة) يتبيَّن :

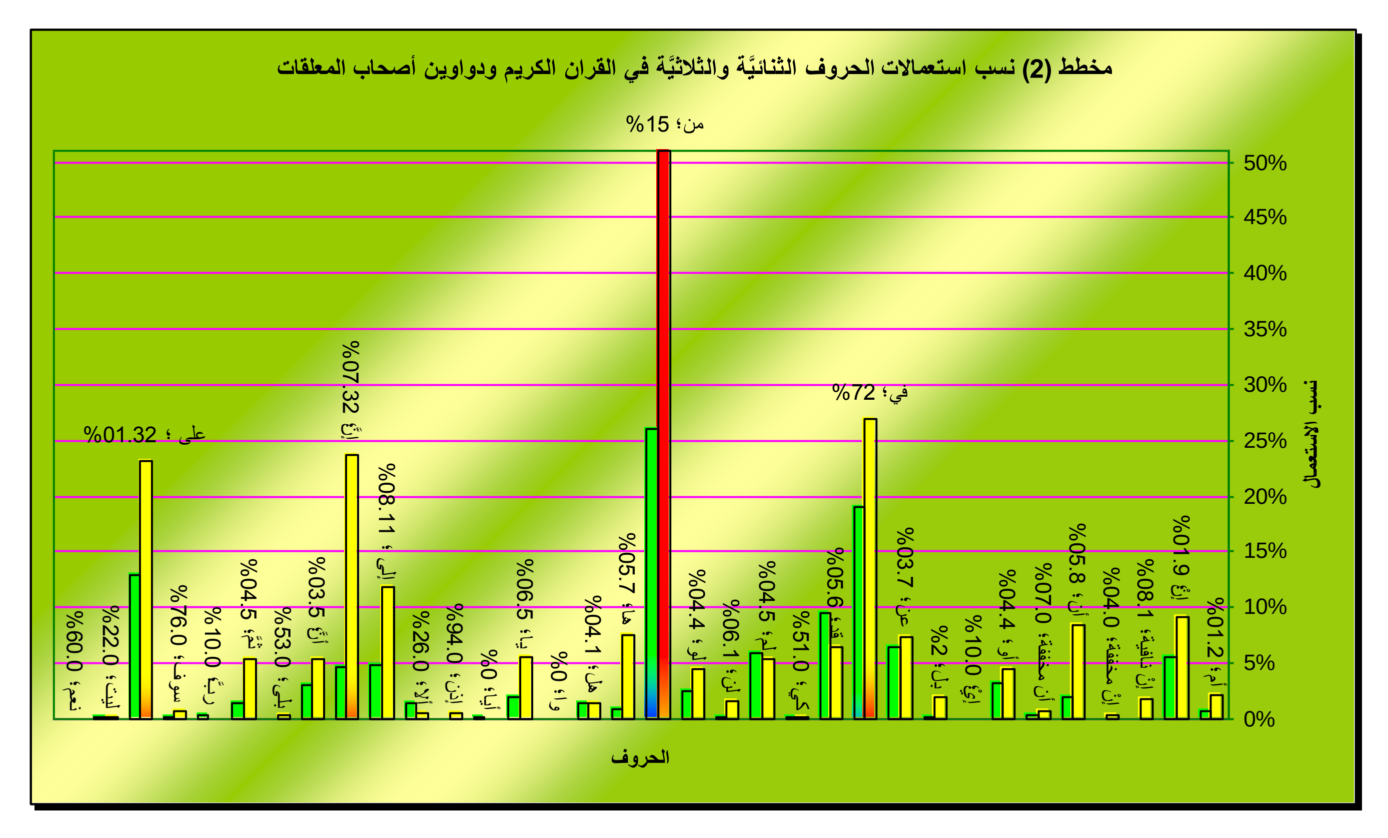
- الحروف الثنائية أكثر استعمالا من الحروف الثلاثية في القرآن الكريم وهذا متفق مع ما كان عليه استعمالها قبل نزوله إذ كانت الأكثر حضورا في دواوين الشعراء .

- أن أكثر الحروف استعمالا على الإطلاق في عموم اللغة العربية هو حرف الجر (من) الذي يبلغ معدل استعماله في النصين المدروسين (٣٨,٥%) ويأتي من بعده حرف الجر(في) وبلغ معدل استعماله العام في النصين (٢٣%) ومن بعدهما حرف الجر (على) الذي بلغ معدل استعماله العام (١٨,٠٥%) وبذا تكون حروف الجر هي أكثر حروف المعاني استعمالا في اللغة العربية الفصحى وقت نزول القرآن الكريم وبعد نزوله .

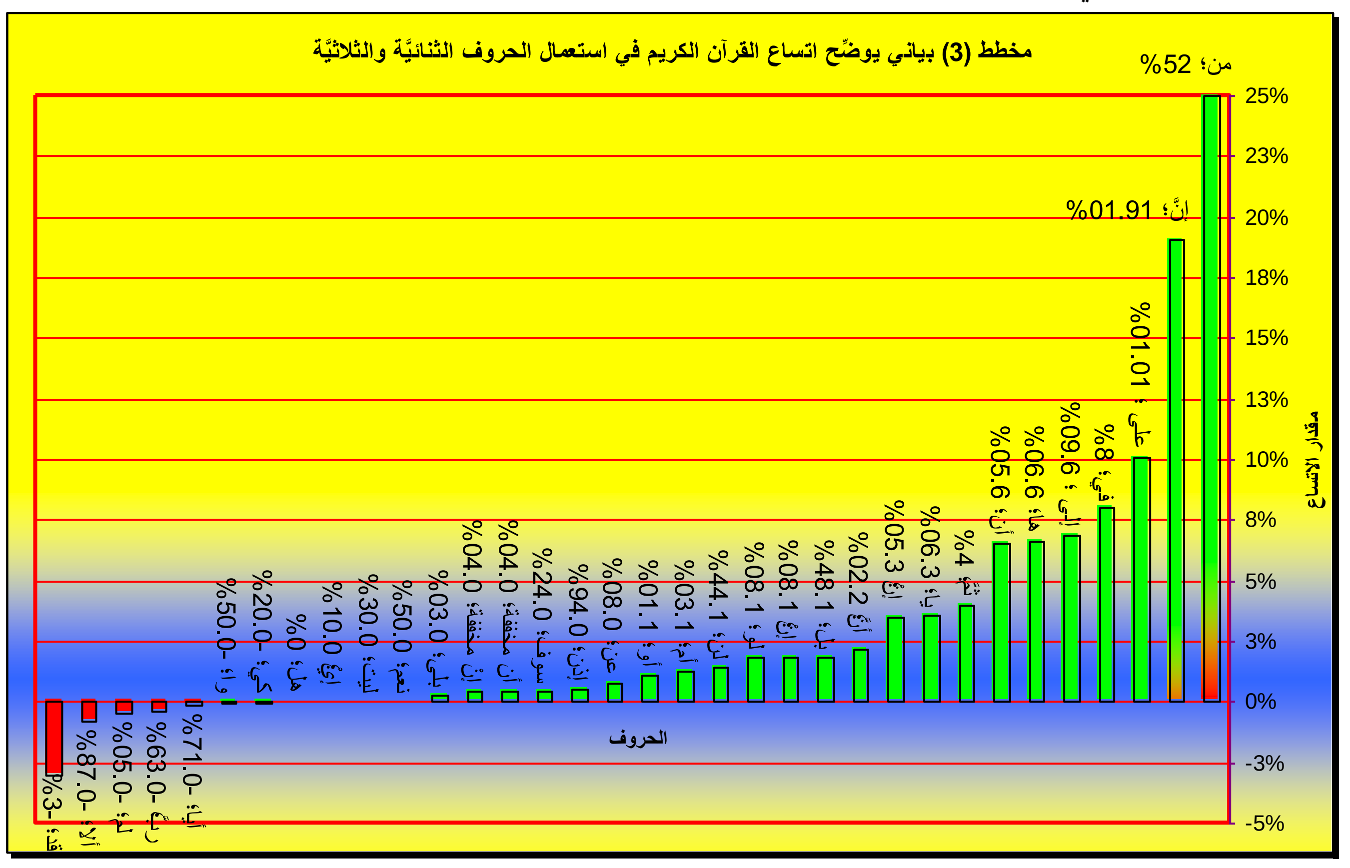
- ويتضح أيضا أن الحروف الثنائيَّة أكثر استعمالا في اللغة العربية - قرآنها وشعرها - من الحروف الثلاثيَّة ، وإذا أردنا قياس معدل استعمال الحروف الثنائية في النصين معاً سيكون معدل نسبة الحروف الثنائية (٩١,٥%) في حين معدل نسبة الحروف الثلاثيَّة في النصين معاً (٥١%) ، ومنه يتبيَّن أن الحروف الثنائيَّة تزيد نسبة استعمالها على الحروف الثلاثيَّة في اللغة العربية عموما بمقدار يصل إلى (٤٠%) .

- وفي الوقت الذي توسع فيه الاستعمال القرآني للحروف عموما في اللغة العربية بقيت الحروف الثنائيَّة أكثر حضورا من الحروف الثلاثيَّة ، وكان مقدار التوسع القرآني في استعمال الحروف الثنائيَّة أكثر قليلا من التوسع في استعمال الحروف الثلاثيَّة ومقدار (٤٨% - ٤٢% = ٦%) .

وفيما يأتي مخططٌ بيانيٌّ يبيِّن نسب استعمالات الحروف في دواوين الشعراء و القرآن الكريم :



وهذا مخطط بياني تفصيلي يُبيِّن مقدار التوسع القرآني في نسبة استعمال الحروف الثنائيَّة والثلاثيَّة عمَّا كانت عليه في دواوين أصحاب المعلقات ، وفيه يظهر أن (هل) بقيت محافظة على مستواها العام في الاستعمال ، في حين تراجعت نسبة استعمال كل من (ربَّ)و(لم) و(ألا) و(قد) ، بنسب متفاوتة وكان أكثرها انحسارا في الاستعمال القرآني (قد) ، ولم يستعمل في القرآن حرفان هما (وا) التي للندبة و(أيا) الندائيَّة ، وقد كانت استعملتا بندرة في دواوين الشعراء :



٥ - جدول استعمالات الشعراء للحروف الثنائيَّة ونسبها المئوية إلى مجموع أبياتهم في الدواوين

	امرؤ القيس (٦٩٥) بيتاً		طرفة بن العبد (٤٣٦) بيتاً		الحارث بن حلزة (١٧٨) بيتاً		عمرو بن كلثوم (٢٩٢) بيتاً		عنترة بن شداد (١٧٦٩) بيتاً		زهير بن أبي سلمى (٨٩٤) بيتاً		لبيد بن ربيعة (١٣٢٢) بيتاً		مجموع أبيات الدواوين (٥٥٨٦) بيتاً	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	مجموع استعمالات الشعراء	نسبة الحرف في الدواوين
أم	٧	%١	٥	%١,١	٧	%٣,٩	١	%٠,٣	٨	%٠,٤	٨	%٠,٨	١٠	%٠,٧	٤٦	%٠,٨
إنْ شرطية	٣٤	%٤,٨	٣٢	%٧,٣	١١	%٦,١	١٦	%٥,٤	١٠٦	%٥,٦	٥٨	%٦,٤	٨١	%٦,١	٣٣٨	%٦
أن	١٣	%١,٨	٩	%٢	٤	%٢,٢	١٧	%٥,٨	٣١	%١,٧	٣٢	%٣,٥	٣١	%٢,٣	١٣٧	%٢,٤
أو	٢٨	%٤	١٤	%٣,٢	٨	%٤,٤	١١	%٣,٧	٣٦	%٢	٤٨	%٥,٣	٤٤	%٣,٣	١٨٩	%٣,٣
بل	---	---	---	---	---	---	---	---	٤	%٠,٢٢	٢	%٠,٢٢	٣	%٠,٢٢	٩	%٠,١٦
عن	٤١	%٥,٨	٣٠	%٦,٨	١٢	%٦,٧	١٩	%٦,٥	١٢٥	%٧	٦٩	%٨	٦٨	%٥,١	٣٦٤	%٦,٥
في	١٢٤	%١٧	٨١	%١٨	٣١	%١٧	٣٨	%١٣	٤٣٦	%٢٤	١٥٩	%١٧	٢٠٩	%١٥	١٠٧٨	%١٩
قد	٦٠	%٨,٦	٣١	%٧,١	١٠	%٥,٦	١٩	%٦,٥	٢٠٠	%١١,٣	٨٥	%٩,٥	١١٢	%٨,٤	٥١٧	%٩,٢
كي	١	%٠,١٤	---	---	---	---	---	---	٥	%٠,٢٨	٢	%٠,٢٢	٢	%٠,١٥	١٠	%٠,١٧
لم	٥١	%٧,٣	٣٣	%٧,٥	٨	%٤,٤	١٤	%٤,٧	٧٦	%٤,٢	٦٦	%٧,٣	٨٦	%٦,٥	٣٣٤	%٥,٩
لن	---	---	---	---	---	---	---	---	١	%٠,٠٥	٢	%٠,٢٢	٦	%٠,٤٥	٩	%٠,١٦
لو	٢٠	%٢,٨	١٠	%٢,٢	٢	%١,١	٦	%٢	٥٦	%٣,١	٢٣	%٢,٥	٢٨	%٢,١	١٤٥	%٢,٥
من	١٩٣	%٢٧	١٠٥	%٢٤	٤٩	%٢٧	٧٩	%٢٧	٤٦٦	%٢٦	٢٧٦	%٣٠	٢٨٦	%٢١	١٤٥٤	%٢٦
ها	٨	%١,١	٥	%١,١	٣	%١,٦	---	---	٢٠	%١,١	٤	%٠,٤	١٢	%٠,٩	٥٢	%٠,٩٣
هل	١٠	%١,٤	٤	%٠,٩	٨	%٤,٤	٣	%١	٢٣	%١,٣	١٥	%١,٦	١٥	%١,١	٧٨	%١,٤
وا	---	---	---	---	---	---	---	---	٣	%٠,١٦	---	---	---	---	٣	%٠,٠٥
يا	٢١	%٣	٥	%١,١	٣	%١,٦	١١	%٣,٧	١٦٧	%٩,٤	٩	%١	٢٨	%٢,١	٢٤٤	%٤,٣
استعمالات الشاعر للحروف الثنائية	٦١١	% ٨٧	٣٦٤	% ٨٣	١٥٦	% ٨٧	٢٣٤	% ٨٠	١٧٦٣	% ٩٩	٨٥٨	% ٩٥	١٠٢١	% ٧٧	٥٠٠٧	% ٨٩

٦ - جدول استعمالات الشعراء للحروف الثلاثيَّة ونسبها المئوية إلى مجموع أبياتهم في الدواوين

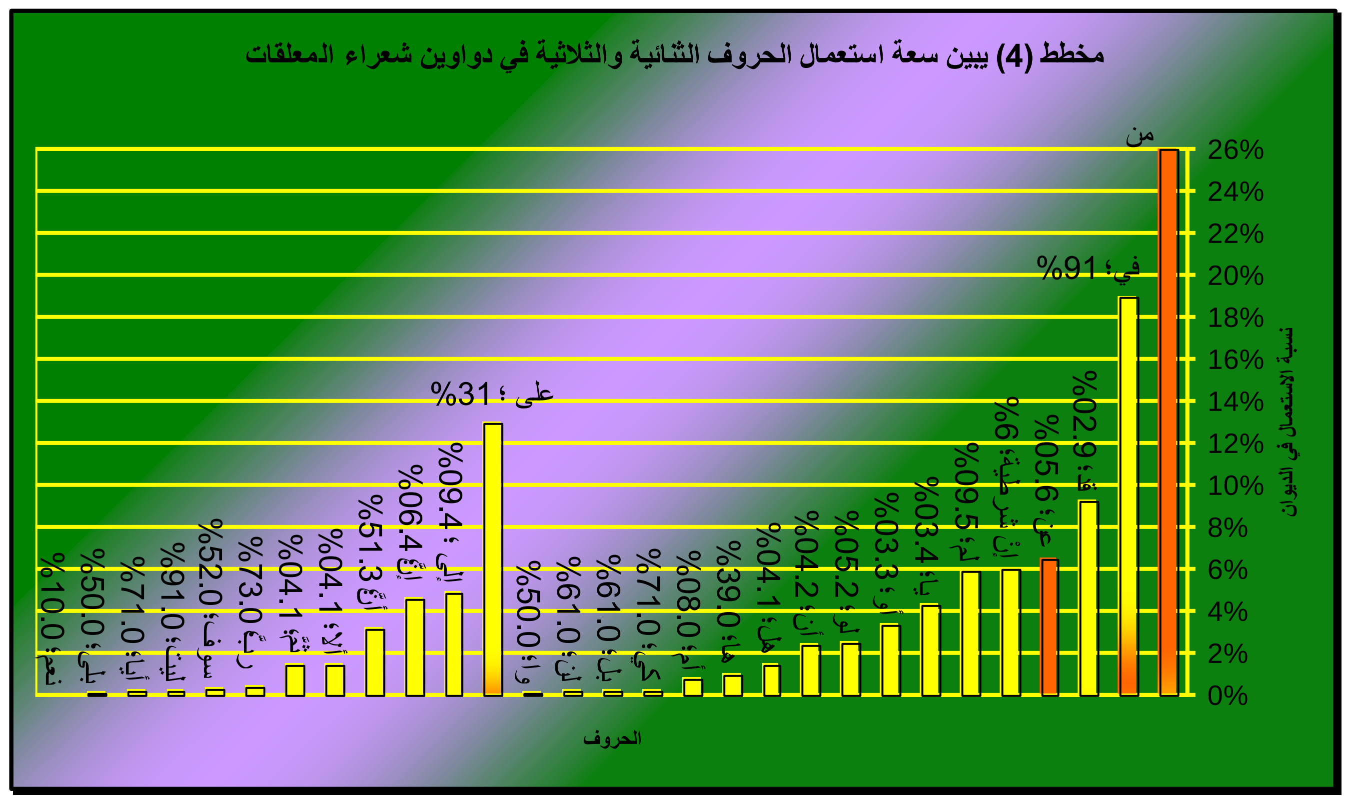
	امرؤ القيس (٦٩٥) بيتاً		طرفة بن العبد (٤٣٦) بيتاً		الحارث بن حلزة (١٧٨) بيتاً		عمرو بن كلثوم (٢٩٢) بيتاً		عنترة بن شداد (١٧٦٩) بيتاً		زهير بن أبي سلمى (٨٩٤) بيتاً		لبيد بن ربيعة (١٣٢٢) بيتاً		مجموع أبيات الدواوين (٥٥٨٦) بيتاً	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	مجموع استعمالات الشعراء	نسبة الحرف في الدواوين
ألا	١٩	%٢,٧	٩	%٢	١	%٠,٥	١١	%٣,٧	٢٧	%١,٥	٧	%٠,٧	٦	%٠,٤	٨٠	%١,٤
إلى	٣٦	%٥,١	٢٣	%٥,٢	١١	%٦,١	١٥	%٥,١	٨٠	%٤,٥	٦٧	%٧,٤	٤٤	%٣,٣	٢٧٦	%٤,٩
أنَّ	١٦	%٢,٣	١٤	%٣,٢	٦	%٣,٣	٣١	%١٠,٦	٦٢	%٣,٥	٢٥	%٢,٧٩	٢٢	%١,٦٦	١٧٦	%٣,١٥
إنَّ	٢١	%٣	٢٩	%٦,٦	١٠	%٥,٦	١٢	%٤,١	٨٢	%٤,٦	٤٦	%٥,١	٥٩	%٤,٤	٢٥٩	%٤,٦
أيا	١	%٠,١٤	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٩	%٠,٥	٠	%٠	٠	%٠	١٠	%٠,١٧
بلى	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	١	%٠,١١	٢	%٠,١٥	٣	%٠,٠٥
ثمَّ	١٣	%١,٨	١١	%٢,٥	٦	%٣,٣	٠	%٠	١٤	%٠,٨	١٩	%٢,١	١٧	%١,٢	٨٠	%١,٤
ربَّ	١٤	%٢	٣	%٠,٦	٢	%١,١	٠	%٠	١	%٠,٠٥	١	%٠,١١	٠	%٠	٢١	%٠,٣٧
سوف	٢	%٠,٢٨	٠	%٠	١	%٠,٥٦	١	%٠,٣٤	٥	%٠,٢٨	٤	%٠,٣٣	١	%٠,٠٧	١٤	%٠,٢٥
على	١٢٣	%١٧	٦١	%١٣	٢٢	%١٢	٣٩	%١٣	٢٢٢	%١٢	١٣٦	%١٥	١٦٤	%١٢	٧٦٧	%١٣
ليت	١	%٠,١٤	١	%٠,٢٢	١	%٠,٥٦	٠	%٠	٦	%٠,٣٣	١	%٠,١١	١	%٠,٠٧	١١	%٠,١٩
نعم	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	٠	%٠	١	%٠,٠٧	١	%٠,٠١
مجموع استعمالات الشاعر	٢٤٦	%٣٥	١٥١	%٣٤,٦	٦٠	%٣٣,٧	١٠٩	%٣٧,٣	٥٠٨	%٢٨,٧	٣٠٧	%٣٤,٣	٣١٧	%٢٣,٩	١٦٩٨	%٣٠

من خلال تحليل نتائج الجدولين يتبيّن :

١) اتسام الحروف الثنائية بسعة الاستعمال في الدواوين عموما ، فهي أكثر حضورا واستعمالا من الحروف الثلاثية بمقدار الضعفين .

٢) ان أكثر الحروف الثنائية استعمالا عند الشعراء جميعهم هو (من) الذي بلغت نسبة استعماله في الدواوين (٢٦%) ، ثم يـأتي من بعده (في) ، الذي بلغت نسبته (١٩%) .

٣) أكثر الحروف الثلاثيَّة استعمالا كان (على) وقد بلغت نسبته (١٣%) ومن بعده (إلى) ونسبته (٤,٩%)، ويظهر بوضوح الفارق الكبير في سعة استعمال الحرفين الثنائيين (من) و(في) إذا ما قيس استعمالهما بالحرفين الثلاثيين (على) و(إلى) ، فالحرف الثنائي (من) استعمل أكثر من أكثر حرف ثلاثي بمقدار الضعف . والحال واحد في الحروف الثنائية كلها كانت أوسع استعمالا من الحروف الثلاثيَّة وكما يبينه هذا المخطط :



٤) كان أكثر الشعراء استعمالا للحروف الثنائيَّة عنترة فقد بلغ مجموع استعماله للحروف الثنائية مجتمعة في ديوانه (٩٩%) أي أننا سنجد تسعة وتسعين حرفا ثنائيا في كل مئة بيت من ديوانه أو لنقل عشرة حروف ثنائيَّة في كل عشرة أبيات من شعره .وكان أقرب الشعراء له في استعمال الحروف الثنائيَّة زهير الذي بلغت نسبة استعماله للحروف الثنائيَّة (٩٥%) في الديوان .

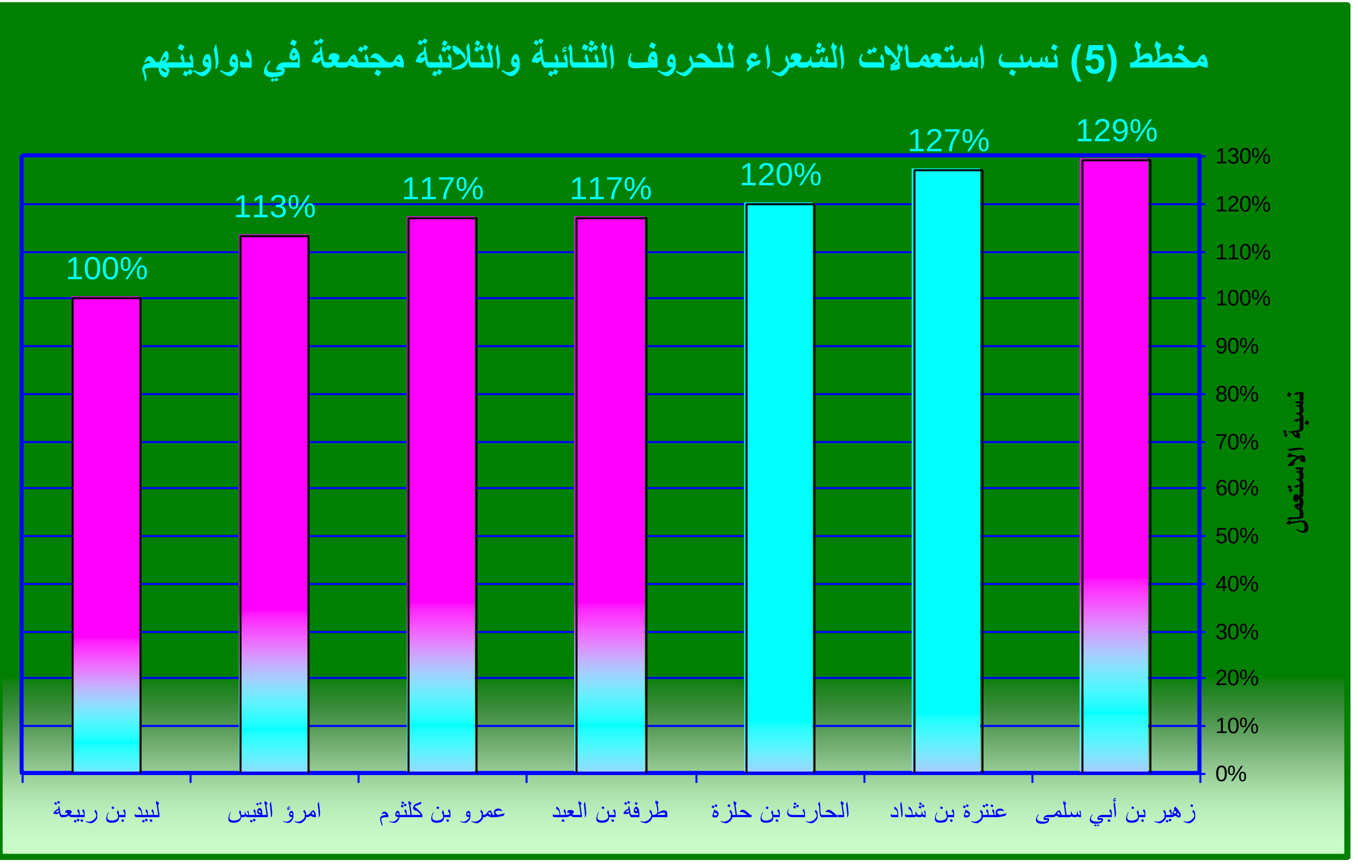
٥) وكان أكثر الشعراء استعمالا للحروف الثلاثيَّة عمرو بن كلثوم الذي بلغت نسبة استعماله للحروف الثلاثية (٣٧%) أي سنعثر على سبعة وثلاثين حرفا في كل مئة بيت من أشعاره ، ويأتي من بعده امرؤ القيس الذي بلغت نسبت استعماله للحروف الثلاثية (٣٥%) من أشعاره . وقد زادت نسبة عمرو نتيجة لتوسعه في استعمال الحرف (أنَّ) ففي الوقت الذي استعمل هذا الحرف بمعدل (٣%) عند الشعراء الآخرين توسع عمرو في استعماله حتى تجاوز مقدار (١٠%) وبذا ارتفعت نسبة استعماله للحروف الثلاثية عموما ، و كان هذا الحرف يدلُّ على التوكيد في رأي القدماء وهو يدل على أنه وصلة لوصف الاسم بالفعل الذي يدلُّ على التجدد والحدوث في رأي بعض المحدثين[1] ، وإني أعتقد أنَّ معنى هذا الحرف الرئيس أنه صلة للوصف بما يدل على التجدد والحدوث ، وقد يحتم عليه السياق الدلالة على معنى التوكيد كمعنى هامشي يؤديه الحرف ، وقد زاد عمرو بن كلثوم من استعمال هذا الحرف في معلقته ومن خلال تتبعي لاستعمالاته تلك أعتقد أنَّه كان يريد أن يصف لنا حالة التجدد والحيويَّة التي كانت تتسم بها قبيلته وأنها ترفض الذل والضيم الذي وقع عليها من خلال الوشاية بهم أمام الملك .

٦) أقلُّ الشعراء استعمالا للحروف الثنائيَّة لبيد الذي كانت نسبة استعمالاته للحروف الثنائية (٧٧%) ، وأقلهم استعمالا للحروف الثلاثية لبيد أيضاً وكانت نسبة استعماله لها (٢٣%) .

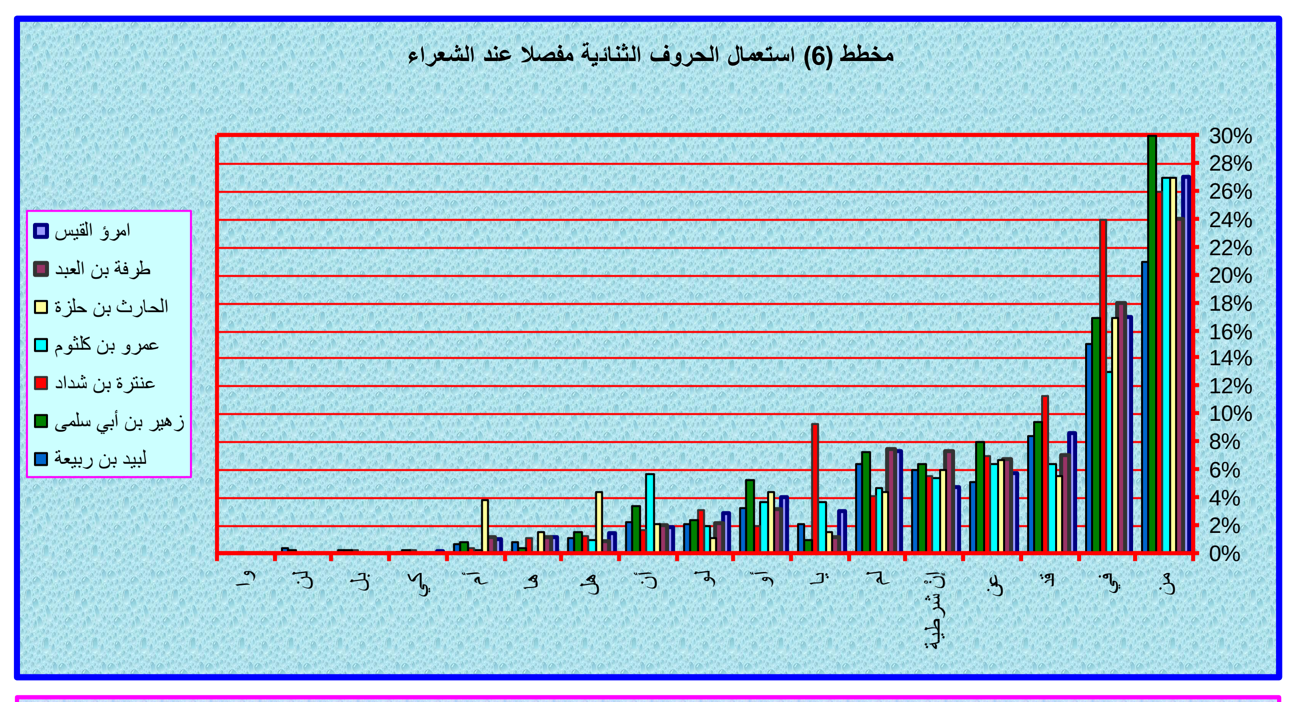
---

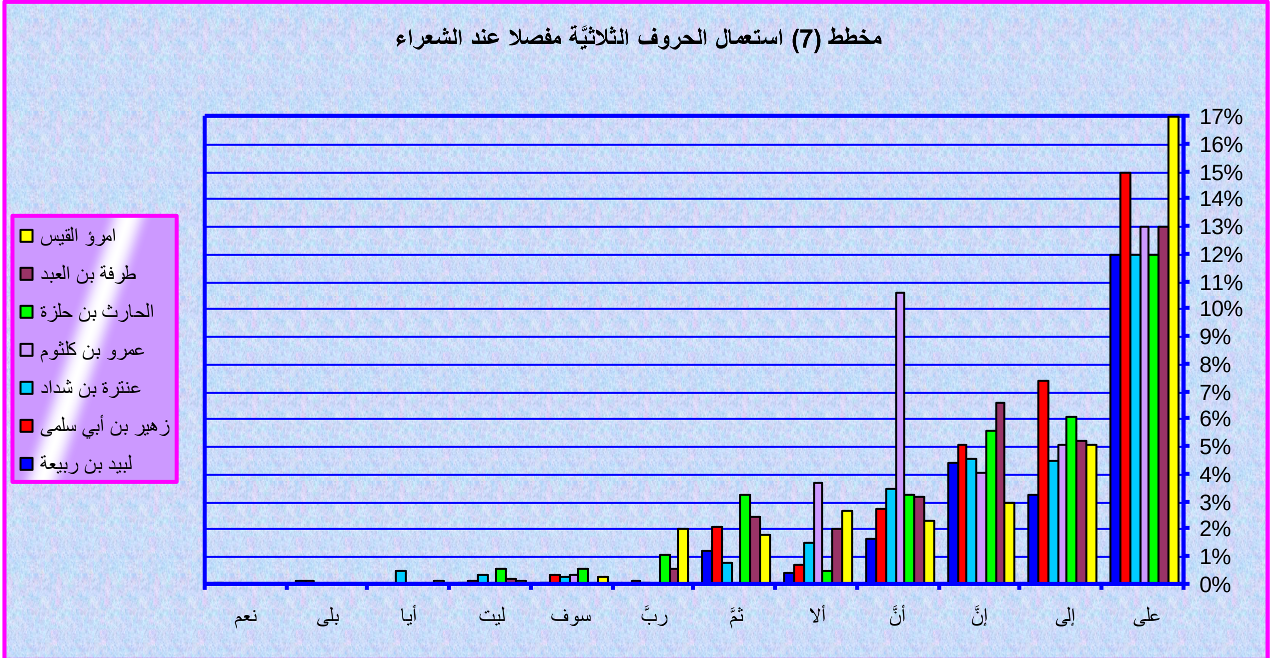
[1] - في النحو العربي نقد وتوجيه : ٣١٧-٣١٨ ، في النحو العربي قواعد وتطبيق : ٤٢ – ٤٤ .

٧) كان زهير أكثر الشعراء استعمالا للحروف عموما الثنائية والثلاثية ، إذ بلغت نسبة مجموع استعمالاته للحروف بنوعيها في ديوانه (١٢٩%) أي سنجد (١٢٧) حرفا ثنائيا وثلاثيا في كل مئة بيت من ديوانه ويأتي من بعده عنترة ونسبة الحروف إلى مجموع أبياته (١٢٧%) ثم الحارث والنسبة عنده (١٢٠%) ثم كل من طرفة وعمرو وكانت النسبة عند كل منهما (١١٧%) ثم امرؤ القيس وكانت نسبة الحروف إلى مجموع أبياته (١١٣%) وكان لبيد آخرهم ، فقد وصلت النسبة عنده إلى (١٠٠%) أي سنجد عنده مئة حرف ثنائي أو ثلاثي في كل مئة بيت أي معدل حرف كل بيت .ويلاحظ أن نسب استعمالهم للحروف عموما متقاربة ولم يبرز أحد الشعراء باستعمال غير متسق مع بقيَّة الشعراء بل كان استعمالهم للحروف متوازنا ، وعلى ما يبينه المخطط البياني الآتي :



٨) على الرغم من تقارب نسب استعمالات الشعراء للحروف عموما كانت هنالك فوارق فردية في استعمال الشعراء لكل حرف ، ففي كل حرف كان يتميز أحد الشعراء في استعماله ، وقد تكلمت على ذلك عند الحديث عن كل حرف مفصلا ، وحللت تحليلا نفسيا سبب تميز بعض الشعراء باستعمال بعض الحروف دون غيرها ، وسيبين المخططان الآتيان أحوال الشعراء في استعمال كل حرف من الحروف الثنائية ثم الثلاثية .





هذه أبرز النتائج التي يمكن استخلاصها من الجدولين الأخيرين ، وهنالك أمور أخرى يمكن المتتبع أن يلتقطها من الجداول عموما ، وسأعرض عنها خشية الإطالة .

نَتَائِجُ البَحثِ والخَاتِمَةُ :

أولا : النتائج :

أهمُّ النتائج التي يمكن استخلاصها من الدراسة هي :

١ – يكاد يُطبق علماء العربية القدماء على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم على أن الكلام العربي ينقسم على ثلاثة أقسام هي (الاسم والفعل والحرف) ، وكانت تعريفاتهم للحرف تدور في دائرة واحدة تقريباً ، فالحرف كلمةٌ تدلُّ على معنى في غيرها ، وإن دورها الوظيفي لا يتعدى ذلك ، وقد خَرَجَ بعض المحدثين على التقسيم الثلاثي للكلمة العربية ، لكن الحرف بقي قسما رئيسا من أقسام الكلمة ، وربما توسع بعضهم فأدخل في هذا القسم كلمات أو وربما أخرج بعضهم منه أخرى ، لكن مع هذا كانت للحرف مكانة مرموقة في الدراسة النحوية والدلاليَّة القديمة والحديثة .

٢ – تختلف اللغة في طبيعة استعمالها تبعا لاختلاف المستويات الكلامية للأفراد ، وكلما اختلف المستوى الكلامي للمتكلم تغيرت خصائص كلامه تبعا لذلك . غير أنَّ علماء النحو واللغة العربية القدماء عموما لم يراعوا التفريق بين المستويات المختلفة للكلام وحاولوا استخلاص قواعد اللغة وتقنينها مما وصل إليهم من نماذج متعددة من كلام العرب القديم والمعاصر لهم والجيد والرديء والشعر والنثر واللغة العامية والفصيح البليغ ولهجات القبائل واللغة المشتركة . ووصفوا ذلك بأنه عربي يصحُّ لإثبات القواعد والمعاني ما دام في عصور الفصاحة التي استوعبت مدَّة ليست بالقليلة ، واستوعبت أيضاً قبائل كثيرة ، ولم ترع المستويات البلاغية من الكلام العربي . ونتج عن هذا بعض الخلط في تقعيد القواعد .

٣ – هنالك نظريتان عالج القدماء والمحدثون مسألة تعدد المعاني المنسوبة إلى الحرف الواحد إحداهما نظرية التناوب الكوفية التي تسمح بالقول : إن بعض الحروف ينوب بعضها عن بعضها في تأدية المعاني ، والأخرى نظرية التضمين البصرية التي لا تسمح بالقول : بالتناوب، وترى أن الفعل قد أشرب معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف فعدي به نتيجة لهذا ، والحرف باق على معناه الأصلي ، فلكل حرف معنى واحد لا يفارقه . وقد تنبه بعض الباحثين المحدثين إلى بعض المشكلات التي يفضي إليها القول بكل من النظريتين ، لكن أحدا منهم لم يعرض بديلا مقنعا للنظريتين .

٤ – كانت هنالك نظرية حديثة من ضمن نظريات علم الدلالة المعاصرة ترى أن المفردة قد تكون لها معان هامشية يزيدها عليها السياق ، وعلم اللغة المعاصر يعرض هذه النظرية ضمن النظريات التي تعالج موضوع (المعنى والمفردة) وكيف تؤدي المفردات دلالاتها ضمن الكلام ، فهنالك أنواع من المعاني التي يمكن المفردات أن تؤديها وبطرق متعددة ، ويعرض البحث اللغوي الحديث نظريات عديدة لدراسة المعنى من أهم هذه النظريات النظرية السياقيَّة . إن تنبه علماء العربية القدماء لهذه النظرية لا يجعلنا ننكر فضل المحدثين في إخراجها مخرج النظرية العلمية الحديثة المطردة ، فلم تكن إشارات القدماء مستوعبة لأطراف النظرية كاملة ، لكنهم تنبهوا لها ، وتبقى النظرية من ثمار البحث اللغوي الحديث .

٥ – استلهمت الدراسة نظرية المعنى المركزي والهامشي للمفردات ، فقدمت في بداية الفصل الثاني فرضية الفصل وهي**(الدلالة المركزية للحرف والدلالات الهامشية)** وطبقتها على الحروف في صفحات الفصل الأول وكانت النتائج جيدة ومنضبطة ، إذ اختبرت الدراسة إمكانية تطبيقها على أغلب الحروف الثنائيَّة والحروف الثلاثية فكانت بديلا طبيعيا لنظريتي التناوب و التضمين ، وتمكنت الدراسة من خلال تطبيق هذه النظرية من تجاوز كثير من العقبات التي

كانت تقف أمام النظريتين السابقتين ، وتمكنت أيضاً عبر نظرية الدلالة المركزية والدلالات الهامشية للحروف من تحليل النصوص الأدبية البليغة ، وتحليل النص القرآني المقدس بصورة أكثر حيويَّة وأكثر ثراءً من تحليل تلك النصوص في ضوء النظريتين السابقتين ، وتجاوزت هذه النظرية جمود المعنى الذي يسببه تطبيق نظرية التضمين ، واجتزاء المعنى الذي يسببه تطبيق نظرية التناوب ، وختم الفصل بأن قدَّم الباحث بتواضع واستسماح تلك الفرضية بوصفها نظرية قابلة للتطبيق ، وعرض في نهاية الفصل خلاصة لها ولنتائجها بثمان نقاط مهمة ، يمكن الرجوع إليها هناك .

٦ – في الفصل الثالث قـدِّمَت فرضيةٌ رئيسةٌ أخرى كانت من أهم أسباب هذه الدراسة ، تلك هي تتبع أثر القرآن الكريم في تطوير المعاني الحرفية في اللغة العربية ، ولمعرفة هذا الأثر وتشخيصه ثمَّ تحديد مداه وسعته بالأرقام فقد افترضت الدراسة أن **(السياقَ القرآنـي المؤثرُ الرئيسُ في تطوير معاني الحروف)** ، وعملت في هذا الفصل على اختبار هذه الفرضية ودعمها بالحقائق العلمية ، والإحصاءات الدقيقة ، فتمكنت – بحمد الله ومنِّه – من تشخيص مواطن كثيرة توسع القرآن الكريم في استعمال الحروف فيها وطوَّر ذلك الاستعمال وهو استعمالٌ للحروف كان معهودا قبل نزوله فطوره ببيانه المعجز ، وتمكنت الدراسة أيضاً من تحديد أربعة عشر معنى تفرَّد بها الاستعمال القرآني ، فكانت من إبداعاته التي لم يسبق إليها ، ولم أجد من أشار إليها من قبل على أنها من إبداعات القرآن الكريم في لغة العرب ، فكان كل واحد من تلك المعاني ثمرة مهمة من ثمار الدراسة ، وفيها تحقيق كبير لفرضية الفصل وإثبات رصين لها .

٧ – أظهرت الإحصاءات الدقيقة والواسعة التي أجريت على الاستعمال الشعري والقرآني للحروف عددا من النتائج الثانوية غير تحقيق فرضيتي الدراسة الرئيسيتين يمكن أن أذكر أبرزها ، ويمكن متابعة النتائج الأخرى في فصول الدراسة ، وفي الملحق البياني :

أ- كانت الحروف الثنائية هي الأكثر استعمالا وشيوعا في دواوين شعراء المعلقات إذا ما قيست باستعمال الحروف الثلاثية عندهم ، وقد كان استعمال الحروف الثنائية عندهم أكثر من ضعف استعمال الحروف الثلاثية ، وقد بقي حال الحروف الثنائية في الاستعمال القرآني على ما كان عليه قبل نزوله من حيث سعتها إذ كانت نسبة استعمال الحروف الثنائية في القرآن الكريم قرابة ضعف استعمال الحروف الثلاثية فيه .

ب- أكثر الحروف الثنائية استعمالا في الشعر كان (من) وكذا بقي هذا الحرف أكثر الحروف الثنائية في الاستعمال القرآني ، على أن الاستعمال القرآني قد زاد من نسبة استعماله عما كان عليه عند الشعراء إلى الضعف ، ويأتي من بعده (في) في الشعر وكذا بقي حاله في القرآن الكريم ، أما الحروف الثلاثية فكان أكثرها حضورا عند الشعراء الحرف (على) لكن الاستعمال القرآني جعل من الحرف (إنَّ) الأكثر حضورا ، وزادت نسبة استعماله على الحرف (على) الذي صار في المرتبة الثانية في الاستعمال القرآني .

ت- توسع القرآن الكريم عموما في استعمال الحروف الثنائيَّة والثلاثيَّة ، ويمكن متابعة نسب التوسع في الملحق .

ث- أقلُّ الحروف الثنائية استعمالا في القرآن الكريم كان (إيْ) التي تدل على الجواب مع القسم ، فقد استعملها القرآن الكريم مرة واحدة ، ولم تستعمل عند الشعراء ، في حين كان أقلها عند الشعراء (وا) التي لم تستعمل إلاَّ عند عنترة ، ولم تستعمل

للندبة وهو معناها المركزي ، بل استعملت في نداء مجازيٍّ خرج إلى معنى التفجُّع ، ولم يستعمل هذا الحرف في القرآن الكريم .

ج- هناك أربعة حروف ثنائية تذكرها المصادر لم تستعمل في دواوين أصحاب المعلقات ولم يستعملها القرآن الكريم أيضاً ، بل إن أكثرها لم يستعمل في الشعر الجاهلي عموما ، وهنالك خمسة أحرف ثلاثية أيضاً لم تستعمل في الدواوين ، ولم يستعملها القرآن الكريم . وهذا دليل على عدم شيوع هذه الحروف أو قدمها أو كونها لهجات محلية لبعض القبائل العربية ، تناهت إلى كتب اللغة ومجاميعها بروايات قليلة أو ضعيفة ، ولم يساعد الاستعمال العام على إثباتها وتبيِّن معانيها ودلالاتها .

ح- بلغ مقدار التوسع القرآني في استعمال الحروف الثنائية عموما (٤٨%) فوق ما كانت عليه عند شعراء المعلقات السبع ، وبلغ مقدار التوسع للحروف الثلاثية (٤٢%) فوق ما كانت عليه عند أولئك الشعراء .

خ- كان أكثر الشعراء استعمالا للحروف الثنائية عنترة بن شداد ، وأكثرهم استعمالا للحروف الثلاثية عمرو بن كلثوم ، أما أكثر الشعراء استعمالا للحروف الثنائية والثلاثية مجتمعة فكان زهيرا . وهنالك فوارق فردية وخصوصيات شخصية في استعمال الشعراء لكل حرف من الحروف الثنائية والثلاثية وسعت الدراسة إلى تتبع هذه الخصوصيات والكشف عنها في كل حرف .

هذه أبرز النتائج وهناك عدد آخر مبثوث في صفحات الدراسة أعرضت عن سرده هنا اختصارا .

ثانياً : الخاتمةُ :

أمَّا في ختام هذه الدراسة فأقول : شكلت هذه الدراسة لي أنموذجا يمكن احتذاؤه في دراسات لاحقة ، فتحديد الخصائص اللغوية والفنيَّة في اللغة العربية مرتبطٌ ارتباطا وثيقا بالقران الكريم ، ويستطيع الدارسون تلمُّس الطاقات الإبداعية للغة العربية من خلال متابعة الاستعمال القرآني للغة ، والنظر مليًّا في هذا الاستعمال . وإذا أردنا استكشاف إمكانيات التعبير اللغوي والبياني غير المرئيَّة للنص القرآني فعلينا أن ننعم النظر في استعمالات اللغة قُبيلَ نزول القرآن الكريم لنتعرَّف كيفيَّة تطوير القرآن لتلك اللغة ، ونتلمس ذلك التطوير بوضوح ، أين حصل ؟ وكيف ؟ وما مقداره؟

إنَّ تجربة الدراسة الموازنة بين الشعر الجاهلي – كلَّه أو مجموعة منه – والقران الكريم أتت ثمارها بشكل دقيق كما أعتقد ، وأحسب أن بإمكان الدارسين استثمار مثل تلك الموازنات في دراسات تطبيقيَّة بين الشعر الجاهلي والقران الكريم ، بغية الكشف عن عدد غير قليل من أسرار الاستعمال القرآني للغة العربية . وفي هذا الوقت صار من اليسير على الباحثين حصر نماذج الاستعمالات وإحصائها ، باستعمال أجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) والبرمجيات المتطورة ، ومن ثم تصنيف النتائج وتحليلها ودراستها .

إنَّ الباب الآن مفتوح أمام الباحثين لعدد من البحوث التطبيقيَّة التي تعتمد على طريقة الموازنة بين نموذجين متماثلين أو مستويين معينين من مستويات اللغة لغرض تبيِّن خصائص

اللغة بصورة دقيقة ومنضبطة ، ولعلَّ في مقدمة مشاريع البحوث السائرة على هذا النهج إكمال دراسة الحروف الأحاديَّة والرباعية لتكتمل صورة استعمال الحرف ومعناه في اللغة العربية عموما التي شكلت هذه الدراسة بعض معالمها . وأرجو من الله أن يوفق أحد الباحثين لإتمام هذا العمل أو أن يمكنني من إتمامه في الأيام القابلة ، ويمكن أن يدرس عدد غير قليل من المشاريع البحثية النحويَّة و الصرفيَّة دراسة تطبيقيَّة موازنة ولعلَّ من الموضوعات المهمة التي تستحق أن تدرس على نحو هذه الدراسة من الموازنة موضوع جموع التكسير في اللغة العربية ، فكثرة الصيغ التي تروى لبعض الكلمات ، وعدم شيوع بعضها يقف دافعا يَحثُّ الباحثين على استكشاف حقيقة الاستعمال العربي لهذه الجموع قبل نزول القرآن وبعده ، وستختلف ثمار هذه الدراسة ونتائجها عما أعطته دراسات متعددة هذه الصيغ في القرآن وحده ، أو في الشعر وحده .

قائمة المصادر والمراجع

المصدر الأول : **القرآن الكريم** .

أولا : المطبوعة :

- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الثالثة : ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .
- أثر القرآن والقراءات في النحو العربي ، الدكتور : محمد سمير نجيب اللبديّ ، دار الكتب الثقافيَّة ، الكويت ،(د.ت) تاريخ المقدمة : ١٩٧٣ م .
- الإحكام في أصول الأحكام ، تأليف علي بن محمد الآمدي ، علق عليه : الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، مؤسسة النور للطباعة ، بيروت ، الطبعة الثانية : ١٤٠٢هـ .
- أحكام القرآن ، أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصَّاص(ت٣٧٠هـ) ، ضبط نصَّه وخرَّج آياته : عبد السلام محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
- أخبار أبي القاسم الزجاجي(ت٣٣٧هـ) ، تحقيق الدكتور: عبد الحسين المبارك ، دار الحريَّة للطباعة ، بغداد ،١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .
- ارتشافُ الضَّرب من لسان العربِ ، لأبي حيان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ) ، تحقيق الدكتور: مصطفى أحمد النماس ، مطبعة المدني ، مصر، الطبعة الأولى :١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، المعروف بـ(معجم الأدباء أو طبقات الأدباء) : لياقوت الروميّ الحمويّ ، اعتنى بنسخه وتحقيقه : د.س. مرجليوث ، مطبعة هندية بالموسكي ، مصر١٩٢٨م .
- الأزهية في علم الحروف ، علي بن محمد النحويّ الهرويّ ، تحقيق : عبد المعين الملّوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربيَّة بدمشق ، دمشق ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، الدكتور قيس إسماعيل الأوسي، دار الكتب للطباعة والنشر الموصل ١٩٨٨م.
- أساليب النفي في العربية ، دراسة وصفية تاريخية ، دكتور مصطفى النحاس ، مؤسسة علي جراح الصباح ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، تأليف : أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت٤٦٠هـ) ، حققه وعلق عليه : السيد حسن الموسوي الخرسان ، الناشر دار الكتب الإسلامية طهران ، المطبعة خورشيد ، قم ،الطبعة الرابعة :١٣٦٣هـ .
- أسرار العربية ، عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله أبي سعيد (ت٥٧٧هـ)، تحقيق : فخر صالح قدارة ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الأولى:١٩٩٥.
- إسناد الفعل ، رسميَّة محمد الميَّاح ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٦٥م - ١٣٨٤هـ .
- الأشباه والنظائر في النحو ، أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر جلال الدين السيوطي (٨٤٩هـ - ٦١١هـ) ، راجعه وقدم له : الدكتور فايز ترحيني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- أشعار عنترة العبسي ، تقديم وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، مصر، الطبعة الأولى :١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م .
- الأصول ، دراسة إبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : د. تمَّام حسَّان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨م .
- أصول السرخسي ، لأبى بكر محمد بن احمد بن أبى سهل السرخسى(ت٤٩٠هـ) ، حقق أصوله : أبو الوفاء الأفغاني ، عنيت بنشره لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد

الدكن بالهند ، دار الكتاب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م .

- أصول الفقه ، الشيخ محمد رضا المظفر(ت١٣٨٨هـ) الناشر : مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي حوزة علمية ، قم ، (د.ت) .
- الأصول في النحو ، ابن السراج أبو بكر محمد بن سهل النحويّ البغداديّ (ت٣١٦هـ) ، تحقيق : عبد الحسين الفتليّ ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٧٣م .
- الأضداد ، تأليف : محمد بن القاسم الأنباري(ت٣٢٨هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٦٠م .
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، أبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه (ت٣٧٠هـ) ، مطبعة دار الكتب المصريَّة ، ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م .
- إعراب القرآن ، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن لإسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة :١٩٨٠م.
- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق الدكتور : أحمد محمد قاسم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الأولى :١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .
- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، د . فاضل مصطفى الساقي ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- الألسنية (علم اللغة الحديث) ، قراءات تمهيدية ، د. ميشال زكريا ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت لبنان ، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الألسنية ، مبادئها و أعلامها : د . ميشال زكريا ، بيروت ،١٩٨٠ م .
- الأمالي ، أبي علي إسماعيل بن القاسم القاليّ البغداديّ ، دار الجليل ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- الأمالي الشجريَّة ، إملاء : أبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلويّ المعروف بابن الشجريّ(ت٥٤٢هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) .
- إنباه الرواة على أنباه النحاة : للقفطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٧٣ م .
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن سعيد الأنباريّ النحويّ (ت٥٧٧هـ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الرابعة :١٣٨٠هـ - ١٩٦١م .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ) ، دار الجليل ، بيروت ،الطبعة الخامسة : ١٩٧٩م .
- الإيضاح العضدي ، لأبي علي الفارسيّ(٢٨٨-٣٧٧هـ) ، حققه الدكتور : حسن شاذلي فرهود ، مطبعة دار التأليف ، الطبعة الأولى : ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- الإيضاح في علل النحو ، لأبي القاسم الزجاجي(ت٣٣٧هـ) ، تحقيق : مازن المبارك ، الناشر : دار العروبة ، مطبعة المدني ، مصر ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تأليف الشيخ محمد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ) ، مؤسسة الوفاء بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية المصححة: ١٤٠٣ ه - ١٩٨٣ م .
- البحث النحوي عند الأصوليين ، الدكتور : مصطفى جمال الدين ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م .

- البحر المحيط ، محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ) ، دار الفكر ، الطبعة الثانية : ١٩٧٨م .
- بدائع الفوائد ، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقيّ المشتهر بابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١هـ) ، دار الكتاب العربي ، المطبعة المنيريَّة ، بيروت ، (د.ت) .
- البرهان في علوم القرآن ، بد ر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى :١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م .
- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- البغداديات ، (المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات) لأبي علي النحوي(٢٨٨هـ - ٣٧٧هـ) ،تحقيق : صلاح الدين عبد الله السنكاوي ، مطبعة العاني ، بغداد ،١٩٨٣م .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى : ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات بن الأنباريّ(ت٥٧٧هـ) ، تحقيق : د. طه عبد الحميد طه ، مراجعة مصطفى السقا ، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- البيان والتبيين ، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠- ٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي بالقاهرة ،مطبعة المدني ، الطبعة الخامسة : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محب الدين أبى الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان، (د.ت) .
- تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح) ، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة: ١٤٠٧ ه - ١٩٨٧ م .
- تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن ابن خلدون المغربي (ت ٨٠٨هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة : (د،ت) .
- تأويل مشكل القرآن ، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ)، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربيّ◌ّ◌ّ◌َة ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (د.ت) .
- التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبريّ(ت٦١٦هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م .
- التبيان في تفسير القرآن ، تأليف : أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(٣٨٥-٤٦٠هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي ، دار إحياء التراث العربي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ .
- التذكرة بأصول الفقه ، الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبريّ البغداديّ(٣٣٦-٤١٣هـ) ، تحقيق : الشيخ مهدي نجف ، تحقيق الأعلام: الشيخ محمد الحسون ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
- التراكيب اللغوية في العربية ، دراسة وصفية تطبيقية ، الدكتور هادي نهر، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٨٧م .

- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك ، تحقيق: محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م .
- تطور البحث الدلالي ، دراسة في النقد البلاغي واللغوي ، الدكتور محمد حسين الصغير ، مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- التفاحة في النحو ، أبو جعفر النحاس النحوي (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق : كوركيس عواد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ) ، قدم له الدكتور: يوسف عبد الرحمن المرعشلي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٢م - ١٤١٢هـ .
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود(ت٩٥١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .
- تفسير الثعالبي المسمى: بالجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (٧٨٦-٨٧٥هـ) تحقيق : الشيخ علي محمد معوض وآخرون ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، الطبعة الأولى:١٤١٨هـ-١٩٩٧م .
- تقريب التهذيب ، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ) دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار المكتبة العلمية، بيروت ، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .
- تناوب حروف الجر في لغة القرآن ، الدكتور : محمد حسن عوَّاد ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى :١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م .
- توطئة لدراسة علم اللغة – التعاريف – ، د . التهامي الراجي الهاشميّ ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ١٩٨٦م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ) قدم له الشيخ : خليل الميس ، ضبط وتوثيق وتخريج : صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع :١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ ، أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
- الجمل ، تأليف : أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق : ابن أبي شنب ، مطبعة كلنسكسك باريس ، الطبعة الثانية : ١٩٥٧م – ١٣٧٦هـ .
- الجنى الداني في حروف المعاني ، حسن بن قاسم المراديّ(ت٧٤٩هـ) ، نحقيق : طه محسن ، مؤسسة دار الكتب ، مطابع جامعة الموصل ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .
- جوامع الجامع ، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، الطباعة والنشر : مؤسسة النشر الإسلامي ، الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ .
- جواهر الأدب في معرفة كلام العرب ، علاء الدين بن علي بن بدر الدين بن محمد الإربليّ المكتبة الحيدريَّة ومطبعتها ، النجف الأشرف ، الطبعة الثانية:١٣٨٩هـ-١٩٧٠م .
- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه الشواهد للعينيّ ، محمد بن علي الصبان ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (د.ت) .
- الحجة في القراءات السبع ، تأليف الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله(ت٣٧٠هـ) ، تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الرابعة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- حروف المعاني ، صنفه : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي(ت٣٤٠هـ) ، حققه الدكتور : علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، دار الأمل – عمان ، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل ، لأبي محمد بن السيد البطليوسيّ(ت٥٢١هـ)، تحقيق : سعيد عبد الكريم سعُّودي ، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- الحماسة ، تأليف : أبي عُبادة الوليد بن عُبيد البحتري ، اعتنى بضبطه : الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م.
- الحيوان ، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(١٥٠-٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ، الطبعة الأولى:١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م .
- خُزَانَةُ الأَدَبِ ولبُّ لبابِ لسان العربِ ، عبد القاهر البغدادي (١٠٣٠- ١٠٩٣هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة المدني ، مصر، الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- الخصائص ، أبي الفتح عثمان بن جنِّيّ(ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت (د.ت) .
- دراسات في الأدوات النحوية : دكتور : مصطفى النحاس ،شركة الربيعان ، الطبعة الأولى: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- دراسات في فقه اللغة : د . صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، مطبعة العلوم ، لبنان الطبعة الحادية عشرة : ١٩٨٦م .
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى : ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الدرس الدلالي في خصائص ابن جني ، دكتور : أحمد سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، الطبعة الأولى : ١٩٨٩م .
- دلائل الإعجاز ، تأليف عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح محمد عبده ، محمد محمود التركزي ، مراجعة ، محمد رشيد رضا ، دار المنار ، مصر ،الطبعة الرابعة : ١٣٦٧هـ .
- دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، الطبعة الثانية : ١٩٦٣م .
- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة : دكتور كمال محمد بشر، مكتبة الشباب الطبعة العاشرة : ١٩٨٦م .
- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب ، صنعة : أبي هفان عبد الله بن أحمد المهزمي البصري (ت٢٥٧هـ)، تحقيق : الشيخ : محمد حسن آل ياسين ، (د.ت) ، (د.م) .
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ ، حققه : أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، (د.ت) تاريخ المقدمة :١٩٥٣م.
- ديوان الأعشى الكبير،ميمون بن قيس، شرح وتحقيق: الدكتور :محمد حسين ، المطبعة النموذجية (د.ت) ، تاريخ المقدمة ١٩٥٠م .
- ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ١٩٥٨م.
- ديوان توبة بن الحُميِّر الخفاجي ، تحقيق: خليل إبراهيم العطية ، مطبعة الرشاد ، بغداد١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
- ديوان الحارث بن حلزة ، تحقيق : هاشم الطعَّان ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٩م .
- ديوان حمَيد بن ثور الهلالي ، صنعة عبد العزيز الميمني ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
- ديوان ذي الأصبع العدواني حرثان بن مُحرث (ت٢٢أو٢٥ق.هـ) ، جمع وتحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني ، ومحمد نائف الدليمي ، مطبعة الجمهور ، الموصل ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

- ديوان ذي الرُّمَّة غيلان بن عقبة العدوي (ت١١٧هـ) ، شرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، تحقيق: د . عبد القدوس أبو صالح ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة طربين ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ديوان زيد الخيل ، صنعه الدكتور: نوري حمودي القيسي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ،(د.ت) تاريخ المقدمة ١٩٦٨م .
- ديوان سحيم عبدِ بني الحَسحَاس ، بتحقيق: الأستاذ عبد العزيز الميمني ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
- ديوان سويد بن كاهل اليشكري ، جمع وتحقيق: شاكر العاشور ، مراجعة : جبار المعيبد ، دار الطباعة الحديثة ،البصرة ، ١٩٧٢ م .
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- ديوان طرفة بن العبد البكريّ ، مع شرح يوسف الأعلم الشنتمري ، اعتنى به : مكس سلغسون ، مطبعة برطوند، مدينة شالون ، ١٩٠٠.
- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق : درية الخطيب ، ولطفي الصقال ، دائرة الثقافة والفنون، البحرين ، المؤسسة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية:٢٠٠٠م.
- ديوان عنترة بن شداد ، حققه : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- ديوان عنترة ، تحقيق ودراسة ، محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ،١٩٧٠م.
- ديوان القطاميّ ، تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي ، أحمد مطلوب ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٩٦٠م .
- ديوان قيس بن الخطيم ، حققه : د.إبراهيم السامرائي ، وأحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى:١٣٨١هـ - ١٩٦٢م .
- ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق : عبد الستار أحمد فرَّاج ، دار مصر للطباعة ، الفجالة ، (د.ت) .
- ديوان النابغة الذبياني : تحقيق وتقديم : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- ديوان الهذليين ، المكتبة العربية ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥.
- رسالتان في اللغة ، أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني(ت٣٨٨هـ)، تحقيق : إبراهيم السامرائيّ ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٤م .
- رصف المباني في شرح حروف المعاني ، لأحمد بن عبد النور المالقيّ(ت٧٠٢هـ)، تحقيق : أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة زيد بن ثابت : ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الثناء الألوسي محمود شهاب الدين أبو الفضل(ت١٢٧٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .
- زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزيّ القرشيّ البغداديّ(ت٥٩٧هـ) ، حققه وكتب هوامشه : د . محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، خرج أحاديثه : أبو هاجر السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى : ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
- زهر الآداب وثمر الألباب ،لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصريّ القيروانيّ(ت٤٥٣هـ) ، شرح : د. زكي مبارك ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجليل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة : ١٩٧٢ م .
- سبب وضع علم العربية ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : مروان العطية ، دار الهجرة ، دمشق ، الطبعة الأولى : ١٩٨٨م .

- سر صناعة الإعراب ، أبي الفتح عثمان بن جنِّيّ (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : د . حسن هنداوي، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى : ١٩٨٥م .
- السنن الكبرى ، لأبي بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي(ت٤٥٨هـ) ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
- شرح ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيليّ الهمدانيّ المصريّ(ت٧٦٩هـ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الرابعة : ١٩٨٥م.
- شرح الأشعار الستة الجاهلية ، للوزير أبي بكر بن أيوب البطليوسي ، تحقيق : ناصف سليمان عواد : دار الحرية للطباعة ، بغداد ،١٩٧٩م .
- شرح أشعار الهذليين ، صنعة : أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج ، راجعه: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني القاهرة ،١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
- شرح الأشموني على ألفيَّة ابن مالك ، المسمى : منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
- شرح ألفية ابن مالك ، لأبن الناظم أبي عبد الله بدر الدين محمد بن الإمام العلامة جمال الدين محمد بن مالك ، تصحيح وتنقيح : محمد بن سليم اللبابيديّ ، مطبعة القديس جاورجيوس ، بيروت،١٣١٢هـ .
- شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق : د . صاحب أبو جناح، دار الكتب للطباعة والنشر الموصل ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- شرح ديوان جرير، تأليف : محمد إسماعيل عبد الله الصاوي ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت ، (د.ت) .
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة : أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانيّ ثعلب ، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م ، الدار القوميَّة للطباعة والنشر .
- شرح ديوان علقمة الفحل ، السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية بالقاهرة ، ١٩٣٥م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، تحقيق الدكتور: إحسان عباس ، مطبعة حكومة الكويت ،١٩٦٢م .
- شرح الرضي على الكافية ، رضيّ الدين الأستراباذي ، تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر ، الناشر مؤسسة الصادق ، طهران ، ١٣٩٨ ه - ١٩٧٨ م .
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ) ، تحقيق: عبد الغني الدقر ، الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق ، الطبعة الأولى : ١٩٨٤م .
- شرح القصائد التسع المشهورات ، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق : أحمد خطاب ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ،لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ(٢٧١-٣٢٨هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، ١٩٦٣م .
- شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي ، تحقيق : الدكتور : فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة :١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- شرح قطر الندى وبل الصدى ، تصنيف : أبي محمد عبد الله بن جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الحادية عشرة : ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .
- شرح المعلقات السبع ، أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزنيّ (ت٤٨٦هـ) ، تحقيق : محمد علي حمد الله ،المطبعة التعاونية ، دمشق، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م .
- شرح المفصل ، الشيخ موفق الدين بن يعيش النحوي (٦٤٣هـ) ، عالم الكتب ، بيروت،(ب.ت) .
- الشرط في القرآن الكريم ، د. عبد السلام المسدي ، د. محمد هادي الطرابلسيّ ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ،مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ، تونس ، ١٩٨٥م .
- شعر النابغة الجعدي ، عبد العزيز رباح ، منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق (د.ت).
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : أبو الحسين أحمد بن فارس ، تحقيق : مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ١٩٦٣م - ١٣٨٢هـ .
- صحيح البخاري ، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي(ت٢٥٦هـ)، طبعة بالاوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،١٤٠١ ه - ١٩٨١ م .
- صحيح مسلم بشرح النووي ، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الشافعي ، الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٧ ه - ١٩٨٧ م .
- العربية الفصحى ، نحو بناء لغوي جديد ، هنري فليش اليسوعي ، تعريب وتحقيق : عبد الصبور شاهين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٩٦٦م .
- علم الدلالة ، الدكتور : أحمد مختار عمر ، مؤسسة الفليج للطباعة ، دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، الطبعة الأولى :١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- علم الدلالة ، أف.آر. بالمر(١٩٨١م)، ترجمة : مجيد عبد الحليم الماشطة ، مطبعة العمال المركزية ، بغداد ، ١٩٨٥م.
- علم اللغة العام ، (الأصوات) ، دكتور : كمال محمد بشر، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٣م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دكتور : محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تأليف : أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، الأزديّ(٣٩٠-٤٥٦هـ)، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر، الطبعة الثانية :١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
- العين (كتاب العين) ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي(ت١٠٠- ١٧٥ه(، تحقيق الدكتور: مهدي المخزومي والدكتور: إبراهيم السامرائي ، مؤسسة دار الهجرة، مطبعة صدر، إيران ، الطبعة الثانية : ١٤٠٩ ه .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت١٢٥٠هـ) ، عالم الكتب ، (د.ت) .
- فرائد الأصول ، للشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٤-١٢٨١هـ) ، تحقيق : لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم ، مطبعة باقري، قم، الطبعة الأولى (د.ت) .
- الفصول في الأصول (أصول الفقه) ، لأحمد بن علي الرازي الجصاص (ت٣٧٠هـ)، دراسة وتحقيق للدكتور: عجيل جاسم النمشي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الأولى :١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

- فصول في فقه العربيَّة ، د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ودار الرفاعي بالرياض، مطبعة سقكسن ، الطبعة الثانية : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
- الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيلكلديّ بن عبد الله العلائيّ الدمشقيّ الشافعيّ (ت٧٦١هـ) ، تحقيق : د . حسن موسى الشاعر ، دار البشير، عمان ، الطبعة الأولى : ١٩٩٠م .
- فقه اللغة وسر العربيَّة ، لأبي منصور الثعالبيّ ، حققه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى : ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .
- في فلسفة اللغة ، دكتور محمود فهمي زيدان ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- في النحو العربي قواعد وتطبيق ، مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي للطباعة والنشر بيروت ، لبنان الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- القاموس المحيط ، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى الشيرازي ، موشى الحواشى بطراز العلامة الشيخ نصر الهورينى ، دار العلم للجميع ، بيروت – لبنان (د.ت) .
- الكافي (الفروع) ، تأليف : أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت٣٢٨-٣٢٩هـ) ، صححه وقابله وعلق عليه: علي اكبر الغفاري ، الناشر دار الكتب الإسلامية ، المطبعة : حيدري ، الطبعة الثالثة :١٣٨٨هـ .
- الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف ، تأليف : أبي العباس المبرد ، تحقيق : د . زكي مبارك ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الثانية : ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م .
- الكتاب ، كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت١٨٠هـ) ،تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني ، القاهرة ،الطبعة الثالثة : ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ الخوارزميّ(٤٦٧- ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).
- اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ (ت٥٣٨هـ) ، تحقيق : غازي مختار طليمات ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى : ١٩٩٥م .
- لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، قم ، الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ .
- اللغات السامية : نولدكه ، ترجمة : د . رمضان عبد التواب ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- اللغة ، ج . فندريس ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٠م .
- اللغة العربية معناها ومبناها ، د . تمَّام حسَّان ، مطابع الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م .
- اللغة والمجتمع ، الدكتور : علي عبد الواحد وافي ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ،١٩٧١م .

- اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ترجمة : د . عباس صادق الوهاب ، مراجعة : د. يوئيل عزيز ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الأولى : ١٩٨٧م .
- اللمع في العربية ، أبي الفتح عثمان بن جنيّ (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : حامد المؤمن ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير ، تحقيق : دكتور :أحمد الحوفي ، دكتور بدوي طبانة ، مطبعة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .
- مجاز القرآن ، صنعة : أبي عبيدة معمر بن المثنىالتميميّ(ت٢١٠هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد سزكين ، الناشر محمد سامي الخانجي الكتبي ، مصر الطبعة الأولى : ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م .
- مجالس ثعلب ، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب(٢٠٠-٢٩١هـ)، شرح وتحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة : ١٩٦٠م .
- مجمع البحرين ، الشيخ فخر الدين الطريحي(ت١٠٨٥هـ) ، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة وما بعده : محمود عادل ، تحقيق : أحمد الحسيني ، مكتب نشر الثقافة الإسلاميَّة ، الطبعة الثانية : ١٤٠٨هـ .
- مجمع البيان في تفسير القران ، تأليف أمين الإسلام أبي على الفضل بن الحسن الطبرسي ، حققه وعلق عليه : لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- المحتسب ، في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها ، لأبي الفتح عثمان بن جنيٍّ ، تحقيق :علي الجندي ناصف ، وآخرون ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ .
- مختصر المعاني ، سعد الدين التفتازاني ، منشورات دار الفكر ، المطبعة : قدس ، قم ، الطبعة الأولى : ١٤١١ ه .
- المخصص ، تأليف : أبي الحسن علي بن إسماعيل النحويّ اللغويّ الأندلسيّ المعروف بابن سيده (ت٤٥٨هـ) ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د.ت) .
- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، تأليف الدكتور : مهدي المخزومي ، مطابع دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة :١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- المذكر والمؤنث ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ(ت٣٢٨هـ) ، تحقيق : الدكتور طارق عبد عون الجنابيّ ، مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى:١٩٧٨م .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين بن أبى بكر السيوطيّ(ت٩١١هـ)، شرحه وصححه وعلق عليه : محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (د.ت).
- مسائل النحو الخلافيَّة بين الزمخشري وابن مالك ، الدكتور : فهمي حسن النمر ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٨٥م .
- مستقبل اللغة العربية المشتركة : د. إبراهيم أنيس ، القاهرة ،١٩٦٠ م .
- مسند الإمام احمد بن حنبل ، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، دار صادر، بيروت ، (د.ت) .
- مسند الحميدي (المسند) ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي (ت٢١٩هـ) ، حق أصوله وعلق عليه الأستاذ المحدث المحقق الشيخ : حبيب الرحمن العظمى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى :١٤٠٩ ه ١٩٨٨ م.
- مشكل إعراب القرآن ، لأبي محمد مكيّ بن أبي طالب القيسيّ (٣٥٥هـ - ٤٣٧هـ) ، تحقيق: حاتم صالح الضامن ، مطبعة سلمان الأعظميّ ، بغداد ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- المصطلح النحوي ، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، عوض أحمد القوزي ، شركة الطباعة العربية ، السعودية ، الرياض، الطبعة الأولى : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- معاني الحروف ، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرُّمانيّ النحويّ(٢٩٦-٣٨٤هـ) ، تحقيق : عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، العزيزيَّة ، الطبعة الثانية :١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .
- معاني القرآن : أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، وآخرون ،عالم الكتب ، بيروت ،الطبعة الثالثة:١٤٠١هـ - ١٩٨٣م .
- معاني القرآن ، صنفه : الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعيّ البلخيّ البصري(ت٢١٥هـ) ، تحقيق الدكتور: فائز فارس ، دار البشير ، دار الأمل : الطبعة الثانية : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- معاني القرآن الكريم ، للإمام أبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج أبي اسحق إبراهيم بن السَّريِّ (ت٣١١هـ) ، شرح وتحقيق: الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الثقافة العربيَّة للطباعة ، ١٩٦٩م .
- معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ، الدكتور: إسماعيل أحمد عمايره و الدكتور: عبد الحميد مصطفى السيد ، دار الفكر ، قم المقدسة ، مطبعة القدس ١٤١٠هـ.
- معجم الجملة القرآنية – القسم الأول: الحروف الزائدة في ضوء الدراسات القرآنية ، د. طالب محمد إسماعيل الزوبعي ، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٨م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق : الدكتور مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة :١٩٧٩م .
- مفاتيح الغيب ، أبو بكر الرازي(ت٦٠٦هـ) المطبعة البهيَّة ، مصر، (د.ت) .
- مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الأولى : ١٩٣٧م .
- المفصل في صنعة الإعراب ، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ) ، تحقيق : د . علي بو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٩٩٣م .
- المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الدكتور : كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق ، ١٩٨٢م .
- المقتضب ، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، (د.ت) .
- المقرَّب ، تأليف : علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الستار الجواريّ ، و عبد الله الجبوريّ ، مطبعة العاني ، بغداد الطبعة الأولى : ١٣٩١هـ- ١٩٧١م .
- من أسرار اللغة ، د . إبراهيم أنيس ، القاهرة ، الطبعة الثانية : ١٩٥٨م .
- مناهج البحث في اللغة ، تمّام حسَّان : مكتبة الأنجلو المصريَّة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٥م.

- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : د . نعمة رحيم العزاويّ ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار إحياء الكتب العربيَّة ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة : ١٣٧٢هـ .
- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي ، د. محمد كاظم البكَّاء ، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، بغداد ، الطبعة الأولى : ١٩٨٩م .
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواريّ(ت١٩٩٦م) ، مطبعة الديواني ، بغداد ، الطبعة الثالثة : ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- الميزان في تفسير القرآن ، تأليف : السيد محمد حسين الطباطبائي(١٤٠٢هـ) ، طبع ونشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة ، ١٤٠٢هـ .
- النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ، الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، مصر ، الطبعة الأولى : ١٩٨٣م .
- نشأة دراسة حروف المعاني ، د. هادي عطيَّة مطر، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، سلسلة الموسوعة الصغيرة ،١٩٨٥م.
- النشر في القراءات العشر ، تأليف : محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري(ت٨٣٣هـ) ، تحقيق : محمد حميد دهمان ، مطبعة التوفيق ، دمشق ، ١٣٤٥هـ .
- نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغيا ، الدكتور : هادي عطيَّة مطر الهلالي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، د . نعمة رحيم العزاويّ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية ، تأليف ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ (ت٩١١هـ) ، تصحيح : محمد بدر الدين النعساني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، (د.ت) .
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة تأليف : الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي(ت١١٠٤هـ) نشر وتحقيق : مؤسسة آل البيت Γ لإحياء التراث ، قم المشرفة ، المطبعة : مهر – قم ، الطبعة الثانية:١٤١٤هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ) ، حققه : د.إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، مطبعة الغريب ، ١٩٧٣م .

ثانياً : الرسائل الجامعية :

- البيان في شرح اللمع لابن جني ، لأبي البركات العلويّ الكوفيّ (ت٥٣٩هـ) ، أطروحة دكتوراه مخطوطة ، تقدم بها حمَّادي محمد راضي العوادي إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

- التضمين بين حروف الجر في القرآن الكريم ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدم بها خليل إسماعيل العاني إلى كلية التربية جامعة بغداد ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- الجملة العربية وتطورها الدلالي بين النحويين والأصوليين ، أطروحة دكتوراه مخطوطة ، تقدم بها : صالح مهدي الظالميّ إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة الكوفة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- حروف المعاني في معجم لسان العرب ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدم بها : يوخنا مرزا خامس يوخنا إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة تكريت ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- كتب حروف المعاني حتى القرن الثامن الهجري ، دراسة منهجيَّة ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدمت بها : إقبال عبد الصاحب جعفر إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة الكوفة ،١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .
- لغة الشعر في هاشميات الكميت ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدم بها رزاق عبد الأمير مهدي الطيار إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة الكوفة ،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- النحو في شروح المعلقات ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدم بها : موسى حسين مشهد الموسوي إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة الكوفة ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- النداء في العربيَّة ، رسالة ماجستير مخطوطة ، تقدَّم بها : سعد حسن عليوي ، إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

ثالثاً : الأبحاث :

- طبيعة الحرف والمعنى الحرفي عند الأصوليين ، رزاق عبد الأمير الطيار ، مجلة الكوفة ، تصدر عن رئاسة جامعة الكوفة ، العدد الثاني ٢٠٠٥م .
- عمرو بن كلثوم التغلبي ، حياته وما تبقى من شعره ، الدكتور : محمد فتاح عبيد الجباري ، مجلة اللغة العربية وآدابها ، مجلة فصلية علمية محكمة ، تصدر عن جامعة الكوفة - كلية الآداب ، العدد الرابع: آب – ٢٠٠٣م ، الصفحات (٩٣ - ١٨٢) .
- المعنى الحرفي في اللغة بين النحو والفلسفة والأصول ، للأستاذ محمد تقي الحكيم ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ،١٩٦٧م .

رابعاً : الأبحاث الإلكترونية:

- الإبداع اللفظي في القرآن الكريم ، دراسة نقدية : (بحث إنترنيت) للدكتور سليمان عبد الله موسى أبو غرب .
- أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى (بحث إنترنيت) ، للدكتور رشيد بلحبيب ، منشور في موقع : (نحو العربية) .
- التفكير الدلالي عند العرب ، دراسة تأصيلية ، د. عبد القادر سلامي (بحث إنترنيت) ، منشور في (ديوان العرب ، مجلة فكريَّة ثقافية شهرية إلكترونية) عدد : كانون الثاني : ٢٠٠٥م .

خامساً : المكتبات الإلكترونية والبرمجيات:

- مصحف النور للنشر المكتبي ، الإصدار الثاني ،٢٠٠١م ، إصدار شركة سيمافور للتقنية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، يوفر هذا البرنامج إمكانية البحث في المصحف ونسخ الآيات إلى محرر النصوص مثل برنامج الـ(وورد) ، محافظا على الرسم

الإملائي للنص القرآني مضبوطا بدقة عالية ، يمكن تحميله مجانا من الشبكة العالمية من الموقع : (www.nooor.com) أو (www.deeen.com) .

- المعجم ، الإصدار الثالث ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، إصدار مركز المعجم الفقهي ، الحوزة العلمية بقم المشرفة ، يضم هذا الإصدار (٣٠٦٣) مجلدا تمثل أهم المصادر الثقافية الإسلامية لاثني عشر فرعا من فروع العلوم الإسلامية لمختلف المذاهب من فقه وأصول وتفسير وحديث وتاريخ ولغة وأدب وغيرها ، الموقع على الشبكة العالمية : (www.almarkaz.net) .
- مكتبة الأدب العربي ، الإصدار الأول ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، إعداد: مركز الخطيب ، الإشراف العلمي : مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي ، عمان ، الأردن ، تحتوي هذه المكتبة على (٣٢) عنوانا لأمات مصادر الأدب العربي القديمة والمهمة في الدراسات العربية ، الموقع على الشبكة العالمية :(www.turath.com) .
- مكتبة التفسير وعلوم القرآن ، الإصدار(١,٥) ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ، إعداد: مركز الخطيب ، الإشراف العلمي : مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي ، عمان ، الأردن، تحتوي هذه المكتبة على (٧٤) عنوانا تشتمل على عدد من تفاسير المذاهب السنية المهمة ، وعدد من كتب علوم القرآن المختلفة ، وبعض المعاجم ، الموقع على الشبكة العالمية :(www.turath.com) .
- مكتبة الفقه الإسلامي ، الإصدار الرابع ، شركة العريس للكومبيوتر، السعودية ، تحتوي هذه المكتبة على عدد كبير من كتب التفسير والحديث والفقه السنية، وهي المكتبة الوحيدة التي حوت تفاسير: الكشاف ومفاتيح الغيب والبحر المحيط .
- مكتبة المعاجم والغريب ، الإصدار الأول ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، إعداد: مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي ، عمان ، الأردن ، تحتوي هذه المكتبة على (٢٣) عنوانا تمثل تسعة من المعاجم الرئيسة في اللغة العربية وبعض كتب التعريفات والمصطلحات ، الموقع على الشبكة العالمية :(www.turath.com) .
- مكتبة النحو الصرف ، الإصدار الأول ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ، إعداد: مركز الخطيب ، الإشراف العلمي : مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي ، عمان ، الأردن ، تحتوي هذه المكتبة على (٣٠) عنوانا لمصادر النحو والصرف القديمة والمهمة في الدراسات العربية ، الموقع على الشبكة العالمية :(www.turath.com) .
- الموسوعة الشعرية ، الإصدار الثالث ، تصدر عن المجمع الثقافي ، دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٩- ٢٠٠٣م، المشرف العام محمد أحمد السويدي ، لجنة الموسوعة ، حاتم الضامن وآخرون ، يضم الإصدار الثالث (٢,٤٣٩,٥٨٩) بيتا من الشعر موزعين على (٢٣٠٠) شاعر منذ عصر قبل الإسلام حتى سنة ١٩٥٣م ، وتحوي أيضاً (٢٦٥) مصدرا من مصادر الأدب العربي واللغة الرصينة والمعتمد عليها . الموقع على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنيت) :(www.cultural.org.ae).
- نور-٢ ، جامع الأحاديث ، إصدار مركز البحوث الكومبيوترية للعلوم الإسلامية ، يحتوي هذا البرنامج على (١٨٧)عنوان كتاب في (٤٤٢) مجلد لـ(٩٠) مؤلفا تركز على كتب الحديث والرجال والتراجم والمعاجم ، فضلا عن نص كامل للقرآن الكريم مع إحصاءات دقيقة جدا ومفصلة لجميع كلمات المصحف وحروفه ، وهذه الميزة قد لا توجد في غيره ، الموقع على الشبكة العالمية :(www.noorsft.org) .

The chapter has also presented the two theories of "alternation and affirmation" which were used to deal with the multi meaning of the preposition. The chapter ends with the conclusion on that the two theories are not exempt from criticism .

In chapter two the study dealt with a new theory which can be applied to deal with problem of multi meanings of prepositions . it was entitled "The Central Connotation and Peripheral Connotation" . This theory was applied to two – letter and three – letter prepositions successfully .

As for the third chapter entitled " The Effect of Quranic Context in the Meaning of Letters " , it specified and limited with numbers the places of Quranic improvement of meaning of two – letter and three – letter prepositions .

This was in two sections . the first was dedicated for revealing the meanings used and improved by the Holy Quran ; the second section was dedicated for the Quranic use of new meanings.

It was found that there were five central meanings created by the Quran . There were also fourteen peripheral meanings which were not used before the revelation.

This was the most important finding of the research through which the study could prove the theory presented at the outset of chapter three which is " the Quranic context is an essential influence in the improvement of the meanings of preposition " .

There are other findings which have been found by the study . foremost of which is the amount of using two – letter prepositions by the Quran (48%) over what was with the Arab poets . the three – letter prepositions (42%) over what was used by the Arab poets .

Most of the two – letter prepositions used in Quran were (from - min- مِنْ) and so was the case in poetry . The less widely used preposition was (what - ayإيْ) which indicates the answer . And in the poetry, the less used preposition was (wa وا) which was not used by the Quran.

In general the Quran has used the two – letter and tree – letter prepositions widely .

These are the most important findings . One can refer to the graphs at the end of the study in order to review the findings.

Abstract

The meanings of two - Letter and Three – Letter prepositions in The Holy Quran and The Diwans of poets of The " Seven Suspended Poems "

This study shows the effect of the Holy Quran in the development of Arabic language as we believe that the Holy Quran has enriched Arabic language with great creative energies which have not reached before its revelation though it has got to an advanced stage of development .

In order to know the amount of Quranic development in the use of the sort of preposition known in Arabic as : Huroof al-ma'ani , (Huroof al – mani) and specify its size and places, the study has chosen the two – latter and Three – latter prepositions in order to investigate their Quranic uses . In order to know this development , the Quranic uses were compared with another texts of rhetoric which represent the best rhetoric al ones before the revelation of Quran .

This texts were quoted from the poetry of " The Suspended Poems ". The study has chose the Diwans of The Seven Suspended Poems according to Al – zozani version . their poets were : Umru'a aL – Qeis (80 b.h) ; Turaf bin AL – Abd (60 b.h) ; AL – Harith bin Hilleza (54 b.h) ; Amr bin Kalthoom (39 b.h) ; Antara bin Shadad (22 b.h) ; Zuhair bin Abi Salma (13 b.h) ; Labeed bin Rabia AL – Amiri (41 a.h) .

The Study has investigated the use of two – Letter and three - Letter prepositions in their Diwans and balanced the Quranic use with them . That was in three chapters the first chapter entitled "the preposition : its whatness , its place in language and use . This is a theoretical chapter which explained the meaning of the prepositions and its place among the parts of speech in Arabic and the ancient and modern Arab philologist's view point of its nature and function .Also the Speech levels in the use of words and how to change the means of eliciting the meaning according to the different levels speech .





The meanings of two - Letter and Three – Letter prepositions in The Holy Quran and The Diwans of poets of The " Seven Suspended Poems "

A dissertation submitted by :

Razzaq abdul – amir aL – tayyar

To :

The council of the college of Education (ibn Rushd) University of Baghdad

In

Partial fulfillment for the Requirements of the Degree of Philosophy Doctorate (Ph.D) in Arabic Language and Literature

Under the Supervision of :

professor Dr. Ni'ama raheem AL – Azzawi

1426 (A.H) 2005 (A.D)